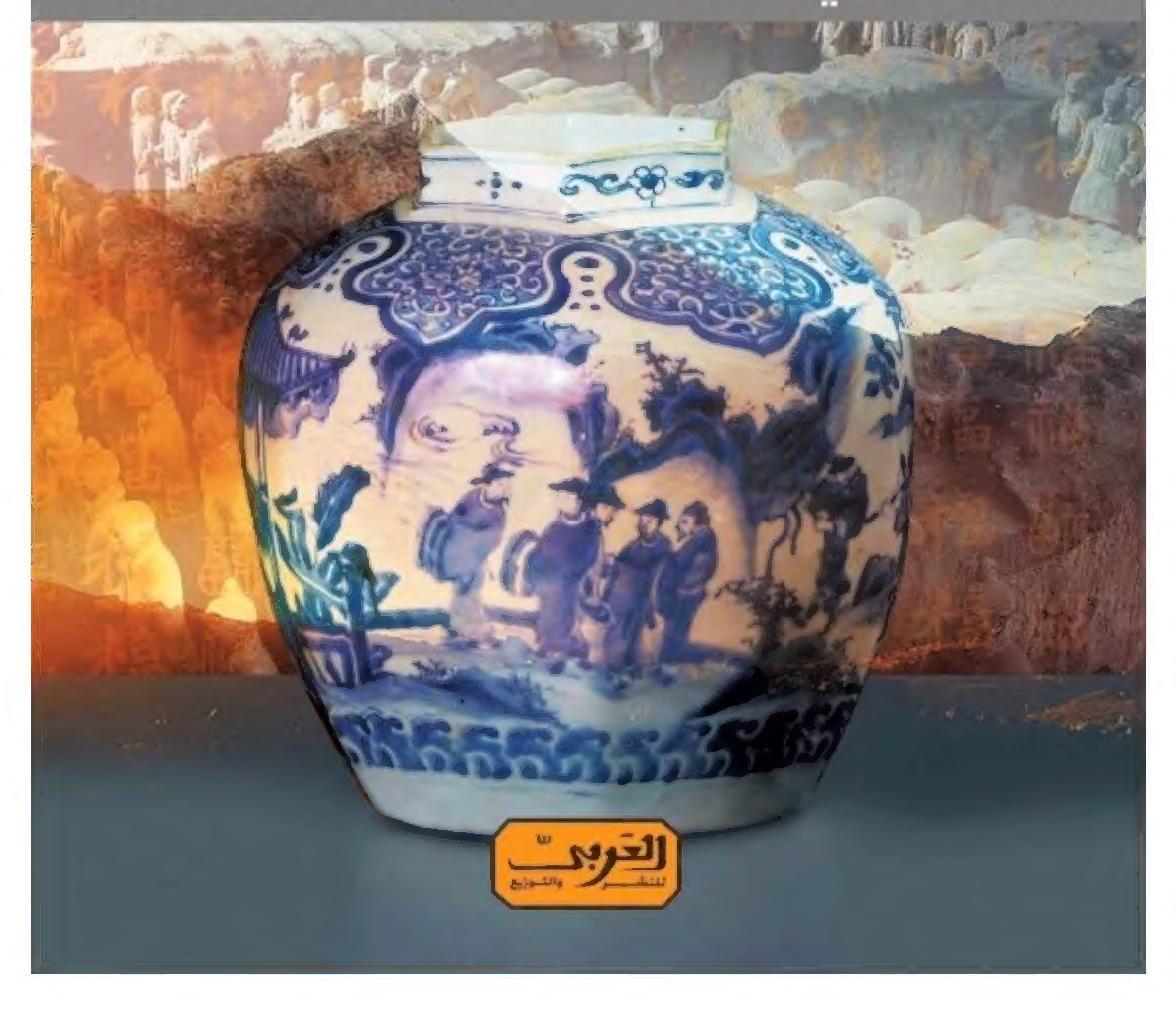
تأليف: مايكل ديلون

مختصر تاريخ الصين

ترجمة: نانسي محمد

تقديم: د. أحمد السعيد



مختصر تاريخ الصين

مايكل ديلون

ترجمة: نانسي محمد

مراجعة: أحمد السعيد

تدقيق لغوي: فاطمة محمود، وعلي راشد

الطبعة الأولى: نوفمبر 2018

رقم الإيداع: 13926/2018

الترقيم الدولي: 9789773194253

الغلاف: خالد شريف

60 شارع القصرالعيني 11451 - - القاهرة

ت: 27954529 - 27921943 فاكس:27947566

www.alarabipublishing.com.eg

بطاقة فهرسة

ديلون، مايكل

مختصر تاريخ الصين/ مايكل ديلون، ترجمة: نانسي محمد، القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018 - ص؛سم تدمك: 9789773194253

تاريخ الصين

تاريخ

نانسي، محمد مترجم

أ- العنوان 951

This Arabic edition published in 2018

by Wisdom House



中国古代简史

"مختصر طريق الصين"

تمت الترجمة بشركة العربي للنشر والتوزيع

B&R Book Program

المقدمة

قراءة مستفيضة لصحوة التّنين

تاريخ ربع العالم

تقديم: د. أحمد السعيد(1)

يقول ابن خلدون في مقدمته البديعة: "التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال: مثل التوجس، والتآنس، والعصبيات، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول، ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش، والعلم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعة الأحوال". أما وينستون تشرتشل فيقول عن التاريخ: "أدرسُ التاريخ، أدرسُ التاريخ، فهناك تكمن أسرار الحكم".

وبالنظر لعالم اليوم، يتراءى للعيان تقدُّمًا سريعًا للصين في كل مناحي الحياة، فهي القوة الاقتصادية الثانية في العالم، كما أصبحت لاعبًا دوليًّا في كل القضايا، ولا نبالغ إذا قلنا إن حياة كل فرد منا تتأثر بالصين بشكل أو بآخر، حيث هناك من يقول إن أكثر جملتين يفهمهما كل سكان العالم في كل أنحائه هما: "I love You" و"Made In China" .

والصين التي تضم خُمس سكان العالم بتعداد يصل إلى مليار ونصف المليار نسمة، تملك أيضًا من التاريخ خمسة آلاف عام، يتباهى الصينيون بأنه تاريخ متصل لم ينقطع يومًا، وأنها الحضارة الوحيدة الباقية كما هي بلا تغيُّر كبير.

والصين مرَّت كغيرها من الأمم بمراحل تاريخية عديدة من التفرق والحروب الداخلية ثم الوحدة والنهضة ثم السقوط ثم الازدهار ثانية ثم التأثير ثم التعرض للاحتلال ومقاومته ثم بناء الدولة الحديثة، كما أن للصين إنجازات

عديدة ساهمت في نهضة البشرية وأثرّت التاريخ الإنساني ككل، ويقول بعض المؤرخين الصينيين: "إن التاريخ لو لم يكتبه مؤرخو الغرب لكان للصين دور يلقى اعترافًا أكبر في عملية تشكيل وتطور البشرية".

وهذا الكتاب الذي نقدم له كتبه أحد المؤرخين الغربيين، المؤرخ وباحث التاريخ الشهير مايكل ديلون، وهو مؤسس مركز الدراسات الصينية المعاصرة بجامعة دورهام البريطانية، والمحاضر في قسم دراسات شرق آسيا بالجامعة ذاتها. وتخصصه الرئيس هو التاريخ الصيني والسياسة والمجتمع والصيني. ويحمل درجة الماجستير والدكتوراه في الدراسات الصينية في جامعة ليدز البريطانية، كما أنه عضو في الجمعية الملكية للتاريخ وجمعية آسيا الملكية للدراسات التاريخية، ويتميز هذا العمل الذي يسرد تاريخ الصين في شكل مختصر وتسلسل سلس بميزتين: أولاهما؛ المصداقية، حيث إن مؤلفه أمريكي وليس صينيًا وبالتالي يرى الصين من منظور الآخر وليس منظور الأنا، وثانيهما هو الدقة، حيث اعتمد المؤلف على الكثير من المراجع الصينية والأجنبية التي ربما لا تتوفر لمؤرخ صيني يكتب من منظور الصين أو مؤرخ غير صيني ينظر للصين من خلال المراجع الأجنبية فقط.

والصين التي نتناولها اليوم تمتلك من التاريخ بحسب إجماع المؤرخين خمسة آلاف عام متصلة، وإن كانت العلاقات التاريخية بين الصين والعرب تعود لأكثر من ألف عام حسب ما هو مدون بالسجلات التاريخية الصينية، إلا أننا في عالم اليوم لا نعرف الكثير عن هذا التاريخ المشترك، كما تندر الأبحاث والدراسات العربية التي تتناول بشكل مفصل تاريخ علاقات الصين والعرب، ويكاد ينحصر ذكر الصين في دراساتنا التاريخية عند المقولة المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم، "اطلبوا العلم ولو في الصين"، وأحيانًا يستدل بها على البُعد المكاني للصين، كما استوعبها بذلك الشاعر العربي الكبير نزار قباني وأوردها في قصائده كمكان يدل اسمه على البعد الجغرافي وكأنها في نهاية العالم بالنسبة لنا، أو فهمها آخرون على أن الصين كانت بلدًا ذا علم وحضارة ولكن لم

يحدث أن استفدنا تاريخيًّا من علومها وحضارتها، وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك بعض الأبحاث الصينية الحديثة التي تُعيد سرد وتأريخ الحضارتين العربية والصينية لتصل لنتيجة أن أوربا الحديثة قبل مئات السنين قد اعتمدت في نهضتها على منجزات الحضارتين الصينية والعربية، مثل الطب والكيمياء وعلوم النبات والحسابات الفلكية والزراعة وغيرها، وتشتهر الصين بأنها صاحبة أشهر أربعة اختراعات للبشرية، أو كما يسميها الصينيون "الاختراعات الصينية الأربعة الكبرى": وهي البارود والبوصلة والورق والطباعة، والتي نُسبت بعد ذلك للحضارة الغربية وأصبحت من أهم أسباب نهضتها.

ويمكن القول إننا ظلمنا الصين في دراستنا التاريخية وتخصصاتنا، وذلك على الرغم من التقارب الكبير بين حضارتنا وحضارتهم، حيث كلنا شرق وكلنا وقعنا فريسة الغزو الغربي والغربنة والاحتلال لسنوات، وها قد آن الأوان لنقترب أكثر من عالم التِّنين ونشاهده عن قرب علّنا نستخلص العظات والفوائد من الوقوف على تاريخ الصين التي تحولت في الأربعين عامًا الأخيرة، لمعجزة عالمية بكل المقاييس صنعت نهضتها بنفسها وشقَّت طريقها المتميز بمفردها وأثرت في عالم اليوم.

وبنظرة سريعة لتاريخ الصين نجد أنه يتكون من عدة حقب زمنية رئيسة وهي:

م	الحقبة الزمنية	تاريخها
1	عصر أسرة شيا	70 ق.م— 1600 ق.م
2	عصر أسرة شانغ	1600 ق.م— 1046 ق.م
3	عصر أسرة تشو الغربية	1046 ق.م— 771 ق.م
4	فترة الربيع والخريف	770 ق.م— 476 ق.م
5	فترة الممالك المتحاربة	475 ق.م— 221 ق.م
6	عصر أسرة تشين (ومنها جاء اسم الصين الحالي)	221 ق.م— 206 ق.م
7	هان الغربية	202 ق.م— 8 م
8	هان الشرقية	25 م— 220 م
9	الممالك الثلاثة	220 م— 280 م
10	جين الغربية	266 م— 316 م
11	جين الشرقية	317 م— 420 م
12	تشاو الجنوبية والشمالية	420 م— 589 م
13	سوي	581 م— 618 م
14	تانج	618 م— 907 م
15	العصور الخمسة	907 م— 960 م
16	لياو	916 م— 1125 م
17	سونج الشمالية	960 م— 1127 م
18	شيا الغربية	1038 م— 1227 م
19	جين	1115م م— 1234 م
20	سونج الجنوبية	1127 م— 1276
21	يوان (وهو عصر المغول)	1271 م— 1368 م
22	مينغ	1368 م— 1644 م
23	تشينغ	1636 م— 1911 م
24	جمهورية الصين	1912 م— 1949 م
25	جمهورية الصين الشعبية	تأسست في عام 1949

وهذا الكتاب الذي أسماه مؤلفه "مختصر تاريخ الصين" والذي حاول اختصار كل مراحل التاريخ الصيني داخله في شكل مبسط وسلس ومختصر، يضم عشرين فصلًا استهلت بالأول الذي يتناول بدايات الأمة الصينية منذ عصر ما قبل الوحدة الصينية قبل خمسة آلاف عام تقريبًا، ويمهد الفصل الأول لتكوين الأمة الصينية التي تعود بعض آثارها لأكثر من عشرين ألف عام، كما أن هناك بعض النقوش الصخرية التي ما زالت باقية تعود لـ11 ألف عام من التاريخ وتضم بعضها رسومًا لما سُمي بإله الشمس، وهو وجه يشبه قرص الشمس ويقترب في تصويره لآمون إله الشمس في الحضارة المصرية، وينتهي الكتاب

بالفصل العشرين الذي يختم مرحلة ما قبل قيام دولة الصين الشعبية الجديدة، حيث يلخص الفصل العشرون قصة سقوط آخر الأسر الإقطاعية في الصين عام 1911 وقيام دولة جمهورية الصين الأولى حتى العام 1949، وما بين الفصل الأول الذي يؤرخ لإنسان بكين البدائي الأول، والفصل العشرين الذي ينتهي ببداية وجود الصين المعاصرة أو ما نسميه إنسان بكين المعاصر، وما بين الأول والعشرين ينقلنا الكتاب عبر 18 فصلًا هم رحلة زمنية ممتعة تأخذنا مع كل مرحلة وفترة من فترات الصين الـ24، فيحلل معالمها التاريخية ويسرد قصصًا عن حكامها وأشهر إنجازاتهم، وبنظرة سريعة للمحتوى نجد الفصل الثاني يحكي كيف تكوّن المجتمع الصيني واكتسبت ثقافته وولدت دولته الصغيرة في بدايتها، والفصل الثالث الذي يطوف بنا بين المدارس الفكرية الصينية الشهيرة والتي ما زالت باقية حتى الآن وبداية تكونها وانتشارها، ثم الفصل الرابع الذي يدخل بنا عصر الصين الموحدة التي أسستها دولة "تشن" وجاء منها اسم الصين الحالي، ثم الفصل الخامس الذي يتناول أهم الأسر الصينية الحاكمة وهي أسرة "هان" وقد جاء منها نسل 93% من الصينيين المعاصرين، حيث تتكون صين اليوم من 56 عرقية، تُعد "الهان" أكبرها بتعداد يتخطى المليار نسمة، ويتناول الفصل السادس الاستقرار الزراعي الذي تبعه منتوج ثقافي وفكري شكل الجزء الأكبر من حضارة وفكر الصين الحالية، ويدخل بنا الفصل السابع حقبة زمنية مليئة بالتشويق والإثارة حيث بداية الحروب الطويلة والنزاعات بين ممالك الصين وعصر الممالك الثلاثة، ويؤرخ الفصل الثامن لهذه المرحلة ثقافيًا وسياسيًا قبل أن ينتقل الفصل التاسع لسرد عصور الممالك التي سيطرت على الصين فيبدأ بعصر أسرة "سوي"، والفصل العاشر والأهم هو الذي يتناول العصر الذهبي للصين القديمة وعصر الازدهار الذي لم يحدث له مثيل في تاريخ الصين وهو عصر أسرة "تانج" والذي كانت فيه الصين إمبراطورية تصل لكل مكان تسقط عليه أشعة الشمس، ولأن لكل نهضة سقوط، يسرد لنا الفصل الحادي عشر قصة انحدار الصين في نهايات عصر "تانج" وصعود أسرة "سونج" وهي مرحلة تشبه إلى حد كبير الدولة

الوسطى في الحضارة الفرعونية، حيث يستعرض الفصل الثاني عشر قصص الممالك والدول التي جاءت بعد عصر "تانج"، ويلخص الفصل الثالث عشر آثار ومنجزات عصريّ تانج وسونج قبل أن ينتقل بنا الفصل الرابع عشر لحقبة مغايرة تمامًا من تاريخ الصين وهي حقبة لها علاقة وصلة بتاريخنا العربي حيث عصر أسرة "يوان" والتي هي المغول في تاريخنا، وفيها سقطت تمامًا حضارة الصينيين الأصليين "الهان" واستقرت الأمور في يد المغول والقادمين من آسيا الوسطى وهي بالمناسبة الفترة التي شهدت أكبر انتشار واستقرار للإسلام في الصين، وفي الفصل الخامس عشر نتعرف على أحداث انتقال الحكم ليد الصينيين الأصليين مرة أخرى وتأسيس عصر أسر "مينغ" الشهيرة والتي كانت آخر أسرة إقطاعية من أصول صينية تحكم الصين والتي شهدت بدايات الانغلاق الصيني الكبير، غير أنها في بعض فتراتها شهدت أحداثًا دولية مهمة مثل رحلات البحار الصيني "تشينغ خه" إلى المنطقة العربية وهو يقود أسطولًا بحريًا تجاريًا من أكثر من ألفي سفينة محملة بالبضائع، ثم يسرد الفصل السادس عشر نهايات أسرة مينغ والحروب والصراعات التي شهدتها وبداية عصر أسرة تشنج آخر الأسر الإقطاعية وأكثرها إضرارًا بالصين، وهو ما يوضحه ويفنده الفصل السابع عشر حيث يتناول مراحل الخضوع التام للإقطاع وسيطرة الأفيون على أدمغة أباطرة الصين، ثم يلخص الفصل الثامن عشر نتاج الفكر والفلسفة والثقافة والسياسة والمجتمع في عصري مينغ وتشينغ آخر العصور الإمبراطورية في الصين، وبالطبع يصل الفصل التاسع عشر لقصص حروب الأفيون المتتالية والسيطرة الأجنبية على الصين وتمرد الملاك والتذمر الشعبي الذي أدى في النهاية لفصلنا الأخير من الكتاب الذي يختتم بانتهاء الإقطاع وقيام جمهورية الصين الأولى في بدايات القرن العشرين، حتى نصل مع المؤلف لصين اليوم التي تأسست على يد "ماو" ورفاقه في الحزب الشيوعي في الأول من أكتوبر عام 1949.

وكما نرى، فتاريخ الصين الممتد لأكثر من خمسة آلاف عام عبر 24 مرحلة زمنية شهد الكثير من الأحداث التي أثرت في البشرية ومسيرة تقدمها، كما

كان لطريق الحرير بشقّيه البري والبحري، دور عظيم في التواصل الثقافي والإنساني بين البشر، وإن كانت المراجع التاريخية الغربية لم تستفِض في سرد تاريخ الصين ودورها المحوري في نهضة البشرية تاريخيًّا، إلا أنه من خلال المراجع الصينية الموثوقة يمكن الوصول إلى دلائل تاريخية واضحة تؤكد منجزات صينية على مرّ التاريخ، وبخاصة في العصر الذهبي التاريخي للصين وهو عصر أسرة "تانج" والذي كانت الصين فيه في وضع دولي يشبه وضعها الآن كمركز تجاري دولي ومصنع للعالم لا تفارق صفوف سفن البضائع موانئها، حتى أنه في مدن الجنوب الصيني ذات الموانئ الكبيرة كانت هناك أحياء كاملة تسمى "أحياء الأجانب"، يقطنها التجار الأجانب الذين قدموا للصين لاستيراد البضائع، حتى أنه في بعض متاحف الصين توجد بعض المعروضات اليونانية والرومانية التي تدل على تواصل مزدهر بين الصين والغرب قبل آلاف السنين، بل حتى في القاهرة وجدت بعض البقايا من الخزف الصيني التي يعود عمرها لأكثر من ألف عام.

إذًا لماذا نحتاج لقراءة تاريخ الصين؟

الإجابة على هذا السؤال تحددها أهمية الصين في عالم اليوم أولًا، فنحن نعرف الكثير والكثير عن تاريخ أوربا وأمريكا، ولكننا لا نعرف أقل القليل عن التاريخ الفعلي والواقعي للصين، والأمس كان عصر النهضة الأوربية، أما اليوم فهو بلا شك بداية النهضة الصينية الكبرى التي أصحبت قوة عالمية يزداد دورها في النمو يومًا بعد يوم، ونحن في حاجة ملحّة للتعرف على تاريخ الأمة صاحبة هذه النهضة؛ لأننا فقط بمعرفة التاريخ يمكننا التنبؤ بالمستقبل، وبدراسة تاريخ أمة، يمكن الوقوف على حقائقها الثابتة وصفاتها الإنسانية التي لا تتغير بتغير الزمن، والسبب الثاني الذي يستدعي التعرف على تاريخ الصين، هو أننا في عالم واحد وتجمعنا إنسانية واحدة ولكننا لا نعرف الكثير عن رُبع أفراد هذا العالم، بل يمكن القول إن حضارات آسيا وأمريكا اللاتينية ليست محل اهتمام فردي أو أكاديمي في منطقتنا العربية، ومعرفة الصين عن طريق

تاريخها هي خطوة من خطوات تحرر العقل العربي من هيمنة الثقافة الغربية ومحاولة لإعادة تقييم علاقاتنا بالآخر، أيًا كان هذا الآخر، علّنا نتعلم من أخطاء علاقتنا بالغرب ونقيم مع الشرق (الصين والهند) علاقات متوازنة بلا تبعية ولا تنازلات ولا هيمنة لطرف على طرف، وهذا سيتحقق فقط حينما نتعرف على الآخر جيدًا، وليس هناك من وسيلة أفضل من التاريخ ليكشف لنا ماهية ذلك الآخر.

ونحن نتحدث عن صين اليوم، يمكن أن نستشهد بما قاله الباحث البريطاني مارك ليونارد في كتابه (بماذا تفكر الصين)، حيث يقول: "ما هو معروف عن الصين، ليس سوى نذر يسير بالقياس إلى ما هو مجهول، وذلك بسبب السرعة الهائلة التي تتغير بها الصين لدرجة أنه ينبغي إعادة النظر بخريطة شنغهاي مثلًا، كل أسبوعين". ويستشهد ليونارد على تسارع وتيرة التحول الصيني بقوله: "300 مليون صيني قد احتاجوا إلى 30 عامًا فقط ليلتحقوا بعصر الحداثة، بينما احتاج نفس العدد من الأوربيين إلى 200 عام لتحقيق النتيجة ذاتها". وإذا كان الأوربيون أنفسهم لا يعرفون الكثير عن الصين فنحن كعرب بهذا المعيار لا نعرف أي شيء، وليس أمامنا سوى التاريخ الصيني نبدأ منه للوصول إلى معرفة لا ترتكن إلى آراء غربية غير محايدة.

في أحد الاجتماعات صرح وزير الخارجية الصيني بما نصه: "ليست لدينا أي نية للحلول مكان أي أحد أو أن نقود أي أحد"، فهل معنى ذلك أن الصين لا تنوي ولا تخطط بالفعل لقيادة العالم في العقود المقبلة؟!

إن مناقشة هذا التساؤل الحيوي المؤثر بالطبع في مستقبل كل فرد منا، بحاجة إلى فهم عميق للثقافة والتاريخ الصيني، فدولة تضرب بجذورها في التاريخ بعمق خمسة آلاف عام لن تفكر بطريقة مماثلة للفكر الاستراتيجي الأمريكي، وهذه مسألة مهمة لأن التاريخ يفرض بصماته على الفكر الاستراتيجي الصيني، ويجعل القادة الصينيين يديرون أمور بلادهم بشكل مختلف عن النسق الغربي.

والأمم التي تريد مواصلة الحياة فقط هي التي تتعلم من تجارب التاريخ، وتنظر باحترام إلى تجارب الآخرين، وتستلهم روحها دون أن تنقلها بتفاصيلها إلى أجنداتها. وهذا أول دروس "المعجزة الصينية"، التي نحتاج في عالمنا العربي إلى التوقف أمامها طويلًا. وهذا هو ما فعلته الصين نفسها، حيث يقول الزعيم الصيني ماو تسي تونغ: "يجب أن ننظر باحترام إلى تجارب الشعوب الأخرى التي دفعت ثمنها عرقًا ودمًا، ولكننا يجب أن ننظر باحترام أكبر إلى تجاربنا نحن التي دفعنا ثمنها من عرقنا ودمنا". وقد أدركت الصين أن التطور داخل نظامها السياسي، وإحداث تعديلات جوهرية على بنيتها الاقتصادية، لا يعني إطلاقًا التنكر لمواريث التاريخ ومعاركه الكبرى، ولا شيء يولد من فراغ، وللصيني حِس تاريخي عميق وقديم، بعمق وقدم الحضارة الصينية ذاتها، والحكمة المتوارثة عنده جعلته مستعدًا، بطول نَفَس ومثابرة، أن ينتظر جثة عدوه طافية عند حافة النهر وللتاريخ مفاجآته، ولكن للتحولات الكبرى مقدماتها كما يقول الكاتب المصري عبد الله السناوي في مقال له عن الصين.

ولكل ما سبق، يظل لهذا الكتاب أهميته البحثية والعلمية وأيضًا الثقافية، إضافة إلى ما يقدمه من محتوى يكاد يسد فراغًا كبيرًا في مكتباتنا العربية عن الصين الحقيقية تاريخًا وواقعًا، وهذا الكتاب يأخذنا في رحلة شيقة إلى تاريخ خمسة آلاف عام، هو عمر الحضارة الصينية، ويتوقف كل فصل من فصوله عند مرحلة تاريخية كبرى للصين ويحلل أهم سماتها وإنجازاتها، وصولًا إلى تأسيس دولة الصين الحديثة عام 1949 ومرورًا بكل العصور الصينية القديمة، وأشهرها: دول تانج وسونج ويوان ومينغ وتشينغ، ثم فترة الجمهورية الصينية، وأخيرًا الصين الآن.

أحمد السعيد: - بكين 2018.

الفصل الأول

الحضارات القديمة

الحُكم والسياسة

"نحو 8500 – 256 قبل الميلاد"

مقدمة

يعتمد تحديد أصول الحضارة الصينية على تفسيراتٍ لمجموعةٍ محدودةٍ جدًّا من الأدلة الأثرية الموزعة في ربوع البلاد، وقد تغيرت هذه التفسيرات؛ نتيجةً لاكتشاف مواقع أثريةٍ جديدةٍ وإعادة دراسة المواقع القديمة.

وتبدأ الحقبة التي يناقشها هذا الفصل في عصر ما قبل التاريخ والتي لا يمكن استقاء المعلومات عنها إلا من الأدلة الأثرية، وينتهي هذا الفصل بعصرين معروفين بعصر "الربيع والخريف" "من 722 إلى 481 قبل الميلاد"، وعصر "الممالك المتحاربة" "من 744 إلى 221 قبل الميلاد" والذي تتوفر له كذلك سجلاتٌ تاريخيةٌ مكتوبةٌ يتسم اثنان منها بأهميةٍ خاصة.. أحدها هو "حوليات الربيع والخريف" "تشون تشيو Chunqiu" والذي يعتقد أنه كتب أثناء القرن الخامس قبل الميلاد، كما يستند كتاب "استراتيجيات الممالك المتحاربة" "تشان جوو تسي Zhanguoce" على الروايات التي تعود للفترة ذاتها، وقد وجدت مخطوطاتٌ لهذا النص في حفريات أحد القبور في "ماوانجدوي"، والذي يعود تاريخه إلى 168 سنة قبل الميلاد، مما يدعم النظريات القائلة بقدمه، وبسبب هذه المشكلات الدلالية تُستقَى رواية أحداث هذا العصر من مصادر هي ذاتها مشكوك في أصلها وغالبًا ما تكون مؤرخةً بعده بفترةٍ طويلةٍ على أي حال، وتكون النتيجة ملء الفجوات بالحكايات والأساطير مما يُنتج

خليطًا عصيًّا على التحليل.

في الفترة ما بين مجاهل عصر ما قبل التاريخ وبداية عصر الربيع والخريف تذكر الروايات التاريخية الصينية ثلاث أسر حاكمة، وهي أسرة "شيا"، وأسرة "شانج"، وأسرة "تشو".

لم يحدث خلافٌ حول توقيت وجود أسرة "تشو" في العصر الحديث، بالعكس من أسرة "شانج" التي اعتبر وجودها ضربًا من الأساطير حتى جلى الشك عن ذلك الكشف الأثري لموقع "آنيانج"، ولا يوجد دليل مادي قد يعزى بشكل قاطع لعصر أسرة "شيا"، مما جعل المؤرخين يضعونها في مصاف الأساطير، وبالرغم من ذلك اعتُرِف بوجودها الحقيقي على نطاقٍ واسعٍ داخل الصين.

وقد تكرر نمط انهيار الإمبراطورية القديمة وتفككها إلى ممالك أصغر تتحارب في ما بينها بشكلٍ مستمرٍّ أو تشكل تحالفات بعضها مع بعض عبر التاريخ الصيني، فقد ظهرت مملكة "تشين" بعد انتصارها في الصراع بين الممالك المتحاربة، وعلى رأسها الإمبراطور الأول من أسرة تشين "تشين شي هوانج" الذي أخضع الممالك الأخرى ويُحتفى به كموحد الصين والإمبراطور الأول في إمبراطورية دام زمنها حتى بداية القرن العشرين الميلادي.

أصول الحضارة

الإنسان القديم في الصين

اكتشفت الأكاديمية الصينية لعلوم الجيولوجيا آثارًا وبقايا أحفوريةٍ للإنسان القديم في قرية "شانج نابانج" في محافظة "يوان- ماو" بمقاطعة "يونّان"، مما دل على وجود حياةٍ للبشر البدائيين في الصين منذ ما يقرب من 1.7 مليون سنةٍ في بدايات العصر الحجري.

إن وجود النَّوَى والشظايا الحجرية يدل على استخدامهم للأدوات؛ كما يكشف

الكم الكبير من الفحم وعظمتان محترقتان عن استخدامهم للنار، وقد سمى علماء الآثار هذه المجموعة من البشر "إنسان يوانماو المنتصب" والمعروف عامة باسم "إنسان يوانماو".

وبالرغم من اكتشاف "إنسان ووشان" في "لونجوبو" في "ووشان"، بمقاطعة "تشونتشينج"، والتي يعود تاريخها إلى 2.01 مليون سنةٍ مضت؛ وآثار حضارة "تسيهودو" في محافظة "رويكنج" بمقاطعة "شانشي" التي يعود تاريخها إلى 1.8 مليون سنة، وكان اكتشاف "إنسان يوانماو" بالتحديد ذا أهميةٍ خاصةٍ نظرًا لما كشفه من معلوماتٍ حول حياة هؤلاء البشر القدماء.

في ما بعد، اكتشف عالم أصول الإنسان الصيني "باي وينتزونج" المتخصص في فترة العصر الحجري أول أحفورةٍ بشريةٍ لجمجمة ما صار يعرف الآن ب "إنسان بكين"(2) في تل "لونجو"، وهو جزء من سلسلة كهوف "تسوكوديان" التي تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة، وبحلول عام 1966م، كُشِف الستار عن أربعين من بقايا "إنسان بكين"، بما فيها خمس جماجم كاملةٍ وخمسة عشر فكًّا، وأُميط اللِّثام في ذات الوقت عن 100.000 قطعة حجرية وآثار نيرانٍ إضافة إلى عظام وبقايا ما يزيد على مئة نوع من الحيوانات من ضمنها النمر والغزال.

كان "إنسان بكين" من أوائل البشر الواقفين على ساقين -الاسم العلمي Homo erectus pekinensis- ويتميز بجبهةٍ منخفضةٍ وحاجبين عريضين، وأنفٍ أفطس وفمٍ بارز، كما تميز رأسه بالميل إلى الأمام قليلًا وبكونه أشبه بالقرود؛ إلا أن التجويف الدماغي أظهر أن السعة المعرفية كانت قد ازدادت بشكل واضح عن القرود، كما أن الأطراف تطورت لتصبح أشبه ما يكون بالإنسان الحديث.

استطاع رجل بكين المشي على قدمين اثنتين مُنتصبًا، كما عرف كيف يختار الصخور التي يمكن أن يصنع منها أدواته الحجرية، واصطاد الحيوانات وسلخ

جلودها وقطع لحمها وكسر العظام والأشجار واستخرج جذور النباتات.

تعلم أيضًا استخدام النار وكيفية تخزين المواد ليصنع منها وقودًا لها، وليتمكن من البقاء عاش "رجل بكين" في مجموعاتٍ وتكونت كل عشيرةٍ عادةً من بضع عشراتٍ من الأشخاص الذين ينحدرون من أسلافٍ مشتركين يعيشون ويعملون معًا، متشاركين الأدوات والطعام دون تباين في الطبقة الاجتماعية، حيث كانت العشيرة وقتها الأساس الحقيقي للوجود، قاموا أيضًا بتقسيم العمل بناءً على الجنس، حيث كان الذكور الشباب مسؤولين بشكل رئيس عن صيد الحيوانات والأسماك والدفاع عن العشيرة ضد هجمات الحيوانات البرية، في ما كانت وظيفة النساء جمع الطعام وطبخ الوجبات وخياطة الملابس، إضافةً إلى رعاية كبار السن والأطفال.

أثناء حملة التنقيب في موقع اكتشاف "رجل بكين" عام 1933 اكتشفت بقايا أطلالٍ بشريةٍ قديمةٍ أخرى سميت برجل الكهف الأعلى، حيث كانت حملة التنقيب الجديدة متمركزةً في كهفٍ فوق موقع "رجل بكين"، وقدر الوقت الذي عاش فيه بنحو 10.500 إلى نحو 18.300 سنةٍ مضت، وعلى عكس "رجل بكين" الذي استخدم النيران الطبيعية فإن رجل الكهف الأعلى استطاع أن يشعل النار – وهي خطوةٌ مهمةٌ للأمام - وبالرغم من أن الأدوات الأساسية المستخدمة كانت لا تزال تصنع من قطع الحجر إلا أنه أتقن تقنيات الكشط والحفر والصقل والثقب، كما تمكن رجل الكهف الأعلى من صنع ديكوراتٍ دقيقةٍ، حيث صنع حُليًا جميلةً مثل الدلّايات الحجرية وأنابيب العظم المحفورة، كما صنع ثيابًا من جلود الحيوانات باستخدام إبرٍ ومخاريط عظمية، وكانت الإبرة العظمية هي أقدم أداة خياطةٍ اكتشفت من العصر الحجري في الصين واستخدمت لخياطة جلود الغزلان وتحويلها إلى تنانير.

عصر مجتمعات العشائر

بعد 10.000 سنة من التغيرات بعد ظهور رجل الكهف الأعلى الذي تميز بالصيد

وجمع الطعام، أوجد هؤلاء البشر القدماء مجتمعًا يعتمد على نظام العشائر، وانتشروا في أنحاء الصين يزرعون الأرض ويعمرونها، وكان أبرزهم من أطلق عليهم اسم "الهيمودو" الذين عاشوا على ضفاف نهر "اليانجتسي"، و"البانبو" الذين هيمنوا على حوض النهر الأصفر منذ ما يقرب من 6.000 و7.000 سنة مضت.. يعود تاريخ موقع "هيمودو" إلى العصر الحجري الحديث في دائرة "هيمودو" بمدينة "يو ياو" في محافظة "تسيجيانج"، وشهد عمليات تنقيبٍ واسعة النطاق عام 1973، وعلى الرغم من أنهم عاشوا منذ ما يقرب من 7.000 عامٍ فإن الأرز الذهبي والأوراق الخضراء التي استخرجت كانت طازجةً كما لو كانت حصدت توًّا، كما كانت الكمية المستخرجة كافية لإعاشة ما يقرب من 500 شخص لمدة عامٍ كامل، ويُبيّن هذا أن قوم "هيمودو" قد زرعوا الأرز قبل أن يزرعه الإمبراطور الأحمر الشهير أو "شينونج" الذي اشتهر بأنه من أدخل الزراعة والطب العشبي إلى الصين بألفي عام، كما بدأ قوم "هيمودو" باستخدام تشكيلةٍ واسعةٍ من أحجار الطحن؛ إلا أنهم أيضًا استخدموا الحراب والخطاطيف لصيد الأسماك والأقواس والسهام لصيد الحيوانات والتي اعتبرت أدواتٍ ضروريةً للبقاء نظرًا لانخفاض الإنتاج الزراعي حينها، كما قام هؤلاء الأشخاص بإنتاج أعمالٍ فنيةٍ رائعةٍ، حيث يبدو أنه كان لديهم ولعٌ خاصٌ بالطيور البحرية التي ظهرت في نقوشهم الجميلة، وتميزت أدواتهم الفخارية بالبساطة إلا أنها تضمنت أيضًا ألعابًا وتماثيل من السيراميك للقوارب والخنازير والغنم والكلاب والسمك وحتى رؤوسًا بشرية، ونتيجة لانخفاض سطح جنوب الصين وتميز الجو بالرطوبة فقد عاشوا في بيوتٍ خشبيةٍ مرتفعةٍ عن سطح الأرض فوق أعمدةٍ من الخشب، وبُنيت هذه المنازل باستخدام تقنياتٍ تعتبر متقدمةً إلى حدٍّ مدهشٍ باستخدام تقنيات وصل وتعشيق الخشب والتي ما زالت تُستخدم حتى اليوم.

قام الهيمودو أيضًا بحفر الآبار وصنعوا القوارب الخفيفة والمجاديف ثم اختفوا فجأةً عن وجه الأرض بعدها بألفٍ وسبعمائة عام، وما زال مصيرهم مجهولًا حتى اليوم.

بالانتقال إلى حوض النهر الأصفر نجد قومًا آخرين قد بدأوا بالازدهار، حيث اكتشف موقع أثري في قرية "بانبو" عام 1952 في الأطراف الشرقية لمدينة "سي آن" – وهو أول موقع اكتشفت فيه آثار العصر الحجري الحديث في الصين، والذي رسم صورةً شديدة الوضوح للحياة القديمة منذ ما يقرب من 5.000 إلى 6.000 سنةٍ مضت، وكانت الزراعة هي مفتاح الحياة لقوم "بانبو" فقد تم تحديد نوع الحبوب التي اكتشفت في الأطلال بأنها ذرةٌ صفراء، وصنع قوم "بانبو" أدواتهم الزراعية كلها إما من العظم أو الحجر، وبالرغم من وجود بعض الأدوات المصنوعة من الأحجار المسننة فإن الغالبية العظمى كانت من الحجر المصقول الذي يعد علامةً على الانتقال إلى العصر الحجري الحديث، واستخدمت المجارف الحجرية للحرث؛ والمناجل الحجرية للحصاد؛ والمدقات الحجرية أيضًا لمعالجة ودرس الحبوب، وعلى الرغم من ازدياد أهمية الزراعة فإن قوم "بانبو" استخدموا الأقواس والسهام للصيد، وخطاطيف متقنة لصيد السمك إضافة إلى تربية الحيوانات في قطعان، كما لعب الفخار دورًا مهمًّا في الحياة اليومية، حيث تُشكَّل قطع الطين حول قالبٍ من الأعلى للأسفل وتخبز في فرن، وشكلت الوجوه البشرية والأسماك غالبية النقوش المستخدمة، وما زالت التخمينات حول معناها مستمرة "انظر شكل 1".



شكل (1): سلطانية مزخرفة برسومات لأسماك ورجل استخدمها شعب بانبو

سكن قوم "بانبو" في ما يشبه الكهوف، حيث كانت بيوتهم تتكون من نصفٍ مبنيٍ تحت الأرض مكونٍ من نظام حوائط حجريةٍ قابلة للتدفئة، ويغطى الجزء الأعلى المكشوف بسقف، ولحماية أنفسهم من القبائل الأخرى والحيوانات البرية قاموا ببناء نوعٍ من القلاع، ولا يزال أحد الخنادق موجودًا حتى اليوم في أطلال "بانبو".

ومع فائض الإنتاج من الحبوب تمكن بعض الناس من تخصيص وقتهم للحرف اليدوية، حيث تطورت تقنيات صناعة الفخار بشكل كبير، وكان أبرزها صنع الفخار الأسود والأبيض، فتميز الفخار الأسود المصنوع في أفران محكمة الغلق عالية الحرارة بسطحه الأسود الناعم واللامع لدرجة تماثل لمعان المعدن "انظر الشكل 2".

شكل (2): آنية سوداء استخدمها شعب دا وين كو



أما الفخار الأبيض فشكل من

الكاولين الأبيض، وتميز بخشونة سطحه وصلابته بالرغم من رقته ومهد بذلك

الطريق لاختراع الخزف في المستقبل.

ومع نمو الإنتاج الزراعي، وجدت النساء صعوبة متزايدة في تحمل العمل الثقيل، مما أدى إلى تولي الرجال العمل، وحدّ ذلك واجبات المرأة في رعاية الأطفال والأعمال المنزلية اليومية، وانخفضت درجتهن الاجتماعية بالضرورة تدريجيًّا، مما أدى إلى تفاقم هيمنة الذكور حتى صار المجتمع ذكوريًّا في المقام الأول، وفي وقت لاحق أدى نمو الإنتاج وزيادة الملكية الخاصة للأراضي إلى وجود فجوة بين الأغنياء والفقراء ونتيجة لذلك قسمت العشائر إلى عدة أسر واختفت المساواة بين الجميع، وبينما دفنت الأواني الفخارية الجميلة والأواني الجنائزية الأخرى في مقابر الأغنياء، لم يدفن الفقراء إلا بعدد قليل من أواني الفخار الخشنة البدائية، وهناك دلائل تشير إلى أن هذا التحول نحو التسلسل

الـهرمي للطبقـات قـد بـدأ بـالفعل فـي السـنوات الأخـيرة مـن مجتمـع عشـائر "داوِنكو"، حيث كان شكل جديد للحضارة على وشك الظهور.

فجر الأمة الصينية

كان التّنين هو الرمز المقدس للأمة الصينية القديمة، حيث نُظِر إليه على أنه المخلـوق المقـدس الـذي ربـط بـين البشـر والأرض والحيوانات، بشكله المميز الجامع لقرون الغزلان ورأس الثعبان وعيون السلاحف وحراشف السمك، إضافة إلـى مخـالب الصـقور وأقـدام النمـر، وعلـى الـرغم مـن ارتباطـه عمومًا بقبيلـة الإمبراطور الأصفر فإن أصول نشأة هذا المخلوق غامضة، فيقول البعض إن التّنين كـان الـرمز المقـدس لـهذه القبيلـة منـذ بـدايتها، إلا أن معظـم العلمـاء يعتقدون أنها برزت بعد توحيدها للجزء المركزي من الصين، واندماج رموز أخرى برمزهم المقدس الذي قد يكون السلحفاة المقدسة التي تحولت إلى تنين بدمجها مع ثعبان الشمال المقدس، ويشير آخرون إلى أن الرمز المقدس الأصلي كان دبًّا وأن الإمبراطور الأصفر أضاف إليه أقوى ما يميز رموز المناطق الأخرى المقدسة.

ووفقًا للأسطورة، كان "هوانج دي" -أو الإمبراطور الأصفر- زعيم قبيلة تسكن حـوض النـهر الأصـفر، ويـذكر كتـاب "سجلات المؤرخ" أنـه كـان ابـن شـاوديان، حـاملًا لاسم عائلة "جونجسون" وسُمِّي "شوانيوان" وعـاش فـي "شـوان يـوان تشـيو" وهـي مدينـة "تشـينجتشو" الحـديثة فـي مقاطعـة "هنـان"، فـي مـا تقـول أسطورة أخرى إنه ولد على هضبة لوس في شمال غرب الصين، ويقال أيضًا إن والدته كانت فتاة في سن المراهقة حملت به ذات ليلة بعد رؤيتها للأضواء الشمالية فجأة وبعدها ولد الإمبراطور الأصفر. وطبقًا لسجلات المؤرخ، أمكنه الحديث عندما بلغ عمره بضعة أشهر فقط، كما اتخذ سمت البالغين عند بلوغه سن السابعة أو الثماني سنوات فقط وأظهر حكمة عظيمة في سن مراهقته، وبالتالي كان قادرًا على حمل عبء المسؤولية المهمة لمنصب زعيم القبيلة.

وفي ما يبدو كان الإمبراطوران الأحمر والأصفر مرتبطين ارتباطًا جوهريًا منذ البداية، فوفقًا لكتاب "حديث عن الدول" لـ"جويو"، تضاعفت هاتان القبيلتان بسبب الزواج المشترك لعائلتي "شاوديان" و"يوجياو".

عاشت قبيلة الإمبراطور الأصفر في منطقة "نهر جي" -محافظة "ووجونج" الحالية-، في حين احتلت قبيلة الإمبراطور الأحمر منطقة "نهر جيانج" -مدينة "باوجي" الحالية- وهكذا كان الإمبراطور الأصفر يُدعى باسم جي والإمبراطور الأحمر باسم جيانج "انظر الشكل 3".

الشكل (3): على اليمين بورتريه للإمبراطور الأحمر، وعلى اليسار بورتريه للإمبراطور الأصف

واندلعت بين العشائر في أحيان كثيرة معارك عنيفة، وكان من أشهرها حملة "تشولو" التي تنص حكايتها أنه عند اندلاع الصراع بين الإمبراطور الأحمر و"تشويو"، طلب الإمبراطور الأحمر عون الإمبراطور الأصفر واشتبكا معًا ضد "تشويو" في المنطقة المعروفة في العصر الحديث بمقاطعة "تشولو" في مقاطعة "هيبي"، ويقال إن "تشويو" العظيم قد استعان بقوى شياطين الريح والمطر، مما ملأ الجو بضباب كثيف لثلاثة أيام كاملة بلياليها، عندها سعى الإمبراطور الأصفر لعون إلهة الجفاف نوبا للمساعدة وقاد جيشه خارج الأبخرة وتمكن من قتل "تشويو"، إلا أن حربًا أخرى اندلعت في ما بعد داخل الحلف؛ فبفضل شجاعته في معركة "تشولو"، كان الإمبراطور الأصفر قد ربح منزلة أعلى من الإمبراطور الأحمر وكان هذا سبب نزاعهما، مما أدى إلى حدوث معركة "بانكوان" التاريخية كنتيجة نهائية، ونظرًا لأن الإمبراطور الأصفر قد فاز بقلوب الشعب وادخر ما يكفي من الطعام، إضافة إلى إعداداته السياسية والعسكرية على حد سواء، فقد هزم منافسه الذي ارتضت قبيلته حكم الإمبراطور الأصفر بعد ذلك، وينظر إلى هذا الحدث على أنه النقطة التي ولدت فيها الأمة الصينية.

وكان لاندماج قبيلتي الإمبراطورين الأحمر والأصفر في الواقع أهمية محورية، ففي ما كانت قبيلة الإمبراطور الأصفر تصنف من البدو الرحل، كانت قبيلة الإمبراطور الأحمر قد اخترعت بالفعل أدوات زراعية مثل المحراث الخشبي والأدوات الشبيهة بالشوكة المستخدمة في الزراعة وعملوا بالزراعة البدائية وفقًا لسجلات المؤرخ، وقيل إن الإمبراطور الأحمر نفسه قد تذوق المئات من الأعشاب وصنع الأدوية وهكذا أطلقت عليه الأجيال اللاحقة لقب "شينونج" أي "المزارع الإلهي"، وربما كان اندماج القبيلتين هو ما مهد الطريق أمام قيام الاقتصاد الزراعي الرعوي في منطقة السهول الوسطى.

لم يكن الإمبراطور الأصفر الأسطوري رجل دولة عظيمًا وصاحب استراتيجية عسكرية فحسب، بل كان مخترعًا أيضًا إذ عاد له الفضل في تعليم الناس كيفية حفر الآبار، وبناء القصور والقوارب والمركبات، وكيفية صنع الأسلحة والملابس الجاهزة، ويقال إن المؤرخ "كانججي" هو أول من أنشأ نظام الكتابة الصينية في ذلك الوقت، في حين وضع الوزير "داناو" التقويم السنوي، ويُحكى أيضًا أن زوجة الإمبراطور الأصفر "ليتزو" هي أول من ابتدع صنع الحرير وعلمت النساء كيفية تربية دود القز ونسج الحرير وصباغة الملابس مما أكسبها لقب إمبراطورة الحرير الأولى، وقد وفرت المواقع الأثرية بعض الأدلة على هذه الحكايات، حيث تم العثور على آبار قديمة في "لويانج" و"هنان"، في حين استخرج الفخار وأشكال لدود القز والحبال في روافد النهر الأصفر العليا، مما يثبت وجود دودة القز وحرفة النسيج، أما الرموز على الفخار الذي وجد في مواقع "بانبو" و"داوينكو" تتوافق مع الحروف الصينية التي أنشأها "كانججي".

أثناء فترة اندماج قبيلتي الإمبراطورين الأحمر والأصفر كان هناك اندماج تدريجي بينهما وبين قبيلة "يي" في الشرق وقبائل "لي" و"مياو" في الجنوب، حيث تجمعت كلها لتشكل الأمة الصينية التي تنحدر من قبيلتي الإمبراطور الأحمر والإمبراطور الأصفر، وفي السنوات الأولى من عهد أسرة "تشو" الغربية (1046-771 قبل الميلاد)، بنى أمير "تشو" مدينة "لويي" وسماها باسم "السهول

الوسطى".

كانت القبائل التي تعيش في تلك المنطقة تسمى "هواشيا" والتي تعني "شيا الرائعة أو المجيدة" وقد تشير أو لا تشير إلى وجود أسرة "شيا" الأسطورية، وأصبح هذا الاسم يستخدم كتسمية لكامل الصين، بحيث أصبح في وقت لاحق بسبب استمرار اندماج "هواشيا" مع المجموعات العرقية الأخرى المصطلح العام الذي يشملهم جميعًا.

ومن المهم أن ندرك أن الروايات عن الإمبراطورين الأحمر والأصفر لا تُعد إلا أساطير، حيث لا توجد أدلة تاريخية أو أثرية لدعم هذه الحكايات، وفي انتظار البحوث الأثرية المستقبلية التي قد تربطها بمواقع أو ثقافات محددة، فمن الحكمة اعتبارها جزءًا من التراث الذي أُلِّف لشرح كيفية نشأة الأمة الصينية، وعلى وجه التحديد أصول حضارة هان الصينية التي هيمنت على الكل.

الحكام الثلاثة الأفاضل: "ياو" و"شون" و"يو"

تعاقب زعماء القبيلة من نسل الإمبراطور الأصفر حتى وصل "ياو" إلى منصب الزعيم بعد ذلك بخمسة أجيال، وتقول الأسطورة إن والدة "ياو" حملته أربعة عشر شهرًا متتالية، وإن شقيقه "تشي" كان من تولى العرش بعد وفاة والده، الإمبراطور "كو".. ولكن "تشي" كان حاكمًا غير كفء، وانتقل الحكم بعد تسع سنوات ليد "ياو" الذي عاش في "بينغيانج" -محافظة "لينفن" الحالية بمقاطعة "شانشي"- وكان حاكمًا خيِّرًا عاش حياة بسيطة وأظهر الرحمة تجاه شعبه الذي أحبه كثيرًا.

بعد عهد من السلام استمر سبعين عامًا، سعى "ياو" ليجد خَلَفًا له ووجد رجلًا فاضلًا آخر وهو "شون"، وكان اسمه الكامل "تشونج هوا"، أي مزدوج البؤبؤيْنِ.. ونظرًا لأنه أمضى طفولته في منطقة "يو" دعي أيضًا "يو شون"، وقد توفيت والدة "شون" عندما كان في سن المراهقة، وعاش برفقة زوجة أبيه وأخيه نصف الشقيق، وقد كان هذا الأخير شرِهًا، كسولًا وقاسيًا وعازمًا على الخلاص

من "شون" من أجل الاحتفاظ بالميراث بأكمله لنفسه، وكانت زوجة أبيه تفسد ابنها، وبالمثل كانت سببًا في المشكلات التي واجهها "شون". وفي الوقت نفسه كان والده غبيًّا وعنيدًا، مفتقرًا لحس العدالة وكثيرًا ما وقف ضده، وعلى الرغم من كل هذا كان "شون" رفيقًا بهم جميعًا مكافئًا شرهم بالخير، وبالتالي أصبح معروفًا ببره لأهله.

قرر "ياو" اختبار "شون"، حيث أعطاه ابنتيه -"إي هوانج" و"نوينج"- كزوجتين، ولكنه أيضًا أرسل أتباعه التسعة إلى "بوبان" "مدينة "يونج جي" الحالية بمقاطعة "شانشي"، حيث عاش "شون"؛ لمراقبته والتعرف على شخصيته ومواهبه، وطلب من "شون" أن يقوم بالزراعة والصيد وصنع الفخار؛ مما أدى في النهاية -بعد عشر سنوات- إلى اكتساب "شون" لثقة الإمبراطور "ياو".

وتقول الأسطورة إن عهد "ياو" استمر ثمانية وتسعين عامًا، وإنه أوصى بالزعامة إلى "شون"، بدلًا من ابنه "دان تشو" الذي لم يكن يستحقها، ويقال أيضًا إن الناس قد أصيبوا بالحزن على رحيل "ياو" حتى أنه لم تُعزف أي موسيقى لمدة ثلاث سنوات.

خلال هذه الفترة حاول شون تسليم السلطة إلى "دان تشو"، ولكن ولاء الشعب له جعل من المستحيل عليه التنحي وهو لم يخيبْ آمالهم، فظلَّ حاكمًا عادلًا ومتواضعًا يشاركهم مصاعب حياتهم اليومية.

وفي شيخوخته عقد "شون" -على غرار "ياو"- اجتماعًا لانتخاب وريث، وصدرت التوصية بالإجماع لرجل يدعى "يو" خلفًا له، حيث كان لـ "يو" الفضل في السيطرة على الفيضانات التي كانت مشكلةً دائمةً في ذلك الوقت منذ عصر "ياو".

وكان "ياو" قد استعان قبل رحيله برجل يدعى "جون" لمواجهة هذه المشكلة إلا أنه فشل بعد محاولات دامت تسع سنوات، وطلب "جون" من ابنه "يو" أن يبذل قصارى جهده لحل المشكلة.. وخلص "يو" إلى أنه ليس من الممكن ببساطة منع

المياه بالسدود فقط، وبدلًا من ذلك كان هناك حاجة إلى الجمع بين السدود والخنادق، وهكذا حمل مجرفته ومحراثه بيده وتقدم القبائل من الفجر إلى الغسق في معركة شاقة ضد الفيضانات وبالكاد توقف للاطمئنان على أحوال أسرته.

وتقول الأسطورة إنه بعد مرور تسعة وثلاثين عامًا على تولي "شون" السلطة، رحل للقيام بجولة تفقدية في منطقة "نهر اليانجتسي"، لكنه توفي عندما كان في برية "كانجوو"، وبعد انقطاع أخباره ذهبت زوجتاه "إي هوانج" و"نوينج" للبحث عنه وبَكَتا بمرارة عندما عرفتا الأخبار المحزنة، وسقطت دموعهما على بعض الخيزران ولطخته، وأصبح ما يسميه الناس الآن "الخيزران المرقش" الذي لا يزال موجودًا حتى اليوم.. ثم انتحرت الزوجتان بالقفز في النهر وتحولتا إلى إلهتين لنهر "شيانج"، وقام السكان المحليون ببناء معبد على الجانب الشرقي من تل "جون" لإحياء ذكراهما.

نجح "يو" كزعيم قبلي، وذلك أساسًا بفضل عمله في ترويض الفيضانات، وما زالت روح الخدمة العامة التي تمتع بها تحظى بالثناء حتى اليوم، ليس فقط بسبب نضاله العنيد مع الطبيعة، بل أيضًا لأنه انعكاس لروح الأمة الصينية المجتهدة التي لا تقهر. وقد نقشت المنحوتات، وأقيمت المعابد وأُنشئ ضريح على شرفه على مر القرون، ووفقًا لسجلات المؤرخ التي كتبها "سيما تشيان"، تُوفي "يو" في أثناء اجتماع مع القادة والأمراء لتوزيع المكافآت والتكريم في منطقة الجنوب من نهر "يانجتسي"، ودفن على جبل اسمه "كوايجي".

لم يعمل "ياو" و"شون" و"يو" دون تعب من أجل الشعب فحسب، بل كانوا مستعدين أيضًا للتخلي عن سلطاتهم ومنصبهم، وباختيارهم وتدريبهم لخلفائهم وتخليهم عن عروشهم طوعًا في ما يُسمى "نظام التنازل". وقد أشيد بهذا النظام منذ ذلك الحين، ورُفع الحكام الثلاثة إلى مصاف الآلهة، وشيدت لهم التماثيل في جميع أنحاء الصين، ومع ازدياد الإنتاج، والتعقيد المتزايد للشؤون الداخلية والحروب ضد القبائل الأخرى، زادت حقوق وامتيازات زعيم

تحالف القبائل، وأدت هذه العوامل في نهاية المطاف إلى نهاية نظام التنازل، وبدء عهد جديد من الحكام الأقوياء.

أقدم الأسر الحاكمة في الصين: حكم أسرة "شيا"

وفقًا لسجلات المؤرخ، عندما تولى "يو" الزعامة عيَّن "جاو تاو" نائبًا له لاختبار صلاحيته، ولكن "جاو تاو" توفي، ثم خلفه نائب آخر هو "يي"، وعندما كان "يو" يلفظ أنفاسه الأخيرة في "كوايجي" "مدينة "شاوشينج" الحالية بمقاطعة "تشي جيانج"، طلب من "يي" تولي منصبه طبقًا لنظام التنازل.. وهناك عدد من النظريات لماذا لم يكن "يي" بل "تشي" -ابن "يو"- هو من خلفه على العرش، فيدعي البعض أن "يي" عرض المنصب على "تشي" في لفتة رمزية ترجمت بشكل حرفي، والبعض الآخر يقول إن "تشي" هزم وقتل خليفة والده المختار، وتمكن من القيام بذلك بسبب قوة دعم الشعب وقادة العشائر له، بل إن البعض يقول إن قادة العشائر اختاروا "تشي" -وهو رجل صادق وموهوب- للحكم، وأيًّا كانت حقيقة الأمر، فقد كانت هذه نهاية نظام التنازل وحلت محله الملكية الوراثية.

ويَعتبر معظم المؤرخين أسرة شيا أسطوريةً على الرغم من أن وجودها معترف به شعبيًّا في الصين، ويؤيد الاعتقاد بوجود أسرة "شيا" الرواية الرسمية بأن تاريخ الصين متواصل غير منقطع لمدة خمسة آلاف عام، وتستند الرواية التالية لأحداث حقبة أسرة "شيا" إلى سجلات مكتوبة في وقت لاحق على الفترة التي قيل بوجودها فيها، وقد قدم علماء الآثار العديد من الاكتشافات كدليل مادي على وجود أسرة "شيا"، وأكثرها إقناعًا هي بقايا قصر في موقع "إرليتو" الذي يقع إلى الشرق من "لويانج".

أصبح "تشي" أول ملك في أسرة "شيا"، ولكن في ذلك الوقت، كانت أسرة "شيا" تشكل قوة واحدة فقط من العديد من القوى الكبرى، واعتمدت كليًّا على قوتها العسكرية والاقتصادية للحفاظ على الحكم، ونتيجة لذلك كان حكمها غير

مستقر، وتلا ذلك العديد من الصراعات على السلطة.

تقول الأسطورة إن ملك "شيا" الثاني -"تايكانج"- كان مولعًا بالصيد وتجاهل شؤون الدولة؛ مما أدى إلى اغتنام "يي يي" وهو زعيم قبائل المنطقة الشرقية الفرصة للإطاحة به.. أصبح هذا الحادث يعرف باسم "تايكانج يفقد بلده"، وعلى أي حال اتضح أن "يي يي" حاكم قاسٍ يفتقر للحكمة، حيث عيّن "هان تشو" في منصب مهم، ثم استغل "هان تشو" نفوذه المتنامي وقتل كلًّا من "يي يي" وزوجته "تشانج إي" "انظر الشكل 4".



الشكل (4): لوحة تصور "تشانج إي" وهي

تشرب السم وتموت في قصر القمر في الجنة بعد أن أخبرها "هان جوو" بموت

"إي إي".

وفي الوقت نفسه، كان وريث "تايكانج" "شاوكانج" يعيش في المنفى ولم يفقد ثقة الشعب -على عكس الزعيم الجديد "هان"- الذي شرع في عيش حياة من الفخامة والبذخ.. وفي النهاية، واعتمادًا على مساعدة الناجين من أسرة "شيا" ودعم القبائل الأخرى، جمع "شاوكانج" جيشًا وأزاح "هان تشو"، وبمجرد حدوث هذا عادت الوحدة إلى أسرة "شيا" مرة أخرى.

وتشير هذه الصراعات المبكرة إلى أنه على الرغم من اتباع النظام الوراثي -الذي بدأ من عهد "شاوكانج" حيث ورث أفراد عائلته العرش- فقد نصت قواعد الديمقراطية العسكرية أن بقاء النظام يتوقف على إرادة الشعب، واعتبر هؤلاء

الحكام البلد كله ملكًا لهم، لذلك تعتبر أسرة شيا عمومًا أول نظام يمتلك الرقيق في التاريخ الصيني.

استمر حكم هذه الأسرة نحو 500 سنة بدءًا من 2070 قبل الميلاد، عندما أسسها "تشي"، إلى 1600 قبل الميلاد، عندما اغتيل "جي"، ممتدة لأربعة عشر جيلًا حكم فيها سبعة عشر ملكًا.

وقد نجا عدد قليل جدًّا من السجلات المكتوبة من عهد أسرة "شيا"، لذلك لا يوجد لدى الأجيال اللاحقة إلا إدراك محدود جدًّا لأنظمتها السياسية والاقتصادية والعسكرية، وتشير النصوص اللاحقة إلى أن مركزها الحاكم كان في غرب مقاطعة "هنان" الحالية، ويمكن تتبع دلائل وجودها حتى غرب مقاطعة (هنان) وجنوب مقاطعة (شانشي) في الغرب، وإلى تقاطع الطرق بين مقاطعات "هنان" و"هيبي" و"شاندونج" في الشرق، والحدود مع مقاطعات "هوبي" في الجنوب و"هيبي" في الشمال.

فطبقًا لـ"تعليقات على حوليات الربيع والخريف" الذي كتبه "تزو"(3)، كان لأسرة "شيا" مسؤول عن الزراعة وآخر عن العربات، ومسؤولان موفدان من الحكومة المركزية عن الماشية وصناعة العربات، وكان ذلك دليلًا على أن الحياة الاقتصادية لأسرة شيا كانت من صلب اختصاصات إدارة الحكومة المركزية، ووفقًا لـ"حوليات الخيزران"(4) لم يكن هناك سجون، ولكن البلاد تمتعت بحماية جيش كبير يتميز بالانضباط التنظيمي الصارم، ومن أجل الحفاظ على القدرات العسكرية الكبيرة بدأت أسرة "شيا" في تحصيل الضرائب، ومن ثم فقد تميزت في نواحٍ كثيرة بمظاهر الدولة الحقيقية.

وكان "جي" آخر حاكم للسلالة أيضًا أول طاغية مسجل في التاريخ الصيني كما تنص الأسطورة، وقيل إنه (تمتع بقوة عظيمة حيث تصارع مرة مع ذئب بيديه العاريتين وطارد عربة تجرها أربعة خيول على قدميه)، لكنه كان مقتنعًا جدًّا بقوته التي لا تُبارى لدرجة أنه في نهاية المطاف أساء إلى كل من السماء

ورعاياه، وقد ظهر طغيان "جي" لأول مرة في تعامله مع الشؤون الداخلية، فطبقًا لـ"حوليات الخيزران" فقد بنى العديد من القصور وساحات الرقص التي استنفدت الموارد المالية للشعب، وادعى رجال الدولة في وقت لاحق أيضًا أنه اختار مسؤوليه بتهور، معينًا الأشرار الذين حولوا حياة الشعب إلى جحيم، ورغم ذلك كان ما دمر أسرة "شيا" في نهاية المطاف هو الانقسام داخل الطبقات الحاكمة؛ فعلى الرغم من أن "جي" كان على علم بهذه الصراعات الطبقية العنيفة، فإن رده كان الشروع في حروب مع بلدان صغيرة أخرى في الخارج بدلًا من معالجة الأمور الداخلية، وكانت إحدى هذه الممالك الصغيرة تدعى "يو شي"، ووفقًا لـ"حديث حول الدول"، لم يتم إنقاذ المملكة إلا بعد أن أرسلت "يو شي" فتاة جميلة تدعى "مو شي" لتكون محظية لـ"جي"، وتدهورت علاقات "جي" مع الولايات القبلية الأخرى تدريجيًّا، وبعد أن أرهقتهم حروبه التي لا نهاية لها، تمرد كثير منهم ضده وأعلنوا ولاءهم لـ"تانج" أول الحكام من أسرة "شانج" بدلًا منه، وبعد أن هجره حلفاؤه كان "جي" شاهدًا على قرب انهيار حكم أسرة "شيا" بأكمله.

صعود وسقوط أسرة "شانج"

في الوقت الذي بدأت فيه قوة أسرة "شيا" بالاضمحلال، كانت قوة قبيلة تسمى "شانج" التي تحتل الروافد الوسطى والدنيا للنهر الأصفر تزداد، فوفقًا للحكايات، كان الجد الأكبر لـ"شانج" يُدعى "تشي" وقد عاصر حكم "يو" العظيم.

وكان له الفضل في مساعدة "يو" في مكافحة الفيضانات، ومن ثم مُنح إقطاعية في منطقة "شانج"، وعلى الرغم من أن أهل "شانج" كانوا بدائيين نوعًا ما في البداية فقد انتشروا في المناطق التي تعرف اليوم بـ"هنان" و"شاندونج".

ومع ازدياد استبداد "جي"، كان لذلك أثر زيادة عمق أزمة أسرة "شيا" المضطربة أصلًا، كما وفر هذا الفرصة لـ"تانج" -رئيس عشيرة "شانج"- والذي ساعده رئيس

وزرائه "يي يين" لبذل جهود قوية لزيادة الإنتاج وحصل على دعم الشعب لسياساته المتسامحة، كما بنى علاقات جيدة مع التابعين المحيطين به إضافةً إلى تشكيله تحالفًا واسعًا مع مختلف الأميرات والأمراء.

لم يكن "جي" غير مستعد لصعود نجم "تانج"، حيث كان قد سجنه مرة لكن سرعان ما أطلق سراحه لعدم وجود أدلة، ولكن هذه التجربة سمحت له بتقييم قوة أسرة "شيا"، وأكسبته أيضًا تعاطف أمراء الحرب المحليين.

وبعد سنوات من الاستعدادات العسكرية، كان "تانج" جاهزًا للحركة، واعتمدت خطته التي وضعها بالمشاركة مع وزيريه "يي يين" و"تشونجهوي" على القضاء على جيوش أسرة "شيا" التي كانت أضعف كلما بعدت عن العاصمة، وبعد ذلك يطلقون هجومًا كبيرًا على العاصمة نفسها.. لذا أرسل "تانج" جيشه لمهاجمة "جي" شمال "شانج تشيو" في "هنان"، وهي دويلة صغيرة استخدمها "جي" للتجسس على "شانج".. وبعد إنجاز المهمة انتقل "تانج" إلى "وي" - الواقعة في جنوب شرق محافظة "هوا" الحديثة بمقاطعة "هنان" - و"جو" - الواقعة في شمال شرق "جوانشنج" الحديثة بمقاطعة "شاندونج" -. وأضفى تدمير هذه الدول الفرعية الصغيرة حماية لجيوش "شانج" على جبهتين.

وكانت "كونوو" الواقعة حاليًا في "بويانج" الحديثة بمقاطعة "هنان" واحدةً من الولايات الكبرى التابعة لأسرة "شيا" وتمتع جيشها بالقوة، لذلك وجه "تانج" القوة الضاربة لجميع قواته المتحالفة ضدها مما أضعف موقف "شيا" إلى حد كبير وعجل من ساعة الحسم.

استدعى "تانج" جيوشه وقوات التحالف وأخذ عليهم العهد ورفض استبداد "جي" وادعى أن هجومه هو عليه ما هو إلا تنفيذ لإرادة السماء، ثم ضرب ضربته.

كانت القوة الرئيسة لجيوش "شيا" محتشدة في الجبهة، لذلك قام "تانج" وجيشه بهجوم مفاجئ من الغرب على "تشنشون" عاصمة "شيا"، أُجبر "جي"

وجيشه على التراجع أمام زحف جيوش "تانج" وعندما وصلوا إلى "مينجتياو" -الواقعة اليوم في "يونتشنج" بمقاطعة "شانشي"- حدثت المعركة الأخيرة والحاسمة، حيث محا جيش "شانج" المدجج بالسلاح والمعنويات المرتفعة قوات "شيا" الرئيسة، وفر "جي" بنفسه مع بضع مئات من الجنود الذين قتلوا عند القبض عليهم، وأُرسل "جي" إلى المنفى في "نانتشاو" - الواقعة في "تشاوهو" الحالية في مقاطعة "آنهوى" - وتوفي بعد ذلك بوقت قصير وماتت معه أسرة "شيا".

عندما عاد "تانج" منتصرًا إلى موطنه، دعا لاجتماع سمي تمكين "جينجبو"، حيث حاز دعم ثلاثة آلاف من الأميرات والأمراء، وهكذا تأسست أسرة "شانج" رسميًا (1600-1046 ق. م) رسميًا، إلا أن العديد من الصراعات الداخلية اندلع بعد وفاة "تانج"، وبدا أنها نابعة من نظام الميراث، الذي ينص على أن شقيق الملك هو من يجب أن يخلفه من ابنه.

وأدت الوفاة المبكرة لـ"تاي دينج" ملك "شانج" الثاني إلى اندلاع الصراع بين ابنه وشقيقه، وفي نهاية المطاف كان ابن "تانج" "تاي جيا" هو من صعد العرش بدلًا من "واي بينغ" شقيق "تاي دينج".

وكان تأثير ذلك مزعزعًا للاستقرار بشكل كبير، وأدى إلى صراعات مستمرة أُطلق عليها في ما بعد "شغب الأجيال التسعة"، ونُقلت العاصمة إلى مدينة أخرى خلال تلك الفترة وحتى وقت "تشونج دينج" الملك الحادي عشر، وأدى ذلك إضافة إلى الصراع بين جوانب العائلة المالكة إلى إضعاف الأسرة على حد كبير، مما حدا بالتابعين إلى سحب دعمهم وبدأ مجال نفوذ أسرة "شانج" بالانكماش.

بعد وفاة الملك التاسع عشر "يانج جيا"، تولى شقيقه الأصغر "بان غنج" الحكم، واعترف "بان جنج" بأن الاقتتال الداخلي الذي لا نهاية له يجب أن يتوقف إذا رغبت الأسرة في البقاء، ولتحقيق ذلك قرر نقل العاصمة مرة أخرى، على الرغم

من الاحتجاجات الواسعة النطاق، ولكنه نجح باستخدام مزيج من الترغيب والترهيب بنقل العاصمة إلى "يين".. وكانت خطوة النقل في صالحه هذه المرة، -ولهذا السبب قد يشار لأسرة "شانج" في بعض الأحيان باسم "يين"-.. فرض "بان جنج" نظام توريث الحكم من الأب إلى ابنه مُنهيًا بذلك "شغب الأجيال التسعة"، وعزز قبضته على السلطة.

وقد كشفت الحفريات الأثرية أن "يين" هي قرية "شياوتن" الحديثة -الواقعة شمال غرب مدينة "آنيانج" بمقاطعة هنان- وأن وجودها ونموها ظلّا مستمرين حتى نهاية حكم الأسرة.

تعاقب اثنا عشر ملكًا من أسرة "شانج" في أعقاب "بان جنج"، ومع ذلك، ازداد فساد الأرستقراطيين وانحلالهم خلال الحقبة المتأخرة لأسرة "شانج" (1300-1046 ق.م)، وفي ذلك العهد كان أحد الملوك وهو "دي شين" -وأطلقت عليه الأجيال اللاحقة اسم الملك "تشو" حيث "تشو" يعني مانع الخير- وكان هذا لقبًا مهينًا لقبه به أحفاده، ووفقًا لـ"سجلات المؤرخ"، كان تشو موهوبًا للغاية وسريع البديهة، قادرًا على إصدار أحكام سريعة ودقيقة في الأمور المعقدة.

وكان أيضًا طويل القامة ذا قوة غير عادية؛ فقيل إنه استطاع قتل نمر بيديه العاريتين دون سلاح، وكان والد "تشو" "دي يي" قد شن حربًا لا نتيجة لها ضد القبائل في الشرق، والذين كثيرًا ما هاجموا أراضي "شانج" واستعبدوا أهلها، ولكن "تشو" قاد شخصيًّا القوات إلى المعركة ودمرهم، وتوسعت أراضي "شانج" إلى جنوب شرق الصين ونما حوض نهر "يانجتسي".. ولكن على العكس من جميع الأمجاد والإنجازات العسكرية، أدت طبيعة "تشو" الفاسدة إلى سقوط الأسرة، حيث كان لديه عادة أخذ الفتيات الجميلات بالقوة وإقامة الولائم باللحوم والنبيذ، وقام ببناء عدد كبير من القصور على حساب شعبه، والأسوأ من ذلك أنه أحرق رعاياه أحياءً أو ألقى بهم في حفر الثعابين، وقد خاطر موظفو البلاط الموالون له بحياتهم بالاحتجاج عليه وكان جزاؤهم التجاهل

مرة أو القتل بلا رحمة.. وفي النهاية، قاد الملك "وو تشو" حملة ضده أطاحت بحكم أسرة "شانج"، وقامت أسرة "تشو" الغربية مكانها.

استمرت حقبة أسرة "شانج" مدة 550 سنة، من أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد إلى 1046 قبل الميلاد، وقد امتدت سبعة عشر جيلًا، حكم خلالها واحد وثلاثون ملكًا، وفي عهد ذروتها امتدت أراضيها إلى البحر في الشرق والجزء الغربي من "شانشي" في الغرب و"لياو نينج" في الشمال الشرقي، ونهر اليانجتسي في الجنوب وكانت تعتبر دولة مترامية الأطراف في ذلك الوقت. وبسبب الافتقار إلى الوثائق، كان من الصعب على الأجيال اللاحقة الحصول على قدر كبير من المعلومات عنها، حيث ظلت مملكة غير معروفة لسنوات عديدة، وكان ما سلط الضوء أخيرًا على هذه الإمبراطورية الأسطورية اكتشاف عدد كبير من أصداف ظهور السلاحف المنقوشة وعظام الحيوانات في أطلال "يين" في أواخر القرن التاسع عشر (انظر الشكل 5).

الشكل (5): عظام حيوانية عليها نصوص بالصينية،

تم اكتشافها في أطلال مدينة "يين" في أوائل الكتابات الصينية

وهي دليل على الممارسات الدينية أثناء فترة حكم سلالة شانج.

ازدهار أسرة "تشو" الغربية

نشأ شعب "تشو" من قومية قديمة في غرب الصين، وكان سلفهم القبلي يدعى "تشي" أو "هو جي"، وكان هو من وضع نظام القبيلة للزراعة وتربية الحيوانات في منطقة نهر "وي".

وتعرضت قومية "تشو" لمضايقات القبائل في الغرب والشمال، واضطروا إلى الترحال مرارًا حتى استقروا تحت قيادة "جي دان" في "تشويوان" -محافظة "تشيشان" الحالية بمقاطعة "شانشي"- وعلى الرغم من كونهم مقاطعة تابعة لأسرة "شانج"، فقد بدؤوا في تعريف أنفسهم باسم "تشو"، وازدادت قوتهم

بشكل كبير في أثناء حكم "جي جيلي" ابن "جي دان" بفضل ممارستهم الدؤوبة للزراعة وحسن إدارة الشؤون الداخلية.

بدأ كل هذا يُشكل تهديدًا لأسرة "شانج"، مما دفع الملك "تاي دينج" لإيجاد ذريعة لقتل "جي جيلي"، واحتمل "جي تشانج" ابن "جي جيلي" إذلال وقمع ملوك "شانج" طيلة سنوات حكمه التي استمرت خمسين عامًا، ولكنه قام أثناءها باستعدادات سرية للتمرد، حيث عزز الإنتاج الزراعي، وعين ذوي الموهبة في المناصب الرئيسة، وغلب مناصري "شانج" ونجح في التوسط في نزاعات على الأراضي بين ولايتي "يو" و"روي"، مما أدى إلى أن ألقت له العديد من الولايات الصغيرة الواقعة إلى الشرق من النهر الأصفر بعصا الطاعة.

وبتوطد أقدامه وازدياد قوته قاد "جي تشانج" قبيلة "تشو" في المنطقة، ثم عبر النهر الأصفر واستولى على "تشونج" وهي معقل مهم على نهر "وي"، ثم شيد مدينة "فنج" على الضفة الغربية لنهر "فنج" -جنوب غرب محافظة "شي آن" الحالية بمقاطعة "شانشي"- ونقل مركزه السياسي إلى هناك.

بهذه الطريقة أصبح "جي تشانج" في موقف قوي للهجوم بعد أن حاصر مملكة "شانج"، ولكنه لم يعش ليرى ذلك اليوم وبدلًا منه كان ابنه "جي فا" -الملك "وو" من أسرة "تشو"- هو من وضع خططه موضع التنفيذ.. في السنة التاسعة من حكمه، استفاد من حكم تفكك الملك تشو من "شانج"، وقاد جيشه شرقًا لشن هجوم مؤقت، وكان قادرًا على تحقيق التقدم والانضمام إلى قوات ثمانمائة أمير وأمير في "منججين" بـ"هنان" بفضل قوته ومكانته.

ثم قرر أن يستثمر وقته في تعزيز قوته، ولم تلبث تجاوزات الملك تشو من أسرة "شانج" إلى انقسام كبير في المستويات العليا لحكومته بعد عام، مما تركه معزولًا تمامًا، وفي الوقت نفسه كانت قوات أسرة "شانج" الرئيسية تقاتل جماعات عرقية في الشرق، وكان الوقت قد حان

للملك "وو تشو" وحلفائه الكثيرين لإطلاق حملتهم، ولم يدرك الملك "تشو" خطورة الوضع حتى عبروا النهر الأصفر، وبدؤوا الزحف على "تشاوجي" عاصمة "شانج" وكان الأوان قد فات عندها.

سحق جيش "شانج" وانتهز العبيد وأسرى الحرب الذين اضطهدتهم أسرة "شانج" الفرصة؛ لتبديل ولائهم وتمهيد طريق الملك "وو" إلى العاصمة.. حاول الملك "تشو" الفرار إلا أنه لم يفلح وكانت تلك نهاية أسرة "شانج".

ومع إدراكه أن حملته لن تنجح دون دعم العديد من القبائل والجيوش الصغيرة المنتشرة في البلاد كان على الملك "وو" الاعتراف بوجودهم وأن يعطيهم مراتب ضمن النبلاء في عهد أسرة "تشو" الجديدة، وعلاوة على ذلك، بدا أن الأسرة عاجزة عن حكم المناطق الشرقية التي احتلتها حديثًا بشكل فعال؛ نظرًا لبعد مركزها الإداري بعيدًا في الغرب، ولحل هذه المشكلة، نقل الملك "وو" العاصمة من مدينة "فنج" إلى "هاوجينج" -مدينة "شي آن" الحالية- ووزع الأرض ومن عليها في جميع أنحاء العاصمة على أقاربه والأبطال الذين أظهروا بسالتهم في المعارك، في ما تفرق جميع مؤيدي "شانج" مما وطد سلطته، وأنشئت ولايات تابعة لحراسة حدود الإقليم والأسرة المالكة، ونصب الملك "وو" نفسه حاكمًا مطلقًا وعين سادة الأراضي الإقطاعيين في المناصب الرئيسة وكان متوقعًا منهم جميعًا إبداء الولاء والطاعة للملك والتوجه للقتال مع القوات في الحرب.

وعزز هذا النظام الإقطاعي سيطرة أسرة "تشو" على السهول الوسطى والمناطق المحيطة بها. وكانت الهجرة المسلحة نوعًا ما والتي وسعت القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية لأسرة "تشو" هي ما وطد أسس التعامل بين القبائل المختلفة وسرعت عملية تشكيل الأمة الصينية.

وقام الملك "وو" بتنفيذ فكرة حقول البئر المملوكة للدولة أو "نظام المربعات

التسعة" الذي قسمت فيه الأرض إلى مربعات ذات طرق وخنادق في نمط يشبه الكلمة الصينية 井)) والتي اشتق منها هذا الاسم من أجل ضمان التزام كل من النبلاء والرعايا بالأرض، وظلت هذه الأراضي ملكًا للملك وخصصت ليستخدمها الشعب، ولم يسمح للنبلاء الإقطاعيين ببيعها أو نقل ملكيتها، وإنما كان عليهم دفع جزية للأسرة المالكة، والواقع أن النبلاء كانوا كثيرًا ما يتنازلون أو يتبادلون الأراضي مع الآخرين لتحقيق مكاسب شخصية، وأصبحت الأراضي المملوكة للدولة تدريجيًا ملكًا خاصًا للأفراد، كما أن زيادة الإنتاج أدت بالمزارعين إلى المطالبة بأراضٍ جديدة، مما أدى إلى فقدان ملكية الأراضي العامة تدريجيًا ومعها الأساس الاقتصادي للنظام الإقطاعي، على الرغم من أنه قد سمح بزيادة كبيرة في الإنتاج والتي أدت بدورها إلى زيادة ممارسة الحرف اليدوية وخاصة صناعة البرونز التي ازدهرت.. فبالإضافة إلى ورش العمل التي تسيطر عليها العائلة المالكة، كان للولايات التابعة ورش تشكيل برونز خاصة بها، ولم يعد استخدام البرونز مقصورًا على الأواني الجنائزية كما كان في عهد أسرة "شانج"، وإضافة إلى ذلك أفسح تطوير الزراعة وصناعة البرونز مساحة لتربية الحيوانات وصنع المنسوجات والبناء وعلم الفلك والجغرافيا وغيرها من العمليات العلمية والتكنولوجية، وكان هذا بالتالي العصر الذهبي الأول للصين، وتزامن مع التطور الاقتصادي الحاجة لزيادة مساحة الأرض، فدخل غرب "تشو" فترة من التوسع الخارجي من وقت الملك "تشينج" إلى وقت الملك "مو" (1042 - 922 ق.م.)، حيث ازداد عدد السكان وبالتالي ازدادت مساحة الإقليم ونما الاثنان جنبًا إلى جنب مع نمو المجالات الحرفية والمعرفية والزراعية.

قاد الملك "تشاو" حملة ضد مقاطعة "تشو" في الجنوب ضد إرادة شعبه في السنوات الأخيرة من حكمه، حيث هزم ولقي حتفه غرقًا في نهر هان سنة 976 ق.م، على الرغم من بذل الملك التالي له لقصارى جهده لإعادة وضع الأسرة على مسارها الصحيح فإنها كلها ذهبت هباءً، وكان ابنه الملك "لي" أو "جي هو"، الذي تولى العرش سنة 877 ق. م، قد اتخذ موقفًا قاسيًا تجاه نبلائه ولم يفلح

ذلك إلا بقسم صفوفهم أكثر، وفقد دعم الشعب والعديد من الوزراء عندما شجعته إحدى أميراته على فرض السيطرة الكاملة على المنتجات الزراعية الآتية من الجبال والغابات.

وبدأ السخط واندلعت الاحتجاجات التي ووجهت بعمليات الاعتقال والقتل وحظر انتقاد شؤون البلاط.. هذا وأدى هذا العهد من الإرهاب، واستمرار الملك "لي" في تجاهل شعبه، إلى اندلاع ثورة حتمية حيث اندفع الشعب الذي لم يعد يستطيع التحمل نحو القصر (في 841 ق.م). مسلحين بالعصي الخشبية والأدوات الزراعية، وهرب الملك "لي" إلى "تشي" -محافظة "هو" الحالية في محافظة "شانشي"- حيث تُوفي.

بعد هذا التمرد، دخل غرب تشو فترة من الاستقرار تعرف باسم "الإدارة الجمهورية"، واختلفت الروايات دومًا حول هذه الفترة؛ يقول البعض إن "هو" إيرل "جونجهو" الذي تولى الحكم بعدما أطيح بالملك "لي"، ويدعي آخرون أن النبلاء انتخبوا أميري "تشو" و"شاو" للنهوض مؤقتًا بالشؤون العامة، ومن هنا جاء الاسم الآخر لهذه الفترة "جمهورية تشو وشاو"، وأيًّا كانت الرواية الصحيحة فقد عرف (عام841 ق.م) باسم السنة الأولى للجمهورية، وكان أيضًا التاريخ الذي تم فيه ترقيم السنوات الأولى في الصين، حيث يبدأ "الجدول الزمني للولايات التابعة الاثنى عشر" في كتاب "سجلات المؤرخ" بقلم "سيما تشيان" من هذا العام، وبعد مرور أربعة عشر عامًا نجح ولي العهد "جينج" في تولي العرش بمساعدة مسؤوليه، ودخلت أسرة "تشو" الغربية حقبة جديدة.

انحدار أسرة "تشو" الغربية

أصبح الأمير "جينج" الآن يعرف باسم الملك "شوان" وتولى عرش مملكة "تشو"، وبعد أن شهد كيف انتهى والده بدأ حكمه بشكل جيد، حيث كان مُنفتحًا وحذِرًا ومثابرًا، ولم يتصرف بشكل تعسفي واتبع نظام الاستشارة بانتظام مع أعضاء بلاطه، كما ألغى سياسة الاحتكار التي وضعها الملك "لي"، مُرخيًا قبضة

الدولة عن الجبال والغابات والأنهار.

كما أعاد تأسيس القوة العسكرية للمملكة عن طريق صد الهجمات من الشمال الغربي وقمع قبائل "شورونج" في الشرق، و"تشو" في الجنوب وقبيلة "رونج" في الغرب، واتبع مثال الملكين "وو" و"تشينج" في منح ألقاب وراثية وأراضٍ للنبلاء لضمان حماية الأسرة المالكة، وعلى الرغم من أن هذه الإجراءات قد وُصفت بأنها "إحياء لعهد الملك شوان" فإن هذه الفترة كانت قصيرة الأجل وبقي غرب "تشو" مليئًا بمشكلات يصعب حلها.

وتحول الملك في سنواته الأخيرة إلى شخص عنيد يتجاهل رأي مستشاريه، حيث زرع الخلاف بين النبلاء بتدخله في شؤونهم، وسماعه للشائعات واتخاذ قرارات قاسية تعسفية، مما سبب لمسؤوليه حالة من الفوضى، كما شن حملات كارثية ضد عدة قبائل في منطقة "تايوان"، وهزم أخيرًا في (789 ق.م) في معركة "تشيانمو" أمام قبيلة "جيانج"، والتي فقد فيها خيرة قوات المملكة وأغرقها في الفوضى.

بعد وفاة الملك "شوان" في 781 (ق.م) تولى ابنه "جي جونج شنج" العرش وكان يعرف باسم الملك "يو".. وبعد عامين فقط من حكمه وقع زلزال قوي في محافظة "شانشي" الوسطى، ويصفه "كتاب الأغاني"بما يلي: "كانت مئات الأنهار تغلي وتمور، وانهارت الجبال والمدافن المرتفعة.. تحولت المنحدرات الشاهقة إلى وديان، وأصبحت الوديان أرضًا مسطحة".. أعقب ذلك سنوات متتالية من الجفاف، حيث جفت أنهار"جينج" و"وي" و"لو"، وصار الناس في عوز شديد مما أدى إلى اضطرابات اجتماعية وعدم استقرار سياسي، إضافة إلى ضعف في الإنتاج كان من نتيجته ضعف الدولة، بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية حلت مصائب أخرى من صنع البشر، فبدلًا من محاولة تعزيز المملكة ظهر حاكم منافق استغل الناس وزاد من الفوارق الطبقية؛ كما تعرض لهزيمة ثقيلة في هجومه على القبائل الغربية، ومع عدم كفاءة المسؤولين وتعارضهم مع القيادة وقوة الدولة، أصبحت أسرة "تشو" على شفا الانهيار التام.

ويقال إن الملك "يو" قد أغضب النبلاء بفعل شديد الحماقة كما لو كان يستعجل نهايته بيده، إذ كانت محظيته المفضلة "باو سي" باردة المشاعر رغم جمالها الفائق، وكان الملك يتوق لجعلها تبتسم، وللقيام بذلك، قيل إنه مارس خدعة ما على نبلائه.. وتروي القصة أنه كان لمملكته نظام إنذار مبكر ضد غزو القبائل الشمالية الغربية في شكل أكثر من عشرين منارة موضوعة على جبل "لي" بالقرب من العاصمة "هاوجينج"، وبمجرد إضاءتها كان على النبلاء الإسراع للدفاع عن الملك، بناء على اقتراح المستشار، صعد الملك جبل "لي" مع "باو سي"، وأضاء المنارات، ثم بقي ليرى النبلاء وجيوشهم يزحفون إلى الموقع، وراق المشهد لـ"باو سي" حقًا مما أفرح الملك كثيرًا ودفعه لتكرار المهزلة مرات عدة، مما أدى إلى فقدان النبلاء الغاضبين للثقة في ملكهم ونظام المنارات.

وكان افتتان الملك العميق بـ"باو سي" سببًا لقراره بالتخلي عن ملكته -الملكة "شين"- ونزع مقاطعة العهد عن ابنه "ييجيو" وتنصيب "بوفو" ابنه من"باو سي" وليًا لعهده بدلًا منه، وكان والد الملكة "شين" -ماركيز شين- غاضبًا، مما دعاه للهجوم على "هاوجينج" بمساعدة قبيلة "تشوانرونج" من الغرب.

فأمر الملك جنوده على الفور بإشعال المنارات لاستدعاء محاربيه لكن للأسف، كان النبلاء قد اكتفوا من ألاعيبه ورفضوا المجيء، حتى جنوده داخل "هاوجينج" كانوا مشمئزين من أفعاله ولم يفعلوا شيئًا يُذكر لمساعدته، ونتيجة لذلك، اقتحم جيش "تشوانرونج" العاصمة، وحاول الملك الفرار إلا أنه قتل أثناء محاولته ذلك في قصره، وبذلك انتهت 270 عامًا من حكم أسرة "تشو" الغربية.

بعد ذلك، نصبت ولايات "شين" و"لو" و"شو" ولي العهد السابق "ييجيو" على العرش في مقاطعة "شين" -مدينة "نانيانج" الحالية في مقاطعة"هنان"-، وأصبح يعرف باسم "بينج" ملك "تشو"، ونتيجة لتهدم العاصمة "هاوجينج" في

الحرب، نقل الملك "بينج" العاصمة شرقًا إلى "لو يي" في عام (770 ق.م) بمساعدة من ولايتي "جين" و"تشينج"، في محاولة لدعم النظام المتزعزع في ما عرف بمملكة "تشو" الشرقية، وكانت هذه بداية حقبة الربيع والخريف (770 - 476 ق.م).

حقبة الربيع والخريف

انحدار العائلة الملكية

عانت أسرة "تشو" الشرقية منذ البداية بالمقارنة مع أيام المجد في "تشو" الغربية، فبينما كان ملوك "تشو" الغربيون يمتلكون مساحات واسعة من الأراضي تمتد بين عاصمتهم الغربية "هاوجينج" والعاصمة الشرقية "لويي"؛ وأراضي أنهار "وي" و"جينج" و"لو" والنهر الأصفر كلها تحت ولايتهم.

ووسط "شانشي" الذي تقع "هاوجينج" في وسطه قاعدة لازدهار "تشو"، حتى أطلق عليه "أصل تشو"، وكانت العاصمة الشرقية "لويى" بمثابة مركز حماية رئيس كان يعرف باسم "معقل تشو".. أما الآن ومع فقدان "هاوجينج" أصبحت أسرة "تشو" الشرقية تمتلك فقط الزاوية الشمالية الغربية من "هنان"، وكان هذا الجزء الضيق ذو الكثافة السكانية المنخفضة من الأراضي يعادل حجم مقاطعة متوسطة الحجم؛ والكثير الذي منح للنبلاء والأمراء وغيرهم من المسؤولين، قد اختطفه نبلاء آخرون، أو احتلته القبائل العرقية فلم يتبق منه سوى القليل، كما استنفدت قوى الجيش بشدة ففي ذروة مجدها نشرت أسرة "تشو" الغربية ست شعب لحراسة "هاوجينج" وثماني فرق في "لويي" تتضمن في مجموعها أكثر من مائة وأربعين ألف جندي.. وعندما انتقل الملك "بينج" إلى الشرق، فإن الانخفاض في كل من مساحة الأرض وعدد السكان تحت تصرفه أدى إلى عدم قدرته على جمع جيش قوي، ويمكن أن يعزى الانحدار التدريجي لأسرة "تشو" الشرقية إلى فقدان قوتها الاقتصادية والعسكرية على حد سواء.

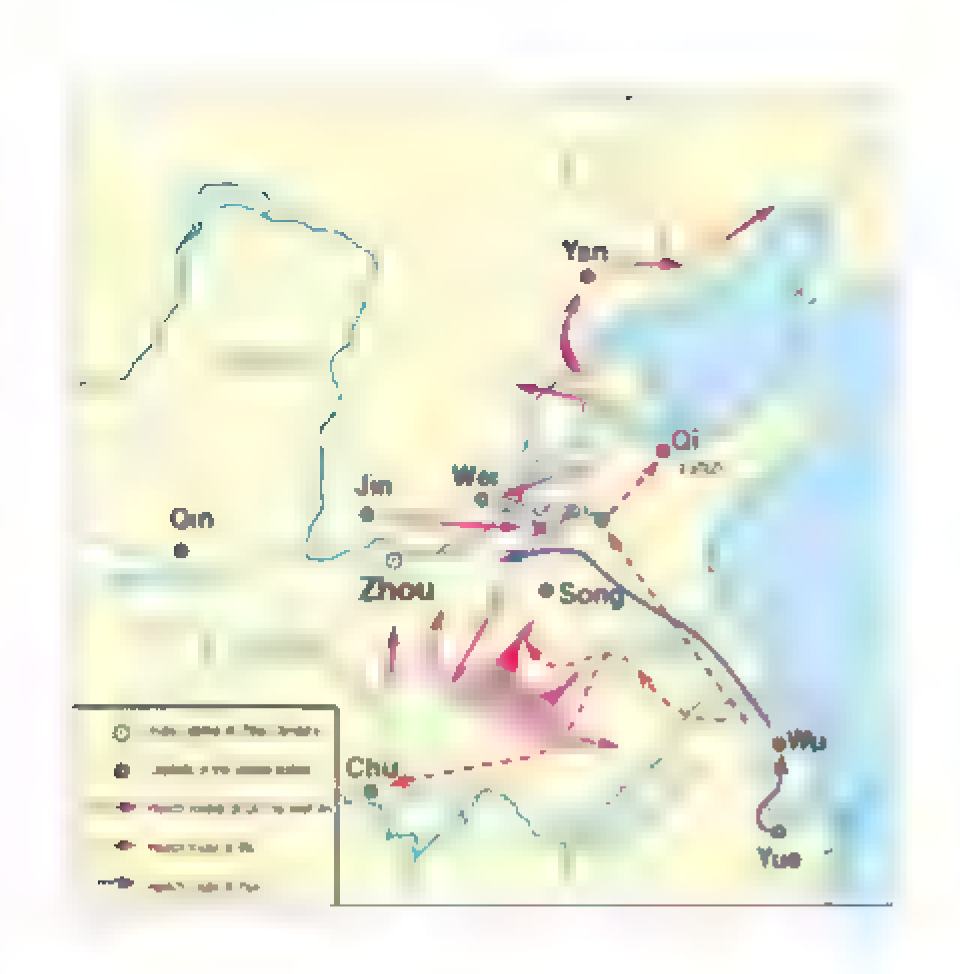
وتفرغ الملك "بينج" لمكافأة من ساعدوه في اعتلاء العرش.. وكان أحدهم جده لأمه ماركيز "شين" الذي منحه إقطاعية، وآخر كان أمير "تشوانج تشينج"، الذي عينه وزيرًا كبيرًا في البلاط.

وبحلول الوقت الذي أصبح فيه أمير "تشوانج" رئيسًا لقبيلة "تشينج" التي صارت قوتها تشكل تهديدًا مباشرًا للملك "بينج"، مما جعله حذرًا من الأمير، وتباعد الاثنان عن بعضهما حتى حلت اللحظة التي كان فيها أمير "تشينج" بعيدًا لرعاية شؤون ولايته وسمع أن الملك يعتزم إبعاده عن منصبه في البلاط، فعاد فورًا إلى "لويي" للمطالبة بتفسير.. اعتذر الملك، لكن حدة التوتر بينهما استمرت في الارتفاع، ولاسترضاء الأمير، قدم الملك ولي عهده "جي هو" كرهينة لمقاطعة "تشينج"، ومن أجل الحفاظ على كرامة الملك جعل الوزراء الأمر يبدو كما لو كان الأمير قد ذهب في رحلة دراسية، واقترحوا أيضًا نوعًا من تبادل الرهائن بحيث يأتي "هو" ابن أمير "تشينج" أيضًا ليعيش كرهينة في العاصمة، وأصبحت القضية برمتها تعرف باسم "تبادل الرهائن بين تشو وتشينج"، وعكس ذلك بشكل عام تراجع سلطة العائلة المالكة التي كانت تكافح الآن للحفاظ على وجودها ضد النبلاء الأقوياء في "تشو".. وفي الواقع، كان الملك هو الحاكم الأعلى اسميًا فقط، وتحته تتنافس ولايات قوية مثل "تشينج" و"جين" و"تشي" و"لو" و"يان" و"سونج" و"تشو" بعضها مع بعض، وتواجهت مع بعضها في حرب على الأرض والسكان ومحاولات فرض السيطرة على الدول الأخرى، وبدءًا من هذه النقطة، دخلت الصين فترة مضطربة من التغيير الجذري.

"هوان" أمير "تشي" و"ون" أمير "جين"

شهدت الأعوام المائتان والاثنان والأربعون التي استغرقتها حقبة الربيع والخريف ما لا يقل عن أربعمائة وثلاثة وثمانين حربًا، وقد ارتفع الحكام الأقوياء واحدًا تلو الآخر وتصادموا باستمرار في مسعاهم للاستحواذ على السلطة (انظر الخريطة 1).

خريطة (1): المدن المتحاربة من أجل الحصول على زمام القوة في فصلي الربيع والخريف



وارتفع خمسة أشخاص في نهاية المطاف إلى المقدمة، وعرفوا باسم سادة حقبة الربيع والخريف الخمسة الكبار.

كان أولهم أمير "هوان"، أمير "تشي"، ولد باسم"جيانج شياو باي"، وكان أخوه الأكبر غير الشقيق أمير "شيانج" حاكمًا غبيًّا، كان على اتصال بأخته غير الشقيقة زوجة أمير "هوان" أمير مقاطعة "لو"، واندلعت الفوضى عندما قتل شقيق زوجته إذ فر الأمراء الأصغر سنًّا، "شياوباي" و"جيو" إلى ولايتي "جو" و"لو" على التوالي.

وعندما استقرت الأمور طلب نبلاء "تشي" منهم العودة والحكم مكان أمير "شيانج"، ومن أجل منع "شياوباي" من العودة نصب له الأمير "جيو" كمينًا بمساعدة رجل يدعى "جوان تشونج"، وأُطلق سهمًا على "شياو باي" إلا أنه أصاب قفل حزامه البرونزي.. لكنه سقط على الأرض وادعى الموت، واستطاع في ما بعد أن يسبق الأمير "جيو" ويستخلص العرش لنفسه، ويسميه المؤرخون الآن باسم "هوان" أمير "تشي".

بدأ حكم أمير "هوان" بسلسلة من الإجراءات الطائشة للانتقام من كمين "جيو"،

إذ جمع جيشًا لمهاجمة دولة "لو" وأجبر "جيو" على الانتحار، ثم شن هجومًا آخر على "لو" في عام (684 ق.م) وهو عامه الثاني في السلطة إلا أنه اندحر في هزيمة ساحقة، وفي وقت لاحق أحبطت استراتيجيته لضم قواته مع قوات مقاطعة "سونج" لمهاجمة مقاطعة "لو" لأن "سونج" عانت هزيمة مفاجئة على يد قوات "لو".

وبالنظر إلى أن خطط أمير "هوان" أحبطت مرارًا، أوصى المستشار "باو شويا" برجل ذي مواهب لخدمته ولم يكن سوى "جوان تشونج"، الذي ساعد "جيو" في كمينه وأطلق السهم.

أقنع "باو" أمير "هوان" بنسيان الأحقاد، وبحكمة كلف "جوان" بإصلاح الشؤون الداخلية وتطوير الإنتاج وبناء قوة دولته، ومع هذا المزيج من الحرفية والبراعة العسكرية، بدأت "تشي" بالتَّنَمُّر ضد الولايات الأخرى لإخضاعها من خلال إبادة جيرانها الأصغر، وأيضًا تحسين هيبتها من خلال التوسط في صراعات الولايات التابعة.

ودعا أمير "هوان" ولايات "سونج" و"تشن" و"وي" و"تشينج" لتشكيل التحالف في عام (679 ق.م) الذي شهد بداية حكمه وسيطرته.

وفي (667 ق.م) دعا قادة "لو" و"سونج" و"تشن" و"وي" و"تشينج" و"شو" و"هوا" للقاء في "يو" -داخل مقاطعة "سونج"- لإبرام التحالف بعد إخضاع مقاطعة "تشينج"، وهنا منح "تشاو بو" –ممثلًا عن ملك أسرة تشو- أمير "هوان" لقب الماركيز، وكانت هذه هي اللحظة التي بدأ فيها أمير "هوان" حكمه كأحد السادة الكبار.

كان القاتل الذي غفر له أمير "هوان" "جوان تشونج" لاعبًا محوريًّا في كل هذا، وبدأ الأمير ينظر إليه باحترام عميق حتى أنه قال لوزرائه: "يجب تقديم التقارير عن جميع شؤون الدولة إلى "جوان تشونج" أولًا قبلي شخصيًّا، وتترك جميع القرارات لتقديره الخاص".. وتمحورت قوة "جوان" الرئيسة في خبرته

الاستراتيجية، وكان أول إصلاحاته في الشؤون الداخلية من خلال إنشاء نظام إدارة لتعزيز السلطة المركزية للنظام الملكي، ثم عين مسؤولين للإشراف على إنتاج الأملاح والأدوات الزراعية؛ نظرًا لأن تضاريس مملكة "تشي" شملت الجبال والبحر، ورفع الرسوم على تصدير الأسماك والأملاح لتعزيز التجارة، وشجع الزراعة وبناء مصائد الأسماك وإنتاج الحديد، كما جعل جمع الضرائب يعتمد على حالة الأرض، الأمر الذي رفع معنويات المزارعين بشكل كبير، إضافةً إلى إنشائه وحدات عسكرية تدرب على أساس المكان الذي يعيش فيه الجنود، مما زاد من تماسكهم وحماستهم.. كل هذه السياسات أثرت وعززت حالة "تشي"، وكان له الفضل في نجاح أمير "هوان" العسكري أيضًا، حيث كان هو مَن وضع الخطة للهجوم في الشمال أولًا ثم الجنوب، وأيضًا تشكيل التحالفات التي مكنت "تشي" من قمع ولايات "تسي" و"تشو"؛ وبالنظر إلى أن هذه الدول لم تخضع لملك "تشو" فقد انضوت تحت حكم "تشي"، ويدعي كتاب "سجلات المؤرخ" أن "جوان تشونج" هو صاحب الفضل في ارتفاع أمير "هوان" لمرتبة الحاكم الأكبر.

وفي الوقت ذاته الذي ارتفعت فيه مكانة أمير "هوان" وسلطته، كانت محافظة "جين" -وتقع في مقاطعة "شانشي" الحالية- آخذة في الارتفاع أيضًا، ففي الوقت الذي تولى فيه أمير "شيان" الحكم كانت "جين" قد صارت محافظة قوية كواحدة من ولايات مملكة "تشو" الغربية، ومع ذلك، فقد عين الأمير المهووس بالجنس في شيخوخته ابنه الأصغر بدلًا من ابنه الأكبر وليًا للعهد، مما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية، واضطر الابن الأكبر "تشونج إير" إلى الرحيل للمنفى مدة تسعة عشر عامًا اكتسب خلالها ثروة من الخبرة السياسية.

وفي عام (636 ق.م)، عاد "تشونج إير" الذي يبلغ من العمر واحدًا وستين عامًا لمقاطعة "جين" بمساعدة مقاطعة "تشين" واعتلى العرش وأصبح أمير "ون" حاكم "جين"، وسرعان ما أثبت أنه زعيم رائع من خلال تعيين الرجال الموهوبين في المناصب الرئيسة، وقيل إنه نجح في خلق جو سياسي ليبرالي

مع الحفاظ على تبجيل عائلة "تشو" المالكة، كما بنى قوة "جين" العسكرية، وعقد تحالفات مع ولايتي "تشي" و"تشين" واحتوى مقاطعة "تشو".

كما قام أمير"ون" بإلغاء النظام الوراثي في مناصب كبار المسؤولين، معينًا إياهم بنفسه بدلًا من ذلك.. واستعاد الأراضي الزراعية، وأنشأ مشاريع الري، وخفض الضرائب وشجع الزراعة والتجارة، ونتيجة لذلك؛ ازدهرت مقاطعة "جين"، وبحلول (635 ق.م) اندلع نزاع داخلي داخل عائلة "تشو" المالكة، وقاد أمير "ون" بنفسه قواته لدعم الملك، مما رفع مكانته بين الحكام التابعين، كما منحه الملك "شيانج" ملك "تشو" أربع مقاطعات ذات أهمية استراتيجية، وهي "يانج فان" و"ون" و"يوان" و"تسوانماو".

وفي الوقت نفسه توفي أمير "هوان"، وبدأت قوة "تشي" في الاضمحلال، وقد سمح ذلك لدولة "تشو" القوية بتوسيع نفوذها إلى حوض النهر الأصفر وإخضاع عدد من الولايات الصغيرة تحت سيطرتها، كما أحبطت "تشو" محاولة "سونج" لفرض هيمنتها مهددة بالتالي بالسيطرة على السهول الوسطى.. ساعد كل هذا في تأجيج الصراع الذي صار لا مفر منه بين "تشو" و"جين"، حيث سعت الدولتان لقيادة الصين وكان أمير "ون" يفهم هذا بشكل جيد جدًا إلا أنه تصرف في الوضع بحذرٍ، فساعد "تشين" على احتلال "رو"، وهي مقاطعة صغيرة تابعة لـ"تشو"، مما أدى لاندلاع خلاف بين "تشين" و"تشو"، وحاول أيضًا زعزعة استقرار حلفاء "تشو" وتجنب الاشتباك المبكر معها.

ثم في عام (633 ق.م) قاد أمير "تشينج" حاكم "تشو" جيشًا من الحلفاء لحصار مناطق "سونج"، فطلبت "سونج" مساعدة منطقة "جين".. لذلك استغل أمير "ون" هذه الفرصة للتحضير للحرب وتنظيم وتوسيع جيشه إلى ثلاث وحدات بدلًا من اثنتين، ثم استولى على حلفاء "تشو" و"وي" و"تساو" لإغراء "تشو" ليأتوا لإنقاذهم مما لم يستنفد قوات "تشو" فحسب، بل رفع حصارهم عن"سونج"، ثم وعد سرًا بإعادة السيادة الذاتية لـ"تساو" و"وي" في حالة قطعهما العلاقات مع "تشو"، عازلًا إياها عن الجميع.

وعندما تواجهت جيوش "جين" و"تشو" وجهًا لوجه تراجع أمير "ون" بشكل استراتيجي وأرهقت المطاردة جيش "تشو"، وفي معركة "تشينج بو" الحاسمة، شنت "جين" هجومًا مفاجئًا وربحت المعركة على الرغم من عدد قواتها الأقل، وكبحت هذه الأحداث التي أصبحت تعرف باسم "حملة تشينجبو" تقدم "تشو" شمالًا.. وفي الشهر الخامس من نفس العام دعا أمير "ون" رؤساء "تشي" و"سونج" و"لو" و"تساي" و"تشينج" و"وي" و"يو" و"تشن" للاجتماع في "جيانتو" جنوب غرب "يوانيانج" الحالية في محافظة "هنان"، وأنعم عليه الملك "شيانج" ملك "تشو" بلقب ماركيز، وأعطاه السيطرة على جميع الولايات التابعة.. وهكذا، أصبح أمير "ون" الجديد من الحكام الكبار مثل أمير "هوان" حاكم "تشي"، لكنه توفي بعد خمس سنوات فقط في عام (628 ق.م).

ثلاث زعامات متعاقبة

بعد وفاة الأمير هوان حاكم "تشي" بدأت جولة جديدة من المعارك من أجل التفوق؛ فبداية كان أمير "شيانج" حاكم "سونج" الذي حاول أن يترقى حيث كان شعب "سونج" من سلالة أسرة "شانج" (1600 - 1046 ق.م) الذين سُمح لهم بالبقاء على قيد الحياة على الرغم من هزيمتهم على يد أسرة "تشو".

وكان أمير "شيانج" دائمًا من أتباع أمير "هوان" حاكم "تشي"، ولكن عندما قاد الاضطراب الداخلي في "تشي" ولي العهد "تشاو" لطلب مساعدته، اعتقد أن هذه فرصته للحصول على مجده الخاص.

وفي عام (642 ق.م) تحالف مع ولايات "وي" و"تساو" و"تشو"، ورافق ولي العهد "تشاو" في أثناء عودته إلى "تشي" ليصبح أمير "شياو".. ومن المثير للدهشة أنه لم يحرز الكثير نتيجة جهوده، لكنه استمر في مساعيه لعقد التحالفات وكسب السلطة، ومع ذلك، شن جنود "تشو" هجومًا مفاجئًا وأسروه في (639 ق.م) في اجتماع لقادة التحالف، وأعقب ذلك هجوم على العاصمة "سونج"، ولحسن حظ زعيمها قاتلت قواته ببراعة وأوقفت هجوم "تشو"،

وأطلق سراح "شيانج" نفسه، لكنه فهم أن "تشو" لا يمكن أن تهزم.. فبدلًا من ذلك، التفت إلى "تشينج" التي كانت على علاقة جيدة مع "تشو".

وفي (638 ق.م) شن هجومًا عليها على الرغم من نصيحة وزرائه له بألا يفعل، وجاءت "تشو" لإنقاذ حليفتها ووقعت معركة حاسمة بين "سونج" و"تشو" في ما هو معروف الآن بمنطقة نهر "هونج" في محافظة "تشي تشينج" شمال غرب مقاطعة "هنان".. وبينما تمتعت قوات "تشو" بالقوة تمركزت قوات "سونج" في موقع مناسب، ولكن أمير "شيانج" تجاهل مرة أخرى مشورة وزرائه فبدلًا من الاستفادة من موقعه، سمح لقوات "تشو" بعبور نهر "هونج" وهنا ضاع كل شيء.. انهزم جنود "سونج" هزيمة ساحقة نتيجة لعزلتهم وعددهم القليل لدرجة أن أمير "شيانج" نفسه فر مذعورًا، ومات بعدها بوقت قصير.

سمحت الفوضى التي سببها أمير "شيان" في مقاطعة "جين" -قبل صعود أمير "ون" للسلطة- لمقاطعة أخرى وهي مقاطعة "تشين" أن تكتسب مزيدًا من السلطة، وكان أمير "شيانج" حاكم "تشين" قد اصطحب الملك "بينج" ملك "تشو" عندما نقل العاصمة إلى "لويي"، لذا كافأه الملك بإعطائه الأرض الواقعة غرب جبل "تشي"، إلا أن قبائل الأقليات احتلتها.. وعلى مدى سنوات من النضال الشرس، أصبحت مقاطعة "تشين" تدريجيًّا قوية ومزدهرة، وبحلول وقت اعتلاء أمير "مو" العرش احتل أكثر من نصف منطقة "شانشي" الوسطى، ومع ذلك، كانت "تشين" لا تزال متخلفة ثقافيًّا بالمقارنة مع ولايات السهول الوسطى على الرغم من اتساع مساحتها، وأضعف نوعًا ما من مقاطعة "جين".

وفي ضوء ذلك، قرر أمير "مو" العمل وفق خطة مزدوجة، أولًا: مواصلة استعادة الأراضي من القبائل في الغرب.. وثانيًا: تحقيق الهيمنة على السهول الوسطى، والأهم من ذلك كله كان وجود مقاطعة "جين" على حدودها عائقًا كبيرًا أمام خططها لمنطقة وسط الصين.

كان لدى أمير "مو" الرغبة الدائمة للاستفادة من مقاطعة "جين".. وتحقيقًا لهذه

الغاية، أقام رابطة بين الولايتين من خلال زواجه بـ"مو جي" ابنة أمير "شيان"، لكن حكام وشعب "جين" كانوا على علم تام بطموح أمير "مو"، واندلعت الأعمال العدائية بين "تشين" وخلفاء أمير "شيان".

بداية بدا أن الميزان يميل لصالح "تشين"، ولكن أمير "مو" ارتكب خطأ بعد ذلك، حيث رحب بأمير "جين" المنفي "تشونج إير" في "تشين"، وزوجه ابنته "ون يينج" على أمل تعزيز الصداقة بينهما، ثم أرسل "تشونغ إير" إلى ولايته ليتولى الحكم باسم أمير "ون"، ولكن أمير "ون" تمتع بذات دهاء أمير "مو"، فعرقل محاولة "تشين" لإرسال قوات لمساعدة الملك، مما خنق جهوده للسيطرة على السهول الوسطى عندما بدأ الاقتتال الداخلي في عائلة "تشو" المالكة.

كما ساعد أمير "ون" مقاطعة "تشين" في الاستيلاء على قطع صغيرة من الأرض تابعة لمقاطعة "تشو"، مما زرع العداء بينهما واضطرت "تشين" لتشكيل تحالف حقيقي مع "جين"، وأدى كل هذا إلى انتصار "جين" على "تشو" في حملة "تشينج بو"، وترسيخ زعامة "جين"، وبهذا كان الأوان قد فات عندما أدرك أمير "مو" خطأه.

وقد خاض أمير "مو" ثلاث معارك مع "جين" بعد وفاة أمير "ون"، ولكن جيشه اندحر بشكل تام في معارك "شياوشان" و"بينج يا".

وفي عام (625 ق.م)، قاد أمير "مو" شخصيًا القوات في حملة عقابية ضد "جين"، وعلى الرغم من أنه فاز في المعركة فإن حصن "تاولين" ذي الأهمية الاستراتيجية لتوسع "تشين" إلى الشرق ظل تحت سيطرة "جين"، ولم يتمكن أمير "مو" من الزحف شرقًا فشن هجومًا ضد القبائل في الغرب بمساعدة "يو يو"، الذي كان على دراية بهذه الجماعات، حيث هاجم أقواها أولًا ثم دحر البقية كلا بدوره.

وفي النهاية.. بنجاحه اعترف به الملك "شيانج" ملك "تشو" بمنحه لقب سيد الأميرات والأمراء في الغرب.

وفي الوقت نفسه، سيطرت "جين" على وسط الصين، وكانت مقاطعة "تشو" الآن في خضم حالة من الاضطرابات، حيث تولى الملك "تشوانج" عرش "تشو" وهو لم يبلغ بعد العشرين من عمره في (613 ق.م)، وكان تمرد الأمراء والمجاعة الشديدة والمشكلات مع القبائل مشكلات كثيرة يواجهها الملك الشاب، الذي بدا في البداية غير مهتم بشيء سوى متعته الخاصة، لكنه نضج بسرعة، وبعد ثلاث سنوات فقط أصبح لديه فهم للشؤون الداخلية والخارجية ومعرفة بمن يستطيع الوثوق به من وزراء وجنرالات، وهكذا تخلص من المنافقين وعين وزراء كانوا قادرين على وضع الاقتصاد في مساره الصحيح، مما أدى إلى سرعة تحقيق الاستقرار الاجتماعي، وتحسين مستويات المعيشة وبناء جيش مدرب تدريبًا جيدًا.

والآن أمكن لمملكة "تشو" التي عادت للحياة أن تبدأ بالتحرك شمالًا إلى السهول الوسطى، استعدادًا لخوض معركة من أجل التفوق مع "جين".

قرر الملك "تشوانج" استخدام تكتيكات الالتفاف لقطع الأفرع قبل ضرب الجذع لإرهاق قوات "جين"، وهزم تعزيزات "جين" عام (608 ق.م) في معركته مع "تشن" و"نينج"، ثم هاجم قبيلة "لوهون" مندفعًا أكثر إلى الشمال على طول نهر "لو" عام (606 ق.م)، ولدى وصوله إقليم ملك "تشو"، دخل محادثات مع مبعوث الملك "وانج سونمان"، وشرع "وانج" الذي اتصف بالشجاعة وسرعة البديهة بتأنيب الملك "تشوانج" قائلًا: "إن الدول التابعة لن تقسم بالولاء له حتى لو استولى على العصي الثلاثية التسعة -رمز عرش "تشو"- لأنها لن تخضع إلا لشخص صاحب فضيلة".. وإدراكًا منه أن بيت "تشو" الملكي لا يزال فيه العديد من الأشخاص المؤهلين، أمر الملك "تشوانج" قواته بالانسحاب، وتلا ذلك فترة وطد فيها حكمه بقمع تمرد النبلاء وتوسيع حدود "تشو" إلى حوض نهر "هواي"، وحافظ على حدود "تشو" الجنوبية الشرقية بعقد حلف مع ولايتي "وو" و"يوي".

وفي الفترة من (606 إلى 598 ق.م)، شنت "تشو" سبع هجمات على مقاطعة "تشينج"، وفي الوقت نفسه كان حاكم "جين" على خلاف مع وزرائه، وانتظرت "تشينج" الدعم من "جين" ليلًا ونهارًا لكنها لم تصل أبدًا.

وأخيرًا، اضطرت مقاطعة "تشينج" للدخول في حلف مع "تشو" وتقديم ولائها لهم، والتقت قوات "جين" المتأخرة مع جيش "تشو" في "بيان" الواقعة شمال شرق "يينج يانج" الحالية في محافظة "هنان"، ولكنهم لم يتمكنوا من الاختيار بين قراري الحرب أو الهدنة، وكان جيش "تشو" من ناحية أخرى، يسعى لفرصة للانتقام من هزيمته في "تشينج بو"، كما كانت معنويات قواته عالية جدًّا بعد هزيمة "تشينج".

شن جيش "تشو" هجومًا مفاجئًا ضد قوات "جين" عندما كانت قواته لا تزال غير منظمة، وهزمت "جين" هزيمة ساحقة في معركة "بيان".. بعد ذلك اجتاحت "تشو" وسط الصين بلا رحمة وعجزت "جين" عن منعها، وهكذا حقق الملك "تشوانج" ملك تشو أخيرًا حلمه وتطلعاته المبكرة بفرض الهيمنة على السهول الوسطى: "لا تطر وإنما حلِّق، وأبهر العالم بعمل واحد متفرد".

سعي "وو" و"يو" خلف السلطة

وفقًا للأسطورة، كان لزعيم قبيلة "تشو" "جي دان" ثلاثة أبناء: "تاي بو"، "يو تشونج" و"جيلي"(5)، وعند إدراكه لمؤهلات حفيده "جي تشانج" ابن "جيلي" اختار "جيلي" ليخلفه، ونتيجة لذلك، هرب "تاي بو" و"يو تشونج" إلى "وو" و"يوي" على طول الساحل الجنوبي الشرقي، حيث قصَّا شعرهما ووشما جسديهما للهروب من "جيلي"، وكانت هذه المناطق ما زالت غير متطورة في حين جلب "تايبو" و"يو تشونج" الثقافة المتقدمة والتكنولوجيا من السهول الوسطى؛ لذلك اختار السكان المحليون تايبو زعيمًا لهم وأنشؤوا مقاطعة "وو" -المعروفة أيضًا باسم "جو وو" أو "جو وو"- وحتى ذلك الوقت، لم يكن لها علاقة تذكر بالقتال على السلطة الذي كان مندلعًا وسط الصين.

وتظهر "وو" لأول مرة في كتب التاريخ في عام (601 ق.م) عندما قمع الملك "تشوانج" ملك "تشو" انتفاضة "شو لياو" وشكَّل تحالفًا مع "وو" و"يوي".

في 584 (ق.م) فقد فرَّ أحد وزراء "تشو" "وو تشن" إلى "جين" في أعقاب صراع داخلي فاشل للاستيلاء على السلطة، ولينتقم لنفسه اقترح أن تقوم قوات "جين" بالاستيلاء على "وو" لإضعاف "تشو".

وافق حاكم "جين"، وأرسله إلى "وو" ممثلًا عنهم.. وضع ملك "وو" ثقته في "وو تشن" وطلب منه تدريب جيشه، ولم تمضِ فترة طويلة حتى كان جنود "وو" قد أتقنوا التكتيكات الحربية الأكثر تقدمًا في السهول الوسطى، قتال العربات الذي أضافوه إلى مهاراتهم الأصلية، ثم بدؤوا بمهاجمة "تشو" كل عام، مستنفدين طاقات قوات "تشو" متسلحين بالمكر والمرونة، ولكنهم افتقروا إلى القوة العسكرية لخوض معركة استراتيجية على أراضي "تشو".

وفي العام الثاني عشر من حكم الملك "لياو" على "وو"، شن جيشه هجومًا على "ويتشيان" في مقاطعة "تشو" -شمال شرق "هوشان" الحالية بمقاطعة آنهوي- وسد "بو تشيوان" ملك "تشو" طريق الرجعة على قوات "وو"، مما سبب لهم المشكلات. وقد اغتنم الأمير "جوانج" ابن عم الملك "لياو" فرصة إقامته مأدبة على شرف الملك "لياو"، حيث رتب سرًّا لقتل الملك، ثم أعلن نفسه ملكًا باسم "هيلو"، وبدءًا من تلك اللحظة تناقصت الهجمات ضد "تشو".

خلال تلك الفترة، كانت "تشو" مليئة بالاضطرابات السياسية، وتولى العرش ملك جديد غير كفء هو الملك "بينج"، الذي عين مسؤولين عديمي الضمير وقتل العديد ممن اتصفوا بالاستقامة، مما أدى إلى انشقاق بعضهم وفرارهم إلى "وو".

وفي الوقت نفسه، جاء الخبير الاستراتيجي المتميز "صن وو" أيضًا إلى "وو"؛ لمساعدة الملك في تدريب قواته، وبناءً على نصيحة هؤلاء الرجال، نفذ جيش "وو" استراتيجية الهجمات المنظمة التي تنتهي بالانسحاب بمجرد وصول

الدعم إلى مسرح المعركة، وبالتالي أرهق ذلك قوات "تشو" وقادهم إلى الاعتقاد بأن قوات "وو" كانت ضعيفة نسبيًا.

استمر هذا السيناريو لمدة ست سنوات، ثم في (509 ق.م) حققوا انتصارًا حاسمًا عندما غزت "وو" "جوتشاو" -الواقعة اليوم بمدينة "تشاوهو" بمقاطعة "آنهوي"- وبعد هذه المعركة، تعهدت جميع الأراضي والبلدات الواقعة شرق "يوجانج" في "تشو" بالولاء لـ"وو".

وفي شتاء عام (506 ق.م)، شنت ولايات "وو" و"تساي" و"تانج" حربًا واسعة النطاق ضد مقاطعة "تشو"، حيث قامت قوات "وو" بتطويق العدو من الشمال الشرقي، حيث كانت الدفاعات أضعف واجتاحت المناطق النائية من "تشو"، وعندما اجتمعت الجيوش عند نهر "هان"، اتخذ الجنرال "نانج وا" قائد قوات "تشو" القرار الطائش بالعبور قبل وصول التعزيزات.

جذب جيش "وو" العدو في العمق قبل شن هجوم مضاد واسع النطاق، ونتيجة لذلك هَزم جيش "تشو" هزيمةً ساحقةً، ولم يعد هناك من يتصدى لقوات "وو" التي شقت طريقها بالحديد والنار إلى "ينجدو" عاصمة "تشو"، وقد هرب الملك "تشاو" على عجل، بينما كان وزيره "شين باوشو" يناشد مقاطعة "تشين" للمساعدة باكيًا أمام بلاط تشين سبعة أيام بلياليها حتى استسلم "آي" أمير "تشين".

وعلى الرغم من الانتكاسات الداخلية وهجمات مقاطعة "يو" واصلت قوات "وو" هجماتها على "تشو"، حتى نقلت عاصمة "تشو" إلى "رو" وانمحت قوتها في النهاية.

وفي (496 ق.م)، توفي الملك "يو تشانج" ملك "يو"، واعتلى "جوجيان" العرش، واغتنم الملك "هيلو" ملك "وو" الفرصة لضرب جاره عند سماع الأخبار، إلا أن "جو جيان" أرسل مئات السجناء للتصدي للغزاة، ووقفوا أمام جيش "وو" وتقدم هؤلاء الرجال بصيحة واحدة وقتلوا أنفسهم بالسيوف.. وبينما جمد

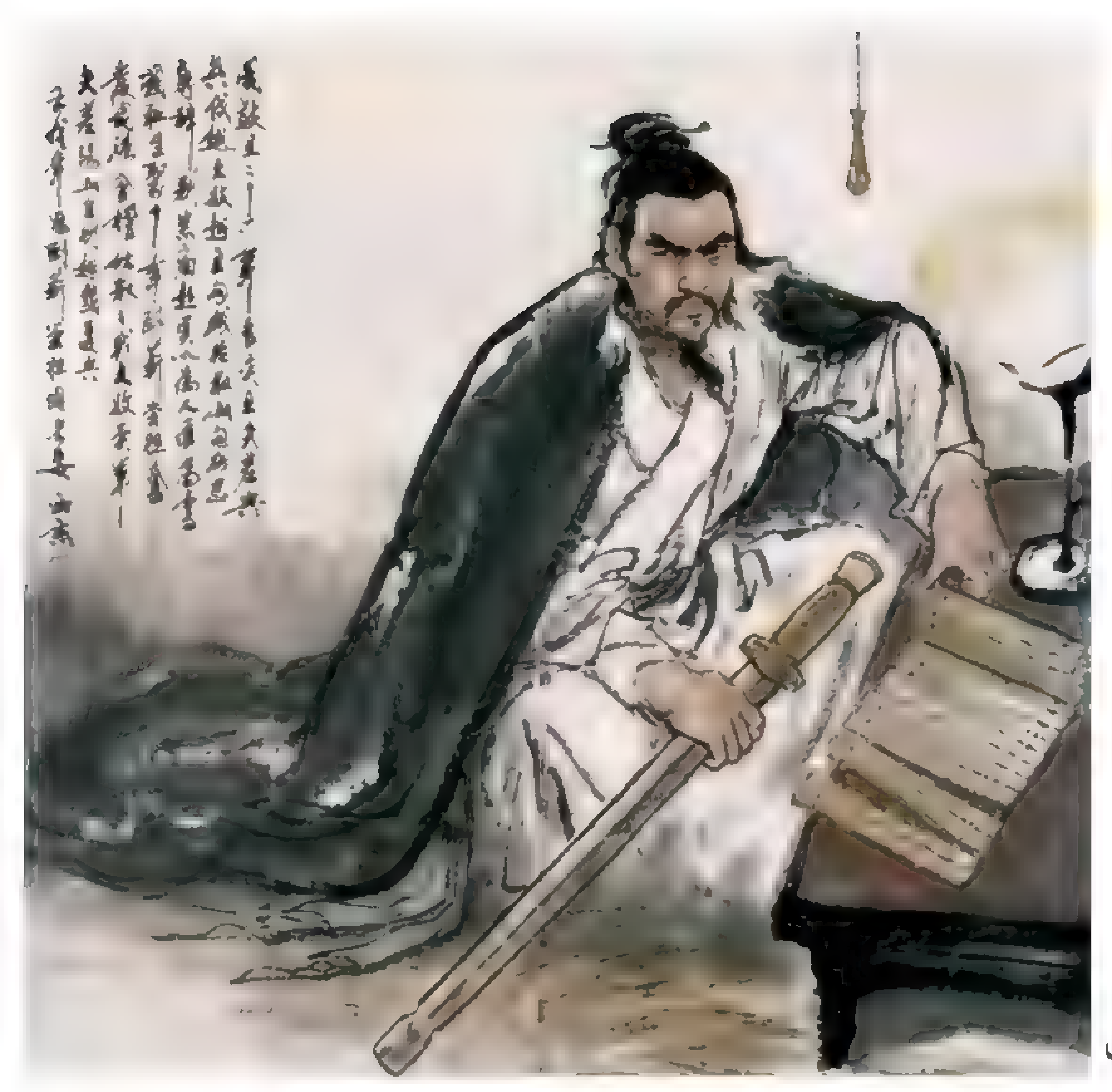
الفزع جنود "وو" تقدم جيش "يو" وفر جنود "وو" في حالة من الفوضى وهزموا في ما أصيب "هيلو" بسهم مسموم وتوفي ولكن ليس قبل حث ابنه "فو تشاي" على الانتقام.

عمل الملك "فو تشاي" بجد على تسوية شؤونه الداخلية وتدريب قواته.

وكان جيشه مستعدًّا عندما شن الملك "جو جيان" هجمة وقائية عام (494 ق.م)، وهزم جيش "يوي" هزيمة ساحقة، واندفعت قوات "وو" خلف القوات المهزومة حتى حاصرت جبل "كوايجي"، حيث لم يبقَ مع "جو جيان" سوى خمسة آلاف جندي فقط، وهنا دعا "جوجيان" للسلام قائلًا إنه مستعد للعمل كعبد لإنقاذ مقاطعة "يو".. قبِل "فو تشاي" العرض؛ ولمدة ثلاث سنوات كان "جو جيان" عبدًا له يربي ويقود الخيول في "وو"، وسمح له "فوتشاي" في نهاية المطاف بالعودة إلى دياره بعد أن حاز ثقته.

وبدأ "جو جيان" يلعب لعبة طويلة المدى وسماها وزراؤه "سنوات الاستجمام العشر" و"سنوات التدريب العشر".

حيث حث الناس على تطوير الإنتاج، مكافئًا لهم على إنتاجهم الوفير، كما قام ببناء جيش أقوى من خلال تحسين تدريب قواته، وبالنظر إلى أن ملك "وو" كان حريصًا على الهيمنة على السهول الوسطى، وبالتالي شارك في كثير من الأحيان في معارك مع "تشي" و"جين" و"تشو"، عقد "جو جيان" تحالفات استراتيجية مع كل من "تشي" و"تشو"، ثم شجع عدوه القديم "فوتشاي" للاندفاع شمالًا دافعًا في الوقت نفسه رشوة لمسؤولي "وو" لتقويض وحدة المقاطعة، وتنص الأسطورة على أنه من أجل الحفاظ على الروح المعنوية العالية وحتى لا ينسى الأعوام الثلاثة التي قضاها في العبودية المخزية، عاش "جو جيان" السنوات العشر بأكملها في كوخ متواضع، وكان ينام على كومة من الحطب ليلًا، متجرعًا المرارة ولتذكير نفسه بتجربة العبودية المريرة يصيح



"سأنتقم!" كل

صباح، مما عزز علاقته بشعبه (انظر الشكل 6).

الشكل (6): لوحة "جوتيان مستندًا على كومة من الحطب أثناء الليل".

في غضون ذلك، كانت عشر سنوات من التنافس على السلطة في منطقة السهول الوسطى جعلت "وو" قوية ظاهريًّا، ولكن ضعيفة من الداخل.

ففي عام (482 ق.م) قاد الملك "فو تشاي" جيشه شمالًا وأسس حلفًا عسكريًّا مع الأميرات والأمراء الآخرين في المنطقة المعروفة اليوم باسم "هوانج تشي" في "فنج تشيو" بمقاطعة "هنان"، وبوصفه من السادة الكبار ضغط على الأميرات والأمراء ليقسموا بالولاء له بتلطيخ أفواههم بالدم، ولكن هذا أعطى الملك "جو جيان" الفرصة التي كان ينتظرها، فبينما كان "فوتشاي" في خضم مفاوضاته قطع التعزيزات عن مقاطعة "وو" ومحا قسمًا من جيشها عند نهر "هونج"، وتقدم إلى "جو سو" عاصمة "وو".

هرع "فو تشاي" عائدًا، لكن معنويات قواته كانت في الحضيض ولم يكن أمامه خيار سوى التوسل من أجل السلام، وعندما رأى "جو جيان" أن الجزء الرئيس من جيش "وو" لا يزال متماسكًا وافق بشكل مؤقت، ولكن بعد أربع سنوات وأثناء معاناة "وو" من أثر سنوات متتالية من المجاعة هاجمهم "جو جيان" مرة أخرى متجهًا نحو "جو سو".. ونتيجة لحصار المدينة لثلاث سنوات، قدم "فوتشاي" نفسه كرقيق إلى "يوي"، ولكن العجلة لم تدر بذات الطريقة، حيث أصر "جو جيان" على الهجوم لضمان النصر، وكان له ما أراد وهنا انتحر "فوتشاي".

بعد غزو "وو"، اتبع جوجيان مثال فوشي، متجهًا شمالًا للقاء الأميرات والأمراء، وتقديم الولاء لأسرة "تشو".

أعطى الملك "يوان" ملك "تشو" لـ"جو جيان" قطعة من اللحم المخصص للتضحية، ومعترفًا به ومانحًا إياه لقب إيرل بين أميرات وأمراء الصين.. وبالتالي أصبح "جو جيان" آخر السادة الكبار في حقبة الربيع والخريف.

القوى السبع في حقبة الدول المتحاربة

سبع قوى تشتبك في المنافسة

كانت أكثر من مائة دولة كبيرة وصغيرة، قد تنافست على السلطة في بداية فترة الربيع والخريف حتى تم القضاء على الأضعف، وبحلول بدايات فترة الدول المتحاربة، لم يتبقَ منهم سوى عشرين دولة فقط، ومن بين هؤلاء دول "هان" و"تشاو" و"وي" (魏) و"تشو"، إضافة إلى "يان" و"تشي"، و"تشين" التي كانت الأقوى بينهم وعرفوا جميعًا باسم "القوى السبع في حقبة الدول المتحاربة".. (انظر الخريطة 2).



خريطة (2): موقع لفترة "القوى السبع للمدن المتحاربة".

لم يكن وجودهم راجعًا كليًّا إلى نتيجة حروب الهيمنة التي حدثت من قبل؛ نظرًا لأن دول "يان" و"تشو" و"تشين" كانت موجودة بالفعل في أوائل حقبة الربيع والخريف، في حين ولدت دول "هان" و"تشاو" و"وي" من انقسام "جين".

تحولت السلطة من يد أسرة "جيانج" إلى أسرة "تيان" في "تشي" في أوائل حقبة الدول المتحاربة وهو تحول في السلطة من يد اللوردات الإقطاعيين ليد المسؤولين البيروقراطيين.

وكانت "جين" قوية بفضل أمير "شيان"، الذي كان قد ضم دولًا أخرى ولم يدخر جهدًا لدعم سلطته، حتى محو نسل الأسر المالكة، وقد عزز أمير "ون" هذه السلطة، وحظر على أبناء الملوك الانضمام للطبقات الأرستقراطية في دولته، ونتيجة لذلك، انتقلت سلطة الدولة تدريجيًّا إلى أيدي كبار المسؤولين حتى أصبح هناك أكثر من عشر عائلات قوية في "جين"، وفي عهد الأمير "داو"، كانت ست منها فقط تتبادل السلطة في ما بينها وهي: "تشي" و"هان" و"تشاو" و"وي" و"فان" و"تشونج شينج".

وفي أواخر حقبة الربيع والخريف، خاضت عائلات "فان" و"تشونج شينج" حربًا كارثية مع "تشاو" و"هان" و"وي"، ممَّا أدى لدمارها.

ومن بين الأربع أسر المتبقية كانت عائلة "تشي" هي الأقوى، ففي عام (455 ق.م)، أغرت "تشي" كلًّا من "هان" و"وي" للانضمام إليها لمهاجمة "تشاو"، ولكن

في أثناء الحصار الطويل لمدينة "جين يانج" - مدينة "يونج جي" الحالية بمقاطعة "شانشي"- أقنعت "تشاو" أسر "هان" و"وي" بتغيير ولائها، ومحيت "تشي"، وقسمت العائلات الثلاث المتبقية أرضها بينها.. وفي (438 ق.م) جاء أمير "يو" إلى سدة الحكم، ولكنه اضطر لتسليم أكثر من نصف أراضيه المتبقية لهذه الأسر الثلاث المتسلطة، وبدءًا من تلك اللحظة قسمت "جين" إلى ثلاث عائلات هي: "جين هان" و"جين تشاو" و"جين وي" واعترفت بها أسرة "تشو" المالكة في (403 ق.م) وأعطتهم لقب أمير بحيث صاروا على قدم المساواة مع أمير "جين".. وأخيرًا عام (376 ق.م)، قسمت العائلات الأرض المتبقية من "جين" وألغيت أميرية "جين"، وبالتالي تم الاستيلاء على الدولة بشكل تام.

وكان ذلك انعكاسًا للطبقة الناشئة من أصحاب الأراضي، حيث اندلعت الاضطرابات المدنية في مقاطعة تشن (أو تيان، إذ كانت الحروف متجانسة في تلك العصور القديمة) وهرب "وان" أمير "تيان" إلى "تشي" التي أصبحت قوية جدًّا بفضل حكم أمير "هوان"، وكان صعود "تيان" لاحقًا إلى السلطة في "تشي" نتيجة الصراع طويل الأمد بين مجموعة ملاك الأراضي الجدد وملاك الرقيق الأرستقراطيين، عين أمير "هوان" رئيس بنائي "تيان" مسؤولًا عن الحرف، واستقرت عائلة "تيان" في منزلهم الجديد وظلت لسنوات عديدة موالية للأمير، ولكن خلال عهد أمير "جينج"، الذي كان الفساد متفشيًا في بلاطه قام "تيان" بحركة ماكرة أعار بها الحبوب بوزنها بميزان "داو" الكبير (مصنوع من الخشب أو الخيزران بشكل شبيه بالمربع أو الطبل) ووزنها عند استردادها بميزان صغير.. ونتيجة لذلك، تعهدت أعداد كبيرة من شعب "تشي" بالولاء لهم.

وبعد وفاة أمير "جينج" عام (476 ق.م) أعلن "تيان" الأمير "يانج شنج" وليًّا للعهد وعين نفسه رئيسًا للوزراء، وفي عام (391 ق.م) نقل آخر حاكم لـ"تشي" إلى ساحل البحر، حيث أعطاه قطعة أرض كبيرة، في حين أبقى حيازة كامل الأراضي المتبقية لنفسه، واعترف الملك "آن" من سلالة "تشو" رسميًّا بـ"تيان" أميرًا على "تشي"، وتغيرت الألقاب من "جيانج" إلى "تيان" في خطوة عرفت

بـ"استيلاء أسرة "تيان" على "تشي" عام (386 ق.م).

وهكذا أصبحت حروب حقبة الدول المتحاربة (770-476 ق.م) أكثر كثافةً وتكرارًا، وأكبر من حيث الحجم مقارنة بتلك التي حدثت خلال حقبة الربيع والخريف.

ففي الجزء الأول من هذه الفترة، كانت "وي" هي أقوى الدول، حيث هيمنت على السهول الوسطى لما يقرب من مائة سنة، بدءًا من أيام ماركيز "ون" إلى منتصف القرن الرابع (ق.م)، وكان ماركيز "ون" قائدًا تمتع باحترام كبير وعامل العلماء جيدًا وعين المسؤولين بحكمة، مما عزز نظامه، كما عين الاستراتيجي العسكري "وو تشي" الذي أدرك أن "وي" محاطة من جميع الأطراف بالقوى الكبرى ومن ثم قد تتعرض لهجمات العدو إذا حاولت التوسع في أكثر من اتجاه واحد دفعة واحدة، ولذلك انضمت "وي" إلى "تشاو" و"هان" لدحر "تشين" و"تشي" و"تشو"، واستولت على مساحات واسعة من الأراضي أثناء ذلك.

ولكن التغيير كان قادمًا لا محالة، ففي عام (354 ق.م) هاجمت "تشاو" مقاطعة "وي" (卫 ليتم تمييزها عن "وي" المذكورة من قبل، والتي تكتب 魏). حيث اعتبرت "وي" (卫) مقاطعة "وي" الأخرى (魏) تابعة لها، فأرسلت قوات لضرب "هاندان" عاصمة "تشاو" -مدينة هاندان الحالية، بمقاطعة "هيبي"- وعين الملك "وي" ملك "تشي" "تيان جي" قائدًا للجيش و"سون بن" كمستشار عسكري للمساعدة في إنقاذ "تشاو"، وكان اقتراح "سون بن" أنه ما دامت القوة الرئيسة لـ"وي" موجودة في "هاندان" فإن دفاعها عن الأرض سيكون ضعيفًا فعليهم بالتالي أن يضربوا "دا ليانج" عاصمة "وي"، حتى تضطر قواتها إلى الإسراع في إنقاذها.. وهكذا كان.

فتوجب على جيش "وي" التخلي عن "هاندان" والتوجه إلى "دا ليانج" مما أرهق القوات، ومن ناحية أخرى، كانت قوات "تشي" تكمن لهم في "جي لينج"، شمال غرب "تشانج يوان" الحالية في محافظة "هنان".. قتل أكثر من نصف

قوات "وي" في ذلك الفخ في حدث أصبح يعرف باسم "حصار دولة "وي" لإنقاذ دولة "تشاو"".. وبعد أكثر من عشر سنوات في عام (342 ق.م)، اندلعت الحرب مرة أخرى بين "تشي" و"وى"، فشنَّت "وي" هجومًا على مقاطعة "هان" التي استنجدت بدولة "تشي"، وكانت النتيجة الهزيمة مرة أخرى لـ"وي" في معركة "ما لينج" الشهيرة، مما أدى بعد ذلك إلى فقدان الدولة هيمنتها على السهول الوسطى وانخفاض أهميتها.

ومن ناحية أخرى، كانت دولة "تشي" آخذة في الازدهار بفضل إصلاحات الملك "وي"، واستفادت أيضًا من الاقتتال الداخلي بين فصائل "جين" الثلاثة، حيث كانت قادرة على إلحاق خسائر فادحة لـ"وي" لا مرة واحدة بل مرتين.. ونتيجة لـذلك، ارتفعت "تشي" في أعقاب "تشاو" لتتنافس مع مقاطعة "تشين" في الغرب.

ففي عهد الملك "شوان" والملك "مين"، استغلت "تشي" الفوضى المحلية في "يـان" لمهاجمتها مرارًا وتكرارًا، مما أسفر عن مقتل ملكها "كواي" وتدميرها تقريبًا، وعندما صعد الملك "تشاو يان" العرش، كان مصممًا على الانتقام ممن قتل والده وإعادة بناء الدولة، ولدى إعلانه عزمه على إنشاء التراس الذهبي في العاصمة -محافظة "يي" الحالية في مقاطعة "هيبي"- تقدم عدد من الرجال الموهوبين لمعاونته ومنهم المستشار العسكري المساعد "يوي إي"، والفيلسوف "تزو يان"، والسياسي "جو شين".. ولم تمر فترة طويلة حتى صارت "يان" تزداد قوة.

وفي ذات الوقت كانت "تشي" مشغولة بإخضاع الدول الأخرى والاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي، وعندما طفح الكيل أخيرًا نصح "يوي إي" الملك "تشاو" بمهاجمة "تشي" بالتعاون مع دول أخرى (انظر الشكل 7).



الشكل (7): بورتريه لـ"يوي إي"

وهكذا في عام (284 ق.م) عين الملك "تشاو" "يو يي" قائدًا عامًّا لجيشه، وزحفوا على "تشي" جنبًا إلى جنب مع قوات من "تشاو" و"هان" و"وي" و"تشو"، فخرج الملك "مين" ملك "تشي" شخصيًّا على رأس جيشه لمجابهتهم لكنه هزم، وهرب إلى "لين تزي" عاصمة "تشي" -منطقة "لين تزي" الحالية بمدينة "تزي بو" بمقاطعة "شاندونج"- فاندفع "يوي إي" خلفه للاستيلاء على المدينة مما دفع الملك "مين" للفرار مرة أخرى إلى مدينة "جو" هذه المرة -مدينة "ريتشاو" الحالية في "شاندونج"- وهناك توسل طلبًا للمساعدة من "تشو" إلا أن جنرالات "تشو" قتلوه، وكان الملك "تشاو" مسرورًا من "يوي إي" فمنحه مدينة "تشانج غو" - ضاحية "تشانج ديان" الحالية بمدينة "تزي بو" في محافظة "شاندونج"- واصل "يوي" غزوه لـ"تشي" مدة خمس سنوات أخرى واستولى على أكثر من

سبعين مدينة تبنى سياسات متساهلة تجاههم.

ثم توفي الملك "تشاو" في عام (278 ق.م)، ولم يكن لدى الملك الجديد "هوي" ثقة بـ"يو يي"؛ لذلك استغلت "تشي" الفرصة لدق إسفين بين الملك وقائده من خلال زرع الشك داخله بأن لدى "يوي" خططًا للاستيلاء على العرش، فاضطر "يوي" للفرار إلى "تشاو" وأحل الملك "هوي" القائد "تشي جي" محله والذي تخلى عن نهج "يوي" المتساهل وقمع شعب "تشي" بوحشية، مما أدى إلى ثورتهم تحت قيادة "تيان دان" فاستعادوا أراضيهم بسرعة، ولكن سنوات الغزو كانت قد سلبت قوة الدولة، ولم تعد أبدًا إلى ازدهارها السابق.

كان لهذه الحروب الاستحواذية بين الدول السبع الأقوى في حقبة الدول المتحاربة تأثير تدريجي في القضاء على الأضعف، وكانت مقاطعة تشين الممتدة حتى الغرب هي التي أصبحت في نهاية المطاف أقوى الدول وتحقق لها ذلك عن طريق الإصلاح السياسي.

حركات الإصلاح في الدول السبع

كانت حقبة الدول المتحاربة حتمًا فترة من التغيرات الكبرى لا بالمعنى العسكري فحسب، بل أيضًا بشكل أساسي نتيجة للتنمية الاقتصادية الإقطاعية في ذلك الوقت، وقد أدى استخدام الأدوات الحديدية وتربية الماشية منذ حقبة الربيع والخريف إلى استصلاح قدر كبير من الأراضي القاحلة التي أصبحت أملاكًا خاصة، وتحول ملاك الأراضي إلى ملاك إقطاعيين، وأصبح أولئك الذين استأجروا الأرض مزارعين، وطالبت الطبقة الناشئة من أصحاب المزارع في مختلف البلدان بإصلاحات وبإلغاء النظم القديمة.

أدى هذا إلى الإصلاح في عدد من الولايات بدءًا من "وي"؛ ففي عام 445 ق.م. عندما اعتلى ماركيز "ون" عرش "وي" عين "لي كوي" لتنفيذ إصلاحات تهدف لتعزيز الطبقة المالكة الناشئة. وألغيت النظم الوراثية والرقيق فتم تعيين المسؤولين بدلًا من ذلك على أساس الجدارة، وبالنظر إلى تزايد عدد السكان

ومحدودية الأراضي، شجع "لي" الزراعة المكثفة والمتنوعة؛ لتمكين المزارع في حالة فشل محصول واحد من أن يعتمد على المحاصيل الأخرى وإزالة الأعشاب الضارة بانتظام والحصاد الفوري واستخدام الأراضي البور، ولحماية استقرار هذا الاقتصاد الزراعي الصغير تم تطبيق مقياس لتحقيق التوازن بين أسعار الحبوب؛ فقامت الحكومة بشراء الحبوب بالسعر المعتاد عندما تكون الأوقات جيدة، وتبيعها في السنوات العجاف بنفس السعر، بحيث كان المزارعون دائمًا محل رعاية.. ولحماية ممتلكات وسلطة الحكام الإقطاعيين، كتب "لي" "أصل القوانين" ("فا جينج" المعروف أيضًا بالقوانين الأصلية)، وهو أقدم شريعة قانونية للصين القديمة تضمنت فصولًا عن السرقة والخيانة والعدالة والحيازة.

وبفضل هذه الإصلاحات، تطور اقتصاد "وي" بسرعة، وتم تدعيم السلطة السياسية لطبقة المؤجرين تدريجيًّا، كانت الدولة الأقوى في أوائل حقبة الدول المتحاربة، ثم في نحو (390 ق.م) عُزل "وو تشي" قائد وحاكم "هيشي" في "وي" سياسيًّا، مما دفعه إلى الفرار إلى مقاطعة "تشو"، وهناك طلب منه الملك "داو" أن يتولى عملية الإصلاح السياسي الذي تركز في الأساس على تخفيف قبضة الأرستقراطية الخانقة على الدولة، وفي غضون ذلك أيضًا تم تقليص وتبسيط شكل المؤسسات السياسية والرسمية.. وبما أن مساحة "تشو" كانت شاسعة وقليلة السكان، فقد صدر الأمر للأسر الأرستقراطية السابقة ورجالهم بإعمار المناطق النائية، ولم يقتصر أثر ذلك على الضربة القوية التي شتتت قوى النبلاء القدامى، بل امتد أيضًا لتعزيز التنمية الإقليمية إذ سرعان ما بدأت الدولة في الازدهار، فتمكنت من ضم ولايتي "يانج" و"يوي" في جهة الجنوب، و"تشن" و"تساي" في جهة الشمال؛ كما أنها صدت محاولات فصائل "جين" الثلاث للهجوم مرة أخرى وضربت "تشين" في الغرب.. ومع ذلك، فبعد وفاة الملك "داو" قام الأرستقراطيون الساخطون بانقلاب، ورموا "وو" بالسهام وربطوه إلى خمس عربات مزقته إربًا.. وهكذا انتهى الإصلاح السياسي في "تشو" بالفشل.

وفي ذات الوقت بدأ "شياو" أمير "تشين" رحلة البحث عن شخص يمكن أن يساعده في بناء دولته، وكان الرجل الذي وجده هو "شانج يانج" من مقاطعة "وي" (卫) وكان سياسيًا ومفكرًا وصاحب استراتيجيات قانونية تجاهلت مقاطعة "وي" مواهبه إلا أن حرصه على تحقيق أمانيه واستخدام مواهبه قاده إلى مقاطعة "تشين"، حيث ذهب وشرح أفكاره لأمير "شياو" الذي عهد إليه بمهمة الإصلاح في عام (356 ق.م) فرض "شانج" قانون مسؤولية جميع من يعيشون معًا في ذات المنزل بعضهم عن تصرفات بعض، وفرض عقوبات شديدة على الجنح، وأعطى من يبلغون عن الجرائم مكافآت تعادل مكافآت المحاربين، بينما أولئك الذين ينكصون عن القيام بذلك بقطعهم نصفين، كما عاقب على التواطؤ في جريمة أو مساعدة مجرم بعقاب خائني الدولة، كما عزز "شانج" القوة السياسية لطبقة الملاك من خلال إلغاء النظام الوراثي ومنح الألقاب بناء على الإنجازات العسكرية، وشجع ممارسة الزراعة بدلًا من التجارة، في حين كوفئ أصحاب الحرف والأنشطة مثل النسيج واستصلاح الأراضي وأعفي المزارعون المنتجون بشكل خاص من التجنيد، في حين اضطر التجار السابقون للعمل من أجل الحكومة، وفي الوقت نفسه، أحرق "شانج" المؤلفات الكونفوشيوسية الكلاسيكية، وحظر التأييد على المناصب الرسمية.. وقد حقق كل ذلك نجاحًا أوليًا.

بعد ذلك بدأ "شانج يانج" الذي أصبح رئيسًا للوزراء جولة ثانية من الإصلاحات، وكان هدفها الرئيس التخلي عن نظام حقول البئر بعد أن تم الاعتراف بالملكية الخاصة للأرض، وأسفرت تدابير أخرى مختلفة عن إنشاء نظام سياسي مركزي وموحد.

كما سمح بممارسة التجارة مرة أخرى، ووحد الأوزان والمقاييس مما سهل جمع الضرائب وتبادل السلع، وبالإضافة إلى ذلك، سَنَّ "شانج" قانون "تشين" وتخلص من آثار عادات القبائل الشمالية، ونتيجة لذلك، أصبحت تشين مكانًا لا يلتقط فيه أحد ما وجد ملقى على الطريق وأصبحت الجبال خالية من

اللصوص، وعاش الناس رفاهية كما ساد السلام والنظام في البلدات.. ومع ذلك، لم يكن هناك شك في أن هذه الإصلاحات ليست في مصلحة الأرستقراطية القديمة.. ولذا فبعد وفاة أمير "شياو"، اتهم الملك الجديد "شانج" بالتآمر وحكم عليه بالموت تمزيقًا بين خمس عربات، وعلى الرغم من مصيره البشع فقد كان للتدابير الجديدة أثرها إذ أصبح لدى "تشين" أسسٌ اقتصاديةٌ قويةٌ تمكنها من توحيد البلاد بأسرها.

وفي وقت كل هذه الأحداث في "تشين" كان ماركيز "تشاو" حاكم "هان" والملك "وي" ملك "تشي" يجريان إصلاحاتهما السياسية كل في بلده.

فعين الأول "شين بوهاي" للمساعدة في مركزية السلطة، ومثل سابقيه -من واضعي القوانين "شانج يانج" و"وو تشي"- دعا "شين" إلى وضع أسس للملكية المطلقة، ولكنه اختلف عن "شانج" و"وو" في التنفيذ الصارم لسيادة القانون، حيث رأى "شين" القانون للخداع السياسي الذي يُبقي البلدان تحت السيطرة بممارسة التجسس والخداع.. وعمومًا كان هذا أقل فعالية بكثير من الإصلاحات التي أجريت في أماكن أخرى.

ففي مقاطعة "تشي" قام الملك "وي" بتوظيف أشخاص موهوبين واستفاد من نظام المكافآت والعقوبات العادلة، وكان الإنجاز الحقيقي يكافأ بإعطاء الأراضي للمسؤولين، وعاقب أولئك الذين ثبت عدم كفاءتهم واكتسابهم لامتيازاتهم بالرشوة بطهيهم حتى الموت.. وفي الوقت نفسه شجع حرية التعبير وقدمت المكافآت لأصحاب المشورة الجيدة، وبفضل هذه التدابير تمتعت "تشي" لفترة طويلة بقوة عظيمة في الشرق موازية لقوة "تشين" في الغرب.

أما مقاطعة "تشاو" فعانت من هجمات الأعداء المستمرة ولذا في عام (307 ق.م) بدأ الملك "وو لينج" ملك "تشاو" نظام إصلاحات عسكرية غير اعتيادي، فقد قرر "وو لينج" أن جيشه يجب أن يعتمد أسلوب الجماعات غير المنتمية إلى "هان" والمنتشرة في شمال وغرب الصين المعروفة باسم "هو" في اللباس

والفروسية والرماية.. وعلى عكس ممارسات التجنيد الاعتيادية قام بتجنيد أولئك الذين يعيشون بالقرب من تلك المجتمعات، أو الذين تفوقوا في ركوب الخيل وإطلاق الأسهم، كما حول قسمًا من المشاة إلى سلاح الفرسان، وأضاف إليهم الركاب الرحل في المناطق الحدودية؛ حيث أمر رجاله بتربية خيول "هو" في منطقة "داي" وأجبر رئيس "لين هو" -ومعناها الحرفي شعب "هو" الذي يعيش في الغابة- للتبرع بجياد أكثر، مما وفر له مصدرًا لسلاح فرسانه المتنامي.. مع هذه التحسينات، كانت "تشاو" قادرة على هزيمة مقاطعة "تشونج شان" إضافة إلى قبيلتي "لين هو" و"دونج هو" -وهي قبيلة قديمة في شمال شرق الصين البدائية- وباستيلائها على آلاف الكيلو مترات من الأراضي واحتلال منطقة السهوب المنغولية، شكلت "تشاو" تهديدًا مباشرًا لدولة "تشين".

أما بالنسبة لدولة "يان"، فقد اندلعت الاضطرابات المدنية في عهد الملك "كواي"، واستخدمت "تشي" ذلك ذريعة لمهاجمة الدولة، مما أدى إلى دمارها بشكل شبه كامل، وعندما تولى الملك "تشاو" عرش "يان" عين "يو يي" لإصلاح الشؤون الداخلية وتطوير الإنتاج.

وفي عام (284 ق.م) قاد "يوي" جنود ولايات "تشاو" و"تشو" و"هان" و"وي" و"يان" في حملة استكشافية ضد "تشي"، واستولوا على أكثر من سبعين مدينة؛ ولم تتمكن "تشي" أبدًا من الازدهار بعدها.. وهكذا فقد ازدهرت العديد من الدول بفضل الإصلاحات السياسية، ولكن لأسباب مختلفة بالنسبة لكل دولة كانت الإصلاحات إما غير مكتملة، أو أن القادة اللاحقين كانوا غير أكفاء، مما أدى على انتهائها وتلاشيها جميعًا.

وكان الاستثناء الوحيد هو دولة "تشين" التي نمت بشكل أكبر وأصبحت في نهاية المطاف أقوى دولة من القوى السبع الكبرى بفضل اتباعها معايير وقوانين "شانج يانج".

التحالف والوحدة

أصبحت حقبة الدول المتحاربة أكثر اضطرابًا وتعقيدًا، حيث أصبحت الخطوط الفاصلة بين الأعداء والأصدقاء غير واضحة في حين كانت القوى الكبرى في حاجة مستمرة إلى دعم الدول الأخرى لتجنب العزلة أو الهجوم عليها، وفي خضم كل هذا اعتمدت مجموعة متنوعة من الاستراتيجيات "الرأسية"، والتي تحالفت فيها الدول الأضعف معًا لمقاومة الدول الأقوى منها، أو "الأفقية"، حيث حاولت الدول القوية أن تتغلب على الدول الأضعف لتعزيز توسعها، وكانت الشخصيات الرئيسة المؤثرة في الأحداث في ذلك الوقت هم خبراء الاستراتيجية السياسية الذين باعوا أفكارهم للملوك مروجين فكرة نوع أو آخر من التحالفات.

وكان أقرب مناصر للاستراتيجية الأفقية هو "تشانج يي" الذي ينحدر من عائلة أرستقراطية من مقاطعة "وي"، ذهب "تشانج" إلى "تشين"عام (329 ق.م) على أمل أن يجد منفذًا لاستراتيجياته العسكرية.

وكانت "تشو" تهاجم "وي" بشراسة وكثافة في ذلك الوقت، لذلك حث "تشانج" مقاطعة "تشين" على مساعدة "وي" في مقابل أخذهم للمنطقة الواقعة غرب النهر الأصفر -شمال غرب "قانسو" اليوم-.. وبعد نجاحه في ذلك قاد "تشانج" جيشًا للاستيلاء على منطقة "بو يانج" من "وي" -وهي محافظة "شي" الحالية في مقاطعة "شانشي"- إلا أنه أقنع ملك "تشين" بإعادتها بعد ذلك بوقت قصير، وبينما احتفلت مقاطعة "وي" باستعادة أراضيها، أبلغ "تشانج" ملك "وي" أنه يدين بمعروف لمقاطعة "تشين"، مما اضطر الملك "هوي" لتسليم الأراضي الواقعة جنوب "يولين" و"هان تشينج" الحاليتين بمقاطعة "شانشي".. وهكذا صارت "تشين" المسيطرة على النهر الأصفر، الحاجز الطبيعي والبوابة إلى الشرق، وكانت هذه خطوة حاسمة نحو توحيد الولايات الست الأخرى.

أدت استراتيجية التحالف الأفقي أو تحالف الشرق والغرب التي اتبعها "تشانج

يي" إلى استياء جنرال "وي" "جونج سون يان" بشكل كبير، حيث فهم خطر الدمار التدريجي الذي تتعرض له "وي"؛ لذلك حاول إنشاء تحالف بين الشمال والجنوب لمحاربة "تشين"، ونجح بعد عدة انتكاسات في عام (318 ق.م) أخيرًا في تنظيم قوات "وي" و"تشو" و"يان" و"تشاو" و"هان" لإطلاق هجوم عمودي إلا أن الخطة فشلت وانتصرت "تشين" وتحالفت مع "هان" و"وي".

وفي عام (316 ق.م) ضمت "تشين" محافظة "سيتشوان" الحالية مضاعفة بذلك حجم أراضيها، وفي هذه الأثناء، كانت "تشي" و"تشو" الأقوى من بين الولايات الشرقية الست، مما جعل "تشين" تراقبهم ببعض الخوف، ولكن "تشين" لم تكن تعيرها اهتمامًا؛ نظرًا لعدم تشاركهما حدودًا مباشرةً، كما لم تكن مهتمة بعقد التحالف بين الشمال والجنوب وكان جُلُّ اهتمامها موجهًا لضرب الدول المجاورة لها -"يان" على سبيل المثال والتي تم ضمها في عام (316 ق.م)- غير أن ذبح جيش "تشي" لعدد لا يحصى من المدنيين دفع "يان" للتمرد، واضطرت "تشي" إلى الانسحاب، وعندها التفتت إلى "تشين" مما دعاها لتشكيل تحالف مع "تشو" لمواجهة تكتل "تشين" و"وي" و"هان".

ذهب "تشانج يي" إلى "تشو" كمبعوث محاولًا تقويض تحالف "تشو" مع"تشي" عام (313 ق.م)، مقدمًا لهم عرضًا بإعطائهم مساحة واسعة من الأرض على أمل نقضهم للحلف مع "تشي"، ولدى اكتشافه خداعهم شَنَّ الملك "هواي" ملك "تشو" هجمة كبيرة على "تشين" انتهت بهزيمته هزيمة ساحقة، وفي هذه اللحظة المحورية، أقنع "تشانج" كلًا من"هان" و"تشاو" و"وي" بالانضمام إلى "تشين" لمحاربة "تشو" التي أصبحت الآن مكشوفة تمامًا، وفي عام (299 ق.م)، تظاهرت "تشين" برغبتها في الحفاظ على علاقات جيدة مع "تشو" بدعوة الملك "هواي" لتشكيل تحالف، وقبل أن يصل الملك إلى الاجتماع احتجز وتوفي في وقت لاحق.

وكان خَلَفه غير كفء بشكل كبير حتى أن "تشو" لم تستعد قوتها السابقة قط.

بدأت"تشين" حينها بتأليب الدول بعضها على بعض، وتشجيع كل منها على مهاجمة الأخرى، إلا أن رجلًا ظهر فجأة وكاد أن يضيع جهود "تشين" كلها هباء.

ففي عام 288 (ق.م) اقترح الملك "تشاو" ملك "تشين" على الملك "مين" ملك "تشي" أنه يجب على كل منهما أن يحمل لقب الإمبراطور وينضم إلى الدول الخمس الأخرى لمهاجمة "تشاو" من أجل احتواء سلطتها المتزايدة، إلا أن الخبير الاستراتيجي "سو تشين" رأى ما يختبئ خلف ذلك العرض ونصح الملك "مين" بتشكيل تحالف بين الشمال والجنوب بدلًا من ذلك؛ فهاجمت "تشي" مقاطعة "تشين" في عام (287 ق.م) بالاشتراك مع جيوش "يان" و"هان" و"وي" و"تشاو"، ولما اجتاحت هذه القوات "تشين" اضطروا لطلب السلام بالتنازل عن الأراضي لكل من"وي" و"تشاو"، إلا أن الملك "مين" أصبح أكثر طموحًا، وضم دولة "سونج" عام (286 ق.م) متبوعة بـ"هوايبي" الواقعة في المنطقة شمال نهر "هواي" والتي كانت تحت سيطرة "تشو". واستمر مهاجمًا "هان" و"تشاو" و"وي" بقصد الاستيلاء على مملكة "تشو"، مما أدى إلى إصابة ولايات الاتحاد بحالة من الذعر، وفي هذه المرحلة، اغتنم الملك "تشاو" ملك "يان" الفرصة للتحالف مع الدول الأخرى وشن ضربة هائلة على "تشي" لم تتعافَ من آثارها أبدًا عام (284 ق.م).

ولم يبقَ من الدول الست القوية في تلك الحقبة بعد أفول نجم كل من "تشو" و"تشي" إلا دولة "تشاو"، التي كانت مشغولةً باعتماد أساليب "هو" القتالية وتطبيقها بنجاح كبير.. فبعد وفاة الملك "وولينغ"، عين خلفاؤه جنرالات ذوي كفاءة نجحوا في إحباط هجمات جيش "تشين" عدة مرات، مما جعل من "تشاو" خط الدفاع الأخير ضد توسع "تشين" شرقًا، ومع ذلك فلم يكن هناك مناص من اختراق هذا الخط في نهاية الأمر مع ازدياد قوة "تشين" السياسية والاقتصادية، وأخيرًا في عام (278 ق.م) استولى جنرال "باي تشي" قائد "تشين" على مدينة "يينج" عاصمة "تشو"، مما كان بداية لسيطرة "تشين" على الولايات الستين وفي عام 262 ق.م.، غزت "تشين" "يوانج" عاصمة "هان"،

وهي "تشين يانج" المعروفة اليوم في محافظة "هنان"، وقطعت الصلة بين محافظة "شانج دانج" جنوب شرق محافظة شانشي اليوم، وباقي أملاك "هان"، وكان الملك "هوان هوي" ملك "هان" الذي لم يعرف كيف يتصرف مستعدًّا لتقديم "شانج دانج" في سبيل السلام.. غير أن حاكم "شانج دانج" سلم المحافظة سرًّا إلى "تشاو"، مُعربًا عن أمله في أن تحارب "تشاو" معهم ضد "تشين".

ونتيجة لذلك، أرسلت "تشاو" قوات تحت قيادة "ليان بو" إلى "تشانج بينج" - شمال غرب "جاو بينج" الحالية بمقاطعة "شانشي" - في حين انطلقت قوات "تشين" للاستيلاء على "شانج دانج"، والتقى الجيشان في "تشانج بينج".. وحيث كان جيش "تشين" بعيدًا عن أراضيه، فقد أراد معركة سريعة، بيد أن قوات "تشاو" التي انتشرت بكثافة داخل المدينة، تجنبت الاشتباك المباشر مع جيش "تشين"وجهًا لوجه، وتبع ذلك جمود دام لثلاث سنوات.

لم تكن "تشين" قادرة على تحمل حرب طويلة الأمد لذا لجأت لزرع الفتنة، وأرسل شخص ما إلى "تشاو" بكمية كبيرة من الفضة، ورسالة مفادها أن قوات "تشين" لا تخاف "ليان بو" بل كان خوفهم الرئيس من "تشاو كو" ابن أحد الجنرالات المشهورين، فأمر ملك "تشاو" الذي أحبطه طول فترة الجمود "تشاو كو" بأن يحل محل "ليان بو" كقائد عام، ونتيجة لصغر سنه وتهوره أرسل "تشاو كو" قواته الرئيسة على الفور للاشتباك مع قوات "تشين" التي تظاهرت بالتراجع واستدرجته وقواته أكثر فأكثر حتى وجد "تشاو كو" نفسه محاصرًا فجأة من جميع الجوانب، وعندما سمع الملك "تشاو" ملك "تشين" هذا، ركب إلى الجبهة بنفسه، وفي هذه الأثناء أرسل جميع الذكور فوق سن الخامسة عشرة إلى "تشانج بينج" لاعتراض خطوط الإمداد والتعزيزات عن "تشاو"، وبعد 46 يومًا مات "تشاو كو" في المعركة، وألقى أكثر من 400.000 جندي من جيش "تشاو" أسلحتهم واستسلموا، ولسحق "تشاو" مرة أخيرة، دفن الجميع أحياء ما عدا 240 مراهقًا.

كانت معركة "تشانج بينج" أكثر الحملات القتالية دموية في حقبة الدول المتحاربة، إذ كانت علامة على نهاية مقاطعة "تشاو"، وبذلك لم يكن هناك مزيد من العقبات أمام تقدم "تشين" للسيطرة على السهول الوسطى، وبالنظر إلى أن "تشين" هيْمنت أيضًا على الغرب، فقد سلم التاريخ مهمة توحيد الصين لهذه الدولة.

الفصل الثاني

الدولة الوليدة

المجتمع والثقافة

المقدمة

استمر العصر البرونزي الصيني لأكثر من 1500 سنة، بدءًا من عهد أسرة "شيا" الأسطورية وأسرة "شانج" و"تشو" التي ثبت وجودها تاريخيًا وحتى انقسامات حقب الربيع والخريف والدول المتحاربة التي برزت عندما تفككت إمبراطورية "تشو"، وقد ظهرت أصول العديد من ملامح الاقتصاد والمجتمع والثقافة الصينية التي تعتبر الآن الملامح المميزة للصين في العصر البرونزي، وكانت أهم التغيرات الاقتصادية والاجتماعية هي ازدياد انتشار الزراعة والحرف اليدوية ذات الصلة، ونمو المدن المسورة.. وكانت هذه المدن هي النخبة التي تحتوي مجتمعات متمايزة بشكل صارم من حيث القوة والمكانة، واستندت قوة هذه الأرستقراطية على احتكار طوائف العمال لصب البرونز وكانت حرفها توائم الحرب والصيد، وكان رمز وضمانة قوتهم هو القصر المحمي أو المجمع المسوَّر داخل مدينة مسوَّرة، وقدّم هذا نموذجًا يمكن التعرف عليه في عمارة جميع القصور اللاحقة في جميع أنحاء الإمبراطورية الصينية، بما في ذلك القصر الإمبراطوري (المدينة المحرمة) التي لا يزال من الممكن زيارته في بكين، وتطور تسلسل هرمي في هذه الشبكة من المدن المسورة، وكانت مدينة الملك في القمة هي مركز الدولة الإمبراطورية الوليدة.

ويمكن وصف فترات "شانج" و"تشو" بالتاريخية مع بعض الثقة، حيث إن هناك مصادر مكتوبة ذات مصداقية تؤرخ وجودهما، بدايةً من النقوش المعاصرة على "عظام التنبؤ" والأواني البرونزية، مدعمة بروايات أخرى منقوشة على

شرائح الخيزران والحرير والورق.

إن أهم الموروثات الأدبية في هذا التراث المكتوب هما كتابان من المختارات الشعرية: "كتاب الأغاني"، و"تشو تسي" (أغاني تشو، والمعروفة أحيانًا باسم مرثيات الجنوب)، والتي تعكس الثقافات والمناظر الطبيعية في شمال وجنوب الصين القديمة على التوالي، ويحتفي بالأساطير الشعبية المرتبطة بالأرض في كتاب الأغاني كأساس للتقاليد الأدبية للصين، ولكن رومانسية لي ساو (مرثية تحكي مواجهة مع الحزن) وهي قصيدة تعد شبه سيرة ذاتية لـ"تشي يوان" تروي قصة تعبر عن اليأس والرفض وتقع في قلب كتاب "أغاني تشو"، قد احتفظت بقبضتها على خيال الشباب الصيني.

وتثير طبيعة حكم "شانج" و"تشو" تساؤلات مهمة حول معنى كلمة "أسرة" في هذه الفترة التاريخية المبكرة، فربما امتد حكم "شانج" فقط إلى منطقة متواضعة نسبيًا حول عاصمتها "يين"، ولكن أعطي اسم "شانج" للصين كلها على الرغم من أن الدول الأخرى تنافست مع سلطة "يين".. وكانت "تشو" في الأصل واحدة من هذه الدول، دولة تابعة أخذت مكان الدولة الأكبر بعد تفككها، واستخدمت النظام الإقطاعي نفسه الذي مثلته "شانج" للحفاظ على قوتها الخاصة. والنظام الإقطاعي نفسه الذي رفضه "تشين شي هوانج" الذي أسس أسرة "تشين" في وقت لاحق والتي ظهرت نتيجة الصراع في نهاية فترة "تشو" ووضعت النظام الجديد الذي سيكون أساس بيروقراطية الإمبراطورية.. ومع ذلك، فإن العديد من الأسر التي خلفت "تشين" - ولا سيَّما الأصغر حجمًا والأقصر عمرًا - تبعت نظام "شانج"، بمدينة رئيسة (عاصمة) تسيطر على مساحة محدودة من الأرض حتى ولو تقلدت السلطة على كامل الإمبراطورية.

عظام التنبؤ والحياة في "شانج"

تلقى مسؤول صيني اسمه "وانج يي رانج" وصفة طبية لـ"عظام التنّين"، ومن بين القطع المكسورة من الدواء (التي كانت في الواقع صَدفة ظهر سلحفاة)، وجد النقوش الغريبة المشابهة جدًّا للأحرف المختومة في عام 1911، خلال إحدى نوبات انتشار الملاريا، وإدراكًا لأهميتها المحتملة قام بشراء

كميات أكبر من عظام التنيّن وبدأ جمع الشظايا معًا حتى تكون لديه بعض أقسام كاملة من الصَدفة، ووجد "وانج" بعثوره على آثار مشابهة للأحرف المعروفة، فإنه من المرجح أن تكون هذه الآثار عائدة لأسر "شيا" و"شانج" و"تشو" (2070 ق.م - 221 م)، ولم تمر فترة طويلة حتى كان قد جمع أكثر من

1500 شظية، وخلص في دراسة أخرى إلى أنه تم استخدامها لممارسة العرافة في عهد أسرة "شانج"، وأن هذه النقوش كانت شكلًا ناضجًا نسبيًّا من الكتابة القديمة.

وبالنظر إلى أنها وجدت على صدف السلحفاة أو عظام الحيوانات، أصبحت تعرف باسم نقوش "عظام التنبؤ" وهي عظام للحيوانات كان يتم النقش عليها بالرموز الصينية: انظر الشكل (5).

ومنذ ذلك الحين، أصبحت دراسة نقوش عظام التنبؤ إجراءً منهجيًّا، حيث اكتشفت الحفريات الأثرية الجارية أكثر من 150 ألف قطعة، وخاصة في منطقة "شياوتون" في آنيان بمقاطعة "هنان"، حيث اكتشفت بقايا مدينة "يين" عاصمة أسرة "شانج".. استمر حكم أسرة "شانج" خلال أكثر من ثمانية أجيال حكم فيها اثنا عشر ملكًا واستمرت لمدة 273 عامًا، وعندما أبادت أسرة "تشو" أسرة "شانج" عام (1046 ق.م)، تحولت "يين" إلى أنقاض واختفى تاريخ

"شانج" معها، مما جعل نقوش عظام التنبؤ أفضل وسيلة لإعادتها إلى الحياة.

وتتألف النقوش من 4500 حرف تقريبًا، تم فك شفرة ما يقرب من 2000 منها، وهي عبارة عن نوع من الصور تمثل الشمس والقمر والثور والأغنام والبشر، وتعتمد الحروف الصينية حتى اليوم على الرموز التصويرية، وعلى الرغم من وجود فرق كبير بين هذه الرموز والحروف الحديثة، فإنها تطورت بنفس الطريقة إذ كان يعتقد حتى هذا الاكتشاف أن "كانج جي" المؤرخ الأسطوري لفترة الإمبراطور الأصفر هو من ابتدعها، ولكن العلماء في العصر الحديث يعتقدون أن نظام الكتابة المكتمل لا يمكن أن يكون من صنع شخص واحد.

وتشير الدراسات التي أجريت حول نقوش عظام التنبؤ إلى أنها كانت تستخدم للعرافة، فقد استخدمت الأسر المالكة العرافة للمساعدة في اتخاذ القرارات في كل شيء بدءًا من القرارات المتعلقة بشؤون الدولة والحروب، وللصلاة من أجل الحصاد الجيد، وأيضًا للمسائل الخاصة مثل الصيد والعلاج الطبي.

وكان هناك متنبؤون متخصصون يقومون بحفر حفر سطحية على عظام التنبؤ التي تسخن حتى تظهر الشقوق على السطح وهذه الشقوق هي النبوءات التي يقرأها المتنبئ، وأخيرًا ينحت شخص الرموز بجانب الشقوق لتسجيل موضوع النبوءة ونتائجها، ثم تحفظ العظام بعيدًا.

وتتكون السجلات الكاملة من أربعة أجزاء: وقت ومكان طلب النبوءة أو المشورة واسم المتنبئ، ثم المسألة المطلوب السؤال عنها؛ وملاحظة النبوءة وكونها تتنبأ بالحظ الجيد أو السيئ ثم النتائج، وبهذه الطريقة فإنها تقدم نظرة داخلية مميزة للحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية لأسرة "شانج"، فضلًا عن طبقات الشعب: المواطنون والعبيد وملاك الرقيق والنبلاء والمسؤولون على جميع المستويات ووحدات الجيش والعقوبات.

وقد أظهرت أيضًا أن نظامًا للسجون قد أنشئ بالفعل في هذا الوقت، وبما أن الحصاد يرتبط ارتباطًا مباشرًا باستقرار البلد، فهناك العديد من سجلات العرافة

التي حفظها ملوك "شانج" لهذا الغرض، حيث المصطلحات المستخدمة في الزراعة وتربية الحيوانات مثل دخن ذرة المكانس والقمح والأرز، إضافةً إلى الخيول والماشية والأغنام والدجاج والكلاب والخنازير شائعة جدًّا، وتكشف أيضًا عن أساليب الصيد وصيد الأسماك وأنواع الفرائس.

كما توجد معلومات عن التجارة والنقل، كما تم توثيق تقويم أسرة "شانج" بشكل واسع ومفصل مع ذكر الكسوف الشمسي والخسوف القمري والأشهر الكبيسة، وتظهر التفاصيل المناخية والطبية بالتفصيل أيضًا، ولكن أهم ما في الموضوع هو ما تظهره هذه النقوش عن تطور اللغة الصينية.

العصر البرونزي

اشتمل العصر البرونزي في الصين حكم أسر "شيا" و"شانج" و"تشو" الغربية (2070-771 ق.م)، وحقبة الربيع والخريف وأوائل حقبة الدول المتحاربة ممتدًا على مدى نحو 1600 سنة، وقد أعطت ولايات هاتين الحقبتين الأولوية لطقوس التضحية والحملات العسكرية، ولذلك استخدمت تقنيات الصهر المعدني وتشكيل البرونز المتقدمة أساسًا لهذه الغايات، وقد عثر على أدوات برونزية وخاصة الأغراض الشعائرية وأسلحة أسر "شيا" و"شانج" و"تشو"، مما يثبت وجود ثقافة استخدامها وصنعها. وتعتمد شهرة هذه الأدوات الكثيرة التي وجدت لا على كميتها بل على جودتها والمهارة التي صنعت بها.

ولعل الجزء الأكثر تمثيلًا لأسرة "شانج" هو مرجل "هو موو" البرونزي الذي اكتشف في مارس 1939م في قرية "ووجوان" في "هو جيا تشوانج" بمدينة "آن يانج" بمقاطعة "هنان".. وكان المرجل ثلاثي الأرجل أو الـ"دينج"، وعاء يستخدم للطبخ في العصور القديمة، فقبل 7000 سنة كان "الدينج" يصنع من الطين وأصبح من أهم الأدوات الشعائرية في عهد أسر "شانج" و"تشو" (1600-221 ق.م)، كما أصبحت علامة على المكانة الاجتماعية، حيث كان يجب على الملوك امتلاك تسعة منها، أما النبلاء فامتلكوا سبعة، وامتلك

كبار المسؤولين خمسة، واكتفى العلماء بامتلاك ثلاثة أو واحد فقط.

وكان "الدينج" أيضًا رمزًا لقوة الدولة، حيث يوضع كرمز في مكان اختيار موقع عاصمة ما، وبالتالي فإن مصطلح "بناء دينج" أصبح يعني بناء عاصمة، ويتميز مرجل "هو موو" البرونزي أو الـ"دينج" بأنه مستطيل الشكل، ويبلغ طوله 1.1 متر، وعرضه 0.78 متر، وارتفاعه 1.33 متر ويزن 875 كيلو جرامًا، وتزين جوانبه الأربعة بالإضافة إلى الألواح الموجودة في المنتصف، بشكل أساسي بصور الغيوم والرعد إضافة إلى الـ"تاو تي"، وهو حيوان أسطوري مفترس، وتشكل المقابض الخارجية بشكل رؤوس نمور تواجه بعضها ويحمل كل منها بين أنيابه رأس إنسان، وتزخرف حواف المقابض بصور الأسماك، وتزين الأرجل الأربع بوجوه حيوانية، يصب جسد وأرجل المرجل قطعة واحدة، وتضاف المقابض لاحقًا، ويعتبر أكبر وأثقل قطعة برونزية مكتشفة على الإطلاق ويتميز بالمهارة والحرفية في تشكيله، فهو تحفة تمثل ذروة ثقافة العصر البرونزي في عهد أسرة "شانج" (1600-1046 ق.م).. بعد ذلك ظهر نوع من الكتابة على بعض الأدوات البرونزية التي يبدو أنها صنعت في عهد أسرة "شانج" وأصبحت سائدة خلال عهد أسرة "تشو"، ولا يزال النقاش قائمًا حول ما إذا كان تاريخها قبل أو بعد نقوش عظام التنبؤ إلا أنه من المؤكد أن النقوش البرونزية كانت موجودة بالفعل في فترة "شانج" أو "يين".

كان شعب "يين" متدينين مخلصين يؤمنون بالأرواح، إذ كانوا يعتقدون أن أسلافهم تحولوا إلى آلهة، وأن هذه الآلهة تهيمن على جميع جوانب الحياة من حصاد وحروب وبناء مدن وتعيين وعزل المسؤولين وإرادة الشعب.. ويطلب الناس مشورتهم قبل القيام بأي شيء، وهذ ما جعل طقوس التضحية جانبًا رئيسًا من حياة "شانج"، غير أن شعب أسرة "تشو" كان أكثر تركيزًا على العالم المادي، حيث أولى مزيدًا من الاهتمام للشؤون الإنسانية -مع احترامهم فقط- للسماء والأجداد دون عبادة أو تقديس ديني، وانعكس هذا على أدواتهم البرونزية، حيث صنعوها بكميات أكبر ونقوش أكثر، فعلى سبيل المثال تمثل

قطعة برونزية تسمى "لين جي" صنعت في عهد الملك "تشينج" من أسرة "تشو" الغربية، وتحمل 187رمزًا، واحتوى مرجل "يو" العظيم ثلاثي الأرجل الذي صنع في عهد الملك "كانج" 291 رمزًا إضافة إلى مرجل أمير "ماو" الذي صنع في عهد الملك "شوان" ويحتوي 499 رمزًا، وحيث لم يعد استخدامها يقتصر على الطقوس أصبحت موضوعات النقوش أكثر تنوعًا، وشملت تقديم الهدايا، والمراسيم الملكية والحروب والصيد والمعاهدات؛ وقام النبلاء في كثير من الأحيان بتصوير إنجازاتهم المجيدة.. وتؤكد العديد من هذه النقوش الأحداث المسجلة في الوثائق القديمة، فعلى سبيل المثال، سجلت أحداث مثل حملة الملك "وو" ملك "تشو" ضد ملك "شانج" على عدد من الأواني البرونزية وتتسق مع كتاب الأغاني وكتاب الوثائق وسجلات أسرة "تشو" الضائعة وسجلات المؤرخ، وهي كلها مصادر قديمة يعود تاريخ بعضها إلى فترة حكم أسرة "تشو".

وفي حين يعود تاريخ النقوش على الأواني البرونزية عمومًا إلى ما بعد نقوش عظام التنبؤ، إلا أن بعض هذه النقوش كان موجودًا حتى في أوقات سابقة، وأسهمت النقوش على البرونز بقفزة هائلة في تطوير اللغة الصينية، واستخدمت رموزًا أكثر من تلك الموجودة على صدفات السلاحف، ولا سيّما الحروف الصورية الصوتية، التي تتبع بالضبط قواعد طريقة استخدام الصور لتشكيل حرف (بحيث تجمع بين عنصر يمثل صورة للكائن، أو مفهوم اسمه في الحرف، مع شكل آخر يشير، حتى ولو بالتقريب لنطقه).

وفي الوقت نفسه، قل عدد خطوط كل حرف، حيث أصبحت أكثر صرامةً واتساقًا وتمشايًا مع المعايير المعترف بها، بأبسط الخطوط والهياكل، وكانت النقوش تتغير باستمرار وتتطور؛ ففي أوائل عهد أسرة "تشو"، كانت تشبه تلك الموجودة في فترة "شانج"، وبدءًا من عهد الملك "تشاو" إلى الملك "شوان"مرورًا بعهد الملك "يو" وصلت تدريجيًا للنضج، وأصبحت الخطوط أنعم ومتراصة ومستقرة وأكثر انتظامًا، ومن المرجح أن الملك "شوان" أمر العلماء بجمع وتوحيد اللغة، وظهرت بحلول هذا الوقت أحرف الختم الكبيرة.

في عهد أسرة "تشو" الغربية، لم يكن هناك أحد يستخدم الأواني البرونزية سوى أعضاء الأسرة المالكة حتى أن الوزراء واللوردات التابعين لم يكن مسموح لهم باستخدامها، ولكن عندما انتقل الملك "بينج" من "تشو" غربًا إلى الشرق وانخفضت سيادة أسرة "تشو" المالكة، أمكن للجميع استخدامها، واستخدمت عادة في صنع أواني الطقوس والآلات الموسيقية والأسلحة، وبدأت أنماط مختلفة من الخط تظهر متمتعة بخصائص محلية قوية، حيث يمكن للنبلاء حينها صنع الأدوات البرونزية بأنفسهم، ونتيجة لذلك فإن تنوعها يعطي صورة حقيقية للأوقات المتقلبة، وعندما تولى الإمبراطور الأول "يينج تشينج" من أسرة "تشين" (221-206 ق.م) العرش- ويعرف عادة باسم "تشين شي هوانج"، موحدة الصين - أمر رجل الدولة "لي سي" بتطوير أحرف ختم صغيرة أكثر ملاءمة تعتمد في أصلها على الأحرف الكبيرة، وفي الوقت نفسه، بدأت الأدوات الحديدية تستخدم على نطاق واسع، مما أدى تدريجيًا لانتهاء العصر البرونزي الذي امتد لفترة 1600 عام.

تنمية الزراعة

شهدت حقبة الربيع والخريف صنع وتطوير الأدوات الزراعية والحرفية، مما أدى إلى ازدهار المجتمع الإقطاعي، وما زال الجدل مستمرًا حول موعد بدء استخدام الأدوات الحديدية لأول مرة في الصين، إذ تشير الكشوف الأثرية إلى أنها استخدمت في الزراعة بدءًا من عهد أسرة "تشو" الغربية، ولكنها لم تصنع سوى من الحديد المطاوع المشكل في الحالة الصلبة في درجة حرارة منخفضة.

كان الحديد صلبًا ويصعب شحذه. وكان يستخدم على نطاق واسع في حقبة الدول المتحاربة؛ لكنها كانت هشة وتُكسر بسهولة، ومع مرور الوقت، اكتشف الناس أنه يمكن أن يكون صلبًا لجعل الحديد الزهر، مما جعلها أكثر مرونة، وبالتالي أكثر فائدة بكثير، وقد حدث ذلك قبل أوروبا وأمريكا بنحو 2000 سنة.

ويشكل استخدام الحديد الزهر تحسنًا كبيرًا في الإنتاجية الاجتماعية، ومع ذلك تم استخدام أدوات الحديد والبرونز معًا خلال حقبة الربيع والخريف، ولم يكن استخدام الأول شائعًا بعد، وتطورت تكنولوجيا تشكيل الحديد ببطء عن طريق التجربة والخطأ، واستخدمت في الغالب لصنع الأسلحة في ذلك الوقت، وبرزت ولايات "وو" و"يو" و"تشو"، وغيرها من الولايات لمهارتها في صنع السيوف، ولم يبدأ المزارعون في استخدام أدوات الحديدية بانتظام إلا في حقبة الدول المتحاربة.

جعل استخدام الأدوات الحديدية الزراعة المكثفة ممكنة، وبالتالي سرع من عملية تطور الزراعة، وشجع أيضًا تربية الماشية، ويعتقد أن استخدام المحراث الذي يقوده الثور قد نشأ في عهد أسرة "شانج" بناءً على شكل الحرف الذي يعبر عن المحراث والموجود على نقوش عظام التنبؤ، وعلاوة على ذلك، بدأت الحروف المعبرة عن "ثور" و"حرث الأرض" تظهر في أسماء الناس، كما هو واضح في اسمي اثنين من تلاميذ كونفوشيوس، فيُدعى أحدهما "سيما جنج" والآخر "ران جنج" - حيث كلمة "جنج" تعني الحرث-، كما سمح استخدام الحديد على نطاق واسع بتطور أعمال الري والمحافظة على المياه، مثل مشروع الري الأسطوري "شاوبي" في "تشو"، وقناة ري نهر "تشانج" التي بنيت في مقاطعة "وي"، كما بنى الملك "فوتشاي ملك "وو" أول قناة صناعية في الصين - "هان جو" - في أواخر حقبة الربيع والخريف، وكان لدى جميع الولايات عمليات لترشيد المياه تديرها الدولة، كما وقعت على اتفاقية "كويتشيو" التي نصت أنه لا يسمح لأي من تلك الولايات بقطع إمدادات المياه عن الولايات المجاورة.

وأدى التقدم في صنع الأدوات الحديدية إضافة إلى التطور في التكنولوجيا الزراعية في نهاية الأمر إلى انتهاء نظام حقول البئر المملوكة للدولة في عهد أسرة "تشو" الغربية (1046-771 ق.م)، حيث كان بعض أصحاب العبيد يجبرون عبيدًا على أخذ الأراضي غير المستخدمة خارج حقل البئر في وقت مبكر من

منتصف عهد "تشو" الغربية، وأصبحت هذه الأرض الخالية من الضرائب والمزروعة دون علم البيت الملكي، أرضًا خاصة، حيث إن زراعة مساحات كبيرة من الأراضي تتطلب أعدادًا هائلة من الأيدي العاملة. غيَّر بعض النبلاء أنماط عملهم لجذب المزيد من العمال، فعلى سبيل المثال، استخدم مسؤول اسمه "تيان" في مقاطعة "تشي" ميزانًا صغيرًا عند فرض الضرائب على الناس، وميزانًا كبيرًا عند إقراض الحبوب، وكانت النتيجة فرار العبيد من حقول الملك إلى حقول ملاك الأراضي الخاصة؛ بسبب هذه التغييرات وغيرها، مما أدى إلى التبعية الإقطاعية، وأصبحت الأراضي العامة في بعض الولايات بوارًا؛ لأنه بعد هروب العبيد، لم يعد بالإمكان الحفاظ على نظام حقول الآبار.

وفي عام (594 ق.م)، ألغت مقاطعة "لو" رسميًّا نظام حقول الآبار واعترفت بشرعية الأراضي الخاصة، وجمعت الضرائب على أساس مساحة الأراضي المملوكة.

وبحلول حقبة الدول المتحاربة (475-221 ق.م)، حققت الزراعة خطوات كبيرة إلى الأمام، حيث بدأ المزارعون بتخصيب محاصيلهم، ليس فقط بروث الحيوانات، ولكن أيضًا بالرماد النباتي والمواد العضوية الأخرى قبل أوروبا بنحو 1300 إلى 1400 سنة، وأدرك الناس أيضًا أنه لزيادة الإنتاج كان عليهم أن يختاروا أفضل البذور، كما بدؤوا أيضًا في دراسة التربة نفسها من أجل زراعة المحاصيل التي كانت مناسبة لها.

الحِرَف

أدت الزيادات في الإنتاج إلى تطوير الحرف اليدوية، فعُيِّن مسؤولون حكوميون لإدارة إنتاج أواني الطقوس والأسلحة والمركبات خلال حقبة الربيع والخريف، ففي حين اعتمد على إنتاج معظم الضروريات اليومية على يد الحرفيين الشعبيين، عمل حرفيو الملوك في ستة مجالات: صنع السيراميك،

المعادن، البناء، النجارة، الدباغة والصباغة وفقًا لكتاب "الشعائر".

عمل هؤلاء الحرفيون لصالح الحكومة أغلب السنة، وأعاقت الطبيعة الرسمية للصناعة تنميتها الحرة.. يعد كتاب الشعائر واحدًا من النصوص الأساسية للشريعة الكونفوشيوسية ويعرف أيضًا باسم "ليجي" أو"لي جينج" أو "نظام الشعائر"، وهو عبارة عن مجموعة من النصوص التي تحدد الآداب الخاصة بالإدارة والاحتفالات لأسرة "تشو".

أما في حقبة الدول المتحاربة، فقد أتاح انتهاء نظام حقول الآبار الفرصة لنمو الحرف، وكان صهر الحديد أهم قطاعاتها، حيث وثّق ما يقارب ثلاثين منجمًا للحديد في "نظام الجبال والبحار"، ويعتبر هذا النص المكتوب في حقبة الدول المتحاربة والمعروف باسم "شان هاي جينج" بأنه رواية لتاريخ الصين قبل عهد أسرة "تشين" ويجمع ثلاثة أجزاء: جزء للوصف الجغرافي، وجزء للأساطير وجزء ثالث للحيوانات، وقد تطورت تكنولوجيا التعدين لتشمل التهوية تحت الأرض، والصرف، والنقل، والتطوير، والإضاءة ودعم الطرق، كما تطورت صناعة الملح والمنسوجات والأدوات المطلية بالورنيش بشكل كبير، وفي حين كان إنتاج الملح مزدهرًا بالفعل في حقبة الربيع والخريف، إلا أنه ازداد تطورًا في حقبة الدول المتحاربة، فكانت ولايات "تشي" و"يان" المراكز الرئيسة لتوريد الملح البحري، في حين أصبح الملح متوافرًا في ما يعرف اليوم بمقاطعة "سيتشوان".

وبحلول حقبة الدول المتحاربة، كانت المناطق الريفية في حوض النهر الأصفر والمناطق الوسطى والدنيا لنهر "يانج تسى" تعمل في زراعة دودة القز لإنتاج الحرير، وكانت الأقمشة الحريرية التي تنتجها ولايات "تشي" و"لو" الأجمل على الإطلاق، وشاع استخدام الحرير كمكافآت في الولايات التابعة قد تصل أحيانًا إلى منح ما يصل إلى 5000 لفة من القماش، وعزز ذلك بالتالي تطور صناعة الغزل والنسيج، ومع ذلك كان القنب هو الأكثر شيوعًا، باعتباره النسيج الرئيس لملابس العمل، وكانت جميع الأقمشة في هذا العصر مصبوغة، وتمتعت بأكبر

مجموعة من الألوان والتصاميم أكثر من أي وقت مضى.

على الرغم من ظهور الأثاث الملمع بالورنيش كجزء من صناعة الخشب في حقبة الربيع والخريف، فإنها ازدهرت كأحد القطاعات الحرفية المستقلة خلال حقبة الدول المتحاربة؛ ففي وقت مبكر، كانت لا تزال تتمتع بالوزن الثقيل جدًّا، وكان المعتاد هو الطلاء الملون للخشب المنحوت، أما بعد منتصف حقبة الدول المتحاربة، أصبح الخشب أخف وزنًا، واستخدمت ألوان متنوعة من الطلاء، بما في ذلك الأسود والأحمر والأصفر والأرجواني والأبيض والأخضر، ومما يدل على تطورها الكبير وجود حليات نحاسية فيها.

كان "لو بان" - المعروف أيضًا باسم "جونج شو بان" - من مواليد دولة "لو" التي ازدهرت في أواخر حقبة الربيع والخريف والسنوات الأولى من حقبة الدول المتحاربة.

كان "لو" مخترعًا متميزًا ولا يزال ينظر إليه على أنه مؤسس حرفة النجارة الصينية، وفي وقت مبكر كان مشاركًا في مختلف الجهود الحربية مثل سلالم العبور الخاصة بدولة "تشو"، ولكن تحت تأثير "مو تزي"، تحول بدلًا من ذلك إلى الاختراعات التي من شأنها أن تعود بالنفع على الناس، كان "مو تزي" فيلسوفًا عاش في حقبة الدول المتحاربة (من 470 إلى 391 ق.م).. دعت مدرسة الفكر التي سميت باسمه -الموهية- إلى الحكم بالأخلاق، وتعيين المسؤولين على أساس الجدارة والنزاهة في صنع القرار، وكانت معارضة للفلسفة الكونفوشيوسية والطاوية - طبقًا للأسطورة - اخترع "لو بان" أدوات مثل قلم النجار الحبر والمنشار وفأرة التنعيم والمثقاب ومربع النجار، ويقال أيضًا إنه اخترع الرَّحى أيضًا بعد مشاهدة العملية الشاقة لدرس الأرز بالهاون، كما أن جسور الصين المتماثلة والقصور والسرادقات وأبراج المراقبة كانت أيضًا من ضمن أعماله التي اعتُرف به من أجلها كمؤسس حرفة البناء بشكل عام.

سدود "دو جيان جيان"

في حين تمتع محاربو وخيول الطين التي صنعت في عهد أسرة "تشين" بشهرة عالمية، لم يسمع بسدود "دو جيان جيان" إلا عدد قليل من الناس، وهي تؤلف نظام الري الذي يمتد على بعد آلاف الكيلومترات من "شيان يانج" (عاصمة "تشين")، والذي يخفي أكبر أسرار إمبراطورية "تشين". كان "تشين شي هوانج" قد قاد جيشًا مؤلفًا من مليون جندي واعتبر أكبر قوة في العالم في ذلك الوقت، ومحا به الولايات التابعة وكسر تحالف الدول الست وقام بتوحيد الصين، وكان أحد العوامل الرئيسة لنجاحه هو استخدام سدود "دو جيان جيان" التي كانت تسقي سهل "تشانج دو" مكونة منطقة خصبة غنية.

شُيدت هذه السدود قبل أكثر من 2000 سنة خلال حقبة الدول المتحاربة في "شو"، وهي دولة في جبال "تشينلينج" المتدرجة وشديدة الانحدار.

ولكي تصبح دولة "تشين"حصينة كان الجيش بحاجة إلى القدرة على تطويع سهل "شانشي" المركزي الخصيب وسهل "تشينج دو"، ممَّا يوفِّر إمدادات جاهزة من الأغذية، واكتشف الجيولوجيون أن حوض "سيتشوان" كان مرة جزءًا من بحر داخلي ضخم تحيط به الجبال والأنهار، أصبح سهل "تشينج دو" الخصب وحوض "سيتشوان" ظاهرين بعد انحسار مياه البحر إلى الشرق عبر "الخوانق الثلاثة"، وقدم الحوض الناتج لسكان "شو" القديمة مكانًا للعيش والزراعة، ولكنه كان يتحول إلى مستنقع كلما فاض نهر "مين".

تقول الأسطورة إن رجلًا يدعى "جون" قد أرسل لبناء سد للسيطرة على الفيضانات، إلا أنه مات بطلًا بعد أن قضى تسع سنوات من الفشل في السيطرة على المياه، واستمر ابنه، "يو" العظيم، الذي حمل راية والده في العمل وتمكن بعد ثلاثة عشر عامًا من تسخير الفيضانات بالتجريف، ومع ذلك، فإن نجاحه لم يكتمل أبدًا؛ ففي عام (316 ق. م)، هاجمت كل من ولايتي "با" و"شو" وهما ولايتان صغيرتان تابعتان جنوب غرب "تشين" بعضهما بعضًا وطلب كل منهما

العون من "تشين"، وقد استغل الملك "هيوين" ملك "تشين" الفرصة للاستيلاء على الولايتين وبسط سيطرته على سهول "تشينج دو" الغنية بضربة واحدة، إلا أن السهل قد شكل معضلة مستمرة لـ"تشين" بسبب الفيضانات المتكررة التي جعلت من غير الممكن الاستفادة منه ولكن سيكون من الغباء التخلي عنه، ثم في عام (256 ق.م)، عين الملك "تشاو" "لي بينغ" حاكمًا، اكتشف "لي" أن المياه تندفع نتيجة للجبال العالية والوديان العميقة من الروافد العليا لنهر "مين" لآلاف "اللايات"(6) نحو محافظة "جوان"، وهنا يتباطأ الماء حتى يصل إلى جبل "يولي"، الذي يمنعها من التدفق شرقًا، وخلال الفيضانات السنوية، ترتفع المياه إلى الغرب، تاركة المناطق الواقعة شرق الجبل منكوبة بالجفاف؛ لذلك شرع "لي بينج" في مشروع هندسي رئيس لحفر قنوات حول الجبل لقطع طريق عبر الصخور، مستخدمًا مبدأ التمدد والانكماش الحراري بتسخين الصخور بالنار قبل صب المياه الجليدية القادمة من الجبال عليهم، مما يسبب تشققها، وبعد عدة سنوات من الجهد المضني تم الانتهاء من جزء من القناة، وأصبح يعرف باسم "فم الزجاجة الثمينة".

بعد ذلك، قرر "لي" بناء سد على نهر "مين" لتقسيم مياهه إلى قسمين؛ فرع واحد يتبع المسار الأصلي، في حين يتدفق الآخر من فم الزجاجة الثمينة. وبعد النكسات المبكرة التي حدثت بسبب قوة التيار، أمر "لي" شعبه بصنع أقفاص خيزران كبيرة وملئها بالحصى، وإغراقها في النهر، وبمجرد انتهائه سمح السد المعروف باسم "فم السمكة" بسبب شكله بتحويل 40% من المياه إلى القناة الجديدة، ثم بني بعده سد "فيشايان"، الذي تم تصميمه للحد من تراكم الرواسب حول القناة وبالتالي تقليل الفيضانات.

بهذا يكون أساس مشروع "دو جيان جيان" قد اكتمل، حيث شكَّل فم السمكة وفم الزجاجة الثمينة وسد "فيشايان" والقنوات المتشابكة نظامًا كاملًا للسيطرة على الفيضانات والري والنقل، وأخيرًا تحول سهل "تشينج دو" إلى منطقة زراعية خصبة، وهذا ما مكَّن "تشين شي هوانج" من فرض السيطرة على البلاد،

وإنشاء أول إمبراطورية إقطاعية في تاريخ الصين، في حين اختفت مشاريع الري في حقبة الربيع والخريف تمامًا، ظل نظام "دو جيان جيان" يعمل أكثر من 2000 سنة بعدها، ويعتبر بالتالي أقدم مشروع مستمر للحفاظ على المياه في العالم.

صعود المدنية

أسفرت الحرب المستمرة بين القبائل عن بناء مرافق دفاعية للحماية في الصين القديمة.. وتقول الأسطورة إن الإمبراطور الأصفر بنى التحصينات وشيد الأشكال الأكثر بدائية من المدينة، ومع الاستقطاب في الطبقات الاجتماعية المختلفة بدأ ظهور الدول، وبدأ الفصل بين التجارة والزراعة.. عاش الحكام والتجار عمومًا في الحصون التي كان لها وظائف سياسية واقتصادية وعسكرية، ترجع أوائل السجلات الموثوق بها للمدن الصينية الأولى إلى عهد أسرة "تشو"؛ فبعد تدمير أسرة "شانج"، نقلت أسرة "تشو" عاصمتيها غربًا إلى "فنج جينج" و"هاو جينج" - بالقرب من "شي آن" الحالية في محافظة "شان شي"- ووصل بين الاثنتين جسر على النهر، ووُثِّق أقرب نظام للمدينة في شعائر تشو - "تشولي" نص عن الإدارة والحكومة في فترة "تشو" وجزء من الأصول الكونفوشيوسية-: "كان محيط "هاو جينج" تسعة ليات، وعلى كل جانب ثلاث بوابات.. تقطع المدينة تسعة شوارع، ويقع البلاط في المقدمة والسوق في الخلف.

عاش النبلاء والحرفيون معًا في المدينة، وبما أن الاقتصاد كان ضعيفًا نوعًا ما، فقد اعتمد بشكل كامل تقريبًا على الريف المحيط لإمداده بمختلف الإمدادات".

وهذا يدل على أن ازدهار المناطق الحضرية لم يكن بالضرورة مرتبطًا بالتجارة التي كانت تحت سيطرة كل من أسرتي "شانج" و"تشو" (1600-221 ق.م) بشكل احتكار رسمي، فلم يظهر التجار المستقلون حتى أواخر سنوات حقبة الربيع والخريف (770-476 ق.م)، وأصبح تقسيم العمل بين الحرفيين أكثر

تطورًا في حقبة الدول المتحاربة (475-221 ق.م)، وبدأ ظهور عمال المعادن والخزافين والنجارين وعمال النقل ودبغ الجلود، وقد خلق ذلك حاجة للأسواق التي يستطيع الحرفيون والمزارعون تبادل السلع فيها، كما أن المنتجات الزراعية التي يملكها المستهلكون الذين يحتاجون إلى الكماليات، مما مكن المدن من الازدهار.

ولم يكن هناك سوى عدد قليل من المدن الكبرى في حقبة الربيع والخريف؛ ولكن بفضل تطوير الزراعة والصناعة والتجارة خلال حقبة الدول المتحاربة ازداد عدد المدن ونما عدد سكانها، ويقدر العلماء أن عدد سكان الحضر قد بلغ ما بين أربعة وخمسة ملايين نسمة، وتتفاخر بعض المدن باحتوائها على أكثر من 10.000 أسرة، وكانت مدينة "لينتزي" - عاصمة "تشي" - أكبر المدن وأكثرها ازدهارًا، ويرد أكثر الأوصاف شهرة للمدينة في سجلات المؤرخ:

"ضمت مدينة "لين تزي" 70.000 أسرة، وبافتراض أن كل أسرة تضم ثلاثة رجال بالغين، فإن ذلك سيصل إلى 210.000 رجل يمكن تنظيمهم في جيش ضخم دون الحاجة إلى تجنيد جنود من مقاطعات أخرى. كانت الشوارع المزدحمة في المدينة مليئة بالكثير من العربات والناس لدرجة أن محاور العربات كانت تصطدم بعضها ببعض في كثير من الأحيان وكذلك بالمشاة، وإذا قمنا بربط مقدمة ثوب كل شخص من السكان معًا فيمكن لنا إقامة خيمة كبيرة، وإقامة ستار ضخم بربط أكمامهم ولكان عرقهم مثل المطر".

وكان اقتصاد "لين تزي" مزدهرًا في جميع القطاعات، حيث تراكمت الأسماك والملح والحرير في الأسواق، كما ازدهرت الثقافة وعاش شعب المدينة حياة رغدة، حيث تمتعوا بعزف جميع أنواع الآلات الموسيقية القديمة (مثل ال"يو" وهي آلة نفخ صينية قديمة)، وتمتعوا بقتال الديكة وتمشية كلابهم ولعب مباريات الكرة، ويقال إنه عندما استمع كونفوشيوس إلى عروض بأسلوب "شاو" (الذي يجمع بين القصائد والموسيقى والرقص) في "لين تزي"، أصبح مسحورًا بالموسيقى لدرجة أنه لم يتذوق اللحوم لمدة ثلاثة أشهر، وينطبق الشيء نفسه على "يينج" عاصمة "تشو". كان جدار مدينة "يينج" يبلغ 30 "لي" طولًا، وكانت حركة المرور فيها كبيرة والشوارع مزدحمة، حتى أنه قيل إن الملابس الجديدة التي تلبس في الصباح تتمزق مساءً من مزاحمة الحشود،

وهي صورة دقيقة لحياة المدينة الصاخبة.

وبينما ازدهرت العواصم المختلفة بسبب أهميتها السياسية، ازدهرت مدن أخرى بفضل دورها كمراكز للنقل، ومن الأمثلة على ذلك مدينة "تاو"، الواقعة بالقرب من "دينج تاو" الحالية في محافظة "شاندونج" والتي ازدهرت فجأة في نهاية حقبة الربيع والخريف، وذلك بسبب حفر مقاطعة "وو" لقناتي "هانجو" و"هونج جو" اللتين ربطتا أنهار "جيانج" و"هوي" و"جي" و"سي"، حيث وضع بناء قناة "هونجو" مدينة "تاو" في وسط الممر المائي المتاخم لولايتي "هان" و"وي" في الغرب و"تشي" و"لو" في الشرق، ومن هناك كان من الممكن أيضًا الوصول إلى نهري "جيانج" و"هواي"عبر المياه.

وكثيرًا ما كان الازدهار والرخاء الاقتصادي والثقافي للمدينة يعود إلى بعد نظر الحكام، فعلى سبيل المثال في بداية عهد أسرة "تشو" الغربية (1046-771 ق.م)، منح "جيانج شانج" - رئيس وزراء "تشو" - إقطاعيات في "ينجكيو" - وهو اسم آخر لمدينة "لينتزي" عاصمة "تشي"-، وبالنظر إلى أن هذه المنطقة كانت قليلة الكثافة السكانية وتنتشر فيها السهول المالحة القلوية، فقد شجع "جيانج" الصيد، وجمع الملح، وشجع النساء على إنتاج المنسوجات، ونتيجة لذلك سرعان ما تجاوز مستوى الملابس والأحذية المنتجة في مقاطعة "تشي" مثيلاتها في المناطق والأقاليم الأخرى.

وكان أحد الإصلاحات المهمة التي تمت في وقت لاحق خلال عهد أمير "هوان" حاكم "تشي" والتي بدأها رئيس وزرائه "جوان تشونج" هو تقسيم الدولة إلى ستة أقاليم للصناعة والتجارة، وخمسة عشر للعلماء والنبلاء. وقد مكن هذا أمير "هوان" من الحفاظ على السيطرة التي استمرت حتى حقبة الدول المتحاربة.

وهناك قصة أخرى عن حكام مقاطعة "تشينج" في السهول الوسطى، حيث وضعوا اتفاقًا ينص على أن التجار سيكونون بعيدين عن السخرة طالما

حافظوا على ولائهم؛ لذلك عندما هجمت مقاطعة "تشين" على "تشينج" فجأة تظاهر رجل الأعمال "شيان جاو" بمكافأة جنود "تشين" باثنى عشر ثورًا، مما أدى لاطمئنانهم له وسهولة هزيمتهم بعد ذلك.

كما شجعت التنمية الحضرية والتجارية على تداول الأموال، فصكت العملات خلال حقبة الدول المتحاربة في فئتين: النحاسية والذهبية، وصكت النقود النحاسية في أربعة أشكال: منها ما يشبه السكين وكانت متداولة في ولايتي "يان" و"تشي"، والنقود القماشية في "هان" و"تشاو" و"وي"، والعملات الدائرية في "تشو" و"تشين"، واستخدمت القواقع بأنواعها وأشكالها في "تشو"، وكان اسم القطع النقدية على شكل المجرفة في تلك الحقبة يترجم حرفيًا باسم "عملة القماش" في الصينية الحديثة ولكن الاسم البديل "المال الموزع" هو الأصح على الأرجح، كما صكت "تشو" عملات ذهبية على شكل مربع كانت تعرف باسم "كعكة الذهب"، وبالاقتراب من الفترة المتأخرة من حقبة الدول المتحاربة بدأت الحاجة إلى شكل موحد للعملة تزداد بسبب التبادل الاقتصادي والثقافي المتزايد، وقد تحقق ذلك أخيرًا على يد "تشين شي هوانج"، أول أباطرة"تشين".

الأدب: كتاب الأغاني ومرثيات الجنوب

كان كتاب الأغاني أول مجموعة من القصائد والأغاني في الصين، كما سُمّي بكتاب القصائد المغناة أو الشعر القديم (شي جينج)، ويحتوي على 305 قصائد وأسماء ست قصائد أو أغانٍ تعرف فقط بعناوينها، حيث لا نص لها.

جُمّع الكتاب تقريبًا منذ بدايات حكم أسرة "تشو" الغربية إلى حقبة الربيع والخريف وظهر في شكل كتاب في القرن السادس قبل الميلاد، وتقع المناطق المشار إليها في القصائد أساسًا حول حوض النهر الأصفر والمنطقة الجنوبية من شمال نهر الـ"يانج تسي"، وتضم بذلك ما هو معروف اليوم بـ"شا آن شي" و"شان شي" و"هنان" و"هبي" و"شاندونج" وشمال "هو بي"، وانحدر المؤلفون

من جميع مساقي الحياة، من نبلاء ومدنيين، أما كيف ولماذا تم تجميعها فكان ذلك دائمًا من الأسئلة المثيرة للجدل التي يمكن للأجيال اللاحقة أن تتكهن فقط بإجابتها، حيث لم يتم توثيق ذلك بوضوح في أدب عصر ما قبل "تشين"، ويعتقد الناس في عهد أسرة "هان" أن أسرة "تشو"كان لديها مسؤولون عن الشعر، حيث كان واجبهم جمع قصائد من الناس، ثم عرضها على البلاط حتى يتمكن الحكام من فهم احتياجات الشعب، ويعتقد أيضًا أن كونفوشيوس هو من قام بمراجعة وتنقيح الكتاب ووضع اللمسات الأخيرة عليه، حيث كانت هناك نسخ من 300 قصيدة مماثلة لكتاب الأغاني الحالي في أيامه، فمن المحتمل أن يكون قد علق عليها، بل وربما يكون قد قام بتحرير المحتويات وتنقيح اللغة، ولكن ليس هناك ما يكفي من الأدلة التي تشير إلى أنه هو من اختار وجمع هذا العمل.

هناك رأي آخر، وهو أن القصائد ألفها أو جمعها اللوردات التابعون أو كبار المسؤولين الذين خصصوها لأسرة "تشو" الملكية، وأن المسؤولين عن الموسيقى الملكية قد رتبوها في وقت لاحق، ويتوافق هذا الرأي مع الممارسات المسجلة عن تقديم القصائد إما للثناء أو للوم الحاكم، وليس من المؤكد إن كانت أسرة "تشو" تمتلك نظامًا لجمع القصائد من شعبها؛ لأنه كان من الصعب جلب مثل هذه القصائد إلى البلاط دون إشراك المسؤولين عن الموسيقى، والذين يجب أن يكون لهم دور في تأليفها.

ينقسم كتاب الأغاني إلى ثلاثة أجزاء: "فنج" (الأغاني الشعبية)، و"يا" (القصائد الغنائية أو ترانيم البلاط)، و"سونج" (الترانيم)، وكلها كانت في الأصل أغاني، ويشير "فنج" إلى "جو فنج" وهي الأغاني الشعبية المجمعة من مختلف المناطق والدول التابعة، وتشمل المجموعات الخمسة عشرة للأغاني الشعبية 160 قصيدة جمعت من الناس كتصوير لحياتهم وعملهم وصراعاتهم، فهي ذات قيمة أدبية عالية بسبب نظمها وطولها ولغتها وإيقاعها.

أما "يا" فيشير إلى القصائد الغنائية أو ترانيم البلاط القادمة من عاصمة أسرة

"تشو" الغربية، وتنقسم إلى كتاب الملاحم وكتاب القصائد الغنائية، ويحتوي الأول على واحد وثلاثين قصيدة والثاني على سبع وسبعين؛ وهي تعكس التنمية الاجتماعية والإنتاج الزراعي وفتح أحواض الأنهار في الجنوب والمشاريع العسكرية والضرائب المفرطة والرسوم التي فرضها الحكام، كما أنها تنعى حالة أصحاب الرقيق الأرستقراطيين؛ بسبب انحدار حال أسرة "تشو" المالكة.

وتنقسم قصائد "سونج" إلى ترانيم "تشو" التي تحتوي على واحد وثلاثين قصيدة، وترانيم "لو" التي تحوي أربع قصائد، وترانيم "شانج" التي تحوي خمس قصائد، وتُغنى هذه القصائد الطقسية للثناء على أسلاف أصحاب الرقيق الأرستقراطيين، وعلى الرغم من بساطتها ورشاقتها وتمتعها بأسلوب كلاسيكي، فإن أفكارها ومحتواها غامض إلى حدٍّ ما.

جعلت الاستخدامات المختلفة لكتاب الأغاني جزءًا مهمًّا من ثقافة الطقوس لأسرة "تشو"، والتي أصبحت تستخدم على نطاق واسع للعبادة وفي حضرة الملك والولائم وهلُمَّ جرّا في الدول التابعة بمجرد جمعها في كتاب واحد، كما استخدمته الطبقات العُليا عمومًا للترفيه والاحتجاج عند الحاكم وإصدار الأحكام والتعبير عن المشاعر، في حين استخدمها العلماء مثل كونفوشيوس لتعليم التلاميذ.

عندما أحرق "تشين شي هوانج" أول إمبراطور من أسرة "تشين" الكتب ودفن معلمي الكونفوشيوسية أحياءً، لم يسلم كتاب الأغاني من هذا المصير، واكتشف علماء أسرة هان الذين جمعوا القصائد في وقت لاحق ثلاث مخطوطات مشروحة من ولايات "لو" و"تشي" و"هان"، والتي أصبحت شهيرة جدًّا لفترة من الوقت، وأصبح النص الموجود قبل فترة "تشين" يُسمى شعر ماو (أو نص ماو)، حيث شرحه "ماو هنج" من "لو" و"ماو تشانج" من "تشاو"، وظهر في وقت لاحق وأصبح في نهاية المطاف أكثر شعبية من الإصدارات الثلاثة الأخرى التي فُقدت بطريقة ما، ولذلك أصبح شعر ماو هو النسخة الحديثة من

كتاب الأغاني.

كتبت شعوب الشمال معظم كتاب الأغاني، أما في الجنوب، فكتبوا "تشو تسي" أو "أغاني تشو" أو "مرثيات الجنوب" خلال حقبة الدول المتحاربة، وتصور هذه المختارات المناظر الطبيعية والتاريخ والشخصيات وعادات وتقاليد ما يعرف الآن بمقاطعات "هوبي" و"هونان"، وأعطت صورة حية للمنطقة، حيث كتبت بالأسلوب واللهجة والإيقاع المحلي، ناقلة بالتالي صورة حية للمنطقة.

جمع "ليو شيانج" من أسرة "هان" هذه المجموعة من أعمال الشعراء الكبار أمثال "تشو يوان" و"سونج يو" وغيرهم، وكانت المختارات الناتجة أول مجموعة من الشعر ذي الأسلوب الرومانسي في الصين.

يعتبر العمل الأكثر تمثيلًا للمجموعة هو "لي ساو"، أو مرثية لمجابهة الأحزان، وهي تحفة ألفها الشاعر الوطني الكبير "تشو يوان"، الذي تُعتبر كتاباته محور المجموعة، وكان "تشو يوان" - وهو نبيل من "تشو" - يتمتع بالثقة الكاملة للملك "هواي" الذي أعطى له منصبًا مهمًّا؛ نظرًا لنزاهته وعلمه، وعاداه الأرستقراطيون بشدة نظرًا لموقفه في دعم الموهوبين وتقييد حقوق ومصالح النبلاء القدامى، مما اضطره في النهاية لمغادرة "يينج" العاصمة، والذهاب إلى المنفى في شمال "تشو"، وقد ألف العديد من أعماله - بما فيها "لي ساو" - خلال هذه الفترة.

وفي وقت لاحق، عندما تم القبض على الملك "هواي" وعُذِّب حتى الموت في "تشين"، نُفِي "تشو يوان" إلى جنوب نهر الـ"يانج تسي"، وفي نهاية المطاف، عندما استولى جيش "تشين" على العاصمة "يينج"، قال إنه لن يتحمل رؤية دولته مهزومة خاضعة، وألقى بنفسه في نهر "ميلو".

يُعتقد عمومًا أن "تشو يوان" ألف "لي ساو" في طريقه إلى المنفى في شمال "تشو"، وتتألف القصيدة من جزأين؛ يروي الأول قصة محاولته لنصح الملك والتي تحبطها المعارضة، والجزء الثاني من القصيدة رواية خيالية لمقابلة "تشو" مع ملك قديم أسطوري، واستكشاف لمشاعر الولاء والوطنية، ويتجلى

أسى الشاعر وحزنه في كل مكان، وانفجاراته العاطفية المستمرة هي ما يعطي القصيدة شكلها التكراري، وهناك تطور منطقي لأفكاره ومشاعره على الرغم من أنها تبدو غير متماسكة إلى حد ما في البداية.

وقد قسم الأدب الصيني دائمًا إلى قسمين: "فنج" و"ساو"، وتشير "فنج" العائدة على"جو فنج"، أو القصص الشعبية في كتاب الأغاني، و"ساو" العائدة على "لي ساو"، إلى أنهما تشكلان الأساس للواقعية والرومانسية في الصين على التوالي.

حيث تجسد الأغاني الشعبية في "جو فنج" روح الواقعية سواء من حيث المحتوى والتعبير بأسلوب بسيط وموجز لرسم صورة حية للحياة الواقعية، أما "لي ساو" من ناحية أخرى، فتجسد الروح الإبداعية الرومانسية، والتعبير بحرية عن مشاعر الشاعر والانطلاق بالخيال في عالم الأساطير، وكان هذان الشكلان من أشكال التعبير الأساسي الذي واصل الكتاب الصينيون الإضافة إليه عبرالأجيال.

الموسيقى: الأجراس والطبول

أقيم قصر رائع في مقاطعة "تزي نج" شمال نهر ال"يانج تسي" وشرق نهر "هان" -منطقة "سوي تشو" في محافظة "هوبي" حاليًا - قبل نحو2400 عام.. وعاش هناك ماركيز يُدعى "يي" متمتعًا بالموسيقى التي تعزف بمجموعة من الأجراس الرنانة، وفي الأول من أغسطس عام 1978م، رنت هذه الأجراس ذاتها مرة أخرى لإمتاع جمهور جديد.

للأجراس تاريخ طويل في الصين، ويعود تاريخ الجرس الفخاري إلى العصر الحجري الحديث، وبدأ انتشار الجرس البرونزي من عهد أسر"شيا" و"شانج" وغيرها، ويسمى الجرس الواحد بالجرس المميز، في حين تسمى مجموعة الأجراس المرتبة على إطار وفقًا لحجمها وصوتها بالأجراس الرنانة.

وتزايد عدد مجموعات الأجراس الرنانة من مجموعات من ثلاثة أو خمسة فقط

في عهد أسرة "شانج" إلى تسعة أو ثلاثة عشر جرسًا في عهد "تشو" الشرقية، وكانت الأجراس الرنانة المكتشفة في قبر ماركيز "يي" حاكم "تزينج" المكونة من خمسة وستين جرسًا أكبر مجموعة تم اكتشافها، وتتميز بالقوة المدهشة والتعقيد، حيث يتكون الإطار المضغوط مما لا يقل عن 245 مكونًا، ويرتفع أكبر جرس لمسافة 1.534 متر.

ووجد الخبراء أن المجموعة قادرة على إصدار أصوات مختلفة ومنسجمة ومتناغمة، لهذه الأجراس نغمة غنية وجميلة، ومجموعة واسعة من النغمات بدءًا من (C) (المجموعة الكبيرة) إلى (D) (المجموعة الصغيرة) عبر خمسة أوكتافات، وتشكل الأوكتافات الثلاثة في المدى المتوسط اثنى عشر نصف نغمة ويمكن تعديلها، مشيرًا إلى أنها يمكن أن تعزف الموسيقى بخمسة أو ستة أو سبعة مقاييس صوتية، ويمكن لكل من الأجراس أن يخرج نغمتين موسيقيتين بينهما ثلاث درجات من الفواصل، وتوجد علامات خاصة بالنوتات الموسيقية على كل جرس وإذا ضربت هذه العلامة بشكل صحيح تصدر النغمة المطلوبة، وقد اكتشف الموسيقيون الذين يدرسون الأجراس المكتشفة في غرب "تشو" أجراسًا ثنائية النغمات، وكانوا يعتقدون أن هذا قد يكون عارضًا حتى اكتشاف أجراس ماركيز "يي" الرنانة، والتي أثبتت أنها مصنعة بهذا الشكل.

وتكمن أهمية هذه الأجراس في نقوشها التي يبلغ عددها 2800 نقش، والتي تحمل اسم ونغمة كل جرس وعلاقته بالولايات أو المناطق المحيطة.. ففي الماضي، كان كثير من العلماء يعتقدون أنه لم يكن هناك سلم موسيقي للنغمة السابعة في الصين خلال حقبة الدول المتحاربة، وأن السلم الموسيقى الاثنى عشر المتساوي قد جاء من اليونان قرب نهاية الحقبة، إلا أن هذه الأجراس تشير إلى خلاف ذلك، حيث إن هذه المجموعة أقدم بنحو 1800 سنة من أي مجموعة مشابهة في أوروبا، ويمكن أن تكون النقوش عليها أقدم كتابات عن النغمات في الصين القديمة.

واكتشفت في الوقت نفسه آلات موسيقية أخرى، مثل الأحجار أو اليشم الرنان وطبول "جيان" والمزامير والنايات و"تشي" (مزامير الخيزران ذات الثقوب الثمانية) و"شنج" (أنابيب النفخ الصينية) و"سي" (آلة موسيقية تشبه آلة القانون)، وكان يعزف عليها جميعًا في المآدب الكبرى، وفي غرفة جانبية من القبر كانت هناك أيضًا الآلات الوترية وآلات النفخ، وتظهر كل هذه أن الصين كانت في طليعة التطور الموسيقي والعلمي في حقبة الربيع والخريف.

ويتفق المؤرخون عمومًا على أن الأجراس الرنانة في أوائل عهد أسرة "تشو" (1046-256 ق.م) مماثلة لأصول أسرة "شانج" (1600-1046 ق.م).. حجمها ليست متنوعة مثل أجراس "شانج"، إلا وجود أربعة من النغمات الخمس المكونة للسلم الموسيقي القديم، وعلى الرغم من أنه تم إضافة المزيد من الأجراس في وقت لاحق لتكوين مجموعات من ثمانية أجراس فإن السلم الموسيقي بقي دون تغيير، وكان مطابقًا للشكل النموذجي من الموسيقى الموصوفة في كتاب طقوس "تشو"، وهذا يشير إلى أن أجراس هذه الفترة كانت كلها تستخدم لعزف الموسيقى "تشو" رفيعة المستوى مثل الأغاني الموجودة في ترانيم تشو وكتاب الملاحم، وكتاب القصائد وهو جزء من كتاب الأغاني.

كانت هناك قواعد صارمة في ما يتعلق بالموسيقى التي يمكن أن تتمتع بها صفوف مختلفة، فعلى سبيل المثال، كانت مجموعات الأجراس والطبل والـ"تشينج" (الحجر أو اليشم الطنان)، لا يمكن إلا أن يتمتع بها الملوك واللوردات حكام الولايات التابعة وعُرفت باسم "الفرقة الذهبية"، أما الطبول فلم يسمح بها إلا للعلماء والمسؤولين فقط، ومع زوال أسرة "تشو" الغربية وتراجع أسرة "تشو" الشرقية، تضاءلت هذه الفروق تدريجيًا وظهرت أشكال جديدة وجاء أكثرها شهرة من"تشينج"، كما ظهرت هذه "الموسيقى الجديدة" كما سميت في "وي" (卫) و"سونج" و"تشي". اتسمت هذه الموسيقى بالجدة والحياة وتنوع أشكالها وسرعان ما أصبحت المفضلة لدى الملوك، وعلى الأرجح

أن هـذه الموسـيقى الجـديدة - أو الموسـيقى المنحلـة الآتيـة من "تشينج" و"وي" (卫)، كما انتقدها "كونفوشيوس" - قد عزفت على هذه الأجراس الرنانة خلال عصر ماركيز "يي" حاكم "تسنج".

الفلك

وُلد علم الفلك في الصين بشكل بدائي في العصر الحجري الحديث، بدءًا من ملاحظة ارتفاع ووضع الشمس، إلى مراحل تغير القمر؛ اكتسب الناس مفهوم الزمان والمكان، واكتشفوا أهمية وتكرار أنماط الفصول الأربعة.

وتقول الأسطورة إن التقويم وُجد بالفعل في عهد أسرة "شيا" (2070-1600 ق.م)، وحتى اليوم يعرف التقويم القمري الصيني باسم "تقويم شيا"، والذي تم تطويره بالكامل في فترة "شانج" (1600- 1046 ق.م)، ففي تقويم "يين" في ذلك الوقت كان الشهر الشمسي يتكون من ثلاثين يومًا، بينما الشهر القمري يتكون من تسعة وعشرين يومًا، وشهدت السنة التي قسمت إلى اثنى عشر شهرًا، دائرة من التغيير من البارد إلى الساخن وتتألف السنة الكبيسة من ثلاثة عشر شهرًا، وكان تقليد الجمع بين الين واليانج، والمفاهيم المعقدة والمرنة التي يمكن أن تعني "الساخن والبارد" و"المذكر والمؤنث" و"الإيجابي والسلبي" والعديد من مجموعات أخرى من الأضداد، قد استمر حتى العصر الحديث.

كما أنشأ الفلكيون أيضًا أربعًا وعشرين نقطة تقسيم موسمية (تعرف باسم "الفترات الشمسية الأربع والعشرين" والتي لا تزال قيد الاستخدام في الصين) في حقبة الدول المتحاربة (475-221 ق.م)، وكان هذا إنجازًا علميًا فريدًا، ولكن على الرغم من أن القدماء عرفوا قوانين الشمس والقمر والنجوم، فإنهم لم يتمكنوا من تفسير الكسوف الشمسي والخسوف القمري والمذنبات وغيرها من الظواهر السماوية غير العادية التي كانوا يعتقدون بأنها ذات قدرة على تغيير مصائرهم، وكان ينظر إلى الكسوف القمري على أن "الكلب السماوي يأكل القمر"، مما يعني حظًا سيئًا، في حين أن مرور المذنب أو "نجمة المكنسة"

علامة على الحرب والمجاعات والفيضانات أو الآفات، ووفقًا لكتاب الوثائق، حدث كسوف شمسي بعد تولي الملك "تشونج كانج" من أسرة "شيا" العرش، مما نشر الذعر بين الناس ودفعهم إلى الاختباء.

وكثيرًا ما حذر الملوك القدماء بأنهم يجب أن "يمتثلوا لإرادة السماء"، وأصبحت مراقبة الظواهر الفلكية مهمة بالغة الأهمية عُين لها مسؤولون متخصصون، وسجلت العديد من حوادث كسوف الشمس وخسوف القمر على نقوش عظام التنبؤ المكتشفة في أطلال "يين" في "آن يانج" بمقاطعة "هينان"، وسُجل سبعة وثلاثون خسوفًا في سجلات حقبة الربيع والخريف، وثبت أن ثلاثة وثلاثين منها قد حدثت.

ووفقًا لحوليات الربيع والخريف، فقد عبر مذنب مجموعة الدب الأكبر في (613 ق.م)، وهو أول تسجيل دقيق لمرور مذنب "هالي" في العالم، قبل 600 سنة من أقرب تسجيل له في أوروبا، وفي (687 ق.م) تم تسجيل أول زخات شُهُب "ليرا".

كما أسفرت الأبحاث الجارية عن اكتشاف كتابين عن علم الفلك من حقبة الدول المتحاربة: فهرس النجوم الذي كتبه "جان دي تشو"، وعلم فلك "شي شين" الذي كتبه "شي شين" من "وي" (魏).

دمجت هذه الأعمال في وقت لاحق لتؤلف فهرس "جان - شي" للنجوم، ويسجلان معًا الأنماط المدارية العادية لكواكب عطارد والمشتري والزهرة والمريخ وزحل، كما أنها تحدد مواقع 121 نجمًا إضافةً إلى سجل بأسماء 800 منها.

اكتشف "جان دي" أيضًا أقمار كوكب المُشترى بالعين المجردة قبل نحو 2000 سنة من الاكتشاف نفسه الذي قام به عالم الفلك الإيطالي جاليليو الذي استخدم تليسكوبًا، واكتشف "شي شين" أن الكسوف الشمسي والخسوف القمري المرعبين كانا في الواقع ظواهر طبيعية تسببها حركة الأجرام السماوية،

وهكذا كان فهرس "جان- شي" للنجوم هو أول كتاب عن علم الفلك في العالم.

الطب

قبل مجيء الأطباء انتشر السحرة الذين كانت وظيفتهم هي التنبؤ بحسن الحظ أو سوئه بمراقبة النجوم، كان يعتقد أنهم يستطيعون التواصل مع السماوات وأيضًا تقديم العلاجات للأمراض، ونتيجة لذلك، كان أول الأطباء الصينيين القدامى هم السحرة على الرغم من أن "المعالج التقليدي" سيكون مصطلحًا حديثًا أكثر ملاءمة لوصفهم، وعلى الرغم من أن العلاجات الطبية لأسرة "شانج شانج" اعتمدت في الأساس على الصلاة وممارسة العرافة والسحر، فإن المعرفة الطبية أخذت تتطور وبدأ استخدام الأدوات الطبية، حيث تم اكتشاف إبرة حجرية تدعى "بيانليان" في أطلال "تاي شي"، وكانت تشبه المنجل الحجري في الشكل، واستخدمت لفتح الدمامل وما شابهها لإخراج القيح والدم منها، وهي أول أداة طبية اكتشفت في الصين.

وكان تأثير الطبيب/الساحر لا يزال منتشرًا على نطاق واسع عند أسرة "تشو" الغربية، ولكن في هذا الوقت اكتشفت طبيعة العديد من الأمراض وأصبح لها أسماء، مثل "يينج" (تضخم الغدة الدرقية)، "جو" (التهاب النسيج الخلوي) "فنج" (الغازات) و"جي" (الجرب)، وكان لكل مرض منها علاجه الخاص، وبدأت الصين أقدم تقسيم للفروع الطبية في هذا الوقت فكانت هناك أربعة مجالات: الطب الغذائي، الطب الباطني، الجراحة، والجراحة البيطرية، وأوليت أهميةً كبيرةً لـ"شفاء المرض بخمسة أنواع من العقاقير وجميع أنواع الحبوب الغذائية بمختلف النكهات"، وكان هناك أكثر من مائة نوع من الأدوية المتاحة، مصنوعة من مختلف الحيوانات والنباتات والمعادن.

وبدأ التفريق بين الطب والسحر في الفترة بين منتصف إلى أواخر حقبة الربيع والخريف (770-476 ق.م)، وبدأ ظهور الأطباء العاملين بدوام كامل إلى حيز الوجود، وكان الأكثر شهرةً هو "بيان تشيو" (واسمه الحقيقي "تشين يورين") من

مقاطعة "تشي" وسمي باسم طبيب كان شهيرًا أيام الإمبراطور الأصفر، وقد لخص "بيان تشيو" أربع طرق تشخيصية لا تزال قيد الاستخدام اليوم: الملاحظة (بشرة المريض، التعبير، الحركات، وما إلى ذلك). ثم وسماع أعضاء الجسم وطرح الأسئلة وقياس النبض.

ووفقًا للأسطورة، عانى ولي عهد مقاطعة "جو" صدمة، وبدأ أفراد أسرته بإعداد ترتيبات جنازته اعتقادًا منهم بأنه كان ميتًا بالفعل، ومع ذلك، قال "بيان تشيو" بعد أن سأل عن حالته وراقب بشرة الأمير إنه لا يزال على قيد الحياة، وأمر تلاميذه بالبدء بالوخز بالإبر، مما أدى إلى استيقاظ الأمير في نهاية المطاف.

في هذا الوقت، أُلفت العديد من الأعمال الطبية، مثل قانون الإمبراطور الأصفر للطب الباطني، وصفات طبية سرية والوصفات الاثنتان والخمسون، وبدأت النظريات الطبية تتشكل شيئًا فشيئًا، وبحلول حقبة الربيع والخريف، طرح "يي" فكرة "المكونات الستة الضرورية للعمليات الحيوية"، وهي الين واليانج والرياح والمطر والليل والنهار، في حين شرح "بيان تشيو" المفاهيم الفسيولوجية للدورة الدموية والحيوية والين واليانج، وقسم كتاب الطقوس العقاقير وفقًا لنكهتها وتكوينها، كما سجل كتاب الأغاني أكثر من خمسين نوعًا من النباتات الطبية، ووثق نظام الجبال والبحار 126 نوعًا من العقاقير بما في ذلك المقويات، ووسائل منع الحمل، والطب الوقائي، والترياق.

الفصل الثالث

أُسس الفلسفة ومدارس الفكر

المقدمة

أدى انهيار أسرة "تشو" والصراع بين الدول المتنازعة في حقبتي الربيع والخريف والدول المتحاربة، إلى مراجعة العديد من المفكرين والزعماء السياسيين لأفكارهم حول طبيعة الدولة والحكم الملكي والعلاقة بين الحكام والمحكومين والسماء والبشر، وولدت الفلسفة الصينية التقليدية كنتيجة لهذا التفكير في أوقات الاضطراب الكبير.

تعد الكونفوشيوسية أشهر المدارس الفلسفية إلى حد بعيد وخاصة خارج الصين، ولكنها في البداية كانت مجرد واحدة من العديد من المدارس الفكرية المتنافسة والمتعددة المعروفة محليًّا باسم "المدارس المائة"، وهو المصطلح الذي استخدمه حتى "ماو تسي تونج" الأب المؤسس للصين الحديثة، وسيطرت مدرسة كونفوشيوس على الفلسفة الصينية، أو بالأحرى هذا الجانب من الفلسفة التي قبلتها وأدخلتها سلطات الدولة حيز الاستخدام على مَرّ عصور الأسر المتعاقبة، وقد تطورت الكونفوشيوسية كطائفة للدولة واعتبرت دينًا في بعض الأحيان على الرغم من أنها لا تهتم كثيرًا بالمعاني السامية التي تهيمن على أنظمة المعتقدات العالمية الرئيسة الأخرى مثل الآخرة أو نهاية العالم.

وكان من أهم مدارس الفكر الأخرى في الوقت نفسه تقريبًا الطاوية والموهية والقانونية، ويمكن اعتبار الفلسفة العسكرية أيضًا مدرسة منفصلة.

كان التفكير في هذه المدارس أكثر سلاسةً بكثير مما قد تشير إليه هذه المصطلحات الجامدة، وقد ينتمي بعض المفكرين إلى أكثر من مدرسة واحدة،

وقد لا ينتمي البعض الآخر إلى أي منها على الإطلاق، ونرى تداخلًا كبيرًا بين الكونفوشيوسية والفلسفات الأخرى، ولم تصل البوذية التي لعبت في وقت لاحق مثل هذا الدور المهم في الحياة الدينية والفكرية إلى الصين حتى القرن الثاني قبل الميلاد، وحققت فقط ذروة نفوذها خلال عهد أسرة "تانج" (618-906) لكنها تأثرت بالتقاليد الفلسفية الوطنية واستندت عليها في وقت لاحق.

يعتبر الكثير من موضوعات الفلسفة الصينية صعب الفهم دون دراسة متعمقة؛ فاللغة التي تكتب بها دقيقة في بعض الأحيان ولكنها عصية على الفهم في كثير من الأحيان، كما يتسم أسلوب بعض الكتاب بالغموض وغالبًا ما يكون ذلك عن عمد، والبعض الآخر يعتنق مفاهيم باطنية ولا سيَّما بعض الطاويين، الذين كانوا مصممين على تقويض وجود المفاهيم الفلسفية نفسها، وحتى التشكيك في إمكانية وجود معنى دقيق لأي شيء.

وكغيرها من مدارس الفكر العظيمة، نوقشت الفلسفات القديمة في الصين لأهميتها السياسية، فقد تم التوصل إلى تفسيرات متباينة على نطاق واسع لنصوصها وتعاليمها في مختلف العصور، وكانت الكونفوشيوسية قد انتعشت خلال الثورة الثقافية كمصدر لكل ما كان رجعيًّا وشريرًا، لكن منذ بداية الإصلاحات الاقتصادية في الصين تم التعامل معها بشكل إيجابي أكثر بكثير باعتبارها نظام فكر صيني وطني ذي أهمية عالمية.

تنافس مدارس الفكر المائة

كونفوشيوس: معلم صالح لكل العصور

ولد كونفوشيوس عام 551 قبل الميلاد في تزوي بمقاطعة "لو"، المعروفة اليوم باسم "تشو فو" في مقاطعة "شاندونج"، انتمى لعائلة "كونج" وأعطى اسم "تشيو" وسمى نفسه "تشونج ني". كان أسلافه الأرستقراطيون ينحدرون من

مقاطعة "سونج" وهم أحفاد أسرة "شانج" المالكة، فشل جده الأكبر في صراعاته السياسية وهرب إلى مقاطعة "لو"، حيث نشأ والده "شو ليانج هي" ليكون محاربًا عظيمًا، وتنص الأسطورة أن "شو ليانج" تزوج "تشينج تساي" من عائلة "يان" في سنواته الأخيرة، وولد لهما كونفوشيوس.

وثار الجدل حول أصول اسم كونفوشيوس أو "تشيو" - ويعنى الأكمة أو التلة الصغيرة - حيث يقول البعض إنه سمي بذلك بسبب وجود تجويف في قمة رأسه عندما ولد، ويدعي آخرون أن والديه كانا يصليان ليحصلا على طفل في جبل "نيتشيو" الواقع في "تشو فو" الحالية.

توفي والد كونفوشيوس عندما كان صغيرًا جدًّا، مما أدى إلى انخفاض في مستوى العائلة، ثم تم تعيينه مسؤولًا صغيرًا عن الحبوب والماشية عند بلوغه سن الشباب، وعلى الرغم من الفقر الذي عاش فيه فقد كان عازمًا على متابعة دراسته عندما كان في الخامسة عشرة من عمره.

كانت"لو" مقاطعة إقطاعية منحت للابن الأكبر لأمير "تشو" الذي وضع "طقوس تشو" (تشو لي) الذي يعتبر واحدًا من ثلاثة أجزاء تشكل "لي" أو نظام الطقوس، والاثنان الآخران هما: "كتاب الطقوس" (لي جي) و"كتاب الشعائر والطقوس" (يي لي)، وهناك نوع من الارتباك المفهوم حول طبيعة هذه النصوص التي تحمل أسماء متماثلة بهذا الشكل، فهذه نصوص قديمة أتت من مصادر مختلفة وتم تجميعها في مجلد واحد للاستخدام الإداري، وينبغي أن نتذكر أنه في هذا السياق، أن "الشعائر" لا تعني بالضرورة بعدًا دينيًا أو روحيًا؛ فالنصوص تحدد السلوك والإجراءات المناسبة للحكومة، حيث تم الحفاظ على الآثار والنظام وطقوس آداب أسرة "تشو" جيدًا في "طقوس تشو"التي شكلت أساس دراسات كونفوشيوس، ومع ذلك، ظلت هوية معلمه لغزًا، حيث تقول إحدى الأساطير إنه تتلمذ مرة على يد "تان تزي"، وتعلم الطقوس من "لاوتسي"، والموسيقى من "تشانج هونج"، ومهما كانت الحقيقة فقد أصبح من الواضح أن لديه شهية لا تشبع للتعلم، وعندما بلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا

أقام مدرسته الخاصة وبدأ في تسجيل التلاميذ.

روَّج كونفوشيوس بأن العلم حق للجميع، حيث يمكن لأي شخص الالتحاق بمدرسته، أيًّا كان وضعه الاجتماعي، وكان أول معلم في الصين يعدل مستوى تعليمه ليناسب مستوى الطلاب وفقًا لمصالحهم وشخصياتهم وقدراتهم ولزيادة إمكانات كل واحد منهم.

وفي الوقت نفسه معالجة أوجه القصور لديهم، طلب كونفوشيوس من كل منهم أن يكون متواضعًا، حريصًا على التعلم واكتساب رؤى جديدة، وشجعهم على التفكير بشكل مستقل، وأن يكونوا متحمسين لآرائهم، وكثيرًا ما استخدم أقوالًا مثل: "إذا رأيت ثلاثة رجال يسيرون معًا، فإن واحدًا منهم لا بدَّ أن يكون جديرًا بأن يكون معلمي".

وأصبحت المدرسة مشهورة للقاصي والداني، واتسمت بطبيعتها المتناقضة مع تقاليد الحكومة (انظر الشكل 8).



الشكل (8): بورتريه لكونفوشيوس وهو يعطي الدروس في "شينج تان". رُسمت هذه اللوحة على قطعة من الحرير، ورسمها "بين" أثناء فترة حكم أسرة "مينج". اللوحة الآن في رعاية لجنة "تشو فو" لإدارة الآثار الثقافية.

وعلى الرغم من إجرائه تغييرات كبيرة في التعليم، كانت رغبة كونفوشيوس الأكبر هي أن يكون مُصلحًا سياسيًّا، ومع ذلك، وبعد وفاة أمير "شيان"، سيطر على مقاطعة "لو" ثلاثة من كبار المسؤولين - "جي" و"منج" و"شوسون" - الذين وقفوا في طريقه، فقد تقاسم هؤلاء الثلاثة القوة العسكرية لمقاطعة "لو" في السنوات الأولى من حكم أمير "تشاو"، وكان هذا الوضع لا يطاق بالنسبة

لكونفوشيوس، الذي كان عازمًا على استعادة التسلسل الهرمي الذي ساد خلال الفترات المبكرة من عهد "تشو"، واندلعت الاضطرابات المدنية في 517 قبل الميلاد، مما اضطر كونفوشيوس إلى مغادرة "لو" مُتجهًا إلى "تشي" للبحث عن منفذ لأفكاره، وهناك عندما سأل أمير "جينج" حاكم "تشي" كونفوشيوس عن طموحاته السياسية، أجابه: "يجب أن يتصرف الملك كملك، وموظف البلاط كموظفي البلاط، والأب كالأب والابن كالابن"، وكان معنى ذلك بعبارة أخرى أن على الجميع تقبل دورهم في الحياة وأن يلتزموا بواجباتهم، وعلى الرغم من أن أمير "جينج" عرف قيمة هذه الكلمات، فقد كان هو نفسه تحت سيطرة مسؤول كبير يدعى "تشن"، وكان عاجزًا عن إعطاء كونفوشيوس وظيفة؛ مما اضطره إلى العودة إلى "لو" لمواصلة التدريس.

في 501 قبل الميلاد أخرج "يانج هو"، وهو موظف بلاط كان على رأس السلطة في "لو"، وقد منح هذا كونفوشيوس البالغ من العمر 51 عامًا الفرصة لبدء حياته السياسية الرائعة برغم قِصر مدتها، في البداية كان مسؤولًا عن الأمن العام في العاصمة، ومن هناك، رُقِّي إلى منصب وزير الأشغال، ثم وزيرًا للعدل.

وفي عام 500 قبل الميلاد اجتمع حكام "تشي" و"لو" في "جيا جو" لعقد حلف، ويعتقد كونفوشيوس أن الكلام السلمي يجب أن تدعمه براعة عسكرية؛ لذلك قام بالاستعدادات لكل من السلام والحرب، هذا لم يحبط فقط خطة "تشي" للاستيلاءعلى "لو"، ولكنه أجبر "تشي" أيضًا على إعادة الأرض التي استولت عليها، وقد ساعد هذا الانتصار الدبلوماسي على تحسين الوضع السياسي لمقاطعة "لو" وسمعة كونفوشيوس نفسه، وكان رد فعل "تشي" الذين صاروا يخشون ازدياد قوة "لو" أن أرسلوا النساء الجميلات إلى أمير "دينج" حاكم "لو" و"جي هوان تزي" - الذي كان يسيطر على الدولة في الواقع - .. ونتيجة لذلك، انغمس حاكم ووزراء "لو" في الملذات الحسية وأهملوا شؤون الدولة؛ مما أدى إلى أن ترك كونفوشيوس المقاطعة عاجزًا ويائسًا مع عشرات من تلاميذه بما في ذلك "يان هوي" و"تزي لو" و"تزي تشجونج" و"ران يو" بحثًا عن مكان أفضل،

وهنا بدأت سنوات الترحال.

وعندما وصلوا إلى مقاطعة وي (卫) قام أمير "لينج" الذي كان يُكِنُّ احترامًا كبيرًا لكونفوشيوس بدفع راتب يتماشى مع ما كان يتلقاه في "لو"، لكنه لم يعطه منصبًا رسميًّا أو يسمح له بالمشاركة في الشؤون العامة، ورغم أنه كان غير راضٍ عن ذلك فلم يكن لديه مكان يذهب إليه، وهكذا استمر كونفوشيوس بالترحال من وإلى المقاطعة لمدة أربعة عشر عامًا عاش فيها حياة الرحالة، وبحلول عام 484 قبل الميلاد كان قد اقترب من السبعين وعاد إلى بلده الأصلي "لو" بترحيب من "جي كانج تزي"، ولكنه لم يكتسب ثقة "آي" أمير "لو"، وركز كونفوشيوس في السنوات الخمس الأخيرة من حياته على التعليم والعمل على النصوص القديمة، وينسب إليه عامة كتاب "حوليات الربيع والخريف" لتميزه بالنهج النقدي الهادئ، ويبدو أنه كان قادرًا أخيرًا على التعبير عن آرائه السياسية، ويعتقد الآن أن أيديولوجية حوليات الربيع والخريف مشتقة من تاريخ "لو".

وفجع كونفوشيوس بعمق بالغ في وفاة طلابه "كونج لي" و"يان هوي" و"تزيلو"، بينما كان يعمل على الكتاب، وبعد خمس سنوات، توفي هو نفسه ودفن على ضفاف نهر "سي" شمال مدينة "تشوفو"، ثم جمع تلاميذه مبادئه في كتاب بعنوان "المحاورات"، والأفكار الرئيسة المعرب عنها داخله هي الخير والتواؤم، وأكد كونفوشيوس أن الشخص لا يمكن إلا أن يعتبر خيرًا إذا تبنى الفضائل الخمس وهي الجاذبية والتسامح والثقة والاجتهاد والكرم، وحث الحكام على البقاء على اتصال مع الطبقات الدُّنيا من المجتمع، وتقدير الموارد المالية للشعب، وحمايتهم من القمع، وكانت الاضطرابات في هذه الحقبة كبيرة، وبالرغم من احترام الحكام لكونفوشيوس فإنهم لم يستمعوا لنصيحته، ويعتقد كونفوشيوس أن حكم دولة بالأخلاق وسيادة القانون هو السبيل الوحيد لصد التهديدات الخارجية، وأعرب عن اعتقاده بأن الأخلاق تمتلك قوةً إصلاحيةً، ولكن الناس الموهوبين بحاجة إلى التعليم والتدريب لتحقيق إمكاناتهم.

وفقًا للحكايات، كان لكونفوشيوس 3000 تلميذ، من بينهم اثنان وسبعون اعتبروا ذوي إمكانات كبيرة، وبعد وفاته، تنقل هؤلاء التلاميذ بين الأوساط، وأصبح بعضهم من كبار المسؤولين وأصبح غيرهم معلمين لطرق الحكم، وكان معنى هذا انحسار الاحتكار الأرستقراطي للمناصب الرسمية وضعف النظام الوراثي، مما مهد الطريق أمام نظام بيروقراطي يتمتع فيه الحكام بحرية تعيين مسؤولين من خلفيات متواضعة، مما لعب دورًا مهمًّا في انتشار وتطوير الكونفوشيوسية في الوقت نفسه.

لم تكن الكونفوشيوسية إلا مجرد واحدة من عدد كبير من مدارس الفكر في حقبتي الربيع والخريف والدول المتحاربة، وعلى الرغم من شهرتها فإنها لم تحقق الهيمنة، ولم يحدث ذلك إلا في عهد الإمبراطور "وو" من أسرة "هان" (140-86 قبل الميلاد)، الذي أبدى أعمق احترام للكونفوشيوسية في حين حظر مدارس أخرى من الفكر، وأصبحت الكونفوشيوسية تدريجيًّا النظام السائد في الثقافة الصينية، وأصبح كونفوشيوس بمرور الوقت "الحكيم والمعلم الأكبر" و"المعلم الأمثل لجميع العصور".

الكونفوشيوسية: إرث ونمو

أسس كونفوشيوس مدرسته على أمل نشر نظام الطقوس واستعادة النظام السياسي لأسرة "تشو" الغربية، لكنه عاش في أوقات مضطربة، وكان الآخرون هم من تناولوا أفكاره وروَّجوها أكثر منه، وكان تلميذه "منسيوس" أكثر من عملوا على ذلك، ولد "منسيوس" في 372 قبل الميلاد في مقاطعة "تزو" - المعروفة باسم "تزوشنج" اليوم في مقاطعة "شاندونج" - خلال حقبة الدول المتحاربة باسم "كي"، واتخذ لنفسه اسم "تسيو".

توفي والده عندما كان طفلًا؛ لذلك كانت والدته من تفتّح عقله عليها، فعلى الرغم من أنها كانت فقيرة فإنها كانت حكيمة، وعملت كل ما في وسعها لدعم مسيرة ابنها التعليمية، حتى أنها غيرت محل سكنهم عدة مرات لضمان قربهم

من المدرسة، وبفضل الدراسة الدؤوبة، أصبح "منسيوس" تدريجيًا سيد الكونفوشيوسية، ووفقًا لسجلات المؤرخ، تتلمذ على يد "تزي سي" حفيد كونفوشيوس، الذي كَنَّ له احترامًا كبيرًا لكنه لم يلتزم فقط بأفكار كونفوشيوس بل قام بتطويرها في محاولة لفرض النظام وسط الفوضى التي سادت حقبة الدول المتحاربة، ودعا إلى "الطريق الملكي" مفضلًا الحكومة الخيّرة، مؤمنًا أن الحاكم يجب أن يعمل على كسب قلوب الناس وإظهار المحبة لهم ورعايتهم رعاية الأب لأطفاله، وأقر التمرد الذي قام به على سبيل المثال الملك "تانج" من أسرة "شانج" لإيمانه أن من حق الناس تخليص أنفسهم من الحكام الظالمين، لكنه شدد أيضًا على أن وضع الحاكم والمحكومين غير قابل للتغيير.. هذه المقترحات التي تبدو متناقضة هي في الواقع متسقة؛ لأن "منسيوس" كان مقيدًا بالعصر الذي يعيش فيه ومكانته الطبقية، أي أنه كان يتحدث من وجهة نظر الطبقة الحاكمة، بهدف توفير مجموعة من النظريات التي يمكن للحكام الالتزام بها.

كان أساس نظريات "منسيوس" الاعتقاد بأن الأساس في البشر هوالأخلاق الحميدة، فقد ولدوا متمتعين بصفات مثل الرحمة، وأن الشر والجرائم نابعان من تأثير البيئة، واكتساب العادات السيئة، وبالنظر إلى أن الناس بحاجة إلى التعليم لمساعدتهم على التمييز بين الخير والشر، يعتقد "منسيوس" أن التعليم هو أكثر فعاليةً من الإدارة السياسية، وينبغي التركيز على تنمية العلاقات الإنسانية الجيدة: "يجب أن توجد المودة بين الابن والأب، والولاء الشخصي بين الملك والبلاط، والاختلاف بين الزوج والزوجة، والأقدمية بين كبار السن والشباب، والثقة بين الأصدقاء".

كان "منسيوس" حريصًا على وضع أفكاره موضع التطبيق وارتحل إلى ولايات "ليانج" و"لو" و"تزو" و"سونج" مع تلاميذه على أمل إيجاد من يتبناها، وبالرغم من ذلك كان الحكام يشاركون في الحروب على الأراضي والسكان خلال الفترة الوسطى من حقبة الدول المتحاربة، وكانت أفكار "منسيوس" لا تعالج مخاوف

ملاك الأراضي المباشرة بل تخدم مصالحهم طويلة الأمد، ولهذا لم يكن هناك حاكم على استعداد لاعتمادها على مدى عشرين عامًا من الزيارات إلى ولايات مختلفة.

وفي نهاية المطاف عاد "منسيوس" إلى وطنه يائسًا مفضلًا التركيز على التعليم والكتابة، وجمعت كل أنشطته السياسية ونظرياته وفلسفته وأفكاره حول التعليم وكتبت في "منج تزي" - أو كتاب منسيوس - في شيخوخته بمساعدة تلاميذه، ولم يهتم بها أحد حتى جاءت أسرة "تانج"، وبدأ الأباطرة الإقطاعيون بالنظر إليها، ومنذ ذلك الحين تحسن الوضع التاريخي لـ"منسيوس" تدريجيًا، واعتبر حكيمًا عظيمًا ومعلمًا أكبر من جميع المعلمين عدا كونفوشيوس.

في أعقاب "منسيوس"، كان أبرز ممثل للمدرسة الكونفوشيوسية هو "شون تزي" من مقاطعة "تشاو"، والذي كان اسمه عند ولادته "كوانج"، كان مفكرًا ومعلمًا وكاتبًا في حقبة الدول المتحاربة، ولم يعرف متى وُلد ولا متى توفي إلا أنه بصفته مُتمكنًا من الكونفوشيوسية كان له تأثير مهم على تاريخ التعليم في الصين، حيث كان "هان في تزي" و"لي سي" من طلابه، وأصبح كلاهما من القانونيين المؤثرين، وكان له تأثير كبير على "تشين شي هوانج"، مما يدل على تحول مفاجئ عن كونفوشيوسية معلمهما.

نبعت وجهات نظر "شون تزي" الخاصة من ترحاله ودراسته لمختلف المدارس الفكرية، حيث جمع ما وجد أنه مفيد من كل منها، وقال إن إرادة السماء مستقلة عن الطبيعة البشرية ولها قوانينها الخاصة، وإنه يجب على الناس بالتالي العمل بأنفسهم وعلى أساس قوانين الطبيعة.. أضافت هذه الأيديولوجية المادية البسيطة بريقًا جديدًا للكونفوشيوسية، ومع ذلك، يعتقد "شون تزي" أن الميول الفطرية للبشر شر يجب أن يتم كبحه من خلال التعليم والطقوس، أما الخير فهو تمويه يأتي نتيجة للبيئة والتعلم، وبذلك كان معارضًا تمامًا لـ"منسيوس"، ولكن على قدر ما كانت أفكارهم متضاربة كانت الفكرة المشتركة بينهما هي الاعتقاد بإمكانية تهذيب الطبيعة البشرية بالتعليم.

وعلى المستوى السياسي، ورث "شون تزي" مبادئ الحكم "الملكي" وأهمية الطقوس ودعا إلى الجمع بين الحكم وسيادة القانون، وضم الأراضي بالقوة، والحفاظ على النظام بعقوبة بدنية، لكنه كان - على كل حال - مفكرًا كونفوشيوسيًّا؛ لذلك كان همه الأساسي هو محنة الشعب الذي كان يؤمن أنه يجب أن يُعتنى به، وأكد أنه من أجل إنشاء سلطة عُليا كان على الملك أن يوحد الأمة سياسيًّا وأيديولوجيًّا على حد سواء، مما يبشر بـ"الوحدة الوطنية الكبرى"، الذي كان اتجاهًا صاعدًا في هذا الوقت.

اعتقد "شون تزي" أن الملك "تشاو" ملك "تشين" هو المرشح الأكبر لتوحيد الصين؛ لأنه حكم "تشين" بسيادة القانون، ومع ذلك كان من الصعب على "شون تزي" تطبيق المفاهيم الكونفوشيوسية لإدارة شؤون الدولة، وفي نهاية المطاف عاد إلى وطنه للتركيز على تأليف الكتب في شيخوخته.

الداوية: دع الأمور تسير كما هو مقدر لها

كان "لاو تزي" من محافظة "كو" في مقاطعة "تشو" - محافظة "لويي" الحالية في مقاطعة "هنان"- وكان اسمه الحقيقي "لي إر" وعرف أيضًا باسم "لاو دان" وسمى نفسه "بو يانج" وهو مؤسس مدرسة الداوي، وعلى الرغم من أن الداوية مستوحاة من مدرسة الداوي فإنها ظهرت في وقت لاحق من عهد أسرة "هان" الشرقية.

تعتبر حياة "لاو تزي" غامضةً إلى حد ما، فوفقًا للحكايات، كانت والدته حاملًا لواحد وثمانين عامًا قبل أن تلد طفلًا له حاجبان ولحية وشعر أبيض وكان قادرًا على الكلام بمجرد ولادته، ومن هنا جاء اسم "لاوتزي" - والذي يعني "الطفل العجوز". ويقال إنه عمل كأمين مكتبة في أسرة "تشو"، ولكنه استقال عندما سقطت الأسرة وانتقل إلى الغرب عبر ممر "هان جو"على ظهر ثور.

ويورد كتاب "سجلات المؤرخ" ثلاث حكايات عن أصول "لاو تزي" إحداها

الحكاية المذكورة أعلاه؛ وحكاية تخمن أن "لاو تزي" كان في الواقع "لاو لاي تزي" الذي عاصر كونفوشيوس من مقاطعة "تشو"، والثالثة أنه كان المؤرخ "دان" من أوائل حقبة الدول المتحاربة، الذي التقى مع أمير "شيان" حاكم "تشين".

ومهما كانت الحقيقة فقد ترك "لاو تزي" كتابًا مؤلفًا من 5000 كلمة يسمى "داو دجينج" - المعروف أيضًا بـ"تاو تي تشينج" وقد أخذت هذه القراءة من الحروف اللاتينية القديمة - أو "لاو تزي" - الذي كتب سابقًا "لاو تسي". وعادة ما يترجم عنوان الكتاب بـ"نظام الطريق والفضيلة"، ويعتبر "الطريق" (داو) واحدًا من المفاهيم المركزية للداوية وأصل اسمها، ووفقًا للحكايات، رأى "يين شي"، وهو قائد حامية من المشاة في ممر "هانجو" غبارًا أرجوانيًّا يرتفع من الشرق وهو ما يُعد فألًا جيدًا؛ لذا أمر رجاله بإزالة العوائق من الطريق لمسافة عشرين كيلومترًا وحرق البخور على طول الطريق للترحيب بالحكيم، وبعد ذلك بوقت قصير رأى رجلًا عجوزًا يركب ثورًا ووجهه متجه للخلف، كان هذا الرجل هو "لاو تزي"، وقد توسل له "يين شي"؛ لجمع أفكاره في كتاب وكان هذا ما أدى إلى ظهور "داو دي جينج".

اعتبر "لاو تزي" أن الداو (التاو) - أي "الطريق" - هو أصل كل شيء بل اعتبره العدم كذلك: "كل شيء تحت السماء يأتي من الكينونة وتأتي الكينونة من العدم"، وحيث إن الداو ينتج منه كل شيء، فيجب أن يكون بينها علاقة مترابطة وتعتمد بعضها على بعض؛ لذا فهناك علاقة بين كل شيء وعكسه، وكل شيء يجب أن يتحرك نحو نقيضه؛ ويمكن التعبير عن هذا بالقول "يَكمُن الحظ الجيد في الحظ السيئ، وللحظ السيئ بذور راقدة في الحظ الجيد".. هذا التفكير الجدلي البسيط يشير إلى أن العالم هو وحدة واحدة تتحرك إلى الأمام وفقًا لقانونها الخاص.

وبعبارات أكثر تحديدًا، دعا "لاو تزي" إلى الجمود السياسي (وو وي) مما يعني عدم التدخل بشكل قد يقوض التطور الطبيعي للأشياء، وقد لاحظ الحكام

الأوائل لأسرة "هان" الغربية (202 قبل الميلاد -8 م) مثل "جاو تزو" و"هوي" و"لو تشي"و"ون" و"جينج" هذه الأفكار ونفذوا سياسة من عدم التدخل، وقد لعب هذا دورًا كبيرًا في تعزيز الانتعاش الاجتماعي والاقتصادي والتطوير في أوائل فترة حكم "هان"، ولمواجهة الحروب المتكررة، وصف "لاو تزي" مجتمعه المثالي بأنه مجتمع "لا يزور فيه الجيران بعضهم بعضًا طوال حياتهم، على الرغم من سماع كل منهم صياح ديوك ونباح كلاب الآخرين"، وقد انتقدت الأجيال التالية هذه الأفكار لطبيعتها المنافية للتقدم، ومثلت الجانب السلبي لأفكار "لاو تزي".

وبعد مائة عام من وفاة "لاو تزي"، ظهر مفكر داوي آخر باسم "تشوانج تزي".

كان "تشوانج تزي"، الذي ينتمي لعائلة "تشو" من مواطني مقاطعة "سونج" وعاش من عام 369 إلى عام 286 قبل الميلاد، وكتب الكثير من الأعمال التي جمعها في كتاب "تشوانج تزي"، أو "كتاب سيد تشوانج".

كانت حياته صعبة بشكل غير عادي، وكثيرًا ما كان يقترض الأرز ليقيم أوده، ومع ذلك تمتع بأخلاق رفيعة، حيث يقال إنه رفض منصب رئيس الوزراء في مقاطعة "تشو"، مفضلًا العيش ببساطة، وتحكي أفضل القصص وأكثرها شهرة عنه قصة الحلم الذي تحول فيه إلى فراشة، ففي هذا الحلم، كان يرفرف في كل مكان سعيدًا بلا هموم، واستيقظ فجأة في فراشه وتساءل هل حلم بتحوله إلى فراشة أم أن الفراشة قد حلمت بكونها هو، وبهذه الطريقة فإن هذا الحلم يمثل رغبته في التخلص من صخب العالم وازدحامه ليعيش حياة غير مقيدة من الحرية الخيالية البحتة (انظر الشكل 9).



الشكل (9): "تشوانج تزي" يحلم بفراشة

ويسمى الفصل الافتتاحي من "تشوانج تزي" "المشي عبر الحياة".

ومع ذلك، عاش "تشوانج تزي" في عصر من الاضطرابات الاجتماعية أدى إلى تجاهل مثله العليا؛ فقد كان الحكام والمسؤولون الصغار على حد سواء يكافحون من أجل السلطة وكان الفساد منتشرًا، وقد أظهر "تشوانج تزي" استياءه من هذه الحال دومًا بقوله: "الذي يسرق خطافًا يقتل كمحتال.. أما من يسرق مملكة يُعين حاكمًا عليها".

ومثل "لاو تزي"، اعتبر "تشوانج تزي" الداو أصلًا للسماء والأرض، موجودًا في كل مكان وخفيًّا بلا لون، الداو أبعد من الزمان والمكان، ويتشارك الرجلان في مصطلح "لاو- تشوانج"، حتى أن "تشوانج تزي" قد ذهب إلى حد اعتبار كل وجود للأشياء سريع الزوال، ورفض أهمية مشكلات الحياة.

ويقال إنه عندما تُوفيت زوجته، فوجئ أحد أصدقائه به يُغني حيث يرى أن: "الحياة والموت يشبهان تمامًا الفصول الأربعة، وبما أننا ندرك الحقيقة، فلماذا نبكي وننوح؟".

المدرسة الموهية: الزاهدون في الدنيا

تختلف القصص عن أصل "مو تزي" - واسمه الحقيقي "مو دي" - مؤسس المدرسة الموهية، ولأن تفكيره لا يتناسب بسهولة مع أي من مدارس الفكر الأخرى، فإنه يعامل كمدرسة في حد ذاته، حيث تعتبر العلاقات بين المعلم وتلاميذه وإنكار الذات إضافة إلى قواعد ونظم السلوك الأخلاقي التي تتبعها تجعلها أقرب للتنظيمات الدينية المتعصبة منها لمدارس الفلسفة، ويعتقد الأغلبية أنه جاء من مقاطعة "لو"، ولكن البعض الآخر يعتقد أنه كان من مواليد مقاطعة "سونج"، وعاش من نحو عام 468 إلى عام 376 قبل الميلاد، ولكن لم يعرف سوى القليل عن حياته، فوفقًا للحكايات قيل إنه تعلم طقوس "تشو" من طلاب "شي جياو" وهو مؤرخ يخدم بيت "تشو" الملكي في "لو"، هناك تعلم عن الكونفوشيوسية إلا أنه في ما بعد وجد أن الكونفوشيوسية غير عملية بالنسبة لمعظم الناس، وحاد بعيدًا عنها، وقد أدى تركيزه على الطبقات الدنيا إلى تكهنات بأنه هو نفسه كان إما من الطبقات الوسطى أو الدنيا، ومن بين تعاليمه كان مبدأ "الحب للكون" و"عدم الهجوم" وهما اللذان أعجبت بهما الأجيال اللاحقة كثيرًا، ويعبر مبدأ الحب الكوني في الواقع عن عدم التمييز في الحب لجميع الكائنات ويشكل المبدأ العام للفكر الاجتماعي والسياسي لـ"مو تزي"، ولكن في حين عنى مبدأ عدم الهجوم الاعتداء على الدول الأخرى كان "مو تزي" داعمًا للحرب العادلة.

قضى "مو تزي" وقته في السفر من أميرية إلى أخرى في محاولة لوقف الحروب، فذهب إلى "تشي" في الشمال، و"وي"(卫) في الغرب، وروج لأفكاره في "تشو" عدة مرات، كما أسدى النصح للدول الصغيرة حول كيفية الدفاع عن نفسها، أما في الدول الكبرى فقد أوضح الظلم والضرر الناجم عن الحروب في محاولة لمنعها، ونجح في إثناء الجنرال "شيانج تزي نيو" قائد قوات "تشي" عن مهاجمة "لو" و"تشو" عن مهاجمة "تشينج"، وهناك حادث يستشهد به كثيرًا يتعلق بمعركة الذكاء التي خاضها مع الحرفي "جونج شو بان" - المعروف باسم

"لو بان" - مما أدى إلى تخلي الملك "هوي" ملك "تشو" عن خطته لتجريد حملة ضد مقاطعة "سونج"، فعندما علم "مو تزي" أن "جونج شو بان" كان يساعد "تشو" في تصنيع السلالم للهجوم على "سونج"، سافر ليلًا ونهارًا للدولة على الرغم من حذائه البالي، وعندما رأى الحرفي، أخبره أن شخصًا من الشمال قد أهانه، وطلب منه الانتقام، فأجاب "جونج شو" أن هذا لا يمكن تبريره على أسس أخلاقية، وهنا أشار "موتزي" إلى أن هجوم "تشو" القوية على الأبرياء في "سونج" لا يمكن تبريره على أسس أخلاقية أيضًا، وهكذا نجح في منع ذلك الهجوم.

وكان للموهية تأثير كبير في ذلك الوقت، وكانت أيضًا على قدم المساواة مع الكونفوشيوسية، وكانت مدرسة الموهية جماعة دينية ذات طبيعة سياسية ونظام تعليمي صارم، وكان أعضاؤها يعيشون ببساطة شديدة، وسُمّي زعيم جماعة "جو تزي"، ويترجم عادة بمعنى "النشار الأكبر"، مما يعزز الزعم بارتباط "مو تزي" بطبقة الحرفيين.

ويقال إن "مو تزي" كان أول زعيم وكان له 180 تابعًا مستعدين للمخاطرة بحياتهم ليتبعوه، وكان على الموهيين الذين يوصي بهم زعيمهم لتولي مناصب رسمية أن يظلوا مخلصين لتعاليمه؛ وإذا لم يتمكنوا من التصرف حسب مبادئهم فإن عليهم الاستقالة من مناصبهم، فعلى سبيل المثال، استقال "جاو شي تزي" من منصبه الرفيع ذي الراتب الممتاز؛ لأن ملك مقاطعة "وي" (卫) رفض تبني مقترحاته، وهي خطوة أشاد بها "مو تزي"، كما أن أعضاء مدرسة الموهية ملزمون بمساعدة بعضهم لبعض؛ فكان على الأعضاء الذين عينوا مسؤولين أن يعطوا جزءًا من رواتبهم للمجموعة للنفقات اليومية، وأكدت عقيدة الموهية أن أولئك الذين لديهم قوة ينبغي أن يستخدموها في مساعدة الضعفاء، وأن أولئك الذين لديهم ممتلكات ينبغي أن يساعدوا الفقراء، وأولئك الذين كانوا متعلمين عليهم المعاونة في تثقيف الآخرين. وكان هذا ما أسموه "الطريقة الفاضلة".

جمعت خطب وأفكار "مو تزي" في كتاب "مو تزي"، ويشرح العمل فضيلة تعيين أشخاص جديرين وقادرين على الحكم، فضلًا عن الحب الكوني وعدم الاعتداء، وتشكيل أيديولوجية موحدة للمنظمات السياسية، وتقليل نفقات الحياة اليومية وخدمات الدفن والأنشطة الترفيهية لأولئك الأقل قدرة على تحملها، وهناك أربعة فصول يشار إليها باسم شرائع الموهية، وهي تغطي مجموعة واسعة من المواضيع مثل نظرية المعرفة، والمنطق، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، وأيضًا مجموعة واسعة من العلوم الطبيعية مثل الزمان والفضاء والهياكل المادية والميكانيكا، والبصريات، والفيزياء، والرياضيات، والهندسة، كما سجلت معلومات مهمة عن صناعة الحرف اليدوية في حقبة الربيع والخريف، ونظرًا لأنهم عملوا لصالح الطبقات الدنيا، كان لدى الموهيين تواجد جماهيري قوي، ولكن دعم الكونفوشيوسية أدى إلى تقويض الحركة في عهد أسرة "هان" (202 قبل الميلاد - 220 م) وفي نهاية المطاف انتهت تمامًا.

القانونية: المفضلة لدى الحكام

كانت المدرسة القانونية بارزة بشكل خاص من بين جميع مدارس الفكر في فترة ما قبل "تشين" (قبل عام 221 قبل الميلاد)، ويرجع ذلك إلى حد كبير لكونها الفلسفة التي اختار الحكام تبنيها على عكس الكونفوشيوسية والداوية، وقد أصبح هذا هو الحال بعد تعيين أمير "ون"حاكم "وي" لـ"لي كوي" لبدء الإصلاح الدستوري، مما أدى إلى سيطرة "وي" على السهول الوسطى لما يقرب من مائة سنة، وفي وقت لاحق، أعطى الحكام كلًا من "وو تشي" و"شان بوهاي" و"شانج يانج" - وهو أفضل ممارس للسياسات القانونية في مقاطعة تشين - الحرية لإجراء إصلاحات قوية أعطت نتائج مذهلة؛ وهكذا أصبحت القانونية أكثر الوسائل فعالية لكثير من الحكام للتلاعب بمسؤوليهم وحكم رعاياهم.

وكان الاسمان الرئيسان المرتبطان بالقانونية هما "لي سي" و"هان في تزي"، اللذين حوّلا الفلسفة القانونية إلى أداة خداع سياسي في يد الحكام الإقطاعيين.

ولد "هان" في عام 280 قبل الميلاد، وكان ابن مسؤول كبير في مقاطعة "هان" في أواخر حقبة الدول المتحاربة؛ أما "لي سي" فقد ولد في الوقت نفسه تقريبًا، وكان مواطنًا من "شانجتساي" في "تشو" - وهي جزء من مدينة "تشومادیان" الحالية في مقاطعة "هنان"- وكان "لي" سياسيًّا شهيرًا وكاتبًا وخطاطًا عاش في عهد أسرة "تشين" (221-207 قبل الميلاد)، كما أنه كان مؤيدًا قويًّا وممارسًا للقانونية، ومن المثير للاهتمام أن كلًّا من "هان" و"لي" كانا من طلاب "شون تزي"، وهو شخصية مهمة في المدرسة الكونفوشيوسية، ومع ذلك، في حين أن "شون تزي" لم يرفض القانونية، حيث إن الحفاظ على كل من الطقوس والطرق القانونية يجب أن يستخدم لإعادة توحيد البلاد، أصبح "هان في تزي" و"لي سي" قانونيين متعصبين، ويقال إنه في الوقت الذي ترك فيه "لي" "شون تزي"، كان هناك بالفعل خلاف عميق في الرأي بين المعلم وتلميذه، حيث دافع "شون تزي" عن حكم البلاد بالاعتماد على سيادة القانون والعرف، حيث يجب على الجميع حتى الملك أن يلتزم بالعادات، واحترام الرجال للفضيلة والتمسك بقيمة التعليم؛ ولكن "لي سي" رأى أن الملك كان الزعيم الأعلى، وأنه لم يكن هناك صواب أو خطأ، وأن الغاية تبرر الوسيلة.

كما رأى أن الدول الست في الشرق في انحدار، وقرر الذهاب إلى مقاطعة "تشين" ليبدأ حياته المهنية، وبحلول الوقت الذي وصل فيه إليها عام 247 قبل الميلاد، كان الملك "تشوانج شيانج" قد توفي للتو، وكان "يينج تشينج" - الذي أصبح في وقت لاحق أول إمبراطور لـ"تشين" - الذي كان لا يزال قاصرًا قد خلفه على العرش، وسرعان ما أصبح "لي" المعاون والصديق المقرب من رئيس الوزراء "لو بوي"، الذي تولى السلطة السياسية والعسكرية للدولة، وهكذا كان لـ"لي" فرصة كبيرة للاتصال بالملك عن قرب. وبفضل إصلاحات "شانج يانج" أصبحت سيادة القانون أساس حكم "تشين"، واستفاد "لي" من طموحاته لضم الدول الست الأخرى فكتب كتاب "عن الوحدة" لإقناع الملك "يينج تشينج" بالسعي لهدف "الوحدة الكبرى" التي لم تغرِ الملك فقط بل أظهرت أيضًا تمكن

"لي" من علمه، وسرعان ما أصبح على علاقة جيدة مع الملك الشاب، الذي عينه أولًا كمصاحب (مسؤول رفيع المستوى) ثم وزير ضيف، وهو منصب يشغله أفراد من دول أخرى ولا يعلوهم سوى رئيس الوزراء، وهكذا أصبح "لي" ذراع الملك اليمنى.

وفي 237 قبل الميلاد، وبمجرد أن بلغ "يينج تشينج" السن القانونية وتولى زمام الحكم، طردت "تشين" الوزراء الضيوف من جميع الدول الست الأخرى، بعد فشل المهندس الهيدروليكي "تشينج جو" من مقاطعة "هان"، كما طرد "لي سي" أيضًا، وفي محاولة للبقاء في تشين، كتب كتابًا آخر بعنوان "عتاب حول الأمر بالرحيل"، حيث جادل بشكل مقنع أن "تشين" قد أحرزت تقدمًا بفضل الوزراء الضيوف على وجه التحديد، ونتيجة لذلك ألغى الملك أمر الطرد وارتفعت شهرة "لي سي" أكثر مما كانت.

وفي حين كان "لي سي" يتمتع بأصداء نجاحه في "تشين"، كان "هان في تزي" غير راضٍ، فكأحد نبلاء مقاطعة "هان" كان يتوق إلى اكتساب ثقة الملك وبذل جهودًا كبيرة للحصول عليها باستخدام علمه، إلا أنه للأسف ولد بعيب في النطق وكثيرًا ما فشل في نقل أفكاره بوضوح بسبب ذلك، وكان هذا كارثيًا في حقبة الدول المتحاربة عندما كانت عملية إقناع السلطة بالخطابة سائدة، وكانت"هان" في حرب مع "تشين" منذ إصلاحات "شانج يانج" جعلت هذه الأخيرة قوية ولكنها نادرًا ما فازت بمعاركها.

وفي مواجهة تقدم جيش تشين، أرسل ملك "هان" غير الكفء خبير الطاقة المائية "تشينج جو"إلى "تشين"؛ لإقناع الملك "يينج تشينج" ببناء قناة "تشينج جو" في محاولة لاستنزاف قوة "تشين"، وقد أدت هذه الفكرة التي بدت نافعة في نهاية المطاف إلى دمار "هان"، وبالتالي فلم يجد "هان فيتزي" المحبط ما يمكن أن يفعله سوى اللجوء لتأليف الكتب.

كانت فلسفة "هان في تزي" في الواقع ملخصًا كاملًا للفكر القانوني من بداية

حقبة الدول المتحاربة، فأنشأ نظامًا قانونيًا جديدًا معتمدًا على قانون "شانج يانج" ومفهوم "شين بوهاي" للخداع السياسي ووجهة نظر "شين داو" للسلطة، مما أعطى الحكام الإقطاعيين نظرية استبدادية كاملة سماها القدماء باسم "الفن الأوتوقراطي"، وعلى وجه التحديد، كان نظام "هان في تزي" مجموعة من اللوائح القانونية التي يجب تنفيذها عن طريق الثواب الكريم والعقاب الشديد.

ودعا إلى التعامل مع الجرائم البسيطة بشدة من أجل وضع حد لجميع الجرائم، أمّا ما وصفه بالخداع السياسي فكان الوسيلة التي يستطيع بها الحاكم السيطرة على مسؤوليه، وقال إن على الملك أن يجعل من الصعب على المسؤولين فهم أفعاله، حيث يجب أن ينسب كل الفضل لنفسه ويلقي بكل اللوم على مرؤوسيه، وللقيام بذلك، كان عليه أن يكون قادرًا على الكشف عن الغدر ويحذر منه حتى داخل أسرته، وأوضح "هان" بشكل علني التقنيات السرية التي يمكن من خلالها تحقيق ذلك، وأشار بالسلطة إلى سلطة الحاكم التي يمكنه أن تعاقب وتعدم من قد يكونون أبرياء بمجرد رغبته في ذلك، كان كل الهدف من إنفاذ القانون وممارسة الخداع السياسي هو التمسك بالسلطة.

ودعا "هان فيتزي" إلى سيادة الملوك وتركيز السلطة في يد الملك، وبينما كان يجادل بأن القانون يجب أن يكون دليل الملوك فقد انتقد كل التعاليم الأخرى، ولا سيّما الكونفوشيوسية المنتشرة آنذاك والموهية، وعارض حرية التعبير بشدة وسعى جادًّا لوضع سلسلة من الأساليب التخطيطية لكي يستخدمها الملك مدعومة بالقوانين والأنظمة والسلطات، وإذا نظرنا إلى الألفيتين اللاحقتين من التاريخ الإقطاعي الصيني، فسوف نرى أن تأثير "هان فيتزي" كان كبيرًا، ولكن في ذلك الوقت فشلت أفكاره في إثارة اهتمام ملك "هان"، ولكنها راقت إلى حد بعيد "يينج تشينج" من "تشين"، الذي قرأ "التحرر من وهم العالم" و"الشرور الخمسة" وأعرب عن رغبته في مقابلة المؤلف، ولإرضاء الملك اقترح "لى سي" استخدام حادث "تشينج جو" كذريعة للحصول على "هان في

تزي"، وبناءً على ذلك، أرسل "يينج تشينج" قوات لمهاجمة "هان"، مطالبًا بالمؤلف الذي كان راغبًا بشدة في الذهاب.

وفي حين كان "يينج تشينج" سعيدًا للغاية، كان "لي سي" على علم بأن وصول زميله السابق يمكن أن يشكل تهديدًا لمستقبله المهني، ولذلك فعل كل ما في وسعه لتشويه سمعته وخلق الشكوك حول ولائه، ومِن ثَم ألقى "يينج تشينج" بـ"هان في تزي" في السجن وهو ما زال تحت تأثير حادث "تشينج جو"، حيث دس له "لي سي" السم هناك، وهكذا كان الوقت قد تأخر بالفعل عندما ثاب الملك الشاب إلى رشده، ولكن على الرغم من أن "هان في تزي" كان قد مات فقد تبنى أفكاره كل من الملك "يينج تشينج" و"لي سي" لتوحيد الصين كلها.

وبعد توحيد الولايات الست، غير "يينج تشينج" لقبه من الملك إلى "شي هوانج" أو الإمبراطور الأول من أسرة "تشين"، وأصبحت أوامره مراسيم الإمبراطورية ونصب نفسه "تشن" والتي تعني "أنا السيد"، وبالتالي أسس نظامًا كاملًا قائمًا على الاستبداد، وألغى نظام منح الإقطاعيات الذي كان قائمًا منذ عهد أسرة "تشو" الغربية، وأنشأ نظامًا من القيادات والمقاطعات، كما خضع تعيين وعزل المسؤولين على جميع المستويات لأمر الإمبراطور المباشر، وبهذا تم إنشاء نظام استبدادي مركزي وتحكم القانون في جميع جوانب الحياة الاجتماعية، ومن أجل إحكام السيطرة على الشعب، ذهب النظام إلى حد حرق الكتب ودفن علماء الكونفوشيوسية أحياء، وكل ذلك كان له جذوره في نظريات "هان في تزي".

لم يهيمن قانون "هان في تزي" على أسرة "تشين" فحسب، بل كان له تأثيره على الحقبة الإقطاعية بأكملها بما فيها أسر "تشين" و"تشينج" (221 قبل الميلاد - 1911 م)، وعلى الرغم من اتباع التفكير الداوي الكلاسيكي أو الكونفوشيوسي كقناع خارجي، كانت القانونية هي التفكير الحقيقي الذي يُحدد كيفية إدارة شؤون الدولة، ونتيجة لذلك يمكن اعتبار القانونيين هم معلمو الملوك عبر الألفي سنة الماضية.

الاستراتيجيون العسكريون: أساتذة قانون الحرب

يمكن إرجاع دور الاستراتيجيين العسكريين إلى عهد "تشيو" القديم، فتقول الأسطورة إن الإمبراطورين الأحمر والأصفر خاضا معركة معًا ضد "تشيو" في "تشولو"، والتي كانت معركة شرسة جدًّا لدرجة أن تربة الحقل كانت تنشع بالدماء، وقتل "تشيو" في الماضي على يد الإمبراطور الأصفر، ولكن احتُفي بشجاعته وأصبح ينظر إليه على أنه "سيد المحاربين"، وحتى رفع إلى مرتبة إله الحرب حتى عهد أسرتي "تشين" و"هان" (221 قبل الميلاد - 220 م)، وفي وقت لاحق، كان "جيانج شانج" من أسرة "تشو" الغربية محل التبجيل لكونه مؤسس العلوم العسكرية؛ فقد أدرج كتابه "الاستراتيجيات الستة" الذي يعد مثالًا عظيمًا للكتابة العسكرية في الصين القديمة، كواحد من الكلاسيكيات العسكرية السبعة في أسرة "سونج" (960-1279).

ومع ذلك، كان أعظم استراتيجي عسكري بينهم جميعًا هو "صن وو"، أو "صن تزي" (صن تزو)، الذي لقب لاحقًا بال"استراتيجى الحكيم"، وكان "صن" الذي سمى نفسه "تشانج تشينج"، من مواليد "لي آن" في مقاطعة "تشي" - وهي "هوي مين" الحالية في مقاطعة "شاندونج"- في حقبة الربيع والخريف، ومع ذلك، كانت الطبقات الحاكمة من "تشي" في أزمة؛ لذلك انتقل إلى مقاطعة "وو" الجنوبية مع عائلته وعاش في عزلة كمزارع، وألف الكتب عن فن الحرب في انتظار فرصة لإحياء حياته المهنية، وفي أثناء وجوده في "وو"، قدم إلى الملك "هو لو" ثلاثة عشر فصلًا من التكتيكات العسكرية التي بذل فيها قصارى جهده، وبالرغم من إعجاب الملك به إلا أنه أراد أن يختبر قدرته الحقيقية وطلب منه تعليم 180 خادمة في القصر. ووفقًا لسجلات المؤرخ، وزع "صن وو" السيدات في فريقين وعين محظيات الملك المفضلة كرئيسة عليهن ثم بدأ تدريبهن، ولكن الفتيات رفضن أن يأخذن التدريب على محمل الجد، حتى أمر "صن"

بقطع رؤوس قائدات الفرق، وحاول الملك نفسه إيقافه، ولكن "صن" ادعى أنه: "أنا من له القرار الأخير طالما عينتني قائدًا لا جلالتك"، وكانت النتيجة أن أعدمت امرأتان، وارتعبت الفتيات والتزمن بالأوامر وعين "صن" جنرالًا بعدها مباشرة.

وفي عام 506 قبل الميلاد، اشتبكت "وو" و"تشو" بعضهما مع بعض في "بوجو" - وهي "ماشنج" الحديثة في مقاطعة "هوبي" - وعلى الرغم من بلوغ عدد قوات "وو" 30 ألف رجل فقط، فقد هزموا قوات "تشو" التي يبلغ قوامها 200 ألف شخص، وانتصروا في خمس معارك أخرى على التوالي، وقد وضعت هذه الحملة أساسًا متينًا لمنافسة "وو" على السيطرة على السهول الوسطى؛ فقد شكلت الآن تهديدًا خطيرًا لكل من "تشي" و"جين" في الشمال، واحتلت مركزًا مسيطرًا خلال أواخر حقبة الربيع والخريف.

لا أحد يعرف أين قضى "صن وو" السنوات الأخيرة من حياته، فتقول الأسطورة إنه قد عاش في غابة جبلية، مشغولًا بكتابة عمله "فن الحرب" - "سون تزي بينج فا" - وعلى الرغم من أنه أكد أهمية الحرب، يعتقد "صن" أنها ليست أفضل وسيلة لحل الصراعات وينبغي النظر إليها على أنها الملاذ الأخير؛ فكان النهج الأكثر حكمة في رأيه هو إخضاع العدو دون قتال.

وقد احتفظ "فن الحرب" بتقدير كبير عبر الأجيال، ليس فقط كأهم آثار التراث العسكري الكلاسيكي للصين، ولكن أيضًا باعتباره واحدًا من أهم الأعمال المؤلفة في الاستراتيجية العسكرية في العالم.

وبقدر تميز الكتاب فقد اندلع نقاش حاد حول ما إذا كان "صن وو" هو كاتبه فعلًا، فقد رأى البعض أن كاتبه هو خبير استراتيجي عسكري آخر يدعى "صن بن"، وعلى الرغم من أنه قيل أيضًا إنهما ذات الشخص والبعض الآخر يقول إن ناسكًا عاش في الجبل في وقت مبكر من حقبة الدول المتحاربة، أو أن من ألفه هو "تساو تساو" من فترة الممالك الثلاث (220-280 م)، ولم يكتشف الغموض

حتى عام 1972م عندما اكتشف علماء الآثار في أثناء حفر مقبرتين من عهد "هان" على جبل "ينتشي" في "لينيي" بمقاطعة "شاندونج"، وهناك، اكتشفوا كتاب فن الحرب مكتوبًا على شرائح الخيزران، مؤكدًا أن مؤلفه هو "صن وو"، جنرال مقاطعة "وو" في حقبة الربيع والخريف.

وكان الأساس لهذا الارتباك كتاب كلاسيكي آخر عن الاستراتيجية العسكرية وهو كتاب "فن صن بن للحرب" الذي اكتشف في الوقت نفسه، ونسب في بعض الأحيان لـ"صن وو"، وقد كان "صن بن" - وهو مواطن من تشي - أحد أحفاد"صن وو"وربما ولد في محافظة "يانجو" الحالية أو ضاحية "جوانتشينج" في محافظة "شاندونج"، وعلى الرغم من أن تواريخ الميلاد والوفاة غير مؤكدة، فيمكن القول إنه كان معاصرًا لـ"شانج يانج" و"منسيوس"، ووفقًا للحكايات، تلقى "صن بن" وخبير استراتيجي آخر يدعى "بانج جوان" تدريبًا في فن الحرب من "جوي جو تزي" وهي تجميعة للنصوص المتعلقة بالاستراتيجيات السياسية غامضة الأصل في حقبة الدول المتحاربة التي ربما يكون شخص يدعى "جوي جو تزي"، ويمكن ترجمة اسمه بـ"سيد وادي الشيطان"، وفي وقت لاحق، أصبح "بانج" جنرالًا في مقاطعة "وي" (魏)، ولكنه كان على علم بأن قدرته كانت أقل شأنًا من "صن"؛ لذلك أرسل شخصًا ما ليدفعه للمجيء إلى "وي"، وهناك، وجد "بانج" عذر أن يصيبه ويسبب له إعاقة أقعدته لبقية حياته.

وفي وقت لاحق، فر "صن" سرًّا إلى "تشي"، حيث أعرب الجنرال "تيان جي" عن تقديره لحكمته العسكرية واقترح عليه الملك "وي تشي" الذي عينه مستشارًا عسكريًّا، وفي 354 قبل الميلاد، أرسلت"وي"(魏) "بانج جوان"على رأس قوة مغيرة على "هاندان" عاصمة "تشاو" في محافظة "هبي" الحالية، وطلبت "تشاو" المساعدة من "تشي" لذلك أرسلوا الجنرال "تيان جي" والمستشار العسكري "صن بن" للمساعدة، وبدلًا من مواجهة جيش "وي"مباشرة، أمر "صن بن" قواته بمهاجمة "داليانج" عاصمة "وي" - وهي مدينة "كاي فنج"

الحالية في شمال غرب محافظة "هنان" - ممّا أجبر جيش "وي" على التراجع، ثم نُصب كمينًا لهم في "جوي لينج" - "تشانج يوان" في محافظة "هنان" - مما تسبب في هزيمتهم هزيمة ساحقة.

في عام 342 قبل الميلاد، هاجمت مقاطعة "وي" - التي تعافت إلى حد ما - مقاطعة "هان" مرة أخرى، وهبت "تشي" للإنقاذ مرة أخرى، واعتمد "تيان جي" و"صن بن" استراتيجية مهاجمة "دا ليانج" للمرة الثانية، ولكن ما اختلف هذه المرة كان استفادة "وي" من دروس "جي لينج"، حيث قرروا بمساعدة الجنرال "بانج جوان" إشراك 100.000 جندي في معركة حاسمة مع جيش "تشي"، وبالرغم من أن جيش "وي" كان مدربًا جيدًا ولكنه أخطأ تقدير قوة جنود "تشي".

سحب "صن بن" قواته وخفض عدد النيران الموقدة للطبخ يومًا بعد يوم، معطيًا انطباعًا كاذبًا أن جنود جيش "تشي" كانوا يفرون بأعداد كبيرة، مما استدرج "بانج جوان" للتخلي عن مشاته وقاد نخبة من قواته لمطاردة جيش "تشي"، وكانت النتيجة أن ضرب جيش "تشي" قوات "وي" في مقتل في محافظة "ما لينج داو" الحالية بالقرب من "دامينج" بمقاطعة "هبي"، ولم يكن أمام "بانج جوان" خيار سوى الانتحار.

بعد حملة "ما لينج داو" استقال "صن بن" من منصبه وعاش في عزلة مركزًا على دراسته للنظرية العسكرية، والتي أسفرت عن تحفة "فن صن بن للحرب" الذي قدم أفكارًا جديدة رغم اعتماده في الأساس على استراتيجيات "صن وو"، وشدد على أن الحرب أداة سياسية وعلى وجوب أن تكون عادلة؛ لأن "الحرب الجائرة لا يمكن أن تجلب الاستقرار للبلاد".

صراع مدارس الفكر

كانت حقبتا الربيع والخريف والدول المتحاربة فترات تغير كبيرة، حيث ازدهرت العديد من مدارس الفكر؛ فقد وضعت الداوية والكونفوشيوسية

ومدرسة الموهية والقانونية والاستراتيجية العسكرية الأسس للثقافة الصينية، لكنها لم تقتصر على ذلك فقط، فشمل المفكرون الآخرون الاستراتيجيين السياسيين والانتقائيين والـ"ين - يانج"، وكان أحد المفكرين زاهدًا مراوغًا عاش في عمق الجبال خلال حقبة الدول المتحاربة، وتقول بعض المصادر إنه كان يعرف سابقًا باسم "وانج شو"، ولكن لأن المكان الذي انعزل فيه سمي"جويجو" - "وادي الشيطان أو الأشباح" - فقد دعا نفسه "جوي جو تزي"، وكان رجلًا ذا علم كبير واستراتيجيًا عسكريًّا ومعلمًا ومؤسسًا للمدرسة الاستراتيجية السياسية، ولم يُعرف إلا القليل جدًّا عن حياته، وجمع أفكاره الأجيال اللاحقة في كتاب بعنوان "جوي جو تزي"، وقد احتوى على الاستراتيجيات التي عرفت في ما بعد بـ"فن جوي جو تزي" (انظر الشكل 10).



الشكل (10): فازة من البورسلين الأزرق والأبيض من عهد أسرة "يوان" تصور قصة "جوي جو تزي" هابطًا من الجبل.

ويرى "جوي جو تزي" إمكانية التغلب على المشكلات من خلال إتقان قواعد

التنمية، فلكي يكون الملك أو الجنرال غير قابل للهزيمة عليه أولًا أن يشكل صورة دقيقة عن الشعب والوضع المعني.

ويعتقد "جوي جو تزي" أيضًا أنه نظرًا لأن الأحداث تتغير دائمًا وأنه لا توجد قواعد ثابتة، فإن القدرة على رسم الخطط مسبقًا ومحاولة اتباع نهج جديد لهو أمر بالغ الأهمية، وتطرق في كتاباته إلى كل من الضغط السياسي والقوة العسكرية.

ومع ازدياد قوة مقاطعة "تشين" في منتصف حقبة الدول المتحاربة، وتزايد علاقاتها مع الدول الأخرى، قال البعض إنه ينبغي تشكيل تحالف عمودي (بين الشمال والجنوب) ضدها، في حين دعا آخرون إلى تحالف أفقي (بين الشرق والغرب)، حيث تتحالف دولة واحدة مع تشين للاستفادة من ازدياد سلطة تلك الدولة، ونوقشت العديد من التوليفات الممكنة من التحالفات الأفقية والرأسية قبل التوحيد النهائي للدول تحت حكم "تشين شي هوانج" في 221 قبل الميلاد، ووضع بعضها موضع التنفيذ، ونتيجة لذلك، تنقل العديد من العلماء ذوي البلاغة بين الدول، مشاركين بنشاط في السياسة، وكانوا أول دبلوماسيين في الصين وعرفوا في وقت لاحق باسم الاستراتيجيين، كانت الدول كالدُّمى بين أيديهم يسحبونها إما في القتال ضد "تشين" أو إلى تحالف معها.

وكان الاستراتيجيون المتميزون في ذلك الوقت "جونج صن يان"، وطلاب "جوي جو تزي" "تشانج يي" و"سو تشين".

دعا "تشانج يي" إلى عقد تحالف أفقي أما "جونج صن يان" فدعا إلى الرأسي مما أدى إلى اشتباكهما في معركة شرسة، وقد تعلم "تشانج يي"، وهو سليل أحد نبلاء مقاطعة "وي" (魏)، الخداع السياسي على يد "جوي جو تزي" الذي كان معلمًا حكيمًا وعظيمًا، وبعد أن ترك معلمه، ذهب أولًا إلى "وي" (魏) ثم إلى "تشو"، لكنه فشل في العثور على منصب جيد، ولكن حظه تحسن عندما ذهب إلى "تشين"، حيث طلب منه الملك "هيوين" أن يخدم البلاط، وفي وقت لاحق،

حل "تشانج" محل "جونج صن يان" ليصبح القائد العام لجيش "تشين"، ونجح في إقناع "وي" (魏) بإقامة علاقات جيدة مع "تشين"، كما تم تعيينه رئيسًا لوزراء "وي"، وفي الوقت نفسه، ذهب "جونج صن يان" إلى مقاطعة "هان"، حيث تمتع بقوة كبيرة، وقد تمكن من إفساد تحالف "تشين" و"وي" الذي اقترحه "تشانج يي"، وحل محل "تشانج" في منصب رئيس وزراء "وي".

وفي عام 318 قبل الميلاد، دعا "جونج صن" دول "وي" و"يان" و"تشاو"و"هان" و"يان" و"تشو" لمهاجمة تشين، وبسبب الاحتكاكات بين الولايات الخمس، فشلت السياسة العمودية، وسجل الملك "هي وين" ملك "تشين" الانتصارات الدبلوماسية واحدًا تلو الآخر ووسع أراضيه بمساعدة "تشانج يي".

بعد "تشانج يي"، ذاع صيت "سو تشين" الذي عرف أيضًا باسم "جي تزي" وهو طالب آخر من طلاب "جوي جو تزي"، وقد تبعه لسنوات ليتعلم فن المناورة السياسية، وأرسله الملك "تشاو" ملك "يان"، وروج أفكاره في ولايات مختلفة وشارك في أنشطة مكافحة الاستخبارات لإضعاف "تشي"، وقد تُوِّجت إنجازاته بإقناع خمسة ملوك بشن هجوم مشترك ضد "تشين"؛ وقد أجبر "سو" قوات مقاطعة "تشين" بالرغم من قوتها على البقاء في ممر "هان جو" لعشر سنوات بصفته رئيسًا لوزراء ثلاث ولايات، وبفضل جهوده، تراجعت قوة "تشي"، كما ساءت علاقاتها مع "تشين" والدول الأخرى، وتوفي "سو" عام 284 قبل الميلاد، وفي ذات العام هزمت مقاطعة "يان"، بالاشتراك مع الدول الأربع الأخرى مقاطعة "تشي" وقسمت معظم أراضيها وكل ذلك بفضله.

فضلًا عن الاستراتيجيين السياسيين نشأت المدرسة المنطقية التي عرفت ببلاغة متكلميها، وكان أحدهم "جونج صن لونج" الذي كان تابعًا لحاكم "تشاو".

كتب "جونج صن" كتاب "لونج تزي"، حيث شرح نظريته "الحصان الأبيض ليس حصانًا"، وتقول الحكاية إن "جونج صن لونج" كان متوجهًا إلى مقاطعة "تشين" على حصان أبيض، وقد أوقفه جنود "تشين" أمام ممر "هان جو"، حيث كان

لديهم أمر بمنع دخول خيول من "تشاو".. جادلهم "جونج صن" بطلاقة مربكًا الجنود بزعم أن الحصان الأبيض لم يكن حصانًا، ولم يكن أمامهم خيار سوى السماح له وحصانه الأبيض بالعبور، وهكذا خلق "جونج صن" الارتباك لدى مستمعيه متعمدًا بالسفسطة، وفي هذه الحالة بالغ في تصوير الاختلافات بين الخاص والعام وفصل بينهما تمامًا، ولكن نظرياته عمَّقت تفكير الناس، ممَّا لعب دورًا مهمًّا في تطوير التاريخ الأيديولوجي للصين.

في هذا الوقت، كانت أكاديمية "جيشيا" معهدًا للتعليم العالي أسسته دولة "تشي" رسميًا في حقبة الدول المتحاربة، وكانت تقع بالقرب من بوابة "جيمن" في "لين تزي" عاصمة "تشي"، وفيها حدثت الكثير من المنافسات والخلافات بين العديد من المدارس الفكرية، وكان من العادة تجمع نحو ألف من العلماء في أيام ذروتها، وتمتع الباحثون في الأكاديمية بغض النظر عن آرائهم السياسية أو سنهم أو طبقتهم الاجتماعية بحرية التعبير عن أفكارهم، وعاملهم الحكام بشكل جيد، كما كان للحرية الأكاديمية التي ظهرت في "جيشيا" تأثير عميق على العديد من العلماء، بما في ذلك "منسيوس" و"شون تزي"، الذي تولى منصب مدير الأكاديمية ثلاث مرات، مما أدى إلى ولادة مجموعة كبيرة من المدارس والأفكار الجديدة.

وكان من بين الذين أسسوا مدارسهم الفكرية الخاصة "تزو يان"، وهو مواطن من "تشي"عاش في حقبة الدول المتحاربة، درس الكونفوشيوسية ومن ثم نظريات الين واليانج والعناصر الخمسة «الخشب والنار والتراب والمعدن والماء»، وأسس مدرسة الين واليانج، وقد استندت نظرية "فضائله الخمسة" على الين واليانج والعناصر الخمسة، وتفسر تطور الكون وارتفاع وسقوط الأسر السابقة، حيث إن امتلاك أحد هذه العناصر كان أساسيًا لنجاح أسرة في علم القوة الكوني، ويمكن استخدامه كأداة نظرية لتغيير النظام، ونتيجة لذلك استخدمها مؤسسو الأسر في وقت لاحق.

وفي الوقت نفسه، كانت مدرسة أخرى من الفكر تنمو وتشتهر باسم

"المزارعين"، مما كان له تأثير كبير على الزراعة في الصين منذ آلاف السنين. وكان أشهر معلمي هذه المدرسة هو "شو شينج" وهو أحد مواطني "تشو" وعاش في أثناء حقبة الدول المتحاربة.

كان "شو شينج" يعارض بشدة العيش على حساب الآخرين، وقال إن الملك يجب أن يزرع المحاصيل ويطهو طعامه ويهتم بشؤون الدولة بنفسه، مثله مثل أي شخص آخر، كما عارض رفع الأسعار والاستغلال من قبل التجار، فقاد مرة تلاميذه إلى مقاطعة "تنج"، حيث طلب من الملك أن يعطيه قطعة أرض صالحة للزراعة، وبفضل الرعاية الدقيقة التي قدمها، حققت الأرض محاصيل جيدة وطلب الكثير من الناس أن يكونوا طلابه، وفي العام نفسه، ذهب "منسيوس" أيضًا إلى "تنج" واشتبك مع "شو"حول الزراعة والكونفوشيوسية على حد سواء، مدعيًا أن مصالح الطبقة الحاكمة الإقطاعية بحاجة إلى الحفاظ عليها، وقد دحض "شو" هذا من الناحية النظرية والعملية، ولسوء الحظ، لم تسجل حياته في كتب التاريخ. ولكن بعضًا من أفكاره الرئيسة ظهرت في كتب "منسيوس" وغيرها من الأعمال.

ونظرًا لوفرة الأيديولوجيات ومدارس الفكر في هذه الفترة، فقد كان من حسن حظ المؤرخين أن رجلًا فكر في جمعها معًا، وكان هذا الرجل هو "لو بوي"، وهو تاجر أرستقراطي ثري كان يرتحل في الفترة المتأخرة من حقبة الدول المتحاربة، وكان رئيس وزراء "تشين" لثلاثة عشر عامًا وكان لديه ما يصل إلى 3000 من الأتباع المخلصين (لخدمته)، وقد كان له الفضل في دعوة مجموعة من العلماء البارزين للقيام بتجميع حكايات السيد "لو" عن الربيع والخريف، والتي تمثل وجهات نظر "المختارين" - المدرسة التوافقية أو المختلطة للفلسفة التي تجمع بين الكونفوشيوسية والداوية والموهية والقانونية - وكان أصل النظرية التي ربطت صعود الأسر وانحدار سلطاتها بالعناصر الخمسة، وعلى هذا النحو جمعت جميع مذاهب جميع مدارس الفكر في فترة ما قبل "تشين"، وبالرغم من كونها مختلطة نوعًا ما فقد وضعت جوهر كل مدرسة بجانب

وجهات نظر "لو" الفريدة من نوعها، وشكلت نظامًا نظريًّا غطى مختلف النواحي من السياسة والاقتصاد والفلسفة والأخلاق وهلُمَّ جرًّا من خلال تلخيص الخبرات التاريخية والدروس التي يمكن تعلمها من كل منها، وقال إنه يهدف إلى إعطاء "تشين" الاستراتيجيات الضامنة للاستقرار على المدى الطويل، وقد كان رجال مثل "لو" وأولئك الآخرون الذين روجوا جميع المدارس المختلفة من الفكر هم من وضعوا أسس الحضارة الصينية.

الفصل الرابع

التوحيد تحت ظل إمبراطورية تشين

(221 – 206) قبل الميلاد

المقدمة

على الرغم من أن قوائم الأسر الصينية تبدأ بأسرة "شيا" الأسطورية و"شانج" و"تشو" التاريخيتين، فإن أسرة "تشين" هي التي أتمت توحيد الكثير من الأراضي الصينية بعد انهيار سلطة "تشو" والانقسامات في حقبتي الربيع والخريف والدول المتحاربة، وتعتبر هذه البداية الحقيقية للإمبراطورية الصينية، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى الاسم الذي اتخذه حاكم مقاطعة "تشين"، عندما أصبح الإمبراطور وهو "تشين شي هوانج دي"، أول حكام إمبراطورية "تشين"؛ وقد اعتُمد "هوانج دي" كاسم لجميع الأباطرة المعروفين من بعده بما في ذلك ابنه ووريثه الذي حكم لفترة قصيرة الإمبراطور الثاني "تشين إير شي هوانج دي" - والذي يعني اسمه حرفيًّا "إمبراطور الجيل الثاني" - واختصر اسم الإمبراطور الأول كثيرًا إلى "تشين شي هوانج"، وشملت الأراضي التي سيطرت عليها "تشين" جميع الدول المتحاربة المهزومة وبعض الأراضي الواقعة ما بعدها، ولكنها لم تمتد إلى الشمال أكثر من بكين الحالية (كما يشير موقع سور الصين العظيم). وبذلك لم تقع جميع الأراضي المنغولية ومعظم جنوب وكامل المنطقة جنوب غرب الصين والتبت و"شينج يانج"، ومن الصعب التأكد من مدى امتداد حكمها إلى الجنوب والغرب على الرغم من المركزية السياسية والإصلاحات الإدارية التي كانت أساس سلطتها، وقد تكون المنطقة التي تسيطر عليها أسرة "تشين" أكبر من تلك التي سيطرت عليها إمبراطورية "تشو"، لكنها لا تتوافق مع المساحة الحالية لجمهورية الصين الشعبية، فلم يتم

إخضاع هذا الإقليم بأكمله تحت سيطرة حاكم واحد حتى حل القرن الثامن عشر بعد قرون من التوسع والتراجع، بما في ذلك الفترات التي حكمت فيها الصين أسر غير صينية.

والسبب في أنها تعتبر الأسرة الإمبراطورية الأولى في الصين ليس بسبب المنطقة الخاضعة لسيطرتها - التي يمكن أن تكون موضع نزاع - ولكن بسبب تدميرها لنظام "تشو" الإقطاعي وتمركز السلطة تحت ظل بلاط "تشين" وبيروقراطيته والنظام القانوني الشامل الذي أصبح نموذجًا تسير عليه الأسر الحاكمة في المستقبل، والفضل أو اللوم على الكثير من هذه التغييرات لا ينسب إلى "تشين شي هوانج"، وإنما لمستشاره "لي سي"، مهندس وحدة وإصلاحات "تشين".

وقد سقطت أسرة تشين لحكمها الاستبدادي ونظم العقاب الصارمة التي استخدمتها وشرعتها المدرسة الفلسفية القانونية، وقد بيَّنت الاكتشافات الأخيرة وجود مرونة في تطبيق العقوبات القاسية التي وصمت تلك الفترة بسوء السمعة كما كان يمكن إسقاطها.

حكم إمبراطورية "تشين"

توحيد "تشين شي هوانج" للبلاد

ولد طفل يبدو عاديًّا في "هان دان" في مقاطعة "تشاو" - مدينة "هاندان" الحديثة بمقاطعة هيبي- عام 259 قبل الميلاد، وفي ذلك الوقت، عانت "هاندان" الفقر والعوز بعد أن دمرتها الحرب مرارًا، ونظرًا لأن الطفل ولد في الشهر الأول من السنة القمرية، أعطاه والداه اسم "تشاو تشينج" - "تشينج" و"الشهر الأول" هما كلمتان متطابقتان في اللغة الصينية. وهذا الصبي سوف يصبح في المستقبل "تشين شي هوانج" الذي قضى على ست ولايات أخرى، وأصبح أول إمبراطور في الصين.

كان والد "تشاو تشينج" هو "ييرن" حفيد الملك "تشاو" حاكم مقاطعة "تشين".

كان "ييرن" قد عاش كرهينة في "هاندان" من نعومة أظفاره، ولكنَّ تاجرًا ثريًا يدعى "لو بو وي" رأى الإمكانات التي يملكها الأمير "تشين"، وقرر أن يقامر عليه سياسيًّا، ولذا أصبح صديقًا له لدرجة أنه منحه محظيته المفضلة، ونصحه بتكوين صداقات مع ذوي المناصب العالية.

وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من قوته كان "تشاو" ملك "تشين" قد تقدم في السن، وكان لولي العهد "يينج تشو" عشرون ابنًا أو نحو ذلك، ولكن ولا واحد منهم كان من زوجته الشرعية المفضلة، السيدة "هوايانج". وتقول الأسطورة إن "لو بووي" سافر إلى تشين مصطحبًا معه الهدايا الثمينة مقدمًا إياها للسيدة "هوا يانج" وأقنعها بتبني "ييرن" كابن لها، كانت والدة "تشاو تشينج" - المرأة التي أعطاها "لو بووي" لـ"ييرن" - تدعى "تشاو جي" وتدعي بعض السجلات التاريخية أنها كانت حاملًا في تلك المرحلة؛ لذلك كان "تشاو تشينج" في الواقع ابن "لو"، بينما يقول البعض الآخر، مثل سجلات المؤرخ، وهو الأول في تسجيل تاريخ أربع وعشرين أسرة والمصدر الوحيد الأكثر أهمية لفترة حكم أسرة "تشين"، بأن "تشاو جي" كانت من عائلة غنية ومؤثرة في مقاطعة "تشاو"، مما يجعل قصة المحظية قصة غير محتملة، وباختصار، كانت أصول "تشاو تشينج" موضوع الكثير من التكهنات.

في 258 قبل الميلاد، وهي السنة التاسعة والأربعون من حكم الملك "تشاو"، شنت "تشين" هجومًا على "تشاو"، ونتيجة لذلك، نفَّس ملك "تشاو" غضبه على "ييرن".

فر "ييرن" مع "لو بووي" إلى "تشين" تاركًا ابنه "تشاو تشينج" وأمه "تشاو جي" خلفه، ونتيجة لذلك، عانى الولد الصغير من الإهانة التي لا توصف في "تشاو"، وهي تجربة بقيت آثارها المدمرة في نفسه لبقية حياته، وبعد ست سنوات في 251 قبل الميلاد، توفي الملك "تشاو" حاكم "تشين" وتولى "يينج تشو" والد

"ييرن" العرش، ودعا نفسه الملك "شياو ون" وعين "ييرن" وليًا لعهده، وفي الوقت نفسه، تحسنت العلاقات بين ولايتي "تشين" و"تشاو" إلى حد ما، وعاد "تشاو تشينج" أخيرًا إلى "تشين" مع والدته.

توفي الملك "شياوون" في بداية حكمه، حيث قضى سنة واحدة وثلاثة أيام فقط على العرش؛ أما "ييرن" - أو الملك تشوانج شيانج - فحكم لمدة لا تزيد عن ثلاث سنوات؛ لذلك تولى "تشاو تشينج"، المعروف أكثر باسم "يينج تشينج"، الحكم وعمره ثلاثة عشر عامًا فقط في 247 قبل الميلاد.

وبما أنه كان ما يزال قاصرًا، فقد تولى "لو بووي" الذي كان الآن مستشار "تشين" السلطة العسكرية والسياسية، وأصبحت والدة "يينج تشينج" - "تشاو جي" - التي كانت في الأصل محظية "لو"، الإمبراطورة الأرملة، ولم تطلب فقط من "يينج تشينج" أن يدعو "لو" باحترام بلقب "عمي" ولكن أيضًا استأنفت علاقتهما، وهنا وجد الملك الشاب نفسه في دوامة قاسية من الصراع السياسي، كان مجرد دمية في البلاط الكئيب؛ ولكنه عوض انعدام العطف الذي تلقاه في طفولته بموهبته ومثابرته غير العادية.

وفي 238 قبل الميلاد حين قمع التمرد اغتنم "يينج تشينج" الفرصة لعزل "لو بووي" من منصبه، ثم في 235 قبل الميلاد، اكتشف أن المستشار السابق لا يزال يتمتع بقدر كبير من النفوذ، فأجبره على الانتحار، وبدءًا من هذه النقطة، أصبح هو الحاكم الأعلى والوحيد لمقاطعة "تشين"، فبدأ أولًا بسلسلة من التعيينات الرئيسة؛ ثم رشا وزراء الدول الست الأخرى لمنعهم من تشكيل تحالف بين الشمال والجنوب ضده، واعتمد أيضًا استراتيجية توحيد الولايات النائية، وقلبها ضد أعدائه، وبدءًا من 230 قبل الميلاد فصاعدًا، بدأت "تشين" الحرب ضد الولايات الست الأخرى، تمهيدًا لتوحيد الدول الصغيرة في ما أصبح يعرف باسم الإمبراطورية الصينية الأولى.

كانت مقاطعة "هان" المتاخمة لـ "تشين" صغيرة وضعيفة؛ لذلك كانت أول من

استهدفها هجوم "تشين"، وفي 230 قبل الميلاد، استولت قوات "تشين" على عاصمة "هان" وأسرت الملك، وبالتالي أحكمت سيطرتها على المقاطعة، وكانت المقاطعة التالية هي مقاطعة "تشاو" عدو "تشين" القديم، حيث فرض قائد قوات " تشين" "جين وانج جيان" الحصار على "هاندان" عاصمة "تشاو" في 228 قبل الميلاد، وفي العام التالي دمر جيش "تشاو"، واستولى على "هاندان" وأسر ملك "تشاو" كذلك، ثم انتقل إلى نهر "يي"، مما ألقى بالذعر في قلب حاكم "يان"، واعتقادًا بأن جميع الأميرات والأمراء قد سلموا أنفسهم لقوات "تشين"، قام ولي العهد بمحاولة اغتيال يائسة لـ"يينج تشينج"، الأمر الذي سرّع فقط بزوال "يان"، حيث استولى جيش "تشين" على"جي شنج"، عاصمة "يان" - الواقعة في جنوب غرب بكين اليوم - في 226 قبل الميلاد.

فر الملك وولي العهد إلى "لياو دونج" بقوات "تشين" على أعقابهما، وتم القضاء على ما تبقى من جيش "يان"، واضطر الملك "شي" ملك "يان" لقتل ولي العهد للحصول على السلام، وهكذا أوقفت "تشين" هجومها على "يان" بشكل مؤقت من أجل تركيز قوتها ضد كل من "وي" و"تشو".

وفي عام 226 قبل الميلاد، شن الجنرال "وانج بن" هجومًا على المنطقة الشمالية من مقاطعة "تشو" محتلًا أكثر من عشر مدنها، وفي الوقت نفسه، سارت قوات "تشين" شمالًا لتطوق "دا ليانج" عاصمة "وي" في 225 قبل الميلاد، واعتمادًا على الدفاعات القوية للمدينة لم تستلم "وي"، إلا أن جيش "تشين" غير مجرى مياه النهر الأصفر وقناة "هونج جو" لإغراق المدينة وهكذا استسلم الملك "جيا" ملك "وي" بعد حصار دام ثلاثة أشهر.

وخلال هذه الفترة تعرضت مقاطعة "تشو" للغزو المتكرر، وتدهورت محليًا إلا أنها احتفظت بسيطرتها على المنطقة الشاسعة من وديان نهر الـ"يانج تسي" ونهر "هواي"، فأرسل "يينج تشينج" الجنرال المخضرم "وانج جيان" عام 224 قبل الميلاد لمهاجمة "تشو" بصحبة 600.000 جندي قوي، وتحركت جيوش "تشو" لمقابلة جيش "تشين" الذي لم يتعجل المواجهة، ونتيجة لنقص

الإمدادات كان على جيش "تشو" الانسحاب وهنا اغتنم "وانج جيان" الفرصة لمطاردتهم وهزيمتهم هزيمة ساحقة أسفرت عن مقتل قائدهم "شيانج يان"، وهكذا في 223 قبل الميلاد، استولى جيش "تشين" على مدينة "شوتشون" عاصمة "تشو" - إقليم شو الحالي بمقاطعة "آنهوي" - وأسرت ملكها "فوتشو".

بعد تمكنها من هزيمة "وي" و"تشو" تفرغت "تشين" للهجوم على "ليو دونج" عاصمة "يان" مرة أخرى، واستولت على المدينة في 222 قبل الميلاد وأسرت ملكها هذه المرة، ثم استولت على مدينة "داي" منهية بالتالي كلًّا من ولايتي "يان" و"تشاو"، ولم يتبقَّ سوى "تشي".

كان الملك "جيان" ملك "تشي" قد اتبع سياسة ودية تجاه "تشين" ولم يدعم الولايات الخمس الأخرى، ولم يدرك أن "تشين" تشكل تهديدًا إلا في هذه اللحظة، مما دفعه إلى جمع جيش في الغرب بشكل متعجل إلا أن الوقت كان قد فات، فقد كان جيش "تشين" بالفعل في طريقه إليه مقتربًا بسرعة من الشمال، وأخذت "تشي" على حين غرة واستولى جيش "تشين" على "لينتزي" بضربة واحدة وأسر ملكها منهيًا الدولة.

وهكذا، بحلول عام 221 قبل الميلاد وبعد أكثر من عقد من الحروب الدموية والوحشية، نجحت "تشين" في القضاء على "هان" و"تشاو" و"وي" و"تشو" و"يان" وأخيرًا "تشي"، مما أنهى وجود الأنظمة المنفصلة التي كانت قائمة منذ مئات السنين، وأنشأ أول دولة متحدة ومتعددة الأعراق في التاريخ الصيني، وعلى رأسها "تشين شي هوانج" في منصب الإمبراطور، واستمر نظام الحكم الاستبدادي والسيطرة على الأرستقراطية الإقطاعية الذي بدأه مُتَّبعًا في الأسر اللاحقة.

مركزية إمبراطورية "تشين"

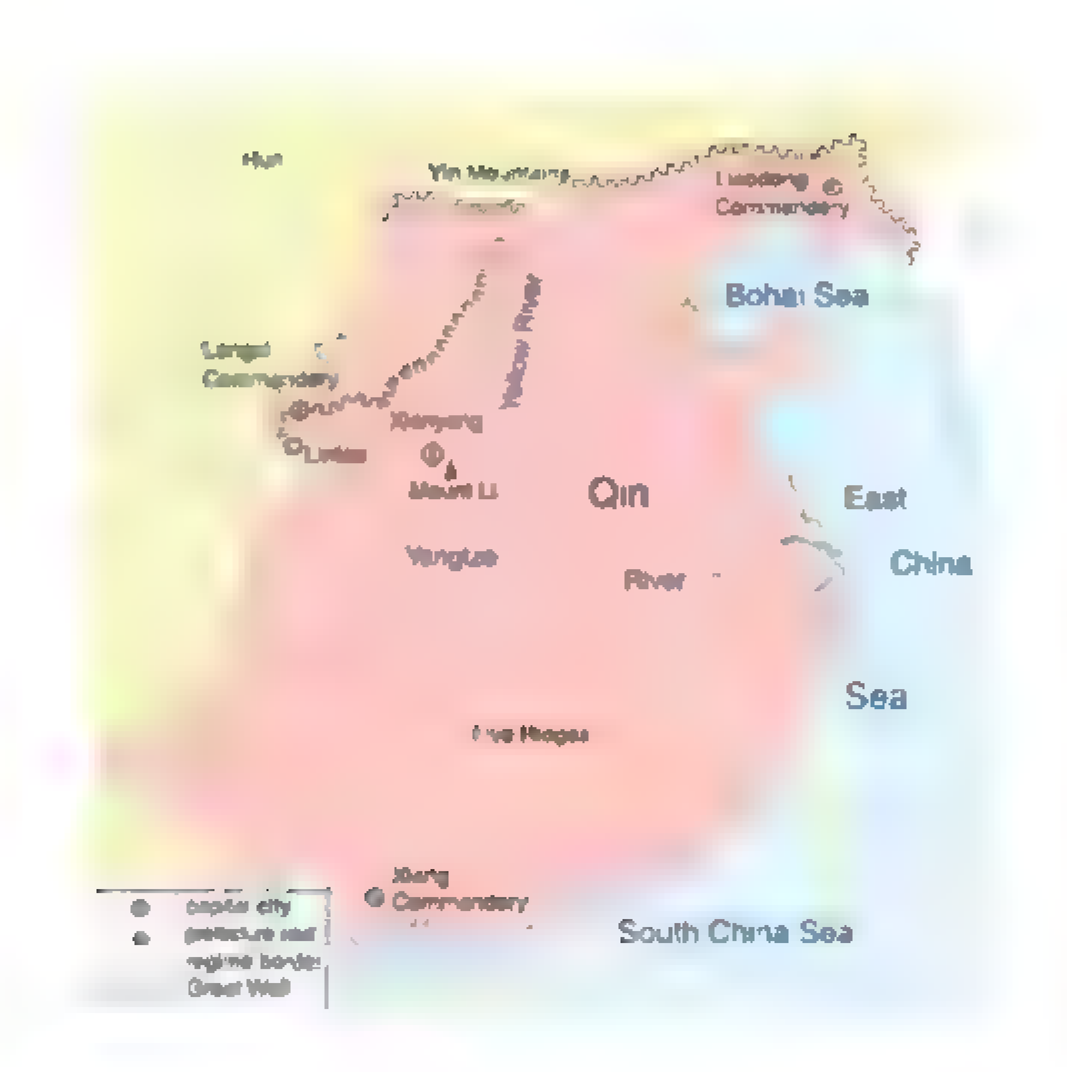
في عام 221 قبل الميلاد، وبعد عقد من الحروب كان "يينج تشينج" قد أكمل مهمته الوحدوية، ورفض لقب "الملك" باعتباره غير كافٍ لرجل بمكانته، وبدلًا

من ذلك خلط بين لقبي "الملك" و"الإمبراطور" لتشكيل لقب "هوانج دي"، ونظرًا لأنه تمنى أن يظل العرش في نسله إلى الأبد، لقب نفسه "شي هوانج دي" أو الإمبراطور الأول، وأصدر مرسومًا بأن يسمى خلفاؤه الإمبراطور الثاني، الإمبراطور الثالث، وهلم جرّا، ولزيادة سلطته بدل الأوامر بال"تشاو zhao" أو المراسيم الإمبراطورية، وأصبح ختمه المصنوع من اليشم هو الختم الإمبراطوري، كما منع استخدام الأباطرة لأسماء معينة إما في الكلام أو الكتابة، وتبعت الأسر اللاحقة كل هذه الشروط.

ومن أجل إدارة البلاد على نحو فعال، أقام "تشين شي هوانج" نظامًا كاملًا من السلطة المركزية بثلاثة أمراء وتسعة وزراء في قلبهن وثلاثة لوردات كمستشارين لمساعدة الإمبراطور في التعامل مع الشؤون الإدارية، والإشراف على جميع المسؤولين المدنيين والجنرالات، إضافة إلى السكرتير الإمبراطوري، الذي يصدر المراسيم الإمبراطورية ويشرف على المسؤولين؛ والقائد الأعلى للجيش وهو منصب اسمي فقط؛ لأنه على الرغم من مسؤوليته عن الجيش، كان الإمبراطور هو صاحب السلطة الحقيقية، وكان الوزراء التسعة مسؤولين عن شؤون البلاط والأمور الإدارية، وفي الواقع، كانوا مسؤولين في كثير من الأحيان عن أكثر من ذلك.

في بداية عهده فكر "تشين شي هوانج" في اتباع النظام الإقطاعي لأسرة "تشو" الغربية، حيث يمكن للمنحدرين من العائلة الإمبراطورية امتلاك ولاياتهم التابعة، ولكن المستشار "لي سي" دعاه لاتباع نظام المقاطعات المدنية والعسكرية "جون Jun"، وهي وحدات إدارية محلية حلت محل الإمارات الإقطاعية التي سادت في عهد "تشو"، زاعمًا أن الاضطرابات التي لا نهاية لها كان سببها الأميرات والأمراء، وهكذا في عام 221 قبل الميلاد، قسم "تشين شي هوانج" البلاد إلى ست وثلاثين محافظة، وانضمت إليها في ما بعد أربع مقاطعات أخرى، وبحلول نهاية عهده، زاد العدد بشكل أكبر وشمل مساحة شاسعة من اليابسة بدءًا من بحر الصين الشرقي إلى محافظة "قانسو" في

الغرب، ومن سور الصين العظيم في الشمال إلى بحر الصين الجنوبي (انظر الخريطة 3).



خريطة (3): منطقة نفوذ أسرة "تشين".

وبما أن الحكومة المركزية كانت هي المسؤولة عن تعيين وعزل وتقييم ودفع رواتب المسؤولين في المقاطعات، فقد ألغي النظام الوراثي الإقطاعي تمامًا وأصبح من الماضي وقللت الإدارة المحلية إلى حد كبير، واستمر نظام المقاطعات في عهد أسرة "هان" (202 قبل الميلاد -220 م) حتى ألغاها الإمبراطور "سوي" حاكم "ون" (581م – 604 م)، وأحل محلها نظام المحافظات، وهو النظام الذي استمر حتى يومنا هذا. وبغية تسهيل الجولات التفتيشية وإصدار المراسيم، حدد "تشين شي هوانج" أيضًا عرض عربات النقل، وبنى سلسلة من الطرق الملكية في سنة 220 قبل الميلاد، وامتدت هذه الطرق من "شيان يانج" العاصمة، إلى المناطق المعروفة اليوم بـ"شاندونج" و"هيبي" و"لياو نينج" شرقًا؛ و"هوبي" و"هو نان" جنوبًا، إضافة إلى "آن هوي" و"جيان جسو" وتشي جيانج" في الجنوب الشرقي، وفي عام 212 قبل الميلاد، أمر أيضًا ببناء طريق يربط مباشرة بين "شاآنشي" الوسطى والمنحنى العظيم للنهر الأصفر في داخل منغوليا الحالية و"نينجشيا"، وهو مشروع شاق نظرًا للتضاريس الجبلية والصحراوية، وكانت "يونان" في أقصى الجنوب الغربي في الوقت نفسه متصلة أيضًا ببقية البلاد، ولكن نظرًا لجبالها الشاهقة، كان ذلك عبر

ممر ضيق، والآن أمكن لحكم "تشين" أن يمتد إلى الإمبراطورية بأكملها.

كما قام الإمبراطور بتوحيد اللغة المكتوبة، فحتى تلك اللحظة كانت اللغة المنطوقة والمكتوبة تختلف من مكان لآخر، الأمر الذي لم يَعُقْ تنمية الثقافة فحسب، بل جعل كتابة وقراءة ونشر وثائق مختلفة أكثر صعوبة في بداية عهد أسرة "تشين"، أما الآن ومرة أخرى بناء على نصيحة "لي سي"، حظر الإمبراطور استخدام جميع الحروف المكتوبة غير تلك المستخدمة في "تشين"، وتم توحيد الخط الأصلي لتشين وسمي "شياو تشوان"، أو أحرف الختم الصغيرة، ونشرت في جميع أنحاء الإمبراطورية، وفي ذلك الوقت، كان المسؤولون المنهكون من العمل حريصين على تبسيط الخط؛ وتقول الأسطورة إن كاتب محافظة مسجونًا قضى عشر سنوات في تطوير خط رسمي جديد، ولكنها في الواقع تطورت تدريجيًّا من الضربات المتسرعة وغير النظامية للفرشاة التي يكتبها المسؤولون في عجلة عند نسخ الوثائق، إلى أن أصبحت مشابهة جدًّا للخط العادي المستخدم اليوم.

ولتوحيد الأوزان والمقاييس، استخدم "القبان" كميزان أساسي، وغالبًا ما ينقش في المرسوم الإمبراطوري الذي يطلب استخدامه، أما بخصوص اللغة فقد تفاوتت الأوزان والمقاييس من دولة إلى أخرى حتى هذه اللحظة، فقد كان من الضروري وجود نظام موحد لتبادل السلع، كما أن له تأثيرًا مباشرًا على عائدات الضرائب في البلد.

وبالمثل، كانت العملات متنوعة خلال حقبة الدول المتحاربة، فكانت عملات على شكل سكين تستخدم عادة في ولايتي "تشي" و"يان"، وكانت النقود المعدنية مستخدمة في "هان" و"تشاو" و"وي"، في حين امتلكت "تشو" عملة "أنف النملة" و"يوانجين" أي الذهب، أما الآن فقد منعت "تشين" الأفراد من صك العملات، وألغت عملات الولايات الست، وفرضت عملة "تشين" - وهي عملة ذهبية مستديرة ذات ثقب مربع في الوسط - كعملة موحدة. ومنذ ذلك الحين، أصبح الحق في صك النقود للحكومة المركزية وظل شكل العملة كما هو

بالنسبة لمعظم الأسر الإمبراطورية في وقت لاحق.

حكم الطغيان

مستشعرًا تداعي حكمه بدأ "تشين شي هوانج" جولته التفتيشية الخامسة والأخيرة عام 210 قبل الميلاد، وسقط مريضًا فجأة في طريق عودته وتوفي في شاكو - "بينجشيانج" الحالية في محافظة "هيبي" - وألقى مقال لاحق بعنوان "أخطاء تشين" بقلم "جيا يي" (201-169 قبل الميلاد) - وهو رجل دولة ومعلم بارز خلال عهد الإمبراطور "هان" - اللوم في سقوط الإمبراطورية بعد ذلك على قمع "تشين شي هوانج" مطالبين بالسياسات.

وتشكك المثقفون بعد ذلك في انتقادات أسرة "هان" لأسرة "تشين" كمثال على إعادة أسرة لاحقة كتابة التاريخ لصالحها، ولكن قوانين "تشين" التي كشفت عنها البحوث الأثرية تؤكد بعض هذه التنديدات.. مشاريع البناء الباهظة مثل قصر جبل "لي" المبني تحت الأرض الذي استلزم أعدادًا كبيرة من العمال؛ كما جُنِّد أكثر من مليوني شخص كل عام - من بين عشرين مليون نسمة - لبناء سور الصين العظيم، وقناة "لينج تشو"، وشبكة الطرق، وحامية المناطق الحدودية، وأدى ذلك إلى السخط العام حتمًا، حيث اقترن ذلك مع القوانين الصارمة، ووفقًا للروايات المكتشفة على شرائح الخيزران المستخرجة من قبر ينتمي إلى عهد "تشين" في "شوي هو دي" الواقعة في إقليم "يونمنج" بمقاطعة "هوبي"، فإن القوانين لم تكن صارمة فقط بل كانت قاسية، وشملت ستة أشكال أساسية من العقاب وهي وشم الوجه وقطع الأنف والقدمين، والخصاء، وقطع الرأس والضرب. ومع ذلك، فإن حكم "تشن شي هوانج" الاستبدادي كان مزدرى أكثر في نظر الأجيال اللاحقة لحرقهم الكتب ودفنهم علماء الكونفوشيوسية أحياء، وهو الادعاء الذي استند إلى سلسلة معينة من الحوادث.

وفي 213 قبل الميلاد، عقد الإمبراطور مأدبة كبرى في قصر "شيان يانج"، واقترح الباحث "تشونيو يوي" أثناءها منح النبلاء وأولئك الذين قدموا

خدمات متميزة ألقابًا وأقاليم، كما كانت الحال في عهد أسر "شانج" و"تشو"، والتي كان من شأنها أن تعيد فعليًا النظام الإقطاعي، ورفض المستشار "لي سي" قائلًا إنه ينبغي منع العلماء من الاستشهاد بمقاطع من كتاب الأغاني، وكتاب الوثائق، وأي مدرسة تشوه الحكومة؛ وكان هو الذي اقترح بعد ذلك حرق مثل هذه الكتب، وهي فكرة قبلها "تشين شي هوانج"، وهكذا كانت جميع كتب التاريخ قبل عهد "تشين" تحرق (ولكن كتب التاريخ، والطب، والتنبؤ، والنباتات من عصر تشين نفسها لم تحرق).

وبعد عامين من ذلك، هرب الخيميائيان "لو شنج" و"هوي شنج" اللذان فشلا في سعيهما لاختراع حبوب تمنح الإمبراطور الخلود خوفًا من قوانين أسرة "تشين" القاسية، وهنا أعطى "تشين شي هوانج" أوامره لاستجواب جميع علماء الكونفوشيوسية والخيميائيين في "شيانيانج" الذين أفشوا أسرار بعضهم لإنقاذ حياتهم، وفي النهاية، اختار "تشين شي هوانج" أكثر من 460 شخصًا ودفنهم أحياء. وعلى الرغم من أن هذه الأعمال جعلته شخصية مثيرة لجدل عنيف، فقد قدم الإمبراطور مساهمات كبيرة وطويلة الأمد لتطوير الدولة الصينية، إذ سمحت نظمه المركزية للاقتصاد والثقافة في البلاد أن تتطور، وقد حدد بدرجة أو بأخرى نطاق الأراضي الصينية وأرسى الهيكل الأساسي لبلد موحد ومتعدد الأعراق، وقد استمر الكثير مما فعله حتى يومنا هذا.

عجائب أسرة "تشين"

سور الصين العظيم

يقع سور الصين العظيم في شمال الصين، ويمتد كتنّين ضخم رمادي. وتروي الحكايات أنه خلال عهد أسرة "تشين"، عاش شعب بدوي قوي على طول

الحدود الصينية عرف باسم "شيونج نو"، الذين احتلوا الهضبة المنغولية الداخلية ومساحة شاسعة بين بحيرة "باي كال" وجبال "يين"، وكثيرًا ما ترجمت "شيونج نو" في اللغة الإنجليزية باسم "هون"، ولكن هذا المعنى غير دقيق ومضلل، وكان الهون اتحادًا قبليًا للقبائل الذين يعيشون في وسط وغرب آسيا على الحدود الشرقية لأوروبا، واشتبكوا في صراع مع جيوش الإمبراطورية الرومانية، وكان "شيونج نو" مصطلحًا عامًّا يطلق على البدو غير الصينيين الذين يعيشون على الحدود الشمالية الغربية للصين.

كانت هناك محاولات منذ القرن الثامن عشر على الأقل لتحديد ما إذا كانوا جزءًا من نفس المجموعة العرقية أو اللغوية، ولكن لا يوجد توافق في الآراء حول هذا الموضوع، وقد عاشوا رحالة على ظهر الخيل بحثًا عن المياه والمراعي، وبفضل حياتهم القاسية تعلموا مهارات فروسية ورماية مذهلة استخدموها في تشكيل ثقافة صيد جبارة، وكان لـ"شيونج نو" اتصال قليل بالعالم الخارجي حتى القرن الثالث قبل الميلاد، عندما أدى النمو في الملكية الخاصة والعبودية أرستقراطيي "شيونج نو" للحصول على الثروة والأراضي في مكان أبعد من حدودهم.. في ذلك الوقت كانت الصين لا تزال في منتصف حقبة الدول المتحاربة عندما أدى الاقتتال الداخلي إلى إهمال الحدود الشمالية، وأعطى هذا "شيونج نو" الفرصة لغزو الولايات الشمالية: "تشين" و"تشاو" و"يان".

وبحلول الوقت الذي وحدت فيه "تشين" الصين تحت حكمها، كان "تشان يو تو مان" زعيم "شيونج نو" قد استولى بالفعل على مساحات شاسعة من الأراضي في المنطقة الواقعة اليوم بين جبال "يين" ومدينة "أوردوس" في منغوليا الداخلية، مستخدمًا إياها كقاعدة لمزيد من الهجمات على الجنوب، حيث شكل تهديدًا كبيرًا لإمبراطورية "تشين" التي شُكلت حديثًا.

كانت غريزة "تشين شي هوانج" الطبيعية تحثه على جمع جيش وسحق الغزاة الأجانب، ولكن الصين كانت ضعيفة بعد عقود من الحرب الأهلية؛ لذلك قرر

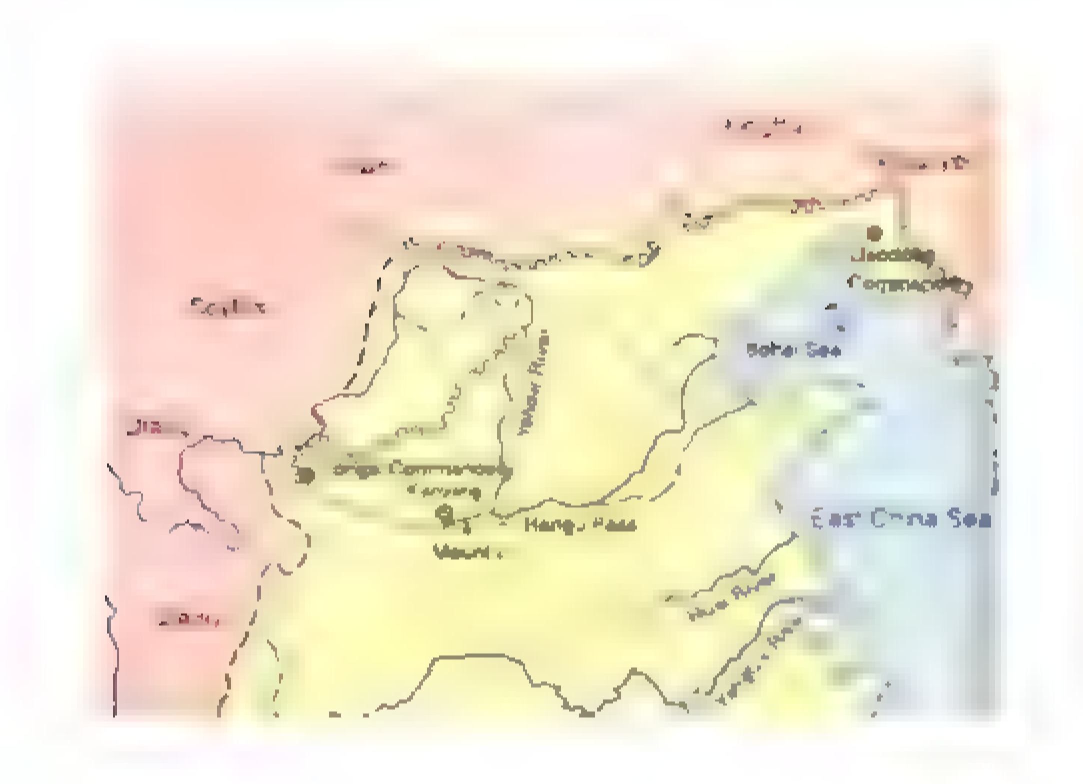
استعادة النظام وبناء اقتصاد قوي أولًا، في حين أمر الجنرال "منج تيان" والجنرال "وانج لي" بالدفاع عن الحدود الشمالية، وبحلول عام 215 قبل الميلاد، كانت الإمبراطورية مستقرة، وقرر "تشين شي هوانج" أن الوقت قد حان لمعالجة "شيونج نو" عندما قام بجولة في "شانج جون" - وهي الآن جزء من مدينة "يولين" في محافظة "شان شي". وأمر "منج تيان" بقيادة هجوم على رأس جيش من 300.000 رجل استعادوا بسرعة الكثير من الأراضي التي استولت عليها "شيونج نو"، بما في ذلك جزء من منغوليا الداخلية اليوم.

وعلى الرغم من هذا، ظلت "شيونج نو" تشكل تهديدًا؛ نظرًا للمراعي الشاسعة على الحدود الشمالية، مما صعب اصطياد وتدمير فرسانهم سريعي الحركة على الجيش الصيني، وأخيرًا، أمر "تشين شى هوانج" "منج تيان" بالإشراف على بناء سور عظيم لمنع الغزوات المستقبلية.

لم تكن فكرة بناء الأسوار جديدة؛ ففي وقت مبكر من حقبتي الربيع والخريف والولايات المتحاربة قامت ولايات مختلفة ببناء أسوار وقلاع فوق الجبال أو التضاريس الوعرة لمنع المضايقات من القبائل الشمالية وقد أثبتت هذه الطريقة فعاليتها، وهكذا استخدم سور الصين العظيم الأسوار الموجودة التي بنتها الولايات السابقة "تشين" و"تشاو" و"يان"، حيث قام "منج تيان" بوصل مختلف الأقسام، وبنى حواجز وقلاعًا جديدة على طول الأنهار والتضاريس الوعرة لبناء سور متكامل امتد لمسافة 5000 كم، من "لين تاو" في الغرب إلى "لياو دونج" في الشرق.

كان بناؤه معقدًا، بنقاط استراتيجية في القواعد العسكرية والممرات الجبلية لتشكيل نظام الدفاع الكامل، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هذه الحدود بين المزارعين والرحل، وهو التمييز الذي استمر منذ ذلك الحين (انظر الخريطة 4).

خريطة (4): بناء السور العظيم في فترة حكم أسرة "تشين".



وكان للجدار أثر موحد على الصين؛ فمن أجل الدفاع عنه بنيت المدن والبلدات على طوله مما حفز الاقتصاد المحلي في المنطقة الحدودية وخارجها، ولكن على الرغم من أنه كان رمزًا لازدهار أسرة "تشين"، فإن الجدار ساهم أيضًا في سقوطها، حيث كانت هناك حاجة إلى ما يقرب من 300.000 جندي للدفاع ضد هجمات "شيونج نو" خلال بنائه؛ ولإحضار الإمدادات لهم، تم تجنيد المزيد من الجنود. وكان هذا في حين كان الإمبراطور بصحبة 500.000 رجل آخر يقاتلون مختلف القبائل في الجنوب، وإضافة أيضًا لبناء المقابر والطرق والقصور، وأدت هذه الأعداد المتزايدة إلى نقص حاد في اليد العاملة، ومعاناة لا نهاية لها، وفي نهاية المطاف أدت إلى ثورة الشعب (انظر الشكل 11).



الشكل (11): كتاب من القصص المصورة بعنوان "مينج تيانج تهدم السور

العظيم بدموعها". هذه اللوحة تعكس كراهية الناس لبناء السور العظيم ومقاومتهم لاستبداد "تشين شي هوانج".

ضريح "تشين شى هوانج"

رحل حلم "تشين شي هوانج" بنقل ملكه إلى ذريته معه، لكن ضريحه أثبت أنه أعجوبة لا تصدق لأجيال المستقبل.

يقع الضريح على سفح جبل "لي" في منطقة غير بعيدة إلى الشرق من منطقة "لين تونج" بمدينة "شيان" في محافظة "شان شي"، مختبئًا وسط المنظر الطبيعي الجميل، ولكن جبل "لي" بعيد عن "شيان يانج" عاصمة "تشين"، وهناك نظريات كثيرة حول سبب بنائه هناك، فقد ادعى البعض أنه يرجع إلى وفرة الذهب واليشم في المنطقة؛ ولكن الإمبراطور لم يكن إلا في الثالثة عشرة فقط عندما تم اختيار الموقع وربما لا يكون قد اختاره بنفسه.

وتشير الأطروحات الدراسية الحديثة إلى أن موقعه يرتبط في الواقع بأضرحة حكام سابقين في مقاطعة "تشين"، وكثيرًا ما رتبت المقابر الإمبراطورية القديمة على أساس المكانة؛ وفقًا لما ذكره "وانج تشونج" من أسرة هان الشرقية، "دفن الحكماء وذوو الخبرة في الغرب في حين دفن الشباب ومن تولوا مناصب منخفضة في الشرق"، وبما أن أجداد أسلاف الإمبراطور موجودون في "تشيانج" - غرب "لين تونج" - فمن الطبيعي أن يدفن في جبل "لي" ناحية الشرق.

وكان المشروع قد بدأ بالفعل عام 247 قبل الميلاد عندما تولى "تشين شي هوانج" المراهق العرش، وفي السنوات الست والعشرين التي انقضت بين ذلك الحين ووحدة "تشين"، تم تحديد حجم المشروع وتخطيطه الأساسي؛ ولكن بعد هذا، ويرجع ذلك إلى زيادة توافر الموارد البشرية والمادية، عزم "تشين شي هوانج" على التوسع في البناء، وقد ضمت هذه الأعمال، التي ترأسها المستشار "لي سي" وأشرف عليها الجنرال "تشانج هان" أكثر من 700.000 من

العظيم بدموعها". هذه اللوحة تعكس كراهية الناس لبناء السور العظيم ومقاومتهم لاستبداد "تشين شي هوانج".

ضريح "تشين شى هوانج"

رحل حلم "تشين شي هوانج" بنقل ملكه إلى ذريته معه، لكن ضريحه أثبت أنه أعجوبة لا تصدق لأجيال المستقبل.

يقع الضريح على سفح جبل "لي" في منطقة غير بعيدة إلى الشرق من منطقة "لين تونج" بمدينة "شيان" في محافظة "شان شي"، مختبئًا وسط المنظر الطبيعي الجميل، ولكن جبل "لي" بعيد عن "شيان يانج" عاصمة "تشين"، وهناك نظريات كثيرة حول سبب بنائه هناك، فقد ادعى البعض أنه يرجع إلى وفرة الذهب واليشم في المنطقة؛ ولكن الإمبراطور لم يكن إلا في الثالثة عشرة فقط عندما تم اختيار الموقع وربما لا يكون قد اختاره بنفسه.

وتشير الأطروحات الدراسية الحديثة إلى أن موقعه يرتبط في الواقع بأضرحة حكام سابقين في مقاطعة "تشين"، وكثيرًا ما رتبت المقابر الإمبراطورية القديمة على أساس المكانة؛ وفقًا لما ذكره "وانج تشونج" من أسرة هان الشرقية، "دفن الحكماء وذوو الخبرة في الغرب في حين دفن الشباب ومن تولوا مناصب منخفضة في الشرق"، وبما أن أجداد أسلاف الإمبراطور موجودون في "تشيانج" - غرب "لين تونج" - فمن الطبيعي أن يدفن في جبل "لي" ناحية الشرق.

وكان المشروع قد بدأ بالفعل عام 247 قبل الميلاد عندما تولى "تشين شي هوانج" المراهق العرش، وفي السنوات الست والعشرين التي انقضت بين ذلك الحين ووحدة "تشين"، تم تحديد حجم المشروع وتخطيطه الأساسي؛ ولكن بعد هذا، ويرجع ذلك إلى زيادة توافر الموارد البشرية والمادية، عزم "تشين شي هوانج" على التوسع في البناء، وقد ضمت هذه الأعمال، التي ترأسها المستشار "لي سي" وأشرف عليها الجنرال "تشانج هان" أكثر من 700.000 من

المساجين، وكلفت مبالغ هائلة من المال ولم تكتمل حتى بعد وفاة الإمبراطور؛ كان البناء لا يزال قائمًا عندما تولى ابنه "تشين إير شي" (الإمبراطور الثاني) العرش وعندما بدأ "تشن شنج" ثورة الفلاحين على الطريق إلى الموقع؛ فقام "تشين إير شي" إذ استولى عليه الذعر بتعبئة جيش المسجونين المكلفين بالبناء في مواجهة تهديد جيش الفلاحين لضرب المتمردين، مما أدى إلى إيقاف بناء القبر.

وبالنظر إلى أن الهيكل والكنوز الجنازية للضريح لم تمس، فإنه ما زال محل إلهام لكثير من الأساطير وموضوعًا مثيرًا للجدل.

تقول إحدى هذه الأساطير إن القصر يقع في قلب جبل "لي" ويتم الوصول إليه عبر ممر تحت الأرض، ولكن علماء الآثار حددوا أنه يقع تحت التل على عمق 35 مترًا تحت الأرض، بعرض 260 مترًا من الشرق إلى الغرب، وطول 160 مترًا من الشمال إلى الجنوب، ويغطي مساحة إجمالية قدرها 41.600 متر مربع، أي ما يعادل في الحجم ما يقارب خمسة ملاعب كرة قدم. وتقع غرفة الدفن التي يبلغ ارتفاعها 15 مترًا ومساحتها ما يقارب حجم ملعب كرة قدم واحد في المركز، ووفقًا لـ"سيما تشيان" في سجلات المؤرخ، حُفرت صورٌ للجبال والأنهار والبحار، ورسمٌ كاملٌ لمجموعات النجوم الثمانية والعشرين، والشمس والقمر على السقف بالزئبق الذي يتحرك بأجهزة ميكانيكية، وأضيئت الشموع والمصابيح بزيت الحوت الذي أضاء المكان بضوء يُحاكي ضوء الشمس، وقد أكدت التكنولوجيا الحديثة استخدام الزئبق، ولكن الكثير ما يزال غير مكتشف.

ويقال إن القصر محمي بمختلف الأجهزة الأمنية، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلم يتم تحديد طبيعتها قط.. فوفقًا للأسطورة، تشكل طبقة سميكة من الرمال خط الدفاع الأول ضد اللصوص الخطرين، ولئن كان الزئبق قد استخدم في خلق منظر طبيعي رائع ومنع محتويات القبر من التعفن، فإنه أيضًا شديد السُّمِّية واستنشاقه سوف يقتل الدخلاء، وذكر في سجلات المؤرخ أن هناك أيضًا سهامًا خفية تطلق على أي شخص يحاول الدخول.

وقد تم تحديد تخطيط الضريح بالدراسات الاستقصائية والبحوث، وينقسم القبر الإمبراطوري إلى منطقة مقبرة ومنطقة الشعائر الجنائزية، منطقة المقبرة مستطيلة وطولها أكبر من عرضها، محاطة بجدران ذات طبقتين من التراب المكبوس.

يقع التل الكبير في جنوب المركز، ويقع القصر مباشرة تحته، غرب التل الجنازي تقع حفرة العربة البرونزية، وإلى الجنوب منها مستودعان للأشياء الثمينة. وإلى الشمال تقع القصور المخصصة للنوم والولائم وأطلال قصر "شي جونج"، حيث عاش المحظيات والمخصيون معًا، وطابقت بشكل عام تخطيط الحياة في القصر.

تحيط المنطقة الجنازية بالمقبرة، حيث اكتشفت الحفريات عددًا كبيرًا من الآثار الثمينة؛ فعلى المحيط الشرقي، عثر على أكثر من مائة حفرة جنازية تحتوي على إسطبلات وسبع عشرة مقبرة جنازية، وتشمل هذه الحفر حفر محاربي الطين المحروق، وثلاث وثلاثين حفرة تحتوي على حيوانات غريبة، وحفرة واحدة لإسطبل بشكل مربع النجار، وواحد وستون حفرة صغيرة، فضلًا عن مقابر العمال الذين شيدوا الضريح، كما عثر على موقع لاستخراج الصخور غرب المقبرة، إضافة إلى حفرة تحتوي على دروع كاملة وأخرى فيها تماثيل لاعبي أكروبات بين الجدران الداخلية والخارجية، ونظرًا لهذه الاكتشافات، فإن الكنوز التي يجب أن تكون داخل القصر هي محل تكهنات لا تُحصى.

محاربون وخيول من الطين المحروق

غير جيش "تشين" مسار التاريخ، ولكن لسنوات عديدة كان سر قوتهم وكيف حققوا مثل هذه المآثر التي لم يسبق لها مثيل مجهولًا، وتبين الأبحاث انقسامه إلى ثلاثة أجزاء: جنود العاصمة، وجنود الأقاليم والمقاطعات، وجنود المناطق الحدودية، وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك قوات الحامية المتمركزة بالقرب من العاصمة والمدن الرئيسة.

كانت قوات العاصمة أو الحراس الإمبراطوريون مسؤولين عن حراسة المدينة، كما كان لهم دور في الاحتفالات، أما الجنود العسكريون في الأقاليم والمقاطعات فكانوا مسؤولين عن الأمن المحلي وتحت تصرف الحكومة المركزية في زمن الحرب، كما قامت القوات الحدودية ببناء جدران المدن والحصون، وكانت أيضًا مسؤولة عن الدوريات والحراسة.

وشكلت هذه القوات مجتمعة أكبر وأقوى جيش من ذلك الوقت وحققت نجاحًا استثنائيًا، ففي 263 قبل الميلاد، محت قوات تشين 450.000 جندي من مقاطعة "تشاو" في معركة "تشانج بينج"، وبعد التوحيد استولت على مساحة شاسعة من الأرض بما في ذلك الجزء الشمالي، مما يقع الآن في حدود دولة فيتنام، وضربت "شيونج نو" بما يقارب 300.000 جندي، مما دفعهم إلى التراجع أكثر من 350 كيلومترًا، ووصفت الوثائق قوات "تشين" بأنها عنيفة متعطشة للدماء، ولكن أشكالهم وتدريبهم ومعداتهم وتكتيكاتهم كانت لغزًا حتى اكتشف المزارعون في محافظة "شانشي" ما أدهش العالم.

ففي عام 1974، اجتاح الجفاف المنطقة ولجأ القرويون إلى حفر الآبار؛ ولكن بدلًا من المياه خرج رأس طيني نابض بالحياة كان مدفونًا على بعد بضعة أمتار تحت الأرض.

توافد علماء الآثار إلى الموقع، واكتشف فيلق كامل تحت الأرض يتألف من العشرات من العربات الحربية، ومئات من الخيول والآلاف من الجنود، وأكدت الوثائق المختلفة أن هذا هو الجيش المهيب لإمبراطورية "تشين"، والمعروفة اليوم باسم محاربي وخيول الطين المحروق "التيراكوتا" المخصصة لضريح "تشين شى هوانج".

وكانت التماثيل التي يبلغ عددها أكثر من 8.000 قطعة من المحاربين الطينيين والخيول الأغراض الجنازية لـ"تشين شي هوانج"، تكونت التماثيل من تماثيل لجنرالات وجنود يرتدون دروعهم والرماة في وضع الركوع، وكلها رتبت كأنما

تستعد لمعركة، وقد استخرج من الحفر أيضًا عشرات الآلاف من الأسلحة القتالية، بما في ذلك الخناجر والفؤوس والرماح والفؤوس الطويلة والنشاب، وقد تم تجهيز المشاة والفرسان والمركبات بعدد كبير من الأقواس والنشاب والسهام، وسيوف مصنوعة من سبائك النحاس والقصدير.

وتشير الأدلة إلى أن المحاربين والخيول الطينيين قد صنعوا على مثال الحامية المتمركزة في ضواحي "شيانيانج"، وبالتالي تمثل الملامح الرئيسة لجيش "تشين".

توزع المحاربون والخيول التي استخرجت حتى الآن في أربع حفر، وتشمل حفرة رقم (1) على المشاة بأسلحتهم الخفيفة مع أقواسهم وسهامهم دون دروع، وقوات العربات، حيث كل عربة على متنها سائق واثنان من الجنود يرتدون الدروع ويحملون أقواسًا متطابقة وأسلحة طويلة (بتوزيعها بين المشاة فمن المرجح أن تكون قوات العربات هي القوة المهاجمة الرئيسة لجيش "تشين")؛ وفرقة المشاة الثقيلة، التي تشكل قوة "تشين" الرئيسة.

كانت دروع المشاة الثقيلة بسيطة نسبيًا، مع لوحات منفصلة للجبهة والظهر لتسمح بحرية الحركة، لم يعثر على الدروع ولا الخوذات في هذه الحفرة؛ لذا فمن المرجح أن جيش "تشين" تخلى عن هذه الأسلحة الدفاعية لتسهيل الحركة.

تمثل الحفرة رقم (2) الصفوة من المحاربين الطينيين، وتحتوي على العربات الرباعية وعربات القيادة والفرسان، وتُماثل خيول الفرسان في الحجم تلك التي تسحب المركبات، بحجم صغير نسبيًا ولكنها تتمتع بالقوة والصلابة، ولا يوجد لها ركاب، مما يعني أنه كان من المستحيل على الفرسان اختراق خصومهم بالطريقة التي فعلها نظراؤهم في أوقات لاحقة، كانوا قد استخدموا الأقواس والسهام، مما يدل على أن سلاح الفرسان كان ما يزال غير متطور نسبيًا، وإن كان قوة احتياطية مهمة، وبصفة عامة، فإن محتويات الحفرة رقم

(2) معقدة للغاية، ولا تشمل وحدة المركبات المستقلة فحسب، بل تشمل أيضًا ترتيبات العربات وسط المشاة ومع الفرسان.

هذه التشكيلات القتالية المترابطة تظهر أن جيش "تشين" تمتع بنظام عمليات الكامل لا يكون فعالًا إلا تحت إشراف ضابط يتمتع بمهارات القيادة المتقدمة.

ويبدو أن الحفرة رقم (3) تمثل مقر قيادة الجيش، بوجود حراس الشرف، والأسلحة الرسمية، وحلقة الستار، التي تشير إلى وجود ستارة كان القائد الأعلى يوجه العمليات من خلفها. ولا تحتوي الحفرة رقم (4) على أي محاربين أو خيول على الإطلاق، ويعتقد أن هذه هي المرحلة التي وصل إليها العمل في وقت انتفاضة الفلاحين، مما أدى إلى توقفه ولكن لم يتم التأكد من ذلك.

الأمر المدهش حول تماثيل المحاربين والخيول الطينية هو أن كل قطعة تكاد تنبض بالحياة، سواء في المظهر أو الروح.. الخيول الفخارية قصيرة قوية وممتلئة الجسم بكفل واسع وخصر مستدير ووجوه عريضة ومعرفة طويلة. وتقف مستقيمة كما لو كانت مستعدة للانطلاق إلى المعركة، وتماثيل الآلاف من الجنود لكل منها شخصية وشكل مختلف؛ يتمتع الجنرالات بطول القامة وضخامة الجسم، ويرتدون الأحذية المربعة التي تنثني إلى الأمام في المقدمة، في حين غطيت ستراتهم المزدوجة الطويلة بدروع ملونة من حراشف السمك، وهم أيضًا يقفون في وضع مستقيم، مستندين على سيوفهم ورؤوسهم مرفوعة بفخر، ويرتدي الجنود الدروع، والخوذات الطويلة، وجميعهم يحملون الأسلحة. بعضهم شباب مبتهجون فرحًا، وبعضهم كبار في السن مقطبي الجبين؛ والبعض الآخر ذو حواجب سميكة وعيون كبيرة وشفاه غليظة يشع الصدق من وجوههم وينم عن تربيتهم الريفية، والبعض الآخر يبدو عليهم الذكاء وسرعة البديهة، وفي حين أنه من الواضح أنه لم يكن هناك زيٌّ موحد لهم فقد استخدموا أسلحة متطورة، وكان لديهم تنظيم دقيق للأدوار وتنسيق تنظيمي جيد، مما يدل على أن لديهم تسلسلًا هرميًا صارمًا، وعمومًا، هذا الجيش الذي يقف بصمت بعد ألف عام قضاها تحت الأرض، لا يزال يتضوع

منه حس غير عادي بالعظمة والفخامة.

سقوط أسرة تشين

انتفاضة الفلاحين

على الرغم من أن أسرة "تشين" استغرقت ما يقرب من ستمائة سنة لتتطور من قبيلة صغيرة على الحدود الغربية إلى إمبراطورية عظيمة فإن سقوطها لم يستغرق إلا خمسة عشر عامًا فقط، فبعد وفاة "تشين شي هوانج" في 210 قبل الميلاد، اتخذ ابنه "تشين إير شي" مكانه على العرش، ولكن عهده لم يدم طويلًا؛ فقد شهد عام 209 قبل الميلاد انتفاضة الفلاحين الأولى في تاريخ الصين، بقيادة "تشن شنج" و"وو جوانج".

جاء "تشن شنج" من "يانج تشينج" - "دنج فنج" الحالية في محافظة "هنان" - وفقًا لسجلات المؤرخ، وعين في شبابه مساعدًا في مزرعة لكنه أظهر طموحًا لأشياء أكبر، أما "وو جوانج" فقد أتى من "يانج شيا" - "تاي كانج" الحالية بمقاطعة "هنان" - وفي الشهر السابع من عام 209 قبل الميلاد، جند 900 شخص من بينهم هذان الاثنان، لحامية الحدود في"يو يانج" الواقعة جنوب غرب "ميون" الحالية في بكين، وعندما وصلوا إلى "دا تزي شيانج" في جنوب شرق "سوتشو" الحالية بمقاطعة "آنهوي"، وجدوا أن الأمطار قد أغرقت الطريق، ووفقًا لقانون "تشين"، فسيتم إعدامهم إذا لم يتمكنوا من الوصول إلى وجهتهم كما كان مقررًا، وقد استطلع كل من "تشن شنج" و"وو جوانج" الوضع، وخلصوا إلى أنهم سيواجهون الموت مهما حدث، سواء كانوا هاربين أو متمردين؛ لذلك قرروا اختيار التمرد وقادا الثورة ضد "تشين".

من أجل كسب دعم زملائهم كتبا على قطعة حرير بالزنجفر - وهو خام الكبريتيد الزئبقي الذي ينتج صباغًا برتقاليًا مائلًا للحمرة وهو اللون الذي

يستخدمه الأباطرة فقط - "سوف يحكم "تشن شنج" البلاد"، وحشروها في بطن سمكة مما أثار دهشة أولئك الذين قاموا بطهي الأسماك في وقت لاحق، وقد أزاد الخوف على الدهشة عندما تسلل "وو" إلى معبد قريب من المخيم وأضاء شعلة، وعوى كالثعلب، ثم صاح، "سترتفع مقاطعة تشو العظيمة وسيحكم "تشن شنج" البلاد!" وفي اليوم التالي كانت الهالة حول "تشن شنج" تنمو، وأثار "وو" المسؤولين الذين كانوا يرافقونهم، وعوقب بالضرب، وعندما شاهدا أن الجماهير غاضبة إلى الحد المناسب، قتل "تشن شنج" و"وو غوانج" المسؤولين وحضوا الرجال على الثورة، ونظموا ما أصبح يعرف باسم انتفاضة "داتز شيانج" المذهلة دون أي أسلحة إلا العصي (انظر الشكل 12).



الشكل (12): لوحة تصور ثورة "دا تزي شيانج"

وبعد الاستيلاء على "داتز شيانج" احتل المتمردون محافظة "تشن" - إقليم "هوا يانج" الحالي في مقاطعة "هنان" - حيث أعلن "تشن شنج" نفسه ملكًا وسمى بلاده "تشانج تشو"، وهو أول نظام حكم قائم على الفلاحين في تاريخ الصين، واستغلت الأرستقراطية القديمة في الدول الست السابقة الفرصة لإطلاق ثورة مسلحة، وسرعان ما اشتعلت البلاد بأكملها بالنيران المستعرة

للقوات المناهضة لأسرة "تشين"، وفي الشهر التاسع من ذلك العام، سار المتمردون إلى قرية "شي" - قرية "شي شيا" الحالية في شمال شرق "لين تونج" بمقاطعة شان شي - التي كانت قريبة من "شيان يانج" عاصمة "تشين"، وفي حالة من الذعر، قام "تشين إير شي" بتسليح مئات الآلاف من السجناء وعبيده المملوكين، وسيرهم إلى الجبهة حيث هزموا جيش المتمردين في قرية "شي".. وفي الوقت نفسه، اندلع الاقتتال الداخلي داخل جيش التمرد الذي كان يحاصر "شيان جيانج"؛ وقُتل "وو غوانج" على يد رجاله، وهُزمت قواته على يد قوات الإمبراطور، فقاد "تشن شنج" شخصيًا الجيش لمواجهة العدو إلا أنه هُزم، فقتل "تشن" نفسه، وهكذا انتهت انتفاضة الفلاحين بعد ستة أشهر من البطولات.

الصراع بين ولايتي تشو وهان

على الرغم من فشل انتفاضة الفلاحين فإن الثورة التي كانت قد بدأت ضد "تشين" سرعان ما انتشرت على نطاق واسع، وليس فقط للفلاحين الآخرين، ولكن إلى أحفاد الأرستقراطية القديمة في الولايات الست التي غزتها "تشين". ومع ذلك، فإن أحلامهم لاستعادة السلطة كانت على وشك أن يحطمها صعود الجنرال "تشانج هان تشانج".

بعد قيادة جيش "تشين" للفوز على القوى الرئيسة في "تشو"، سافر شمالًا وتغلب على مقاطعة "تشاو" التي حاولت أيضًا استعادة أراضيها المفقودة، وانسحبت قوات "تشاو" إلى "جولو"، جنوب غرب محافظة "بينج شيانج" الحالية في مقاطعة "هيبي"، ولكن سرعان ما حوصرت، وتوسلت طلبًا للعون من جميع القوى الأخرى المناهضة لقوات "تشين".. بعد إعادة التجمع هب جيش "تشو" للإنقاذ، كما أرسل الملك "هواي" ملك "تشو" قوة معاونة للمسيرة في "شان شي" الوسطى لإعاقة تقدم جيش "تشين"، وللحفاظ على الروح المعنوية العالية أعلن أن أول من يصل إلى "شان شي" الوسطى سيعلن حاكمًا عليها.

وكان الضابط المرافق "شيانج يو"، الذي قاد جيش "تشو" وسار إلى "جولو"، فقطع الطريق عرضيًّا أولًا على "تشين" وقسم جيشها فعليًّا من المنتصف، ثم عبر نهر "تشانج" مستعدًا للقتال.

كان ضرب جيش "تشين" الضخم فكرة هائلة؛ لذا أمر "شيانج" جنوده بإغراق قواربهم وسحق قدورهم؛ وكان هذا يعني أنهم بوجود حصص إعاشة تكفي ثلاثة أيام فقط لكل منهم كانوا يعرفون أن الخيار الوحيد هو الفوز في المعركة، واندفعوا إلى الأمام ببراعة، وباغتوا جيش "تشين" على حين غرة وهزموا وحداته واحدة تلو الأخرى.

كانت هذه معركة "جولو" التاريخية التي هزمت فيها القوتان الرئيستان لـ"تشين"، وأصبح سقوط أسرة "تشين" أمرًا لا مفر منه.

عندما استدعى "شيانج يو" جميع الأميرات والأمراء الذين جاؤوا لإنقاذ "تشاو"، كانوا معجبين جدًّا بأسلوبه لدرجة أنهم انحنوا أمامه، واعترفوا به كزعيم التحالف المناهض لـ"تشين"، وفي الوقت نفسه، دخل زعيم القوة المساعدة "ليو بانج" إلى وسط "شان شي" بعد أن واجه مقاومة قليلة، وفي رحلته غربًا التقط مقاتلين آخرين بمن فيهم فلول جيش فلاحي "تشن شنج"، وازدادت قوات المتمردين التي قضت على كل من واجهها، وفي الشهر العاشر من 207 قبل الميلاد، سار "ليو بانج" نحو "با شانج" (في الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة "شي آن" اليوم بمقاطعة "شانشي") مما سبب الفوضى في بلاط "تشين"، وأجبر الإمبراطور الجديد "تشين إير شي" على الانتحار وأخذ الأمير "تزي يانج" مكانه، ولكن حكمه استمر فقط اثنين وأربعين يومًا، حيث دخل المتمردون العاصمة "شيان يانج" مطالبين إياه بالاستسلام.

وبعد دخول "شيان يانج" أمر "ليو بانج" قواته بالانسحاب إلى "با شانج"، وأغلق الخزنة الحكومية، وألغى القوانين القاسية لأسرة "تشين"، وأبرم اتفاقًا مع سكان "شان شي" الوسطى، حيث يتم إعدام القتلة ويعاقب من يضرون

الآخرين ويسرقونهم، وقد سمح للمسؤولين المحليين من أسرة "تشين" بالبقاء في مناصبهم للحفاظ على النظام الاجتماعي.

ساعدت هذه التدابير "ليو" للفوز بالدعم الشعبي الساحق، وفي الوقت نفسه، كشف اكتشاف أرشيفات "تشين" نقاطها الاستراتيجية، وعدد الأسر ومواقع قواتها المختلفة، وبالنظر إلى إعلان الملك "هواي" ملك "تشو" في وقت سابق، تولى "ليو بانج" منصب القيادة وأرسل قوات لحراسة ممر "هان جو".

حتى الآن، كان "شيانج يو" قد وصل إلى "شان شي" الوسطى بعد أن أمر رجاله بدفن 200 ألف جندي استسلموا أحياء، وما إن علم أن "ليو بانج" قد تمركز في ممر هانجو وأعلن نفسه حاكمًا لمحافظة "شان شي" الوسطى حتى غضب غضبًا شديدًا لدرجة اختراق الممر وتمركز بقواته في "هونج مين" - شرق "لين تونج" الحالية في مقاطعة "شانشي" - وبدأ يعد لضربة عقابية، مما كان كارثيًا بالنسبة لـ"يو بانج".

كان جيش "شيانج يو" مكونًا من 400.000 رجل شكلتهم المعارك، بينما كان تحت قيادة "يو بانج" 100.000 جندي لم يشهدوا إلا القليل من القتال، فلم يكن لديه خيار سوى الذهاب إلى "هونج مين" لتقديم اعتذار متواضع، والخضوع لـ"شيانج يو"، وفي العيد الذي تلا ذلك، هرب "يو بانج" من القتل على يد أنصار "شيانج يو" بأعجوبة وهرب من المخيم.

قاد "شيانج يو" جيشه إلى "شيان يانج" ونهب المدينة، وقتل إمبراطور "تشين" الذي استسلم وأشعل النار في قصور المدينة ونهب الكنوز وسبى النساء، مما أرعب الشعب، ثم اغتيل الملك "هواي" ملك "تشو"، فأعلن نفسه ملك "تشو" الغربية وجعل "بينج تشينج" مدينة شوتشو" الحالية في مقاطعة "جيانغسو" عاصمته، وعين حلفاءه حكامًا في مناطق مزدهرة كانت أيضًا في موقع استراتيجي ويصعب الوصول إليها؛ وكان "ليو بانج" قد أصبح ملكًا على "هان" في مقاطعة "سيتشوان" الجنوبية الغربية. كما قسم "شيانج" وسط "شانشي"

إلى ثلاث مناطق لحصار "ليو بانج" وعين الجنرال "تشانج هان" واثنين آخرين لحكمها.

وأدت هذه التعيينات إلى انتشار عدم الرضا بين الجنرالات؛ ولم يمضِ وقت طويل حتى أعدَّ عددٌ منهم جيشًا جديدًا للانقلاب على "تشو"، وعين "ليو بانج" "هان شين" قائدًا أعلى لقوات "هان" الخاصة به، واستعد للاستيلاء على "شان شي" الوسطى كنقطة انطلاق للتنافس مع "شيانج يو" على فرض الهيمنة على البلاد كلها، ولخلق الانطباع بأنه فقد الاهتمام بالمنطقة أحرق الطرق المؤدية من مقاطعته إلى وسط "شانشي"، ثم أمر عددًا قليلًا من القوات بإصلاحها - وهي مهمة ضخمة وفرت التغطية للقوى الرئيسة - التي كانت تتقدم بالفعل على طريق مختصر إلى الشمال الغربي، وبعد عبورها نهر "وي"، انقضت هذه القوات على "تشينتسانج" - مدينة "باو جي" الشرقية الحالية في مقاطعة "شانشي" - وأخذ القائد "تشانج هان" الذي انخدع ببناء الطرق على حين غرة، وحاول مسرعًا أن يواجه جيش "هان" المقترب دون جدوى، أجبر على التراجع ثم الانتحار بعد أن فقد دعم الشعب.

وسرعان ما عمل "ليو بانج" على استقرار الوضع في وسط "شان شي"، وبدعم من السكان المحليين استخدم المنطقة كقاعدة للسنوات الأربع المقبلة التي سيقضيها في الصراع مع "تشو"، وفي عام 205 قبل الميلاد، كان جيش "شيانج يو" محصورًا مع جيش "تشي"، واستغل "ليو بانج" هذا لغزو عاصمة "شيانج يو".

قاد "شيانج يو" جيشه في الهجوم المضاد على الفور وهزم جيش "هان"، كما أسر والد "ليو" وزوجته، وفي 204 قبل الميلاد، هجم على "ليو بانج" مرة أخرى مجبرًا إياه على التراجع، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى أعيد تجميع جيش هان وبدأت المعارك مرة أخرى.

وتواجه الجيشان في "شينج يانج وتشن جاو"، وعلى مدى السنوات الثلاث

التالية، أرهق "ليو بانج" عدوه تدريجيًّا حتى أرهقت قوات "تشو" أخيرًا.

وبحلول عام 203 قبل الميلاد، قسم "شيانج يو" و"ليو بانج" أراضيهما في "هونجو"، الواقعة شرق "شينج يانج" اليوم في مقاطعة "هنان"، حيث تنتمي الأراضي شرق خط ترسيم الحدود إلى "تشو"، وينتمي الغرب إلى "هان"، وعلاوة على ذلك، أطلق سراح والد وزوجة "ليو بانج"، ولكن "ليو بانج" لم يحافظ على وعوده، وتقدم خلف "شيانج يو" مطاردًا إياه حتى عام 202 قبل الميلاد، حيث تم تطويق قواته البالغ قوامها 100.000 جندي في "آي شيا" - "لينج بي" الحالية في مقاطعة "آنهوي" - واضطر "شيانج يو" إلى الانتحار في نهر "وو"، منهيًا الحرب بين "تشو" و"هان"، وأصبح "ليو بانج" الإمبراطور، وحكم من العاصمة "تشانج آن" مؤسسًا أسرة "هان" الغربية، بادئًا فصلًا جديدًا في تاريخ الصين.

الفصل الخامس

صعود وسقوط أسرة هان

(220 قبل الميلاد – 280 بعد الميلاد)

المقدمة

في حين تُمدح أسرة "تشين" لنجاحها في توحيد الدول المختلفة في إمبراطورية واحدة، وتُذم لقسوة حكمها وقوانينها، يُحتفى بأسرة "هان" التي تلتها كأول أسرة إمبراطورية حقيقية لإنشائهم المؤسسات السياسية والقانونية التي سارت على منهاجها الأسر الحاكمة في المستقبل، ولإنجازاتها في المجالين الفني والفكري.

يستخدم اسم أسرة "هان" نفس الحرف الذي يستخدم لكتابة كلمة "هانتزو"، وهي العلامة المميزة للعرق الأصلي لسكان الصين لتمييزه عن الأقليات، ولهذا قيمة رمزية كبيرة في تعزيز الحجة باستمرارية الثقافة الصينية.

تنقسم أسرة "هان" تقليديًّا إلى قسمين: "هان" السابقة أو الغربية (206 قبل الميلاد -9 م) واللاحقة أو "هان" الشرقية (23-220 م)، وتعكس الأسماء الجغرافية للفترتين حقيقة أن عاصمة "هان" الشرقية - مدينة "لو يانج" - تقع إلى الشرق من "تشانج آن"، عاصمة "هان" الغربية، وأحدث الفجوة بين الولايتين ظهور مقاطعة جديدة هي "شين" تحت حكم أسرة "وانج مانج" الذي يُعتبر مغتصبًا للحكم وعومل معاملة الحكم غير الشرعي واعتبروا العرش خاليًا فيها.

لقد فرضت الكونفوشيوسية كأيديولوجية للدولة خلال عهد أسرة "هان"، ولهذا الغرض بذلت الكثير من الجهود في مجال استعادة النصوص الكونفوشيوسية

التي فقدت خلال الدمار الأدبي في عهد أسرة "تشين"، وقد ناقشت الكونفوشيوسية منذ ذلك الحين إلى أي مدى تعكس هذه "النصوص الجديدة" المعاني الحقيقية للنصوص القديمة قبل "هان"، وكان للطاوية أيضًا نفوذ في البلاط، حيث درست النصوص الكونفوشيوسية والطاوية في الأكاديمية الإمبراطورية، وبدأت التعاليم البوذية في الظهور من الهند، كما تطور التسلسل البيروقراطي الهرمي ووضع نظام يحل محل فترة الإقطاع في حكم "تشين" التي ألغاها أباطرة "هان" الأوائل واستمر وجود هذا النظام حتى القرن العشرين.

وتفاوت الاقتصاد الصيني في فترة "هان" من عهد إلى عهد، ولكن السمات الرئيسة كانت تركز حيازات الأراضي، وتوسع الصناعات اليدوية والتجارة، وما ترتب على ذلك من ترشيد وزيادة استخدام النقود المعدنية، وظهور مدن جديدة لم تكن مجرد قواعد قوة للنبلاء، ولكن أيضًا مراكز اقتصادية في حد ذاتها. واحتكر البلاط إنتاج الملح والحديد وبعض المشروبات الكحولية لتوليد الإيرادات، مما أدى إلى نقاش ساخن بين العلماء حول مدى ملاءمة هذه الاحتكارات.

امتدت سلطة أسرة "هان" غربًا إلى شرق آسيا وكوريا الجنوبية وجنوبًا إلى ما يعرف الآن بشمال فيتنام، ونشرت اللغة الصينية المكتوبة والثقافة الصينية، ولكن ظهرت مشكلات في السيطرة على هذه الأراضي الشاسعة خلقت انقسامات سياسية داخلية.

صعود هان

إعادة البناء على يد أباطرة أسرة "هان" الأوائل

اقترب الاقتصاد من حافة الانهيار بسبب استبداد أسرة تشين، إضافة إلى سنوات الحرب الطويلة، لدرجة أن الحصان كان يباع بمئة قطعة من الذهب،

وأنه حتى الإمبراطور لا يمكنه ركوب عربة تجرها أربعة خيول من نفس اللون، في حين كان على الوزراء والجنرالات ركوب عربات تجرها الثيران، وكان حال الأسر العادية - بطبيعة الحال - أسوأ بكثير، فقد هلك عدد كبير من السكان أو هربوا إلى المناطق النائية، ولذلك استنزفت المدن في جميع أنحاء البلد بشكل خطير، حيث إن انهيار سجلات البيوتات المعيشية الحكومية جعل من الصعب على النظام الجديد الحكم.

وفي الوقت نفسه، استعادت "شيونج نو" التي طردتها أسرة "تشين" إلى أعماق الصحراء قوتها، وقاموا تحت حكم ملكهم الرابع "تشان يو مو دو" باستصلاح المناطق الصحراوية على طول المنحنى العظيم للنهر الأصفر، وكثيرًا ما نهبوا الناس والماشية والممتلكات على الحدود الشمالية الصينية.

وفي عام 201 قبل الميلاد، أرسل "مو دو" جيشًا لمهاجمة "ما يي" - إقليم "شو" الحالي في مقاطعة "شانشي"- وعند سماع هذا، قاد "ليو بانج" شخصيًا 300.000 جندي لمواجهة "شيونج نو" وحقق بعض النجاح، وهنا خبأ "تشان يو مو دو" قواته القوية وتحدى جيش "هان" بقواته القديمة والمريضة، مما أغرى "ليو بانج" بالتخلي عن مشاته ومطاردة العدو بنخبة فرسانه، مما أوقعه فريسة حصار سلاح فرسان "شيونج نو" البالغ قوامه 400 ألف جندي في جبل "باي دنج" في "بينج تشينج"، وانقطعوا تمامًا عن قواتهم الرئيسة لمدة سبعة أيام بلياليها في منتصف الشتاء دون إمدادات.

وفي قلب الأزمة، عرض "ليو بانج" الذهب والفضة على زوجة "تشان يو مو دو" مما جنبه كارثة.

هذا الحصار التاريخي لـ"باي دنج" أثبت أن أسرة "هان" كانت لا تزال تفتقر القوة الكافية لمواجهة "شيونج نو"؛ لذلك اعتمد "ليو بانج" سياسة المصالحة عن طريق الزواج السياسي، وهكذا كانت بنات العائلة الإمبراطورية متزوجات من "تشان يو مو دو"، ويرافق ذلك خراج سنوي كبير من الحرير والطعام

والنبيذ.

أصبح أباطرة "هان" أيضًا إخوة بالقسم مع "تشان يو" في محاولة لمنع المزيد من المضايقات.

خفت التهديدات الخارجية، وأصبحت المشكلة الرئيسة لأسرة "هان" الغربية الجديدة هي أي نوع من السياسات يجب اعتماده، فبعد الاعتبار من دروس التاريخ، وخاصة صعود وهبوط "تشين" قرر "ليو بانج" اتباع تعاليم الإمبراطور الأصفر و"لاو تزي"، أو الطاوية، كأيديولوجية توجيهية، واستعادة النظام الاجتماعي والاقتصاد من خلال تنفيذ سياسة "عدم التدخل".

ورثت أسرة "هان" الغربية المؤسسات السياسية لنظام تشين وحافظت عليها، حيث تقع السلطة العليا في يد الإمبراطور، وانقسم البلد إلى أقاليم ومقاطعات، ولكنها اختلفت بشكل جوهري عن حكم "تشين" في إلغائها القوانين القاسية وفي نهجها سياسة عدم التدخل، مما أتاح للشعب أن يتعافى.

أصدر "ليو بانج" سلسلة من المراسيم حول الجنود المسرحين وشجعهم على العودة إلى الزراعة، أُعفي جنود من الولايات الست الأصلية في الشرق من اثنى عشر عامًا من السخرة في حالة موافقتهم على البقاء في وسط "شانشي"، في حين حصل الذين اختاروا العودة إلى ديارهم على إعفاء ست سنوات؛ أُعطي أبطال الحرب مدنًا إقطاعية، وأراضي، ومنازل أو مزيدًا من الإعفاءات من السخرة طبقًا لرتبهم، وأطلق سراح المستعبدين في أثناء الحرب، وشجع أصحاب الأراضي على العودة إلى ديارهم، كل ذلك ساعد في استقرار البلاد وساعد مستويات الإنتاج على التعافي.

واستخدم المستشار الأول "شياو هي" - وهو أعلى رتبة في الخدمة المدنية في هان الغربية - الملفات الرسمية لأسرة تشين لفهم النقاط الاستراتيجية للبلاد، إلى جانب مسائل مثل تسجيل الأسر، كما أعاد إنشاء معابد الأجداد والمذابح والقصور والمقاطعات، وألف "تسعة فصول في القانون"، وقد صيغ الكتاب على

غرار أصل القانون الذي ألفه "لي كواي" والنظام القانوني الذي ألفه "لي تشين" الذي كان يستند إلى كتابات "لي". وباتصافه بالحذر والدقة اعتبر "شياو هي" بطلًا من أوائل أبطال أسرة "هان" الغربية. وبعد وفاته أصبح "تساو شين" مستشارًا واستمر بسياسة الحكم بعدم التدخل، وأبقى على قواعده وأنظمته المعمول بها، ولم يضف إلا تعيين مرؤوسين صادقين فقط، وقد عاش الشعب في سلام خلال التسع سنوات التي قضاها في منصبه.

وبعد وفاة "ليو بانج" تولى ولي العهد "ليو يينج" الذي يبلغ من العمر ستة عشر عاما العرش، وكانت القوة الحقيقية في يدي الإمبراطورة الأرملة "لو"، التي بدأت حكمها بتسميم أمير "تشاو" الذي كان ابن محظية "ليو بانج" المفضلة السيدة "تشي"، ثم شرعت في تعذيب السيدة "تشي" نفسها، فبترت يديها وقدميها وجعلتها عمياء وصماء وبكماء قبل أن تلقيها في المجارير.

وانزعج "ليو يينج" من سلوك والدته لدرجة أنه مرض ولم يعُد قادرًا على الاهتمام بشؤون الدولة، وتوفي من المرض سنة 188 قبل الميلاد، ثم نصبت الإمبراطورة "لو" اثنين من أحفاد الشباب كأباطرة في تتابع سريع، مع احتفاظها بمقاليد الحكم في يدها، ومع نمو طموحها، حاولت استبدال عائلة "ليو" الملكية بعائلتها لدرجة أنها منحت ألقاب الأمراء والماركيزات على أفراد الأسرة، وزوجت العديد من نساء عائلة "لو" بمختلف أمراء عائلة "ليو"، وحتى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة حثت أفراد أسرتها على تشديد قبضتهم على الجيش للاحتفاظ بسلطة الأسرة، ولكن بمجرد وفاتها، عادت عائلة "ليو" المالكة إلى مكانها بسرعة.

وعلى الرغم من قسوتها الشديدة لم تغير الإمبراطورة الأرملة "لو" خلال السنوات الخمس عشرة التي كانت السلطة فيها تحت يدها، فلم تغير سياسة عدم التدخل، كما ألغت القانون الجنائي القاسي الذي كان يقضي بإعدام ثلاثة أجيال من الأسرة بسبب جريمة أحد أفرادها، وتبعت نهج أسلافها في مواصلة سياسة التهدئة بالزواج من "شيونج نو"، وبالتالي تجنبت الحرب على نطاق

واسع. كما عزز حكمها الإنتاج وشهدت البلاد نموًّا اقتصاديًّا، مما كان بشكل عام واحدًا من التفسيرات الرئيسة لاستمرارها في الحكم. وهكذا مهدت الطريق للسلام والازدهار في عهد الإمبراطورين "ون" و"جينج".

الإمبراطوران "ون" و"جينغ"

في عام 180 قبل الميلاد وبعد وفاة الإمبراطورة الأرملة "لو"، سرعان ما انتزع القائد الأعلى "تشو بو" والأمير "ليو تشانج" السيطرة على الجيش من ابن أخيها المستشار "تشن بينج"، وبالتعاون مع "ليو شيانج" أمير "تشي"، تم القضاء على عشيرة "لو" في وقت قصير، ومن أجل حماية مصالحهم الخاصة من عشيرة "ليو" الطموحة، نصب المسؤولون إمبراطورهم القادم "ليو هنج" وهو أمير "داي" الواقعة في "شانشى".

كان "ليو هنج" الابن الرابع لـ"ليو بانج" قد أصبح أمير "داي" في سن الثامنة.

كانت "شانشى" بعيدة عن المركز السياسي للصين - محافظة "تشانج آن" - "شي آن" الحالية - في مقاطعة "شانشي"؛ لذا فقد كان بعيدًا عن الصراع على السلطة في القصر، بيد أن حكم "داي" قدم له خبرة سياسية وإدارية.. وهكذا، وبدعم من كل من المسؤولين والشعب، أصبح "ليو هنج" الإمبراطور الثالث لأسرة "هان" وحمل لقب الإمبراطور "ون"، وحكم هو وابنه "ليو تشي" الذي لقب بالإمبراطور "جينج" لأكثر من واحد وأربعين عامًا، وكان لكل منهما قدرة إدارية كبيرة، حيث واصلا سياسة عدم التدخل، وبالتالي ثبتت أقدام إمبراطورية "هان"، وخفضا الضرائب والعمل القسري، وشجعا الأعمال الزراعية إلى حد كبير؛ وأعاد الإمبراطور "ون" "حفل الزراعة" القديم، حيث ذهب شخصيًّا إلى الحقول ليكون قدوة ويضمن ازدهار الحصاد في المستقبل. وأمر بتخفيض كبير في إيجار المزارع، في حين انخفضت الضرائب والرسوم بنسبة الثلثين.

لم يغير الإمبراطور "جينج" سياسات والده، وشجع على زراعة الأراضي غير المستخدمة؛ وأخر سن الخدمة المدنية الإجبارية حتى العشرين للمواطنين،

ومنع الخراج من المقاطعات العسكرية، وقد أدى ذلك كله إلى تخفيف العبء على المزارعين، وزيادة الحافز على الإنتاج الزراعي، وساهم في تنمية مجتمع مستقر.

تمكن الإمبراطوران "ون" و"جينج" من خفض الضرائب عن طريق إبقاء تكاليفهم الخاصة منخفضة، فلم تشيد أي قصور جديدة خلال عهد الإمبراطور "ون" لمدة 22 عامًا، وكان أسلوب حياة البلاط متواضعًا، وذات مرة أراد الإمبراطور "ون" بناء شرفة، إلا أنه تخلى عن الفكرة عندما علم أنها ستكلف مائة قطعة ذهبية، ولا يحتوي قبره إلا على الفخار بدلًا من اكتناز الأشياء الثمينة مثل الذهب والفضة، وبالنظر إلى أن تركيزه كان على التعليم بدلًا من العقاب، فإن كثيرًا من المسؤولين كانوا أكثر تساهلًا في أحكامهم خلال هذه الفترة، مما أدى إلى تخفيف قمع الشعب؛ ولم يتم التخلي عن نظام بدايات أسرة "هان" القانوني، ولكن يقال إنه لم يتم التعامل به سوى مع بضع مئات من الحالات سنويًّا خلال عهد الإمبراطور "ون" متمشيًا تقريبًا مع أسرة "تشو" الغربية، التي اعتبرها علماء الكونفوشيوسية مثالية، وقد تباين ذلك بشكل حاد مع الحقبة الدموية في نهاية عهد أسرة "تشين"، عندما كان نصف السكان إما سجناء أو يعملون في السخرة.

كما تحسنت العلاقات العرقية خلال هذه الفترة، وكانت "شيونج نو" في الشمال لا تزال تمتلك قوة عسكرية أكبر من "هان"، وكاستراتيجية دفاعية شجع الإمبراطور "ون" الناس على الاستقرار بالقرب من الحدود الشمالية، كما شجع الناس أيضًا على إرسال الطعام إلى الشمال، مما لم يعطهم الحق لهم فقط للحصول على الألقاب النبيلة، بل أيضًا حل مشاكل الإمداد للجيش. وقد عزز كل ذلك المناطق الحدودية، إضافة إلى سياسة التهدئة من خلال الزواج، مما منع "شيونج نو" من الغزو.

ولكن في حين ازدهرت إمبراطورية "هان"، بدأ الاقتتال السياسي يزداد؛ ففي بداية عهد أسرة "هان" الغربية، خلص "ليو بانج" إلى الاستنتاج الخاطئ بأن

سقوط أسرة "تشين" كان بسبب غياب توزيع الإقطاعيات على وجه الخصوص، وعدم إعطاء الأرض أو الألقاب لإخوة أو أبناء الإمبراطور؛ لذلك عندما وقعت حركة تمرد، لم يكن هناك أحد للدفاع عن العرش؛ لذلك استبدل جميع اللوردات التابعين بأقاربه.

واصل الإمبراطور "ون" منح الأرض والألقاب لتعزيز حكمه، ولكن الأمراء المعينين سابقًا قد صاروا أقوياء وبدأوا في تهديد الحكومة المركزية، وكان المسؤولون الحكوميون بعيدو البصر قد لاحظوا الخطر بالفعل؛ فقدم "جيا يي" مستشار أمير "ليانج" مقالته الشهيرة "سياسة الحكم"، التي أوصى فيها بأن يقسم الإمبراطور أراضي النبلاء ويمنح قطعًا صغيرة منها لأبنائهم وإخوتهم، مما يضعف أي دولة منهم، وعلى الرغم من أن الإمبراطور "ون" استجاب لهذه الكلمات بتقسيم مقاطعة "تشي" إلى سبعة أقسام أصغر، إلا أن قوة الآخرين بقيت كما هي.

وبحلول الوقت الذي جاء فيه الإمبراطور "جينج" إلى السلطة، كان "ليو بي"، الذي منحه "ليو بانج" لقب الأمير "وو" يظهر علامات متزايدة على التمرد.. كان تحت يد "وو" ثلاث وخمسون محافظة استمرت في الازدهار، وعلاوة على ذلك، كان الإمبراطور "جينج" قد قتل ابنه بطريق الخطأ في مشاجرة في البلاط عندما كان ما يزال وليًا للعهد، وهو ما لم ينسه "ليو بي"، وهنا قدم الوزير "تشاو تسيو"، إذ رأى أن التهديد من الدول التابعة قد بات وشيكًا، "استراتيجية حل الدول التابعة"، مشيرًا إلى أن الأمراء سوف يتمردون سواء كانوا محرومين من أراضيهم أم لا؛ فكلما أسرع الإمبراطور بالقيام بذلك؛ بدأ التمرد عاجلًا، وكانت العواقب الضارة أقل، وبناء على ذلك، نزع الإمبراطور "جينج" ملكية الأراضي والألقاب عن الأمراء في 154 قبل الميلاد. وتجدر الإشارة إلى أن الولايات السبع في الشرق التي كانت تحت قيادة "ليو بي" قد تمردت على الفور، وأخاف هذا الإمبراطور "جينج" عديم الخبرة، وأدى به إلى إعدام "تشاو تسيو" على أمل التفاوض على السلام مع المتمردين. ولكن عندما اتضح أن "ليو

بي" كان ينوي الاستيلاء على العرش، أمر الإمبراطور "جينج" الجنرال "تشو يا فو" بسحق التمرد، ونجح "تشو" في القيام بذلك في أقل من ثلاثة أشهر.

بعد ذلك، ألغى الإمبراطور "جينج" العديد من المناصب الرسمية رفيعة المستوى في الولايات التابعة وخفض عدد المسؤولين الأقل رتبة، وقد أعيد قدر كبير من السلطة الإدارية إلى الحكومة المركزية، ولم يعد يسمح للولايات التابعة بامتلاك جيوشها الخاصة، وقد ساعدت هذه التدابير إلى حد ما في حل المشاكل الناجمة عن النظام الإقطاعي الذي اتبع في الفترات الأولى من عهد "هان"، ووضعت أسسًا متينة لعهد الإمبراطور "وو".

الإمبراطور "وو"

على الرغم من أن أسرة تشين (221-207 قبل الميلاد) قد بدت صعبة الاختراق فقد سقطت وقسمت في وقت قصير من الزمن، وكان الهم الرئيس لأوائل أباطرة "هان" هو كيفية تجنب نفس المصير، وفي 140 قبل الميلاد، تولى الحكم فتى عمره ستة عشر عامًا على عرش "هان"، وكان هذا هو الإمبراطور "وو" الذي ورث دولة غنية وفقًا لسجلات المؤرخ، فعاش الناس في رخاء وكانت البلاد مستقرة، وقد أتاح هذا الأساس المتين للإمبراطور الشاب الموهوب البدء في إجراء الإصلاحات، وبناء هيكل سياسي غير مسبوق، ويعتبر حكم الإمبراطور "وو" لدى العديد من المؤرخين واحدًا من أعظم العهود في التاريخ الإمبراطوري الصيني.

وكان أول مشكلة قابلت الإمبراطور "وو" هي كيفية تعزيز مركزية السلطة، وبالتالي تعزيز سلطته، وتحقيقًا لهذه الغاية، كان عليه أن ينظر مرة أخرى إلى المشكلة الشائكة المتمثلة في الإقطاعيات؛ ففي عهد الإمبراطور "جينج" (157 - 141 قبل الميلاد) سحبت الحكومة المركزية حقوق الأمراء والأميرات لتعيين المسؤولين؛ لكنهم ما زالوا يشكلون تهديدًا لاحتلالهم مساحة شاسعة من الأراضي، ومن أجل إضعافهم أكثر، مد الإمبراطور "وو" حقوق الميراث لجميع

أبنائهم، بدلًا من مجرد توريث الابن الأكبر، مما يسمح لهم جميعًا بالحصول على الأراضي وإقامة ولاياتهم التابعة الخاصة، ويبدو أن هذا الإجراء وفر امتيازًا خاصًا لأبناء الأمراء، ولكنه في الواقع كان يقسم الإدارات؛ فقد وقعت كل منطقة جديدة مباشرة تحت سيطرة الحكومة المركزية، وأضعفت قوة اللوردات المحليين، وقرر الإمبراطور أيضًا أن يكون المسؤولون في الولايات التابعة أقل رتبة من نظرائهم في الحكومة المركزية، ولم يسمح لهم بتولي أي منصب في البلاط المركزي.

خلقت هذه السياسات أكثر من مائة إقطاعية في الإمبراطورية، وعلى الرغم من أن الحكومة المركزية حكمتها، فإنها كانت - رغم كل شيء - لا تزال دولًا مستقلة، حتى من أجل "ألا يسبب النمر نكبة للبلاط"، حرم الإمبراطور "وو" في 112 قبل الميلاد 106 نبلاء من ألقابهم، بحجة أن الذهب الذي قدموه كخراج ليس ذا جودة عالية بما فيه الكفاية، وكانت النتيجة أن السلطة المركزية أصبحت الآن مطلقة تقريبًا.

وقد أدى توطيد سلطة الدولة إلى ازدهار ضخم في "هان" الغربية؛ لذا ومع النمو الاقتصادي الثابت، حول الإمبراطور "وو" اهتمامه للعلاقات الخارجية، وعلى الرغم من ترتيبات الزواج، لم يتوقف الـ"شيونج نو" تمامًا عن إثارة الشغب على المناطق الحدودية، فقرر الإمبراطور "وو" في وقت مبكر نسبيًا في عهده أن الوقت قد حان للحرب، بدءًا من عملية كمين "ما يي" عام 133 قبل الميلاد، واستمر الصراع مع "شيونج نو" لأكثر من ثلاثين عامًا حدثت خلالها ثلاث معارك حاسمة، الأولى في 127 قبل الميلاد، حيث غزت "شيونج نو" أراضي "هان" بـ 50.000 فارس، ولكنها صدت بشكل كامل، وأزيل التهديد الواقع على "تشانج آن"، ثم الثانية في 121 قبل الميلاد، حيث أمر الإمبراطور "وو" بتسيير جيش ضخم مكون من عشرات الآلاف من الفرسان إلى الغرب في عمق أراضي "شيونج نو"، مما أدى إلى تقسيم صفوفهم، واستسلم 40.000 رجل لـ"هان"، والآن أسست أسرة هان أربع مقاطعات عسكرية في "هيشي" (غرب

النهر الأصفر)، وهي منطقة كان يشغلها سابقًا زعماء "شيونج نو"، مما وفر طريقًا مهمًّا للتبادلات بين "هان" والمناطق الغربية.

على الرغم من أن قوات "شيونج نو" الرئيسة أُجبرت على التراجع إلى الشمال من صحراء جوبي، فلم يخف طموحهم للعودة للجنوب، فتقدموا مرة أخرى في عام 119 قبل الميلاد، وكان الإمبراطور "وو" يعتزم التعامل معهم بضربة قاتلة من خلال شن غارة طويلة؛ لأنه كان يعلم اعتقادهم أن قوات "هان" لن تتمكن من القيام بهذه الرحلة الطويلة الشاقة، فقسم جيش هان إلى قوتين، يبلغ عدد كل منهما 50 ألفًا من الفرسان، ومئات الآلاف من المشاة والتعزيزات وأكثر من 140 ألف حصان لحمل الأمتعة.

وتمكنت كل منهما من إلحاق هزائم ساحقة بقوات "شيونج نو"، ومن ذلك الحين، ظلت "شيونج نو" على الهضبة المنغولية ولم تحاول مرة أخرى أن تتحرك جنوبًا، أصبح ممكنًا الآن لأسرة "هان" فتح الطرق إلى جميع البلدان في المناطق الغربية؛ وربط شمال وجنوب جبال "تيان" بالسهول الوسطى، وتعزيز التبادل الاقتصادي والثقافي بين الصين ووسط وغرب آسيا.

كما أدت نهاية الحرب بين "هان" الغربية و"شيونج نو" إلى إزالة التهديد القديم للمناطق الزراعية الشمالية وزيادة الاتصالات بين المقاطعات العسكرية على الحدود وداخلها، وهاجر كثير من الناس إلى المناطق الحدودية وبدؤوا في إعمارها، وعلاوة على ذلك، مدت أسرة "هان" السور العظيم لحماية ممر "هيشي" وبنيت العديد من الحصون في الشمال، ولم تكن هذه المراكز بمثابة مواقع سياسية وعسكرية فحسب، وإنما مراكز ثقافية واقتصادية أيضًا أسهمت إسهامًا كبيرًا في التنمية الاجتماعية للقبائل البدوية.

ومع اقتراب الوحدة الوطنية بدأ الإمبراطور "وو" أيضًا بإعمار المناطق الجنوبية الغربية، فكانت "هان" على اتصال مع الأقليات في الجنوب الغربي قبل فترة طويلة من توحيد "تشين" للولايات المتحاربة، وبحلول عهد أسرة

"هان" الغربية، أصبحت هذه الاتصالات أكثر رسوخًا؛ لذلك أنشأ الإمبراطور "وو" المقاطعات العسكرية والمحافظات في تلك المنطقة تحت سيطرة السلطة المركزية، وقام بعمل مماثل في الجنوب الشرقي، وبما أن كوريا، التي كانت تحت يد "وي مان"، كانت بالفعل مقاطعة تابعة في أوائل حكم "هان" فقد أنشأ الإمبراطور "وو" أربع مقاطعات عسكرية هناك لتوطيد العلاقات.

وعمومًا، توسعت أراضي "هان" بشكل غير مسبوق خلال عهد الإمبراطور "وو"، من بحر آرال إلى شبه الجزيرة الكورية، ومن بحيرة بيكال إلى الهند الصينية، وانتشر معها تأثير ثقافة "هان"، وكانت البلاد لا تزال غير موحدة كما كانت بعد فترة الولايات المتحاربة في الستين أو السبعين سنة الأولى من عهد أسرة هان الغربية، ولكن الإمبراطور "وو" غير هذا من خلال تعزيز السلطة المركزية وتعزيز التكامل بين جميع الجماعات العرقية.

وبالرغم من أن أسرة "تشين" قد وحدت البلاد فقد كان عهدها قصير الأجل، وبصرف النظر عن إيجادهم لعدد من المؤسسات الجديدة بنجاح، فلم يمر سوى القليل من المعرفة العملية لكيفية إدارة أسرة إقطاعية موحدة، وبالنسبة لحكام أسرة "هان"، كانت المهمة الأكثر أهمية هي ضمان حسن الحكومة والأمن للشعب.

وقد كانت سياسة الإمبراطور "وو" المتمثلة في تعظيم الكونفوشيوسية مع حظر جميع مدارس الفكر الأخرى محل إشادة وانتقاد من الأجيال اللاحقة. ولكن اعتماد هذه الاستراتيجية كان له خلفية خاصة وأهمية إيجابية في ذلك الوقت. فقد اتبعت السنوات الأولى من عهد "هان" تعاليم الإمبراطور الأصفر و"لاو تزي" كإيديولوجية موجهة، ونفذت سياسة الحكم من خلال عدم التدخل وإعادة التأهيل، وقد أدى ذلك دورًا إيجابيًا في تيسير الانتعاش الاجتماعي والاقتصادي في البداية؛ ولكن بعد مرور سبعين عامًا على ذلك، كان حكم أصحاب الأراضي قد توطد، ووصلت التنمية الاجتماعية والاقتصادية إلى مرحلة جديدة. فلم يعد مبدأ الداوي المتمثل في الحكم بعدم التدخل قادرًا

على تلبية متطلبات طبقة ملاك الأراضي. وعلاوة على ذلك، فإن آثار تنافس العديد من مدارس الفكر لا تزال قائمة؛ حيث تسبب هذا في الارتباك الأيديولوجي، مما يظهر خطر الاستغلال لتلك الخلافات على يد القوى الانفصالية المحلية، ومع نمو المركزية، أصبحت الوحدة الأيديولوجية ضرورة أيضًا، حتى جاءت سنة 135 قبل الميلاد التي قبل فيها الإمبراطور "وو" توصية العالم "دونج تشون شو" بحظر جميع مدارس الفكر الأخرى وترويج الكونفوشيوسية كفلسفة عُليا، مجندًا عددًا كبيرًا من علماء الكونفوشيوسية لإطلاق إصلاح أيديولوجي جذري.

وكان "دونج تشونج شو" يدرك أنه سيكون من الصعب للغاية الحكم وفقًا للكونفوشيوسية التي كانت موجودة في فترة ما قبل حكم "تشين"، فكان لا بدَّ من إجراء تعديلات لتلبية احتياجات العصر، حيث شدد على "الوحدة الوطنية الكبيرة" وركز بشكل خاص على سيادة القانون، مازجًا الكونفوشيوسية مع القانونية - الكونفوشيوسية مظهرًا وشكلًا والقانونية في الممارسة العملية - كما رفع وضع الإمبراطور ليكون "ابن السماء" جاعلًا منه إلهًا بشكل فعلي، فتحدي إرادة الإمبراطور يُعتبر عدم احترام السماء.

أمر الإمبراطور "وو" أيضًا ببناء كلية إمبراطورية في "تشانج آن"، حيث درست الأعمال الكونفوشيوسية الكلاسيكية، مثل كتاب الأغاني وكتاب الوثائق وكتاب التغيرات وكتاب الشعائر وحوليات الربيع والخريف للمسؤولين، وهكذا أصبحت الكونفوشيوسية السلطة الأيديولوجية المطلقة، ليس فقط خلال حكم أسرة "هان"، بل سادت الألفي عام التالية في المجتمع الإقطاعي الصيني، وباعتبارها أيديولوجية أصيلة لحكم الشعب، فقد تدخلت تدريجيًا في كل ركن من أركان المجتمع وتطورت لتصبح قواعد سلوكية، ولكن على الرغم من أن كل هذه التدابير كان لها تأثير على تعزيز القوة الإمبريالية وتوحيد البلاد، فإنها قمعت التفكير الحر.

وكان الهدف من الوحدة الأيديولوجية هو تعزيز القوة الإمبريالية، ولكن

الإمبراطور "وو" كان بحاجة أيضًا لدفع نفقات الحرب الضخمة ونمط الحياة الفخم للطبقة الحاكمة؛ لذلك احتكر صناعات الملح والحديد والنقل وتسعير بضائع الجزية والمسكوكات الموحدة حديثًا، وكلها كانت ذات تأثير مهم على الأجيال اللاحقة.

وكان الملح ضرورة يومية وأصبحت الأدوات الحديدية بالفعل سلعة رئيسة، وبالتالي وفرت هذه القطاعات أرباحًا عالية، وحيث إن خامات الملح والحديد موجودة في الغالب في المناطق الجبلية أو الساحلية، وأوجدت عملًا لمئات الآلاف من الأشخاص المنتقلين إلى هذه المناطق، فإن سوء إدارتها يمكن أن يصبح عاملًا اجتماعيًا مزعزعًا للاستقرار، وفي السنوات الأولى من حكم "هان" تبنت الحكومة سياسة عدم التدخل تجاه هذه الصناعات، وسُمح ذلك للقطاع الخاص بإدارتها، مما حدَّ من الإيرادات المالية وغذى القوى الانفصالية، حتى حلول سنة 118 قبل الميلاد، عندما أصدر الإمبراطور "وو" حظرًا على إدارة الأفراد لصناعات الملح والحديد ووضعهما تحت سيطرة الدولة بشكل كامل، وقد امتد هذا الاحتكار ليشمل سلسلة الإنتاج بأكملها حتى البيع، مما سمح للحكومة بتحقيق أرباح ضخمة.

وفي الوقت ذاته أرسل الإمبراطور مسؤولين من الحكومة المركزية لتنظيم نقل البضائع والخراج إلى العاصمة، حيث تباع وفقًا للأسعار المنظمة، وهذا ما منع التجار من التلاعب في الأسعار أو الاستحواذ على السوق وأيضًا من تراكم الثروة. كما منع التجار من استخدام ثروتهم لضم الأراضي الزراعية، حيث حمى مصالح المزارعين، مما زاد من دعم الحكم الإقطاعي، ثم في عام 119 قبل الميلاد، فرض الإمبراطور "وو" ضريبة الأملاك على التجار وحيتان القروض، حيث ألزموا بإعلان جميع أصولهم ومن يتخلف يعاقب بالمصادرة، وينفى لحراسة الحدود لمدة عام، كما شجع الإبلاغ عن التجار فارضًا مكافآت طائلة لمن يفعل ذلك، وكانت النتيجة إفلاس العديد من التجار في حين ازدهرت الأحوال المالية الحكومية.

هناك عامل آخر ذو أهمية كبيرة للحياة الاقتصادية في عهد أسرة "هان" الغربية ألا وهو السيطرة على العملة. ففي سنيها المبكرة، سمح للولايات التابعة بصك أموالها بحرية، مما أدى إلى الفوضى وارتفاع الأسعار وحتى تهديد استقرار النظام المركزي. حتى حظر الإمبراطور "وو" هذه الممارسة في عام 119 قبل الميلاد، وأنشأ دار المسكوكات الوطنية، وأصبحت عملة "وو تشو" هي العملة القانونية الوحيدة.

وقد أدت الزيادة في الإيرادات الحكومية إلى التخفيف من حدة الصعوبات الاقتصادية الناجمة عن الحروب والإسراف بشكل مؤقت، مما أدى إلى تعزيز قوة طبقة ملاك الأراضي، ومع ذلك، كان ازدهار الأسرة البيروقراطية الإقطاعية يثير عددًا كبيرًا من المشكلات الاجتماعية، وأدت الحروب المتواصلة، وما يصحبها من الخدمة العسكرية والعمل الجبري، إلى جعل الحياة لا تطاق بالنسبة للمزارعين، كما أدى إلى انخفاض الإنتاج الزراعي.

وعلاوة على ذلك، أصبح الإمبراطور "وو" مؤمنًا بالخرافات على نحو متزايد؛ ففي سنواته الأخيرة كان يشتبه أن ولي عهده يحاول إلحاق الأذى به بالسحر، وأجبره في النهاية على الانتحار بعد أحداث متوترة سببت آلاف الإعدامات، وأصبح طول العمر هاجسًا له؛ فزار جميع الخيميائيين من جميع أنحاء البلاد سعيًا وراء الخلود، وكان أحدهم مقربًا منه وهو "لوان دا" الذي ادعى قدرته على التحدث مع الآلهة، نصبه الإمبراطور جنرالًا وزوجه إحدى الأميرات، وانغمس الإمبراطور في الأضاحي والاحتفالات الغريبة بتحريض منه كإرسال أعداد كبيرة من الناس إلى جزيرة "بنج لاي" للبحث عن الخالدين الذين قالت الأسطورة إنهم سكنوها. وكان أيضًا ضعيفًا أمام النساء حيث قال: "أستطيع أن أعيش دون طعام لمدة ثلاثة أيام، ولكن لن أعيش ليوم واحد دون امرأة"، وتكوَّن الحريم الإمبراطوري من عشرات الآلاف من المحظيات نتيجة لذلك، وكان لذلك بالطبع تبعاته السياسية، حيث حصل ثلاثة من كبار جنرالاته على مناصبهم بحكم كونهم من أقارب نسائه المفضلات.

ونتيجة لذلك اندلع عدد من انتفاضات الفلاحين، مما أدى إلى تدهور الحالة السياسية غير المستقرة في الأصل، وفي مواجهة هذه الأزمات، أفاق الإمبراطور "وو" وأدرك أخطاءه، وأصدر في عام 89 قبل الميلاد مرسومًا استباقيًّا إمبراطوريًّا أعرب فيه عن استعداده لوقف الحروب العدوانية وتحويل الأولوية إلى الإنتاج، وببذله جهدًا شرسًا لتحويل المد، تجنب الزوال المأساوي الذي لحق بأسرة "تشين"، مما وضع الصين مرة أخرى على طريق الازدهار.

انحدار إمبراطورية "هان" الغربية

الفساد في منتصف وأواخر حكم أسرة "هان" الغربية

توفي الإمبراطور "وو" عام 87 قبل الميلاد بعد أن تحول إلى شخصية مثيرة للجدل، وقد وضع عقله المضطرب في سنواته الأخيرة إمبراطوريته على حافة الهاوية، واختار خليفته ابن السيدة "جوي"، ولمنع تكرار مأساة الإمبراطورة الأرملة "لو"، اختلق عذرًا لإعدام "غوي" لمنع تدخلها في حكم ابنها الشاب. ثم عين "هو جوانج" و"شانجوان جي" و"سانج هونج يانج" كمساعدين لوريثه الشاب في حكم البلاد.

كان "هو جوانج" هو الأخ الأصغر غير الشقيق لـ"هو تشو بنج" الجنرال المشهور الذي قاد حملة عقابية ضد "شيونج نو" في عام 119 قبل الميلاد، وبعد وفاة "هو تشوبينج"، تولى منصب قائد المركبات المسؤولة عن حراسة الإمبراطور "وو". وتميز بالبراعة والحذر ووضع الإمبراطور ثقة كبيرة فيه، وسرعان ما وثق فيه الإمبراطور الشاب "تشاو" كذلك، وعلى مدى فترة ثماني أو تسع سنوات، عزز "هو" الاقتصاد، وخفض استغلال الشعب ووجه الإمبراطور الشاب بحكمة مما أعطى نتائج ممتازة، ولكن الإمبراطور الشاب البالغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا توفي فجأة دون أن ينجب وريثًا عام 74 قبل الميلاد، وكمسؤول كبير اختار "هو" حفيد الإمبراطور "وو" "ليو هو" ليصبح إمبراطورًا، وعندما

ثبت أنه كان ساذجًا وغير متعلم أحل "هو" محله "ليو شون" وهو حفيد آخر للإمبراطور "وو" وأصبح يعرف باسم الإمبراطور "شوان".

كانت أمور الدولة ما تزال في يد "هو"، وقد كان نتيجة انفراده بالحكم لبعض الوقت أن نمت شهوة السلطة لديه تدريجيًا، كما ارتفعت مكانة أسرته أيضًا إلى حد أن حكم الإمبراطور "شوان" صار غير مستقر خاصة عندما سممت زوجة "هو" الإمبراطورة "شو" (زوجة الإمبراطور "شوان" الأولى) على أمل جعل ابنتها إمبراطورة؛ لذلك اعتمد الإمبراطور سلسلة من التدابير لإضعاف قوة أقارب "هو"، وفي نهاية المطاف ادعى أنهم كانوا يخططون للتمرد، وأعدم الأسرة بأكملها، وعلى الرغم من ذلك، واصل تنفيذ سياسات "هو جوانج" الحكيمة؛ لذلك ازدهرت أسرة "هان" الغربية لعدة عقود في ما عرف باسم "ازدهار عصري تشاو وشوان".

وبينما قام الإمبراطور "شوان" بتصفية عائلة "هو"، عين عددًا من الناس من أسر "شو" و"شي" (أقارب والدته وزوجته) والخصيان لمناصب رسمية رئيسة؛ وأصبحت هذه هي القاعدة بدءًا منذلك الوقت. وتوفي عام 49 قبل الميلاد، وتولى وريثه "ليو شي" العرش بلقب الإمبراطور "يوان". وكانت العادة منذ عهد الإمبراطور "وو" أن يلتزم الحكام بسياسة تمزج بين القانونية والكونفوشيوسية، ولكن الإمبراطور "يوان" حاد عن التقليد السابق ودعم الكونفوشيوسية بشكل أكبر، حيث عين العديد من العلماء الكونفوشيوسيين في المناصب الرسمية، ودون القوانين الصارمة التي كانت سمة من سمات المدرسة القانونية ضعفت السلطة الإمبراطورية، وانحدر حكم عائلة "ليو"، فخلال عهد الأباطرة الثلاثة المقبلين -"تشنج" و"آي" و"بينج" - ازداد البلاط فسادًا.

واصل خلفاء الإمبراطور "وو" أيضًا عاداته الباهظة، وكان لدى الإمبراطور "يوان" على سبيل المثال، الكثير من المحظيات الذي ضاع وقته في استدعائهن واحدة تلو الأخرى؛ لذلك طلب من الرسامين رسم صورهن بحيث يمكن أن

يختار بينهن، وقد منح الإمبراطور "آي" رضاه لـ"دونج شيان" اللوطي وعينه قائدًا كبيرًا ومدافعًا عامًّا، وقتل مستشارًا تجرأ على القول بأن المزيد من الترقية لهذا الشخص ليس فكرة جيدة.

في هذا السياق سادت العرافة على يد الكهان مقترنة بالتفسير الباطني لنصوص الكونفوشيوسية، حيث احتوت الأولى على نبوءات كتبت بلغة غامضة، وبالتالي تم التلاعب بها بسهولة لأغراض سياسية، في حين أن الكتب التي كتبها علماء الكونفوشيوسية في عهد "هان" كانت أساسًا عن الخيمياء، وفسرت الكلاسيكيات الكونفوشيوسية بشكل خاطئ، ففي خلال عهد الإمبراطور "وو" ناقش عالم كونفوشيوسي يدعى "دونج تشونج شو" فكرة "التفاعلات بين البشر والسماء"، وقد فسر هذا بأنه يعني أن السماء سوف ترسل إشارات جيدة أو سيئة بشأن سلوك الحاكم وسياساته، وقد استخدمت على يد الملوك لاستئناف حكمهم، وتطلبت شكلًا متخصصًا من المعرفة التي كان على علماء الكونفوشيوسية إتقانها.. وأصبح هذا الأمر واسع الانتشار ومقبولًا من جميع قطاعات المجتمع بحلول نهاية عهد أسرة "هان" الغربية.

ولا شك أن عدم كفاءة الحكام قد أدى إلى العديد من المشكلات الاجتماعية في السنوات الأخيرة من عهد الأسرة، فشهدت زيادة سريعة في ضم الأراضي وانتشار الفقر والمجاعات التي طال أمدها وتاق الناس إلى التغيير، فأصبحت الصراعات الطبقية حادة وشاعت الانتفاضات، وكانت الظروف سانحة للطموحين بالاستيلاء على السلطة، وكان الرجل الذي انتهز تلك الفرصة هو "وانج مانج".

حكم "وانج مانج" القصير

ولد "وانج مانج" أو "جوجون" في عائلة "وانج" التي تسكن "يوان تشينج" في محافظة "وي" العسكرية، وكان ابن شقيق الإمبراطورة "وانج تشينج جون"، زوجة الإمبراطور "يوان".. توفي الإمبراطور "يوان" عام 33 قبل الميلاد، وتولى

ابنه "ليو آو" العرش باسم الإمبراطور "تشينج"، وهكذا أصبحت والدته "وانج تشينج جون" الإمبراطورة الأرملة، وبالتالي صارت أسرة "وانج" تتمتع بسلطة ونفوذ كبيرين في البلاط، وأصبح معظمهم من النبلاء.

في حين استفاد أشقاء "وانج مانج" وأبناء عمومته من ذلك للاستمتاع بحياة الرفاهية، كان "وانج مانج" مختلفًا، حتى عندما كان طفلًا، كان مقتصدًا ومجتهدًا وضليعًا في علوم الكونفوشيوسية، كما كان بارًّا بأمه، وراعيًا جيدًا لشقيقته الأرملة وابن أخيه، وكان محترمًا ومهذبًا تجاه أقاربه ذوي النفوذ، وكان مخلصًا بشكل خاص لعمه "وانج فنج" الذي شغل منصبًا رئيسًا في البلاط، ونتيجة لذلك، ناشد "وانج فنج" الإمبراطور "تشينج" أن يرعى ابن أخيه وهو على فراش الموت.

وهكذا عين "وانج مانج" حاجبًا على بوابة القصر (وهو دور شرفي تضمن خدمة الإمبراطور عن قرب)، ورُقي لاحقًا إلى قائد حرس العاصمة، من المستحيل أن نحدد متى بدأ "وانج مانج" يطمح للاستيلاء على العرش، فقد أثبت جدارته بكسب التأييد الشعبي، حتى أن مشاهير العصر كانوا يثنون عليه في حضرة الإمبراطور.

أُعطي لقب ماركيز عام 16 قبل الميلاد ورُقي إلى منصب مستشار الملك، وبدأ يشارك في شؤون الدولة، ولكنه كان لا يزال يتصرف بتواضع وحذر كبيرين. كان عطوفًا ومثاليًّا في كل تعاملاته، ونتيجة لذلك زادت شهرته بل وتجاوزت شهرة أعمامه الأقوياء.

وعند هذه النقطة فقط بدأت خدعة "وانج مانج" السياسية تكشف عن نفسها، حيث رقي ابن عمه "تشون يو تشانج" إلى منصب قوي وكان أحد المفضلين عند الإمبراطور "تشينج"، وعندما كان عم "وانج" - "وانج جين" - على وشك ترك منصب القائد الأعلى، أصبح "تشون يو تشانج" و"وانج مانج" المرشحين لخلافته وهنا لعب "وانج" لعبته، حيث جمع قائمة من مخالفات "تشون يو"

وقدمها إلى الإمبراطور ونجح في الحصول على حكم بإعدامه، وهكذا في عام 8 قبل الميلاد، عين "وانج مانج" في منصب القائد الأعلى والوصي صاحب الأمر، وهو منصب ذو سلطة هائلة.

وسار كل شيء بشكل جيد لـ"وانج مانج" حتى توفي الإمبراطور "تشينج" فجأة، وعين الإمبراطور الجديد "آي" أقاربه - عائلات "فو" و"دينج" - في المناصب الرئيسة، هنا اضطر "وانج مانج" للعودة إلى إقطاعيته، وانتظر منتهزًا كل الفرص لتوسيع نفوذه وزيادة شهرته، وعندما توفي الإمبراطور "آي" بعد ست سنوات بلا أي وريث، فكانت الإمبراطورة الأرملة السابقة "وانج تشينجون" هي من تقدم لتنظيم الفوضى، وعينت أفراد أسرتها مرة أخرى في المناصب الرئيسة ومن بينهم ابن شقيقها "وانج مانج" في ما بينها، وبما أن الإمبراطور الجديد "بينج" كان يبلغ من العمر تسعة أعوام فقط، فقد كان تحت رحمة "وانج" الذي بدأ الآن في توطيد سلطته.

وباقترابه من هدفه أدرك "وانج مانج" أنه في هذا العصر من التطير والكهانة فهو بحاجة إلى نبوءة جيدة لإثبات مباركة السماء له، وهنا ساعده الحظ بظهور الفأل الحسن، وكان أخيرًا مستعدًّا فسمم الإمبراطور "بينج" ونصب مكانه الطفل "يينج" إمبراطورًا وتولى هو الوصاية عليه، ثم في عام 9 م، نحى الإمبراطور الرضيع ببساطة وتولى العرش بنفسه، منهيًا بذلك حكم أسرة "هان"، وغير لقب الأسرة إلى "شين" (بمعنى "جديد") وسمى السنة الأولى من حكمه "شي جيان جو" "تأسيس الدولة".

وفي هذه اللحظة كانت البلاد قد دخلت مرحلة الأزمة، وفي محاولة لاستعادة شيء من السلام والنظام، أحيا "وانج مانج" أنظمة الحكم السابقة ولكنه لم يحقق إلا نجاحًا محدودًا، ففي عام 9 م، أعاد تسمية البلاد "أرض الإمبراطور"، وأصدر حظرًا على شراء وبيع العبيد والخادمات، مما أدى إلى زيادة تأصيل نظام الرقيق بدلًا من تحريرهم، وبالمثل كانت محاولته لإعادة نظام حقول الآبار لا نتيجة إلا ربط المزارعين بأرض مملوكة للدولة، ومن الإجراءات

الاقتصادية المهمة الأخرى التي اتبعها تعيين مسؤولين في المدن التجارية مثل "تشانج آن" و"لو يانج" و"هان دان" و"لين تزي" و"تشينج دو" والذي كان دورهم يتمحور حول إدارة السوق وموازنة الأسعار وفرض الضرائب ومنح القروض.

كما فرض الاحتكار على الملح والخمور والحديد وصك المعادن والائتمان، كما خضعت الغابات والأنهار الجبلية أيضًا لسيطرة الدولة وفرضت الضرائب على منتجاتها، وكانت هذه التدابير تهدف إلى تقييد التجار الأثرياء وزيادة انتفاع السكان، ولكن المفارقة أنه نظرًا لعدم كفاية حكومته، كان على "وانج مانج" الاعتماد على هؤلاء التجار أنفسهم لتنفيذ سياساته، فاغتنموا الفرصة لشراء السلع بأسعار منخفضة وبيعها بأسعار مرتفعة، وبالتالي أصبح احتكار الدولة يديره التجار شبه البيروقراطيين، وفي نهاية المطاف، لم يكن هناك فقط زيادة في إيرادات الدولة، بل عبء أثقل على السكان، وقد فرضت الضرائب حتى على الصيد والرعي والأغنام ورعي الماشية والغزل والنسيج وتربية الماشية في المنزل.

كما بدأ "وانج مانج" إصلاحات في نظام العملة، لكنه نجح فقط في جعل النظام النقدي أكثر إرباكًا، فألغى عملة "ووتشو" وقدم مجموعة متنوعة من النظم الجديدة، مما أدى إلى ضعف تداول العملة وعدم استقرار الأسعار، وكانت الفكرة وراء هذا القرار هي إضعاف النبلاء، ولكن الأثر كان عكسيًا في الواقع. وأدت التغييرات التي طرأت على الألقاب الرسمية وأسماء المقاطعات والأقسام الإدارية والإدارات إلى زيادة عدد الموظفين وعدم الكفاءة، مما أدى بدوره إلى إرباك هائل في حياة الناس اليومية، وفي الوقت نفسه، غير نبلاء الأقليات في المناطق الحدودية ألقابهم من "ملك" إلى "ماركيز"، في حين زاد المبعوثون الذين أرسلوا لتعزيز قوة "وانج مان" العلاقات العرقية سوءًا، وكانت الحروب الإثنية التي طال أمدها هي النتيجة التي ابتلعت موارد البلد.

إضافة إلى كل هذه العوامل، رافقت كوارث طبيعية لا نهاية لها فترة حكم "وانج مانج". ونظرًا للارتفاع الحاد في عدد السكان على مدى قرنين من عهد

أسرة "هان"، أدى الإفراط في التنمية وإزالة الأحراج في منطقة حوض النهر الأصفر إلى سنوات متتالية من الفيضانات والجفاف؛ وأصبحت الكوارث متكررة من عهد الإمبراطور "شوان" فصاعدًا بحيث صدرت المراسيم الإصلاحية الإمبراطورية على أساس منتظم بشكل متزايد. وخلال عهد "وانج مانج" فاض النهر الأصفر على ضفتيه مما اضطر الناس إلى الفرار، كما أن وباء الجراد الذي أعقب ذلك ترك السكان في حالة رهيبة من العوز.

كل هذا كان لا يقارن بالكوارث البشرية الناتجة عن سياسات "وانج مانج"، وبحلول نهاية حكمه كانت الأمة في حالة من الاضطراب، فلم تكن طبقة الفقراء فقط هي من يكافح من أجل البقاء، بل أيضًا طبقة الملاك، في حين كان النبلاء والبيروقراطيون يتهافتون خلف السلطة والثروة، وهكذا دفع "وانج مانج" نفسه وإمبراطوريته إلى طريق مسدود.

إحياء بلاط هان

تأسيس أسرة هان الشرقية

أدت فوضى حكم "وانج مانج" في النهاية إلى وجود المقاومة ونشوب عدد من انتفاضات الفلاحين، ففي سنة 17 م، سبب الجفاف الشديد في مقاطعة "هوبي" الغربية مجاعة وكان لكل من "وانج كوانج" و"وانج فنج" - وكلاهما من "شينشي" - شهرة في تسوية الخلافات بين مواطنيهم وتم اختيارهم كقادة لرفع راية التمرد، وأطلق عليهم رجال جرينوود نظرًا لكون قاعدتهم موجودة في جبل "جرينوود". وفى العام التالي ازدادت جماعات المتمردين في مقاطعتي "شاندونج" و"جيانغسو"، وكان قائدها "فان تشونج" وهو مواطن من "لانج يا"، من أجل تمييز أنفسهم عن جيش "وانج مانج" صبغ الفلاحون حواجبهم باللون الأحمر وهكذا عرفوا باسم الجيش أحمر الحاجب، ومع

الانتشار السريع للثورة، كان بعض النبلاء والملاك يأملون في استعادة نظام أسرة "ليو"، ومن بينهم "ليو شيو".

وفي سنة 22 م، قاد "ليو شيو" وشقيقه الأكبر "ليو يان" ما يقارب من 7.000–8.000 من الفلاحين للانضمام إلى جيش "جرينوود"، وإدراكًا منهم بأن النصر الحاسم لا يمكن أن يتحقق إلا إذا انضموا تحت لواء قائد واحد، عين رجال "جرينوود" "ليو شوان" (وهو واحد من العائلة المالكة) كإمبراطور عليهم، وسمي النظام "جنج شي"، ثم انطلقت حملة تحت قيادة "ليو يان" و"ليو شيو" شمالًا، وحيث إنهم أعلنوا أن جميع المراسيم الصادرة عن نظام "ليو" السابق يجب أن يعاد تنفيذها فورًا، ارتفعت شعبيتهم في جميع أنحاء البلاد ونجحوا في ضم عدد من المدن بما في ذلك "كو نيانج" و"دينج لينج" و"يان شيان".

وهنا جمع "وانج مانج" - الذي تأثر بشدة - قوة من 420.000 جندي أرسلهم من "لويانج" على أمل تدمير المتمردين بضربة واحدة، وسرعان ما طوقوا "كو نيانج"، أما في داخل المدينة، فكانت نصيحة "ليو شيو" للمتمردين المحاصرين أن ينتظروا الإمدادات، وتحت غطاء الظلام، قاد بنفسه مجموعة من ثلاثة عشر مقاتلًا، بهدف جمع كل القوات الممكنة، وبسبب القوة الساحقة لقوات "وانج مانج"، لم تجرؤ سوى قوات قليلة من المتمردين خارج المدينة على الهجوم، ولكن تلك التي استجابت شنت هجومًا مفاجئًا على معسكر العدو، وعندما خرج المتمردون المدافعون عن "كو نيانج" للانضمام إلى صفوفهم كبدوا جيش "وانج مانج" خسائر لا حصر لها، مما أدى إلى ميل ميزان القوى لصالح المتمردين.

أضفى هذا النصر هيبة عظيمة على الإخوة "ليو"، مما أثار غيرة الإمبراطور "ليو شوان" وجنرالاته، فقتلوا "ليو يان" دون أن يستطيع "ليو شيو" منعهم، وقاد القوات إلى الأمام واستولى على العاصمة "تشانج آن" في عام 23 م بعد أن قلمت أظافره على يد الإمبراطور الجديد، ومع سحق "وانج مانج" عين "ليو شيو" قائدًا للعاصمة، ولكن سرعان ما أرسل لتهدئة مختلف المناطق والمقاطعات العسكرية التي كانت تقع في ما يعرف اليوم بمقاطعة "هيبي"،

ونقل نظام "جينج شي" عاصمته من "لو يانج" إلى "تشانج آن" إلا أن الإمبراطور "ليو شوان" لم يتمتع بالطموح العالي، كما أنه لم يكن بارعًا في إدارة شؤون الدولة، وهكذا فقد حطم الاقتتال الداخلي داخل النظام آمال السكان في مجتمع سلمي وموحد، وكان أهم التحولات انقلاب جيش ذوي الحواجب الحمر ضده.

وفي الوقت نفسه كان "ليو شيو" يمد نفوذه تحت راية "هان" الغربية، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى قوة كل من النبلاء والبيروقراطيين، فألغى قوانين "وانج مانج" الاستبدادية، وأفرج عن السجناء وحتى عين مسؤولين من عهد "وانج مانج" الذي استسلم أمامه، ولم يفصل نفسه عن نظام "جينج شي" فحسب بعد هزيمة الزمرة الأقوى في "هيبي" بل عزز أيضًا قواته من خلال توحيد القوة الإقطاعية المحلية وإخماد انتفاضات الفلاحين، وفي الشهر السادس من سنة 25 م أعلن "ليو شيو" نفسه إمبراطورًا ولقب بـ"جوانج وو" في "هاو شيان" - إقليم"باي شيانج" الحالي بمقاطعة "هبي" - وبعد بضعة أشهر احتل مدينة "لو يانج" وسمي نظامه "جيان وو".

هذا كان بمثابة بعث لإمبراطورية "هان"، وأصبحت تعرف الآن باسم أسرة "هان" الشرقية نظرًا لأن عاصمتها "لو يانج" كانت تقع إلى الشرق من العاصمة السابقة "تشانج آن"، وسرعان ما أطاح جيش ذوي الحواجب الحمر بنظام "جينج شي" وإمبراطوره "ليو شوان" والذي زرع بعد ذلك بذور تدميره بفقدانه الانضباط وتحوله إلى سرقة سكان "تشانج آن"، وبعد استنفاد ما في المدينة، تركوها وبدؤوا يهيمون على وجوههم بلا هدف في جميع أنحاء "شان شي" و"قانسو" و"نينج شيا" و"هنان"، وأدى تساقط الثلوج الكثيف إلى وفاة الكثيرين من البرد والمجاعة، وعاد أولئك الذين نجوا إلى "تشانج آن"، حيث كان ينتظرهم الجيش الذي أرسله "ليو شيو"، حيث عانوا من خسائر فادحة وأجبروا على الاستسلام.

وبدأ "ليو شيو" من عام 26 ميلادية في القضاء على العديد من معارضيه

السياسيين، وإحياء الإنتاج الزراعي وتحقيق الاستقرار في النظام الاجتماعي. ونجح بعد عشر سنوات في إعادة توحيد البلاد، وأصدر أوامر بالإفراج عن العبيد وحظر سوء معاملة النساء منهم، كما أمر بإجراء تفتيش على نطاق البلد لاستصلاح الأراضي، وفي عام 30 م أعلن عن استئناف قانون ضرائب الواحد والثلاثين، حيث دفع الناس واحدًا وثلاثين جزءًا من دخلهم ضرائب، وهو النظام الذي كان متبعًا خلال عهد أسرة "هان" الغربية، وهذا لم يساعد فقط على تخفيف العبء على الشعب، ولكن أيضًا عزز نفوذه السياسي، كما أجرى تعدادًا للسكان في عام 39 م.

وخلال هذا العهد أصبح النبلاء غير منضبطين وزاد استبداد البيروقراطيين، وبعد أن تعلم الدرس الناتج عن حدوث ذلك فرض "ليو شيو" السلطة الإمبراطورية العليا، وعند انتهاء توحيد البلاد كان قد عين أكثر من 360 مسؤولًا رفيعًا، لكنه أجبرهم الآن على التقاعد وسعى لاستبدالهم وكثير منهم كانوا علماء، واتخذ أيضًا خطوات لإضعاف السلطة الإدارية للأمراء الثلاثة، وكبار المسؤولين في الحكومة (مستشار الإدارة المدنية، ومستشار الشؤون العسكرية والرقيب الأعلى)، كما قام بتوسيع الأمانة الإمبراطورية ووضعها تحت سيطرته المباشرة، واستعاد السلطة على ثلاث هيئات إشرافية كانت تعمل على الإشراف على سلوك جميع المسؤولين الحكوميين. وتم أيضًا تقسيم البلاد إلى ثلاث عشرة منطقة، كل واحدة منهم تحت إشراف رقيب كان يرفع تقاريره إلى الإمبراطور بالإضافة إلى كونه مسؤولًا عن مراقبة الشؤون المحلية.

وهكذا عزز "ليو شيو" حكمه، وأنشأ حكومة مركزية قوية. ومع ذلك فنظرًا لأنه كان من عائلة مؤثرة فقد كان جميع أنصاره من العائلات الأرستقراطية، وكان نظامه يعتمد على دعم النبلاء، وهو الوضع الذي كان من شأنه أن يسبب المتاعب لأسرة "هان" الشرقية في ما بعد.

نزاعات السلطة: بلاط النساء والخصيان

وإن كان من الصعب إنشاء نظام جديد فمن الأصعب الحفاظ عليه، وكان الأباطرة الأوائل في "هان" الشرقية يعرفون أن الأمراء والأميرات والمسؤولين والأقارب من العائلة المالكة حريصين على اكتساب السلطة لأنفسهم؛ لذلك حاولوا توطيد مناصبهم، وهنا لجأ "ليو شيو" إلى العلماء ليحلوا محل أولئك الذين ساعدوه على تأسيس النظام، وهكذا منع أفراد العائلة المالكة من الحصول على أي سلطة سياسية أو عسكرية رغم أنهم أعطوا أراضي.

وقد أثبت الإمبراطور "مينج" - خلف "ليو شيو" - أنه حاكم ذو قبضة حديدية، مما أدى إلى خفض عدد الأمراء إلى النصف، وفي وقت لاحق، عندما تولى الإمبراطور "تشانج" العرش، منح الأمراء والأميرات المزيد من الإقطاعات بفضل النمو الاقتصادي، ولكن أمرهم بالبقاء في العاصمة بدلًا من العودة إلى تلك الأراضي.

وكان كل أباطرة "هان" الشرقية الذين جاؤوا بعد ذلك لا يزالون أطفالًا عندما تولوا العرش، مما أتاح الفرصة لأقاربهم من النساء والخصيان للاستيلاء على السلطة، ففي عام 88 م عندما توفي الإمبراطور "تشانج".. خلفه الإمبراطور "هي" وكان يبلغ من العمر عشرة أعوام فقط، وتولت الإمبراطورة الأرملة "دو" جنبًا إلى جنب مع شقيقها "دو شيان" زمام السلطة، وبدأ عصر سيطرة النساء والخصيان على البلاط، وتولى أعضاء من أسرة "دو" الآن جميع المناصب العليا.

عندما بلغ الإمبراطور "هي" السن القانونية كان غير راضٍ للغاية عن الوضع، ولكنه كان معزولًا داخل البلاط الإمبراطوري ولم يتمكن من الثقة بأحد إلا بالخصيان، وكان واحد من هؤلاء الخصيان ويدعى "تشينج تشونج" هو الذي أخذ زمام المبادرة نيابة عنه سنة 92 م ومحت عصبة "دو" من الوجود، وأمر بعودة "دو شيان" إلى إقطاعيته وسرعان ما أُجبر على الانتحار، وطرد جميع أحفاد "دو" والمستشارين الآخرين من مناصبهم.

وقد تمت مكافأة "تشينج تشونج" بلقب الماركيز ومنح منصب الوزير العالي، وكانت هذه النقطة التي شهد بداية مشاركة الخصيان في إدارة البلاط الإمبراطوري.

وفي عام 105 م توفي الإمبراطور "هي" في سن السابعة والعشرين، وكان لزوجته الإمبراطورة "دنج" معرفة كبيرة بالقانون فقامت بتنصيب طفلها حديث الولادة "ليو لونج" كإمبراطور إلا أنه توفي في العام التالي، وخلفه "ليو يو" ابن شقيق الإمبراطور "هي" (الإمبراطور "آن")، وقد وازنت الإمبراطورة الأرملة "دنج" الآن بين مختلف دوائر السلطة من خلال تعيين العلماء المشاهير كوزراء، وكان لها أقارب من نساء البلاط الأخريات وضعتهن تحت المراقبة اللصيقة. وعينت الخصيان في المناصب الحكومية الاستراتيجية وضمنت تمتع أسرة "دنج" بالسلطة المطلقة.

توفيت الإمبراطورة "دنج" عام 121 م، وبدأ الإمبراطور "آن" يشترك في تسيير شؤون الدولة، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأت دائرته الداخلية بما في ذلك المرضعة الإمبراطورية "وانج شنج" وخدمه من الخصيان "لي ران" و"جيانج جينج" باتهام عائلة "دنج" زورًا بالتخطيط للانقلاب، وطردوهم خارج البلاط، وعين الإمبراطور أيضًا زوج شقيقته "يان شيان" في منصب رفيع، وهكذا كانت السلطة مؤقتًا في أيدي الخصيان ونساء البلاط من الأقارب، وكما هي الحال في المجتمعات الآسيوية الأخرى، كان الخصيان يستخدمون منذ فترة طويلة كموظفين ومديرين للحرملك في القصور، مما أعطاهم الفرصة للانغماس في الدسائس، كما احتل بعض الخصيان مناصب كبيرة داخل الإدارة الإمبراطورية، وتفاوتت قوة الخصيان من عهد إلى عهد خلال حكم أسرة "هان" ولكن في بعض الأحيان شغلوا مناصب إدارية قوية، وكانت سلطة الخصيان هي السبب الرئيس لسقوط أسرة "هان" الشرقية في نهاية المطاف، وعندما تُوفي الإمبراطور "آن" في سن الثانية والثلاثين عام 125 م، فعينت الإمبراطورة الأرملة "يان" وشقيقها "يان شيان" "ليو يي" (وهو واحد من أحفاد الإمبراطور

"تشانج") على العرش، على الرغم من أنه كان مجرد صبي.

تُوفي "ليو يي" بعد ذلك بوقت قصير، ثم حاولت الإمبراطورة الأرملة "يان" تنصيب طفل آخر على العرش لكنها فشلت.

ومرة أخرى حان دور الخصيان لاكتساب مزيد من السلطة، فقد قتلوا "يان شيان" ونصبوا "ليو باو" البالغ من العمر 11 عامًا إمبراطورًا عُرف باسم الإمبراطور "شون"، وأبعدوا الإمبراطورة الأرملة "يان" عن السلطة، في حين تم منح الخصيان جميعًا لقب ماركيز، وبالنظر إلى تزايد قوتهم لدرجة إصدارهم أوامر إمبراطورية مزورة فقد قام الإمبراطور "شون" بعكس الاتجاه مرة أخرى، وبدأ تعزيز قوة أقاربه من نساء البلاط، فعين "ليانج شانج" (والد زوجته) و"ليانج جي" (شقيقها) كجنرالات كبار؛ وبالتالي انتقلت السلطة عند وفاته بأكملها إلى عائلة زوجته، ونصبت الإمبراطورة الأرملة "ليانج" وشقيقها "ليانج جي" "ليو بن" البالغ من العمر عامين باسم الإمبراطور "تشونج"، ثم تلاه "ليو تزوان" البالغ من العمر ثماني سنوات باسم الإمبراطور "تشي"، وأخيرًا "ليو تشي" البالغ من العمر خمسة عشر عامًا باسم الإمبراطور "هوان"؛ وبما أنه كان صبيًّا ذكيًّا سابقًا لسنه فسرعان ما سممه "ليانج جي" واختار زوج شقيقته المستقبلي "ليو تشي" ليتولى منصب الإمبراطور، حتى حل عام 146 م، وصعد "ليو تشي" البالغ من العمر خمسة عشر عامًا العرش باسم الإمبراطور "هوان" وقد كان خاتمًا في أصبع عائلة "ليانج"، وفي أصبع "ليانج جي" بالتحديد.

احتل "ليانج جي" مساحات كبيرة من الأراضي المزروعة على طول جانبي النهر الأصفر، وأقام حديقة أرنب ضخمة غرب "لو يانج"؛ وكان قتل أي أرنب منها يعاقب عليه بالإعدام، كما أجبر عدة آلاف من الشبان والشابات من أسر الفلاحين على دخول عالم العبودية، في حين ارتكب أتباعه الفظائع في جميع أنحاء البلاد، ولم يستطع الإمبراطور "هوان" الذي كان بالغًا الآن أن يحكم السيطرة على السلطة إلا عام 159 م، عندما توفيت الإمبراطورة الأرملة "ليانج" بمساعدة من الخصيان، وقبض على "ليانج جي" وأجبره على الانتحار، وطرد

أكثر من ثلاثمائة مستشار من أتباعه، وأصبحت سلطة الدولة تحت سيطرة الخصيان مرة أخرى، والذين سرعان ما بدؤوا في إساءة استخدامها.

وهكذا بدءًا من عام 92 م تكرر النمط ذاته، يتولى الأباطرة الشباب العرش، ثم تتدخل الإمبراطورة الأرملة في شؤون الدولة بمساعدة آبائهن أو إخوتهن، وعندما يبلغ هؤلاء الأباطرة سن الشباب، يعتمدون على الخصيان للتخلص من تدخل الأقارب، وعلى مدى ستين عامًا، كانت هناك أربعة صراعات كبيرة بين الأقارب من المحظيات والخصيان، مع ربح الأخيرين للصراع كل مرة، وقد وصل الخصيان إلى قمة سلطتهم بين عهد قمع "ليانج جي" على يد الإمبراطور "هوان"، وصعود الإمبراطور "لينج" الذي استمر استبدادهم في عهده، وبالاستفادة من نظام التعيين الرسمي قاموا بترقية أفراد أسرهم إلى المناصب الرسمية واستولوا على السلطة القضائية، بما في ذلك المحاكم الكبرى، كما سيطروا على جيش الحامية في العاصمة، وبالتالي كانوا قادرين على إجبار الإمبراطور على إصدار أوامر لصالحهم، أو حتى إصدار أوامر إمبراطورية مزورة بأنفسهم.

وجاء عام 168 م، الذي تولى فيه الإمبراطور "لينج" البالغ من العمر اثنى عشر عامًا العرش، وتم إحباط محاولته انتزاع السيطرة من الخصيان، ونتيجة لذلك كان الإمبراطور الشاب تحت سيطرتهم أكثر من أي وقت مضى، وبوفاته كان أحد أقاربه الأقوياء ويدعى "هي جين" قد قام بمحاولة أخرى إلا أنه قتل، وأصبحت قوة الخصيان عاتية، ولكن هذا لم يكن مهمًا بالنسبة للشعب فسواء حكمهم الخصيان المستبدون أو أقارب الإمبراطور الفاسدون فقد عانوا بنفس الدرجة، وقد استنفد نظام "هان" الشرقي نفسه بسوء الاستغلال والجشع، وسقط في حالة من الاضمحلال.

سقوط أسرة "هان" الشرقية

ولد "ليو شيو"، مؤسس نظام "هان" الشرقية لعائلة قوية من ذوي الأملاك، وكان

أن تولى العرش بدعم من هذه الفئة، ونتيجة لذلك، زاد تأثيرهم بسرعة، ليس فقط من حيث امتلاك مساحات شاسعة من الأراضي، ولكن أيضًا عن طريق سلسلة من أنظمة الاختيار الرسمي - نظام "تشاجو" ونظام "تشينج بي" ونظام "رين تزي" - الذي سمح لهم بالحفاظ على امتيازاتهم السياسية الخاصة.

اتسم نظام "تشاجو" بتركيزه على العلاقات العائلية، وقد مورس منذ عهد الإمبراطور "وو"، حيث كان معظم المتقدمين مرؤوسين من الموظفين الإقليميين ومسؤولي البلاط أو العلماء؛ وبهذه الطريقة فقد مثل سُلَّمًا اجتماعياً للضباط أو العلماء منخفضي الدرجة يستطيعون الترقي عن طريقه، ومنذ عهد الإمبراطور "وو"، قام نظام "تشينج بي" على التعيينات في المناصب الرسمية بأمر من الإمبراطور أو من قادة المقاطعات والمقاطعات العسكرية، كما صمم نظام "رين تزي" وطبق منذ عهد أسرة "هان" الغربية لتعيين أبناء المسؤولين للعمل في البلاط.

ووفقًا للوثيقة المعنونة "لوائح اختيار المسؤولين في أسرة هان"، فقد كان أولئك الذين يكسبون كمية معينة من الأرز ويعملون لأكثر من ثلاث سنوات يحق لهم أن يحصلوا على توصيةلأبنائهم بالعمل كضباط. إلا أنه خلال عهد أسرة "هان" الشرقية أزيلت هذه القيود بحيث يحق للموظفين ذوي الرتب الدنيا الحصول على الامتياز نفسه، وأدى ذلك حتمًا إلى عدد كبير من الفصائل السياسية التي جعلت من السهل على ذرية الأسر ذات النفوذ العثور على وظائف رسمية، ويعني أن السلطة غالبًا ما انتشرت في أجيال الأسرة، وقد خلق هذا الخطر الخفي في قلب أسرة هان الشرقية.

وعلى مدى هذه الفترة، أنشأت الحكومة المركزية كلية إمبراطورية كما أقيمت مدارس رسمية خاصة بالمقاطعات في جميع أنحاء البلاد أيضًا، وكان كثير ممن انخرطوا في سلك التعليم العالي من أبناء كبار المسؤولين الذين عملوا بجد للمساهمة في مختلف مدارس الفكر الكونفوشيوسي، وكانت مجموعة التلاميذ كبيرة وشملت أفرادًا من الأسرة المالكة؛ وذلك نظرًا لإمكانية أن يصبح مسؤولًا

عن طريق دراسة الكونفوشيوسية الكلاسيكية، وكانت هناك أيضًا أسر أصبحت معروفة بإنتاج جيل بعد جيل من المسؤولين الجديرين بمناصبهم.

وبدءًا من أواخر عهد أسرة "هان" الشرقية كانت السيطرة على السلطة الإمبراطورية في يد أقارب العائلة المالكة من نساء البلاط والخصيان بالتبادل من وقت "ليو تشي" (الإمبراطور "هوان")، الذي عين الخصيان للقضاء على "ليانج جي"، وقد احتكر الخصيان الإدارة الإمبراطورية لأنهم أصبحوا يشغلون الآن معظم الوظائف الرسمية، وأجبر علماء الكونفوشيوسية وطلاب الكلية الإمبراطورية على التوحد مع البيروقراطيين لمعارضة سيطرتهم على السلطة. وقد لقبت هذه المجموعة نفسها بـ"النهر النظيف" وأطلقوا على الخصيان لقب "النهر العفن"، وهاجموهم وأتباعهم حيث إن "لى يينج"، وقد كان أكثرهم حزمًا، أمر القبض على "ت شانج شو" وهو شقيق الأصغر لأكثر الخصيان قسوة "تشانج ران"، وقدمه للمحاكمة ثم أعدمه.

سبب هذا الأمر صدمة داخل مجموعة الخصيان، وأسفر عن تكريم "لي يينج" وآخرين من طلاب الكلية الإمبراطورية.

ثم في عام 166 م، استفز الخيميائي "تشانج تشينج" ابنه لقتل رجل. وقد تجاهل "لي يينج" الذي كان مسؤولًا عن القضية العفو الذي صدر له وأعدم القاتل فورًا.. تسبب هذا بضجة كبيرة، واستغل الخصيان الفرصة لإطلاق اتهام كاذب ضد "لي يينج" بقيامه بـ"تشويه البلاط الإمبراطوري والتسبب في تأثير معنوي سيئ"، مما دفع الإمبراطور "هوان" إلى اعتقال أكثر من مائتي شخص، من بينهم "لي يينج" وأجبروا على مغادرة العاصمة، ومنعوا من العمل مرة أخرى كموظفين.

وبحلول عام 168 م توفي الإمبراطور "هوان" وصعد "ليو هونج" العرش بلقب الإمبراطور "لينج"، فأعاد "لي يينج" إلى منصبه فبدأ مرة أخرى يخطط مع زملائه المسؤولين للبحث عن طريقة تساعدهم في القضاء على مجموعة

الخصيان.. وللأسف، تم اكتشاف أمرهم، وأعدم الجميع، ليس فقط "لي يينج" وأتباعه، بل أيضًا آباؤهم وإخوتهم وطلابهم ومرؤوسوهم، وهكذا أحكم الخصيان قبضتهم على نظام "هان" الشرقي تمامًا، إضافة إلى ذلك أضافت الكوارث الطبيعية مزيدًا من البؤس على الشعب؛ ففي 147 م، وهي السنة الأولى من عهد الإمبراطور "هوان"، سادت المجاعة منطقتي "جينج تشو" و"يانج تشو" وقضى الكثيرون جوعًا، وفي عام 153 م، أصاب وباء من الجراد والفيضانات الكارثية اثنتين وثلاثين مقاطعة ومحافظة عسكرية، مما أثر على معيشة ما يقرب من 100.000 أسرة، وبحلول عام 166 م، عادت الفيضانات والجفاف، وعانى السكان معاناة شديدة.. أما في عام 170 م، وهي السنة الثالثة من عهد الإمبراطور "لينج"، أصبحت المجاعات حادة لدرجة أن البعض لجأوا لأكل لحوم البشر.

وبالنظر إلى أن الاستغلال كان منتشرًا أكثر من أي وقت مضى، بدأت نذر العاصفة السياسية تتجمع؛ ففي الشهر الثاني من عام 184 م، بدأ "تشانج جياو" وهو زعيم طائفة السلام العظمى الداوية دعوة سرية للثورة، واستجاب مئات الآلاف من الفلاحين الغاضبين ولقبوا أنفسهم جيش العمائم الصفر تبعًا للون أغطية رؤوسهم.

انتشرت الانتفاضة بسرعة ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الفلاحون يسيطرون على مساحة ضخمة من الأراضي على طول الضفة الشمالية لنهر الـ"يانج تسي"، ودبَّ الذعر في البلاط الإمبراطوري وحشد الإمبراطور "لينج" جميع قواته للدفاع عن العاصمة، وأصدر قرارًا بإطلاق جميع المحبوسين من العلماء والمسؤولين من أجل الحد من الصراع داخل طبقة الملاك، وبذل أصحاب الأملاك المؤثرين قصارى جهدهم لتعبئة قواتهم المحلية من أجل التعامل مع جيش الفلاحين الغازي، فتم القضاء تمامًا عليهم بحلول الشهر العاشر من نفس العام بسبب عدم تنظيمهم وتناحرهم.

وبعد وقت قصير من ذلك، اندلعت الصراعات بين الطبقات الحاكمة بعد

تراجعها لفترة من الوقت، ففي 189 م توفي الإمبراطور "لينج"، ونصب القائد العام "هي جين" شقيق الإمبراطور الأكبر الأمير "ليو بيان" على العرش بلقب الإمبراطور "شاو"، ولم تمضِ فترة طويلة حتى بدأ "هي جين" و"يوان شاو" - وهو قائد عسكري إقليمي - بالتخطيط لتدمير الخصيان.

وأمر "دونج تشو" الذي كان يسيطر على "هي دونج" - مقاطعة "شانشي" في جنوب غرب الصين - وكان يمتلك جيشًا كبيرًا، ليأتي إلى العاصمة كدعم، ولكن قبل وصول "دونج تشو" تسربت المعلومات إلى الخصيان، الذين نصبوا كمينًا قتل فيه "هي جين"، وردًّا على ذلك، هاجم "يوان شاو" القصر بقواته وذبح أكثر من 2000 من الخصيان منهيًا حكمهم.

وبعد ذلك بوقت قصير قاد "دونج تشو" قواته إلى العاصمة، حيث قتل جنوده واغتصبوا ونهبوا طريقهم عبر المدينة، وباستغلال الصراعات داخل الطبقة الحاكمة، سرعان ما كان جيش العاصمة تحت إمرته، فخلع الإمبراطور "شاو" ونصب مكانه "ليو شي" البالغ من العمر تسع سنوات بلقب الإمبراطور "شيان"، وبدأ بإصدار المراسيم باسم الإمبراطور؛ ونظرًا لأنه لم يكن يقيم اعتبارًا لأحد، ثار العديد من اللوردات في جميع أنحاء البلاد ضده.

في هذه اللحظة لم تعد أسرة "هان" الشرقية موجودة إلا بالاسم، وازدادت القوة العسكرية لكثير من المناطق والمقاطعات العسكرية الأخرى، وأصبح أمراء الحرب المحليون حريصين على توسيع مجالات سيطرتهم، وقد تعرضت الصين مرة أخرى لخطر الانهيار.

العلاقات الخارجية خلال عهد أسرة "هان"

الزواج يجلب السلام لما وراء سور الصين العظيم

عانى مزارعو السهول الوسطى من إزعاج قبائل البدو في الشمال، وكان البدو رعاة يسعون خلف المياه والمراعي لماشيتهم، وبفضل أسلوب حياتهم، كانوا عمومًا فرسانًا ممتازين ورماة ماهرين، وفي تناقض حاد مع المزارعين في السهول الوسطى كان البدو يميلون إلى السرقة؛ لأنهم لم ينتجوا السلع بأنفسهم، وعنت هذه الاختلافات ألا مفر من الصدام، ويمكن تتبعها إلى عهد أسرة "شانج" (1600- 1046 قبل الميلاد) فانطلاقًا من البيانات المكتشفة من أطلال "يين" في عام 1899، أجبر الحكام مرارًا على محاربة الغزاة من قبائل "جي فانج" و"تو فانج" و"تشيانج فانج" من المنطقة الشمالية الغربية أو الشمالية، وفي وقت لاحق، كانت "شيونج نو" هي التي قادت هذه الصراعات، وهي قبيلة بدوية عاشت على المراعي القديمة في منغوليا خلال فترات الربيع والخريف والدول المتحاربة (770-221 قبل الميلاد)، وكثيرًا ما نشرت "شيونج نو" الفوضى في المنطقة ما بين السهول الوسطى والجنوب؛ مما أدى إلى بناء سور الصين العظيم خلال عهد "تشين".

ومع ذلك، فشل سور الصين العظيم في دحر "شيونج نو". ففي السنوات الأولى من عهد أسرة "هان" الغربية، قاموا بغارات على السهول الوسطى تحت قيادة "تشانيو مودو"، وهزموا "ليو بانج" في جبل بايدنغ هزيمة محرجة. وفي وقت لاحق، اضطر "ليو بانج" إلى إرسال إحدى أميرات عائلته للزواج من زعيم قبيلة "شيونج نو" مع كميات كبيرة من المال والسلع، وتحت قيادة الإمبراطور "وو" بنت الإمبراطورية سلاح فرسانها، مما أدى إلى نجاح أكبر في صد هجماتهم إذ سرعان ما تراجعت "شيونج نو" جنوبًا، وأدت الهزيمة التي ألحقها بهم كل من "وي تشينج" و"هو تشو بينج" - وهما القائدان الرئيسان لجيوش أسرة "هان" - إلى إعادة توطينهم في صحراء جوبي الشمالية مما تبعه فترة طويلة من السلام.

توفي "تشان يو هيولوي - جوانكوي" في عام 60 قبل الميلاد، وبعد ذلك دخل خمسة من زعماء "شيونجنو" في صراع على السلطة استمر حتى لم يتبقَّ سوى

اثنين فقط: "هو هان يي" وشقيقه "تشي تشي"، ولقلقه من أن يتحالف "تشي تشي" مع أسرة "هان" وحده أرسل "هو هان يي" ابنه إلى العاصمة "تشانج آن" ليعلن ولاءه لهم وبالتالي هزم "تشي تشي" بمساعدة هان.



وزار "هو هان يي" بنفسه "تشانج آن"

عام 33 قبل الميلاد واقترح أن يعزز صداقته مع أسرة "هان" من خلال الزواج،

معلنًا أنه يرغب في أن يصبح صهر الإمبراطور، وافق الإمبراطور "يوان" على

هذا على الفور، ونشر بين سيدات البلاط أن كل من كانت على استعداد للزواج

من زعيم "شيونج نو" سينعم عليها الإمبراطور بلقب أميرة، وتسبب هذا بضجة

من الإثارة فقد كان الجميع يتوقون إلى ترك الحريم الإمبراطوري، ولكن ثمن

الزواج من زعيم "شيونج نو" كان ببساطة عاليًا جدًّا بالنسبة لمعظمهن، إلا

سيدة واحدة تقدمت وأعلنت استعدادها لذلك، وكان اسمها "وانج تشاو

جون" (انظر الشكل 13).

الشكل (13): لوحة عن زواج "وانج تشاو جون" خارج السور العظيم. رسمها الفنان الحديث "ني تيان" وهي الآن محفوظة في متحف القصر الموجود بالمدينة المحرمة ببكين.

وكان اسم "وانج تشاو جون" الحقيقي "وانج تشيانج"، وكانت من مواليد "تزي جوي" في مقاطعة "هوبي"، ووفقًا لإحدى الحكايات المتوارثة، كانت والدتها تصلي في معبد القرية، وحلمت تلك الليلة بأن القمر الساطع قد سقط في بطنها، ثم أنجبت فتاة دعتها بمحبة بالقمر المشرق، وكان والدها المسن يعاملها معاملة اللؤلؤ الثمين، وحيث إنها ولدت في عائلة من المتعلمين تعلمت "وانج"

أشغال الإبرة من والدتها والموسيقى من والدها، وكانت ذكية دؤوبة وتتمتع بالكياسة، كانت متعلمة، ضليعة في الشعر، إضافة إلى تمتعها بالجمال منقطع النظير.

في عام 36 قبل الميلاد، أصدر الإمبراطور "يوان" أمرًا بجمع الفتيات الجميلات لحريمه، وبطبيعة الحال، كانت "وانج تشاو جون" على القائمة، ولكن بمجرد أن دخلت البلاط بقيت في الحريم ولم تُستدع مطلقًا لحضرة الإمبراطور على الرغم من جمالها وذكائها، وكان هناك سبب لذلك؛ ففي ذلك الوقت، كان رسام البلاط الذي يُدعى "ماو يان شو" يرسم صورة لكل سيدة، وعندما يختار الإمبراطور واحدة منهن عندها فقط يرتب أمر اجتماعهما، وقد استفاد "ماو يان شو" من هذا الامتياز لابتزاز المال من النساء، وكانت معظمهن على استعداد للدفع بسخاء لتصور في شكل مناسب، وكانت تلك حال معظم النساء لا جميعهن إذ رفضت "وانج تشاو جون" رشوة الرسام الذي عاقبها بإضافة دمل إلى وجهها، ونظرًا للاعتقاد بأن الدمامل تسبب وفاة أحد الزوجين، فقد بقيت لمدة خمس سنوات وحيدة ومهجورة في البلاط دون أن تلمح الإمبراطور.

لهذا السبب كانت متشوقة للزواج من رئيس "شيونج نو"، الذي عاملها بشكل طبيعي وأعطاها لقب "سيدة "شيونج نو" الأولى التي جلبت السلام والسعادة إلى الأمة"، وبعد ذلك بوقت قصير أنجبت ابنًا إلا أن زوجها "هو هان يي" توفي بعد ثلاث سنوات، وأصبح "ديوتاو موجاو" الابن الأكبر لـ "تشان يو هو هان يي" هو الحاكم الجديد الذي يسمح له العرف بالزواج من محظية والده، ولكن هذا كان ضد أخلاق شعب "هان"؛ لذلك أرسلت "وانج تشاو جون" التماسًا إلى بلاط "هان" متوسلة ليسمح لها بالعودة إلى وطنها، ولكن الإمبراطور "يوان" كان قد مات أيضًا، فأمرها الإمبراطور الجديد باتباع عرف "شيونج نو"، وبعجزها عن فعل شيء أصبحت زوجة "تشان يو" الجديدة. وعاشا معًا أحد عشر عامًا أنجبا فيها ابنتين، تزوجتا في وقت لاحق من نبلاء "شيونج نو".

عاشت "وانج تشاو جون" مع شعب "شيونج نو" لعقود من الزمن، ولم تتكيف

فقط مع حياة البراري بل أصبحت نشطة سياسيًا ولعبت دورًا مهمًّا في الحفاظ على السلام وتعزيز التبادل الاقتصادي والثقافي بين الشعبين، فعلمت النساء تقنيات الغزل والنسيج وعملت معهن جنبًا إلى جنب، وأحبها الجميع بشدة.

واليوم، على ضفاف النهر الأسود العظمى في الضاحية الجنوبية لـ"هوهوت"في منغوليا الداخلية ذات الحكم الذاتي، يقف قبر "وانج تشاو جون"، الذي بناه شعب "شيونج نو" في ذكراها.

رحلات "تشانج تشيان" إلى المناطق الغربية:

كانت المناطق الغربية عالمًا من الغموض لشعب السهول الوسطى خلال السنين المبكرة من عهد أسرة "هان"، وبدأت هذه المناطق من "يو مين" و"يانج جوان" مرورًا بـ"قانسو" شاملة "شينج يانج"، وآسيا الوسطى وما بعدها، وبدت بعيدة ويصعب الوصول إليها لأن "شيونج نو" شكلت حاجزًا لا يمكن تجاوزه على طول الطريق.

وبحلول عام 140 قبل الميلاد تولى الإمبراطور "وو" عرش "هان"، وكان عازمًا على الانطلاق أكثر نحو الغرب، وقد سمع من أحد أفراد شعب "شيونج نو" الذين استسلموا أن في شمال غرب الصين عاشت مجموعة عرقية تسمى المناجل الهندية وقد هزموا على يد "شيونج نو" وتحولت جمجمة زعيمهم إلى كأس للنبيذ، وعند سماع هذا، قرر الإمبراطور "وو" إرسال رسل لزيارتهم، وهي مهمة تبدو مستحيلة وربما قاتلة، وكان الرجل الذي تقدم ليخوض التحدي هو"تشانج تشيان"، حيث انطلق عام 138 قبل الميلاد مع فريق مكون من أكثر من مائة شخص، بما في ذلك دليل من "شيونج نو" يسمى "تانج يي فو" وهو فارس ورامٍ ماهر، ومع ذلك سرعان ما رصدتهم قوات "شيونج نو"، وأسرتهم.

وبعد احتجازه، أجبر "تشانج تشيان" على الزواج من امرأة من "شيونج نو" لكنه لم يتخلَّ عن مهمته، وبعد عشر سنوات، تمكن هو و"تانج يي فو" من الفرار وانطلقا عبر البر والبحر، متغلبين على جميع أنواع المصاعب، مارين عبر الدول

القديمة في آسيا الوسطى وفرغانة و"سوجديانا" حتى وصلوا أخيرًا إلى مقصدهم - هنود المناجل الذين كانوا قد هزموا السكان الأصليين في وادي نهر أمو في آسيا الوسطى واستقروا هناك، كانت التربة خصبة، والحيوانات ترعى والغذاء والملابس وفيران - ولكنهم لم ينسوا تمامًا أعداءهم القدامى، قوم "شيونج نو".

بعد عام في المناطق الغربية، غادر "تشانج تشيان" متبعًا طريق الجنوب لتجنب اكتشاف أمره على يد "شيونج نو"، إلا أن ذلك كان دون جدوى، فتم القبض عليه مرة أخرى واحتجز لأكثر من عام، وأخيرًا تمكن من الفرار مع "تانج يي فو" مرة أخرى في عام 126 قبل الميلاد، وعندما وصل إلى الوطن أخيرًا، منحه الإمبراطور "وو" لقب سيد القصر الأعلى، وأعطى لقب المبعوث النائب لـ"تانج يي فو"، وبالرغم من فشلهم في مساعدة المناجل على مهاجمة "شيونج نو"، فقد توغلوا في عمق المناطق الغربية، وجلبوا أخبارًا عن جغرافيتها ومواردها الطبيعية وعادات شعوبها، فكانت لدى أسرة "هان" الآن معرفة ليس فقط بهذه المناطق، بل بأماكن أبعد من ذلك مثل الهند.

في عام 121 قبل الميلاد، هزم جيش "هان" شعب "شيونج نو" ودفعهم إلى الشمال في الصحراء، في مقاطعة "قانسو" الحالية، محررين بذلك ممر "هي شي"، وهو ممر مهم من وسط الصين إلى "شينج يانج".

كان الطريق إلى المناطق الغربية سالكًا الآن، وبعد ذلك بوقت قصير نصح "تشانج تشيان" الإمبراطور "وو" بدعوة شعب "وو سون" للعودة إلى أراضيهم الأصلية في الممر، وقطع الذراع اليمنى لـ"شيونج نو" بشكل فعال، فخلال فترة وجوده في الأسر، اكتشف "تشانج تشيان" أن "ووسون" قد انتقلوا نتيجة للصراع مع المناجل، فحث الإمبراطور على رشوتهم للعودة ومساعدة جيش "هان" على حماية المنطقة الواقعة غرب النهر الأصفر.. وهكذا في عام 119 قبل الميلاد، أمر الإمبراطور "وو" "تشانج تشيان" بشد الرحال إلى المناطق الغربية مرة أخرى، مع وفد دبلوماسي مكون من 300 شخص.

بعد رحلة صعبة، وصل "تشانج تشيان" إلى "وو سون" كمبعوث ليكتشف أنهم انقسموا الآن إلى ثلاثة فصائل، لم يكن أي منها قويًا بما فيه الكفاية ليجرؤ على مواجهة "شيونج نو" في عقر دارهم، إلا أنهم أرسلوا هدايا إلى بلاط "هان" الإمبراطوري في "تشانج آن".

خلال عهدي الإمبراطورين "وو" و"تشاو" وضعت أسرة "هان" حاميات في ما يعرف اليوم بمقاطعتي "كورلا" و"لونتاي" في "شينج يانج"، وفي وقت لاحق، شكلت حامية المناطق الغربية، وعندما استولى "وانج مانج" على السلطة، قام بتخفيض رُتب جميع الملوك الغربيين، مما وتر العلاقات بين بلاط "هان" والقبائل العرقية الغربية، وهكذا انتهزت "شيونج نو" الشمالية الفرصة ودخلت مرة أخرى إلى المنطقة وأحكمت سيطرتها عليها حتى عام 73 م، حين أرسل الإمبراطور "مينج" جيشًا للقضاء عليهم بقيادة الجنرال "دو جو" الذي عين رجلًا موهوبًا اسمه "بان تشاو" مبعوثًا إلى المناطق الغربية وتكللت مهمته بنجاح كبير، وهكذا في عام 91 م، عين "بان تشاو" قائدًا عامًّا لحامية المناطق الغربية، وفي 94 م، فرض سيطرته على "يان شي" - محافظة "يان شي هوي" ذاتية الحكم الحالية في "شينج يانج" - وبعد الخلاص من تهديد "شيونج نو" أصبحت جميع القبائل العرقية الآن رسميًا تابعة لأسرة "هان" الشرقية.

بحلول هذا الوقت، أقامت أسرة هان علاقات دبلوماسية مع جميع دول وسط وغرب آسيا، وفي عام 97 م، أرسل "بان تشاو" "جان يينج" مبعوثًا إلى الإمبراطورية الرومانية، لكنه لم يصل إلا إلى الخليج الفارسي، حيث عرقلته مملكة "أن شي" (بارثيا)، التي أرادت الحفاظ على احتكارها للتجارة، بتحذيرات حول الصعوبات "التي لا يمكن التغلب عليها" في بقية الطريق وفي نهاية المطاف، أجبر على العودة إلى دياره، ولكنه كان أول مبعوث صيني مسجل إلى الخليج الفارسي، ولعبت رحلته دورًا مهمًّا في تاريخ التعاون المتبادل بين الصين والغرب.

وفي الشهر الثامن من عام 102 م، بعد مهمة طويلة وناجحة استمرت لأكثر من واحد وثلاثين عامًا، عاد "بان تشاو" إلى "لويانج"، حيث توفي، ولم يكن "رن شانج" خلفه بذات كفاءته، ونتيجة لذلك هوجمت إمبراطورية "هان" باستمرار من دول المناطق الغربية، وكانت تلك الشعوب التي كانت على الأرجح أسلاف مجموعة "تشيانج" العرقية اليوم قد شنَّت حربًا ضد "هان" الشرقية، وقطعت الطريق إلى الغرب، وفي عام 126 م، عينت حكومة هان "بان يونج"، ابن "بان تشاو"، كمسؤول دائم للمناطق الغربية على أمل إعادة فتحه مرة أخرى. وبعد ثلاث سنوات، بعد أن حشد كل القوات المسلحة للدول الغربية التابعة، هزم "شيونج نو" الشمالية، وعادت المناطق الغربية مرة أخرى إلى سيطرة "هان" الشرقية (انظر الخريطة 5).



خريطة (5): منطقة نفوذ أسرة هان والمقاطعات المجاورة لها.

طريق الحرير

يرتبط طريق الحرير بـ"تشانج تشيان" ورحلته إلى المناطق الغربية؛ ولكن في الواقع يعود تاريخه إلى ما هو أقدم من ذلك بكثير، وكان أول زعيم يجول في هذه المناطق على الأرجح هو الملك "مو" من أسرة "تشو" في القرن العاشر قبل الميلاد، حيث بدأ من "شيان" في مقاطعة "شانشي" ليصل في نهاية المطاف إلى "قيرجيزستان" في آسيا الوسطى، وكان الحرير الهدية الرسمية التي قدمها لجميع الدول التي زارها.

ووفقًا للعديد من الاكتشافات الأثرية الحديثة، كان طريق الحرير مستخدمًا بدءًا من القرن الخامس قبل الميلاد، من الشاطئ الشمالي للبحر الأسود عبر السهول التركية والتلال الكازاخستانية، وحوض "دزونجار"، والمنحنى العظيم للنهر الأصفر ومراعي الهضبة المنغولية؛ وهو طريق ذكره المؤرخ اليوناني هيرودوت بشكل غامض.

قبل "تشانج تشيان" بفترة طويلة، كان البدو الرُّحل من الهضبة المنغولية بمثابة رسل من الشرق والغرب، ومن خلال الحروب أو الوسائل الأخرى حصلوا على كميات كبيرة من منتجات الحرير من السهول الوسطى وأخذوها إلى المناطق الغربية لمبادلتها بالسلع الأخرى.

وجاءت الجهود التي بذلها "تشانج تشيان" في وقت لاحق لتكون بمثابة فتح الطريق أمام هذه المناطق، مما بشر بعصر جديد من الاتصالات بين الصين والأراضي الأجنبية، فجال الأميرات والنبلاء وحتى المتسولون والسجناء هذا الطريق، وبفضل الانتصارات العديدة التي حققتها أسرة "هان" الغربية، أقامت الحكومة الصينية مقاطعات ومقاطعات عسكرية جديدة على طول ممر "هي شي"، كما تم إرسال قوات كحامية لتوفير السلامة والراحة، وبنيت استراحات وبيوت على طول الطريق، كما بدأت العديد من الولايات في المناطق الغربية الآن في إقامة اتصالات مع إمبراطورية "هان"، وهكذا ازدهر طريق الحرير في المنطقة الشمالية الغربية، ونتيجة لذلك تشكل اثنين من طرق الحرير تدريجيًّا.

ووفقًا لـ"سيرة المناطق الغربية" في تاريخ أسرة "هان"، بدأ طريق الحرير من "تشانج آن" العاصمة مارًّا بممر "هي شي"، حيث انقسم إلى الطريقين الشمالي والجنوبي، وبدءًا من "دون هوانج"، اتجه الطريق الجنوبي باتجاه الغرب نحو ممر "يانج جوان"، مرورًا بما يعرف اليوم بـ"لوب نور" إلى "كرورينا" على طول جبال "أل جين" و"كون لون" متجهًا نحو الجنوب الغربي أولًا ثم إلى الغرب على طول الجانب الجنوبي لصحراء "تاكليماكان".. وهنا، اكتشفت قبائل جديدة بما في ذلك "خو تان" و"شا تشي" و"شول"؛ ليمر بعد ذلك بـ"بامير" ثم إلى الهند، تليها باكستان ويتحول غربًا مرة أخرى ليصل إلى المناجل و"بارثيا" والجمهورية السلوقية وأخيرًا الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

أما الطريق الشمالي فيتجه غربًا نحو "دون هوانج"، ثم عبر ممر "يو مين" و"جو شي" على طول جنوب جبال "تيان" والحافة الشمالية لصحراء "تاكليماكان"، عابرًا "كوتشا" و"جومو" و"شول"، ثم ينضم لمسافة قصيرة إلى الطريق الجنوبي قبل عبور "بامير" و"فرغانة" و"سوجديانا" و"بارثيا" والجمهورية السلوقية، ثم يصل أخيرًا إلى الإمبراطورية الرومانية.

كان الطريق الجنوبي هو الأول من الطريقين، وأصبح عبوره أكثر سلاسةً بعد أيام "تشانج تشيان"، أما الطريق الشمالي فدخل حيز الاستخدام بعد صعود الإمبراطور "شوان" إلى العرش.

كما كان هناك طريق حرير جنوبي غربي في الواقع في ما يعرف اليوم بمحافظات "سيتشوان" و"يونّان"، فقد سجلت حكاية هندية مكتوبة من القرن الرابع قبل الميلاد أن منتجات الحرير قد دخلت الهند منذ فترة طويلة.. ومع ذلك، لم يعرف هذا الطريق ويزدهر حتى بعد سنة 105 قبل الميلاد بشكل عام، وكان هذا هو العام الذي أمرت فيه أسرة "هان" العديد من الجنود والعمال بحفر طريق "بو نان" إلى مكان غرب بحيرة "إر هاي"، بدءًا من "تشينج دو" ومارًّا بـ"يونج شانج"، مؤديًا إلى الهند الحالية واستمر من هناك إلى البحر الأبيض المتوسط.

وبالإضافة إلى النقل البري، تم تصدير عدد كبير من منتجات الحرير الصينية إلى آسيا الوسطى وغرب آسيا وأوروبا وأماكن أخرى عن طريق البحر، على طول ما أصبح يعرف باسم طريق الحرير البحري، وكان هناك طريقان رئيسان: أحدهما من بحر الصين الشرقي والآخر من بحر الصين الجنوبي.

كان طريق بحر الصين الشرقي قيد الاستخدام في وقت مبكر من حقبة الدول المتحاربة (475-221 قبل الميلاد)، وخلال هذا الوقت، بدأ الناس من ولايتي "تشي" و"يان" السفر إلى كوريا، مصطحبين معهم ديدان القز وتكنولوجيا صنع الحرير، وفي وقت لاحق عندما وحد "تشين شي هوانج" الصين وخاصة خلال مرحلة الفوضى التي شهدتها أسرة تشين في وقت لاحق والسنوات الأولى من حكم أسرة "هان" هرب الناس من ولايات "تشي" و"يان" و"تشاو" الساقطة إلى كوريا مع دود القز، وتسارع انتشار التكنولوجيا، كما وصلت أيضًا إلى اليابان، فوفقًا للحكايات، كان "تشين شي هوانج" هو الذي أرسل "شو فو" إلى اليابان مع طاقم سفينة وعمال مهرة وعدد كبير من البنين والبنات الأبكار، وبسبب إدخاله دودة القز إلى بلدهم، لقب اليابانيون "شو فو" بإله دودة القز.

أما على طول طريق بحر الصين الجنوبي، فقد أرسل الإمبراطور "وو" من أسرة هان المبعوثين والتجار الذين سجلت طرق ملاحتهم في كتاب تاريخ أسرة "هان"، بدءًا من وسط فيتنام اليوم أو "هي بو" الحالية في مقاطعة "جوانجدونج"، مستمرًا بطول الساحل الشرقي لشبه جزيرة الهند الصينية، وبعد خمسة أشهر وصلوا إلى "دو يوان" -مدينة "راش جيا" الحالية في جنوب فيتنام - في دلتا نهر الـ"مي كونج"، وبعد أربعة أشهر أخرى، وصلوا إلى "ناخون باثوم" الحالية بتايلاند، وقضوا عشرين يومًا في السفر على طول شبه جزيرة الملايو للوصول إلى ما يعرف الآن بـ"براتشواب" في تايلاند، ومن هناك، ساروا لمدة عشرة أيام قبل الوصول في نهاية المطاف إلى بورما، وعند ركوب القارب مرة أخرى، أبحروا غربًا في المحيط الهندي لأكثر من شهرين، وهبطوا أخيرًا على الساحل الجنوبي الشرقي للهند، وهو أبعد ما وصل إليه الصينيون عن

طريق البحر (انظر الخريطة 6).

خريطة (6): طريق الحرير أثناء فترة حكم أسرة "هان".

الفصل السادس

التطورات العلمية والثقافية والفلسفية

في ظل أسرة "هان"

المقدمة

وحدت أسرة "تشين" الدولة سياسيًا واعتبرت هذه الوحدة مثالية في نظر الأسر اللاحقة، أما خليفتها أسرة "هان"، فقد خلقت الثقافة المادية والإطار العقلي أو الروحي الذي استمر في الإمبراطورية الصينية في وقت لاحق، وينسب الفضل لأسرة "هان" قبل كل شيء في اختراع الورق، والذي كان تمهيدًا لاعتماد تقنيات الطباعة ونشر الكونفوشيوسية وغيرها من أشكال العلوم.

والآن بعد أن أصبح الوخز بالإبر والجوانب الأخرى من الطب الصيني شائعة تقريبًا في الغرب، فغالبًا ما ينسى كونها مستهجنة على يد ممارسي الطب الغربي الحديث، وقد أنشئ نظام معقد من العلاج عن طريق العلاجات العشبية والإبر وحرق الموشا التي تطورت خلال فترة "هان" وتطورت على مر القرون.

وقد تجاهل العلماء الغربيون العلوم والتكنولوجيا الصينية أو استخفوا بها حتى كشف عن العلم والحضارة الضخمة المتعددة الطبقات في الصين، وهو نتاج مشروع بدأه ووجهه في مراحله الأولى إلى حد كبير العالم والجيولوجي المنتمي لجامعة كامبريدج "جوزيف نيدهام"، ومنذ ذلك الحين، كان من المستحيل تجاهل إنجازات المفكرين العلميين في الصين، بل كان هناك خطر الإفراط في التعويض ونسبة الاكتشافات الصينية التي حدثت أيضًا في أماكن أخرى في الثقافات العربية أو الهندية على سبيل المثال.

كان من الصعب فصل الفلسفة والدين في عهد أسرة "هان"، حيث تقوم الطاوية وهي تقليد أصلي يعتمد الفلسفة الطبيعية، على أساس قبول حاجة البشر إلى تكييف أنفسهم وفقًا لقوانين الكون، وأنتجت قانون الأدب الفلسفي والحركات الدينية الشعبية التي شملت البحث عن الخلود وسياسات عدم التشكيل، أما البوذية القادمة من الهند، فاتفقت جيدًا مع معتقدات الطاوية، وتطور رجال الدين البوذيون والمعابد والأديرة البوذية على نحو منفصل، إلا أنه وجدت أيضًا مجموعات تجمع بين التقليدين. وبالنسبة للنخبة، كان النظام الرئيس للاعتقاد هو الكونفوشيوسية، وهي فلسفة محافظة في الغالب وكانت أيضًا بمثابة دين الدولة وتطلبت طقوسًا معينة ودراسة النصوص الرئيسة لتعزيز التماسك الاجتماعي.

رعى البلاط والنخبة الحاكمة المتعلمة الفن ذا القيمة الدائمة، وقد تركوا لنا نماذج من السيراميك تمثل صورة دقيقة للمساكن المحلية والمزارع وكذلك المعابد والقصور والتماثيل الجميلة المصنوعة من الحجر والبرونز التي تم الحفاظ عليها، كما وصل مستوى النحت على اليشم إلى مستوى عالٍ من التطور، وخاصة في الدروع التي غطت أجساد الأرستقراطيين بعد وفاتهم، وكانت اللوحات ذات قيمة عالية، وخاصة اللوحات المرسومة على الحرير التي جرى تداولها في جميع أنحاء آسيا، وزينت الجداريات الداخلية للمقابر والقصور.

العلوم والتكنولوجيا عند أسرة "هان"

اختراع الورق

تم العثور في عام 1972م على أكثر من 7 آلاف قطعة من شرائح الخيزران في قبر يعود لعصر أسرة "هان" الغربية في مدينة "لين يي" بمقاطعة "شاندونج"، كما عثر أيضًا في عام 1975م على 1.155 قطعة مكتوبًا عليها من شرائح الخيزران من قبر يعود لعصر أسرة "تشين" على مشارف محافظة "يون منج"،

وتم اكتشاف أول مخطوطة على الحرير في عام 1942م في قبر يعود لعصر "تشو" القديم في "تشانج شا" بمقاطعة "هو نان"، وقد أشارت هذه الاكتشافات إلى أن مواد الكتابة لعبت دورًا مهمًّا في الحياة في ذلك الوقت.. ومع ذلك، فإن المشكلة كانت أن النص المكتوب على الخيزران أو الخشب يصعب الحفاظ عليه، وكانت هذه المواد مرهقة أيضًا عند النقل والقراءة، حيث يقاس الخيزران بحمل العربة، ولا يكفي حمل خمس عربات إلا عددًا قليلًا من الكتيبات خفيفة الوزن، أما الكتب التي تم نسخها على الحرير فكانت سهلة النقل، ولكنها كانت مكلفة ولا يستطيع تحمل كلفتها سوى الأرستقراطيين أو كبار المسؤولين، ولذلك بدأ البحث عن بديل رخيص ومريح، وكان الجواب اكتشاف الورق.

ومن غير المعروف متى اخترع الورق أو على يد من، ففي عام 1933م، تم العثور على قطعة من الورق القديم المنتجة في القرن الأول قبل الميلاد في أطلال تعود لعهد أسرة "هان" في "شينج يانج"، وفي عام 1986م، عثر على قطعة من الورق القديم تحتوي على خريطة في قبر في رمال "فانج ما" في مقاطعة "قانسو"، ويعتقد أن تاريخها يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ويظهر هذا أن الورق الذي يمكن استخدامه للكتابة والرسم قد اخترع خلال عهد أسرة "هان" الغربية.

وكانت الصين من أوائل البلدان التي اكتشفت سر تربية دودة القز، وأدت عملية الطهي وغسل الشرانق إلى منتج ثانوي (حصيرة من الخيزران مكونة من طبقات متراكمة من الألياف يمكن استخدامها للكتابة بمجرد تجفيفها)، ولكن عند تقسيمها إلى صفحات أصبحت رقيقة جدًّا لتتحمل الحبر السميك المستخدم، ولكن العمل مع الشرانق من الدرجة الثانية تطلب الضرب المتكرر والهرس، مما جعل المنتج الثانوي أصلح للاستخدام كورق.

كان اسم "تساي لون"، وهو خصي من أسرة "هان" الشرقية، قد ترافق اسمه كمكتشف لهذه العملية.

ولد في "جو يانج" - "ليانج" الحالية في مقاطعة "هونان" - لأسرة من الفلاحين العاديين، لكنه كان بارعًا وذكيًا، وتعلم القراءة والكتابة من سن مبكرة، وفي سن الخامسة عشرة، تم اختياره ليكون من بين خصيان القصر.

كان يعمل بجد، وسرعان ما ترقى إلى مختلف المناصب رفيعة المستوى، وفي البلاط، كانت الإمبراطورة "دينج سوي" تفضل القراءة والكتابة على الذهب والفضة، وطالبت بتوفير الحبر والورق؛ لذلك كان "تساي لون" عازمًا على إبهارها.. كانت صناعة الورق علمًا موجودًا بالفعل ولكن الناتج كان ورقًا رديء النوعية رفضه العلماء بشكل كبير، وكانت هذه فرصة "تساي لون" لتحسين العملية. في ذلك الوقت، كان مديرًا للمصانع الإمبراطورية والمسؤول عن الإشراف على إنتاج الأدوات المختلفة للمنزل الإمبراطوري؛ لذا كان يعمل بانتظام مع الحرفيين، وألهم هؤلاء الحرفيون "تساى لون" لاختراع نوع جديد من الورق، ليس من الحرير والخيط هذه المرة بل من مواد مثل اللّحاء وقماش القنب والخرق وشبكات الصيد القديمة، وكانت الورقة الجديدة رخيصة وعملية، ومن مصادر وفيرة. وكان "تساي لون" يجرب الجديد باستمرار، مما جعله يكتشف اكتشافات كبيرة في عملية الإنتاج، مثل استخدام ماء الجير مما ساعد على كسر الألياف النباتية، وكانت ورقته الجديدة خفيفة الوزن، ولكنها قوية وشديدة التحمل، وأخيرًا في عام 105 م، قدم بعض منتجاته الجديدة عالية الجودة إلى الإمبراطور "هي" من أسرة "هان"، وأعجب الإمبراطور جدًا بهذا المنتج وأمر فورًا أن جميع الورق ينبغي أن يتم صنعه بهذه الطريقة، وفي عام 114 م، أعطي "تساي لون" لقب ماركيز جناح التنين، وبدأ الناس يدعون المنتج الجديد "ورقة الماركيز تساي".

وكان استخدام "تساي لون" للحاء الشجر كمادة خام تمهيدًا للتصنيع الحديث للُبّ الورق وفتحت الباب أمام تطوير الصناعة، وظلت تقنيته قيد الاستخدام حتى استبدلت صناعة الورق يدويًا بالصناعات الآلية على الرغم من أنها لا تزال تستخدم مبادىء صناعة الورق يدويًا حتى اليوم، فقبل "تساي لون"، كانت

صناعة الورق مجرد منتج ثانوي لصناعة الغزل والنسيج، ولكنها الآن أصبحت صناعة قائمة بذاتها، واستبدلت شرائح الخيزران والخشب والحرير بالورق، وسرعان ما انتشر استخدامه مباشرة عبر المجتمع الصيني، ومن هناك انتشر في جميع أنحاء العالم.

الطب الصيني التقليدي

خلال عهدي "تشين" و"هان"، أنشأ العديد من الخبراء الطبيين مجتمعين ملخصًا لتطبيق الطب الصيني، وفي نهاية المطاف، خلال عهد أسرة "هان" الشرقية، ظهر عمل بعنوان المواد الطبية لـ"شين نونج" (أو مجرد ماتيريا ميديكا)، والذي كان الأول من نوعه.. كان يطلق عليه أيضًا دليل الأعشاب، فكما هي الحال في الصين القديمة كانت معظم الأدوية من النباتات، وقد أعطى وصفًا مفصلًا لمختلف الخصائص الدوائية والآثار لنحو 365 عقارًا تم تقسيمها إلى ثلاث فئات وفقًا لفعاليتها، وكانت الأدوية ذات الدرجة العالية، التي يبلغ عددها 120 عقارًا، غير سامة في المقام الأول ولكنها مغذية، وإذا استخدمت لفترة طويلة، كانت تساعد في إطالة الحياة، وتضمنت الفئة الثانية 120 دواء آخر تتراوح سُميته بين الصفر والسُّمية المنخفضة، وكان معظمها مغذيًا وعلاجيًا، ولكن لا يمكن أن يؤخذ لفترة طويلة جدًا، وكانت الأدوية الـ 125 الأخيرة سامة، ولا يمكن أن تؤخذ لفترات طويلة، وعلى الرغم من بساطته فهذا النوع من التصنيف يوفر مجموعة آمنة وفعالة من الأدوية، وقد ثبتت صحة العديد من استخداماتها منذ ذلك الحين.

وإضافة إلى أن هذا العمل الدوائي قد وضع الأسس الرئيسة للطب الصيني التقليدي، فقد قدم أيضًا وصفًا مفصلًا للعلاقة بين الأدوية الأولية والثانوية ومدى توافقها، وأيضًا مقدمة مفصلة لوظيفة وطعم كل منهم، فعلى سبيل المثال، سرد أنواع الـ"تشي" (الجواهر) الأربعة من بارد وساخن ودافئ ورطب، والـ"وي" (الأذواق) الخمسة من حمضي ومر وحلو، و"شين" (النفاذ الساخن والمر)، والمالح في تشخيص المرض، وصفت العقاقير اعتمادًا على طبيعة

المرض، سواء كان باردًا أو ساخنًا أو رطبًا أو جافًا، فيتم علاج مرض بارد بدواء ساخن، والعكس، ويمكن الجمع بين بعض الأدوية لتحقيق تأثير أكبر، في حين أن البعض الآخر سوف ينتج عنها آثار جانبية شديدة إذا ما استخدمت معًا، أو توقف تأثير بعضها بعضًا.

ومع تطور الطب، ظهر العديد من العلماء البارزين. وقيل إن "تشونيو يي" وهو طبيب من أوائل عهد أسرة "هان" الغربية كان قادرًا على التنبؤ بما إذا كان الإنسان سيعيش أو يموت، كما عاش "لو هو"، وهو طبيب بارز في عهد أسرة "هان" الغربية في وقت لاحق وكان مشهورًا في جميع أنحاء العاصمة، ومع ذلك، كان أبرز الأطباء من أسرة "هان" الشرقية هما "تشانج تشونج جينج" و"هوا تو".

وكان "تشانج تشونج جينج" المعروف أيضًا باسم "تشانج جي"، من مواطني "نان يانج".

ولد في أسرة ميسورة وكان يحق له أن يعمل كموظف لكنه اختار بدلًا من ذلك أن يكون طبيبًا، وفي وقت لاحق، عندما تم تعيينه ليكون حاكمًا لمحافظة "تشانج شا" العسكرية قال إنه لا يزال يخدم الشعب العادي كطبيب مُتيحًا نفسه للاستشارات الطبية في منزله في اليوم الأول والخامس من كل شهر، وهي الممارسة التي عرف بها الصيادلة والأطباء في ما بعد بـ"الجالسين في القاعة"، وعاش في السنوات المضطربة لحكم أسرة "هان" الشرقية أيام انتفاضة ذوي العمائم الصفراء، وكان أمراء الحرب يقاتلون بعضهم بعضًا بشكل مستمر، وكان العوز والتشرد شائعًا، وأدى إلى طاعون فظيع تسبب في مقتل ثلثي أسرة "تشانج"، وقد تقاعد "تشانج" نفسه من منصبه الرسمي ولزم منزله، شاغلًا وقته بجمع وتصنيف مختلف الوصفات الشعبية وطرق العلاج، بينما ما زال يبذل قصارى جهده للتخفيف من الصعوبات التي يواجهها السكان المحليون.

وفي نحو عام 201 م، نشر كتابه الكلاسيكي في الطب السريري بعنوان "رسالة عن الحميات والأمراض المتنوعة"، والذي سجل 375 وصفة و214 عقارًا، وقسم العلماء هذا المؤلف في ما بعد إلى كتابين: كتاب "عن الحميات" و"موجز لوصفات الغرفة الذهبية"، وشمل الجزء الأول التشخيص والعلاج بشكل عام، استنادًا إلى تحليل شامل للأعراض والعلامات بعد تلخيص المسببات - دراسة أسباب الأمراض - ونظرية القنوات والضمانات -التي يتم من خلالها تدوير الطاقة الحيوية - التي وجدت في "قواعد الإمبراطور الأصفر للطب الباطني"، وشرح أساليبه الأربعة للتشخيص، كما صنف أيضًا مجموعة متنوعة من الأعراض المعقدة إلى ثماني متلازمات رئيسة - الين واليانج والخارجية والداخلية والحرارة والبرودة والنقص والفائض - كما أعطى مبادئ لعلاج الأمراض المختلفة، أما في "ملخص وصفات الغرفة الذهبية"، قدم أكثر من أربعين مرضًا وأسبابها، ودعا إلى الوقاية حيثما كان ذلك ممكنًا ونقَّحَ وصفات الأعمال السابقة. كما أنه وضع أيضًا العديد من الوصفات الجديدة بنفسه، وهكذا اشتهر بأنه أبو الوصفات الطبية، وكانت "الرسالة عن الحمى والأمراض المتنوعة" الكتاب الأول في العالم لتلخيص التجربة السريرية وتقديم الدواء والعلاج معًا.

وقد عاصر "تشانج تشونج جينج" جراحًا مميزًا اسمه "هوا تو"، ولد لعائلة من المفكرين خلال العام الأخير من عهد أسرة هان الشرقية، وسمى نفسه "يوان هوا"، وكان موطنه الأصلي في محافظة "تشياو" - محافظة "بو" الحالية بمقاطعة "آنهوي" - وبعد انخفاض مستوى عائلته، كدح "هوا تو" الشاب بجد في دراسته، التي ضمت الكتب الطبية القديمة، ولاحقًا اختار حياة الطبيب على أن يكون من المسؤولين، ومن خلال الدراسة المستمرة والممارسة، أتقن عددًا كبيرًا من الوصفات التي كانت أكثر فعالية من تلك التي يصفها الأطباء الآخرون، وكان بارعًا في الطب الباطني والجراحة وطب الأطفال والوخز بالإبر، وقد قيل إن مهارته في الوخز بالإبر كانت رائعة لدرجة أنه أمكنه علاج الأمراض بعدد قليل من الإبر، وفي مجال الجراحة، كان إسهامه الرئيس اختراع

"مفيسان" وهو المخدر عن طريق الفم، وكان أول طبيب في العالم يقوم بعمليات استئصال باستخدام العقاقير المخدرة لتخدير المريض قبل أن يستخدمها أي شخص في أوروبا بألف وستمائة عام، ووفقًا لكتاب "تاريخ أسرة هان الشرقية"، وذلك باستخدام مخدر الـ"مفيسان" حيث يفتح صدر وبطن المريض لإزالة الأجزاء المتضررة، وفي بعض الأحيان، يستأصل الأمعاء المريضة، ويخيط الأجزاء السليمة معًا ويدهن الأدوية العشبية لتعزيز التئام الجروح، وهكذا عرف باسم أبي الجراحة.



يعتقد "هوا تو" أن ممارسة الرياضة البدنية يمكن أن تقوي الجسم، وتعالج الأمراض وتطيل

الحياة، فقام بتجميع مجموعة من التمارين الرياضية المعروفة باسم "ملاكمة الحيوانات الخمسة" (النمر والغزال والدب والقرد والطيور) (انظر الشكل 14).

الشكل (14): لوحة توضح حركات يوجا "داو ايست" خلال فترة حكم أسرة "هان". تم العثور عليها عام 1974 في مقبرة رقم 3 بـ"ما وانج دوي" بمقاطعة "هونان"..

وانتهت حياة "هوا تو" نتيجة لرفضه العمل كطبيب خاص لأمير الحرب "تساو تساو"، مما أدى لقتله، وتقول الأسطورة إنه قد أنهى عملًا في الطب بعنوان كتاب الممارسة الطبية، الذي يحتوي على كامل معرفته وخبرته، وطلب من السجان الحفاظ عليه، ولكن الأخير لم يجرؤ على قبول طلبه واضطر "هوا تو" لحرقه؛ ولحسن الحظ، كان تلاميذه قد سجلوا بعض تعاليمه، التي نجحوا في تسليمها للأجيال التالية.

الرياضيات والفلك

بحلول عام 78 م، ولدت موهبة علمية استثنائية باسم "تشانج هنج". وكان

مواطنًا من "نان يانج" في "هنان"، وسمى نفسه "بينج تزي"، ولد في عائلة أرستقراطية وتلقى تعليمًا جيدًا لكنه غادر بيته مسافرًا عندما كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة، منتقلًا إلى "تشانج آن" ثم "لو يانج"، وانغمس في الدراسة، ليس فقط للكلاسيكيات الكونفوشيوسية، ولكن الفنون الستة (الطقوس، والموسيقى، والرماية، والتسلية، والقراءة والكتابة، والحساب)، ومجموعة واسعة من التخصصات الأخرى بما في ذلك الفلك، والجغرافيا، والتقويم، لم يصبح فقط شاعرًا عظيمًا، بل كان أيضًا فلكيًا، وجغرافيًا، ورياضيًا، ورسام خرائط، ورسامًا، وأصدر البلاط الإمبراطوري عام 111 م، بتجميع المواهب، وهنا اكتشف "تشانج هنج"، وسرعان ما كان يجري الأبحاث حول الأجرام السماوية، وقال إن الكون بيضاوي الشكل، وإن الأرض مثل صفار البيض معلقة في مركزه وإن الكون يدور حول الأرض مرة واحدة كل يوم.

في عام 115 م، كان "تشانج هنج" مسؤولًا عن الشؤون الفلكية والتقويم، وصمم إسطرلابًا سماويًا يعكس بوضوح صورة الكرة السماوية، وفي 118 م، بعد أن كشف عن سخافة العرافة الداوية وقيود اللاهوت، شرح شكلًا من أشكال الفلسفة المادية التي أعرب عنها في نهاية المطاف في كتاب "الدستور الروحي للكون".

وبصرف النظر عن مساهماته الكبيرة في علم الفلك، فقد كان "تشانج هنج" مخترعًا بارعًا، ففي عام 121 م، استخدم نظام التروس يعمل بالمياه لا لإنشاء عربة تشير إلى الجنوب فحسب، بل أيضًا أول عداد للمسافات.

يمكن العثور على الإشارات إلى "مؤشر الجنوب" - البوصلة - في نصوص "هان" وقد تكون اختلطت مع "عربة الإشارة للجنوب" التي لا علاقة لها بالمغناطيسية، ولكن أدرجت كنظام من المعدات المستخدمة للحفاظ على المؤشر في اتجاه ثابت مهما كانت طريقة النقل، كما قدم إسهامًا رئيسًا في مجال الزلازل خلال عهد أسرة "هان" الشرقية، حيث كانت الزلازل متكررة، حيث ابتكر عام 132 م أول جهاز رصد زلازل في العالم من البرونز الممتاز واتخذ شكل زجاجة النبيذ

الصينية، وكان قطرها ثمانية تشي (0.25 متر)، وفي الداخل آلية متطورة تتكون أساسًا من دعامة مركزية تحيط بها ثماني مجموعات من العتلات، تم تركيب ثمانية تنانين في الخارج وفي فم كل منها كرة برونزية صغيرة، وتحت كل منها كان ضفدع مفتوح الفم، وعندما يحدث الزلزال، فإن العمود يميل، مشغلًا الرافعة المتصلة بفم التنين الذي يواجه اتجاه الزلزال مما يطلق سراح الكرة البرونزية لتقع في فم الضفدع محدثة صوتًا، وهكذا تشير إلى وقت الزلزال والاتجاه الذي حدث فيه.

ووفقًا للسجلات التاريخية، كانت هذه الأداة دقيقة وحساسة، ففي عام 138 م، وقع زلزال في غرب "قانسو"، على بعد نحو 500 كيلو متر من العاصمة "لو يانج"؛ فأخرج الجهاز كرة نحاسية، مما يدل على وقوع زلزال في الشمال الغربي، على الرغم من أن أحدًا شعر به في "لويانج" نفسها، ومن ثم فإن "تشانج هينج" معترف به على نطاق واسع كمؤسس علم الزلازل؛ فلم يكن حتى عام 1748 أن بدأت أدوات مماثلة تظهر في أوروبا.

وكانت التطورات في العلم والتكنولوجيا انعكاسًا للأزمنة، فعلى مدى حكم أسر "تشين" و"هان" الشرقية والغربية، شجعت الطبقة الناشئة من الملاك الفلاحين على الزراعة، والنسج، وتنفيذ العديد من المشاريع الأخرى بما في ذلك الري والتعدين وبناء سور الصين العظيم. مما أدى لمعرفة الناس لقدر كبير من المعرفة الرياضية ببساطة من خلال الاستخدام المستمر، وخلال عهد أسرة "هان" الشرقية ظهر عمل بعنوان "تسعة فصول عن الفن الرياضي"، والذي كان موجزًا شاملًا للمعرفة الرياضية الصينية القديمة.

تضمن الكتاب 246 مشكلة رياضية فعلية وقسمها إلى تسعة فصول: الحقول المستطيلة والدخن والأرز والتوزيع النسبي والعرض الأقل والمشاورات على الأعمال والضرائب العادلة والفائض والعجز والمصفوفة المستطيلة والقاعدة والارتفاع.

فالفصل المتعلق بالمجالات المستطيلة يتعلق بحساب المساحة، إلى جانب إدخال منهجي للجمع والطرح والضرب وتقسيم الأرقام الكسرية، وتحويل الأرقام المختلطة إلى كسور غير سليمة، وطرق البحث عن مضاعفات أقل شيوعًا لعدة مقاسمات. وتناول الفصل المتعلق بالدخن والأرز أنواعًا مختلفة من تبادل الأغذية، في حين تناول الفصل المتعلق بالتوزيع النسبي والضرائب العادلة توزيع الضرائب والرسوم الجمركية، وفي الفصل المتعلق بالفائض والعجز، تم حل المشكلات الخطية باستخدام المبدأ المعروف لاحقًا في الغرب باسم "قاعدة الموقف الكاذب" - ودعي بالخوارزمية الصينية على يد الأوروبيين، والفصل الذي يتناول اتساعًا أقل وصف التقسيم بأرقام مختلطة، واستخراج جذور المربع والمكعب والأبعاد والمساحة وحجم الدائرة والمجال، وتناول الفصل المتعلق بالمشاورات المتعلقة بالأشغال على وجه التحديد مشكلات الهندسة المدنية، مثل المشاكل التي صودفت في أثناء إنشاء التحصينات والقنوات، كما تناول الفصل المتعلق بالقاعدة والارتفاع نظرية فيثاغورس وتشابه المثلثات الزاوية، كما طرح طريقة حسابية للمعادلات التربيعية وهي أول خوارزمية من هذا القبيل في العالم، وبعد دراسة الحلول باستخدام طريقة المعادلة بالتفصيل، حل الفصل على مصفوفة المستطيل من خلال إدخال مفهوم الأرقام الإيجابية والسلبية وخوارزمياتها المعدلة.

وكان كتاب "تسعة فصول على الفن الرياضي" إنجازًا بارزًا، فالقاسم المشترك، والحد من جزء وقوانين الجمع والطرح والضرب والقسمة كانت جميعًا مذكورة قبل أن تذكر في أوروبا بحوالي 1400 سنة، كما تم اكتشاف نظرية النسبة في وقت سابق ولم تظهر أساليب مماثلة في أوروبا حتى القرن الخامس عشر، وكانت طريقة الحصول على جذور المربع والمكعب مماثلة لتلك المستخدمة اليوم، وكانت هذه هي القاعدة الأولى في العالم لحساب الجذر التربيعي للأرقام والكسور متعددة الأرقام، ووضعت الصين في طليعة الجبر المتقدم لفترة طويلة، واستخدمت طريقة معامل الفصل لتمثيل المعادلات الخطية المتزامنة، أي ما يعادل المصفوفات اليوم؛ والقسمة على التوالي المستخدمة

فـي حـل المعـادلات الخطيـة فـي وقـت واحـد هـو نفـس التحـول الابتـدائي للمصفوفة، وكان هذا أول حل كامل في العالم للمعادلات الخطية المتزامنة، والتـي لـم تظهر فـي الغـرب حتـى القرن السابع عشر، وأدخلت أيضًا الأرقام السلبية، وكـانت قواعـد إضـافة وطرح الأرقـام الإيجابيـة والسلبية هي نفس القواعد المستخدمة اليوم عند حل المعادلات الخطية في وقت واحد، كما تم استخدام الضرب والقسمة من الأرقام الإيجابية والسلبية، وكان هذا تقدمًا كبيرًا؛ لم تكن الأرقام السالبة معروفة خارج الصين حتى القرن السابع، واقترح العمل أيضًا صيغًا مساحية لمجموعة متنوعة من المضلعات والدوائر وشرائح الدائرة.

بُني كتاب: "الفصول التسعة على الفن الرياضي" على الإنجازات الرياضية في فترة ما قبل "تشين"، ويعد جوهرة العمل الجماعي على يد عدة أجيال من العلماء، فقد شكل نظام الرياضيات الصينية القديمة، التي قام عليها الكثير من العمل الرياضي في المستقبل.

حالة الأفكار في عهد أسرة هان

ازدهار الطاوية

وبينما ازدهرت كل من البوذية والإسلام والمسيحية في الصين فلم ينشأ أي منها فيها على عكس الطاوية، والتي نشأت عن المزج بين الثقافة التقليدية الصينية القديمة والدين، ويمكن أن ترجع جذورها إلى عهد أسر "شانج" و"تشو" (1600-256 قبل الميلاد)، عندما كان السحر سائدًا واعتمد الناس على العرافة، وكان السحرة هم وكلاء الله على الأرض.

ضعفت هذه المعتقدات تدريجيًا بانحدار أسرة "تشو"، وانخفض وضع السحرة، ولكن السحر احتفظ بتأثيره على حياة الناس اليومية وشكل أساس الطاوية.

تتحدث الكلاسيكيات قبل عهد "تشين" عن الخلود وعوالم القصص الخيالية

الجميلة، وفي ولايتي "يان" و"تشي" القديمتين كان هناك خيميائيون يعتقدون أن تحقيق الخلود ممكن. ومع ذلك، فدون تمكنهم من وضع نظرية منهجية، فقد استخدموا قدراتهم لمجرد تحقيق منافعهم الخاصة. وفي حقبة الدول المتحاربة (770-221 قبل الميلاد)، قدم "زو يان" - وهو مواطن من "تشي" - نظريات الين واليانج والعناصر الخمسة لشرح فن الخيمياء، ووضعها في دين بعنوان "فانجشيان داو" - حيث تعني "فانج" "التقنية" و"شيان" "الخالدة"- وكان هذا الشكل الأول من الطاوية، ونضجت "فانجش يان داو" وتطورت، مدفوعة بحماسة الحكام الذين اجتذبتهم فكرة الحياة الأبدية.

ولم تمضِ فترة طويلة حتى أرسل "تشين شى هوانج" "شو فو" عبر البحار مع عدة آلاف من الأطفال الأبكار بحثًا عن إكسير الحياة، وخلال حقبة الدول المتحاربة، أصبحت الأساطير القائمة على مبدأ "هوانج لاو" أكثر وأكثر شعبية، وبالنظر إلى أن سقوط أسرة "تشين" يعزى إلى القانونيين، فقد اختار حكام أسرة "هان" الغربية مبدأ "عدم التدخل" كمبدأ توجيهي، مما أدى تدريجيًا لحصول عقيدة "هوانج لاو" على مزيد من النفوذ؛ لذا بدأ الخيميائيون في نسج العقيدة في فنهم الخاص، ودمجها بالمشاعر الدينية، وتميز الإمبراطور "وو" عن غيره بهوسه الشخصي بالسعي إلى الخلود، فعلى مدى فترة حكمه، سمع اقتراحات لعشرة آلاف من الخيميائيين وأرسل العديد من البعثات للعثور على ذلك الإكسير، وبحلول عهد أسرة "هان" الشرقية، جاء "ليو يينج" - أمير "تشو" وابن الإمبراطور "جوانج وو" - ليقدس عقيدة "هوانج لاو" وإلهها "لاو تزي".. وهكذا اندمج مذهب "هوانج لاو" مع "فانج شيان داو" وتطورا معًا إلى الطاوية.

كما كانت هناك أيضًا أسباب اجتماعية وسياسية لظهور الطاوية، حيث كان هدفها النهائي هو الخلود الذي لا يتحقق إلا بعيش حياة صارمة زاهدة، وكانت أسرة "هان" الشرقية مضطربة وتفاقم الفساد السياسي وازداد استغلال الملاك للمزارعين بسبب الكوارث الطبيعية، وبالتالي فإن غالبية العمال كانوا يحتاجون إلى الراحة الروحية وكانوا حريصين على الهروب من ظروفهم البائسة، وفي

الوقت نفسه، من أجل الحفاظ على مصالحهم الخاصة ووضع حد للأزمة الاجتماعية، سعت الطبقة الحاكمة إلى الخلود. وكان كل من الطبقتين يتوق إلى قوة خارجية من شأنها أن تغير الواقع، وفي ظل هذه الظروف بدأت الطاوية تنتشر في جميع قطاعات المجتمع.

وفي أيامها الأولى، انقسمت الطاوية إلى فصيلين كبيرين هما: طائفة مكاييل الأرز الخمسة وطائفة السلام الكبرى، وكان المعلم الصوفي "جان تشون كه" قد انتهى من كتاب "الطبعة الكاملة من كلاسيكيات السلام العظيم" في وقت مبكر من عهد الإمبراطور "تشينج" خلال عهد أسرة "هان" الغربية، مشيرًا إلى أن الخالد الأعظم "تشي جينج تزي"، قد أرسل من السماء لتعليمه الحقيقة؛ والحقيقة هي أن الملك لا تعينه السماء، ولكن يمكن أن يكون أي شخص، وكان هذا بطبيعة الحال غير مقبول لأعضاء الطبقة الحاكمة، الذين يعتقدون بالأفكار الأرثوذكسية الكونفوشيوسية، ولم يمر وقت طويل حتى أعدم "جان تشون كه".

وبحلول عهد الإمبراطور "شون" قدم "جونج تشونج" وهو مواطن من "لانجيا" -مدينة "ليني" الحالية في مقاطعة "شاندونج" - التماسه إلى البلاط.

كان يعرف باسم "عريضة كتاب السلام العظيم" أو "كلاسيكيات السلام العظيم"، وكان أول الكتب الكلاسيكية الطاوية في الصين، وأوضح كيف يمكن تشغيل الدولة باستخدام نظرية الين واليانج والعناصر الخمسة، ودعا الناس إلى وجوب أن يبذلوا قصارى جهدهم إما بالاعتماد على الذات أو تقاسم ثرواتهم مع الفقراء، ووقع هذا الكتاب في السنوات الأخيرة من عهد أسرة "هان" الشرقية في يد "تشانج جياو"، الذي كان يؤمن بمذهب "هوانج لاو"، فاستخدمه في تأسيس طائفة السلام العظيم، وأعلن نفسه "سيد الفضيلة"، وبفضل سمعته في وصف العلاجات الصحية بالمياه المقدسة والترانيم جمع في نهاية المطاف بضع مئات الآلاف من الأتباع المؤمنين.

في الوقت نفسه، بدأت طائفة مكاييل الأرز الخمسة أيضًا في الازدهار، وكان مؤسسها "تشانج لينج"، المعروف أيضًا باسم "تشانج دو لينج" قد ولد في محافظة "فنج" بإقليم "جيانج سو"، وكطالب في الكلية الإمبراطورية كان على دراية جيدة بالكلاسيكيات الكونفوشيوسية الخمسة، وعين خلال عهد الامبراطور "مينج" رئيسًا لمحافظة "جيانج تشو" في ما يعرف اليوم ببلدية "تشونج تشينج"، ثم تعلم نظرية الطاوية على جبل "هو مينج" - في مقاطعة "سيتشوان" اليوم - في عهد الإمبراطور "شون" وأنشأ مجموعة عبدت "لاو تزي" منصبًا نفسه عليها كمعلم أعلى، وبدأ مستخدمًا كتاب "تاو تي تشينج" كمصدر إلهام رئيس بكتابة دراسة من أربعة وعشرين فصلًا ادعى أن "لاو تزي" قد أملاها عليه بنفسه، وفي أثناء تبشيره بعقيدته طلب "تشانج لينج" من تلاميذه أن يعطوه خمسة مكاييل من الأرز ومن هنا جاء اسم الطائفة، ومنذ ذلك الحين، بشر تلاميذه به على أنه "سيد السماوات"، وهو اللقب الذي ورثه أحفاده والذي أعطى الطائفة اسمها البديل أيضًا، وبعد وفاة "تشانج لينج"، واصل ابنه "تشانج هنج" عمله وتبعه كذلك ابنه "تشانج لو".

انتشرت طائفتا السلام العظيم ومكاييل الأرز الخمسة في البداية بين الناس العاديين؛ وتأثر كلاهما بكتاب "كلاسيكيات طاوية السلام العظيم".

عكست تعاليم الطاوية المبكرة رغبات الجماهير العاملة وعبرت عن مفهوم بسيط للمساواة وأدانت الاستغلال على يد طبقة الملاك، ولذلك وجدت دعمًا كبيرًا بين الفلاحين وكانت مؤثرة في انتفاضات الفلاحين في وقت لاحق. وفي عام 184 م، عندما وقعت انتفاضة ذوي العمائم الصفر، نظم "تشانج جياو" 30000 من تلاميذه مقسمًا إياهم إلى ستة وثلاثين وحدة عسكرية تسمى "فانج"، وعلى الرغم من أن الانتفاضة قد فشلت في غضون تسعة أشهر، إلا أن آثارها استمرت لأكثر من عقد من الزمان، فقد كانت ضربة قوية لأسرة "هان" الشرقية، التي كانت موجودة بعد ذلك فقط بالاسم، وخلال هذه الفترة، بذل "تشانج لو" قصارى جهده لدمج قوات كل من طائفتي السلام العظيم ومكاييل

في الوقت نفسه، بدأت طائفة مكاييل الأرز الخمسة أيضًا في الازدهار، وكان مؤسسها "تشانج لينج"، المعروف أيضًا باسم "تشانج دو لينج" قد ولد في محافظة "فنج" بإقليم "جيانج سو"، وكطالب في الكلية الإمبراطورية كان على دراية جيدة بالكلاسيكيات الكونفوشيوسية الخمسة، وعين خلال عهد الامبراطور "مينج" رئيسًا لمحافظة "جيانج تشو" في ما يعرف اليوم ببلدية "تشونج تشينج"، ثم تعلم نظرية الطاوية على جبل "هو مينج" - في مقاطعة "سيتشوان" اليوم - في عهد الإمبراطور "شون" وأنشأ مجموعة عبدت "لاو تزي" منصبًا نفسه عليها كمعلم أعلى، وبدأ مستخدمًا كتاب "تاو تي تشينج" كمصدر إلهام رئيس بكتابة دراسة من أربعة وعشرين فصلًا ادعى أن "لاو تزي" قد أملاها عليه بنفسه، وفي أثناء تبشيره بعقيدته طلب "تشانج لينج" من تلاميذه أن يعطوه خمسة مكاييل من الأرز ومن هنا جاء اسم الطائفة، ومنذ ذلك الحين، بشر تلاميذه به على أنه "سيد السماوات"، وهو اللقب الذي ورثه أحفاده والذي أعطى الطائفة اسمها البديل أيضًا، وبعد وفاة "تشانج لينج"، واصل ابنه "تشانج هنج" عمله وتبعه كذلك ابنه "تشانج لو".

انتشرت طائفتا السلام العظيم ومكاييل الأرز الخمسة في البداية بين الناس العاديين؛ وتأثر كلاهما بكتاب "كلاسيكيات طاوية السلام العظيم".

عكست تعاليم الطاوية المبكرة رغبات الجماهير العاملة وعبرت عن مفهوم بسيط للمساواة وأدانت الاستغلال على يد طبقة الملاك، ولذلك وجدت دعمًا كبيرًا بين الفلاحين وكانت مؤثرة في انتفاضات الفلاحين في وقت لاحق. وفي عام 184 م، عندما وقعت انتفاضة ذوي العمائم الصفر، نظم "تشانج جياو" 30000 من تلاميذه مقسمًا إياهم إلى ستة وثلاثين وحدة عسكرية تسمى "فانج"، وعلى الرغم من أن الانتفاضة قد فشلت في غضون تسعة أشهر، إلا أن آثارها استمرت لأكثر من عقد من الزمان، فقد كانت ضربة قوية لأسرة "هان" الشرقية، التي كانت موجودة بعد ذلك فقط بالاسم، وخلال هذه الفترة، بذل "تشانج لو" قصارى جهده لدمج قوات كل من طائفتي السلام العظيم ومكاييل

الأرز الخمسة لإقامة نظام في المنطقة الجنوبية الغربية في ما يعرف اليوم بمقاطعة "شانشي"، والذي اندمجت فيه السياسة مع الدين ونجا لما يقرب من ثلاثين سنة، ومع فشل انتفاضة ذوي العمائم الصفر حظرت طائفة السلام العظيم وبعدها انهارت انتفاضة الفلاحين بسبب القمع الوحشي على يد حكام أسرة "هان"، كما دمر "تساو تساو" في عام 215 م النظام الذي يقوده "تشانج لو"؛ ولكن طائفة مكاييل الأرز الخمسة كانت أبعد من أن تنتهي بهذه الطريقة وازداد انتشارها.

وفي نفس الوقت الذي استمرت فيه الطائفتان سابقتا الذكر بالنمو، واصل دعاة عقيدة "هوانج لاو" و"فانج شيان داو" أنشطتهم، وتراجع البعض إلى الجبال، أو كتبوا أعمالًا مثل "حياة الخالدين" الذي ألفه "ليو شيانج".

وفي الوقت نفسه، ظهرت مجموعة طاوية أخرى وتزعمها "وي بويانج" الذي كتب "تعليق الداوي على كتاب التغيرات"، وهو أول عمل داوي كلاسيكي يركز على الخيمياء، وقد تطورت أفكاره في نهاية المطاف ليشكل طائفة الإكسير.

وأثناء تشكلها ونموها تعرضت الطاوية للقمع العنيف على يد الطبقة الحاكمة، مما أدى إلى إضعاف تركيزها تدريجيًّا على الفوائد التي تعود على عامة الناس، وزاد من تركيزها على بناء الذات، وأصبحت الرهبنة المؤدية إلى الخلود عقيدة طاوية تلبي الاحتياجات النفسية للطبقة الحاكمة، وهذا ما أدى إلى تطورها في نهاية المطاف إلى إحدى الديانات الرئيسة في الصين.

انتشار البوذية في الصين

نشأت البوذية في الهند القديمة نحو 600 عام قبل الميلاد، وفي ذلك الوقت، كانت البراهمانية التي ظهرت قبل قرن من الزمان هي الدين الرئيس في الهند، مقسمًا الجميع في نظام الطبقات التي تم تصنيف وضعهم الاجتماعي فيها بدقة وفقًا للاحتلال.

كـان هنـاك البراهمـانيون (الرهبـان والعلمـاء)، الكشـاتريا (المحـاربون والأرسـتقراطيون)، الفايسـيا (الحـرفيون والتجـار)، والسـودرا (المزارعـين والخدم).

قيل إن سيدهارتا جوتاما، مؤسس البوذية، ينحدر من منزل ملكي من الهند القديمة، وبالتالي ينتمي إلى طبقة الكشاتريا، وكان الأمير الشاب قد خرج بعربته يومًا وقابل رجلًا عجوزًا وآخر مريضًا وجثة، ولكنه بعد ذلك التقى راهبًا قال له إنه إذا أصبح أيضًا راهبًا، فسيتحرر من هذه المصائر وهو ما فعله، وحقق التنوير في الخامسة والثلاثين من العمر، وأسس البوذية في وقت لاحق.

وتعتقد البوذية أن الحياة ليست سوى معاناة؛ فالولادة والشيخوخة والمرض والموت كلها معاناة ناجمة عن الرغبة أو الخطيئة، ويسبب الألم الـ"كليسا"أو (الوهم) والكارما (الفعل أو العمل) الخاص بالشخص نفسه. ووجود الكليسا والكارما يعني أنه، بالإضافة إلى الولادة والموت، يجب أن يمر جميع البشر بدورات التناسخ المستمر، وللهرب من هذه الدورة الثابتة ينبغي عليهم أن يدرسوا الكتب المقدسة البوذية لتحويل رغباتهم وفهمهم الدنيوي؛ وإذا فعلوا ذلك، فإنهم سيصلون في نهاية المطاف إلى أعلى عالم، حيث لا يوجد موت ولا ولادة، حيث تدعو البوذية هذه المرحلة بالنيرفانا أو السكينة، واعتنق جميع الحكام الإقطاعيين البوذية؛ لأنها تطلب من الناس التخلي عن سعيهم إلى حياة أفضل ونضالهم ضد القمع والاستغلال.

من الصعب أن نقول بالضبط متى وكيف وصلت البوذية إلى الصين، ولكن يبدو أن ذلك قد حدث في عام 2 قبل الميلاد، حيث أرسل السكيثيون، وهو شعب لديه دولة في المناطق الغربية، مبعوثًا يدعى "يي كون" إلى الصين، وقبل الباحث "تشين جينج شيان" كتلميذ له وعلمه سوترا بوذا، ومع ذلك، كانت قصة دخولها رسميًا إلى السهول الوسطى للصين استثنائية جدًا، ففي 64 م، رأى الإمبراطور "مينج" من أسرة "هان" حلمًا يحلق فيه إله ذهبي فوق قاعة القصر

كان هناك البراهمانيون (الرهبان والعلماء)، الكشاتريا (المحاربون والأرستقراطيون)، الفايسيا (الحرفيون والتجار)، والسودرا (المزارعين والخدم).

قيل إن سيدهارتا جوتاما، مؤسس البوذية، ينحدر من منزل ملكي من الهند القديمة، وبالتالي ينتمي إلى طبقة الكشاتريا، وكان الأمير الشاب قد خرج بعربته يومًا وقابل رجلًا عجوزًا وآخر مريضًا وجثة، ولكنه بعد ذلك التقى راهبًا قال له إنه إذا أصبح أيضًا راهبًا، فسيتحرر من هذه المصائر وهو ما فعله، وحقق التنوير في الخامسة والثلاثين من العمر، وأسس البوذية في وقت لاحق.

وتعتقد البوذية أن الحياة ليست سوى معاناة؛ فالولادة والشيخوخة والمرض والموت كلها معاناة ناجمة عن الرغبة أو الخطيئة، ويسبب الألم الـ"كليسا"أو (الوهم) والكارما (الفعل أو العمل) الخاص بالشخص نفسه. ووجود الكليسا والكارما يعني أنه، بالإضافة إلى الولادة والموت، يجب أن يمر جميع البشر بدورات التناسخ المستمر، وللهرب من هذه الدورة الثابتة ينبغي عليهم أن يدرسوا الكتب المقدسة البوذية لتحويل رغباتهم وفهمهم الدنيوي؛ وإذا فعلوا ذلك، فإنهم سيصلون في نهاية المطاف إلى أعلى عالم، حيث لا يوجد موت ولا ولادة، حيث تدعو البوذية هذه المرحلة بالنيرفانا أو السكينة، واعتنق جميع الحكام الإقطاعيين البوذية؛ لأنها تطلب من الناس التخلي عن سعيهم إلى حياة أفضل ونضالهم ضد القمع والاستغلال.

من الصعب أن نقول بالضبط متى وكيف وصلت البوذية إلى الصين، ولكن يبدو أن ذلك قد حدث في عام 2 قبل الميلاد، حيث أرسل السكيثيون، وهو شعب لديه دولة في المناطق الغربية، مبعوثًا يدعى "يي كون" إلى الصين، وقبل الباحث "تشين جينج شيان" كتلميذ له وعلمه سوترا بوذا، ومع ذلك، كانت قصة دخولها رسميًا إلى السهول الوسطى للصين استثنائية جدًا، ففي 64 م، رأى الإمبراطور "مينج" من أسرة "هان" حلمًا يحلق فيه إله ذهبي فوق قاعة القصر

برأس مضيء، واستشار مسؤولي البلاط إثر الحيرة الكبيرة التي أصابته، وأوضح "فو يي"، وهو من وزراء البلاط أنه في مكان بعيد كان هناك إله يعرف باسم بوذا؛ لذلك ربما كان هذا هو الإله الذي رآه، لذا أرسل الإمبراطور "مينج" ثمانية عشر مسؤولًا رفيعًا، بما في ذلك "تساي ين" و"تشين جينج" إلى المناطق الغربية للبحث عن الدارما (تعاليم بوذا)، وبعد وصولهم إلى قبائل المنجل مباشرة، تقابل المسؤولون مع اثنين من معلمي الدارما وهما "كاشيابا ماتانجا" و"دارمارانيا"، ودعوهم إلى الوعظ في الصين، وساروا إلى "لويانج" بمعية حصان أبيض يحمل تمثال بوذا والكتاب المقدس، فأمر الإمبراطور "مينج" ببناء مسكن لهم في مكان بالقرب من بوابة "يونج مين" في "لو يانج"، وبما أن جميع الكتب المقدسة البوذية في وقت مبكر كانت قد حملتها الخيول البيضاء، فقد سمي المعبد بمعبد الحصان الأبيض، ولا يزال الموقع موجودًا اليوم إلى الشرق من المدينة، ويمكن اعتباره أول بوداجايا أو مركز للحج في الصين نظرًا لأنه كان واحدًا من أقدم البيوت التي بُنيت للرهبان الأجانب، كما أنه يضم أول الكتب المقدسة البوذية التي دخلت الصين، ومكان ترجمة أول سوترا بوذية إلى الصينية، وأول موقع لمعبد بوذي في الصين، وإضافة إلى كونه أول مكان لرسامة أول راهب بوذي صيني.

انتشرت البوذية بسرعة بشكل رئيس بسبب طريقة تناسبها مع الثقافة والمعتقدات الصينية القائمة، وقد دخلت خلال عهد أسر "هان" الغربية والشرقية، وهي الفترة التي انتشرت فيها الخرافات، وظهرت فيها الداوية قرب النهاية، واعتبر الطاويون أن التأمل الذي يمارسه البوذيون يشبه التحكم في التنفس والتركيز الصوفي، لذلك اعتبروا البوذية من أساسات معتقداتهم الخاصة؛ فالجمع بين القوتين يمكن أن يزيد من تأثير كلا الطرفين؛ وبالتالي فإن البوذية، وإن كانت وجدت في الصين لبضع سنوات فقط، كانت تعتبر واحدة من الفروع الجديدة لمذهب "هوانج لاو" والتي صورت كلًّا من بوذا و"لاو تزي"، وفي الوقت نفسه، بدأت البوذية باستيعاب العديد من الأفكار الصينية التقليدية، فمن العصور القديمة، كان الشعب الصيني يعتقد في خلود

الروح، والأشباح، والآلهة ومفهوم القصاص، ورأت أن الأشباح والآلهة تخصصت في منح المكافآت والعقوبات العادلة، وتسربت هذه الأفكار إلى البوذية وبدأ البوذيون في استخدام كلمة "الروح" عند ترجمة السوترا البوذية من السنسكريتية إلى الصينية، ونتيجة لذلك، يعتقد العديد من الصينيين أن البوذية تحتوي على مفهوم خلود الروح، والذي لم يكن موجودًا من قبل.

ومن أجل تثبيت أقدامها أكثر بدأت البوذية أيضًا في التحرك نحو الكونفوشيوسية، بل وحتى تكيفت مع الأخلاق الكونفوشيوسية، وكانت قوانينها، بما في ذلك المفاهيم الخمسة بشأن القتل والسرقة والتحدث الباطل وشرب الخمور والشهوة، مرتبطة عمدًا بالفضائل الأساسية الخمس التي دعت إليها الكونفوشيوسية: اللطف والعدالة والأخلاق والحكمة والصدق والتي تختلف تمامًا ظاهريًا ولكنها تتماثل في جوهرها.

فبدأ المترجمون من الكتب المقدسة البوذية استبدال أقسام تعلن تساوي الآباء والأمهات والأطفال بأجزاء تحث الأطفال على إظهار بِرٍّ لآبائهم.

وإضافة إلى هذه التحركات نحو نظم المعتقدات الصينية، جلبت البوذية حياة جديدة إلى الثقافة التقليدية، مضيفة العمق واللون، ولأنها قد جمعت رؤى عميقة في العمليات النفسية والمعرفية للناس، استطاعت أن تضيف دراسة الطبيعة البشرية إلى التفكير الصيني، ففي مجال الأدب، أثْرَت السوترا البوذية ذات الجودة العالية والخصب الأدبي الأدبَ الصيني، في حين استخدم أسلوب السرد الشعبي أيضًا للترويج لتطوير أنواع أدبية جديدة، وشملت هذه قصص "هوابين" - نصوص لسرد القصص في الأدب الشعبي في عهد أسرتي "سونج" و"يوان" - والخيال، والدراما، وأضيفت العديد من الكلمات المستخدمة في السوترا البوذية، مثل بوذا، بوذي، والقواعد المقدسة للنظام الديني، وأصبحت تستخدم على نطاق واسع على يد الكتاب الصينيين، وبدأ الفن البوذي والصيني بالتشابك، وظهر عدد كبير من المعابد، وتماثيل بوذا، والطباعة البوذية، والجداريات، والكهوف. وهكذا، عندما انتشرت البوذية تدريجيًا، عززت صلاتها

مع المجتمع الصيني وسياسته واقتصاده وثقافته، وتطورت في نهاية المطاف إلى بوذية ذات سمات صينية على وجه التحديد.

تطور الطبقة العلمية

كانت حقبة الدول المتحاربة (475-221 قبل الميلاد) هي التي شهدت تشكيل الطبقة الفكرية في الصين القديمة، حيث كان يشار إلى العلماء باسم "شي". وكانوا أقل أعضاء الطبقة النبيلة وفقًا للنظام الإقطاعي لأسرة "تشو" (1046-221 قبل الميلاد)، وكانوا على دراية في كل من الفنون الستة، والموسيقى، والرماية، والتسلق، والقراءة والكتابة، والحساب، ومن أواخر حقبة الربيع والخريف فصاعدًا (770-476 قبل الميلاد)، أدت زيادة الإنتاجية إلى إمكان الفصل بين العمل الفكري والجسدي، مما أدى إلى نمو في عدد العلماء، وفي الوقت نفسه، بدأ الحكام والمسؤولون رفيعو المستوى في تجنيد الأفراد الموهوبين لمساعدتهم على تحقيق مُثُلهم. وهكذا كان للباحثين حافز لكتابة الكتب لنشر أفكارهم، أو إنشاء مدارس خاصة بهم، حيث يمكنهم مناقشة أفكار اليوم، وقد عرفت هذه الظاهرة في وقت لاحق باسم "تنافس مدارس الفكر المائة" خلال حقبتي الربيع والخريف والدول المتحاربة، ولم تمض فترة طويلة حتى كانت أعداد كبيرة من العلماء يعملون كمستشارين سياسيين أو موظفين عسكريين أو مبعوثين دبلوماسيين.

وازدادت أهمية العلاء في خلال عهدي "تشين" و"هان"، وكان لأسرة "تشين" - على الرغم من تاريخها القصير في الصين - تأثير كبير على تشكيل المجتمع الثقافي الصيني، بتوحيد كتابة النصوص والقياسات وهلم جرًّا، في ما طبقت أسرة "هان" في الواقع كلًّا من الكونفوشيوسية والقانونية على الرغم من تبنيها عقيدة "هوانج لاو" كأيديولوجية موجهة لها، وخلال عهد الإمبراطور "وو"، نمت الكونفوشيوسية وازدادت قوة، واختفت جميع مدارس التعليم الأخرى تدريجيًّا.

وهكذا كان هناك تطور في التركيز من تنافس مائة مدرسة من الفكر في حقبة الدول المتحاربة، مرورًا بالقانونية في أسرة "تشين" والتحول إلى تعاليم "هوانج لاو" خلال فترة "هان" الغربية والانتقال إلى الكونفوشيوسية خلال عهد الإمبراطور "وو"، وبدءًا من هذه النقطة، أصبحت الكونفوشيوسية الاتجاه الأيديولوجي المهيمن، ويمكن أن ترجع أصول الكونفوشيوسية إلى تعزيز "الملاءمة" خلال عهد أسرة "تشو" الغربية، حيث كان "ديوك تشو" قد صمم نظامًا كاملًا يقوم على الأفكار الأساسية للقرابة والاحترام، ووضع الاحتفالات، حيث الملك هو قلب البلاد، والأب في قلب الأسرة، ومع ذلك، أصبحت هذه الاحتفالات أقل أهمية في حقبة الربيع والخريف، مما أدى إلى انحطاط الشعائر الإقطاعية.

كان كونفوشيوس الذي حاول بعد ذلك تحقيق العودة إلى آداب التسلسل الهرمي الجامدة من أوائل أسرة "تشو" الغربية من خلال تأسيس فرع من التعلم الذي كان يركز على ممارسة ضبط النفس والعودة إلى الملاءمة كأعلى أهدافها.

ووفقًا للحكايات، كرس كونفوشيوس سنواته الأخيرة لتحرير الكتب القديمة، بما في ذلك كتاب الأغاني، وكتاب الوثائق، وكتاب التغييرات، وكتاب الشعائر وحوليات الربيع والخريف، والتي كانت تعرف بالكلاسيكيات الكونفوشيوسية الخمس، ونتيجة لذلك، أصبحت الكونفوشيوسية مدرسة رئيسة للفكر في بداية حقبة الربيع والخريف؛ ولكن بعد ذلك وافق "تشين شي هوانج" على اقتراح المستشار "لي سي" بأن جميع هذه الكلاسيكيات يجب أن تحظر وتدمر.

وخلال السنوات الأولى من عهد أسرة "هان" الغربية، قدم العديد من كبار العلماء الكونفوشيوس محاضرات تلوا فيها النصوص الكونفوشيوسية من الذاكرة، ما يسمى بـ "الكلاسيكيات المكتوبة بالكتابة المقدسة" وهي طبعات لاحقة من الكلاسيكيات الكونفوشيوسية، ومجرد سجلات لهذه المحاضرات. وفي عهد الإمبراطور "ون" حاكم "هان"، تم تقديم رتبة "مثقفي الكلاسيكيات"،

وبحلول وقت الإمبراطور "وو" أنشئت الكلية الإمبراطورية وبدأت في منح لقب "مثقفي الكلاسيكيات الخمسة"، ونتيجة لهذا البرنامج التعليمي انتشرت الكونفوشيوسية على نطاق أوسع.

عندما أمر "تشين شي هوانج" بجمع الكتب ليتم حرقها، خبأ عدد قليل من العلماء الكتب بدلًا من تسليمها وتمت إعادة اكتشاف هذه الكتب خلال فترة "هان" الغربية، حيث أنشأ الإمبراطور "تشينج هان" مؤسسة خاصة قام العلماء بتجميع هذه الكتب فيها وخلال السنوات الأخيرة من الأسرة أمر الباحث "ليو شين" (50-23 قبل الميلاد) بفرز هذه الكلاسيكيات القديمة، ولدى اكتشاف الاختلافات بين الطبعات الجديدة والقديمة، اقترح إنشاء دورة تعليمية خاصة في الكلية الإمبراطورية لإعادة اكتشاف المعاني الأصلية، وخلال عهد أسرة "هان" الشرقية، احتلت الكلاسيكيات المكتوبة بحروف الختم المكانة المهيمنة، وفي نهاية عهد الأسرة دمجت مختلف الإصدارات في نهاية المطاف في إصدار واحد.

ونمت احتفالات الكونفوشيوسية في الأهمية بحلول الوقت الذي أصبحت فيه الكونفوشيوسية أيديولوجية الطبقة الحاكمة، وتقول الأسطورة إن هذه الاحتفالات بدأت في عهد أسرة "تشو" الغربية وقسمت إلى خمس فئات معروفة باسم الاحتفالات الخمسة: طقوس الأعياد، مراسم الجنازات، والاحتفالات العسكرية، والاحتفالات التي تقوم بها الأميرات، والاحتفالات الخاصة بحفلات الزفاف والترفيه عن الضيوف.

وكان الغرض من هذا النظام الشامل هو الحفاظ على النظام الهرمي الأبوي، وضبط العلاقات الداخلية للطبقة الحاكمة، وتنظيم كل مجال من مجالات النشاط الاجتماعي.

وقد جاء سكان "تشين" في أغلبيتهم من العاصمة الملكية لنظام "تشو" الغربي، وهكذا تأثروا كثيرًا بـ"تشو" واحتفالاتها؛ ولكن أسرة "تشين" أضافت عددًا من

العناصـر الجـديدة، وأهمها أهميـة الحـاكم والقيـود العـديدة المفروضـة علـى مسؤوليه، وكانت سني أسرة "هان" الغربية المبكرة فوضوية فقد ولد العديد من المستشارين العسكريين المؤسسين في طبقات اجتماعية منخفضة، وغالبًا ما كانوا ينخرطون في حفلات الشرب الصاخبة التي كانت مدمرة للنظام الملكي الاستبدادي. ونتيجة لذلك، ظهر علماء الكونفوشيوسية الذين دعوا إلى وضع الـهياكل الاحتفاليـة التقليـدية فـي المقدمة، وقـد تم تعيين "شوسون تونج" المتخصص في الطقوس في بلاط تشين لوضع مشروع احتفالي كامل، قام به من خلال الجمع بين نظم آداب السلوك التي مورست في عهد كل من أسرة تشـين والأزمنـة القـديمة، وأنتـج أيـضًا سـلسلة مـن الأنظمة للاحتفالات التي عقدت في معابد الأجداد الإمبراطورية.

فـي عـام 19 قبـل الميلاد، عنـدما رفـع الإمبراطور "هوي" الحظر علـى الكتـب القـديمة، ظـهرت التـي لـم تحـرق خـلال عـهد أسـرة "تشـين" ثـم عنـدما جـاء الإمبـراطور "وو" إلـى العرش، وصل إنشاء الطقوس الاحتفاليـة الجـديدة إلـى ذروته، وبصرف النظر عن تحديد لون الملابس الرسمية التي سيتم ارتداؤها بدأ نظام احتفالي جديد لاحترام جبل تاي. وخلال هذه الفترة، تم تعيين العديد من العلماء الذين عملوا بجد على كتاب الشعائر كموظفين.



أما خلال عهد أسرة "هان"

الشرقية، فقد حدث إنشاء وتنقيح للنظم الاحتفالية بشكل رئيس خلال عهد

الأباطرة "جوانج وو"، و"مينج" و"تشانج"، ولا يزال هناك العديد من العلماء

الذين تخصصوا في طقوس "تشو" وبحثوا عن نصوص طقوس قديمة أخرى؛

فإن الممارسة الاحتفالية التي صدرت عن أسرة "تشو" الغربية لم تكن تمارسها

الأسر الرسمية فحسب، وإنما أيضًا في جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى،

وأصبحت في نهاية المطاف وسيلة مهمة للحفاظ على السلطة الإمبراطورية

والنظام الاجتماعي الإقطاعي (انظر الشكل 15).

الشكل (15): لوحة مرسومة على الحرير تصوِّر وزراء أسرة "هان" وهم يستعرضون بإنجازاتهم أمام الإمبراطور.

ثقافة أسرة "هان"

الأعمال التاريخية الرئيسة الأولى

وُجدت السجلات التاريخية منذ فترة الحكام الخمسة الكبار (3000-2100 قبل

الميلاد)؛ ويقال إنهم كانوا يحتفظون بهم عن طريق ربط العقد، وإنه في عهد الإمبراطور الأصفر، كان هناك مسؤول تاريخي باسم "كانججي"، وخلال عهد أسرة "شانج" (1600-1046 قبل الميلاد)، ظهرت نقوش على العظام أو صدفات السلاحف، ويبدو أن جميع السياسيين كانوا يستخدمون المؤرخين الرسميين "زوتسي" - وتعني حرفيًا "تسجيل الأنشطة المهمة على شرائح الخيزران" - وخلال عهد أسرة "تشو" (1046- 221 قبل الميلاد)، تم تصنيف المؤرخين الرسميين ككاتب كبير، وكاتب مبتدئ، وسكرتير ملكي، وأمين خارجي، وكاتب ملكي، ونقشت أحداث تاريخية مهمة على البرونز، وشهدت هذه الأسرة أيضًا ظهور أعمال تاريخية عالية الجودة، أبرزها كتاب الوثائق وحوليات الربيع والخريف، حيث سرد الأول أساطير "ياو" و"شون" والملوك الأسطوريين من الصين القديمة، في حين أن الأخير توثيق لتاريخ دولة "لو"، من حكم أمير "يين" إلى عهد أمير "آي" خلال حقبة الدول المتحاربة، شاملًا على هذا النحو جميع الشؤون السياسية والعسكرية المهمة لدولة "لو".

كُتبت العديد من كتب التاريخ بالفعل خلال فترات الربيع والخريف والدول المتحاربة (770-221 قبل الميلاد)، بما في ذلك كتاب "كتب أسرة تشو المفقودة"، "تعليقات "تزو" على حوليات الربيع والخريف"، "خطابات حول الدول"، و"حوليات الخيزران"، و"كلاسيكيات من الجبال والبحار"، ولكن "سيما تشيان" كان أول شخص يجري دراسة تاريخية كفرع مستقل للعلوم الاجتماعية في الصين، وتعتبر دراسته "سجلات المؤرخ" أهم تاريخ للصين التقليدية.

ولد "سيما شيان" في عام 145 قبل الميلاد في "هانشنج" بمقاطعة "شان شي"، وعاش من عام 145 إلى 90 قبل الميلاد في عهد الإمبراطور "وو" من أسرة "هان".. بدأ قراءة النصوص القديمة في سن العاشرة، وبعد ذلك بفترة وجيزة، درس حوليات الربيع والخريف تحت يد معلم الكونفوشيوسية "دونج تشونجشو"، وكتاب الوثائق تحت يد "كونج أنجو"، وفي سن العشرين، انطلق

مسافرًا من "تشانج آن" ولدى عودته، عين مسؤولًا داخليًا في القصر وكان مسؤولًا عن حراسة مدخل القصر، ورعاية العربات، ومرافقة الإمبراطور في جولات التفتيش، وبالتالي استمر في السفر على نطاق واسع، وعندما بلغ من العمر 35 عامًا، عمل مبعوثًا إمبراطوريًا وقام بجولة في جنوب الصين، وزار العديد من الأماكن بما فيها "يونّان" و"سيتشوان" و"جويتشو" مما وفر له فهمًا جيدًا للعادات والممارسات المحلية لشعوب الأقليات في هذه المناطق.

وكان أعضاء عشيرة "سيما تشيان" بمثابة مؤرخين رسميين للأجيال، وكان "سيما تان" والده، بمثابة منجم كبير خلال عهد أسرة "هان" الغربية، وبحلول وقت الإمبراطور "وو" حدث التوحيد الكبير، مما أدى إلى اقتصاد مزدهر، وكان هذا هو ما ألهم "سيما تان" لكتابة كتاب التاريخ، لكنه مات قبل أن يتمكن من إنهائه، وفي 108 قبل الميلاد، حل "سيما تشيان" محل والده كمؤرخ كبير، وبدأ "سجلات المؤرخ" في 104 قبل الميلاد، ومع ذلك، حدث حادث غير متوقع غير حياته.

ففي عام 99 قبل الميلاد، هاجم "لي لينج"، حفيد الجنرال الشهير "لي جوانج" منطقة "شيونج نو" ولم تنجح حملته، واضطر للاستسلام.. بعد ذلك بوقت قصير، أساء "سيما تشيان" للإمبراطور بدفاعه عن "لي لينج"، وسجن لعدم قدرته على دفع الغرامة للتغاضي عن جريمته، ثم تم إخصاؤه، مما كان شيئًا مشينًا بشكل كبير لشخص من طبقة العلماء، وفي 96 قبل الميلاد، عُفي عنه وعين مديرًا للأمانة، ومسؤولًا عن التعامل مع الوثائق المهمة، كما أعطاه هذا الدور أيضًا فهمًا جيدًا للممارسات السياسية للنظام الإقطاعي، وطوال هذا الوقت واصل الدراسة والكتابة مما منحه منفذًا للتنفيس عن غضبه العميق، وفي سن الخامسة والخمسين، أنهى في نهاية المطاف مشروعه الضخم "سجلات المؤرخ".

كان هذا الكتاب - المعروف سابقًا باسم كتاب المنجم الكبير، وأصبح يعرف بـ"سجلات المؤرخ" - هو سجل لأكثر من 3000 سنة من التاريخ، من عهد

الإمبراطور الأصفر في العصور القديمة إلى عهد الإمبراطور "وو" من أسرة "هان"، وأدرجت تغييرات اجتماعية مهمة بترتيب زمني، فإن الأحداث التاريخية التي لا يمكن تجميعها تحت سنة دقيقة ظهرت في (الجداول العشرة) التي عرضت بوضوح خلافة الأسر والعلاقات بين الدول المختلفة، وتناولت (الثلاثون دارًا الوراثية) أهم النبلاء والأمراء؛ كما ناقشت (السبعون حياة سيرًا ذاتية، على الرغم من أن عدة رجال من نفس الفئة في بعض الأحيان جمعت معًا، وروت الحوليات الاثنتا عشرة الأساسية) السير الذاتية للأباطرة، وسردت (الكتب الثمانية) إنجازات في العديد من المجالات، بما في ذلك علم الفلك وحفظ المياه والاقتصاد والثقافة والفنون، كما وصف الكتاب قادة انتفاضات الفلاحين مثل "تشن شنج" و"وو جوانج"، والسير الذاتية للعلماء المعروفين، والأطباء، ورجال الأعمال، وممثلي الطبقات المختلفة، والشخصيات الرئيسة من جميع مناحي الحياة، ولذلك أعطت انعكاسًا حيًا لكيفية تشكيل بلد متعدد الأعراق خلال الأوقات الإقطاعية المبكرة.

أصبحت طريقة "سيما تشيان" نموذجًا يحتذي به المؤرخون من بعده، فقد أظهر العمل المستويات العالية التي وصلت إليها أدبيات السيرة الذاتية خلال عهد أسرة هان الغربية، وبعد ذلك بقليل، خلال عهد أسرة هان الشرقية، ظهر مؤلف آخر ذو أهمية تاريخية، هو "بان جو"، الذي كتب تاريخ أسرة "هان"، وكان والده "بان بياو" أحد معلمي الكونفوشيوسية المشهورين وأيضًا مؤرخًا كتب عملًا بعنوان "تكملة لسجلات المؤرخ". وقد فكر"بان" بأن عمل والده كان بعيدًا عن الاكتمال لذا فقد قرر تكملته، ولكنه اتهم زورًا بمحاولة تغيير التاريخ في السنة الخامسة من عصر "يونج بينج" تحت حكم الإمبراطور "مينج" وسجن، فقدم "بان تشاو"، شقيقه الأصغر، التماسًا للمحكمة، وتوضيحًا للحقائق، وبعد ذلك جعله الإمبراطور "مينج" مدير أرشيف القصر، ثم استغرق 20 عامًا لإنتاج 120 مجلدًا من تاريخ أسرة "هان"، ومع ذلك، اشتبه في أنه كان يخطط للتمرد وتوفي في السجن، وترك عمله الضخم غير مكتمل، ولحسن الحظ مع ذلك قامت شقيقته الصغرى "بان تشاو" بإضافة ثمانية جداول أخرى للكتاب، في

حين كتب "ما شو" وهو مؤرخ آخر رسالة حول علم الفلك كملحق.

وينقسم تاريخ أسرة "هان" إلى اثنتي عشرة حولية، وثمانية جداول، وعشر مذكرات وسبعين سيرة ذاتية، بدءًا من عام 206 قبل الميلاد مع صعود "ليو بانج" وتنتهي في 23 م مع زوال حكم "وانج مانج"، وهكذا فإنه يصف أكثر من 230 عامًا من التاريخ، على الرغم من أنه كتب على مثال "سجلات المؤرخ" فإنه أكثر ثراءً وأكثر إبداعًا منه في بعض المواقع، كما يقدم الكتاب تفاصيل هائلة عن قوانين ومؤسسات أسرة "هان" في مجالات السياسة والاقتصاد والمجتمع والثقافة.

الأدب والفن

كان النثر الشعري (أو فو) شكلًا جديدًا من الأدب الذي نشأ خلال عهد أسر "هان" الغربية والشرقية، وتطور من "مرثيات الجنوب" في حقبة الدول المتحاربة، ثم أصبح النثر الشعري من الأنواع الأدبية المهمة، ويلي الشعر في المرتبة الثانية فقط.

كان هناك نوعان من النثر الشعري في "هان": النثر الشعري الصغير والنثر الشعري الكبير. كان الأول يتكون أساسًا من النثر الغنائي، في حين كان الأخير كتابات حول الحدائق الإمبراطورية أو حياة الأباطرة التي تُروى كلها في شكل مقال، والأوصاف في شكل أبيات، وكان معظم الشعر النثري المكتوب خلال أوائل عهد أسرة "هان" الغربية تعبيرًا عن أفكار المؤلف ومشاعره، حتى عهد الإمبراطور "وو"، حيث ازدهر هذا النوع، لكنه أصبح مجرد أداة، وكانت القطع الأكثر تمثيلًا في هذا الوقت هي قصيدة لسيد النيل وأغنية إلى الحديقة الإمبراطورية التي كتبهما "سيما شيانج رو" (179-118 قبل الميلاد)، وكلاهما كان وصفًا فخمًا لرحلات الصيد الملكي.

أما خلال العصور المضطربة لأسرة "هان" الشرقية (25-220 م)، بدأ النثر الشعري يتحول نحو وصف الحقائق الاجتماعية، ولأن النسخة الكبرى كانت

تستخدم عمومًا لوصف الطبقات العليا، فقد انحدرت في النهاية، في حين بدأ النثر الشعري الصغير في الازدهار، وكان أحد الأمثلة وهي "قصيدة إلى شيطان" مجموعة من القصص النثرية الصغيرة التي كتبها "تشاو يي" (ولم يعرف متى) قد كشفت الانحلال والفساد الذي انتشر في جميع أنحاء المجتمع خلال السنوات الأخيرة من عهد أسرة "هان" الشرقية. وبالنظر إلى تعبيره عن عدم رضاه عن المجتمع وتعاطفه العميق مع الفقراء، فقد حظي بالثناء باعتباره مثالًا نادرًا ومتميزًا على النثر الشعري في العصر، كما يعتبر "بان جو" و"تشانج هنج" جنبًا إلى جنب مع "سيما شيانج رو" و"يانج شيونج" أفضل أربعة كتاب للنثر الشعري.

وكان معظم كتاب النثر الشعري مشغولين بتملق حكامهم؛ لذلك أولى القليل من الناس اهتمامًا لحياة العمال، ولحسن الحظ، انتبه "يوي فو" لذلك.

كان "يوي فو" (مكتب الموسيقى) في الأصل قسمًا مسؤولًا عن جمع وتصنيف الأغاني الشعبية والقصص خلال عهد أسرة "هان"، وقد عرفت ثمار هذا، بما في ذلك القصص والأغاني الشعبية، باسم "يوي فو" أيضًا، وكانت بعض القصائد التي وصفها "يوي فو" تستخدم في الأصل على يد الحكام في الاحتفالات المختلفة، أما البقية فقد جمعت من الريف وكانت بالتالي انعكاسًا مخلصًا للحياة الحقيقية للعمال وتجاربهم وعواطفهم وعاداتهم الاجتماعية، وقدمت صورة واضحة عن كيفية مقاومة العمال للطبقة الحاكمة الإقطاعية وكيف أعربوا عن هجائهم ونقدهم، وهناك أيضًا العديد من الصور المتحمسة والإيجابية للمرأة؛ ففي "شجرة توت على جانب الطريق" يستخدم الشاعر وصف البطلة "لو فو" للسخرية من زوجها - وهو مسؤول محلي - بلا رحمة، ووصف كثيرون آخرون من الأدباء الطبقات الدنيا من الآخرين الذين يسعون إلى مهنة، أو لكسب عيشهم وقد كتبها أولئك الذين أحبطهم المسؤولون والبيروقراطيون مرارًا وتكرارًا.

وانطلاقًا من تقاليد الأغاني الشعبية قبل تشين، والتي كانت عادة ما تستند إلى

القص، عبرت قصائد "يوي فو" المؤلفة في عهد أسرة "هان" عن مشاعر من خلال السرد، وعلى المستوى الفني، تأثر شعر "يوي فو" الغنائي بقوة بتقنيتين فنيتين من "كتاب الأغاني" و"مرثيات الجنوب"، وهما الصور الغنية والمحاكاة الماهرة، وكانت القصائد عادة تتألف من خمسة أو سبعة أحرف إلى سطر واحد، واستخدمت بنية الجملة الحرة والمرنة التي كانت تتميز بالطلاقة وسهولة الفهم والقراءة بصوت عالٍ، وبالنظر إلى أن الشعر التقليدي في عهد ما قبل "تشين" كان يتكون من أربعة أحرف فقط إلى سطر، فقد كان نوع "يوي فو" تغييرًا جديدًا تمامًا.

وخلال عهد كل من أسر "هان" الغربية والشرقية، ركزت الطبقة الحاكمة بقدر كبير على فن الرسم حيث استخدم الحكام اللوحات ليس فقط كمصنفات فنية، وإنما أيضًا كأدوات لتوطيد سلطتهم الإقطاعية، فعلى سبيل المثال، عند استقباله للوحة "ديوك تشو يحمل الملك "تشينج" على ظهره خلال إحدى مقابلات البلاط"، أعطاها الإمبراطور "وو" لـ"هو جوانج" على أمل أنه سيتصرف تمامًا مثل "ديوك تشو"، ويكرس حياته لبلاط "هان"، كما قام ببناء برج حصريًا لعرض أفضل لوحاته وأعماله الخطية، وفي وقت لاحق، وضع الإمبراطور "مينج" استوديو للرسم في قصره، وكان موظفوه مسؤولين عن تصنيف اللوحات والمخطوطات التي تم جمعها وحافظ عليها.

شجعت مبادرات مثل هذه تطور الرسم وأصبحت الجداريات الزخرفية شعبية، ورسمت على نطاق واسع على جدران القصور والمعابد والقصور الرسمية، والمقابر، وقد استند الموضوع أساسًا إلى الأساطير والحكايات والقصص عن صعود وهبوط وأسرار أسر "شيا" و"شانج" و"تشو"، وحكايات المسؤولين ذوي الجدارة، والأبناء الأبرار والشهداء الأبكار، وقد وجدت لوحات جدارية في القبور في العديد من الأماكن في جميع أنحاء الصين، والأكثر تميزًا وجدت في قبر قديم في "لو يانج" ينتمي إلى "بو تشيان تشيو"، الذي عاش خلال عهد أسرة "هان" الغربية، وتتميز الجدارية بالروعة والإتقان حيث تصور عددًا من

الشخصيات الخالدة مثل "فوشي وانج تزي تشياو"، جنبًا إلى جنب مع الحيوانات مثل ثعلب راكض وثعبان طويل إضافة إلى التنين والنمر، وتنبض كلها بالحياة بشكل ملحوظ.

كما تميز الحرير المرسوم في عهد أسرة "هان" بجماله أيضًا، حيث تم اكتشاف أجملها من قبر "ماوانج دوي" المنتمي لعهد "هان" في "تشانج شا" بمقاطعة "هو نان" في عام 1972، وتتألف من ثلاثة أقسام تشكل حرفT ويبلغ طولها أكثر من مترين، ومن المفهوم أنه يمثل مسكنًا لنفوس المتوفي،حيث الجزء العلوي يصور مشهدًا في السماء، وفي منتصف المقطع المستطيل صور "فو شي"، إله المصايد وتربية الحيوانات بذيل الثعبان، وتحيط به طيور أبو قردان رافعة رؤوسها إلى السماء، وعلى اليسار يظهر التنين الملفوف حول نفسه مع حورية تقف على جناحيها، وبجانب التنين من الجانب الأيمن من التنين تبرز شجرة إلهية وهي الشجرة الغامضة "فو سانج"، التي تشرق منها الشمس، ووراء شجرة تظهر تسعة شموس، وتحكي الأسطورة أنه كان هناك أصلًا عشرة، ولكن عندما اشتكى الناس من الحرارة الشديدة، رد "هوي"، إله الرماية بإسقاط تسعة، وعلى الحدود بين الجزء العلوي والسفلي من اللوحة يظهر عمودان يمثلان البوابة السماوية، وهناك أيضا سيدة مسنة (صاحبة القبر)، في خدمتها ثلاث خادمات شرف، يمشين على الجانب نحو اليسار، وأمامها يركع اثنان من الأوصياء الخالدين الذين يبدو أنهم يرحبون بها.

يمثل الجزء الأسفل ما تحت الأرض، والتي يدعمها عملاق والعديد من المخلوقات بما في ذلك الأسماك والحيوانات النادرة، والثعابين الحمراء. كما تحسن النحت خلال عهد أسرة "هان"، ومثالها النقوش الحجرية الدقيقة أمام قبر "هو تشو بينج"، جنرال "هان" الغربية، فهناك نقش يدعى "حصان يخطو على أحد جنود شيونج نو" يحتفي بانتصارات "هو تشو بينج"، ويصور بوضوح ساحات القتال ورموز الحرب، كما عثر على تماثيل البرونزية الأكثر تمثيلًا لهذه الفترة في عام 1969 في مقابر "ليتاي هان" في "وو وي" بمقاطعة "قانسو"،

وهي تشمل العديد من التماثيل البرونزية، مثل "حصان يقفز فوق السنونو الطائر"، والذي يعتبر مثالًا ممتازًا على النحت الصيني القديم بموضوعه الخيالي وصنعته البديعة.

الفصل السابع

الاضطراب والاستقرار من عهد الممالك الثلاث إلى مئة سنة من حكم "جين"

(220 – 420 بعد الميلاد)

المقدمة

انتهى عهد أسرة "هان" أخيرًا في عام 221 م نتيجة لظهور الطائفية البوذية - الطاوية والاضطرابات المدنية والصراعات الفئوية المدمرة في البلاط، وعاشت الصين فترة من عدم الاستقرار والانقسام حتى تحققت إعادة توحيد جزئية في عهد أسرة "جين"، وحلت ثلاث ممالك (أو أسر منافسة لنكون أكثر دقة) محل "هان" وهي: "وي" المعروفة أيضًا باسم "تساو وي" وعاصمتها في "لو يانج"، "شو" أو "شو هان" في "تشينج دو" و"وو"، وأيضًا "وو" الشرقية أو "دونج وو" في "نانج ينج"، وادعت مملكة "وي" أنها الخليفة الشرعي لأسرة "هان" الساقطة، وكان الآخرون مطالبين متنافسين على العرش الإمبراطوري.

تاريخ الصراع بين هذه الدول المتنافسة يعد أسطوريًا، وعرفت فترة الممالك الثلاث بمآثر الأبطال العسكريين والاستراتيجيين، وخاصة "تساو تساو" من "وي" و"تشو جي ليانج" من "شو هان"، وقد كانت هذه الفترة التاريخية مجالًا خصبًا لعدد لا يحصى من القصص والأفلام عن هذا النوع من فنون القتال، كما خلدت رواية رومانسية في عهد أسرة "مينج" تاريخ الممالك الثلاث باسم (سانجو ياني)، وتحوي هذه الرواية من الاستراتيجية السياسية والعسكرية، والدسيسة والخيانة ما هو أفضل بكثير من التاريخ الذي تقوم عليه.

انتهت فترة الممالك الثلاث بتأسيس أسرة "جين" (265-420 م) - لا يجب

الخلط بينها وبين الأسرة اللاحقة (1115-1234) التي يكتب اسمها بنفس بالحروف اللاتينية ولكن يختلف الحرف الصيني عنها - والتي أخضعت الكثير من أراضي الصين الحديثة تحت سيطرتها. ظهرت أسرة "جين" من إحدى عشائر أسرة "وي"، ولكن الوحدة التي سعت إليها كانت جزئية وغير مستقرة، حيث حكم أمراء الحرب المتنافسين مناطق كثيرة، وبلغ الصراع بينهم ذروته في حرب الأمراء الثمانية، وهي حرب أهلية مدمرة ومربكة وطويلة أدت إلى إنهاء هذه الأسرة.

كانت هذه فترة من الارتباك الكبير، مما ينعكس في السرد الذي ينتقل من مكان إلى آخر ومن أمير حرب لآخر. ولقد حان وقت صعود وهبوط التحالفات السياسية والعسكرية المعقدة بين المطالبين المتنافسين على العرش الإمبراطوري والقوات العسكرية المحلية، وقد برز العديد من القادة السياسيين والعسكريين المتضامنين، وتغيرت أسماء بعض هؤلاء وولاياتهم عندما حاولوا إعطاء الشرعية لمطالبهم الإمبراطورية.

الممالك الثلاث

معركة جوان دو

في السنوات الأخيرة من عهد أسرة "هان" الشرقية، اندمجت مشكلات كل من الأرض والعبيد مع مشكلات اللاجئين، في ذات الوقت كانت هناك مشكلات الاقتتال بين الخصيان وأقارب نساء البلاط، كما كانت هناك أيضًا انتفاضة العمائم الصفر، وبسبب ظهور العديد من أنظمة أمراء الحرب المستقلين لم تتمكن الحكومة المركزية -التي كانت موجودة اسميًا فقط - من التمسك بقوتها الهزيلة، واندلعت الصراعات الشرسة بين المجموعات الأقوى وأصبح الانهيار التام أمرًا لا مفر منه (انظر الخريطة 7).

خريطة (7): أنظمة قادة الحرب الانفصالية أثناء فترة حكم أسرة "هان"

الشرقية.



ودعا "هي جين" أحد أقارب العائلة المالكة "دونج تشو" إلى القدوم إلى العاصمة من قاعدته في "هي دونج" (شرق النهر الأصفر) بالرغم من معارضة العديد من كبار المسؤولين، وهنا قام أمير الحرب القاسي "دونج تشو" على الفور بخلع الإمبراطور "شاو" وعين "ليو شي"، أمير "تشن ليو"، إمبراطورًا جديدًا (والمعروف للتاريخ باسم الإمبراطور "شيان")، ولم تمر فترة طويلة حتى تولى "دونج تشو" السيطرة، مما اضطر مسؤولين كبار مخلصين مثل "يوان شاو" إلى مغادرة العاصمة.

ووفقًا لـ"كتاب تاريخ أسرة "هان" الشرقية"، اختير "يوان شاو" عام 190 م على يد قادة المناطق وقادة "جوان دونج" لقيادة كونفدرالية ضد "دونج تشو"، ولم تمر فترة طويلة حتى نقل "دونج تشو" - الذي واجه زحف هذه القوات المسلحة الكونفدرالية - العاصمة من "لو يانج" إلى "تشانج آن" وأخذ الإمبراطور معه، إلا أنه كان محكومًا عليه بالسقوط بعد أن خانه أحد المسؤولين في حكومته ولم يكن هو وحده بل كذلك النظام الإمبراطوري لأسرة "هان" الشرقية.

وفى الوقت نفسه اندلع صراع بين أمراء الحرب في الشمال الشرقي بقيادة "يوان شاو"، وتحول هذا في نهاية المطاف إلى حرب أهلية واسعة النطاق، حيث بحثت الشخصيات القوية عن فرصة للسيطرة على النظام الجديد، ولم

يكن "يوان شاو" استثناء؛ لكنه فشل في تقدير طموح "تساو تساو" - صديق الطفولة وعضو بدا ضعيفًا في الكونفدرالية - وباعتباره ابن خصي فقد كان "تساو تساو" أقل شأنًا اجتماعيًا من "يوان شاو"، الذي كانت عائلته تضم مسؤولين في البلاط لمدة أربعة أجيال، وفي وقت مبكر، كان على "تساو تساو" الاعتماد على مساعدة الآخرين، وحقق النجاح الأولي بفضل محاولات "يوان شاو" للتوسع.

في ذلك الوقت، وبسبب القتال المستمر بين أمراء الحرب في الشمال الشرقي، انتشرت انتفاضات الفلاحين ذوي العمائم الصفر في "شاندونج" وقطاع طرق "هيشان" في "هيبي" (وهي فرع من العمائم الصفر) بسرعة؛ لذا اعتمد "يوان شاو" استراتيجية مزدوجة: أولًا، منع هذين التمردين من ضم قواتهما بعضهما إلى بعض؛ وثانيًا، السيطرة الصارمة على الروافد الوسطى والدنيا للنهر الأصفر من خلال توسيع نفوذه نحو "يانتشو"، ومعتقدًا أن "تساو تساو" الموهوب يمكن أن يكون ذا عون له عينه حاكمًا لقيادة "دونجون".

وهنا انتهز "تساو تساو" الفرصة وسارع للقضاء على قطاع طرق "هيشان" على طول جنوب النهر الأصفر، ودمج خيرة قوات العمائم الصفر في جيش "تشينج تشو" الخاص به، وبعد سلسلة من البعثات، أسس قواعد عسكرية في "يانتشو" و"يوتشو"، إلا أن كل الاقتتال الداخلي لم يترك سوى حفنة من أمراء الحرب المؤثرين المشغولين جميعًا بمحاولة توسيع أراضيهم، ولكن الآن اتخذ "تساو تساو" قرارًا سياسيًا حاسمًا حيث قرر السيطرة على الإمبراطور.

وهكذا في عام 196 م، تحت حماية كل من "تشانج يانج" و"هان شيان" و"يانج فنج" وغيرهم، عاد الإمبراطور "شيان" إلى عاصمته القديمة؛ ولكن "تساو تساو" بعث قواته المسلحة إلى "لويانج"، وقبل أن يكون لدى الآخرين الوقت للرد، أجبر الإمبراطور على الذهاب إلى "شوتشانج"، وبمجرد أن ضمنه تحت سيطرته أصبح "تساو تساو" يتمتع بميزة سياسية كبيرة. ومع ذلك، كان لا يزال محاطًا بأمراء الحرب، فنظم حملات ضد "يوان شو" في الشرق و"لو بو" في الجنوب

وجرد ثلاث حملات ضد "شوتشانج"، وهكذا نجح في وضع "يانج تشو"، و"شوتشو"، و"يانتشو"، و"يوتشو" تحت سيطرته، وباسم الإمبراطور نجح في استرضاء مختلف أمراء الحرب.

في الوقت نفسه، تدهورت العلاقة بين "يوان شاو" و"تساو تساو" مع ازدياد قوته وبدا أن الصدام بينهما لا مفر منه، واستجابة لحملات منافسه المستمرة، سارع "يوان شاو" لتوسيع قوته وضم قوات "جونج سون زان" إلى قواته، وهكذا كانت معركة "جواندو" الشهيرة الآن على الأبواب.

كان "يوان شاو" هو الذي خطا الخطوة الأولى بعد وقت قصير من قضائه و"تساو تساو" على خصومهما من خلال إيفاد جيش لمهاجمة "شو تشانج".

كان "تساو تساو" لا يزال ضعيفًا وعدد قواته قليلًا، وعلاوة على ذلك، كان هناك عدد من القوات الذين كانوا على استعداد للمحاربة ضده نيابة عن الإمبراطور، فعندما تلقوا أخبار بعثة "يوان شاو" الجنوبية، انشق اثنان من مسؤولي "تساو" سرًّا وذهبا إلى "يوان".. ومع ذلك، اعترف آخرون له بالحكمة والمواهب الشاملة، وآمنوا أنه سيفوز في المعركة، وقد أرسل "تساو تساو" حينها وحدة من قواته إلى "ليانج"، بيد أنه ترك قواته الرئيسة متمركزة في "جوان دو".

في عام 200 م، وصلت قوات "يوان شاو" أيضًا إلى "ليانج"، وأمر "يوان" الجنرال "يان ليانج" أولًا بحصار مكان يسمى "باي ما" ثم الهجوم عليه، وعند سماع ذلك، غير "تساو تساو" اتجاهه بدلًا من السير إلى "باي ما" وسار شمالًا إلى "يان جين"، وصد قوات "يوان شاو" التي كانت تتحرك في ذلك الاتجاه، ثم عاد بسرعة إلى "باي ما"، وهزم اثنين من أعظم قادة "يوان"، وهكذا حقق انتصارًا طفيفًا قبل الحملة الحاسمة.

بعد ذلك، قرر "يوان شاو" شن هجوم كبير، وسار بجيشه نحو الضفة الجنوبية للنهر الأصفر، ومع ذلك، لم يشتبك معه "تساو تساو" ولكن كان جنوده محتفظين بمواقعهم في الخنادق العميقة وراء أسوار عالية، واختار "يوان

شاو" تجاهل نصيحة مستشاريه مما أدى إلى ترك "شو يو" - وهو أحد كبار مستشاريه - له وذهابه إلى "تساو تساو"، حيث أعطاه معلومات أساسية حول إمدادات جيش "يوان"، وبعد ذلك بوقت قصير أمر "تساو تساو" 5.000 من نخبة فرسانه الذين اختارهم بنفسه بشن هجوم مفاجئ على "وو تشاو".

وعندما سمع "يوان شاو" بحصار "وو تشاو"، لم يسرع على الفور لإنقاذها، ولكن بدلًا من ذلك رأى الفرصة لإطلاق هجوم مفاجئ على قوات "تساو تساو" في القاعدة، ولذلك أمر "تشانج هي" و"جاو لان" بمهاجمة "جوان دو" بقواته الرئيسة، وفي ذات الوقت أوفد عدة آلاف من سلاح الفرسان لتعزيز "وو تشاو"، ولكن "تساو تساو" هزم الفرسان هزيمة ساحقة، وأحرقوا جميع إمدادات جيش "يوان شاو"؛ ونظرًا لأن قواته الرئيسة كانت راسخة ومستعدة، فشلت هجمات "تشانج هي" و"جاو لان" على "جواندو". ورأى الاثنان أن الوضع كان ميؤوسًا منه فقررا نقل ولائهما إلى "تساو تساو"، وفي ظل الهجوم العنيف، اضطر "يوان شاو" إلى التراجع عبر النهر الأصفر مع ابنه الأكبر "يوان تان" و800 من الفرسان حيث تُوفي بعد وقت قصير من مرض مزمن، وواصل "تساو تساو" قتل أبناء "يوان شاو" المتبقين، ومن ثم أنجز توحيد شمال الصين.

معركة المنحدرات الحمراء

بعد معركة "جوان دو" كان "تساو تساو" نافد الصبر للوفاء بطموحه لتوحيد البلاد، وقد قمع تمردًا في "وو هوان" (وهم شعب من البدو المنغوليين الرُّحل الذين سكنوا شمال الصين) ودفع تدريجيًّا جميع الذين يعيشون خارج سور الصين العظيم بعيدًا عنه، وفي جنوب الصين شكل "ليو بياو" في "جينج تشو" و"صن تشوان" شرقي نهر الـ"يانجتسي" تحديًا خطيرًا بالنسبة له.

بدأ "تساو تساو" بتدريب البحرية على بحيرة اسمها "شوان وو"، وركز قواته المسلحة حول مدينة "شو دو"، ومن أجل منع الهجمات من الخلف، استدعى "ما تنج" الذي حرس منطقة "ليانج تشو" في الشمال الغربي ومعه ابنه "ما تشاو"،

ونقل جميع أفراد أسرته إلى "يي تشينج"، حيث كانوا في الواقع رهائن لضمان منع التمرد في الشمال الغربي. وفي الوقت نفسه، قام "تساو تساو" أيضًا بتغييرات في الإدارة، حيث ألغى نظام اللوردات الثلاثة، وعين نفسه مستشارًا ورقيبًا أعلى جاعلًا من نفسه المستشار الأول عاقدًا كل السلطة الإدارية في يده، ثم بعد أن أعد لمعركة جديدة واسعة النطاق، حول انتباهه إلى "جينج تشو".

ولم يولد "ليو بياو"، وهو سليل ملكي وعالم معروف، من أجل الكفاح المسلح، فقد كانت "جينج تشو" جزءًا من مقاطعة "تشو" خلال حقبة الدول المتحاربة وشعبها معروف بشجاعته، ولكن على الرغم من وجود ما يقارب 100.000 جندي تحت إمرته لم يفعل "ليو بياو" أي شيء، وببساطة انتظر تغيير المد لصالحه ولم يعلن عن أسفه لعدم إرسال جيشه إلى الشمال إلا بعد قمع "تساو تساو" للمتمردين في "جينج تشو" و"وو هوان".

ومن ناحية أخرى، اتخذ "صن تشوان" في المنطقة الواقعة شرق نهر الـ"يانجتسي" احتياطاته حيث كان مستشاره "لو سو" قد أشار إلى استحالة إعادة إحياء بلاط إمبراطورية "هان"، وأنه لا يجب تضييع الوقت لاحتلال "جينج تشو" وتحقيق السيطرة على نهر الـ"يانجتسي"، وفي الوقت نفسه، لاحظ "جان نينج"، أحد مشرفيه، أن "ليو بياو" لم يكن سياسيًا بعيد النظر، وأن ابنيه لا يتمتعان بالكفاءة؛ ولذا سيكون من الحكمة الاستيلاء على منطقة "جيانج آن" قبل مجيء "تساو تساو" لضمها، واستمع "صن تشوان" لهذه النصيحة، واحتل مدينة "جيانج شيا".

وعند سماعه الخبر، طلب "تساو تساو" من مستشاره "شون يو" التوصل إلى خطة، فاقترح "شون يو" إطلاق حملة استكشافية باتجاه كل من "وان" و"يي"، والاستيلاء على المنطقة بأسرها بهجوم مفاجئ وهو ما فعله "تساو تساو" في محاولة لاحتلال مدينة "جينج تشو" قبل وصول "صن تشوان" إلى هناك، وفجأة في الشهر الثامن من 208 م، في الوقت الذي تواجه فيه الجيشان على

السهول الوسطى من "جيانج آن"، توفي "ليو بياو" وتولى ابنه الثاني "ليو كونج" مكانه، ووصلت قوات "تساو تساو" إلى "شين يي" في الشهر التالي، وتحت ضغوط قادته العسكريين، استسلم "ليو كونج" وقد تملك الخوف من "ليو باي" الذي اعتمد على قوة "جينج تشو"، وانسحب إلى الجنوب وأمر شقيقه بالدم "جوان يو" بالانسحاب إلى "جيانج لينج" مع قواته البحرية.

وكان "تساو تساو" يعلم أن "جيانج لينج" كانت موقعًا محوريًّا عسكريًّا ذا مخازن ضخمة من الإمدادات، فانطلق باتجاهها مع 5000 من سلاح الفرسان، وفي نهاية المطاف التقى عدوه في المنحدر الطويل في محافظة "دان جيانج"، حيث هزم "ليو باي" وهرب بعد معركة شرسة مع أتباعه بمن فيهم "تشاو يون" و"تشانج فاي" يحمون مؤخرته، وتصف السجلات كيف حارب "تشاو يون" بـ"ليو تشان" (الابن الوحيد لـ"ليو باي") مربوطًا إلى صدره، وكيف حمى زوجتي رئيسه بشجاعة، وكيف وقف "تشانج فاي" بعد قطع الجسر في الطرف الآخر، برمحه الطويل في يده يصيح متحديًا جيش "تساو تساو"، وهو تحدٍ لم يرد عليه أحد.

وخلال فراره قابل "ليو باي" بحرية "جوان يو"، ورحب بهم "ليو تشي" ابن "ليو بياو" الآخر بعد عبورهم النهر، وعندما انسحبوا جميعًا لحماية مدينة "شياكو"، التقوا بـ"لو سو"، مبعوث "صن تشوان" الخاص وشكلوا تحالفًا، وهكذا بدأت نذر "معركة المنحدرات الحمراء" تلوح في الأفق.

وعودة إلى "تساو تساو" الذي بعد فترة وجيزة من فوزه في المنحدر الطويل استولى على مدينة "جيانج لينج"، ومع توالي انتصاراته أصبح مسترخيًا، وقرر أن يأخذ قسطًا من الراحة في المدينة، وهي راحة كان من شأنها أن تكلفه فرصة ذهبية للقضاء على "ليو باي"، ثم بعد تجميع جميع قواته تباطأت وتيرة مسيره على طول نهر الـ"يانجتسي".

وقد زادت القوة العسكرية الساحقة لـ"تساو تساو" الخوف في قلوب مجموعة

"صن تشوان"، ولم تمر فترة طويلة من حملة "تساو تساو" جنوبًا، حتى اقترح شخص ما الاستسلام له ولكن في اللحظة الحاسمة وقف "لو سو" ضده، مشيرًا إلى أنه حيث كان "صن تشوان" أميرًا، فإنه سيقف في طريق خطط "تساو تساو" للتوحيد، وبالتالي سوف يقتل، وقد أرسل "صن تشوان" مستشاره "لو سو" للتوسط في تحالف مع "ليو باي" واستدعى "تشو يو" القائد الأعلى للبحرية للمشاركة في المناقشة، وبحلول الوقت الذي وصل فيه "لو سو" إلى "شياكو" كان "ليو كونج" قد استسلم لـ"تساو تساو" وهرب "ليو باي" من الجنوب؛ لذلك أسرع "لو سو" للحاق به ليلتقيه في نهاية المطاف في محافظة "دان جيانج"، وكان "ليو باي" سعيدًا جدًّا بقبول اقتراح "لو سو".

ومع ذلك، لم يكن التحالف بين "صن تشوان" و"ليو باي" سهلًا، فعقب إقامته في مدينة "فانكو" أرسل "ليو باي" مستشاره "تشو جي ليانج" لزيارة "صن تشوان" في "تشايسانج" لتحليل الوضع وإعطاء حليفه الثقة في حربه ضد "تساو تساو"، وكان في هذه المرحلة بعد عودته إلى "تشايسانج" أن قدم "تشو يو" تحليلًا حكيمًا، وأشار فيه إلى أن "تساو تساو" كان في الواقع خائنًا لبلاط "هان" على الرغم من أنه كان يشغل منصب مستشار الإمبراطورية، كما كان الجنود الشماليون غير معتادين على الحرب البحرية، وأصابتهم الأمراض في هذا المناخ غير المألوف، وعلاوة على ذلك، فإن عدد قوات "تساو تساو" لم يتجاوز بالفعل الـ160.000 شخص وليس 800.000 كما كانوا مرهقين، بينما بلغ عدد السجناء الذين أخذهم من "ليو بياو" 80.000 شخص على الأكثر.. لعب هذا التحليل دورًا مهمًّا في التحالف بين "صن تشوان" و"ليو باي"، ولم تمر فترة طويلة حتى وجه "تشو يو" نداء إلى "صن تشوان" ليجمع له 50 ألف جندي ليمركزهم في "شياكو"، مشيرًا إلى أنه سيدمر الغزاة، متشجعًا، سحب "صن تشوان" سيفه وقطع جزءًا من زاوية الطاولة، معلنًا أن أي شخص يدعو إلى الاستسلام لـ"تساو" سيتم التعامل معه، وقال "تشو يو" إنه سيكون من الصعب العثور على 50 ألف جندي مختارين، بيد أنه كان لديه 30 ألف بحار جاهزين بالمؤن والسفن والأسلحة، فغادر "تشو يو" معهم وذهب معه "لو سو" و"تشينج

بو"، وحثهم "صن تشوان" على المحاربة ببسالة والتراجع إلى المنطقة شرق نهر الـ"يانجتسي" في حالة الهزيمة، في الوقت الذي سيواجه هو فيه "تساو تساو" شخصيًّا.

لذلك، ارتحل "تشو يو" مع "تشينج بو" و"لو سو" قائدا الجيش نحو الغرب على طول نهر الـ"يانجتسي"، حيث واجهوا جيش "تساو تساو" واشتبكوا في المعركة، ولما كان "تساو تساو" غير معتاد الحرب في البحر فسرعان ما هزم وانسحب إلى مكان قريب من "وو لين" على الضفة الشمالية للـ"يانجتسي". ووجه "تشو يو" قواته إلى قاعدته العسكرية في "تشاي سانج" في الضفة الجنوبية، وتلا ذلك حالة من التوقف، فقد أصبح الجو الآن في عمق فصل الشتاء، وانتشر المرض في مخيمات "تساو تساو" الذي كان قد أرسى سفنه من أولها إلى آخرها للحد من دوار البحر في بحريته التي تألفت في الغالب من الشماليين الذين لم يعتادوا الحياة البحرية؛ وعند ملاحظة تحالف "صن - ليو" ذلك قرروا شن هجوم بالنار، وقد أرسل قائد الفرقة "هوانج جاي" في معسكر "تشو" رسالة لـ"تساو تساو" يتظاهر بالاستسلام وأعد سربًا من السفن تم تحويله إلى سفن مليئة بوقود النار والقصب الجاف والزيت الدهني.

وفي 7 ديسمبر 208 م، في ما اقترب سرب "هوانج جاي" (المنشق) من منتصف النهر، أشعل البحارة النار فيها ثم هربوا في قوارب صغيرة، وأسرعت السفن التي لا يقودها أحد تحملها الرياح الجنوبية الشرقية نحو أسطول "تساو تساو" وأشعلت النار فيه، وقد احترقت أعداد ضخمة من الرجال والخيول حتى الموت أو غرقت، وهنا أصدر "تساو تساو" أمر التراجع بعد أن رأى أن الوضع قد أصبح ميؤوسًا منه، وهكذا هزم "تساو تساو" إلى حد كبير لأنه قلل من تقديره لقوة عدوه.

ظهور الممالك الثلاث

وقد تسببت الحرب التي طال أمدها في خسائر فادحة لاقتصاد كِلا الجانبين

الشمالي والجنوبي، وبعد فترة وجيزة من "معركة المنحدرات الحمراء"، عاد "تساو تساو" إلى "شو تشانج"، بينما تحول "صن تشوان" و"ليو باي" إلى السياسة الدفاعية النشطة.

في ذلك الوقت، كان العديد من أمراء الحرب في سهل "شانشي" الأوسط موالين بشكل سطحي لبلاط "هان" الإمبراطوري. ومن أجل تعزيز مؤخرته، وإزالة أي تهديد من تلك الجهة، بدأ "تساو تساو" بالتقدم نحو هذه المنطقة بحجة القتال ضد "تشانج لو"، وهو أمير الحرب الذي كان مستقرًّا هناك، وووجه هذا العمل على الفور بمقاومة حازمة من مختلف أمراء الحرب، بما في ذلك "هان سوي" و"ما تشاو"، ولم تمر فترة طويلة حتى أطلق"تساو تساو" حملة ضد كل منهم، وحقق نجاحًا كبيرًا باسم الحكومة المركزية.

ومع ذلك، فإنه لم يستفد من مكاسبه؛ حيث أجبرته موجة مفاجئة من انتفاضات الفلاحين في قيادة "هي جيان" - جنوب شرق محافظة "شيان" الحالية في مقاطعة "هبي" - على العودة إلى السهول الوسطى، واغتنم "ليو باي" هذه الفرصة واستولى على "يي تشو"، وهي المحافظة التي تدير "سيتشوان" والمناطق المحيطة بها في ذلك الوقت.

كانت العلاقة بين القوات المحلية في "سيتشوان" ومجموعة "ليو تشانج" مشحونة، ولذا فعلى أمل الإطاحة بـ"ليو تشانج" بمساعدة خارجية، ذهبت القوات المحلية بقيادة "تشانج سونج" إليه وقالوا إنه لمنع التوسع على يد "تشانج لو"، زعيم طائفة مكاييل الأرز الخمسة الطاوية فإنهم سوف يحتاجون مساعدة "ليو باي"، وهكذا عندما دخل "ليو باي" مدينة "يي تشو"، أعطاه "ليو تشانج" كمية كبيرة من الإمدادات على أمل أن يكون قويًّا بما فيه الكفاية لمهاجمة "تشانج لو"، ولكن بعد وصوله إلى "جيا منج"، توقف ليو باي عن تقدمه لمدة عام كامل؛ ونتيجة لذلك، قتل "ليو تشانج" "تشانج سونج"، وقطع علاقته بـ"ليو باي".

وتحول "ليو باي" الآن إلى احتلال سلسلة من المدن بما في ذلك "فو شيان"، و"ميان تشو"، و"لو شنج" محاصرًا "تشينج دو" في نهاية المطاف، وفى الوقت نفسه، هرع "تشانج في" و"تشاو يون" تحت قيادة "تشو جي ليانج" إلى "يي تشو" عبر القناة، حيث اجتمع مع "ليو باي" في "تشينج دو".

كانت "يي تشو" المنطقة التي تغطي مقاطعة "سيتشوان" الحالية بما فيها "تشينج دو" و"تشونج تشينج" ومحافظة "شان شي" الجنوبية ومقاطعة "يونان" شمال غربي البلاد، ورأى "ليو تشانج" أن الوضع كان ميؤوسًا منه فقرر الاستسلام، ولكن على الرغم من حصوله على قاعدة، فشل "ليو باي" في الحفاظ على السيطرة عليها.

بعد أن سمع أن حليفه "ليو باي" احتل "يي تشو"، طالب "صن تشوان" بعودة "جينج تشو"؛ لذلك ذهب "ليو باي" إلى "جون جان" للتفاوض معه، وفي هذه اللحظة أرسل "تساو تساو" قواته نحو "هانتشونج"، وخوفًا من سقوط قاعدته الجديدة في "ييتشو" اضطر "ليو باي" لقسم السيطرة على "جينج تشو" مع "صن تشوان"، وفي المقابل قدم "صن تشوان" وعدًا بأنه إذا هاجم "ليو باي" مدينة "هانتشونج" - وهي الطريق الاستراتيجي إلى "ييتشو" - فإنه سيساعد عن طريق مهاجمة "هيفي" التي احتلها "تساو تساو" في ذلك الوقت، وفي 216 م، حالما غادر "تساو تساو" مدينة "هانتشونج" بقواته الرئيسة، هاجمها "ليو باي"، وبعد ثلاث سنوات احتل "دينج جون شان" وهنا هرع "تساو تساو" إلى "نانتشينج"، محركًا جيشه بأكمله إلى سهل "شانشي" الأوسط؛ ولم يشتبك مع "ليو باي" لأن "جوان يو" كان قد أرسل جيشه من "جيانج لينج" لمهاجمة "شيانج يانج" و"فانشنج"، وكان "صن تشوان" قد أرسل جيشه هو الآخر لمهاجمة "هيفي" طبقًا للاتفاق. وهكذا، كان القتال من أجل "هانتشونج" محفوفًا بالمخاطر بالنسبة لـ"تساو تساو".

وعقب نصيحة "سيما يي" و"جيانج جي" بدأ "تساو تساو" في الاستفادة من الخلاف بين "ليو باي" و"صن تشوان" حول من يملك "جينج تشو"، ومد يده

بالصداقة إلى "صن تشوان" بمنحه الألقاب والأراضي. وكان "صن تشوان" من ناحيته يخطط دائمًا لاستعادة "جينج تشو"، وذلك للسيطرة على نهر الـ"يانجتسي" كحاجز طبيعي، ولذلك، بعد أن حصل على ضمانات من "تساو تساو" لم يُضِع أي وقت في مهاجمة "جوان يو". وأمر "تساو تساو" بدوره قواته في مدينة "فان شنج" المحاصرة بشن هجوم مضاد على "جوان يو"، ولم تمر فترة طويلة حتى قام "لو منج" - وهو جنرال من مجموعة "صن تشوان" - بهجوم مفاجئ وقطع رأس"جوان يو"، وتولت مجموعة "صن تشوان" السيطرة على نهر اليانجتسي، في حين رفع "تساو تساو" في النهاية التهديد عن مدينتي "صن تشوان" المهمتين - "شيانج يانج" و"فانتشينج" - ومع فقدان "جينج تشو" اضطر "ليو باي" إلى بدء رحلاته الشمالية من "تشينتشوان".

وفي عام 216 م، كان "تساو تساو" قد توج ملكًا على"وي"، وفي 220 م، بعد رفع الحصار عن "شيانج يانج" و"فانتشينج"، عاد إلى "لو يانج" حيث توفي، وعلى الرغم من محاولات العديدين، بما في ذلك "صن تشوان"، رفض أن يعلن نفسه الإمبراطور، وبعد ثلاث سنوات من احتلال "هانتشونج" أعلن "ليو باي" نفسه ملكًا عليها.

وبعد وفاة "تساو تساو" تولى "تساو بي" ابنه مكانه، وقام بتغيير اسم النظام من "هان" إلى "وي" وانتقلت العاصمة إلى "لو يانج"، وعند سماع هذا، أعلن "ليو باي" نفسه الإمبراطور وسمى نظامه "هان"، في محاولة للمطالبة بالشرعية وحدها، ومع ذلك، عرف نظامه باسم مملكة "شو" وعاصمته "تشينج دو"، وبدلًا من إيفاد بعثة لمحاربة "تساو بي" في 221 م، هاجم "صن تشوان" في الشرق للانتقام لمقتل "جوان يو" واستعادة "جينج تشو".

أرسل"صن تشوان" جيشًا قوامه 50 ألف جندي يقودهم "لو شون"، وعندما أحرز جيش "شو" انتصارًا أوليًا، قرر لو شون بجرأة التراجع وإغراء عدوه لمطاردته ثم قام بهجوم مضاد مفاجئ.

استخف "ليو باي" بعدوه وتقدم بتهور، وبدلًا من استخدام التضاريس المواتية، ركز جيشه في عمق الجبال، وقد أمر "لو شون" - الذي وجدها فرصة مواتية - جنوده بإشعال النار في معسكرات "شو" مما أدى إلى هزيمته الكاملة.

أدى هذا اللقاء، المعروف باسم حملة "يي لينج"، إلى توازن القوى بين مملكة "شو" و"صن تشوان" من جهة وبين "وي" وتحالف "صن تشوان" و"شو" من جهة أخرى، وفي عام 222م، نصب "تساو بي" "صن تشوان" ملكًا على "وو"، وبعد ذلك جعل "جيان يي" - "نان جينج" الحالية بمقاطعة "جيانج سو" - عاصمة له (انظر الشكل 16)، وكانت تلك رسميًا بداية ظهور الممالك الثلاث (انظر الخريطة 8).



خريطة (8): منطقة نفوذ الممالك الثلاث.

الشكل (16): بورتريه لـ"سون تشوان" مؤسس دولة "وو" في فترة الثلاث ممالك.



كان ازدهار مملكة

"شـو" يـرجع أسـاسًا إلى استراتيجيات "تشو جي ليانج" التي شملت إحلال

السلام مع قبيلة "رونج" في الغرب، والتوحيد مع قبائل "يي" و"يوي" في

الجنوب، والتوحيد مع "صن تشوان" دبلوماسيًّا وسياسيًّا، وتحسين الإدارة،

وبعد فترة وجيزة من هزيمته في معركة "يي لينج" توفي "ليو باي"، وأصبحت

مملكتا "شو" و"وو" أعداءً ألداء، وبدأ "تشو جي ليانج" وهو مستشار ذكي لنظام

"شو" الإصرار على المصالحة مع "وو" وعلى المقاومة الشديدة لمملكة "وي"

القوية، وفي الوقت نفسه، كثف أيضًا عمليات الهجوم ضد الأقليات العرقية في

الجنوب الغربي، كانت أراضي "شو" واسعة جدًّا وكانت تعرف باسم "مملكة

الوفرة السماوية"، ولكن كان لا يزال من المستحيل حشد أكثر من 100.000

نسمة وجعلهم يشاركون في معركة لمدة عام ضد "وي"، وعلاوة على ذلك، لم

يكن سكان "شو" ملزمين بدفع الضرائب أو الدخول في خدمة الحكومة.

وقبل وفاة "ليو باي" كان "جاو دينج" قد تمرد في "يوي شي"، في حين رفض "تشو باو"، حاكم محافظة "زانج كي" العسكرية قبول القيادة، وعلاوة على ذلك، شكل "يونج كاي"، وهو من عائلة ثرية وقوية في "يي تشو"، تحالفًا مع "صن تشوان" بعد أن قتل "تشينج آنج" حاكم محافظة "يي شو" العسكرية، وضم قواته لزعيم محلي يدعى "منج هو".

وعندما أصبح "تشو جي ليانج" مستشارًا، أطلق حملة جنوبية في عام 225 م، وعين "ما تشونج" حاكمًا على محافظة "زانج كي" العسكرية وكان هو الذي قتل "تشو باو" في نهاية المطاف، كما أرسل "لي هوي" لقيادة "جيان ينج"، حيث

سرعان ما هزم عدوه واجتمع في النهاية مع القوات بقيادة "ما تشونج"، وبينما اندفع إلى الأمام كان "يونج كاي" قد قتل على يد "جاو دينج"، وبعد سلسلة من الانتصارات، قتل جيش "شو" "جاو دينج" أيضًا وتم القبض على "منج هو"، ولكن بعد ذلك بوقت قصير ومن أجل تحقيق الاستقرار في النظام الاجتماعي، بدأ "تشوجي ليانج" الاستفادة من الناس المنتمين إلى الطبقات العليا من القبائل العرقية، وكان "منج هو" من كبارهم فتمت ترقيته الآن ليكون بمثابة مساعد القصر للمراقب العام، وبالإضافة إلى حصولهم على كميات كبيرة من الإمدادات والقوة العسكرية، قدم "تشوجي ليانج" أيضًا الإقطاعيات للأقليات الإثنية في المنطقة الجنوبية الغربية، وكان احتلال "نان تشونج" قد وضع أساسًا سياسيًا واقتصاديًا سليمًا لبعثة "شو" الشمالية، وهكذا ازدادت قوة مملكة "شو" تحت إدارة "تشوجي ليانج".

وفي الوقت نفسه، تطورت مملكة "وو" أيضًا بسرعة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى تدفق أعداد كبيرة من الناس من الشمال، ففي العصور القديمة، كانت المنطقة الواقعة جنوب نهر "اليانجتسي" مساحات شاسعة من البرية؛ إلا أنها كانت متخلفة ومن ثم فقيرة نسبيًا، فلم يتم إدخال تربية الماشية إلى المنطقة من حوض النهر الأصفر حتى عهد أسرة "هان" الشرقية، وفي السنوات الأخيرة من عهد الأسرة اندلعت الحروب في الشمال بين القبائل البدوية والمزارعين؛ ففر الشماليون إلى الجنوب، وبالتالي خلقوا قوة عاملة هائلة أخذت معها أدوات وتقنيات إنتاج متقدمة، كما استفادت "وو" من الحملة ضد قبيلة "شان يو" التي تعيش في جنوبي "آن هوي" و"تشي جيانج" و"جيان جشي" و"فو جيان"، وبدءًا من عام 200 م حتى 237 م، أجبرت مملكة "وو" المنشأة حديثًا الأهالي على امتهان الزراعة ودفع الضرائب؛ لذا جمعت "وو" ثروة من المواد والقوى العاملة.

هذه التطورات في ممالك "شو" و"وو" سمحت لهم بالحفاظ على موقفهم في ما يتعلق بالعدو، ألا وهو دولة "وي"، وقد تم الحفاظ على التوازن لثلاثي لمدة

ستين عامًا من إعلان "تساو بي" نفسه إمبراطورًا في 220 م حتى تدمير "وو" في 280 م، وخلال هذه الفترة على الرغم من اندلاع الحرب في بعض الأحيان، تمكن حكام هذه الممالك الثلاث من الاهتمام بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية؛ وبالتالي لعبوا دورًا في تحريك الصين مرة أخرى نحو إعادة التوحيد.

جين الغربية والشرقية

ملخص الوحدة خلال عهد أسرة جين

عندما استولى "تساو تساو" على السلطة الإمبراطورية قرب نهاية عهد أسرة "هان"، أصيبت الأسر المؤثرة بالإحباط لأنه اختار مسؤوليه إلى حد كبير على أساس الجدارة، إلا أن ابنه الأكبر "تساو بي" أعاد هذه الأسر القوية إلى الواجهة، ومنذ ذلك الحين، نما وضعهم وازداد، وظهرت شخصية رئيسة أصبحت مواهبها واضحة بشكل خاص خلال عهد الإمبراطور "مينج" ("تساو روي")، وكانت هذه الشخصية هي "سيما يي" الذي تم تعيينه لقيادة الجيش ضد الحملة الشمالية لمملكة "شو" وإخماد تمرد "جونجسون يوان" شرق نهر "لياو" في شمال شرق الصين، حيث أتاحت إنجازاته العسكرية، إضافة إلى أصله النبيل والمؤثر وضعًا خاصًا.

وفي أوائل عام 239 م، عهد الإمبراطور "مينج" على فراش الموت بالإمبراطورية وخلفه الشاب، "تساو فانج"، إلى أكثر الوزراء خبرة والموثوق بهم بمن فيهم "سيما يي"، ولكن الآن بدأ الصراع على السلطة بين "سيما يي" و"تساو شوانج"، وهو عضو في العائلة المالكة، الذي خفض رتبة "سيما يي" إلى منصب المرشد الكبير، حارمًا إياه من قوته العسكرية، ولكن بدلًا من الدخول فورًا في معركة من أجل التفوق، أخذ "سيما يي" وقته وأحكم خطته حتى أنه عندما زاره الناس كان يدّعي ضعف سمعه وبصره وأنه لم يعد يتمتع بالقوة البدنية حتى أنه كان يسكب الطعام على ملابسه.

وفي عام 249 م، رافق "تساو شوانج" الإمبراطور "تساو فانج" في زيارة لقبر الإمبراطور "مينج" في ضريح "جاوبينج" خارج "لويانج"، حيث كان راضيًا عن سلوك "سيما يي"، وكان بطيء الفهم نوعًا ما فلم يستطع رؤية خطوة منافسه القادمة، وعندما ضرب "سيما يي" ضربته ونفذ الانقلاب وعطل الوصول إلى المدينة، لم يكن لدى الامبراطور أي فكرة عن كيفية الرد، وفي نهاية المطاف بعد ليلة كاملة من المشاورات استسلم وهي خطوة لا أثر لها إذ سرعان ما قتله "سيما يي" على أي حال، وأصبح هذا يعرف باسم "حادث ضريح جاوبينج".

أصبحت السيطرة بيد "سيما يي" ولكن ديكتاتوريته لم تحظ بشعبية، فتم تنظيم ثلاثة تمردات عسكرية موالية لـ"تساو" ضد عائلة "سيما" في "هواي نان" - المنطقة الواقعة جنوب نهر "هواي" وشمال نهر الـ"يانجتسي"، في ما أصبح يعرف باسم "ثورات التمرد الثلاث في "هواي نان" - وكان أول من قاد الأولى "وانج لينج" القائد الأعلى وسرعان ما قمعها جيش "سيما يي" وقتل "وانج لينج" فور استسلامه، ولكن في أثناء العودة إلى ديارهم، مرض "سيما يي" ومات، حيث قالت الأسطورة إن روح "وانج لينج" قد أخافته حتى الموت، وتولى قريبه "سيما شي" الحكم وفي عام 254 م، شك بأن "تساو فانج" قد أراد القضاء عليه، فخلع الإمبراطور ووضع "تساو ماو" مكانه.

في العام التالي أطلق "جوانتشيو جيان" و"ون تشين" التمرد الثاني، وعلى الرغم من مرضه انضم "سيما شي" إلى المعركة؛ وقتل "جوانتشيو جيان" واستسلم "ون تشين"، توفي "سيما شي" بعد ذلك بفترة وجيزة وتقلد القوة العسكرية شقيقه الأصغر "سيما تشاو"، وبالتعاون مع قوات "وو"، كان "تشوجي دان" التالي للتمرد، وأطلق "سيما تشاو" هجومًا تمكن من اعتراض "تشوجي دان" وقواته في مدينة محاصرة، وفى النهاية قتلهم جميعًا بسبب تأخر وصول قوات الإغاثة في "وو".

وفيما هزمت القوات الموالية لـ"تساو" واحدة تلو الأخرى، تنامت قوة عائلة

"سيما" على نحو متزايد، وقد تفهم الإمبراطور "تساو ماو" بشكل كامل أنه سيعرض حياته لاستعادة كرامة الإمبراطورية، وقرر أنه سيأخذ على عاتقه الخلاص من "سيما تشاو"، ووفقًا لذلك، قاد جنود قصره وخصيانه المسلحين مباشرة إلى قصر عدوه، وعند وصوله إلى بوابة القصر، اكتشف الإمبراطور الشاب أن خصمه كان جاهزًا وفي انتظاره، ولكنه اندفع إلى الأمام مستلهمًا بطولة أسلافه ليطعن برمح حديدي طويل في صدره على يد ضابط يُدعى "تشينج جي"، وتوفي مباشرة.

تسببت وفاة الإمبراطور أمام بوابة قصره في ضجة كبيرة في جميع أنحاء "لو يانج"، وبعد ذلك بوقت قصير، قتل "سيما تشاو" "تشينج جي" لخنق النقاش، ونصب "تساو هوانج" ابن الأمير "يان" على العرش وغير اسم الإمبراطور الجديد إلى "تساو هوان"، مما يشير إلى رغبته العميقة في تغيير السلالة، ولكن أولًا، هاجم مملكة "شو" جنوب غرب البلاد.

وفي "شو"، توفي المستشار "تشوجي ليانج"، وبدأ "ليو تشان"، صاحب السيادة الشاب، حكمًا تميز بالفساد وعدم الكفاءة، وعلى الرغم من تعيين "جيانج وي" للدفاع عن الحدود، إلا أن الحاكم الشاب لم يكن يثق به؛ لذلك صمم "سيما تشاو" خطته للتسلل إلى الشرق ثم الهجوم في الغرب، وفي 265 م، أصدر أيضًا أمرًا لبناء السفن للهجوم عبر النهر على نظام "شو"، وفي خريف العام نفسه أرسل "دنج آي" و"تشوجي شو" لمهاجمة "شو"، كما أمر "تشونج هوي" مفوض الجيش الغربي بمواجهة "جيانج وي" في "جيانج".

وعبر "دنج آي" النهر بالقرب من "ينجبينج"، وقاد جيشه على طول المسارات الجبلية الخطرة لمسافة 300 كم، ثم هاجم فجأة على سهل في "تشينجدو"، واستسلم قائد "شو" "ما مياو" في "جيانجيو" -محافظة "جيانجيو" الحالية بمقاطعة "سيتشوان"-، وقاتل "تشوجي تشان"، ابن "تشوجي ليانج" حتى الموت في "ميانتشو"، واندفع "دنج آي" على وجه السرعة محاصرًا مدينة "تشينجدو"، وأجبر "ليو تشان" على الاستسلام.

بعد أن محى مملكة "شو"، توفي "سيما تشاو" وتولى ابنه "سيما يان" مكانه، وفي عام 265 م، أجبر "سيما يان" الإمبراطور "يوان" من مملكة "وي" بالتخلي عن العرش وتغيير اسم السلالة الحاكمة إلى "جين"، وبوجود عاصمتها في "لويانج" أصبحت تعرف باسم أسرة "جين" الغربية، وبعد صعود العرش منح "سيما يان" جده "سيما يي"، وعمه "سيما شي" ووالده "سيما تشاو" لقب الإمبراطور بعد وفاتهم، وهو عمل ذو أهمية سياسية، حيث التقى مع التقاليد الكونفوشيوسية، وبالتالي أظهر أن عائلة سيما ستحافظ بصدق على روح الكونفوشيوسية، كما أعطى جميع أعضاء أسرته ألقاب الأمراء واستوعب تمامًا أن نظام "تساو" قد سقط لأنه فشل في إبقاء قبضة مشددة على السلطة؛ وهكذا أصبح جميع الأعضاء الرئيسين في أسرة "سيما" ذوي سلطة.

في هذه المرحلة، كانت مملكة "وو" متعثرة، فقد كان "صن هاو"، صاحب السيادة، قاسيًا ومطالبًا، فهو لم يفرض ضرائب ثقيلة وعملًا قسريًا فحسب، بل كان يستخدم أقسى العقوبات، مثل قلع العينين، وإشعال الرأس وسلخ الجلد، وكانت علاقته مع وزرائه تتسم بالقلق الشديد، ولم تمر فترة طويلة حتى فقدت "وو" موقعها الدفاعي في اتجاه المنبع من نهر "اليانجتسي" بسبب تدمير مملكة "شو"، وفي ظل ظروف مواتية قد تكون سلالة "جين" قد تمكنت من توحيد البلد كله في هذه المرحلة، ولكن الخلاف بين المحافظين والوزراء أخَّرَ الأمر عشر سنوات أخرى قبل أن تبدأ الحملة ضد "وو"، وعندما بدأت تحت قيادة القائد الأعلى "وانج جون"، هرعت البحرية الكبرى من "سيتشوان" نحو "جيانكانج" عاصمة "وو" على طول نهر الـ"يانجتسي"، كان النصر سريعًا؛ حيث فشل أسياد ووزراء "وو" في المقاومة، وفي 280 م، استسلم "صن هاو"، وأعطي لقب ماركيز "جيمينج".

ويبدو الآن أن "سيما يان" قد وحدت البلاد؛ وحيث كان يشعر بفخر كبير لنجاحه، احتفلت الإمبراطورية كلها، ولكن الوضع لم يدم طويلًا؛ فقد كانت قبائل الأقلية في الشمال تنتظر الفرصة للبدء في فترة جديدة من

الاضطرابات.

تمرد الأمراء الثمانية

جلب توحيد البلاد تحت ظل "جين" الغربية بعض الاستقرار، ومع ذلك نظرًا لأن النبلاء القاسين لا يزالون يحتلون جزءًا كبيرًا من الأرض، واصل الشعب العيش في بؤس، ومن أجل حل هذه المشكلة وتطوير الاقتصاد، بدأ الإمبراطور "وو" سلسلة من التدابير الفعالة، مثل إغاثة للاجئين والحد أو الإعفاء من السخرة، وقدم أيضًا تسجيلًا للأسر المنتجة، وكانت الفكرة تعتمد على تصعيب الأمر على النبلاء لضم الأراضي؛ إلا أن ذلك كان أقل فعالية.

واعتقد الإمبراطور "وو" أن "جين" نجحت في الإطاحة بـ"وي"؛ لأن أفراد العائلة المالكة لم يكن لديهم القدرة على دعم البلاط، لذلك عين سبعة وعشرين عضوًا من أمراء العشائر، ووضعهم كمسؤولين عن الشؤون العسكرية، وفي الوقت نفسه، أقام الأمراء صداقات جيدة مع أسر المسؤولين، ومع ذلك، في عام 290 م توفي الإمبراطور "وو"، وتولى "سيما تشونج" العرش، حيث أصبح الإمبراطور سيئ السمعة وغير الكفء "هوي"، وفي ذلك الوقت، أخذ "يانج جون" والد زوجته، مقاليد السلطة في يده وتجبر واستبد، وقيل إنه قد أزاح "سيما ليانج" أمير "رونان" المرموق مما تسبب في الكثير من الغضب بين أفراد الأسرة المالكة.

وعلى الرغم من أن الإمبراطور "هوي" كان ذا نفس لينة وضعيفة، كانت إمبراطورته "جيا نانفنج" قاسية ومتعطشة للسلطة، ولم تعد قادرة على تحمل ديكتاتورية "يانج جون"، واتصلت سرًّا بـ"سيما ليانج" وأمير تشو، "سيما وي"، وفي العام التالي، أرسل "سيما وي" 400 جندي من حامية الإمبراطورية إلى العاصمة وقتلوا "يانغ جون"، وسرعان ما جعلت الإمبراطورة "جيا" "سيما ليانج" مساعدًا للحاكم، لكنها خشيت الدعم الشعبي؛ لذلك أرسلت "سيما وي" لقتله ثم أخذ مكانه، وبعدها بناء على نصيحة من مسؤول يُدعى "تشانج هوا"، أوقعت

"سيما وي" في فخ وقتلته، وأصبحت الآن تمارس السلطة الإمبراطورية بنفسها، تمت ترقية "تشانج هوا" وأصبح سياسيًّا ذا نفوذ كبير للغاية، وبذل قصارى جهده لمساعدة الحكم وإعطاء الاستقرار للنظام، حتى أنه قام بتوبيخ الإمبراطورة لعطشها المفرط للسلطة، وكان من المثير للدهشة أنه نجا من العقاب.

ولم تمر فترة طويلة حتى اعتبرت الإمبراطورة "جيا" ولي العهد "سيما يو" أكبر تهديد لها، فقامت في عام 299 م بنصب فخ له مدعية أنه كان يخطط لقتلها، وبفضل المعارضة الشديدة من "تشانج هوا" ووزراء آخرين لم تتمكن إلا من سجنه، وهو عمل أغضب الشعب وأضعف النظام، كما كانت هناك عاصفة سياسية أخرى تختمر.

بعد أن وقفا سابقًا إلى جانب الامبراطورة "جيا" أصبح "سيما لون"، أمير تشاو، و"سيما يا" يخططان الآن للتخلص منها، واقترح "صن شيو" أحد أتباعها، استخدامها لقتل ولي العهد ثم الانتقام منها لمقتل الأمير، وهكذا قتل ولي العهد، وفي الوقت نفسه، تحالف "سيما لون" مع "سيما رونج" أمير "ليانج"، و"سيما جيونج"، أمير "تشي"، الذي أرسل قوات لقتل الإمبراطورة جيا، ونصّب "سيما لون" نفسه المستشار والقائد العام، وبالتالي أصبح هو الحاكم بشكل فعلي.

بعدها في عام 301 م، انتزع "سيما لون" العرش من ابن أخيه الإمبراطور "هوي"، مما سبب القلق لكثيرين، حتى "سيما جيونج" أمير "تشي" و"سيما يينج"، أمير "تشينجدو" إضافة إلى "سيما يونج"، أمير "هيجيان" مما أدى لإرسالهم القوات لقتله، وأعيد الإمبراطور "هوي" إلى العرش ودخل "سيما جيونج" إلى البلاط لمساعدته، ولضمان طول عمر النظام، قام "سيما جيونج" بتعيين أمير "تشينجهي" البالغ من العمر ثماني سنوات "سيما تان"، وليًّا العهد وعين نفسه كمرشد له.

في عام 302 م، نصح أمير "هيجيان" الطموح "سيما يونج" الإمبراطور بالتخلي عن "سيما جيونج"، ووضع أمير "تشينجدو" المرموق "سيما يينج" في مكانه، وفي الوقت نفسه أمر أيضًا أمير "تشانجشا" "سيما يي" بمهاجمة "سيما جيونح"، وعلى الرغم من أن قوات "سيما جيونج" كانت أقوى إلا أن "سيما يي" انتصر وقتل "سيما جيونج" في المعركة، وبالتالي تولى "سيما يي" زمام السلطة.

وفي 303 م، أمر "سيما يونج" عمه "تشانج فانج" بقيادة 70.000 جندي مباشرة إلى "لويانج"، وفي الوقت نفسه، أرسل "سيما يينج" أمير "تشينجدو"، أكثر من 200.000 جندي نحو "لويانج"، فجعل الإمبراطور "هوي" "سيما يي" القائد الأعلى لمقاومة هجومهم، واستمرت المعركة لعدة أشهر، ولكن قوات "تشانج فانج" فشلت في اقتحام المدينة، وبمجرد أن كانوا على وشك الانسحاب نظم "سيما يو" أمير "دونجاي" فجأة تمردًا وسجن "سيما يي" في مدينة "جينيونج"، وبالتالي سلمت السلطة إلى "سيما يينج".

عاد "سيما يينج" لحراسة قاعدته الخاصة في مدينة "ييتشينج"، وجعل نفسه شقيق التاج للإمبراطور "هوي" وبعبارة أخرى، خلفه، وبعد ذلك أصبح صعب المراس مستبدًا ومنحازًا، وكان ذلك خيبة أمل كبيرة لكل من المسؤولين والشعب.

في عام 304 م، جمع "سيما يو" أمير "دونجاي" والجنرال "تشن تشن" أكثر من 100.000 جندي لشن هجوم ضده، ولكنهم هزموا، وسجن الإمبراطور "هوي" في "يي تشينج"، ولكن في الوقت نفسه، اتحد "وانج جون" مع "سيما يينج" ورؤساء "شيان بي" و"وو هوان" - مجموعات البدو الرحل الشمالية - لإرسال قوات لقمع "سيما يينج"، وبعد بعض النجاح، اقتربوا من مدينة "ييتشينج"، أجبر "سيما يينج" على احتجاز الإمبراطور "هوي" أسيرًا والفرار إلى "لو يانج"، قاد "تشانج فانج" أكثر من 10 آلاف جندي لاستقبالهم في جبل "مانج"، وبعد فترة وجيزة من وصوله إلى "لو يانج"، استولى "تشانج فانج" على السلطة

العسكرية والإدارية، ونهب المدينة واحتجز ليس فقط الإمبراطور "هوي" ولكن أيضًا "سيما يينج" و"سيما تشي"، أمير "يو تشانج"، وفي وقت لاحق، استبدل "سيما يونج" "سيما يينج" بـ"سيما تشي" شقيق الإمبراطور كولي للعهد بدلًا منه.

في 305 م، أرسل "سيما يو" جيشًا لقمع "سيما يونج" بحجة أن "تشانج فانج" قد اختطف الإمبراطور، وبدلًا من قبول نصيحة "تشانج فانغ"، قطع "سيما يونج" رأسه من أجل التفاوض على السلام مع "سيما يو"؛ ولكن "سيما يو" لم يوافق على هذا وفر "سيما يونج" بعد أن هزم جيشه إلى جبل "تايباي"، وفي 306 م، استقبل "سيما يو" الإمبراطور "هوي" في مدينة "لويانج" واستلم السلطة.

وهكذا فإن الفوضى التي تسبب بها الأمراء الثمانية قد وصلت أخيرًا إلى نهايتها، وفي 307 م، توفي الإمبراطور "هوي"، وتولى "سيما تشي" العرش، وتم تغيير عنوان الحكم لـ"يونجيا"، وقد تسببت فترة الستة عشر عامًا هذه في حدوث فوضى، فقد أحرق الجنود وقتلوا ونهبوا، في حين بدأ الأمراء في الحصول على الدعم من قوميات الأقليات في الشمال، مما زرع بذور المشاكل في المستقبل، وقد استنزفت أسرة "جين" الغربية الآن، وكان شعبها معوزًا، ومع ذلك لم يكن هناك راحة، في 309 م، قاد "ليو يوان"، وهو نبيل مهاجر من "شيونجنو" قواته لمهاجمة عاصمة "جين" الغربية واحتل "تشانج آن" في عام 316 م، وهكذا كانت النهاية الرسمية لأسرة "جين" الغربية، استمر التمرد والمعارك الآن لمئات السنين، وغزت قوات الشعب من غير "هان" مثل "شيونجنو"، و"جي"، و"دي"، و"تشيانج" و"شيانبي" السهول الوسطى للصين واحدًا تلو الآخر، والتقى بعضها بعضًا في المعركة باستمرار، واتصلت هان وهذه الجماعات العرقية الأخرى بشكل أكبر مما أصبح الخلط الناتج عن الشعوب اتجاهًا تاريخيًا لا رجعة فيه.

حكم المائة عام في ظل أسرة "جين" الشرقية:

أرسل أمير لانجيا "سيما روي" خلال ثورة الأمراء الثمانية، وهو قريب بعيد لأمير "دونجهاي" "سيما يوي"، لحراسة "شيابي"، وهي "سوينينج" الحالية في مقاطعة "جيانجسو".

وبدلًا من ممارسة السلطة الحقيقية، تم تكليفه فقط بإدارة المنطقة بالنيابة عن "سيما يو"، وسمم "سيما يو" الإمبراطور "هوي" ووضع الإمبراطور "هواي" على العرش بدلًا منه ممسكًا بالسلطة الإمبراطورية الحقيقية لنفسه، وبدءًا من تلك النقطة قضى "سيما روي" المزيد والمزيد من الوقت في "جيانيي" -التي سميت في وقت لاحق "جيانكانج" وكانت في موقع "نانجينج" الحالية-، واكتسب تدريجيًّا مجموعة من الأتباع الموهوبين، ومع ذلك، وبما أن جنوب شرق الصين كانت قاعدة مملكة "وو"، فقد تم قمع أسرها المحلية في عهد "جين" الغربية، وأصبح لديها ضغينة عميقة ضدها، ودون دعم هذه العائلات، عرف "سيما روي" أنه سيكون من الصعب تحقيق طموحاته، عند هذه النقطة، ساعد "وانج داو" وهو من عائلة شمالية بارزة "سيما روي" لتحويل الوضع لصالحه.

رأى "وانج داو" بوضوح تام أن لإقامة قاعدة في الجنوب الشرقي ستكون أهم مهمة هي الحصول على دعم لـ"سيما روي" المرموق، لذلك، خلال مهرجان أضاحي الربيع، جلس "سيما روي" في العربة الإمبراطورية في ما تبعه "وانج داو" و"وانج دان"، والأسر الشمالية الأخرى على الخيول، وهو ما يدل على أهمية رمزية كبيرة للأسر الجنوبية، الذين أعجبوا بدعم الأسر الشمالية القوية لـ"سيما روي"، وهكذا بدعم من "وانج داو" نمت هيبة "سيما روي".

وفي الوقت نفسه في الشمال، ازدادت الحرب حدة، وهربت عائلات المسؤولين إلى الجنوب الشرقي، وبدأ "سيما روي" الآن بتجنيد المواهب من كل من الجنوب والشمال، مما ساعد "جين" الشرقية على وضع أسس متينة لنظام قوي ومستقل، وكتب الإمبراطور "مين" المعزول في عاصمته "تشانج آن" رسالة إلى "سيما روي" يطلب منه الدعم المسلح الذي رفض "سيما روي" إعطاءه له، ثم في عام 316 م، هاجم "ليو ياو"، إمبراطور "شيونجنو" مدينة "تشانج آن"،

وبسبب النقص في كل من القادة العسكريين والمؤن اضطر الإمبراطور "مين" للاستسلام، وبعد نصف قرن فقط، مُحي نظام "جين" الغربية عن الوجود، وبعد عامين في 318 م، صعد "سيما روي" العرش في "جيانكانج" وأبقى لقب نظامه "جين"، وهكذا أصبح يُعرف باسم أسرة "جين" الشرقية.

وقد لعب "وانج داو" وعائلته دورًا نشطًا في وضع "سيما روي" على العرش، ولذلك كان من الطبيعي أن ينحرف "سيما روي" عن المتبع خلال مراسم التتويج وطلب من "وانج داو" الجلوس إلى جانبه، وفي السنوات الأولى من عهد أسرة "جين" الشرقية تم تعيين الشقيقين "وانج داو" و"وانج دون" مسؤولين عن الشؤون العسكرية والسياسية، وفي وقت لاحق، انتقلت السلطة إلى أسر أخرى؛ نظرًا لأنهم يمتلكون مساحات من الأراضي ولديهم جيوش خاصة بهم، فكان أسياد نظام "جين" الشرقية يعاملونهم بأكبر قدر من الاحترام، بحيث أصبحت السلطة الإمبراطورية زينة تقريبًا، والواقع أن استقرار البلد اعتمد على التعايش السلمي بين هذه الأسر.

وفي السنوات الأولى من نظام جين الشرقية، عمل المستشار وانج داو بجد للتوفيق بين أسر الشمال والجنوب؛ وكان هذا أمرًا منطقيًا نظرًا للضغط من "شيونجنو" في الشمال، ولكن التحالف كان هشًّا مع ذلك حيث أصبح الصراع بين الأسر، مع العائلة المالكة وحتى مع الشعب من الأمور الثابتة، وفي الوقت نفسه، توقع الناس من "سيما روي" السير لاستعادة السهول الوسطى، ولكن الاضطرابات المدنية المتكررة منعت مثل هذه الحملة، وفي 322 م، قاد "وانج دان" تمردًا في مدينة "ووشانج" بعد نفاد صبرهم من محاولات "سيما روي" لإضعاف عائلتهم، وتلا ذلك السيطرة على "جيانكانج"، ونتيجة لتأثره العميق توفي الإمبراطور بعد فترة وجيزة؛ كما توفي "وانج دان" الذي كان يُعاني بالفعل من المرض خلال الحملة، وانهار التمرد.

ومع ذلك، سرعان ما نشأ نزاع جديد بين "سو جون"، الذي قدم مساهمة كبيرة في الحرب ضد المتمردين، و"يو ليانج"، الذي أصبح في ما بعد من أقوى

المسؤولين، وباسم السيادة استدعى "يو ليانج" "سو جون" إلى العاصمة، ظاهريًّا ليكون بمثابة مسؤول عن الخزانة الوطنية ولكن في الواقع ليحرمه من القوة العسكرية، فتمرد "سو جون" على الفور، وهو التمرد الذي استمر لمدة عام كامل قبل أن يقمع، بعد ذلك، حصرت السلطة المركزية في يد عائلة "يو ليانج" لما يقرب من عشرين عامًا، مما أدى استياء الأسر القوية الأخرى إلى حد كبير، وهنا استغل "هوان ون" وهو أمير حرب قوي هذا الاستياء، وارتفع ليحل محل "يو ليانج"، ثم أطلق ثلاث حملات شمالية على التوالي، ولكن بسبب الاقتتال الداخلي بين العائلات ذات النفوذ، لم يتمكن من تعزيز مكاسبه، وفي 369 م عانى جيشه هزيمة كبيرة في "فانجتو"، ولكن طموحه لم يهتز، ففي 372 م، توفي الإمبراطور "جيانوين" وفي العام التالي، قاد "هوان ون" جيشه إلى العاصمة وانتشرت شائعات أنه خطط لذبح كل من أسرتي "وانج داو" و"شي آن" ثم أعلن نفسه حاكمًا، وذهب "وانج تانتشي" و"شي آن" لمقابلته، وبفضل غنى "شي آن" لا "وانج تانتشي" تمكنا من تجنب الأزمة، وبدءًا من تلك النقطة ارتفعت هيبة "شي آن"، وعندما توفي "هوان ون" بعد أربع سنوات، كان "شي آن" هو من تولى زمام الأمور وأصبحت عائلته المسؤولة عن أسرة جين الشرقية.

في عام 382 م، تم توحيد شمال الصين جزئيًّا على يد نظام "تشين السابق"، وفي 383 م، قاد "فو جيان"، حاكم نظام "تشين" السابق، جيشًا من 900.000 جندي جنوبي من "تشانج آن"، راغبًا في ابتلاع "جين" الشرقية في معركة واحدة، إلا أن "فو جيان" استهان بعدوه، وكانت قوات "جين" الشرقية قد تألفت من الجنود الذين تعرضوا للاضطهاد على يد "شيونجنو"، وقد خضعوا لتدريبات صعبة وكانوا خصومًا هائلين، وفي المراحل المبكرة من الصراع مع ذلك سارت الأمور كما أراد "فو جيان"، ومع تراجع جيش "جين" الشرقية وباعتبار النصر النهائي قريبًا، أرسل "تشو شو"، وهو قائد عسكري استسلم له للقاء "شي شي"، قائد قوات "جين" الشرقية، ولكن بدلًا من تقديم النصح لمعارضيه بالاستسلام، شجع "تشو شو" "شي شي" على المقاومة، حتى أخبره

أنه إذا هزمت طليعة قوات "فو جيان" فإن القوات الرئيسة يمكن أن تسحق أيضًا لأنها ستفشل في الاحتشاد في الوقت المناسب؛ لذلك قرر "شي شي" الهجوم بدلًا من الدفاع الذي كان قد خطط له.

وفي نهاية المطاف، وقف الجيشان المتنازعان في مواجهة بعضهما بعضًا في نهر "فاي"، ومن أجل جذب عدوه عبره، أمر "فو جيان" بالتراجع، ولكن بشكل غير متوقع، سقطت قواته في حالة من الفوضى وهزمت تمامًا، ويعرف هذا باسم معركة نهر "فاي" وهي مثال نموذجي لهزيمة جيش صغير لجيش أكبر منه، وبعد عامين، توفي "شي آن"، وتولى فريق الأب / الابن "سيما داو تزي" و"سيما يوانشيان" السلطة، وبسبب الفساد السياسي على نطاق واسع، قادت طائفة مكاييل الأرز الخمسة الطاوية بقيادة "صن إن" التي كان لها الكثير من الأتباع التمرد ضد نظام "جين" الشرقية، ولكن في عام 402 م قتل في المعركة، واختير "لو شون"، شقيق زوجته خلفًا له واستمر في الحرب، مما أضعف بشكل كبير العائلات المؤثرة في "جين" الشرقية، ولم تمر فترة طويلة حتى بدأ "ليو يـو"، وهـو القائد العام لميليشيا حامية الشمال بتحويل دفة الأمور ضد المتمردين الفلاحين، وتمكنت قواته من إلحاق الهزيمة بهم، ثم في 420 م، خلع الإمبراطور "جونج" واعتلى العرش بنفسه، مغيرًا لقب النظام إلى "سونج".

الفصل الثامن

السياسة والثقافة في السلالات الجنوبية والشمالية

(420 – 589م)

المقدمة

يطلق اسم السلالات الجنوبية والشمالية -التي يشار إليها غالبًا باسم السلالات الشمالية والجنوبية في علم السينولوجيا الغربية- على فترة طويلة من الصراع والانقسامات التي توضح القوى الجاذبة التي واجهت العديد من المحاولات لتشكيل حكومة مركزية والانقسام بين "هان" وغير "هان"، وخلال هذه الفترة، حكم شمال الصين بسلسلة من السلالات التي كانت من غير "هان" والبدو الرحل في المقام الأول على النقيض من "هان" الزراعية المستقرة، وكانت هناك هجرات واسعة النطاق من "هان" الصينية من الشمال إلى الجنوب بسبب الصراع العسكري المستمر وجنوب الصين كانت تسيطر عليها السلالات الخمس المعترف بها على أنها عرق "هان" الصيني.

وأهم هذه السلالات كان "وي" الشمالية التي أقامت في عاصمة "هان" القديمة "لويانج" وحولتها إلى مركز ثقافي كبير، وكانت "وي" الشمالية البيت الحاكم لعشيرة "توبا" من القبيلة المنغولية شيانبي، ولكن فرضت اللغة والأسماء والكثير من ثقافة "هان" الصينية على الجماعات العرقية الأخرى لضمان التكامل والسيطرة، كما عززت الكونفوشيوسية كأيديولوجية رسمية للدولة.

في هذه الفترة من الصراع والارتباك بدأ تأثير البوذية الكبير ينتشر في جميع أنحاء الصين، فكانت شعبية؛ لأنها توفر ملجأ من أهوال الصراع المدني

المستمر وبعض الحكام يقدرون فائدتها كوسيلة للسيطرة على رعاياهم، وكانت هناك زيادات هائلة في عدد المعابد والأديرة والرهبان، وقد ولد هذا المقاومة من جانب بعض النخب الحاكمة الذين كانوا يخشون تأثيرها على الاقتصاد وعلى قوتهم من الأديان المتنافسة، وكان من بين هؤلاء المنافسين الطاوية التي ازدهرت أيضًا بأشكال مختلفة، بل إنها أثرت على البوذية، مما أدى إلى نشوء مجموعات دينية بوذية - طاوية.

وعلى الرغم من الاضطراب الاجتماعي والعسكري، ازدهرت الفنون خلال فترة السلالات الجنوبية والشمالية، وخاصة بين النخبة الذين يقدرون الأدب ونقده وخطه، وكانت أيضًا فترة استفاد فيها النحت من انتشار البوذية، كما ازدهرت المنح الدراسية ونشرت العديد من أعمال الجغرافيا الوصفية، وشهد تخفيف السيطرة السياسية المركزية خلال هذه الفترة من الصراع ظهور العديد من أعمال التاريخ التي كتبها مؤرخون منفردون بدلًا من مجرد الاعتماد على التاريخ الرسمي الذي كان من صلاحيات البلاط.

السلالات الجنوبية

تنافس الممالك الست عشرة

خلال ثورة الأمراء الثمانية في عهد أسرة جين الغربية، كان الأمراء قد سخروا مساعدة القبائل الشمالية غير الصينية لدعمهم بأسباب مختلفة، مما دفعهم إلى أن يصبحوا أكثر قوة تدريجيًا، وفي أعقاب ذلك، انحدر حكم "جين" الغربية بسرعة، وتمكنت المجموعات القبلية من جمع جيش، وعلى مدى مائة سنة فقط من عهد أسرة "جين" الغربية المتأخرة إلى توحيد الشمال تحت ظل أسرة "وي" الشمالية (386 - 557)، تم تأسيس العشرات من الأنظمة من مختلف الأحجام في شمال الصين، وأصبح ستة عشر منها معروفة جيدًا، وكانت المجموعات العرقية غير الصينية الرئيسة في ذلك الوقت هي "شيونج نو" و"شيان بي" و"دي" و"تشيانج" و"جي"، وأصبحت هذه الفترة تعرف باسم "الأقليات الخمس

والممالك الست عشرة".

شهدت أسرة "جين" الغربية المتأخرة سنوات متتالية من المجاعة في منطقتي "تشين" و"يونج"، ونتيجة لذلك، كان على الناس التحرك جنوبًا للبقاء على قيد الحياة؛ ولكن المسؤولين المحليين في المناطق الجديدة كانوا قاسين وجشعين بحيث لم يكن أمام أولئك الناس خيار سوى العودة إلى ديارهم مرة أخرى، وفي 301 م، استغل "لي تي" من قبيلة "كونج" الوضع وأثار انتفاضة في "ميان تشو"، شمال "ديانج" الحالية بمقاطعة "سيتشوان"، وتوفي في أثناء الأحداث ولكن ابنه "لي شيونج" واصل قيادة اللاجئين واستولى على مساحات كبيرة من الأراضي شمال "تشينجدو"، ثم في نهاية المطاف استولى على "تشينجدو" نفسها، وفي عام 304 م أعلن نفسه ملك "تشينجدو" ثم إمبراطورا في 306 م، وأعطى نظامه الجديد لقب "داتشينج"، الذي تم تغييره إلى "هان" في 338 م على يد ابن أخيه "لي شو"، ويطلق المؤرخون على النظام "تشينج هان"، وهو مزيج من اللقبين، في السنوات الأولى للنظام، كان هناك عدد أقل من الضرائب والقوانين متسامحة، ولكن باستمراره بدأ الحكام مشاريع البناء واسعة النطاق التي تسببت في استياء كبير وهزيمة النظام على يد أسرة "جين" الشرقية في 346 م.

وفي الوقت نفسه، ظهر ملك آخر في "شانشي" في عام 304 م، حيث أعلن "ليو يوان"من إحدى أسر "شيونج نو" النبيلة نفسه ملك "هان" في مدينة "زيوجو" بمقاطعة "ليشي" في "شان شي"، وفي 308 م، توج نفسه بلقب الإمبراطور وعين "بينج يانج" - محافظة "لين فين" اليوم - عاصمة لمملكته التي كانت أول عاصمة في السهول الوسطى ينشئها عرق خارج عرق "هان"، مما سوف يسبب دخول المنطقة إلى الحرب، ففي عام 316 م، استولى "ليو كونج"، ابن "ليو يوان"، على "تشانج آن"، مما دل على زوال أسرة "جين" الغربية، وفي هذا الوقت، انتقلت أعداد كبيرة من عرق "هان" الصيني جنوبًا من السهول الوسطى في ما أصبح يعرف باسم "كارثة يونج جيا"، في حين استفادت قبائل من

الشمال والغرب من الفوضى لغزو السهول الوسطى، حيث أنشأت أنظمتها الحاكمة الخاصة بها.

تمتعت هذه الجماعات العرقية بسمعة بربرية، حتى نسب إليهم أكل لحوم البشر، وقيل إن "شي لو" من قبيلة "جي" قد ذبح مئات الآلاف من عرق "هان" الصيني، بينما كان يهاجم أسرة "جين" الغربية، وتصف السجلات التاريخية كيف أرسل ابن أخيه، "شي هو"، لشن حرب على قائد "هان" "تساو يي"، وعلى الرغم من استسلام "تساو يي" فإن "شي لي" قتله على أي حال، وباستثناء 700 رجل، قام بدفن 30 ألفًا آخرين أحياء، وتشير التقديرات إلى أنه كان هناك في ذلك الوقت أربعة ملايين من عرق "هان" الصيني في الشمال، بينما بلغ عدد سكان القبائل الذين كانوا ينتقلون إلى السهول الوسطى ما يتراوح بين خمسة أو ستة ملايين نسمة.

ثم في 350 م، قام "ران مين" وهو من عرق "هان" بمحو مئات الآلاف من القوات غير الصينية من نظام "تشاو" في وقت لاحق، وأطاح بحكمهم لإنشاء نظام "وي" - نظام "هان" الوحيد الذي أنشئ على السهول الوسطى خلال فترة الممالك الست عشرة، وبنى جميع الملاك أو العائلات الغنية التي لم تتحرك جنوبًا الحصون للدفاع ضد القبائل؛ وقاموا أيضًا بجمع جيش للدفاع عن أنفسهم أطلق عليه اسم "التسول من أجل البقاء"، وقد انضم كل من جد "ران مين" وأبيه وأقاربه الآخرين إلى هذه المجموعة وماتوا في المعركة، وكان بسبب دعم هذا الجيش أن أنشأ "ران مين" نظامه، وقد تمكن "ران" في كثير من الأحيان لسعة حيلته من إبادة عشرات الآلاف من قوات العدو ببضعة آلاف فقط من سلاح فرسانه، ولكنه تلقى انتقادات من الأجيال في وقت لاحق، وذلك أساسًا لإعطائه الأوامر بقتل أهل القبائل، تلك الأوامر التي نفذها عرق "هان" بحماس، وبدأت قبائل "دي"، و"تشيانج"، و"شيونجنو" بالانسحاب من السهول الوسطى خوفًا على حياتهم، وتم القضاء على قبيلة "جي" على يد نظام "تشاو" في وقت لاحق عمليًا، وهكذا حصل شعب "هان" على انتقامهم من

حكمهم الوحشي، وبسبب تفاوت كبير في القوة، قتل "ران مين" على يد "مورونج جون" من قبيلة "شيانبي" عام 352 م، وعلى الرغم من هذا، أدركت القبائل كيف شعر عرق "هان" تجاههم وبدؤوا السعي للتعاون.

وفي 351 م، أنشأ "فو جيان" من قبيلة "دي" مملكة "تشين" في "هانتشونج"، ويشار إليها الآن باسم نظام "تشين" السابق، وتولى العرش في 357 م، وبفضل مستشاره من قبيلة "هان" واسمه "وانج منج"، نما حكم "تشين" السابق بثبات، فبناء على نصيحته، ضبط "فو جيان" نبلاء "دي" المستبدين ووسع السلطة الملكية، ودعا أيضًا العلماء من عرق "هان" للمشاركة في الحكومة، وبالتالي تعزيز الحكم المشترك على يد "هان" والمجموعات العرقية الأخرى، وشجع الكونفوشيوسية والزراعة، وهكذا اتسمت مملكة "تشين" السابقة بالحكم الرشيد والاستقرار والازدهار.

ولم يكن "وانج منج" رجل دولة بارزًا فحسب، ولكن أيضًا استراتيجيًّا ممتازًا، وبمساعدته، أرسل "فو جيان" قواته إلى الشرق والغرب، ماحيًا نظام "يان" السابق الذي أنشأته أسرة "مو رونج"، وأنظمة أخرى مثل "ليانج" السابق و"داي"، وبحلول عام 382 م، كان نظام "تشين" السابق قد وحد شمال الصين، ولكن أصبح "فو جيان" الآن متعجرفًا وتجاهل نصيحة "وانج منج" بعدم مهاجمة أسرة "جين"، وأدت معركة نهر "فاي" في 384 م إلى انهيار نظام "تشين" السابق؛ وعاد "فو جيان" إلى "تشانج آن" لمواجهة ثورة على يد أرستقراطية القبائل التي غزاها، وقد تعرضت شمال الصين للاضطرابات.

في 384 م، أنشأ "مورنج تشوي"، وهو نبيل من نظام "يان" السابق أوصى بشدة أن يشن "فو جيان" الحرب على أسرة "جين" نظام "يان" في وقت لاحق في الشمال، وقد أقامت قبيلة "شيانبي" التي أجبرت على الهجرة إلى سهل "شان شي" الأوسط على يد نظام "تشين" السابق نظام "يان" الغربي هناك بقيادة "مورونج هونج" الذي قاد جيشه إلى "تشانج آن"، واضطر "فو جيان" إلى الانسحاب من "تشانج آن" وقتل على يد "ياو تشانج" رئيس قبيلة "تشيانج"،

وفي عام 386 م، استولى "ياو تشانج" على "تشانج آن" وأعلن نفسه إمبراطورًا وأنشأ نظام "تشين" في وقت لاحق، وفي الوقت نفسه، أنشأ "كيفو غورين"، رئيس "شيان بي" نظام "تشين" الغربي في "لونج شي" - غرب "شان شي" وفي مقاطعة "قانسو" اليوم - كما أنشأ زعيم "دي" "لو جوانج" نظام "ليانج" المتأخر في ممر "هي شي"، كما أعاد "توبا جوي" من "شيان بي" تأسيس مملكة "داي" في الشمال - والذي أصبح في ما بعد أسرة "وي" الشمالية - وأخيرًا في 398 م، أعلن "توبا جوي" نفسه الإمبراطور وانتقل بعاصمته إلى "بينج شنج".

كما كانت هناك أنظمة عديدة أخرى ضعيفة نسبيًا؛ ولكن تدريجيًا، بدأت سلالة "وي" الشمالية تبرز، وأدارها ثلاثة أجيال من الرجال هم "توبا جوي"، و"توبا سي"، و"توبا تاو"، وفي 439 م أنهت أخيرًا شمال "ليانج" آخر نظام حكم ذاتي في الشمال، وحلت الآن فترة من الاستقرار النسبي توحد فيها شمال الصين وهي فترة السلالات الجنوبية والشمالية.

حكم "سونج"، و"تشي"، و"ليانج"، و"تشن"

في عام 420 م، قام "ليو يو" بعزل الإمبراطور "آن" من سلالة "جين" الشرقية وأعلن نفسه الإمبراطور "وو" من نظام "سونج" (لتمييزه عن أسرة "سونج" التي قامت في وقت لاحق من 927 - 976 م يطلق عليه المؤرخون "نظام ليو سونج")، وكان نظام "ليو" يتحكم في أكبر إقليم في تاريخ السلالات الجنوبية.

ولد "ليو يو" في أسرة فقيرة وعلم بمصاعب حياة الفلاحين، وكان هو نفسه مقتصدًا وألغى الضرائب الثقيلة حتى يتمكن الناس من تطوير الإنتاج الزراعي، كما أضعف أسر المسؤولين، ووضع الناس العاديين كمسؤولين عن الشؤون الإدارية والعسكرية الهامة، وكان لكل هذا أثر إيجابي، ولكنه للأسف، توفي بعد عامين فقط في السلطة.

الآن تولى ولي العهد "ليو ييفو" العرش باسم الإمبراطور "شاو" وكان قاسيًا ومتغطرسًا؛ فتم عزله وقتل في وقت لاحق على يد الرقيب الأعلى "شو

شيانتشي"، وعين بدلًا منه "ليو ييلونج"، حاكم "جينج تشو" باسم الإمبراطور "ون سونج"، وفي السنوات الثلاثين من حكمه، واصل سياسات "ليو يو"، وإصلاح الشؤون الداخلية، وتحسين الإدارة الحكومية وتطوير الزراعة، مما أدى إلى اشتهار فترة حكمه باسم "ازدهار يوانجيا".

وفي الوقت نفسه، واجهت أسرة "وي" الشمالية غير المستقرة تهديد نظام "روران" في الشمال ونظام "داشيا" في الغرب، ففي عام 445 م، ثار "جاي وو" من إحدى القبائل الشمالية وانضم إليه أكثر من 100.000 من القبائل، أرسل "جاي وو" رسالة إلى الإمبراطور "ون" طالبًا التعزيزات ولكن نظام "ليو سونج" لم يفعل شيئًا، وبالتالي فقد فرصة جيدة، وقامت "وي" الشمالية بإخماد الثورة واستئصال "روران"؛ وفقط بعد ذلك في 450 م، قرر الإمبراطور "ون سونج" الشروع في حملة، كان ذلك توقيتًا سيئًا، وعلى الرغم من فوز إحدى الفرق بمعركة على الجبهة الغربية، هزم جيش الإمبراطور "ون" الرئيس، وأمر قواته بالتراجع، واستغل الإمبراطور "تايو" حاكم "وي" الشمالية هذا ليتجه جنوبًا نحو نهر اليانجتسي، وذبح الناس في طريقه منهيًا "ازدهار يوانجيا".

بدأ نظام ليو سونج الآن في الانحدار على الرغم من أن الإمبراطور "ون" كان حذرًا وواسع الحيلة، كان يشتبه في الآخرين، وفوض جميع شؤون الدولة لشقيقه "ليو ييكانج"، أمير "بنج تشينج"، ولكن "ليو ييكانج" أصبح قويًا جدًا، مما أدى إلى اشتباكات داخل العائلة المالكة، وفي 453 م، اكتشف الإمبراطور "ون" أن ولي العهد "ليو شاو" كان يستخدم السحر ضده، وحاول الإمبراطور "ون" التخلص منه وبدلًا من ذلك شق "ليو شاو" طريقه إلى القصر مع رجاله وقتل والده، ولكن هذا العمل تركه معزولًا، وعلاوة على ذلك، اغتنم "ليو جون" أمير "وولينج" الفرصة لجمع جيش وقتل "ليو شاو"، ثم صعد "ليو جون" العرش باسم الإمبراطور "شياو"، وسرعان ما قتل عمه "ليو يي شوان" حاكم "جينج تشو"، وإخوته الأربعة، وكان من بينهم "ليو دان"، الذي بدأ تمردًا في مدينة "جوانج لينج"؛ لذلك ذبح "ليو جون" أيضًا جميع الرجال البالغين في المدينة

وأعطى جميع نسائها لجنرالاته وجنوده.

حكم نظام "ليو سونج" ثمانية أباطرة في فترة قصيرة فقط تألفت من تسعة وخمسين عامًا، تم إعدام ثلاثة منهم وسط إراقة دماء عنيفة، وفي النهاية، لم يكن هناك أي ناجين من أسرة "ليو" باستثناء الابن التاسع للإمبراطور "ون" "ليو تشانج" الذي استسلم لسلالة "وي". سقطت السلطة تدريجيًا في أيدي "شياو داوشنج"، رئيس الحرس الإمبراطوري، الذي أعلن نفسه حاكمًا في 479 م وغير لقب النظام إلى "تشي" (المعروف للمؤرخين باسم جنوب "تشي")، ومع ذلك، توفي "شياو داوشنج"، أو الإمبراطور "جاو تشي" بعد أربع سنوات فقط وخلفه "شياو تزي"، أو الإمبراطور "وو".

وبدلًا من استعادة السهول الوسطى، استغلت حكومة "تشي" الجنوبية شعبها بينما عاش الحكام في ترف، وفي النهاية استمر النظام لمدة ثلاثة وعشرين عامًا فقط قبل أن يحل محله "شياو يان".

ولد "شياو يان" في عائلة تتمتع بالثروة والنفوذ، وكان والده، "شياو شونتشي" ابن عم الملك وكان "شياو داوشنج" يُكن له الكثير من الاحترام، وعندما توفي الأخير، استمر الاقتتال داخل النظام واستغل "شياو يان" الفرصة للاستيلاء على السلطة، وفي عام 502م، أجبر رجاله الإمبراطور على التنازل عن العرش؛ ثم غير لقب النظام لـ"ليانج" وأصبح الإمبراطور "وو" وحكم لمدة ثمانية وأربعين عامًا، أطول من أي أسرة إمبراطورية أخرى في الجنوب.

في الأيام الأولى كان مجتهدًا ومتحمسًا، ولكن من أجل التوفيق بين التناقضات المعقدة بين مختلف القوى السياسية والعائلة المالكة، وأسر قوية من المسؤولين والقادة العسكريين والمسؤولين من الخلفيات العادية، وقيل إنه أفرط في إمتاع الطبقة الحاكمة بأكملها، والتي أصبحت تواجه انحطاطًا فادحًا، وفي سنواته الأخيرة، أصبح "شياو يان" بوذيًا متدينًا، وحاول أن يصبح راهبًا في مناسبات عديدة، وكان على وزرائه أن يفتدوه من المعبد بمبالغ كبيرة من

المال، وبفضل دعمه، وصلت البوذية إلى ذروتها خلال هذه الفترة، وزاد التوسع العدواني لاقتصاد الدير الذي استولى على قدر كبير من الأراضي الزراعية والعمال، ولم يكن التمرد بعيدًا حتمًا.

كان "هوى جينج" من قبيلة "جي"، ضابطًا عسكريًّا من "وي" الشرقية مع 100 ألف جندي تحت إمرته، وفي وقت لاحق استسلم لـ"وي" الغربية، ولكن رأى أن سيده الجديد يعتزم أن يسلب قوته العسكرية، وفي 547 م توسل لـ"شياو يان" للحصول على المساعدة، ولاعتقاد "شياو" بأن الوقت قد حان لتوحيد البلاد فقد أطلق حملة استكشافية ضد الشمال أدت فقط إلى إبادة معظم قواته والقبض على قائد الحملة "شياو يوان مينج"، وعين "هوى جينج" الذي كان قد هزم أيضًا وتراجع على عجل حاكمًا لجنوب "يو تشو"، واقترح "وي" الشرقية محادثات سلام بشرط تسليم "هوى جينج" مقابل "شياو يوان مينج" على أمل زرع إسفين بين "شياو يان" و"هوى جينغ"، ومن المؤكد أن "شياو يان" بدأ محادثات السلام مع "وي" الشرقية، وتمرد "هوى جينج" فارضًا حصارًا على العاصمة ومستوليًا عليها بسرعة؛ لأن أبناء الإمبراطور، الذين كانت لهم مخططات خاصة بهم لم يكن لديهم مصلحة في الدفاع عن والدهم، وفي 549م، توفي "شياو يان"، مما ألقى بنظامه في الحرب الأهلية مرة أخرى.

بعد تمرد "هوي جينج"، قاد "تشن باشيان"، وهو رجل من عائلة منخفضة الرتبة نسبيًّا جيشًا ضد العديد من القوات العسكرية المحلية وفي 552م في "جيانكانج" (نانجينج اليوم، مقاطعة جيانجسو)، وواجه "هوى جينج" في معركة حاسمة دمر فيها جيشه بشكل تام، وفي 557، غير "تشن باشيان" لقب النظام وأصبح يعرف باسم الإمبراطور "وو" حاكم "تشن"، غير أن الحالة كانت غير مستقرة؛ فبقيت القوات من نظام "ليانج" وما زالت قوات المتمردين المحلية مستمرة في التمرد، توفي "تشن باشيان" بعد عامين فقط، ولم يكن أي من خلفائه قويًّا بشكل خاص، وفي عام 589م، أطاح "يانج جيان"، إمبراطور "ون" المستقبلي لأسرة "سوي" بنظام "تشن"، وبذلك انتهت ثلاثمائة سنة من

الصراع الأهلي.

وعلى الرغم من تغيرات الأنظمة المنتظمة، شهد الجنوب نموًّا اقتصاديًّا سريعًا؛ وذلك لأن الحروب الأطول والأكثر تدميرًا قد حدثت كلها في الشمال، ونتيجة لذلك، فرَّ كثير من الناس من الجنوب، مما عزز قوة العمل، كما أنها أدخلت تكنولوجيات جديدة، وكان المناخ والماء والعوامل الطبيعية الأخرى في الجنوب أكثر ملاءمة للإنتاج الزراعي واستصلاح الأراضي القفر، وتحسين أساليب الزراعة، وتشييد مرافق الري، وزراعة مجموعة واسعة من المحاصيل، وأصبحت المناطق المحيطة ببحيرة "دونج تينج" وبحيرة "بو يانج" وسهل "تشينج دو" مناطق مهمة لإنتاج الحبوب، وكل هذا مهد الطريق للتحول التدريجي للمركز الاقتصادي من شمال الصين إلى جنوبها.

أسرة "وي" الشمالية

الصعود السريع لأسرة "وي" الشمالية

بينما نشأت العديد من الأنظمة الانفصالية في شمال الصين، تم توحيد المنطقة المحيطة بحوض النهر الأصفر في نهاية المطاف على يد عشيرة "توبا" من قبيلة "شيانبي"، وكانت هذه بداية حكم السلالات الشمالية، كانت "توبا" في الأصل قسمًا واحدًا فقط من مجموعة "شيانبي" العرقية، وتشير السجلات إلى أنهم كانوا رعاة رُحَّلًا عاشوا في وقت مبكر في ما يعرف اليوم بوادي نهر "نين" بمقاطعة "هيلونج جيانج"، ويعود أصل العائلة المالكة لعائلة "وي" الشمالية إلى "توبا ماو" الذي وفقًا لكتاب "تاريخ سلالة وي" حكم ستًّا وثلاثين مقاطعة، وفي الواقع لم يكن سوى رئيس منتخب لتحالف من ستٍّ وثلاثين قبيلة.

في السنوات الأولى من عهد أسرة "هان" الشرقية، انتقلت شيونجنو الشمالية غربًا، وهؤلاء الذين يعيشون في الجنوب هاجروا إلى السهول الوسطى، مما ترك فراغًا في السلطة في المراعي وراء سور الصين العظيم؛ لذا انتقلت "توبا"

إلى المناطق التي كانت تسيطر عليها "شيونجنو" سابقًا، وبحلول نهاية مملكة "وي" التي حكمها "تساو تساو" كانوا قد انتقلوا بالفعل إلى "يونتشونج"، وهي منطقة "توجتو" اليوم في منغوليا الداخلية، في ذلك الوقت، كان كل أفراد قبيلتي "شيانبي" و"ووهوان" يحلقون جزءًا من شعرهم، ولكن فرع توبا تميز بتضفيره الشعر المتبقي، وعلى الرغم من وجود أكثر من 200.000 من الفرسان، كانوا لا يزالون في مرحلة التحالف القبلي ولم يشكلوا دولة بعد.

ثم في عام 338 م، أعلن "توبا شيجيان" الذي كان رهينة لمدة عشر سنوات في نظام "تشاو" المتأخر وقد تأثر بالثقافة الصينية، نفسه ملك نظام "داي" في "فانتشي" -وهي "هونيوان" الحالية بمقاطعة "شانشي"-، وبدأ اتباع ممارسات السهول الوسطى في تعيين المسؤولين المدنيين والعسكريين ووضع القوانين؛ وهكذا بدأت الدولة في التبلور، وفي 341 م، بنى "توبا" مدينة "شينجل" كمركز سياسي في ما هو معروف الآن بمقاطعة "هورينجر"، شمال منغوليا الداخلية، وتحولت تدريجيًا من قبائل بدوية إلى مجتمع زراعي.

وفي الوقت نفسه، ظهر نظام "تشين" السابق في الشمال وقام بتوحيد جميع شمال الصين باستثناء "داي"، وفي 376 م، هاجم "فو جيان" حاكم تشين السابق "داي" بجيش مكون من 200.000 رجل، وهرب "توبا شييجيان" شمالًا وسرعان ما قتل على يد ابنه البكر، "توبا شيجون"، واستغل نظام "تشين" السابق هذا لمهاجمة "يونتشونج"، وبالتالي القضاء على "داي".

بعد ذلك، نسب "توبا جوي" حفيد "توبا شييجيان" نفسه أولًا إلى قبيلة "دوجو" ثم إلى قبيلة "هيلان"؛ حيث إن عشيرة "توبا" قد ضعفت بشكل كبير، وأجبرت على العودة إلى حياتها البدوية السابقة، ولكن بعد معركة نهر "فاي"، فشل نظام "تشين" السابق بشكل غير متوقع، وعندما أنشأ "مورونج تشوي" نظام "يان" المتأخر، حشد "توبا غوي" بقايا قواته وفي 386 م أعاد تأسيس مملكة "داي" في ما يعرف الآن بنهر "شار مورون" في منغوليا الداخلية، وغير اسم النظام إلى "وي" منشئًا بالتالي دولة "وي" الشمالية رسميًا، وقاتل كابن شقيق "مورونج

تشوي" ضد "دوجو" بدعم من عمه، وعندما محت قوات التحالف بين "وي" الشمالية و"يان" المتأخرة كلًّا من "دوجو" و"هيلان"، أصبح "توبا جوي" الأقوى خارج سور الصين العظيم.

وإدراكًا منه أن قوة "توبا جوي" التي تزداد يمكن أن تهدد سلطته ورغبة أيضًا في نهب موارد ابن أخيه، أطلق "مورنج شوي" هجومًا وقائيًّا ضده، فارتحلت "توبا" على الفور إلى المنطقة بالقرب من مدينة "أوردوس" الحالية بمنغوليا الداخلية، وكان على "مورنج باو"، القائد العام وولي عهد "يان" المتأخرة، سحب قواته لأنه حتى بعد خمسة أشهر، لم يتمكن من الاشتباك مع "توبا غوي" في معركة حاسمة، إلا أن "توبا جوي" تابع عدوه مع 20 ألفًا من سلاح الفرسان وواجههم، ودفن عشرات الآلاف من أسرى الحرب أحياء؛ وفقدت نصف نخبة قوات "يان" المتأخرة، ولم يكن لدى "مورنج تشوي" خيار آخر سوى إطلاق حملة استكشافية ضد "وي" الشمالية، ومرة أخرى، خرج "توبا جوي" دون قتال، مما سمح لجيش "يان" المتأخرة بأن يحتل "بينجشنج" وغيرها من الأراضي، وأخيرًا، سحب "مورنج تشوي" قواته وتوفي في طريق عودته.

الآن، ذهب فرسان "وي" الشمالية مباشرة إلى السهول الوسطى وأطاحوا بنظام يان المتأخرة، وفي 398 م، جعل "توبا جوي" مدينة "بينجتشينج" عاصمته - وهي مدينة "داتونج" اليوم في مقاطعة "شانشي" - وللأسف انخرط في حياة السكر والعربدة وأصبح عنيدًا ومستبدًّا برأيه، وفي 409 م، اغتيل في انقلاب في سن التاسعة والثلاثين، وصعد ولي العهد "توبا سي" الآن على العرش، لكنه توفي في سن الثانية والثلاثين بعد أن حكم لمدة أربعة عشر عامًا، وخلال ذلك الوقت، فاز بحرب مع نظام "سونج" ووسع أراضيه من خلال الاستيلاء على ممر "هولاو" وهو نقطة تحول رئيسة لسلالة "وي" الشمالية والذي مهد الطريق لابنه "توبا تاو" لتوحيد شمال الصين (انظر الشكل 17).



الشكل (17):

بورتريه لـ"توبا تاو".

عرف الآن بالإمبراطور "تايوو" من وي الشمالية، واجه "توبا تاو" وضعًا معقدًا، كان نظام "روران" في الشمال يضايق الحدود بشكل مستمر، في حين كان نظام "ليو سونج" كان أيضًا يتربص بـ"وي" الشمالية، فأولًا، اهتم "توبا تاو" بنظام "روران" - وهم فرع آخر من مجموعة "شيان بي" - حيث إن توغلهم المستمر على الحدود الشمالية جعل "توبا تاو" يدرك أنه إذا لم يتعامل معهم بشكل جيد، فإنهم سيضعفون قواته، مما يجعله غير قادر على إخضاع الأنظمة الانفصالية الأخرى، لذلك، في عام 424 م، وعلى الرغم من معارضة الإمبراطورة الأرملة والعديد من الوزراء هاجم "روران" قائدا الجيش بنفسه وعاد منتصرًا، ثم هاجمهما مرة أخرى في العام التالي، وبدأ رئيس "روران" في الهرب شمالًا مع

رجاله، وعلى الرغم من أن الضربات لم تكن قاتلة، فإنها أزالت التهديد المستمر للحدود الشمالية، وفي وقت لاحق، هاجم "توبا تاو" "روران" ثلاث عشرة مرة مما جعلهم غير قادرين على التعافي، وفي الوقت نفسه أباد قبائل "شيا"، و"يان" الشمالية، و"ليانج" الشمالية، والعديد من الأنظمة الأخرى؛ في 439 م، قام بتوحيد حوض النهر الأصفر، وأنهى 150 عامًا من الأنظمة المنفصلة في السهول الوسطى واستكمل توحيد شمال الصين.

ونظرًا لعدم وجود نظام مرتبات للمسؤولين في السنوات الأولى من عهد أسرة "وي" الشمالية، فإن مشكلة المسؤولين على جميع المستويات في الاستيلاء على الممتلكات العامة والخاصة خطيرة للغاية، وقد أدى جمع الضرائب المفرطة إلى زيادة العبء على الشعب وكان أحد الأسباب الجذرية للنزاع الاجتماعي؛ لذلك عاقب "توبا تاو" مسؤوليه مرارًا وتكرارًا، وطرد المسؤولين غير الأكفاء، وقدم اللصوص منهم إلى العدالة، كما ألغى العقوبات الوحشية التي جاءت من "وي" الشمالية، وتعلم من القانون الإقطاعي الخاص بـ"هان" وطبقه، أما اقتصاديًا، فكان يستخدم سياسات "هان" التقليدية، حيث أعطى الأهمية للزراعة والاكتفاء، أما من حيث الأيديولوجية، فكانت تعاليم الكونفوشيوسية والتعليم في المقدمة، ومن ناحية أخرى محيت البوذية، وكان السبب وراء ذلك رحلة قام بها الإمبراطور إلى "تشانج آن" في 446 م للقضاء على انتفاضة "جاي وو"، وعندما وجد رجاله الأسلحة والسلع المختلسة والغرف السرية في العديد من المعابد، أصدر الإمبراطور، الذي غضب على البوذية على أي حال، مرسومًا لتدميرها، فأحرقت كل الصور البوذية والكتب المقدسة ودفن الرهبان أحياء، وعلى صعيد أوسع، كان هذا استجابة للتطور السريع للدين؛ فإن البناء الواسع النطاق للمعابد والباجودا، وزيادة عدد الرهبان، كان عبئًا على الموارد، ومع ذلك، كان لهذه السياسة المتطرفة تأثير عميق على فلسفة ونظرية البوذية في الصين.

وبفضل كل هذه التدابير ازدهرت "وي" الشمالية، ولكن عند وصوله سن

الشيخوخة، أصبح "توبا تاو" سيء الطباع ومشوشًا بشكل متزايد وقتل على يد الخصيان، وتولى حفيده "توبا هونج" مكانه، وفي عهده القصير الذي دام ست سنوات، أظهر بأنه يتمتع بقدر كبير من الكفاءة والشجاعة، وعزز بقوة الإصلاحات وشرع في حملات عسكرية كثيرة، كما ازدهرت الزراعة والحرف اليدوية، ومع ذلك، بسبب صراعه العميق مع الإمبراطورة الأرملة فنغ، اضطر إلى التنازل عن العرش في سن الثامنة عشرة لصالح ابنه البالغ من العمر خمس سنوات، وبعد خمس سنوات مات مسمومًا على يد الإمبراطورة الأرملة، وعلى الرغم من قصر فترة حكمه إلا أنه كان قد وضع أساسًا متينًا للإصلاحات اللاحقة التي سيقوم بها ابنه الامبراطور "شياو ون".

عندما أتمت سلالة "وي" الشمالية توحيد السهول الوسطى، نمت قوتها باطراد، ولكن كانت هناك خلافات رئيسة بين أساليب الإنتاج المتقدمة وثقافة شعب هان، والنظم الاجتماعية القديمة والعادات الثقافية لمجموعة "توبا" العرقية؛ لذا كان على حكام "وي" الشمالية أن يختاروا بين أنظمتهم وعاداتهم، أو تلك التي تسيطر عليها "هان" الآن، ولئن كان من المحتم أن يلتزموا بمطالب التقدم، فإنهم سيواجهون مقاومة عنيفة من جانب القوى المحافظة، وكانت عملية التغيير طويلة ومرهقة.

تولى الإمبراطور "شياو ون" العرش في سن الخامسة فقط، وسمم والده عندما كان في العاشرة، فكانت السلطة بالتالي في يدي الإمبراطورة الأرملة "فنج" حتى عام 490 م، وعندما بدأ الإمبراطور البالغ من العمر 24 عامًا الاهتمام بشؤون الدولة، كان أول شيء قام به هو نقل العاصمة التي كانت "بينجشنج" في الشمال في ذلك الوقت، وكانت مماثلة لوطن عشيرة "توبا" في كل من نمط الحياة والظروف المناخية، ومع توسعها في السهول الوسطى، لم تعد "وي" الشمالية قادرة على السيطرة على كامل أراضيها من هذه القاعدة، وعلاوة على ذلك، بعد أن كانت "بينجشنج" عاصمة لأسرة "وي" الشمالية لفترة طويلة، فقد كانت أيضًا موطنًا للقوى المحافظة القوية التي شكلت عقبة خطيرة أمام

الإصلاح؛ لذلك قرر الإمبراطور "شياو ون" نقل العاصمة إلى "لويانج" التي كانت المركز السياسي والثقافي لأسرة "هان".

وللحد من المقاومة ضد هذه الخطوة، تظاهر الإمبراطور بالدعوة لشن حرب مع الجنوب، وعلى الرغم من معارضة وزرائه، انطلق مع جيش مكون من 200.000 جندي قوي، وعند وصوله إلى "لويانج"، كان المطر ثقيلًا ومستمرًّا، وحاول الضباط منع الإمبراطور من التقدم حيث قال إنهم إذا أرادوا وقف الحملة، فإن عليهم أن يوافقوا على نقل العاصمة، وهو ما فعلوه على مضض.

وبمجرد استقراره في "لويانج" أصدر الإمبراطور مرسومًا يلزم أفراد "شيانبي" وغيرها من الشعب الذي لا ينتمي لعرق "هان" الصيني بارتداء الملابس على طريقة هان، ثم في 495 م، حددت لغة "هان" للتحدث بها ومنع التحدث بلغة "شيانبي"، وصدر مرسوم أنه إذا لم يتمكن المسؤولون الذين تقل أعمارهم عن ثلاثين من تعلم لغة "هان" بسرعة كافية يتم تخفيض رتبهم أو طردهم من مناصبهم، وهكذا تم القضاء تدريجيًّا على الحواجز اللغوية بين مختلف المجموعات العرقية؛ ولكن الكثيرين لا يزالون غائبين عن وطنهم، وظل أهالي "شيانبي" المحافظين مترددين في المشاركة في ممارساتها التقليدية، وتأمل في دفنها في التربة الشمالية؛ لذلك أمر الإمبراطور أنه لن يسمح لأحد أن يدفن في "بينغشنغ"، وأن أيًّا من أهالي "شيانبي" الذين انتقلوا يجب أن تغير محل إقامتها إلى "لويانغ"، كما أمر قبيلة "شيانبي" بتحويل ألقابهم وأسمائهم القبلية إلى "هان"، وليكون مثالًا يُحتذى غير اسم العائلة الملكي من "توبا" إلى "يوان"، وبعد ذلك قدم نظام الوضع الاجتماعي المتبع في "هان" لنبلاء "شيانبي"، حيث شغل مناصب السلطة أولئك المنحدرون من الأسر المؤثرة العريقة، وشجع على تعزيز العلاقات بين نبلاء "توبا" و"هان" من خلال الزواج.

وكان المحافظون، برئاسة ولي العهد "يوان شون" يعارضون بشدة هذه الإصلاحات، فمرة واحدة حين كان الإمبراطور بعيدًا في تفتيش على جبل "سونج"، الجبل المقدس المركزي، هرب ولي العهد إلى "بينجشنج" وهي

الخطوة التي صدمت الإمبراطور الذي سارع بالعودة إلى البلاط وسجن ابنه، وقتله بالسم في وقت لاحق، وهكذا كلفت الإصلاحات الإمبراطور ابنه، وأصبحت أصوات المعارضة أضعف، ولكن من أجل إضعافها أكثر في خطوة أكثر تساهلًا سمح الإمبراطور "شياو ون" للنبلاء والزعماء القبليين بالعيش في "لويانج" في الخريف والعودة إلى قبائلهم السابقة في الربيع.

وكان من الأهمية بمكان في هذا التحول نحو ثقافة "هان" دعم الكونفوشيوسية التي أعطت الإمبراطور قبضة أيديولوجية على البلاد، فأسس العديد من المدارس والمعابد الكونفوشيوسية، ومنح لقب الماركيز لأحفاد كونفوشيوس، وبصفة عامة، التزم بالمبادئ الكونفوشيوسية الحاكمة على يد الخير والتقوى وبر الآباء؛ يكافأ الذين يبدون الاحترام لكبار السن ويعاقبون على عدم القيام بذلك، ودخل نبلاء "هان" الذين بقوا في السهول الوسطى تدريجيًا مع نظرائهم من "شيانبي"، فأصبح التبادل بين الناس من الطبقات الاجتماعية الدنيا وبين المجموعات العرقية أكثر شيوعًا، مما أدى إلى الانصهار في شمال الصين، وأكملت أسرة "وي" الشمالية العودة إلى النظام الإقطاعي، ولفترة من الوقت، أصبحت "لويانج" المركز السياسي والاقتصادي والثقافي للسهول الوسطى.

في عام 499 م، توفي الإمبراطور "شياو ون" وتولى العرش الإمبراطور "شوانوو"، الذي كان اسمه "يوان كي"، وبدأت الأمور على الفور في التدهور، وأصبحت الإدارة متخلفة وانحدرت طبقات المسؤولين، وعندما توفي الإمبراطور "شوانوو"، كان الإمبراطور الجديد "شياو مينج" يبلغ من العمر سبع سنوات (وكان اسمه "يوان شو")، وبالتالي حكم البلاط الإمبراطورة الأرملة "هو"، وفي 520، وضعها "يوان تشا" والخصي "ليو تنج" تحت الإقامة الجبرية، وفي 525م، تمكنت من قتل "يوان تشا" واستولت على السلطة مرة أخرى، وأدى كل هذا إلى الفساد، وقد قبل النبلاء الرشاوى وقبلوا أموالًا مقابل الألقاب، وقام المسؤولون على جميع المستويات بنهب الموارد العامة التي اكتسبها

الشعب بشق الأنفس، وهكذا أصبح الصراع الطبقي حادًّا بشكل متزايد، مما أدى إلى موجة من الانتفاضات في جميع أنحاء البلاد.

عندما أسست قبيلة "توبا" نظامها من أجل حماية "بينج تشينج" ومنع قبيلة "روران" من عبور سور الصين العظيم، أنشأت ستَّ مدن عسكرية من الغرب إلى الشرق على طول الحدود الشمالية، ونظرًا لأهمية هذه المدن، لم يكن فقط اختيار مسؤوليها من الأسر الأرستقراطية "توبا" و"شيان بي" فقط ولكن كان جنود الحامية أيضًا أعضاء في عشيرة "توبا"، ومع انتقال العاصمة وتطوير شمال "وي"، فقدت هذه المدن أهميتها تدريجيًّا، ومع ذلك حافظوا على الاختيار الدقيق للموظفين، ولكن الحدود ازدادت ضعفًا، وبدأت معدلات الاستياء في الارتفاع بين الجنود، حتى صيف عام 523، عندما سار جيش "رو ران" جنوبًا، ومر بالقرب من "بينج تشينج" وسقطت المدن الحدودية الست بسهولة، وكان الإمبراطور "شياو مينج" قد أرسل على الفور قوات من غرب ممر "شان هاي" ولكنه فشل في تحقيق النصر.

وبعدها بفترة قصيرة اندفع نظام "روران" نحو الجنوب مرة أخرى، وفي بلدة "هوايهوانج"، حجز القادة رواتب الجنود؛ لذلك طلبوا مع المدنيين الجوعى نصيبًا من مخزن الحبوب العام حتى يتمكنوا من مقاومة المهاجمين، وعلى الرغم من أن الجنرالات كانوا يواجهون الغزو العسكري، فإنهم رفضوا طلب الجنود على أساس أنهم لم يتلقوا مثل هذا الأمر من "لويانج"، وقد لجأ الجنود والمدنيون إلى العنف وقتلوا الجنرالات، مطلقين العنان لأنفسهم ضد الظلم، وبعد فترة وجيزة، تمرد أحد زعماء "شيونجنو" ويدعى "بوليوهان بالينج" ودعمه جميع سكان المدينة بغض النظر عن المجموعة العرقية.

وأرسلت الانتفاضة صدمة في جميع أنحاء البلاد، وبدأت تنتشر، وفي مواجهة هذا التهديد، بدأ حكام "وي" الشمالية، بالتواطؤ مع نظام "رو ران" برنامجًا للقمع الوحشي؛ وبحلول عام 525، تم قمع انتفاضة المدن الست، ولكن التوترات كانت لا تزال مرتفعة للغاية، وبعد ثمانية أو تسعة أشهر، ثارت مدينة "هوي شو"

مرة أخرى، واندلعت الانتفاضات في "هبي" و"شاند ونج" ومنطقة "جوان لونج" (بما في ذلك سهل "شانشي" الأوسط والجزء الشرقي من مقاطعة "قانسو" اليوم)، ومع انهيار إصلاحات الإمبراطور "شياو ون" أيضًا كانت الأمة تواجه مرة أخرى التمزق على يد القوات الانفصالية.

انهيار "وي" الشمالية

أظهرت انتفاضة المدن الست بذور الموت في عائلة "وي" الشمالية، وخلال قمعها، سرعان ما ارتفع بعض أمراء الحرب الذين كان لديهم قوى كبيرة إلى مكانة بارزة، وكان أول من فعل ذلك "إرتشو رونج"، الذي سمى نفسه "تيانباو" من قبيلة "تشيهو" وكان أسلافه جميعًا زعماء قبائل واستقطب خلال قمعه انتفاضة المدينة السادسة عددًا كبيرًا من الموهوبين، ونمت قواته باطراد.

في ذلك الوقت، استقرت سلطة أسرة "وي" الشمالية في يد الإمبراطورة الأرملة "هو" التي تعمق الصراع مع ابنها الإمبراطور "شياو مينج" حيث أمر الإمبراطور "إرتشو رونج" سرًّا أن يأتي إلى "لويانج" مع جيشه لإجبار الإمبراطورة الأرملة على التخلي عن السلطة؛ ثم غير رأيه وسرعان ما سمم على يد والدته، التي جعلت الإمبراطور "يوان تشاو" البالغ من العمر ثلاث سنوات مكانه، ولدى سماع هذا، عين "إرتشو رونج" "يوان تزيو" كإمبراطور باسم "شياوتشوانج" وزحف على لويانج لضبط البلاط، وكانت القوات على طول الطريق إما تنشق وتنضم له أو تستسلم؛ لذا دخل "إرتشو رونج" العاصمة بمقاومة ضئيلة، ثم أمر بإغراق الإمبراطورة الأرملة والإمبراطور الطفل في النهر الأصفر، ونظرًا لأنه لم يتمتع إلا بالقليل من الدعم في البلاط قتل أكثر من 2000 مسؤول من جميع المستويات في ما يعرف باسم حادث "هاين".

بعد ذلك، احتكر "إرتشو رونج" السلطة وأصبح مستبدًا بحيث لم يعد الإمبراطور "شياوتشوانج" قادرًا على تحمله، وفي عام 530م نصب له كمين وقتل في البلاط، فثار ابن أخيه "إرتشو تشاو" طلبًا للانتقام في "جينيانج"

واستولى على "لويانج" وقتل الإمبراطور وعين حاكمًا جديدًا، ووضع نظام "وي" الشمالية تحت سيطرة عائلة "إرتشو" التي أصبح حكمها أكثر وحشية من أي وقت مضى بشكل كامل، وقد ساد الاضطراب والفقر في جميع أنحاء البلد؛ واصلت المدن الست في الشمال التمرد؛ لذلك أرسل "إرتشو تشاو" أحد مرؤوسيه، "جاو هوان"، للتعامل معها.

ينحدر "غاو هوان" أصلًا من عشيرة "شيانبي"، وكان اسمه "هو ليوهون"، وقد ولد لعائلة فقيرة من الجنود في منطقة المدن الستة، وعمل كضابط صغير في الجيش عندما كان صغيرًا، وفي 525م، انشق ليصبح مع زعيم جيش الانتفاضة "دو لوتشو" في "هيبي"؛ وعندما هزم "دو"، لجأ إلى "إرتشو رونغ"، وسرعان ما أصبح ساعده الأيمن، وذلك بفضل مآثره العسكرية ومكره، وبعد وفاة "إرتشو رونج"، ساعد "جاو" "إرتشو تشاو" وحصل على ثقته من خلال إبادة قوات قبيلة كانت موالية للإمبراطور "شياوتشوان["، وكان بعد ذلك أن طلب منه "إرتشو تشاو" قيادة القوات التي استسلمت من المدن الست؛ ولكن نظرًا لنمو قواته بقوة، فقد انفصل عنه "جاو هوان" وشن هجومًا على "هيبي" في 531م، وفي الشهر الثالث من 532، اشتبك الطرفان في معركة في جبل "هانلينج"؛ وقد قام "غاو هوان" بإبادة نحو 200 ألف من قوات "إرتشو تشاو" بـ30 ألف رجل فقط، وهرب "إرتشو تشاو" نفسه، وفي الشهر التالي، سار "جاو" إلى "لويانج" وعين أمير "بينيانج"، "يوان شيوى"، باسم الإمبراطور "شياو وو"، وهكذا أصبح الحاكم الفعلي لسلالة "وي" الشمالية.

وعلى الرغم من أن "جاو هوان" عاش في "جينيانج"، كانت أمور الدولة لا تزال تحت سيطرته في "لويانج" رغم المسافة، مما أدى إلى زيادة الصراع مع الإمبراطور "شياو وو"، وفي 534م، هرب الإمبراطور إلى "تشانج آن" بصحبة سلاح الفرسان الخفيف وطلب ملجأ عند "يووين تاي" الذي سمى نفسه "هيتا" وكان أسلافه أصلًا من قبيلة "دونجو" قد انضموا إلى تحالف قبائل "شيانبي" في عهد أسرة "هان" الشرقية، عندما أبادت "وي" الشمالية قبيلة "يان" المتأخرة،

تعهدوا بالولاء لهم واستقروا في "ووتشوان"، وهي واحدة من المدن الست التي انضمت إلى الانتفاضة التي اندلعت في "هيبي"، وبعد قمعه، أصبح من أتباع "هو بايو" وهو جنرال مقره إلى الغرب من ممر "شانهاي"، وكان "بايو" أمير حرب قويًّا وشوكة في جانب "جاو هوان"، وفي عام 534م، استفز "جاو هوان" قوات "بايو" لقتل زعيمهم، ثم انضووا تحت قيادة "يووين تاي".

في الشهر العاشر من 534م، بعد رحيل الإمبراطور "شياو وو"، توَّج "غاو هوان" "يوان شانجيان" البالغ من العمر أحد عشر عامًا باسم الإمبراطور "شياو جينج"، وانتقل بالعاصمة إلى "ييتشنج"، وأصبح النظام الجديد يعرف باسم "وي الشرقية"، وفي الوقت نفسه، رأى "يووين تاي" الإمبراطور "شياو وو" فقط كبيدق مفيد، وسممه في الشهر الثاني عشر من 534م؛ ثم طلب من "يوان باوجو"، أمير "نانيانج"، ليكون الإمبراطور الجديد، وانتقل إلى العاصمة "تشانج آن"، مؤسسًا عهد أسرة "وي" الغربية، ومنهيًا حكم سلالة "وي" الشمالية إلى نهايتها، حيث حلت كل من "وي" الشرقية والغربية مكانها.

كان كل من "جاو هوان" ويوين تاي" يأملان في هزيمة بعضهما بعضًا؛ لذلك اندلع القتال مرة أخرى في شمال الصين، وكانت حملة "يوبي"، التي حاصرت فيها "وي" الشرقية معقل "يوي" الغربي في "يوبي"، أشد معركة في تاريخ السلالات الجنوبية والشمالية، حارب كِلا الجانبين لأكثر من خمسين يومًا؛ وأصيب أكثر من 70.000 من جنود "وي" الشرقية أو ماتوا، لكن المعقل ظل سليمًا، ولم تنسحب قوات "وي" الشرقية فقط إلا لأن "جاو هوان" أصيب بمرض خطير، استمرت الحروب بين النظامين لأكثر من عشر سنوات، وتسببت في دمار هائل، وفي عام 550م، عزل "غاو يانغ"، حفيد "غاو هوان" الإمبراطور وعين نفسه باسم الإمبراطور "شوان"، وأنشأ نظام "تشي" الشمالية، وفي 557م، تولى "يووين جوي" ابن "يووين تاي"، وأسس نظام "تشو" الشمالي ليحل محل "وي" الغربية، وهكذا تم استبدال الصراع بين شرق وغرب "وي" ليصبح بين شمال "تشي" وشمال "تشو".

وشملت أراضي "تشو" الشمالية أساسًا المناطق الشمالية الغربية مثل سهل "شانشي" الأوسط والمناطق الواقعة شرق مقاطعة "قانسو"، حيث كان الاقتصاد غير متطور نسبيًّا، وكان الناس يعيشون في فقر وكان أضعف بكثير من "تشي" الشمالية التي احتلت مساحات شاسعة من مقاطعات "شانشي" و"هيبي" و"شاندونج" و"هنان"، ولكن الأحداث اتخذت منعطفًا مثيرًا للاهتمام، فقد استمرت "تشي" الشمالية لمدة سبعة وعشرين عامًا وكان يحكمها ستة أباطرة؛ ولكن على الرغم من إقامتها في المناطق الغنية في السهول الوسطى، تم تفكيك نظام المساواة في الميدان الذي تم تنفيذه خلال عهد الإمبراطور "شياو ون" من خلال التنمية غير المقيدة لاقتصاد المالك، واضطر المزارعون إلى مغادرة أراضيهم، وأدى استنزاف القوى العاملة إلى انخفاض تدريجي في القوة العسكرية، ونتيجة لذلك، ارتفعت التوترات وأصبحت انتفاضات الفلاحين شائعة، في حين تسبب الفساد والجشع والنزاع الفصلي في انهيار الجماعة الحاكمة، كان الملك الأول، "جاو يانج"، واحدًا من أسوأ الطغاة في التاريخ الصيني، في حين أن الإمبراطور الماضي، "جاو وي" أهمل شؤون الدولة، وفضل أن يعطي كل انتباهه لمحظيته المفضلة، وبالإضافة إلى ذلك، ظهرت الاختلافات بين المجموعات العرقية وشعب "هان"، وإزاحة نبلاء "شيانبي" للمسؤولين من "هان".

أما الحالة في "تشو" الشمالية فكانت صورة مختلفة تمامًا، فقبل أن يستبدل "يووين جو" نظام "وي" الغربية بنظامه الخاص، كان والده "يووين تاي" قد قام بسلسلة من الإصلاحات الفعالة، وقد عين "سو تشو"، وهو مسؤول من عرق "هان"، في منصب رئيس، وأصدر "مرسومًا من ست نقاط"، ويعتبر ملخصًا لسياسات هان، وطور المحاسبة، وسجل الإقامة وغيرها من النظم، وأدخل تحسينات على أنظمة المساواة في الدخل والـ"تزودياو" (الضرائب على ملاك الأراضي)، وبالإضافة إلى ذلك، وبغية تعزيز البراعة العسكرية، أدخل نظام التجنيد - وهو سياسة تجنيد رجال من "هان" وكذلك من "شيانبي"- وتم تقسيم القوى الجديدة إلى ثماني وحدات وفقًا لنظام "شيانبي" القديم، وكان كل منها

تحت قيادة عامة عليا واحدة، وكان على الجنود في كل وحدة أن يغيروا لقبهم إلى لقب قائدهم، وكانوا معفيين من دفع الضرائب وغيرها من التدابير التي رفعت وضع الجنود وحسنت علاقتهم مع ضباطهم.

قام الجنرالات الثمانية، الذين كانت مناصبهم مساوية لمناصب رؤساء القبائل، بإنشاء مجموعة أرستقراطية جديدة، وهي الأرستقراطية العسكرية الشمالية الغربية الشهيرة التي يشار إليها عمومًا باسم مجموعة "جوانلونج" التي هيمنت على الصين منذ ما يقرب من 200 عام، وينحدر الأباطرة المؤسسون لسلالات شمال "تشو" و"سوي" و"تانج" من هذه المجموعة، إضافة إلى عدد لا يحصى من الوزراء والجنرالات المشاهير، وكان هؤلاء الرجال الذين رفعوا المجتمع الإقطاعي الصيني إلى ذروته.

في عام 560م، صعد "يووين يونج"، الابن الرابع لـ"يووين تاي"، العرش باسم الإمبراطور "وو"، رجل يتمتع بالمواهب والرؤية العظيمة التي واصل التصرف وفقًا لها من خلال الإصلاحات، وألغى نظام جمارك "شيانبي" القديمة، وزاد مركزية الدولة، كما ركز على الزراعة، وألغى البوذية، وجند المزيد من الجنود، وقمع السلطة الاقتصادية للرهبان والملاك، كما كان دبلوماسيًّا ممتازًا وأقام علاقات طيبة مع الأتراك (وهذا يشير بالطبع إلى القبائل التركية في شمال غرب الصين وآسيا الوسطى فبحلول ذلك الوقت كانت الهجرة الغربية للقبائل التركية إلى ما يعرف بتركيا لم تكن قد بدأت حتى) في الشمال ونظام "تشن" في الجنوب.

وعندما شعر في النهاية أنه مستعد، أرسل بعثة استكشافية ضد "تشي" الشمالية، وفي عام 576م، خاض كل من نظامي "تشو" و"تشي" معركة حاسمة في "بينجيانج"، وكان "غاو وي"، وهو إمبراطور "تشي" الأخير أول من هرب، وعانى جنوده من هزيمة ساحقة، وفي 577م، مع سقوط عاصمتها "ييتشينج"، انتهى نظام شمال "تشي"، ولكن الإمبراطور "وو" توفي فجأة وهو على حافة توحيد البلاد، ولكن الآن عملية التوحيد لا يمكن وقفها، وكل ما كان مطلوبًا هو

قائد متمكن.

سحق البوذية

ازدهرت البوذية خلال حكم نظام "وي" و"جين" والأقاليم الجنوبية والشمالية، وكان ذلك إلى حد كبير بفضل دعم الحكام الذين أرادوا استخدام تعاليمها لكسب الطاعة الكاملة للشعب، وكان الرهبان يتمتعون بوضع مُعفى من الضرائب، مما أدى إلى شكل فريد من نوعه من الاقتصاد الإقطاعي المالك - وهو اقتصاد المعبد - كما اضطرت الحروب المطولة الناس إلى أن يصبحوا رهبان أو يربطوا أنفسهم بالمعابد من أجل الهروب من عبء الضرائب الثقيلة، بل إن بعضهم كانوا على استعداد لأن يكونوا عبيدًا للمعابد؛ لأنهم مؤهلون للحصول على إعفاء ضريبي.

وكانت ذروة البوذية في السلالات الجنوبية خلال عهد الإمبراطور "وو" من نظام "ليانج"، حيث كان في مدينة "جيانكانج" وحدها أكثر من 500 معبد بوذي وأكثر من 100.000 من الرهبان والراهبات، بما في ذلك أولئك الذين يعتمدون على المعابد لكسب لقمة العيش، وشكل سكان المعابد نصف تعداد البلاد كلها، مما أدى إلى انخفاض حاد في الإيرادات الحكومية وأيضًا فقدان السيطرة، وعندما جاءت الحملة، أجبر جميع الرهبان على استئناف الحياة العلمانية.

وكانت هناك ثلاث حملات من هذا القبيل لتقييد العبادة البوذية في التاريخ الصيني، خلال عهد "وي" و"تشو" الشمالية ونظام "تانج"، كان نظام "وي" الشمالية يوفر الاحترام الكبير للبوذيين، كما كانت السلالات التي سبقت ذلك، ولكن مع شن الإمبراطور "تايو" (توبا تاو) حروبًا متكررة على الممالك المجاورة، أصبحت مشكلة القوى العاملة حادة؛ وأدى تزايد البوذيين إلى تضاؤل عدد السكان الذين تسيطر عليهم الدولة، حتى في 438 م، أمر الإمبراطور جميع الرهبان الذين تقل أعمارهم عن خمسين بالعودة إلى الحياة العلمانية والانضمام إلى الجيش لمحاربة "بيليانج" وهي إحدى المجموعات العرقية في الغرب، وفي

444 م، أمر بأن لا يدفع أحد، لا من الأمراء ولا من عامة الناس أي دعم مالي للرهبان البوذيين، وأن أي شخص يتحدى النظام من شأنه أن يعرض عائلته بأكملها للإبادة إضافة لقتل الرهبان، وفي 446 م، ذهب الإمبراطور إلى "تشانج آن" للقضاء على الانتفاضة التي قادها "جاي وو"؛ وهناك تم على العثور على الأسلحة وسلع مسروقة وغرف سرية في المعابد، وهنا أمر بمستوى أكبر بكثير من القمع حيث تم دفن جميع الرهبان أحياء، هذا العمل المفرط القسوة دفع ولي العهد "توبا هوانج"، قائد "بينجشنج" والبوذي المتدين، أن يتوسل إلى والده للتوقف لكن توسله لم يُحدث تأثيرًا يذكر؛ على الرغم من أنه نجح في تأخير إصدار المرسوم في ولايته القضائية ليمكن العديد من الرهبان من الهروب وتهريب عدد كبير من الكتب المقدسة البوذية إلى حيث يمكن الحفاظ عليها، ولكن أجزاء أخرى من نظام "وي" الشمالي لم تكن محظوظة بها القدر، فتم تدمير المعابد والباغودات تمامًا، ولم تعد البوذية إلى سابق عهدها حتى توفي الإمبراطور "تايوو" وتولى حفيده الإمبراطور "ونشنج" العرش.

في عهد "يوين يونج" (الإمبراطور وو) من "تشو" الشمالية، التقت البوذية بالمعارضة مرة أخرى، ففي وقت مبكر من عام 567م، اقترح رجل يدعى "وي يوانسونج" أن يقمعها الإمبراطور لأنها كانت تزدهر مرة أخرى، وبالتالي تتنافس مع أعمال الحكومة؛ ونظرًا لأن "يوين يونج" كان راغبًا في استكمال إعادة توحيد الصين، فقد كانت البوذية تشكل عقبة رئيسة، ولكن قبل اتخاذ إجراء استشار مسؤوليه والجنرالات والكهنة والرهبان، وكانت هذه خطوة حكيمة، حيث تكمن القوة الحقيقية في يد "يووين هو"، الذي كان بوذيًا متدينًا، ولكن عندما توفي "يووين هو" و"يوين يونج" اكتسب السيطرة الكاملة، اتخذ إجراءات ضد الدين كلها في وقت واحد على عكس الإمبراطور "تايوو"، ومع ذلك اعتمد أساسًا الوسائل السلمية، وكان أكثر نجاحًا في حملته القمعية، حيث أصدر في 574م مرسومًا لقمع البوذية والطاوية، وقد دمرت جميع التماثيل والصور البوذية، واضطر جميع الكهنة إلى العودة إلى الحياة العلمانية، وحظرت جميع طقوس التضحية وحظرت جميع الطقوس التي لم تسجل في الوثائق،

وبعد شهر، أعيد فتح المعابد الطاوية، حيث كان الهدف الحقيقي من الحملة هو البوذية.

وقد أدت هذه الحملة إلى زيادة الإيرادات المالية للبلاد وعززت النظام، مما مهد الطريق لتدمير نظام "تشي" الشمالي في عام 577م، وفي "تشي" الشمالية، ازدهرت البوذية على نطاق واسع؛ لذلك مد "يوين يونج" قمعه إلى الأراضي المكتسبة حديثًا، وبالنظر إلى أن حملة "تشو" الشمالية لم تسفر عن مذبحة الرهبان، بل أعادت الملايين إلى الأسر الإقطاعية، فقد عززت اقتصاد البلاد، وعلى هذا النحو، كانت هذه الخطوة عملية وليست أيديولوجية، ومع ذلك، فإن شعبية البوذية أدت إلى ظهور موازٍ لعدد من الملحدين، مثل "صن شنج"، و"تشينجتيان"، و"فان يي"، و"فان تشن"، الذي انتقد بقوة فكرة الأرواح، والتحقيق البوذي والطموح إلى السعي الخلود.

وفي وقت مبكر من عهد أسرة "هان" الشرقية، كان المفكر المادي المتميز "وانج" تشونج قد شن هجومًا عنيفًا على اللاهوت، وفي كتابه "لونهنج" "عن التوازن أو المنطق"، اقترح أن الطاقة الحيوية هي التي تشكل كل شيء لا الأرواح، وهذه الحيوية تعتمد على الشكل، ومع انتشار البوذية في السلالات الجنوبية والشمالية، نمت شعبية معاداة الإيمان، وكان الأكثر دعوة لها "فان تشن" من سلالة الجنوب، ينحدر "فان تشن" من عائلة من المسؤولين، ولكن وفاة والده في وقت مبكر أدت إلى معاناته حياة من المشقة، ومع ذلك، درس "فان" بجد وكان طالبًا بارزًا، وفي ذلك الوقت، سادت البوذية، وفكرة الروح الأبدية، والكارما، وغيرها من المعتقدات الدينية تغلغلت داخل المجتمع وكانت هذه المعتقدات مما يحتقره "فان تشن" مدعيًا أنه لا يوجد بوذا.

كان البوذيون قلقين بشكل طبيعي من هذا، وفي عام 489 م، شاركوا في نقاش ساخن مع "فان تشن" الذي فند المعتقدات البوذية ببلاغة، وعبر عن ذلك في كتاب "إبادة الروح"، حيث البوذية تبشر بأن الروح منفصلة عن الجسم، وتبقى بعد الموت؛ أما كتاب فان تشن فيدعي أنه لا يمكن فصلها، وأن وجود الروح

يعتمد على الوجود المادي: فعندما ينتهي وجود الجسم المادي، ينتهي وجود الروح أيضًا، ويشكل الجزء الأخير من الكتاب هجومًا على خداع البوذية والأذى الذي تلحقه بالمجتمع.

حتى وقت نظام "ليانج"، كان الإمبراطور "وو" بوذيًّا متدينًا وأصبح راهبًا، ومن خلال حياته كان مصدر إلهام للبلاد كلها لتصبح أتباعًا متحمسين على قدم المساواة من التدين، وفي مواجهة هذا الحماس الذي لم يسبق له مثيل للبوذية، تحدى "فان تشن" البوذية مرة أخرى، فبعد إضافة المزيد لكتاب "إبادة الروح"، وزعه بين أقاربه وأصدقائه، واستدعى الإمبراطور "وو" الوزراء والرهبان لمجادلته، ولكنه خرج من الجدال منتصرًا بفضل حججه المقنعة ومنطقه الصارم.

التطورات الثقافية خلال السلالات الست

الأدب والفن

اتسم شعر فترتي "وي" و"جين" بأسلوب جريء غير مقيد، وكمثال على ذلك فإن قصيدة "عرض البحر" التي ألفها "تساو تساو"، تصف البحر الشاسع في الخريف، معبرًا عن اتساع رؤيته وتطلعاته السامية، "على الرغم من حياة السلحفاة الطويلة" و"نمط الأغنية القصيرة" عبرت عن المثالية لديه، كما كان الشاعر الرعوي "تاو يوان مينج" من أسرة "جين" الشرقية، وكان من ناحية أخرى يتعبه واقع الحياة الباهت ويتوق إلى وجود ريفي هادئ، كما عبر عنه في مقالته "قصة وادي زهر الخوخ"، وكرائد للمثالية الشعرية، وسع "تاو" الشعر الكلاسيكي الصيني إلى مستوى جديد.

ومع تطور الأدب، ظهر النقد الأدبي أيضًا في الصين، وكان أول عمل من هذا النوع "ديان لون" الذي كتبه "تساو بي"، وعلى الرغم من أن معظمها فقدت، فقد تم الحفاظ على واحدة من مقالاته بلقب "مقال في النقد" في كتاب "مجموعة

مختارة من الأدب المنقح"، كما كان أول عمل في النظرية الأدبية في الصين، وكان له أهمية هائلة، حيث ادعى "تساو بي" أن "الكتب حول النظرية يجب أن تحتوي على حجج سليمة، ويجب أن تكون النقوش والروابط صحيحة في الشعور والشعر يجب أن يتم صقله"، كما انتقد "النظر إلى ضعف الآخرين"، وشدد على أهمية شخصية الكاتب.

وكان كتاب "لو جي" "في الأدب" الذي أعقب ذلك أول من يعطي استكشافًا منهجيًا للخلق الأدبي والعملية الإبداعية وأساليب الكتابة والمهارات البلاغية، كتب "لو" الرسالة من أجل معالجة مشكلة "فشل (الكلمات) في التعبير عن رسالة ما"، ومع ذلك كان "نحت التنين في جوهر الأدب" أكثر منهجية وشمولًا وكتبه "ليو شي"، والذي يمكن أن ينظر إليه على أنه أول تحفة في النقد الأدبي في الصين، ففصوله الخمسين لا تتناول فقط القضايا الهامة في النظرية الأدبية، وقواعد لتطوير الأدب، والتقنيات الأدبية، ولكن أيضًا مراجعة الكتاب السابقين وأعمالهم، ويؤكد "ليو شيه" على أهمية أن يعكس الأدب الواقع ويعبر عن مشاعر حقيقية، وعمومًا، يرى أن اللغة الخطابية والمزخرفة يمكن استخدامها في الشعر والنثر والنثر الشعري، ولكن استخدامها لإخفاء نقص المحتوى غير مقبول.

وكان كتاب "أنماط الشعراء" الذي كتبه "تشونج رونج" وهو مواطن من "ينجشوان" - "تشانججي" الحالية بمقاطعة "هنان" - عملًا كبيرًا في النقد يتعلق حصريًا بفن الشعر، وتميز عصر "تشونج رونج" باعتباره واحدًا من العصور التي شهدت انحطاط الشعرية على غرار "الأبيات المبتذلة في كل مكان، وكل شاعر قد ذهب في طريقه الخاص"، وكان دراسة نقدية تعتمد على تقييم الطابع الأخلاقي للناس على أساس تسعة معايير، متبعًا تلك المعايير التي وضعها علماء أسرة "هان"، مع التركيز على مراجعة القصائد ذات الخمسة أحرف إلى سطر، كما علق على 122 من الشعراء من سلالات "هان" الغربية والشرقية (206 قبل الميلاد - 220 م) وأسرة "ليانج" (502 - 557م)، هذه التعليقات تقدم ملخصًا

موجزًا ودقيقًا لنمط كل شاعر، فعلى سبيل المثال، يقال إن قصائد "تساو تشي" (192 - 232 م) تتمتع بـ "روح لا تتزعزع ورواية رائعة"، بينما يتحدث عن "شيه لينغيون" (385 - 433 م) ويقول: "إن الخطوط الشعرية التي تتمتع بالثناء العالمي كثيرة جدًّا ولا تُحصى". كما كان الكتاب أول دراسة عن الشعر، وكان لهذا العمل تأثير كبير على العلماء في وقت لاحق.

خلال هذه الفترة، كان عدد الأعمال الأدبية - سواء جيدة أو سيئة - كثيرًا، فوفقًا لكتاب "تاريخ أسرة "سوي"، تم جمع ما مجموعه 249 مجموعة كاملة في 5224 مجلدًا من أسرة "جين" إلى أسرة "سوي" (265 - 618)، ولكن معظمهم قد فقد، وكانت المجموعة الأولى والأكثر تأثيرًا التي نجت هي "مختارات من الأدب المنقح" أو كما تعرف ببساطة بـ"أنثولوجيا الأدب"، تم جمعها على يد "شياو تونج" أيام نظام "ليانج"، وكان "شياو تونج" الابن البكر لـ"شياو يان" أو الإمبراطور "وو" حاكم "ليانج" كما كان ولي العهد، لكنه توفي قبل الوصول إلى العرش؛ كان بفضل منصبه ومكانته قادرًا على جذب العديد من الأدباء لتجميع الأعمال التي تألفت من ثلاثين مجلدًا، وانقسمت إلى تسع وثلاثين فئة بما في ذلك النثر الشعري والشعر، والمراثي الرسمية، وتنقسم كل منها إلى مواضيع أخرى، مثل الأعياد، ومشاهدة المعالم السياحية، والسفر، وعلى الرغم من احتواء الكتاب على أوجه للقصور -فعلى سبيل المثال، هو مكتوب أساسًا في النثر الشعري، الذي كان في رواج في ذلك الوقت-، تم اختيار الأعمال بعناية وتمتع الكتاب بشهرة كبيرة منذ نشر لأول مرة حتى عهد أسرة "تانج" (618 - 907)، حيث كان يجب أن يلم به الشباب الذين يريدون اجتياز الامتحان الإمبراطوري المدني.

كما وصل فن الخط إلى آفاق جديدة، وأشيد بأعمال الخطاط الشهير "تشونج ياو" من فترة الممالك الثلاث بأنها "طيور بحرية ترتعش فوق الأمواج وترقص في السماء"، وقد تفاخرت أسرة "جين" الغربية بالخطاط "سو جينج" من "دونهوانج"؛ تلميذته وحفيدته "وي شو" التي كانت معلمة "وانج شيتشي الذي

لخص ضربات الفرشاة الخطية الأساسية السبع، ولكن الخطاط الأكثر بروزًا كان "وانج شيتشي" نفسه، الذي تمثل أعماله "مقدمة للقصائد المؤلفة في جناح الأوركيد" و"البلاط الكلاسيكي الأصفر"، كانت زوجة "وانج شي روي" أيضًا خطاطة ويقال إن العديد من أعماله كانت في الواقع من أعمالها هي، وكان أبناؤه أيضًا موهوبين، وخاصة "وانج شيانتشي"؛ لذلك أصبح الأب والابن يعرف باسم "آل وانج."

وقد أدت الاضطرابات الاجتماعية في الفترة الأولى إلى ازدهار البوذية، وكان لذلك تأثير كبير على الرسم والنحت، على الرغم من اشتعال حملة شديدة على الدين في وقت لاحق، واشتهر "تساو بوشينج" من مملكة "وو" بصوره النابضة بالحياة، وكان يعتبر الأب للوحات بوذا في الصين، وتقول الأسطورة إنه مرة واحدة رسم لوحة على ستارة لـ"صن تشوان"، حاكم "وو"، عندما رش بطريق الخطأ قطرة من الحبر على الستارة، وقيل إنه قرر تحويلها ذبابة بإضافة بضع ضربات من الفرشاة وكانت شبه حقيقية لدرجة أن "صن تشوان" حاول أن يطير الذبابة بعيدًا.

وكان الرسام الآخر لهذه الفترة هو "جو كايتشي"، الذي تشمل أعماله التمثيلية "حورية نهر لو" و"نصيحة معلمة البلاط"، وقد فقدت الرسومات الأصلية، إلا أن النسخ لا تزال موجودة، وأجملها هي "نصيحة معلمة البلاط" التي تعود نسختها إلى أسرة "سوي" (581 - 618)، وهي الآن في المتحف البريطاني، أما نسخة "حورية نهر لو" فتعود إلى عهد أسرة "سونج" (960 - 1279) وتوجد في متحف القصر في بكين.

كان للبوذية في أسرتي "وي" و"جين" (220 - 420 م) تأثير كبير على النحت، وخاصة أن المعابد احتوت دومًا على كهوف، فتعد كهوف "يونجانج" في "داتونج" بمقاطعة شانشي بشمال غرب الصين واحدة من أكبر تجمعات الكهوف في الصين، وقد شيدت كهوف "لونجمن" مثلها مثل كهوف "يونجانج" عندما نقل الإمبراطور "شياو ون" من أسرة "وي" الشمالية عاصمته إلى

"لويانج".

دراسة التاريخ والجغرافيا

بسبب الحروب الكثيرة وتغييرات النظم في "وي" و"جين" والأسر الجنوبية والشمالية، فقدت العديد من الوثائق الرسمية ولم يكن لدى الحكومات سوى القليل من الوقت للإشراف على التجميع الرسمي للتاريخ، ونتيجة لذلك، أصبح لأعمال الأفراد شعبية وأهمية. الأمثلة الرئيسة هي سجلات الممالك الثلاث التي كتبها "تشن شو"، و"تاريخ أسرة هان الشرقية" الذي ألفه "فان يي"، و"تاريخ أسرة "وي" الذي كتبه "وي شو".

كان "تشن شو" مواطنًا في ما يعرف الآن بـ"نانتشونج" في مقاطعة "سيتشوان"، وعاش خلال انتقال مملكة "شو" في "سيتشوان" إلى عهد أسرة "جين" الغربية، وفتنه التاريخ منذ الطفولة، وبعد ذلك شغل منصب مؤرخ في "شو"، إلا أنه فصل من منصبه لرفضه الخضوع للخصي "هوانج هاو"، وعندما سقط النظام في 263 م، شغل منصب مدير التحرير والمراقبة السكرتارية في عهد أسرة "جين" الغربية؛ وعندما وحدت "جين" الغربية البلاد، بدأ العمل على "سجلات الممالك الثلاث"، ويحتوي الكتاب على تاريخ الممالك الثلاث "وي"، و"شو"، و"وو"، ويستند على السير الذاتية ويعد تحفة تاريخية وأدبية على حد سواء؛ مستخدمًا لغة موجزة وجميلة، يصور المؤلف شعب الفترة بشكل واضح، وهو سهل القراءة للغاية؛ لذلك خلق ضجة كبيرة جدًّا عند نشره، ونسخ على نطاق واسع، كما تم توزيع القصص في الكتاب شفويًّا، مما أدى إلى وضع العديد من الأساطير حول مسؤولين محكومين بالمقاطعة والجنرالات، وفي وقت لاحق، أعاد "لو جوان تشونج"، الذي عاش من نهاية عهد أسرة "مينج" إلى بدايات أسرة "تشينج"، كتابة القصص في كتاب "رومانسية الممالك الثلاث"، مع الحرص على عدم تجميل الحقائق.

وكان "بي سونج تشي" من أسرة "جين" الشرقية ينحدر مما يعرف اليوم

بمنطقة "وينشي" في مقاطعة "شانشي"، وولد في عائلة بيروقراطية، وكان يحب القراءة من سن مبكرة، وبالنظر إلى بساطة لغة "سجلات الممالك الثلاث" فقد كتب "تعليق على سجلات الممالك الثلاث" للبحث والتوسع في الحقائق، كما ذكر أكثر من 210 من الكتب في مذكراته وحفظ عددًا كبيرًا من المواد التاريخية المهمة، والتعليق الذي كتبه "بي" يعد أكثر قيمة من العمل الأصلي.

خلال عهد أسرة جين الغربية، تم الكشف عن عدد كبير من شرائح الخيزران خلال نبش قبر قديم من مقاطعة "وي" -من حقبة الدول المتحاربة، 475 - 221 قبل الميلاد-، ويقال إنهم كانوا كثيرين جدًّا لدرجة أنهم حملوا في اثنتي عشرة عربة لنقلها، وفي هذه الشرائح التي سماها المؤرخون "شرائح خيزران جيتشونج" أكثر من 100.000 حرف غير عادية، وكان من الصعب جدًّا فك شفرتها لدرجة أن الأمر استغرق سنوات من البحث على يد العديد من العلماء من أسرة "جين" (265 - 420 م) لتحديد كونها عشر نسخ من الكتب من فترة ما قبل "تشين" (قبل 221 قبل الميلاد) وتضم خمسة وسبعين مقالًا، وعلى الرغم من الإشارة إليها مجتمعة باسم "حوليات جيتشونج"، فإنها تسمى الآن "حوليات الخيزران"، ومن المؤسف أنه لم يتم الحفاظ عليها بشكل أفضل، لأنها تعطي سردًا لفترة ما قبل "تشين" التي تختلف تمامًا عن التاريخ الرسمي.

أدت السنوات المضطربة لأسرة "هان" الشرقية إلى موجة من الكتابات التاريخية، وأبرزها "تاريخ أسرة هان الشرقية" بقلم "فان يي"، الذي يستند إلى السير الذاتية التي لا تزال تقرأ حتى يومنا هذا، كان "فان يي" من مواليد "شونيانج" -منطقة "شيتشوان" اليوم بمقاطعة "هنان"- خلال نظام "ليو سونج"، وفي 445 م أعدم للخيانة، وبالتالي لم يتم عشرة سجلات كان قد خطط لها، وفي وقت لاحق، أضاف "ليو تشاو" من نظام "ليانج" ثمانية سجلات كتتمة "تاريخ أسرة هان" بقلم "سيما بياو"، وأضافهم إلى "تاريخ أسرة هان الشرقية" لخلق النسخة لدينا اليوم، وهو يسلط الضوء على قرنين من الأحداث من تولي الإمبراطور "جوانج وو" السلطة إلى تنازل الإمبراطور "شيان" في 220 م،

ويكتسب هذا العمل أهمية خاصة لإدراجه في السير الذاتية سيرًا للمرأة؛ وشملت هذه "تساي يان"، وهي امرأة موهوبة تزوجت عدة مرات، وهو الأمر الذي لم يكن مستحبًا في تلك الأوقات؛ و"بان تشاو"، التي كانت تلميذة مجتهدة، وزوجة "يوي يانجتزي"، التي ألهمت زوجها لمتابعة دراسته، وشملت السير الذاتية الأخرى الخصيان والمهنيين الذين مارسوا الطب أو فنون العرافة والخيمياء، وكان أكبر تقييد للكتاب أنه تجاهل الانتفاضة الفلاحية، مشيرًا إليها على نحو عابر في سيرة "هوانجبو سونج"، المسؤول الذي قام بقمعها، وعمومًا، فإن هذا العمل ثمين بشكل خاص لقلة عدد السجلات من أسرة "هان" الشرقية الآن.

وكان العمل المثير للجدل من هذه الفترة "تاريخ أسرة وي" لمؤلفه "وي شو" الذي لقب نفسه "بو تشي"، وكان مواطنًا في ما يعرف الآن بـ"جين" بمقاطعة "هيبي"، ففي 551م، أمر بتجميع تاريخ "وي"، الأمر الذي أخذ منه ثلاث سنوات فقط، وكان يتألف من 131 فصلًا، وفي حين اعتبر معاصروه أن العمل هو "حدث كبير لجيل واحد"، واشتكى الكثيرون من فشله في إدراج أفعال أو مآثر أجدادهم، ونتيجة لذلك نقحه "وي" مرتين على مدى العقد التالي، وعلاوة على ذلك، وصفه الكثيرون بكتاب "التاريخ القذر"، وكان هذا يرجع إلى حد كبير إلى السياسة في ذلك الوقت، حيث إن الوضع التاريخي للموتى كان له تأثير مباشر على مصالح الأحياء، وكانت الأسر المؤثرة وأصحاب الأراضي حساسين بشكل خاص حول كيفية رواية قصصهم، وفي الواقع، كان "وي شو" قد روى أصول الأسر القوية، وبالتالي ظهر فرع جديد من الدراسة وهو علم الأنساب.

وكان علم الأنساب في الأصل أداة تستخدمها الأسر القوية للحفاظ على امتيازاتها السياسية، وتطورت من حفظ شجرة العائلة، وهو ملف يوثق نسب وأفعال الأعضاء الرئيسيين في العشيرة، ويستند شكله ومحتواه إلى مبادئ علم الأرشفة، والتاريخ، والأنثروبولوجيا الثقافية، وغيرها من التخصصات، ولا يمكن تمييز أسر المسؤولين والعائلات العادية إلا عن طريق شجرة العائلة خلال

أسر "وي" و"جين" وأنظمة الجنوب والشمال، وقد تم تحديد الوظائف الرسمية على أساس وضع النسب العائلي، وبالتالي أصبحت شجرة العائلة فرعًا متخصصًا من المعرفة، وبسبب الوقت الذي تستغرقه، والعلاقة المعقدة بين الأسرة والناس العاديين كرس الكثير من الناس حياتهم بأكملها لدراستها؛ وأصبح هناك بعض الخبراء، وكان أشهرهم في أسرة "جين" الغربية هو "تشي يو" الذي كتب "أسماء الأسر" المكون من عشرة مجلدات وهو أول كتاب رسمي لأسر المسؤولين في الصين، وفي عهد أسرة "جين" الشرقية، كان أشهرهم "جيا بيتشي"، الذي كان من عائلة ثرية في "بينجيانج"، ودرس الأنساب مع ابنه، "جيا فيتشي" وحفيده "جيا يوان"، وفي وقت لاحق، واصل "وانج سنجرو" من "دونج هاي" عمل أبناء "جيا".

وشهدت السلالات الجنوبية والشمالية طباعة العديد من الكتب الجغرافية، التي صورت المقاطعات الإدارية والعسكرية والجبال والأنهار؛ وشملت أيضًا الحكايات السفر وتفاصيل التخصصات المحلية، قام "لو تشينج" من نظام "تشي" في جنوب الصين بتجميع كتاب "الجغرافيا" المؤلف من 150 صفحة من خلال جمع أكثر من 160 مصنفًا جغرافيًا، ثم جمع "رن فانج" من نظام "ليانج" كتاب "الجغرافيا" المكون من 252 صفحة بإضافة 84 مصنفًا آخر، لكن للأسف معظم الأعمال الجغرافية من ذلك الوقت قد فقدت، ولكن ما تبقى ويعتبر الأكثر تميزًا هو "التعليق على الممرات المائية الكلاسيكية"، وكان المؤلف "لي داويوان" مواطنًا لما يعرف الآن بإقليم "تشولو" بمقاطعة "هيبي"، وكان مهتمًا بالجغرافيا منذ سن مبكرة، واستفاد من مسماه الرسمي في مختلف المناطق لتقييم الكثير من تضاريس شمال الصين، باستخدام مقارنات مع النصوص الموجودة، وجد أن الخصائص الجغرافية تتغير مع مرور الوقت، وقرر كتابة جغرافية شاملة على أساس كتاب "الممرات المائية الكلاسيكية"، وكان هذا العمل الجغرافي الذي تم إنتاجه في فترة الممالك الثلاث يتميز باحتوائه فقط على 10.000 حرف صيني وأوصاف بسيطة، ونتيجة للبحث والدراسة واسعة النطاق، أنهى "لي داويوان" تحفته بما مجموعه 300.000 حرف صيني مكتوبة

بشكل أنيق، ولم يحتوِ فقط على كتالوج كبير من الميزات الجغرافية ولكن أيـضًا مجموعة من المقالات تصف المناظر الطبيعية الجميلة، ولذلك كان له تأثير كبير على كتابة السفر في وقت لاحق.

العلوم الطبيعية

وعلـى الـرغم مـن اضـطراب هـذه الفتـرة، فقد حققت الرياضيات وعلم الفلك وصناعة التقويم والزراعة والطب خطوات كبيرة؛ ففي مجال الرياضيات على وجـه الخصـوص، بـرز عـدد مـن العلمـاء المتميزين إلـى الواجـهة، مثـل "لـيو هوي" (265 - 317 م)، وهو مواطن من "لين تزي" بمقاطعة "شاندونج" الحالية، وعاش في السنوات الأخيرة من أسرة "وي" وأوائل أسرة "جين" الغربية وكان واحـدًا مـن مؤسـسي النظريـة الرياضية الكلاسيكية الصينية، وتشمل أعماله الرئيسة "دليل الرياضة لجزر البحر" و"التعليق على الفصول التسعة في الفن الرياضي"، الذي يعطي شرحًا شاملًا وتحليلًا للمفاهيم الرياضية المجردة، كما اختـرع الأسـلوب السـيكلوماتيكي، الـذي وفـر الأسـاس النظـري والخوارزميـة العلميـة لبحـوث "بـاي" باسـتخدام طريقتـه تحـسب قيمـة باي لتكون 3.1416، وعلى مدى آلاف السنين قادت الصين العالم بهذا الحساب.

وفي عهد أسرة هان الغربية، أنشأ علماء الفلك طريقة لقياس مسافة الشمس من الأرض خلال الانقلاب الصيفي، الذي يقيس ظل الشمس مرتين، ولكن بما أن سـطح الأرض كـروي وليس مسطحًا فقد فشلت الطريقة، ومع ذلك، فمن الممكن استخدام ذلك للقياسات الأخرى، مثل المسافة بين الجزر، ولخص "ليو هوى" هذا النهج في "الدليل الرياضي لجزر البحر"، الذي أصبح موردًا تعليميًّا هامًّا خلال عهد أسرة "تانج".

بعد "ليو هوى" جاء عالم رياضيات آخر وهو "تزو تشونجتشي"، الذي عاش بين نظـامي "سـونج" و"تشي" خـلال حكم الأسـر الجنوبيـة، وباستخدام عمل "ليو هـوى" كنقطـة انطـلاق أعـاد حسـاب قيمـة "بـاي" لتكـون بـين 3.1415926

و3.1415927، ليصبح أول شخص يقوم بحساب "باي" بدقة إلى سبعة منازل عشرية، وقد جمع "تزو تشونغتشي" نتائج بحثه في كتاب سماه "زوي شو" "أسلوب الاستيفاء"، ولأن جميع أسئلة امتحانات الرياضيات تم اختيارها من هذا الكتاب، فقد كان كتابًا مهمًّا في عهد أسرة "تانج"، ولكنه فُقد للأسف خلال حكم أسرة "سونج" الشمالية.

وتبع ابن "تزو تشونجتشي"، "تزو غانج" خطى والده، وكان إنجازه الرئيس هو وضع الصيغة الدقيقة لحساب حجم المجال وكان أول من يفعل ذلك، كما أنتج "مبدأ تزو غانج" الذي اكتشفه لاحقًا عالم الرياضيات الإيطالي كافاليري بعد ذلك بما يقارب 1100 سنة.

كما كان هناك اكتشاف رئيس آخر في النظرية الرياضية وهو كتاب المعلم صن الرياضي، ومؤلفه غير معروف، يرجح أنه ربما كتب في أواخر فترة الممالك الست عشرة أو أوائل أسرة "وي" الشمالية، وينقسم إلى ثلاثة مجلدات، وتتعلق الفصول الأولى بالحسابات، بما في ذلك الضرب والقسمة؛ والثانية تحتوي على أمثلة لحساب الأساليب للكسور والمربعات، والمجلد الثالث يعرض مختلف مشاكل الرياضيات الصعبة، وفي عام 1876م، أشار "ماتيسن"، وهو عالم رياضيات ألماني، إلى أن طريقة حل المشكلة المستخدمة في هذا المجلد النهائي كانت نظرية "جاوس"، التي طرحها "كارل فريدريش جاوس" في عام 1801م.

وشرح "تشن لوان" من فترة "تشو" الشمالية "دليل المعلم صن الرياضي" وكتب أيضًا العديد من الكتب نفسه، بما في ذلك "الدليل الرياضي لأقسام الحكومة الخمس" و"الرياضيات في خمس كلاسيكيات" و"ملاحظات تكميلية عن الفن الرياضي"، وكتب "الدليل الرياضي لإدارات الحكومة الخمس" خصيصًا للأفراد العسكريين ككتاب للرياضيات التطبيقية، وينقسم كذلك إلى خمسة أجزاء على أساس خمس وحدات إدارية؛ وقد تم تصميمه لمساعدة المسؤولين على جميع المستويات على حل المشكلات العملية، أما "ملاحظات تكميلية عن الفن

الرياضي" الذي يقال إنه كتبه كاتب من عهد أسرة "هان"، وشرح على يد "تشن لوان"، ولكن ربما كان مكتوبًا بعد سلالة "جين" يتعلق بالمعداد؛ لأنه لم يكن هناك شعاع يقسم المعداد، وكانت الخرزات التي تمثل خمسة في الجزء العلوي والعدد واحد في الجزء السفلي يجب أن تكون متميزة بألوان مختلفة.

كما حدثت اكتشافات كبيرة في حسابات التقويم وتصنيع الأدوات الفلكية الجديدة، فرسم "تشن تشو"، وهو مؤرخ من "جين" الغربية، خريطة تضم المجموعات الثلاث من النجوم الثابتة؛ ولأكثر من ألف سنة ظل هذا المعيار لرسم خرائط النجوم والكرات السماوية، كما تم اختراع الآلات لدراسة حركة الأجرام السماوية، الكرة السماوية التي تمثل الحركات السماوية، والكرة السماوية التي تقيسها، كما صمم المؤرخ "كونج تينج" من نظام "تشاو" السابق الكرة السماوية وهي الأداة الأولى التي قدمت ما يكفي من المعلومات التفصيلية لفهم البنية الأساسية للمناطق السماوية في عهد أسرة "هان".

كما تم إنتاج كل من الساعات الشمسية والمائية والأدوات الفلكية الأخرى، واستخدمت الساعة الشمسية لحساب المسافة بين الشمس والشمال والجنوب من خط الاستواء، في حين تم استخدام الساعات المائية لحساب الوقت، وتم إجراء تحسينات على مجموعة متنوعة من الأدوات باستمرار تمشيًا مع تنقيحات التقويم، فعلى سبيل المثال، حسّن "هي تشينج تيان" من نظام "ليو سونج" وظيفة الساعات المائية وفقًا لتقويم "يوانجيا، كما تم تعديل الساعات المائية مرة أخرى خلال عهد الإمبراطور "وو" من نظام "ليانج"، الذي أمر أيضًا "تزو جانج" بكتابة دليل الساعات المائية للاستخدام العام.

وقدم تقويم "دامينج" الذي أنشأه "تزو تشونجتشي" فترة من الاعتدالات للمرة الأولى، واقترح أن كل 2.7 سنوات لمدة 391 سنة يجب أن يكون هناك شهر متقدم، ولسوء الحظ، لم يتم استخدام هذا التقويم بسبب معارضة "داي فاشينغ"، وهو مسؤول في البلاط كان يحظى برضا الإمبراطور، وبعد وفاة "تزو"، كتب ابنه "تزو غنج"، ثلاث رسائل إلى السلطات يطلب فيها استخدام

تقويم دامينج، ولكن لم يدخل حيز الاستخدام الرسمي حتى 510 م.

شهدت أسر "وى" و"جين" أيضًا تطورات كبيرة في الطب، حيث كان "وانج شي"، الذي لقب نفسه "شو"، من مواطني ما يعرف الآن بإقليم "وي شان" بمقاطعة "شاندونج"، وقد قام بقدر كبير من البحوث حول النبض، وجمع مجموعة من كتابات الأطباء القدماء، والتي كونت بالإضافة إلى تجاربه السريرية الخاصة كتاب "نظم النبض"، وهو أول عمل شامل للصين في هذا الموضوع، كما نظم "وانج" رسالة "تشانج تشونج جينج" "حول الحمى والأمراض المتنوعة" التي كانت محتوياتها متناثرة، وكان يصطاد الأجزاء المفقودة كما كتب "أطروحة عن أمراض الحمى" و"ملخص الوصفات الطبية للغرفة الذهبية".

كما كان "تاو هونج جينج"، الذي سمى نفسه "تونج مينج" أو "هرميت هوايانج"، من مواليد نظام "ليانج" من السلالات الجنوبية وعاش في ما يعرف الآن بإقليم "نانجينج" بمقاطعة "جيانجسو"، كان مهووسًا بقصص الخلود والخيمياء منذ سن مبكرة، وتراكمت لديه ثروة من الخبرة العلمية والتكنولوجية، وكانت إسهاماته الرئيسة في العلوم الصيدلانية الصينية، حيث أعاد تجميع الكتاب القديم الذي كتبه "شين نونج" "ماتيريا ميديكا"، وقام بإضافة مواد جديدة، وجمع الملاحظات الجماعية المكونة من سبعة مجلدات لـ"قانون المواد الطبية"، والتي أثرت على تطوير الأدوية العشبية، وحيث أن "تاو" كان طاويًا متدينًا أولى اهتمامًا كبيرًا لصحته، وقام أيضًا بتجميع كتاب سماه "تغذية الطبيعة"، ويلخص الطرق التي حاول الناس من خلالها إطالة أمد حياتهم في الصين قبل وقته.

وكانت الإنجازات البارزة في مجال الهندسة الزراعية سمة أخرى من سمات العصر، كان "جيا سيشي"، الذي عاش في عهد أسرة "وي" الشمالية، رئيس محافظة "جاويانج" العسكرية - لين تزي حاليًا في مقاطعة شاندونج - وفي مواجهة الفساد والتدهور الاقتصادي، كان يدرك أهمية الإنتاج الزراعي؛ لذلك

كتب "الفنون المهمة لرعاية الشعب"، الذي يعتبر أقدم وأكمل الأعمال في الصين في مجال الزراعة، وهو يقدم ملخصًا منهجيًّا للزراعة وتربية الحيوانات وتجهيز الأغذية وتخزينها واستخدام النباتات البرية في حوض النهر الأصفر، ويشير إلى أكثر من 150 عملًا قديمًا آخر.

الاكتشافات الفلسفية الجديدة

تعاليم الظلام وحكماء بستان الخيزران السبعة

كانت فترة حكم "وي" و"جين" فترات فوضى، وأدى عدم الاستقرار بالناس إلى الشعور بأن الحياة كانت عابرة، وأنه نظرًا لأنه لا يمكن إطالة أمدها، فإن أفضل نهج هو الاستفادة القصوى منها، ونتيجة لذلك، نشأت مجموعة غير تقليدية من المثقفين مع سمعة باتجاههم للتفكير الحر وسلوك أكثر حرية: الشرب والغناء وعدم الالتفات للمخاوف الأرضية، وقد أعجبوا بإخلاصهم ونمط حياتهم الفاحشة، التي شملت استخدام دواء ترفيهي معين يسمى "مسحوق الأحجار الخمسة" المصنوع من خمسة معادن: الرواسب الكلسية، والجمشت، والكوارتز، والكبريت الحجري، والهالويسايت، وعلى غرار العقاقير الحديثة المحفزة للأعصاب، كان من شأنها أن تجعلهم هائجين ويشعرون بالحرارة والعطش، واعتبر رمزًا للثروة والمكانة، ولكن الاستخدام على المدى الطويل يمكن أن يؤدي إلى حدة الطبع بل وحتى العنف، وكان هذا الدواء هو السبب الكامن في شيوع سمعة العلماء واشتهارهم بالسلوك الغريب.

ولكن هذا السلوك كان في الواقع شكلًا من أشكال التمرد ضد العلل في المجتمع، بدأ استخدام الدواء مع "يان"، الذي سمى نفسه "بينجشو" وكان من مواليد "نانيانج" بمقاطعة "هنان"، والذي بدأ مع "وانج بي"، مؤسس فلسفات "علوم الظلام"، الاتجاه للمحادثة الفلسفية خلال فترة الممالك الثلاث وأسرة

"جين"، في ذلك الوقت، كانت الدراسات الميتافيتزيقية في رواج، كما كانت سلطة الكونفوشيوسية تحت التحدي، ونمت مدرسة علوم الظلام بسرعة، وينحدر "وانج بي"، الذي يدعى "وانج فوسي"، مما يعرف الآن بـ"شانيانج" في مدينة "جياوزو" بمقاطعة "هنان"، وشرح كلاسيكيات الكونفوشيوسية باستخدام أفكار "لاو تزي" و"تشوانج تزي"، وقدمت أعماله، "تفسير المحاورات"، و"ملاحظات على كتاب التغييرات" و"الأمثلة المبسطة من كتاب التغييرات"، مناقشات متعمقة للمبادئ المجردة وكان لها تأثير عميق على تطور الفكر الصيني - على الرغم من أنه عاش فقط إلى سن الثالثة والعشرين - وفي مملكة "وي"، مثلت عائلة "سيما" المدافعين عن الكونفوشيوسية الأصيلة، واضطهدوا بوحشية المعارضين، وقد أثار "وانج بي" و"يان" استياءهم بسبب علاقتهم الوثيقة مع عائلة "تساو تساو"؛ لذلك، عندما أصبح "سيما يي" حاكمًا قام بإعدامهما على الفور.

وفي الوقت نفسه، كان هناك سبعة علماء مشهورين غالبًا ما تجمعوا في بستان الخيزران في محافظة "شانيانج" -هويشيان الحالية وشياوو بمقاطعة هنان- لشرب الخمر والانخراط في المحادثات الفلسفية، كانت أسماؤهم "جي كانج"، "روان جي"، "شان تاو"، "شيانج شيو"، "ليو لينج"، "وانج رونج"، و"روان شيان"، ودعاهم الناس بـ"حكماء بستان الخيزران السبعة"، وكانوا ممثلين لعلوم الظلام ورجالًا ذوي مواهب بارزة، وكان "جي كانج" رجلًا منفتحًا، سخيًا، ورائعًا، تزوج من حفيدة "تساو تساو"، كما رفض التعاون مع عائلة "سيما"، ورفض تولي أي مناصب رسمية، فأصبح شوكة في جانبهم، وأدى عناده في نهاية المطاف إلى موته.

وعلى عكس "جي كانج"، لم يواجه "روان جي" عائلة "سيما" بشكل مباشر، إلا أنه أعرب عن عدم رضاه في حدود مقبولة، ويقال إنه بعد أن أصبح "سيما تشاو" ملكًا على "جين"، أظهر جميع الحكماء له الاحترام في ما عدا "روان"، وفي وقت لاحق، طلب "سيما" من "روان" إعطاء ابنته زوجة لابنه "سيما يان"؛

فلم يُجب "روان" وظل في حالة سكر لأكثر من ستين يومًا تعبيرًا عن المقاومة الصامتة، وفي مقاله المسمى "حياة رجل عظيم"، انتقد بشدة نفاق نظام الطقوس والعديد من علماء الكونفوشيوسية. وقد اختلف "شان تاو"، وهو الأقدم والأعلى في الرتبة الرسمية للحكماء السبعة عن الآخرين في أنه كان ذا مهنة رسمية نشطة وتعاون مع أسرة "سيما"، وكرس نفسه لاختيار الموهوبين للبلاط استنادًا فقط على الجدارة؛ وفقًا لكتاب "روايات جديدة للحكايات الاجتماعية في العالم"، تم اختيار جميع المسؤولين تقريبًا، العسكريين والمدنيين على حد سواء، على يد "شان تاو" وأثبتوا كل ما وعد به.

حاول "شيانج شيو" الجمع بين الطاوية والكونفوشيوسية، ولصالح تعاليم "لاو تزي" و"تشوانج تزي"، حاول أيضًا مراجعة الطاوية من منظور المذاهب الكونفوشيوسية، ويقال إن "جي كانج" سخر من اجتهاده ومثابرته، لكنهما كانا قريبين بالرغم من ذلك؛ فبعد اضطهاد "جي"، اضطر "شيانج" لقبول منصب رسمي بالاسم فقط وجلس في الواقع دون أن يفعل شيئًا كنوع من التمرد ضد عائلة "سيما". وكان "ليو لينج" قصيرًا وقبيحًا، وكان مدمنًا على الكحول كما كان نموذجيًا من العلماء في ذلك الوقت الذين أغرقوا سخطهم في الكحول، وولد "وانج رونج"، أصغر أعضاء المجموعة، لعائلة "وانج" البارزة في "لانجيا"، وكان والده، "وانج هون"، صديقًا جيدًا لـ"روان جي"، ولكن هذا الأخير توجه إلى الرجل الأصغر سنًا وأصبحا قريبين رغم فجوة العمر المقدرة بأربعة وعشرين عامًا، وكان "روان شيان" ابن شقيق "روان جي" وغير تقليدي بالمثل، فكان عبقرية موسيقية في عزف البيبا (العود الصيني رباعي الأوتار)، وكان معجبًا كبيرًا بعمه "روان جي"، وكثيرًا ما رافقه في رحلاته.

مع مرور الوقت، وتفككت مجموعة تعاليم الظلام ببطء، على الرغم من أن مؤيديها ما زالوا ينغمسون في المحادثات الفلسفية، أصبحت مرتبطة تدريجيًا بالشرب الكثير وفقدان الموانع، وفي بستان الخيزران، مع ذلك، جاء كل شيء من القلب، فما كان الحكماء السبعة يسعون إلى الفجور، بل إلى الهرب من

الواقع.

ازدهار البوذية

بعد إدخالها إلى الصين في السنوات الأخيرة من عهد أسرة "هان" الشرقية، وصلت البوذية إلى ذروتها خلال السلالات الجنوبية والشمالية، وبما أن هذه كانت فترة من الحروب والاضطرابات، فقد أصبحت مصدرًا كبيرًا للعزاء الروحي، وقد أسهم عدد من الرهبان إسهامًا كبيرًا في انتشارها وتنميتها؛ وكان واحد من الأكثر احترامًا في شمال الصين "داو آن" الذي درس تحت يد الراهب البوذي "فوتودنج" من المناطق الغربية، ويقال إن "فوتودنج" كان معلمًا للترانيم وقادرًا على العمل مع الأرواح؛ لذلك كان يفضله "شي هو"، حاكم نظام "تشاو" المتأخر، وكان "داو آن" فخورًا بأن يكون تلميذًا لـ"فوتودنج"، واستطاع تكرار كل محاضرات معلمه وإعطاء إجابات بليغة على الأسئلة، وفي 348 م، توفي "فوتودنج" وفي وقت لاحق اندلعت الحرب الأهلية وقاد "داو آن" 400 من تلاميذه للبحث عن ملجأ في الجنوب، حيث عاش في "شيانج يانج" ما يقرب من خمسة عشر عامًا.

خلال هذه الفترة، تأثر "داو آن" بالبوذية الجنوبية، التي ركزت على النقاش، وبدأ دراسة عقيدة "براجنا"، وفي عام 379 م، استولى نظام "تشين" السابق على "شيانج يانج"، ودعي "داو آن" مرة أخرى إلى "تشانج آن"، عاصمة نظام "تشين" السابق، وهناك أظهر الحاكم "فو جيان" احترامًا كبيرًا له، استفاد "داو آن" من ذلك لإقامة ورش عمل لترجمة الكتب المقدسة البوذية، وتطورت البوذية في الشمال بشكل كبير مع "داو آن" كزعيم لها؛ كانت مدرسته التي تعتمد عدم واقعية جميع الأشياء أهم من مدارس براجنا البوذية السبع، واقترح "داو آن" أن يتخلى الرهبان عن ألقاب عائلاتهم وأن يعتمدوا لقب "شي"، أو الشكل المختصر لـ"ساكياموني" بدلًا من ذلك، وهي ممارسة لا تزال تتبع حتى اليوم.

بعد "داو آن"، خرجت البوذية الصينية من تأثيرات الفكر الطاوي وأصبحت دينًا مستقلًّا، وجاء راهب آخر إلى الصدارة اسمه "كوماراجيفا"، وولد في "كوتشا"، "كوجا" وهي "شينجيانج" اليوم، ويقال إن والده كان يمكن أن يصبح رئيسًا للوزراء، ولكن بدلًا من ذلك تخلى عن الثروة والمناصب ليصبح راهبًا، وكانت والدته قد حلقت شعرها وأصبحت راهبة عندما كان عمره سبعة أعوام فقط؛ وتحت تأثيرها، أصبح "كوماراجيفا" الشاب تلميذًا بوذيًّا، وذهبوا إلى "كابيسا" (كشمير اليوم)، معقل البوذية في المناطق الغربية، حيث تلقى "كوماراجيفا" أساسًا ممتازًا في الدين، مع سليقته البليغة وبلاغته، انتشرت سمعته، حتى وصلت "تشانج آن".

وفي 382 م، أرسل "فو جيان" الجنرال "لو جوانج" لشن حرب ضد المناطق الغربية وحثه على العثور على "كوماراجيفا"، وبحلول الوقت الذي استولى فيه الجنرال "لو" على "كوتشا"، توفي "فو جيان"؛ لذلك أعلن نفسه ملكًا في "ليانجتشو" وأنشأ نظام "ليانج" المتأخر، مما اضطر "كوماراجيفا" للبقاء معه، وفي عام 401 م، هزم "ياو شينج"، إمبراطور "شين" المتأخرة نظام "ليانج" المتأخر وأخذ "كوماراجيفا" إلى "تشانج آن"، حيث تم تشجيعه على تقديم محاضرات عن البوذية، وقد استمع إليه "ياو" نفسه كثيرًا، وأيد ترجماته من الكتب المقدسة البوذية، وكانت ترجمة "كوماراجيفا" واضحة بشكل جميل وتتمتع بالطلاقة، وأصبحت الأكثر تعميمًا على نطاق واسع.

في ذلك الوقت، على الرغم من أن العديد من الرهبان ذهبوا إلى المناطق الغربية لدراسة البوذية، فإن معظمهم لم يذهب أبدًا إلى مسقط رأسها الهند، وكان الاستثناء هو "فاشيان" (اللقب السابق "جونج")، الذي عاش خلال عهد أسرة "جين" الشرقية، فخوفًا من أن يموت قبل الأوان، أخذه والداه إلى معبد ليصبح راهبًا في سن الثالثة، وفي 399 م، قرر فاشيان البالغ من العمر 65 عامًا الذهاب إلى الهند للبحث عن المذاهب البوذية الكلاسيكية، وبعد رحلة خطيرة، وصل أخيرًا، وجمع مجموعة كبيرة من الكتب المقدسة البوذية قبل مغادرته

في 409 م، ثم استقل سفينة تجارية لما يعرف بسريلانكا اليوم، حيث بقي لمدة عامين، وحصل على أربعة كتب مقدسة للبوذية الكلاسيكية بما في ذلك ماهيساساكا فينايا، ثم عاد إلى الصين في 412 م، بعد أن نجا من الموت في البحر، وكان عمره الآن ثمانية وسبعين، لكنه بدأ على الفور في سبع سنوات من ترجمة الكتب المقدسة - ستة كتب، بلغ مجموعها 63 مجلدًا وأكثر من 10.000 كلمة، من بينها ماهاسانجا فينايا، واحد من الكتب المقدسة البوذية الخمسة التي كان لها تأثير عميق على البوذية الصينية في وقت لاحق، كتب فاشيان أيضًا قصة رحلته في عدد من الدول البوذية - وليس فقط سيرته الذاتية، ولكن كانت أيضًا سجلًا تاريخيًا مهمًا للمناطق الغربية والهند.

وفي الجنوب، كانت شخصية بوذية رئيسة هي "هوي يوان"، ولد "هوي يوان" لعائلة من المسؤولين، وقد تلقى تعليمًا ممتازًا وكان ضليعًا في العقائد الكونفوشيوسية والطاوية الكلاسيكية، عن طريق الصدفة أصبح على معرفة بالراهب المعروف "داو آن"، وكان معجبًا جدًّا بتعاليمه لعقيدة براجنا لدرجة أنه أصبح على الفور تلميذه، وفي 378 م، استولى جيش "تشين" السابق على "شيانج يانج" وبدأ "داو آن" العودة إلى الشمال؛ أما "هوي يوان"، فاتبع نصيحة المعلم له، وغادر شيانج يانج، ومر بجبل "لو" في مقاطعة "جيانجشي" اليوم، وأسره جمال المكان لدرجة أنه استقر هناك، وبتمويل من "هوان يي"، حاكم "جيانجتشو" من أسرة "جين" الشرقية، تم بناء معبد على الجبل، وهو معبد "دونجلين" الذي لا يزال يجذب الحجاج حتى اليوم، ولمدة ثلاثين عامًا، درس "هوييوان" وقدم محاضرات عن البوذية، ولم تفشل معرفته بالكلاسيكيات الكونفوشيوسية الستة، وتعاليم الظلام، وأفكار "لاوتزي" و"تشوانج تزي"، التي كان يفسر بها الكتب المقدسة البوذية أبدًا في إقناع جمهوره، ووجهت إليه النبلاء والعلماء من كل الأنحاء.

على الرغم من أن البوذية قدمت العون الروحي، فإنها كانت تتسبب في تكبد نفقات هائلة، فقد كان البوذيون في الشمال مغرمين بنحت التماثيل - وعلى

سبيل المثال، كانت المقابر الرائعة "لونجمن" و"يونجانج" التي تم نحتها خلال أسرة "وي" الشمالية - وأنفق الحكام في الشمال والجنوب الكثير من المال على المعابد، ودعم ذلك الدعم المالي انتشار البوذية وازدهارها، لكن وراء التماثيل المهيبة والمعابد المهيبة كان واقع أكثر قسوة بالنسبة لعامة الناس.

ازدهار الطاوية

وقد حدث التشكيل التدريجي للطاوية خلال السنوات الأخيرة من عهد أسرة "هان" الشرقية، وفي ذلك الوقت، ظهرت بشكل فرعين رئيسين: طائفة السلام العظمى التي تأسست في شمال الصين على يد "تشانج جياو" وشقيقه، وطائفة مكاييل الأرز الخمسة التي أنشأها في جنوب الصين "تشانج لينج"، بعد فشل انتفاضة ذوي العمائم الصفر، لم تتمكن طائفة السلام العظمى في الشمال من التعافي؛ فإن طائفة مكاييل الأرز الخمسة كانت أفضل، ولكنها الآن أخذت طريقًا مختلفًا، فنمت باطراد أكبر تحت قيادة حفيد "تشانج لينج" "لو تشانج"، وذلك بفضل علاقاتها الوثيقة مع "ليو يان"، محافظ "ييتشو"، وبعد وفاة "ليو يان"، أقام "تشانج لو" مقره في "هانتشونج"، وأقام نظامًا انفصاليًا مستقلًّا، ودعا نفسه المعلم العظيم، وكان يطلق على القادمين الجدد "بيادق" ويقودهم المستشارون، الذين كانوا مسؤولين عن الشؤون المحلية والعمل التبشيري، وعلى جانب الطريق، أقيمت أقفاص للأرز أو اللحوم لتوفير الغذاء المجاني للمهاجرين الفقراء، كما قدم "تشانج لو" عددًا من الإجراءات الابتكارية مثل العقوبات المتساهلة وحظر النبيذ، وكلها دعمها الشعب، ومع ذلك، فشل هذا النظام الثيوقراطي في الهروب من براثن أمراء الحرب، ففي 215 م، أطلق "تساو تساو" حملة استولت على "هانتشونج"؛ واضطر "تشانج لو" إلى الاستسلام وفقد نفوذه الشخصي، ومع ذلك، واصلت عقيدة مكاييل الأرز الخمسة انتشارها في شمال الصين تحت ظل حكم "تساو تساو".

وهكذا أصبحت مكاييل الأرز الخمسة الحبل الرئيس للطاوية، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى صلاتها مع ذوي المناصب العالية، فبعد أن استولى عليها "تساو

تساو"، كانت يخضع لإشراف الحكومة، وظلت صلتها بالنبلاء قائمة، وفي الفترة التي سبقت أسرة "جين" والسلالات الجنوبية والشمالية، ظهر عدد من الشخصيات المهمة، ونظرا لأن العديد من إصلاحاتها فاز بدعم الطبقة الحاكمة، وصلت الطاوية إلى ذروة جديدة، فكتب "جي هونج" من أسرة جين الشرقية عملًا مهمًّا يدعى "باو بو تزي" "من يتمسك بالبساطة"، وكان "جي هونج" من ذوي الخبرة في الكونفوشيوسية؛ وكان عمله في الواقع مزيجًا من الطاوية والكونفوشيوسية، وكان يحظى بتقدير كبير لربطه بين الدين والبحث الأكاديمي، جعلت مثل هذه الأعمال المعتقدات الطاوية مقبولة للناس من الطبقة العليا، وفي أثناء حكم أسرة "جين" الشرقية أصبح العديد من النبلاء أتباعًا لطائفة مكاييل الأرز الخمسة.

ومع مرور الوقت، حدث انقسام في الطائفة، مع نصف حافظت عليه الطبقات العليا، والآخر جاذب للطبقة الدنيا، وأدت المشكلات الاجتماعية الحادة في وقت لاحق أتباع الطائفة إلى التمرد ضد حكم أسرة "جين" الشرقية، وفي عام 398 م، قاد "صن تاي" و"صن إن" الثورة التي قتل فيها "صن تاي"، ومع ذلك، واصل "صن إن" قيادة المؤمنين في معركتهم، ووصفوا أنفسهم "الرجال المعمرون" لأنهم يؤمنون بأن إيمانهم سوف يمنحهم الخلود، وقد نجحوا في إلحاق هزيمة قاتلة بقوات أسرة "جين" الشرقية، ولم تنته هذه الانتفاضة حتى عام 411 م، عندما انتحر "لو شون"، خليفة "صن إن"، وبحلول هذا الوقت كانت قوة "جين" الشرقية قد انتهت حيث أطاح بها "ليو يو"، الإمبراطور المؤسس لنظام "ليو سونج"، ثم فرض "ليو سونج" الطاوية مع سلسلة من الإصلاحات.

بدأت الطاوية تتطور في شمال الصين، التي كانت تحت حكم نظام "وي" الشمالية، ورجل يدعى "كو تشيانتشي" جاء في المقدمة بينما كان جيش "جين" الشرقية في خضم صراع مرير ضد الانتفاضة، ادعى "كو تشيانتشي" أنه قد تم تكليفه على يد المعلم الأعلى "لاو" (لاو تزي) ليكون بمثابة المعلم السماوي، وبالتالي كان مسؤولًا عن إعادة تنظيم الطاوية ومساعدة "توبا

تـاو" (الإمبـراطور تـايو)، جنبًا إلى جنب مع "تساو هـاو"، مستشار شمال "وي" (وهو طاوي أيضًا)، شجع "كو "الإمبراطور لتعزيز الطاوية وقمع البوذية، وازداد الصراع بين الاثنين، وادعت الطاوية أن لها جذورها في الأصول الصينية واتهمت البوذية بكونها أجنبية؛ في حين انتقد البوذيون الطاوية من أجل الغرور، وأشاروا إلى أن حركتين من التمرد واسع النطاق، وهما انتفاضة العمائم الصفراء و"صن إن" و"لو شون"، كانا من أصل طاوي، وازدادت حدة التوتر؛ ولم يمر وقت طويل حتى ظهر كتاب يدعى "كتاب التحول من البربرية بقلم لاو تزي" وادعى المؤلف فيه أن بوذا كان مجرد تجسيد لـ"لاو تزي"، الذي سافر غربًا وراء ممر "هانجو" إلى الهند، وأصبح "بوذا"، وكان بالتالي هو مؤسس البوذية، وأدى هذا العداء المتصاعد في نهاية المطاف إلى تدمير البوذية على يـد الإمبـراطور "تايو"، فقد أصبح معظم حكام أسرة "وي" الشمالية بوذيين، ولكن التوسع السريع للدين جعله غير مستقر، ولذلك تحول إلى الطاوية، وتحت تأثير "كو تشيانتشي"، أعلن نفسه سيد السلام الكامل العظيم، وفي 446 م، قام "جاي وو" بانتفاضة قمعها الإمبراطور "تايوو"، وسرعان ما اكتشف أن العديد من الرهبان قد شاركوا في التمرد، وهنا استغل المستشار "تسوي هاو" الفرصة لإقناعه بتدمير البوذية، وأصبحت الطاوية الدين القانوني الوحيد، ضرب هذا القرار البوذية ضربة قوية، ولكن بعد وفاة الإمبراطور "تايوو"، سمح الإمبـراطور "ونشنج" بإحيائها في شمال الصين، وفي وقت لاحق، طلب الإمبراطور "وو" من شمال "تشو" من المسؤولين والعلماء الكونفوشيوسيين والطاويين والبوذيين مناقشة وضعهم الاجتماعي - وهو النقاش الذي أدى إلى حظر البوذيـة والطاوية، وتعزيز الكونفوشيوسية - ومع ذلك، كان هذا القمع للبوذية مختلفًا جدًّا عن ذلك الذي حدث أيام الإمبراطور "تايوو"، فلم يكن هناك إراقـة دمـاء، بـل مجـرد إصرار على أن البوذيـة لم تعد تستنزف الموارد الاجتماعية؛ كان الرهبان ملزمين بالتخلي عن عقيدتهم وحرق السوترا، ومع ذلك، لا الطاويـة أو البوذيـة اختفت، بل شهدت كل منهما عودة خلال حكم أسرتي "سوي" و"تانج".

وعلى الرغم من العديد من التغييرات، ظلت الطاوية قوية في جنوب الصين، وشهدت ظهور اثنين من الشخصيات البارزة، وكان أولها "لو شيوجينج"، وهو مواطن من "ووشينج" بمقاطعة "جيانجسو" اليوم، وهو سليل "لو كاي" الذي عمل مستشارًا في مملكة "وو"، ودرس منذ سن مبكرة، بعد ذلك، تخلى عن عائلته وكرس نفسه للطاوية، بالإضافة إلى زيارة الطاويين المشهورين وجمع النصوص الطاوية القديمة، قام بتجميع عدد من الببليوغرافيات، وقدم أيضًا الممارسات والاحتفالات البوذية، مما جعل الطقوس الطاوية متطورة على نحو متزايد، وقد عرف هذا الشكل من الطاوية في وقت لاحق باسم الطائفة السماوية الجنوبية الرئيسة.

والشخص الآخر هو "تاو هونج جينج"، الذي ولد لأسرة من المسؤولين، وكان له علاقة وثيقة مع الإمبراطور "وو" من "نظام ليانج"، رفض أن يتولى منصبًا رفيعًا، وذهب إلى الجبال ليصبح ناسكًا، ومع ذلك، كلما كان الإمبراطور "وو" يواجه مشكلات مع شؤون الدولة، كان يرسل شخصًا للتشاور مع "تاو هونج جينج" الذي أصبح يعرف باسم "مستشار الجبل"، بعد أن ورث أساليب الإصلاح الطاوي من "جي هونج" و"لو شيوجينج"، حاول تاو دمج أفكار الطاوية، والبوذية، والكونفوشيوسية؛ وأنهى كتابه "تعليق على نظام البر الأبوي" و"التحليلات"، وأعلن أن بوذا عينه شخصيًّا كبوديساتفا في حلم، بدأ كراهب في معبد أسوكا في "نينجبو" بمقاطعة "تشجيانج"، وأسهم كل هذا على حد سواء في تقدم وإثراء الطاوية.

الفصل التاسع

عهد أسرة "سوي"

(581 – 618)

المقدمة

كانت حياة أسرة "سوي" قصيرة ولكنها لعبت دورًا مهمًا في وضع الأسس لبيت حاكم طويل ومتميز، وهو أسرة "تانج"، الذي كان لا يقل أهمية عن سلالة "هان" في تحديد ثقافة الصين الإمبراطورية، ويتحدث المؤرخون الصينيون عمومًا بشكل إيجابي حول أسرة "سوي" لأنها لمت شمل الصين بعد فترات طويلة من الانقسام، وكانت الأساليب التي اعتمدها أباطرتها الاثنان "ون" و"يانج"، مختلفة تمامًا، وينسب لـ"ون" النجاحات بينما يرتبط اسم "يانج" بالفشل والانهيار في نهاية حكم الأسرة.

كان أول أباطرة "سوي"، وعرف باسم "ون"، مستبدًا عسكريًا لكنه خلق نظامًا قانونيًا وبيروقراطية مدنية ونظام فحص للموظفين، فقد أصبحت هذه النماذج متبعة في جميع السلالات الإمبراطورية في المستقبل، كما ازدهرت الزراعة والحرف والصناعة كما اشتهرت "سوي" ببرامج كبيرة للأعمال العامة بما في ذلك إعادة بناء سور الصين العظيم، ومع ذلك، كانت أكثر المشاريع تأثيرًا هي بناء القناة الكبرى التي انضمت إلى الممرات المائية القائمة لربط شمال وجنوب الصين، حيث ساعدت في توحيد البلاد بالإضافة إلى السماح بسهولة توريد الحبوب من الجنوب إلى العاصمة الجديدة، "لويانج"، وغيرها من المدن الشمالية.

اختتم "يانج"، الإمبراطور الثاني لـ"سوي"، أعمال حفر القناة الكبرى ولكن على حساب حياة عشرات الآلاف من العمال، كما كان مسؤولًا عن أعمال تشييد

أخرى مماثلة على نطاق واسع بما في ذلك الطرق ومرافق تخزين الحبوب، كما زاد من قدرة الدولة برغبته في الفتوحات الأجنبية، وبلغت ذروتها في حملة سيئة إلى جوجوريو (كوريا الجنوبية اليوم)، وهي دولة تابعة للصين اسميًّا ولكنها تسببت في هزائم ثقيلة لقوات "سوي"، وقد أدى هذا الفشل والاستياء بخصوص مقتضيات العمل الجبري إلى قتله وسقوط السلالة في نهاية المطاف، وكثيرًا ما يُشاع عن فترة حكم "يانج" بأنها فترة فساد، واستبداد، وإسراف، وعلى الرغم من هذا التقييم السلبي للإمبراطور الثاني، فمن المسلم به أن حكم سلالة "سوي" ككل تمهيد الطريق لخليفتها اللامعة، "تانج".

تأسيس أسرة "سوي"

بعد عدة قرون من الصراع، كانت الصين قد أصبحت جاهزة للوحدة مرة أخرى، ولد "يانج جيان" لعائلة نبيلة من منطقة "جوانلونج" -التي تضم سهل "شانشي" الأوسط والجزء الشرقي من مقاطعة "قانسو" اليوم-، وادعى أنه من سلالة عائلة "يانج" التي كانت بارزة في عهد أسرة "هان" الشرقية، لكنه عاش لفترة طويلة في حامية "ووشوان"، التي تأثرت بشدة بثقافة قبيلة "شيانبي"، وكان والده "يانج تشونج" قد عمل كمساعد لسنوات عديدة لـ"دوجو شين"، وهو ارستقراطي من "شيانبي"، وفي وقت لاحق، كان "يانج تشونج" مساعدًا كبيرًا لـ"يووين تاي"، الإمبراطور المؤسس لنظام "وي" الغربي، حيث أصبح واحدًا من ثمانية جنرالات رفيعي المستوى وكان اسمه أمير "سوي".

ولد "يانج جيان" في معبد بوذي في عام 541م وتربى على يد راهبة حتى بلغ عمره اثنى عشر عامًا، وفي سن الرابعة عشرة، تم تعيينه للعمل في جيش "يووين تاي"، وفي سن الخامسة والعشرين، تزوج ابنة "دوجو شين"، وبعد قيادة حملة عسكرية ناجحة ضد "تشي" الشمالية، بدأت مهنة "يانج جيان" صعودها النيزكي وعمل على التوالي كقائد عام وقائد أعلى ومستشار، والأهم من ذلك أن ابنته تزوجت "يووين يون" باعتبارها محظية إمبراطورية، مما جعله من أقارب العائلة المالكة.

وفي عام 579م، بعد حكم سنة واحدة فقط، مرر "يووين يون" العرش لـ"يووين تشان"، ابنه البالغ من العمر سبع سنوات، وتوفي في العام التالي، وبما أن الإمبراطور الجديد كان صغيرًا جدًّا للتعامل مع شؤون الدولة، فقد تم تكليف "يانج جيان"، باعتباره جده، لمساعدته، كان طموح "يانج جيان" لاغتصاب العرش واضحًا دائمًا، ففي أيامه الأولى كحاكم، استدعى جميع الأمراء الخمسة لأسرة "يووين" إلى العاصمة بحجة اختيار ابنة أحدهم للزواج من الخان التركي، واتهم ثلاثة منهم زورًا بالانتماء سرًّا للمتمردين، وتم إعدامهم.

في الشمال، ومع ذلك، كان المؤيدون لأسرة "يو وين" يعلنون عدم رضاهم عن قبضة "يانج جيان" على السلطة، ثم في 580م، قام "يوشي جيونج"، قائد "شيانج تشو" (قريبًا من "هان دان" في "هبي" اليوم) بثورة في "يي تشينج"، العاصمة السابقة لنظام "تشي"، معلنًا أنه سيساعد الإمبراطور في استعادة السلطة، لم يكن "يوتشي جيونج" يمتلك جيشًا قوامه 100 ألف شخص فحسب، بل كان يسيطر أيضًا على العديد من الموارد في شمال الصين، وكان له علاقة وثيقة مع كل من الأتراك في الشمال، وأسرة "تشن" في الجنوب؛ كان لديه أيضًا دعم الجنرالات "سيما شياو نان"، قائد "يون تشو" - قريبًا من "شياو جان" في "هوبي" - و"وانج تشيان"، من "يي تشو" -قريبًا من "سيتشوان" اليوم-.

في مواجهة هذا التهديد، ظهرت القدرات العسكرية لـ"يانج جيان"، فهزم لأول مرة "يوتشي جيونج" ثم "وانج تشيان"، ثم أجبر "سيما شياونان" على الفرار إلى نظام "تشن"، مما أدى في النهاية إلى قمع التمرد الثالث، كما قتل جميع إخوة الإمبراطور "وو" من شمال "تشو" متهمًا إياهم بالتمرد، وبالتالي أباد أسرة "يووين" بأكملها، وفي 581م، تم ترقيته إلى منصب حاكم "سوي" مؤسسًا أسرة "سوي"، وقد جعل "تشانج آن" العاصمة وعرف باسم الإمبراطور "ون"، وكان استخدامه للقب "سوي" كاسم للأسرة نموذجًا للتحولات في حكم الأسر الصينية.

وقد بدأ الآن يطمح لضم المنطقة الواقعة جنوب نهر اليانجتسي، لكن الأتراك كانوا يهاجمون حدوده الشمالية باستمرار؛ لذلك خفف التوتر مع دولة "تشن" في الجنوب من أجل التعامل معهم أولًا، فأعاد بناء الجدار العظيم، الذي كان شكلًا لا غنى عنه للدفاع عن الحدود، ثم استخدم الصراعات الداخلية بين الأتراك، وزرع الخلاف بينهم إلى حد أنه لم يعد لديهم الوقت للتركيز على حملاتهم الجنوبية، وبعد ذلك عاد إلى قضية "تشن"، وقد أرسل قوة سرية لعبور نهر اليانجتسي وحرق مخازن الحبوب في "تشن" ثم من خلال تجريف القناة بين نهر اليانجتسي ونهر "هواي"، ضمن إمدادات الحبوب لسهل شانشي الأوسط، ثم أمر الجنرال "يانج سو" ببناء أسطول من القوارب الكبيرة في "هوبي" لحملته الجنوبية في المستقبل، وكان تحركه الرئيس هو تجميع قوات من الخبراء في تضاريس "تشو" وأقاليم مقاطعة "آنهوي" التي تضمن عبور نهر اليانجتسي سرًّا.

في ذلك الوقت، كان حاكم "تشن" هو "تشن شوباو"، الذي تمتع بسمعة عشقه لحياة الرفاهية لدرجة أنه لا يولي اهتمامًا يذكر للشؤون السياسية، ولا حتى لمعاناة شعبه، فبنى ثلاثة أبراج رائعة سماها "ربيع الرغبة"، "وجودنا معًا"، و"مراقبة جمال السماوات"، حيث كان يحتفل مع مساعديه ومحظياته المفضلات، وفي 588م، أرسل الإمبراطور "ون" رسالة له، سرد فيها إخفاقاته تجاه شعبه، وأمر أيضًا بطباعة 300.000 نسخة من القائمة، ونشرها بين السكان، ثم، في عام 589م، شنت أسرة "سوي" هجومها.

كان جيش "سوي" يقوده ثلاثة من المارشالات: "يانج قوانج" (أمير "جين") و"يانج جون" (أمير "تشين") و"يانج سو" (قائد "شينتشو")، وكان "يانج سو" قد أشرف على بناء السفن الحربية الكبيرة والصغيرة، على الروافد العليا والمتوسطة من نهر اليانجتسي؛ والآن تحت قيادته، هزم أسطول "سوي" أسطول "تشن"، ثم انضمت القوات مع الجيش للمسير إلى "جيانكانج"، عاصمة "تشن".

وبينما اندفع جيش "سوي" إلى الأمام، طلب جنرالات حدود "تشن" تعزيزات إلا أن "تشن شوباو" كان على يقين من أن جيش "سوي" لن يكون قادرًا على عبور نهر اليانجتسي، وتجاهل الطلبات واستمر في حياة اللهو، ولكن في وقت مبكر من عام 589م، عبر جنود "سوي" بقيادة قائدهم الأعلى الشهير "هان هانهو" بالفعل نهر اليانجتسي للوصول إلى "كيشيجي" في "آنهوي"، وهي منطقة عسكرية ذات أهمية استراتيجية، وعبر "هي روبي"، وهو أحد جنرالات "سوي" أيضًا، النهر تحت جنح الضباب واستولى على "تشينجيانج" في "جيانجسو"، ثم اقترب الجيشان من "جيانكانج" من الجنوب والشمال في وقت واحد، وفي ذلك الوقت كان هناك أكثر من 100 ألف جندي يحرسون العاصمة "جيانكانج"، ولكن بسبب فشل "تشن شوباو" في تعيين جنرالات موهوبين كانت قياداتهم جبانة، وبمجرد أن وصل العدو إلى ضواحي المدينة استيقظ "تشن" استيقظ على الخطر وأرسل "شياو مو" وهو جنرال مختص إلى المعركة لكن الأوان كان قد فات، وفي عام 589م، فتح "رن تشونج"، أحد جنرالات "تشن"، بوابات "جيانكانج" لجيش "سوي"، وتم العثور على "تشن شوباو" واثنين من محظياته الإمبراطوريات مختبئين في بئر جافة، والتي سميت منذ ذلك الحين بئر المتمردين، ومع القبض عليه وسقوط نظام "تشن" انتهت أربعة قرون من الأنظمة الانفصالية.

حكم الإمبراطور "ون"

وطد "يانج جيان" الذي أصبح الإمبراطور "ون" حاكم "سوي" حكم الأسرة، وبمجرد وصوله إلى العرش، ألغى نظام أسرة "تشو" الشمالية المكون من ستة مسؤولين وأعاد تنظيم الحكومة المركزية إلى ثلاث إدارات: الأمانة المسؤولة عن أسرار الدولة وسن المراسيم الإمبراطورية؛ المستشارية التي تقوم بفحص هذه المراسيم وإقرارها؛ ومجلس الدولة المسؤول عن الإدارة العامة، وعين ستّ وزارات في مجلس الدولة، كما كانت هناك أيضًا هيئات أخرى مثل المحاكم التسع، ومكتب الرقابة، وأرشيف ومكتب للخصيان، كما تم تبسيط

الإدارة المحلية؛ فمنذ نهاية عهد أسرة "هان" الشرقية كان هناك نظام مكون من ثلاثة مستويات (المناطق، والمقاطعات العسكرية والمقاطعات المدنية)، والتي تم تبديلها الآن بمستويين (المناطق والمحافظات)، حيث أخذت المناطق مكان المقاطعات العسكرية، وكان هناك 190 منها تتحكم في 1255 محافظة، وألغى أيضًا نظام الرتب التسعة، في حين تولت وزارة الموظفين ترقية الموظفين المحليين.

ورثت أسرة "سوي" نظام ميليشيا "فو بينج" الذي تعود جذوره إلى أسرة "وي" الشمالية، عندما خدم أهل "شيان بي" كجنود وعمل "هان" كفلاحين، فالجنود خارج الخدمة يمكن أن يعودوا إلى الزراعة ولا تعاد تعبئتهم إلا في أوقات الحرب، ونتيجة لذلك يمكن أن يقوموا بأود أنفسهم وأسرهم - وهو قرار لم يوسع فقط مجموعة الجنود، بل خفض أيضًا العبء على الحكومة - وبموجب هذا النظام، تعفى جميع الأسر التي لديها جنود من الضرائب والعمل القسري، وأجرى الإمبراطور "ون" تغييرين على هذا، فأولًا، أنشأ اثنى عشر حارسًا في الحكومة المركزية، يرفع كل منهم تقريره للجنرال العام الذي يعينه الإمبراطور؛ لذا، فإن الإمبراطور نفسه هو الذي حمل جميع القوى القيادية، بما في ذلك سلطة طلب التعبئة، لنقل القوات أو قيادة حملة عسكرية، ثانيًا، أمر بأن يتم تسجيل جميع الجنود وأسرهم المتمركزة في المناطق الحدودية مع الحكومة المحلية وتخصيص حصة من الأراضي للزراعة مثلهم مثل أي شخص آخر.

ومع ذلك، كان للتغييرات التي أدخلت على أنظمة الفحص المدني والإمبراطوري أكبر تأثير على الأجيال اللاحقة، وقد أدت القوانين الجنائية القاسية المفرطة إلى السخط في السنوات الأخيرة من حكم أسرة "تشو" الشمالية؛ حتى جاء عام 589م، فأمر الإمبراطور "ون" بإلغاء جميع المواد القاسية ووضع قانونًا للعقوبات أبسط من ذلك بكثير، وكان لكل من يعتبر حكمه غير عادل الحق في الاستئناف، ويجب أن تنظر بلاط المراجعة القضائية في جميع القضايا التي تنطوي على أحكام بالإعدام، واستدعى الإمبراطور "ون"

بانتظام الحكام المحليين إلى العاصمة لاختبار فهمهم للقوانين الجديدة التي - وإن كانت لا تزال تحتوي على عناصر من القسوة - كانت واضحة وبسيطة ووضعت أسسًا جيدة للقانون المدني في عهد أسرة "تانج" والأجيال اللاحقة.

وفي الوقت نفسه، تم إنشاء نظام الفحص المدني الإمبراطوري واستمر لأكثر من ألف سنة، حتى عام 1905م، عندما اضطرت حكومة "تشينج" إلى إلغائه، وكان الغرض من هذا النظام أساسًا منع المسؤولين المحليين من تعزيز سلطة الموظفين، وتقليل سلطة أسر المسؤولين، وتعزيز سلطة الحكومة المركزية، كما فتح المجال أمام المزيد من الناس للحصول على منصب رسمي، ورفع مستوى المسؤولين والسياسيين.

على المستوى الاقتصادي، واصلت أسرة "سوي" اتباع نظام المساواة في الميدان الذي كان موجودًا أيام "وي" الشمالية، فكان هناك نوعان من الأراضي: العادية والدائمة، فأعطي ثمانون مو (1 مو يساوي 670 مترًا مربعًا) من الأراضي العادية للرجال وأربعين مو للنساء، ولكن عند وفاتهم كان يجب أن تعاد إلى الحكومة، وبالإضافة إلى ذلك، تم تعيين عشرين مو من الأراضي الدائمة للرجال لزراعة القنب والتوت، وكان يمكن أن يرثها أحفادهم، وبعد سقوط نظام "تشن"، تمت ترقية نظام حقل الآبار في جنوب الصين، وزرعت الكثير من الأراضي القاحلة، ووفقًا للإحصاءات، كان هناك ما يقرب من 63 مليون هكتار من الأراضي المزروعة في 589؛ وبعد عشرين عامًا، ازداد ذلك بشكل ملحوظ ليصل إلى 374 مليونا، ولزيادة الإنتاج الزراعي، رفعت أسرة "سوي" السن الذي كان على الفلاحين أن يبدؤوا خدمتهم العسكرية والعمل من الثامنة عشرة إلى الحادية والعشرين، ويمكن للرجال الذين تزيد أعمارهم عن خمسين عامًا التبرع بالحرير للحصول على إعفاء من الخدمة، مع تخفيض الاشتراكات بمقدار النصف، في حين خفضت مدة التجنيد من ثلاثين إلى عشرين يومًا، وبفضل هذه التدابير، ازداد الإنتاج الزراعي بسرعة.

وفي الوقت نفسه، أمر الإمبراطور "ون" بإجراء تعداد عام وطني، تم فيه

تسجيل العمر المحدد لجميع السكان؛ تمت إضافة 1.64 مليون بالغ، وفي نفس العام، اتخذت تدابير لتخفيف عبء الضرائب والتجنيد الإلزامي من أجل إعادة تصنيف الأسر إلى فئات مختلفة وفقًا للممتلكات والحجم، وبما أن الضرائب الحكومية كانت أقل بكثير من الضرائب المفروضة على اللوردات، فقد اختار العديد من الفلاحين الخروج عن راعيهم وتسجيلهم كفلاحين حكوميين، ولم يقتصر ذلك على زيادة الإيرادات الحكومية ومجموع العمل فحسب، بل أضعف أيضًا قوة أصحاب الأراضي، وكان فائض الحبوب نتيجة لذلك، وتم بناء العديد من مخازن الحبوب الحكومية، فعلى بقايا مصفاة "هان جيا"، كشف علماء الآثار عن نصف مليون كيلو جرام من الحبوب المتفحمة؛ كانت مساحة الموقع أكثر من 450.000 متر مربع، وشملت 259 من مستودعات الحبوب، مما يدل على ارتفاع الإنتاج الزراعي.

كما تطورت الحرف اليدوية والمنسوجات والسيراميك وبناء السفن بشكل كبير، في حين اشتهرت المنتجات الحريرية من "دينجتشو" في هيبي، ومطرزات "شوجون" في "سيتشوان"، وقماش "جيمينج" من "يوتشانج" في "جيانجشي"، وفي مجال السيراميك، عثر على العديد من أفران السيلادون في إقليم "جونج" بمقاطعة "هنان"، وفي إقليم "تشي" بمقاطعة "هيبي" وفي "هوابنان" بمقاطعة "آنهوي"، كانت منتجات سيلادون المنتجة في عهد سلالة "سوي" عمومًا سميكة الجدران، ناعمة، وتتميز باللون الأبيض الرمادي قبل التلميع، وتصبغ باللون الأخضر المزرق التقليدي وأحيانًا البني بعد ذلك، كما تم إنتاج الخزف الأبيض - كما تشهد الاكتشافات في قبر "لى جينج شون" في ضواحى "شيان" بمقاطعة "شانشي".

وكانت صناعة بناء السفن ذات أهمية رئيسة لسلالة "سوي"، فلإسقاط نظام "تشن"، أمر "يانج سو" ببناء سفن حربية كبيرة مع كابينات من خمسة طوابق يمكن أن تستوعب أكثر من 800 جندي مع عدد من السفن الصغيرة، وكانت التجارة بين المدن متقدمة أيضًا، فقد كانت "تشانج آن" و"لويانج" منذ فترة

طويلة أكبر المدن التجارية في الصين، وكان في الأولى سوقان مزدهران، بينما وجد في "لويانج" ثلاثة، كلها مزدحمة بالتجار والناس من كل حدب وصوب، كما وحدت أسرة "سوي" العملة وأعادت استخدام عملة "ووتشو"، وفي الوقت نفسه حفز افتتاح القناة الكبرى التجارة وسمح لكثير من المدن جنوب نهر اليانجتسي مثل "يانجتشو" و"تشينجيانج" في "جيانجسو" بالازدهار.

وبالإضافة إلى التطور التجاري السريع، حقق بلاط "سوي" نجاحًا في ما يتعلق بالقبائل التي لا تنتمي لعرق الهان على الحدود، مما ساعد "أشينا جانكان" على أن يصبح خان خانات القبائل التركية الشرقية، وأعطوه من بنات البيت الملكي الزواج، وأطلق الإمبراطور "يانج" حملة عقابية ضد "تويوهون" بعد فترة وجيزة، وأنشأ أربعة مقاطعات عسكرية في أراضيها، وأرسلت أكثر من ثلاثين مقاطعة ومنطقة من المناطق الغربية مبعوثين للاجتماع مع إمبراطور "سوي"، كما أرسل الإمبراطور "يانج" مسؤولين في جولات تفتيش لتايوان مرتين، وهكذا على مدى فترة قصيرة جدًّا من الزمن، أنشأت أسرة "سوي" مجموعة من النظم الفعالة في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية.

سقوط أسرة "سوي"

كان "يانج جوانج"، الملقب بالإمبراطور يانج حاكم "سوي"، الابن الثاني للإمبراطور "ون"، وبعد فترة وجيزة من تأسيس إمبراطورية "سوي"، توج ولي عهد "جين"، وخلال الحملة الرامية إلى غزو نظام "تشن"، أثبت فائدته في المساعدة على مقاومة الغزو التركي، وتجنيد العديد من الرجال الموهوبين في هذه العملية، وكان كل من الإمبراطور "ون" والإمبراطورة "دوجو" قد دعيا إلى الاجتهاد والاكتفاء، ولكن ابنهما الأول، ولي العهد "يانج يونج"، عاش حياة الفساد والترف، وفي المقابل، عاش "يانج جوانج" حياة بسيطة، ما أدى إلى رضا والديه عنه إلى حد كبير، وفي النهاية حل محل أخيه الأكبر وأصبح ولي العهد، ففي عام 604م، عندما كان الإمبراطور "ون" مريضًا للغاية، وقيل إن "يانج قوانج" لم يقتل والده فقط، بل أيضًا شقيقه المخلوع، وفي وقت لاحق

من ذلك العام، تولى العرش باسم الإمبراطور "يانج".

بدأ الإمبراطور "يانج" حكمه بشكل جيد، وقد نفذ سلسلة من التدابير الفعالة، بما في ذلك استعادة المدارس، وإعلان أن النساء والعبيد معفون من الضرائب، وواصل تشييد القناة الكبرى، التي عززت التنمية الاقتصادية والاتصالات بين الشمال والجنوب، وقام باستكشاف وتوسيع أراضيه في المناطق الغربية، وعزز التبادل بين الصين والدول الأجنبية، ومع ذلك، كان لديه ضعف تجاه الرفاهية والمشاريع الفخمة، ففي العام الثاني من حكمه، بدأ عدة منها، بما في ذلك إعادة بناء العاصمة الشرقية "لويانج"، وحفر القناة الكبرى، وبناء شبكة من الطرق وترميم سور الصين العظيم، كل هذه استهلكت كمية هائلة من العمالة والموارد، فعمل أكثر من مليوني عامل ليلًا ونهارًا في "لويانج"، وذلك باستخدام مواد البناء الفخمة التي كان يتعين نقلها من أماكن بعيدة؛ فكان سحب عمود واحد يتطلب الآلاف من الرجال، وبينما نشأت القصور الفخمة، عانى الناس العاديون من البرد والجوع.

على مدى أربعة عشر عامًا من حكم الإمبراطور "يانج"، بلغ عدد العمال المجندين أكثر من عشرة ملايين نسمة؛ توفي العديد منهم في مواقع البناء، وتقريبًا كل عام ذهب الإمبراطور "يانج" في عطلة كبيرة مع حاشية ضخمة، وكان الموكب مشهدًا لا يُنسى لكنه تسبب في خسائر فادحة في صفوف السكان، الذين اضطروا إلى توفير احتياجاته على طول الطريق، وفي الوقت الذي أطلق فيه حملته ضد "جوجوريو"، كان الفلاحون اليائسون قد نالهم ما يكفي، كانت "جوجوريو" واحدة من الممالك الكورية القديمة، وتقع في شمال شرق الصين وعلى شبه الجزيرة الكورية (انظر الشكل 18)، وقد أثارت غضب "سوي" في 598م من خلال مهاجمة غرب "لياونينج"، وكان الإمبراطور "ون" قد أرسل أمير "هان"، "يانج ليانج"، على رأس 300.000 جندي، وتلقى اعتذارًا على ما حدث، ولكن بعد أن صعد الإمبراطور "يانج" العرش، وجد مبعوثًا من "جوجوريو" في بلاط الخان التركي؛ وإدراكًا منه أن "جوجوريو" كانت تهديدًا

محتملًا للسهول الوسطى، قرر أنه لا بدّ من القضاء عليها.



الشكل (18): لوحة "جو جور يو" لمشهد صيد.

وفي عام 612م، عندما رفض حاكم "جورجوريو" "جاو يوانهي" أن يرسل احتراماته أعلنت الحرب، وأمر 300 سفينة حربية بنيت في ميناء "دونج لاي" في "شاندونج"، وأصبح العديد من البنائين مصابين بالأمراض نتيجة وقوفهم في عمق الماء ليلًا ونهارًا، وتوفوا واحدًا تلو الآخر، أمر الإمبراطور "يانج" أيضًا شعبي "هنان" و"جيانج واي" (وديان نهر اليانجتسي و"هواي") بتصنيع 10 آلاف عربة ومركبة عسكرية وعمال مجندين وسفن في جنوب "جيانج واي" لنقل الحبوب المخزونة في "ليانج" و"لوكو" إلى "تشوجون" (بكين اليوم)، وتوفي العديد منهم من التعب والمرض، ثم حددت أول حملة ضد "جوجوريو"، وسافر أكثر من مليون جندي نحو "بيونج يانج"، عاصمة "جوجوريو"، وفي هذه المرحلة، أصدر الإمبراطور "يانج" أمرًا صارمًا بأن جميع القادة العسكريين يجب أن يسعوا للحصول على موافقته قبل التصرف، مما أعاق العمليات العسكرية، وتعرض جيش "سوي" لهزيمة كبيرة واضطر إلى العودة إلى دياره، ولكن في

613م، أطلق الإمبراطور "يانج" حملة ثانية وهذه المرة - وذلك بفضل إعداد دقيق - حققت تقدمًا ممتازًا، ولكن مع قرب انهزام جيش "جوجوريو"، ثار أحد نبلاء "سوي" ويدعى "يانج شوانجان" ضد الإمبراطور وسار بجيشه نحو "لويانج" مجبرًا الإمبراطور "يانج" على الانسحاب المفاجئ، وتبعته قوات "جوجوريو"، وعانى خسائر فادحة، وبعد ذلك بعام عاد، وهذه المرة، تقدمت قواته بسرعة واستعد لشن هجوم مدمر على "بيونج يانج"، وهنا أرسل حاكم "جوجوريو" مبعوثًا للاستسلام، كما انتشرت انتفاضات الفلاحين في جميع أنحاء الأراضي الشاسعة من الصين، وبعد التوقيع على اتفاق سلام مع "جوجوريو"، عاد الإمبراطور "يانج" إلى الوطن على عجل لقمع المتمردين.

كانت الانتفاضات في الواقع قد بدأت منذ فترة طويلة قبل حملات الإمبراطور "يانج" ضد "جوجوريو"، وكقاعدة للحرب، شعر أهالي "شاندونج" و"هيبي" بعبء توفير الموارد العسكرية والعمل بشكل أكبر بكثير من المناطق الأخرى، وكانت الفيضانات شائعة أيضًا في العديد من المقاطعات العسكرية، مما تسبب في معاناة هائلة؛ لذلك كان من الطبيعي أن تندلع الانتفاضات الأولى هناك، وفي عام 611م، قام "وانج بو"، وهو مزارع في إقليم "تشوبينج" بمقاطعة "شاندونج"، بتأليف أغنية باسم "لا تمت دون جدوى في "لياودونج"، معربًا عن معارضته لحملة "جوجوريو"، وتدفق العديد من المزارعين الآخرين إلى جانبه، وفي 613م، وخلال الحملة الثانية، تم تعيين وزير الشعائر "يانغ شوانغان" للإشراف على نقل الحبوب العسكرية؛ ولكنه تمرد لدى وصوله إلى "ليانج" ورأى كيف يعاني الناس، وقد زاد عدد الفلاحين المحليين والمسؤولين رفيعي المستوى والأقارب المالكين المنضمين إلى صفوفه، توفي "يانج" خلال حملته، ولكن انتفاضته قد قسمت الطبقة الحاكمة لأسرة "سوي" وأرست الأساس لعمليات التمرد في المستقبل.

بين 614 و616م، انتشرت انتفاضات الفلاحين إلى الروافد الدنيا من النهر الأصفر، ونهر "هواي"، ونهر اليانجتسي وحتى "تشوجيانج" و"مينجيانج"،

وسرعان ما كان هناك أكثر من مائة من الميليشيات في جميع أنحاء البلاد، وبلغ عدد أعضائها عدة ملايين، لكنها توحدت تدريجيًّا لتشكيل ثلاث قوى رئيسة: واحدة تحت قيادة "دو جياند" في "هيبي"؛ وأخرى تحت قيادة "لي مي" في "واجانج" في "شاندونج"، والثالثة تحت قيادة "دو فووي" و"فو جونجشي" في "جيانج واي"، وبينما كان الإمبراطور "يانج" يجمع القوات من أجل قمع المتمردين الفلاحين بوحشية، قرر إجراء جولة تفتيشية على "جيانج دو" بناء على مشورة المسؤولين؛ وبتأكدهم أن سقوطه كان وشيكًا، فإن العديد من النبلاء والملاك والبيروقراطيين جمعوا الجيوش حولهم من أجل الحماية الذاتية، مما خلق مجموعة من أنظمة أمراء الحرب الانفصالية، وخاصة على سهل شانشي الأوسط، فبدأ الإمبراطور "يانج" بناء قصر "دانيانج" في ما يعرف الآن بـ"نانجينج" بعد أن أصبح يخاف العودة إلى الشمال لحماية المنطقة شرق نهر اليانجتسي، ومع ذلك، فر معظم ضباطه وجنوده؛ وفي عام 618م، قام مارشال يدعى "يووين هواجي" بعملية تمرد وقتله، وهكذا بعد وجود قصير استمر ثمانية وثلاثين عامًا فقط، انتهت أسرة "سوي".

القناة الكبرى

وتضم القناة الكبرى أربعة أقسام - قنوات "يونججي" و"تونججي" و"هانجو" و"جيانجنان" - بدءًا من الشمال في "تشوجون" (بكين الحالية) وتنتهي في "يوهانج" (هانجتشو الحالية)، ويمر جنوبًا من خلال المقاطعات الأربع وهي "هيبي" و"شاندونج" و"جيانجسو" و"تشيجيانج"، وبطول إجمالي يبلغ 1794 كيلومترًا، وربطت نهر "هاي"، والنهر الأصفر، ونهر "هواي"، والـ"يانجتسي"، و"كيانتانج"، كما لعبت دورًا رئيسًا في تنمية الصين بعد سلالات "سوي" و"تانج".

ويقال إن الإمبراطور "يانج"، المولود في الشمال، ليقع فقط في غرام مشاهد "جيانجنان" الساحرة (الوادي السفلي لنهر اليانجتسي)، ولكن كان أيضًا مفتونًا بالفتيات الجميلات هناك، وبنى القناة لربط العاصمة بـ"يانجتشو"، وعلى الرغم

من معارضة العديد من مسؤولي البلاط، ذهب الإمبراطور في جولات تفتيشية إلى الجنوب ثلاث مرات بعد افتتاحها، ودائمًا في رفاهية وسرف شديد، وفي الواقع، كان العمل على القناة قد بدأ خلال فترة الإمبراطور "ون"، ففي 584م، ومن أجل تسهيل النقل، أمر الإمبراطور "ون" "يوين كاي" بتصميم قناة كبيرة تبدأ من نهر "وي" في ضواحي "تشانج آن"، وأدى ذلك إلى إنشاء قناة "جوانجتونج"، التي يبلغ طولها أكثر من 150 كيلومترًا (وعرفت بقناة "فومين" في ما بعد)، والتي حلت مشكلة إمدادات الحبوب في سهل شانشي الأوسط، وبعد ثلاث سنوات، بعد الإطاحة بنظام "تشن" قام الإمبراطور "ون" ببناء قناة اسمها "شانيانج"، وانضمت إلى القنوات المتدفقة من نهر "هواي" إلى نهر "اليانجتسي" بين "هوايان" و"يانجتشو" في "جيانجسو"، وهكذا لم يفعل الإمبراطور "يانج" سوى تمديد القناة إلى البلاد بأسرها.

وكانت أسبابه اقتصادية وسياسية وعسكرية، فمنذ سلالات "وي" و"جين" كان اقتصاد جنوب الصين يتطور ببطء، ولكن نظرًا لأن المركزين السياسيين "تشانج آن" و"لويانج" يقعان في الشمال، كان على نظام "سوي" الاعتماد على "جيانج واي" (وديان نهر اليانجتسي وهواي) لتزويدها بالثروة، ولذلك كان هناك حاجة ماسة إلى مجرى مائي، وبعد فترة وجيزة من سقوط نظام "تشن" في عام 589م، حاولت كل من الأسر القوية والأشخاص العاديين في الجنوب التمرد ضد "سوي"، ووفرت مرافق النقل المريحة مساعدة هائلة لبلاط "سوي" في السيطرة عليها، وفي الوقت نفسه، بدأ الإمبراطور "يانج" حربه ضد "جوجوريو"، ونمت الحاجة إلى كمية كبيرة من الإمدادات العسكرية في الجبهة، فكان افتتاح القناة الكبرى أمرًا حتميًا.

تم بناء القناة على أساس الخنادق القديمة والأنهار، واستند أقرب قسم، "هانجو"، إلى قناة "شانيانج"، وحفره الإمبراطور "ون" وجرفه ليصبح جزءًا من القناة الكبرى، أما الأقسام الثلاثة الأخرى فقد شيدت جميعها خلال عهد الإمبراطور "يانج"، وكانت قناة "تونج جي" أول قسم افتتح، ووجهت المياه من

ضواحي "لويانج" على طول الطريق إلى النهر الأصفر، وفي "بانتشو" شمال غرب "يينجيانج" في "هنان" توجه النهر الأصفر إلى الجنوب الشرقي ثم إلى نهر "هواي" في "شوي" بـ"جيانجسو" عبر "كايفنج" و"شانجتشيو" في "هنان"، وكان قسما "تونجي" و"هانجو" أهم الأقسام التي قام الإمبراطور "يانج" خلالها بجولات تفقدية من "لويانج" إلى "جيانج دو"، وسرعان ما فتحت قناة "يونج جي"، حيث تم تجريف نهر "تشين" وتوجيه مياهه جنوبًا إلى النهر الأصفر؛ في ما يعرف اليوم بمقاطعة "ووتشي" في "هنان"، وكان موجهًا إلى الشمال الشرقي لتتدفق من خلال نهري "تشينج" و"تشي"، وأخيرًا الانحناء شمال غرب ما يعرف بمقاطعة "جينجهاي" اليوم في "هيبي"، ووصلت في نهاية المطاف إلى "تشوجون" (بكين اليوم)، وبلغ طولها أكثر من 1000 كيلومتر، وقناة "يونج جي" هي أطول قسم، وتلاها قسم "جيانجنان" وهو الأخير، ووصلت القناة الكبرى إلى "جينج تشو" في "جيانج سو" ثم وصلت بعد الدوران حول بحيرة "تاي" إلى "يوهانج" في "تشجيانج"، واستغرق هذا المشروع الضخم، الذي بدأ في عام 605م وانتهى في 610م، ما يقرب من ست سنوات لإكماله، موظفًا عدة ملايين من العمال المجتهدين، توفي نصفهم تقريبًا من البرد أو المجاعة أو المرض.

وبعد فترة وجيزة من بناء القناة الكبرى، تم فتح طرق إمبراطورية واسعة على كلا الجانبين، مع زرع أشجار الصفصاف على طول شوارعها، كما تم بناء أكثر من أربعين برجًا مؤقتًا فخمة للأباطرة لاستخدامها أثناء جولاتهم على الطريق من "تشانج آن" إلى "جيانج دو"، إضافة إلى بناء العديد من المخازن الكبيرة أيضًا، وكان الأكثر شهرة في "تايتسانج"، و"يونجفنج"، و"هانجيا"، و"هيانج"، و"شينجلو"، وفي كل جولة تفتيشية، كان يرافق الإمبراطور "يانج" العديد من محظياته الإمبراطوريات والخصيان، ومسؤولين في البلاط، الذين سافروا بترف على "قوارب التنين" الشاهقة المقسمة إلى أجنحة فخمة، ورافقهم أسطول سفن أخرى للحراسة والأسلحة، ويبلغ طول هذا الأسطول المبهر أكثر من 100 كيلومتر في القناة، وعلى الضفاف كان هناك 80.000 متتبع للقوارب،

في حين كان الناس العاديين على مدار دائرة نصف قطرها 250 كيلومترًا مجبرين على الوقوف في الطابور وتقديم الهدايا.

وقد سبب كل من بناء القناة وجولات التفتيش عبئًا ثقيلًا على السكان، وكذلك إعادة بناء "لويانج" والحرب مع "جوجوريو"؛ فكانت انتفاضات الفلاحين الناتجة هي ما أسقط أسرة "سوي"، وفي حين أن الأجيال اللاحقة عزت سقوطها في المقام الأول لبناء القناة الكبرى، إلا أن المشروع يمثل ذروة العلوم والتكنولوجيا الصينية في ذلك الوقت؛ حيث تغلب البناة على سلسلة من الصعوبات الهندسية والتقنية الضخمة، مثل كيفية الحفاظ على مستوى المياه والتعامل مع الفيضانات والرواسب، وقد ثبت أنها ذات فائدة كبيرة للأجيال القادمة، وسهلت السيطرة المركزية على الحكومات المحلية في جنوب الصين، وبالنظر إلى أن الصين لم تملك مسار نهر طبيعي من الشمال إلى الجنوب، فحتى بنائها لم يكن هناك اتصال فعلي للمياه المنقولة بين الجنوب والشمال، وانقسم البلد إلى قسمين.

الفصل العاشر

العصر الذهبي لأسرة "تانج"

المقدمة

وكانت أسرة "تانج" هي الأسرة التي يمكن أن يقال حقًّا بأنها حكمت معظم ما نعتبره الصين اليوم بعد "هان"، فبعد انهيار أسرة "هان"، حكمت البلاد على يد أسر ملكية متنافسة، وكان بعضها أقوى من غيرها، وخلال الفترات المعروفة باسم الممالك الثلاث والأسر الشمالية والجنوبية، وتحت حكم "تانج"، أصبحت الصين الحضارة الأكثر نفوذًا في آسيا، فاجتذبت إنجازات "تانج" العسكرية الأجانب، إضافة إلى كفاءة إدارتها، والثقافة الحضرية المتطورة، وخاصة في العاصمة "تشانج آن"، وكان من الملحوظ انفتاحها على الثقافات الأخرى، حيث مارست النخبة الحاكمة أو على الأقل تسامحت مع الطاوية والبوذية والمسيحية النسطورية، ورعى البلاط مجموعة واسعة من المنح الدراسية والفنون، ويعتبر الشعر من فترة "تانج" حتى يومنا هذا هو نقطة عالية من الإنجاز الأدبي الصيني والنموذج الذي يتطلع إليه.

كانت عاصمة "تانج" هي "تشانج آن"، وكانت مغناطيسًا للزوار من الدول الأخرى، بما في ذلك العالمين الناطقين بالتركية والفارسية، بالإضافة إلى السفارات والوفود الرسمية كانت هناك زيارات لعلماء وتجار وحجاج دينيين، وأثرت اللغة والثقافة الصينية من فترة "تانج" بعمق في جيران الصين إلى الشرق وكوريا واليابان، وكان التأثير الأكثر دوامًا على اللغة المكتوبة، وكان توسيع النفوذ الصيني مرتبطًا بشكل وثيق مع انتشار البوذية شرقًا، كما تم إدخال الأحرف الصينية إلى كوريا (حيث تعرف باسم "هانجا") من "تانج" الصين وكانت الشكل الوحيد للخط المستخدم في كوريا حتى القرن الخامس عشر، على الرغم من أن إدخال نص الهانجول اللفظي خفض عدد الهانجا

اللازمة، فإنه لم يحل محلها ولا تزال عنصرًا من مكونات نظام الكتابة في كوريا الجنوبية المعاصرة، وفي اليابان، تم اعتماد الحروف الصينية (كانجي) على نحو مماثل، وعلى الرغم من إصلاح الخط بعد الحرب العالمية الثانية، لا تزال الحروف الصينية جزءًا أساسيًا من اليابانية اليومية المكتوبة، لم يقتصر التأثير على الخط، بل إن القطع الأثرية المخزنة في بيت كنوز "شوسوين" التابع للوكالة اليابانية للمنزل الإمبراطوري في "نارا" هي مؤشر واحد على الأثر الثقافي الذي تركته أسرة "تانج" في اليابان.

وكانت المحميات العسكرية التي أنشئت في جميع أنحاء آسيا الوسطى الأساس لتوسيع إمبراطورية "تانج" ونموذجًا تحتذيه الأسر الحاكمة في المستقبل، خارج البلاط كانت سلطة النبلاء هي العليا وظلت العديد من الامتيازات الإقطاعية القديمة كما هي، وخاصة في اختيار المناصب في الخدمة المدنية، ومع ذلك، تطور الاقتصاد؛ فتم تشجيع التجارة والسماح لها للازدهار جنبًا إلى جنب مع الزراعة، وكانت أنشطة التجار تخضع لرقابة صارمة في بعض الأحيان، واستخدمت جمعيات "هانج" أو التجار للإشراف عليها، وبالتوازي مع هذا التوسع التجاري كان التوسع الحضري المتنامي الذي شهد إنشاء عدد من المدن الكبرى بالإضافة إلى العاصمة "تشانج آن"، وكانت أبرز المدن الجديدة "تشينج دو" و"يانج تشو" و"جوانج تشو" و"كايفنج".

وتفضل المنح الدراسية الصينية التأكيد على الطابع الصيني للنظام على النقيض من الأتراك وغيرهم ممن أصبحوا من الأتباع أو كانوا يعتبرون تهديدًا للإمبراطورية، بيد أن هذا التمييز بعيد عن الوضوح؛ فقد كان أعضاء البيت الحاكم في "تانج"، بما في ذلك الإمبراطور المؤسس "لي يوان"، من أصل منغولي أو من أصل نصف - تركي، وقد ينحدرون من عشيرة توبا المنتمية لشعب "شيانبي"، وقد تكون وثائق الأسرة قد زورت لتثبت انتماءهم إلى "هان"، ولكن هذه المسألة، وإلى أي مدى تم ترسيخ "توبا" في الحكم، هي قضايا متنازع عليها بدرجة كبيرة في التاريخ الصيني، ومع ذلك ليس من الواقعي

التفكير في العائلة الإمبراطورية أو غيرها من أقسام النخبة على أنها مجموعة "نقية" من عِرق "هان" لم تشهد تزاوجًا مع المجموعات الإثنية الأخرى.

وتبع نهاية حكم "تانج" فترة أخرى من الانقسام، حيث حكم أصحاب المطالبات المتنافسين في أجزاء مختلفة من الصين؛ وبدأت قبائل "خيتان" و"جورتشن" في السهوب الشمالية (أسلاف المنغول والمنشوريين) في بناء ممالك قوية من شأنها أن تهدد في نهاية المطاف سلطة أسرة "سونج".

كان النصف الأول من عهد أسرة "تانج" (618 - 741م) يمثل نوعًا من العصر الذهبي في التاريخ السياسي والثقافي للصين، وما زال العديد من الصينيين يشيرون إلى أنفسهم على أنهم (قوم "تانج")، والمستوطنات التي أنشأها الصينيون المهاجرون في الخارج، والتي تعرف باللغة الإنجليزية باسم "تشيناتاونز"، معروفة باللغة الصينية باسم "شوارع أهل "تانج"، وكان مصطلح "تانجرين" يطلق على الجنوبيين في ما يفضل الشماليون "هانرين"، في إشارة إلى أسرة "هان" السابقة، وفي ذروتها شهدت أسرة "تانج" التوسع الإمبراطوري القوي، إضافة إلى الازدهار الزراعي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

وكان أباطرة "تانج" مجموعة مختلفة العناصر، فكان قتل الأشقاء، والانقلابات العسكرية، والخداع كلها ملامح للسعي للسلطة والتصميم على الاحتفاظ بها، ومع ذلك، فإن أكثر ما حققه حكام "تانج" أظهر حكمة هائلة، وإنصافًا، وحكمًا اقتصاديًا حصيفًا، وكلها سمحت للأسرة بأن تزدهر.

تأسيس وحكومة أسرة تانج

صعود أسرة تانج

بحلول عام 614م، كانت أسرة "سوي" تحت حكم الإمبراطور "يانج" تنحدر إلى حالة من الاضطراب، وشنت الحملات العسكرية الكارثية ضد "جوجوريو" وأدت إلى تمرد انتشر على نطاق واسع من حيث الحجم والأثر، ومع مرور الوقت،

اندمج المتمردون إلى ثلاث فصائل رئيسة: جيوش "واجانج" في "هنان"، جيش بقيادة "دو جياند" في "هيبي"، وجيش بقيادة "دو فووي" في "جيانج واي" (وادي يانجتسي ووديان نهر هواي)، كما استفاد عدد قليل من الأرستقراطيين الإقليميين من الوضع، من بينهم "لي يوان".

كان "لي يوان" سليل عائلة أرستقراطية تعود إلى أسرة "تشو" الشمالية، وكان جده "لي هو" مسؤولًا مهمًا خلال عهد أسرة "وي" الغربية، وقد حصل بعد وفاته على لقب أمير "تانج"، وهو اللقب الذي ورثه "لي يوان"، وباعتباره أمير "تانج"، عين "لي يوان" حاكمًا لـ"تاييوان" كمسؤول عن الحراسة ضد الغزو التركي في عام 616م، وفي هذا الوقت حث "ليو ونجينج" قاضي محافظة "جينيانج" "لي يوان" على محاولة الاستيلاء على العرش، وقد وضع خطة سيدخل فيها "لي يوان" سهل شانشي الأوسط (غرب ممر تونجوان) ويستولي على العاصمة "تشانج آن" خلال ستة أشهر كما فعل "ليو بانج" قبل تأسيس أسرة "هان" الغربية، وعندما تم اكتشاف أن القوات الإمبراطورية قد أرسلت لإخماد تمرد الفلاحين، وتركت "تشانج آن" ضعيفة استعد "لي يوان" للعمل.

وفى عام 617م، أعدم "لي يوان" مسؤولين أرسلهما البلاط الإمبراطوري لمراقبة ولائه بدعوى تعاملهما مع الأتراك، وبعد أن أصبح الأمبراطور "يانج" يحارب المتمردين الفلاحين في "جيانج دو" (يانجتشو اليوم)، أصبح "لي يوان" حرًّا في الشروع في عمل عسكري ضد العاصمة، وشرع في حملة مع ابنيه "لي جيان تشينج" و"لي شيمين"، وكانت احتمالات النجاح ضئيلة، إذ تمتع حفيد الإمبراطور، ولي العهد "يانج يو"، بدعم اثنين من القوي، فقد حل الخريف، وكان الطريق في حالة سيئة والإمدادات ضئيلة، وبعد انتصار أولي في ساحة المعركة المفتوحة، خاطر بقيادة قواته الرئيسة مباشرة إلى "تشانج آن"، بينما تعامل جنرالاته الآخرون مع المواقع الدفاعية القوية على النهر الأصفر، ورحب به شعب ومسؤولو وسط شانشي، الذين عانوا بما يكفي من طغيان "سوي"، ولم يمض وقت طويل قبل أن يدخل "لي يوان" بنجاح إلى العاصمة.

توج "لي يوان" في البداية الأمير ولي العهد "يانج يو" البالغ من العمر 13 عامًا كإمبراطور، ومنح نفسه لقب "تانج" وكان يسيطر فعليًّا على البلاط الإمبراطوري، وكسب تأييد الشعب، ألغى العديد من قواعد "سوي" القاسية، ولدى الاستماع إلى مقتل الإمبراطور "يانج" على يد "يووين هواجي" في "جيانجدو"، قام بالتخلص من الإمبراطور الدمية على الفور، وتوج نفسه إمبراطورًا، وبذلك أصبح الإمبراطور "جاوتزو" من أسرة "تانج" (انظر الشكل 19)، وهكذا تأسست إمبراطورية "تانج" رسميًّا في 618م.

الشكل (19): بورتريه رسمه "لي يوان" للإمبراطور "جاو تزو" من أسرة "تانج".

في الأيام الأولى، كانت الإمبراطورية التي تأسست حديثًا ذات مجال محدود، ففي أعقاب الفوضى في نهاية النظام السابق، ادعى العديد من أمراء الحرب الأقوياء بأنهم أباطرة، حيث دعا "شيويه جو" نفسه إمبراطور "تشين" في "قانسو"، وادعى "لي جوي" أنه إمبراطور "ليانج" في المنطقة الواقعة غرب النهر الأصفر، و"وانج شيتشونج" كان إمبراطور "تشينج" في "لويانج"، و"دو جياند" إمبراطور "شيا" في "هيبي"، و"شياو شيان"، إمبراطور "ليانج" في "هوبي"، كما بقيت هناك بعض السلطات المستقلة التي رفضت تقديم فروض الولاء لإمبراطورية "تانج" المركزية الجديدة، ولذلك كان لا يزال هناك عمل يتعين القيام به لإخضاع هذه السلطات المتباينة وإقامة السلطة الموحدة.

وكان التحدي الحقيقي الوحيد لـ"لي يوان" ورؤيته لإمبراطورية مركزية موحدة كان "وانج شيتشونج" في "لويانج" و"دو جياند" في هيبي، فإذا أمكنه سحق هذين الجيشين، فالبعض الآخر سوف يستسلم بالتأكيد، لذلك، في 620م، قاد ابن "لي يوان" الأصغر، "لي شيمين" قواته نحو "لويانج". وتوقع "وانج شيتشونج"، الذي كان يتوقع التهديد الحصول على مساعدة من محافظة "دو جياند"، وشكل الاثنان تحالفًا، وتعين على "لي شيمين" اتخاذ إجراء فوري، فقرر الحفاظ على حصار "لويانج"، لكنه قاد أيضًا فرقة لاعتراض التعزيزات التي أرسلها "دو"، وتمركز استراتيجيًّا برجاله في ممر "هولاو"، وهو تشكيل

طبيعي مكنه من وقف قوات "دو" وضربهم في مواجهة طويلة، وأرهقهم على مدى عدة أشهر، وقد هزم دو في نهاية المطاف، وعندما سمع "وانج" الأخبار، استسلم على مضض.

وكان بلاط "تانج" قد أعدم "دو جياند"، ولكن النضالات لم تنتهِ بعد، فقد سعى مرؤوسه "ليو هيتا" للانتقام في "تشانجنان" (منطقة جنوب نهر تشانج)؛ فبعد أقل من ستة أشهر، كان قد استعاد جميع الأراضي المفقودة، وفى عام 622م هزم "لي شيمين" "ليو هيتا" بنهر "مينج" غرب محافظة "كوتشو" بمقاطعة "هيبي" اليوم، وفي أعقاب هذه المعركة، شن جيش "تانج" هجومًا بغرض الإبادة وقدم مكافأة مقابل القبض على قادة جيش المتمردين، هرب "ليو هيتا" وسعى إلى اللجوء عند الأتراك قبل أن يجتاز الجنوب بجيش تركي لاستعادة وطنه، أرسل "لي يوان" ابنه الأكبر "لي جيان تشينج" خارج ممر "تونج" وهزم جيش "هيبي" للمرة الثالثة، غير أن بلاط "تانج" اعتمد هذه المرة سياسة العفو عن السجناء، حتى لا تبقى بقايا جيش "هيبي" مقاومة، ونتيجة لذلك، سحق أساسًا أقوى عدو لأسرة "تانج"، وصارت الصين مرة أخرى على مشارف عصر الوحدة.

طوال التاريخ الصيني أسفرت المنافسة على العرش الإمبراطوري كثيرًا عن سفك الدماء بين الأشقاء، ولم تكن إمبراطورية "تانج"، فلم يتمتع "لي جيانشينج"، ولي العهد، الذي كان قد ساعد في الغالب في واجبات الإدارة الإمبراطورية، في السمعة العسكرية المجيدة لشقيقه الأصغر، "لي شيمين"، ولذلك كان يخشى أن تشكل شهرة شقيقه تهديدًا لمطالبته المشروعة بالسيادة، وقام بعدة محاولات لقتل "لي شيمين"، ففي عام 624م، عندما غادر "لي يوان" في رحلة صيفية، استدعى "لي جيان تشينج" مجموعة من المحاربين للتخطيط لقتل شقيقه، وعندما سمع "لي يوان" ذلك، استبد به الغضب لدرجة أنه كاد يخلع وريثه، وفي مناسبة أخرى، قدم "لي جيانشنج" لشقيقه شرابًا مسمومًا، ولم ينقذ "لي شيمين" من الموت إلا تلقيه العلاج في الوقت المناسب،

وكان "لي يوان" يدرك جيدًا التنافس بين ابنيه ويريد من "لي شيمين" الانتقال إلى "لويانج"، حيث يمكن أن يحكم دون التهديد المستمر بالاغتيال، واعترض "لي جيان تشينج" على هذا الاقتراح، فقد كان يخشى أنه إذا أعطي "لي شيمين" حرية في موقع آخر، فإنه سوف يزداد قوة أكثر من أي وقت مضى.

وفي هذا الوقت، بدأت القبائل التركية تهدد المناطق الحدودية (تعكس مصطلحات "التركية" و"الترك" المصطلح الصيني لهذه القبائل غير المنتمية لعرق "هان"، وقد هاجر كثير منهم إلى الغرب وأصبحوا أسلاف الأتراك الموجودين في تركيا المعاصرة)، أمر "لي يوان" ابنه الرابع "لي يوانجي" أن يسير بجيش في حملة شمالية، وقام "لي يوانجي"، وهو أحد أتباع ولي العهد "لي جيان تشينج"، باختيار نخبة جنود "لي شيمين" على أمل إضعاف قواته، ثم قتله، عندما سمع "لي شيمين" الأخبار، قام بضربة وقائية، ففي اليوم الرابع من الشهر القمري السادس في عام 626م، كان "لي شيمين" ينتظر برجاله في كمين على بوابة "شوانو" التي تتحكم في الوصول إلى القصر الإمبراطوري في "تشانج آن"، وقتلوا "لي جيان تشينج" و"لي يوانجي" بالسهام، في حادثة قتل أشقاء مزدوجة وغادرة تعرف باسم حادثة بوابة "شوانوو"، وبعد ثلاثة أيام، عين الإمبراطور "جاوتزو" "لي شيمين" وليا للعهد، وبعد شهرين آخرين، أجبر على التنازل عن العرش، وتولى "لي شيمين" العرش، وكان معروفًا باسم الإمبراطور "تايتزونج"، وسمى عهده "تشينجوان" عام 626م.

سنوات "تشينجوان" الذهبية

وقد سميت السنوات الثلاثة والعشرون من حكم الإمبراطور "تايتزونج" بـ"سنوات "تشينجوان" الذهبية" - "تشينجوان" هو اللقب الذي اختاره الإمبراطور "تايتزونج" لعهده في عام 627م - وقد بشر بفترة من الازدهار الاقتصادي لم يسبق له مثيل إضافة إلى الاستقرار الاجتماعي والحكم الرشيد والازدهار العام، وكان أكبر الفروق بين "تايتزونج" وأسلافه هو أنه قبل بسهولة النصائح الجيدة، كما يتضح من علاقته مع "وي تشينج"، كان "وي" قد عمل في

الأصل مع ولي العهد "لى جيان تشينج"، وحث الأمير مرارًا على اغتيال "لي شيمين"، وعلى الرغم من هذا، كان "لي شيمين" يثمن شجاعة "وي" وقدرته، لذلك، عندما أصبح الإمبراطور عينه مستشارًا له بدلًا من معاقبته، ويعزى جزء كبير من الفضل في ازدهار حكم "تايتزونج" لـ"وي تشينج".

وكانت هذه التعيينات انعكاسًا لإيمان الإمبراطور "تايتزونج" بأن اختيار القدرة الحقيقية حقًّا هو مفتاح السلام والنظام، فأصدر مرارًا وتكرارًا مراسيم لتجنيد الموهوبين؛ وزاد عدد ونطاق الامتحان الإمبراطوري المدني، وتقدم العديد من الرجال القادرين إلى الصدارة في عهده، وعين منهم وفقًا للقدرة والجدارة، وخدم الجمهور بكل إخلاص، كان حكمه حقبة ميزها نظام قضائي أكثر انفتاحًا من أي نظام آخر في تاريخ الصين، وحافظ عليه نظام إدارة رشيدة والمثال الذي وضعه الملك بنفسه.

واستنادًا إلى الدروس المستفادة من زوال الأسرة "سوي"، مثل الإمبراطور "تايتزونج" العلاقة بين الشعب والملك بالقارب في المياه: "يمكن أن تحمل المياه القارب، ولكن يمكن أيضًا أن تقلبه"، وأعرب عن تقديره لموارد البلد، وأنه لم يجندها للعمل دون داعٍ، وظل يعيش في القصر القديم لأسرة "سوي"؛ لأنه دعا إلى الادخار بدلًا من الإسراف، وفرض الحد الأدنى من الضرائب على الناس، وقد ركز بشكل كبير على سيادة القانون، قائلًا إن "القانون يجب أن يطبق في جميع أنحاء البلاد"، وأنه هو ووزراؤه لا يعفون منه كذلك، وأعرب عن تأييده لمعارضة "وي تشينج" "للقانون الذي لا يوجد له معايير ويضع عقوبة على أساس الاعتبارات الشخصية"، وعندما انتقده المستشار "داي تشو" في بعض الأحيان لتسوية القضايا على أساس شخصي، اعترف الإمبراطور بخطأه وأشاد بالمستشار أمام الناس، وفي ظل موقفه الثابت الذي لا يتزعزع، انخفض الفساد والجريمة بشكل ملحوظ، وتتفق الدراسات الحديثة عمومًا مع الجوانب الإيجابية في السنوات الأولى من عهد "تايتزونج"، ولكن كان هناك تركيز متزايد على الانخفاض قرب النهاية، عندما بدأ يتجاهل تحذيرات مسؤوليه،

وخاصة في ما يتعلق بمطالب الخدمة الإلزامية للعمل والأشغال العامة، وبناء القصور، وتدهورت علاقة الإمبراطور مع البيروقراطية؛ عائدًا إلى ذكريات نجاحاته العسكرية المبكرة، في حين بدأ محاولة لغزو "جوجوريو" في 645 - 647م والتي انتهت بالفشل.

في 649م، توفي الإمبراطور "تايتزونج"، وكان ما تركه لولي العهد "لي تشي" إمبراطورية ذات ازدهار غير مسبوق تتميز بالاستقرار والحكومة العادلة، وقد وضعت "سنوات "تشينجوان" الذهبية" أساسًا متينًا لـ"عصر "كايوان" الذهبي"، ولكن سيكون هناك انقطاع بينهما.

الإمبراطورة غاصبة العرش

ولدت "وو تزي تيان" عام 624م، وكان والدها "وو شيهو" قائدًا في جيش "لي يوان"، وخلال عهده تم ترقيته إلى وزير الأشغال، وبعد وفاته، عاشت "وو تزي تيان" مع أمها الأرملة، وكانت ذكية وقارئة جيدة، في سن الرابعة عشرة، تم اختيارها لتكون "تسايرين"، محظية إمبراطورية برتبة منخفضة، كما منحها الإمبراطور "تايتزونج" اسم: "وو مي"، ومنذ ذلك الحين سميت "وو مينيانج"، وهذا يعني "فتاة صغيرة جميلة"، ولأسباب غير معروفة، لم يهتم بها الإمبراطور، وظلت مختفية لمدة اثنى عشر عامًا، ولكن في هذا الوقت، نجحت في بناء علاقة وثيقة وحميمة مع ولي العهد "لي تشي".

توفي الإمبراطور "تايتزونج"، ووفقًا للقواعد الملكية، أرسلت "وو تزي تيان" وغيرها من المحظيات اللواتي لم ينجبن ليصبحن راهبات في معبد "جاني"، كانت الإمبراطورة الجديدة، الإمبراطورة "وانج"، هي التي استدعت "وو تزيتيان" مما سبَّب لها نتائج كارثية، فقد منح "لي تشي"، كونه الإمبراطور "جاوتزونج"، "وو تزي تيان" لقب "تشاويي"، أي المحظية الكبرى، ووفقًا لبعض المصادر أصبحت حاملًا، وبعد شهر من الولادة زارتها الإمبراطورة، وبعد مغادرتها مباشرة، قتلت "وو" ابنتها واتهمت الإمبراطورة بجريمة القتل، ووضع

الإمبراطور الإمبراطورة قيد الاعتقال تحت تأثير غضبه، وبعد الكثير من المنازعات مع مسؤوليه خلعها في نهاية المطاف، وأخذت "وو تزي تيان" مكانها في عام 655م، وبدأ الحكم الاستبدادي للإمبراطور "جاوتزونج".

وبسبب سوء حالته الصحية، لم يتمكن الإمبراطور المستبد الآن من المشاركة في شؤون الدولة، ووفر هذا الفرصة للموهوبة الطموحة "وو تزي تيان"، فبدءًا من 660م، تولت السيطرة على الإدارة، وكان الاثنان يخاطبان من قبل الوزراء "بالحاكمين المقدسين"، وفي عام 674م، سمت زوجها "الحاكم السماوي" ثم أعلنت كونها "الملكة السماوية"، وتوفي الإمبراطور "جاوتزونج" في "لويانج" عام 683م، وفي حين كان يجب أن يخلفه أحد أبنائه، وهو ما حدث لفترة من الوقت، أسرعت "وو تزي تيان" باستلاب السلطة منهم، وغيرت اسم الأسرة من "تانج" إلى "تشو" (ويسميها المؤرخون الصينيون أيضًا "وو تشو") وأعلنت نفسها إمبراطورة، وفي الوقت نفسه، عينت "لويانج" كعاصمة مقدسة وسمت فترة حكمها "تيانشو" (عطية السماء).

وأثار إعلانها ضجة بين النبلاء والبيروقراطيين، ولا سيما أفراد أسرة "تانج" الملكية، ومن أجل الحفاظ على مصالحهم الخاصة وتلك من أسرة "تانج" حاولوا واحدًا تلو الآخر التمرد ضدها وقد أحبطت جميع محاولاتهم، وأعدم المتمردون، ثم أعقب ذلك فترة الاضطهاد، ففي عام 697م، في أعقاب إحدى حركات التمرد، قتلت "وو تزي تيان" ستة وثلاثين من العلماء المشهود لهم ونفت أكثر من ألف شخص، ولتطهير البلاط من المقاومة السياسية وضعت صناديق اقتراحات من النحاس لجمع الاتهامات الموجهة ضد المسؤولين، وعينت عددًا كبيرًا من الرجال عديمي الرحمة خاصة الذين كان دورهم الحد من التمرد، ونما عدد السجناء ولقي الآلاف مصرعهم، من بينهم مئات من أفراد أسرة "تانج" الملكية، وفي الوقت نفسه ارتفع المسؤولون وضيعو المولد الذين دعموا نظام "تشو" بسرعة في السلطة، وفي بعض النواحي، كانت مهارات "وو تزي تيان" السياسية فريدة من نوعها، وأصبح تولي منصب رسمي ممكنًا

لمجموعة واسعة من الناس، بغض النظر عن خلفية الأسرة، وذلك بفضل نظامها للتوصية الذاتية التي تليها فترة تجريبية، وعاقبت المسؤولين غير الأكفاء، واستبدلتهم بموظفين مخلصين حقًّا، كما قامت بتحسين نظام الامتحانات المدنية الإمبراطورية، وخلقت نظام اختيار أفضل، وفي 690م، بدأت مقابلة المرشحين شخصيًّا، وفي عام 702م قدم فحص فنون الدفاع عن النفس، وأدى ذلك إلى ظهور مجموعة كبيرة من الرجال ذوي البصيرة العظيمة، الذين حافظوا فعليًّا على نظام "وو تشو" وكفلوا استقراره.

في عام 705م، قام مسؤولو البلاط بانقلاب، واضطرت "وو تزي تيان" إلى التنازل عن العرش، وفي ديسمبر من العام نفسه توفيت في قصر "شانجيانج" في "لويانج" ودفنت بعد ذلك مع زوجها الإمبراطور "جاوتزونج" في ضريح "تشيانلينج" في إقليم "تشيان" بمقاطعة "شانشي"، ووفقًا لرغبتها، أقيم شاهد فارغ أمام ضريحها.

عصر كايوان الذهبي

عندما تم خلع "وو تزي تيان"، كان ابنها الذي أصبح الإمبراطور "تشونجتشونج" غير كفء وسرعان ما فقد قبضته على السلطة، التي ذهبت بدلًا من ذلك إلى الإمبراطورة "وي" وابنتهما، الأميرة "آنلي"، كانت الإمبراطورة "وي" امرأة طموحة تأمل أن تتبع خطى "وو تزي تيان"، وفي عام 710م، تآمرت مع الأميرة "آنلي" لتسميم زوجها وعن طريق مرسوم أعلن بعد وفاته أصبح "لي تشونجماو" ابنها الأصغر هو الوريث، ولكن السلطة الحقيقية كانت بين يدي الإمبراطورة.

ولد "لي لونج جي" في لويانج عام 685م، وهو الابن الثالث لشقيق الإمبراطور "تشونج تشونج" الأصغر "لي دان"، وضعت مكائد الإمبراطورة "وي" حياة جميع أفراد الأسرة في خطر، وهكذا، وبمساعدة ابنة "وو تزيتيان"، الأميرة "تاي بينج"، قام "لي لونج جي" بانقلاب نيابة عن والده وقتل فيه الإمبراطورة "وي"،

والأميرة "آنلي" وجميع أتباعهم، وهكذا تولى "لي دان" باسم الإمبراطور "رويزونج". واجه "لي دان" الآن معضلة، فوفقًا للقواعد، كان ينبغي أن يكون ابنه الأكبر "لي تشينج تشي" هو ولي العهد، ولكن كان "لي لونج جي"، الابن الثالث، هو الذي قدم الخدمة الأكثر تميزًا بطرد قوات "وي"، عرض "لي تشينج تشي" التنحي، ولكن "لي لونججى" رفض قبول منصب ولي العهد، وبالنظر إلى أنه في المجتمع الإقطاعي كان من الشائع بين الإخوة قتل بعضهم بعضًا لتولي العرش، فكان هذا أمرًا غير عادي حقًّا، فلم يسمع عن اثنين من الإخوة رفضا مثل هذا العرض، إلا أن "لي تشينج تشي" أصر ووافق "لي لونج جي" على تولي المنصب.

وفي الوقت نفسه، كانت الأميرة "تاي بينج"، التي كانت مفيدة في تولي الإمبراطور "رويزونج" العرش، تزداد قوة، وقد اكتشفت بسرعة أن "لي لونج جي" كان ذكيًّا وشجاعًا، وبالتالي من الصعب السيطرة عليه؛ لذلك وضعت كل جهودها في دعوة "لي تشينج تشي" إلى تولي مقاطعة العهد، وفي 712م، لتجنب الفوضى، تنازل الإمبراطور "رويزونج" عن العرش لـ"لي لونج جي"، وكانت هذه خيبة أمل كبيرة للأميرة "تاي بينج"، التي بدأت بتدبير مؤامرة انقلاب، إلا أن "لي لونج جي" قد عطلها، وأطاح بمعظم مؤيديها، وأصبح الإمبراطور "شوانزونج" الجديد.

في عام 713م، غير الإمبراطور "شوانزونج" لقب عهده إلى كايوان -وتعني "بداية حقبة جديدة"-، لإظهار عزمه الراسخ على إقامة بلد أكثر ازدهارًا، وعين "ياو تشونج" مستشارًا له وهو رجل دولة متمرس، وركز على برنامج إصلاح جريء وحاسم، وبعد أربع سنوات، خلف "ياو تشونج" "سونج جينج"، الذي كان عاقلًا وصريحًا؛ وجعل نقطة جذب الموهوبين في خدمته، وبمساعدة هذين المستشارين، وضع الإمبراطور "شوانزونج" سلسلة من الإصلاحات التي زادت بشكل كبير ثروة البلاد.

اقترح "ياو تشونج" على الإمبراطور "شوانزونج" ممارسة برنامج تدعمه عشرة

مبادئ توجيهية، ومن بين قائمة الإصلاحات، كان أهمها تحسين النظام الإداري للمسؤولين المحليين، وقد ألغيت زيادة عدد الموظفين وبيع المناصب الرسمية والألقاب، كما طرد عدة آلاف من مسؤولي "وو تزي تيان"، وبالإضافة إلى الاقتصاد في الإنفاق زادت كفاءة الحكومة بشكل كبير، وفي محاولة أخرى لتحقيق الكفاءة الإدارية، أمر الإمبراطور "شوانزونج" العلماء القانونيين بتكوين أول قانون إداري للصين تحت اسم "قوانين "تانج" الستة"، وكثيرًا ما أرسل مفوضو المراقبة لفحص واختبار عمل المسؤولين المحليين، والتعرف على مظالم الشعب، والتعويض، أو حتى معاقبة المسؤولين غير الملتزمين بالقانون.

واعتمد الإمبراطور "شوانزونج" أيضًا سلسلة من السياسات الشعبية لتشجيع علاقات أوثق بين مسؤولي البلاط والناس العاديين، وبينه هو نفسه وبين من تحته، فعلى سبيل المثال، تزوج "شياو هنج"، ابن المستشار "شياو سونج"، من الأميرة "شينتشانج"، ابنة الإمبراطور "شوانزونج"، وكل مرة زارت فيها زوجة "شياو سونج" البيت الإمبراطوري كان الإمبراطور "شوانزونج" يرحب بها كما لو كانت شقيقته من لحمه ودمه، وقد تمت مراعاة الآداب دائمًا بطريقة كبيرة لإظهار العلاقة الوثيقة بين الملك ووزرائه، وعلاوة على ذلك، لتجنب البلاء المشترك بين الأشقاء، أولى الإمبراطور "شوانزونج" اهتمامًا كبيرًا للواجب البنوي، وأدى ذلك إلى تخفيف التوتر بين الأسرة المالكة، مما ساعد على ضمان الاستقرار السياسي. مثلت هذه السياسات السنوات الأولى من عهد الإمبراطور "شوانزونج" في السلطة تقريبًا حتى منتصف القرن الثامن - وهي فترة تعتبر واحدة من أعظم الفترات في تاريخ الصين - ولكن في النصف الثاني من حكمه، تغيرت الأمور.

إمبراطورية تانج

شهد معظم الأباطرة من أسرة "تانج" في وقت مبكر نجاحًا كبيرًا في علاقاتهم مع المناطق الحدودية والعالم الكبير، وكان من الأهمية بمكان الحفاظ على

طريقي الحرير البري والبحري مفتوحين حتى يمكن أن تتم التجارة بحرية - وبالتالي تسمح لثروات الصين الاقتصادية أن تزدهر - فالصين محاطة بأراضي العديد من الشعوب؛ وأبعد من ذلك، إمبراطوريات كبيرة أخرى، مثل تلك التي في بلاد فارس، والعالم العربي وبيزنطة، اجتذبت إلى عالم "تانج" المثير المليء بالازدهار والثقافة، ويقال إن أسرة "تانج" كان لها في ذروتها علاقات دبلوماسية مع أكثر من 300 دولة، فكانت حقًّا قوة عالمية.

الترك: وجاء الأتراك إلى السلطة في جبال "التاي" في القرن السادس، وكما ذكر سابقًا، فإن الأتراك من هذه الفترة سبقوا أتراك تركيا؛ فقد هاجرت الشعوب الناطقة بالتركية مما هو معروف اليوم بمنغوليا عبر آسيا الوسطى وسهول الأناضول، وتأسست "خانية" (مملكة) تركية جديدة في 552م وأصبحت أقوى دولة بدوية في الشمال، وفي ذروتها، وصلت الإمبراطورية التركية لـ"ياوهاي" (جنوب شرق مقاطعة "لياونينج" اليوم) إلى الشرق، وبحر قزوين من الغرب، ونهر أمو داريا في الجنوب وبحيرة بايكال إلى الشمال، وفي عهد أسرة "تانج" المبكر، كان تحت يد خانات الدولة التركية الشرقية أكثر من مليون جندي اعتدوا باستمرار على الجنوب؛ وكانوا أقوياء جدًّا لدرجة أن أسرة "تانج" فكرت بالتخلي عن "تشانج آن" عاصمتها لتجنبها.

وفي عام 626م، سافر "إليج خان" من مملكة تركيا الشرقية وفرسانه البالغ عددهم 100 ألف جندي باتجاه نهر "وي"، وأقاموا معسكرًا شمال جسر بيان، ولم تكن أسرة "تانج" التي كانت ما تزال تعاني من الاضطرابات المدنية في عهد أسرة "سوي" غير أهل للتعامل مع هذه القوة، وبناء على اقتراح من مسؤوليه، وصل الإمبراطور "تايزونج" إلى جسر بيان مع ستة مشاركين وبدأ مفاوضات دبلوماسية ذكية، ووقع الجانبان على العهد: سحب الأتراك فرسانهم وسددت أسرة "تانج" تعويضًا وجزية في المقابل، لكن الإمبراطور "تايزونج" كان خجلًا من تحالف جسر "بيان"، وقد بدأ العمل على بناء جيشه، وفي الوقت نفسه، واجهت خانات تركيا الشرقية سلسلة من الأزمات، فأولًا كانت ثورة قبائل

"شيويانتو" و"بيجو" و"أويجور" وغيرها من القبائل، وفي العام نفسه، سقطت الثلوج الكثيفة في الممالك التركية، مما أدى إلى وفاة المواشي وتضور الناس جوعًا، وبعد سنوات قليلة، في عام 629م، اعتقد الإمبراطور "تايزونج" أن الوقت قد حان وأرسل جنرالاته "لي جينج" و"لي جي" بجيش قوامه 100 ألف جندي لمحاربة الخانات الذين هزموا هزيمة ساحقة.

وقد عزز الانتصار العسكري سمعة أسرة "تانج" بين المجموعات العرقية الأخرى، ففي ربيع 630م، جلب "إليج خان" إلى "تشانج آن" أسيرًا، وأقام الإمبراطور "تايزونج" حفلًا كبيرًا لقبول استسلامه وعدم قتله، وقد عرض عليه لقبًا رسميًا وتم الاعتناء بعائلته على أكمل وجه، وحازت هذه السياسة العرقية الليبرالية والموقف المتفوق من الإمبراطور "تايزونج" إعجاب الأتباع السابقين للخانات - مثل الأويجور - الذين طلبوا منه أن يتخذ لقب الخان السماوي "الحاكم الأعلى"، وهكذا أكد الإمبراطور "تايزونج" على احترامهم، وعززه كذلك بالمعاملة العادلة لشعب خانات تركيا الشرقية، وظل العديد من الأتراك يتجولون كبدو وحرسوا حدود "تانج"، في حين أصبح زعماء وقادة أتراك آخرون من الحراس الإمبراطوريين.

ومع ذلك، لم يتم القضاء على الخانات التركية الشرقية تمامًا، فخلال عهد الإمبراطور "جاوزونج" أعيد تأسيسها كمملكة تركية ثانية على يد الأتراك الذين يعيشون في جنوب صحراء "جوبي"، وبالحفاظ على علاقة ودية مع أسرة "تانج"، شهدت الحياة الاقتصادية والثقافية للأتراك العديد من التغييرات، وعندما كانت الإمبراطورة "وو تزي تيان" على العرش، طلب خان تركي مرة من أسرة "تانج" بذورًا للزراعة والأدوات الزراعية وقدمت لهم هذه، ويشير ذلك إلى أنهم لم ينخرطوا فقط في تربية الحيوانات مثل القبائل البدوية الأخرى بل كانوا يقومون أيضًا بالزراعة، وفي عهد الإمبراطور "شوانزونغ"، قام الشعبان التركي والهان في الشمال بتربية الماشية وزراعة الأرض معًا؛ وأقامت أسرة "تانج" صلات تجارية معهم على نطاق واسع، وتبادلت عدة مئات من آلاف

الأمتار من الحرير والمطرزات سنويًّا مقابل الخيول التركية. في عام 744م، تم إسقاط الخان التركي الثاني على يد الأويجوريين الجدد في الشمال، كانت المملكة التركية موجودة منذ قرنين تقريبًا، وبعد زوالها، أتى بعض الأتراك إلى "تانج"، وهاجر بعضهم غربًا إلى آسيا الوسطى، في حين انضم معظمهم إلى مملكة الأويجور، وبعد ذلك، اختفى الأتراك من تاريخ شمال الصين.

الأويجور

كان الأويجور أمة ذات تاريخ طويل، فهذه المجموعة العرقية لم تكن سابقة للأويجور المعاصرين من "شينجيانج"، على الرغم من أنها ترتبط بهم بالتاريخ وعلم الأنساب، فكانوا من قبائل "تيل" التي توزعت على نطاق واسع في السهوب الشمالية خلال حكم الأسر الجنوبية والشمالية (420 - 589)، وذلك أساسًا على طول نهر "شيان" - نهر سيلينجا اليوم في منغوليا - في شمال صحراء "جوبي"، وفي عام 646م، غزا الأويجور والقبائل الأخرى "شيويانتو"، التي سيطرت على صحراء "جوبي" الشمالية، وبالنظر إلى أن الإمبراطور "تايزونج" قد ساعدهم، وأعطوه لقب الخان السماوي، وطلبوا أيضًا أن يصبحوا جزءًا من نظام "تانج" الإداري، وبنى طريقًا إلى الجنوب من أراضيهم أدى إلى "تشانج آن"، وقد عزز هذا الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية مع حكومة "تانج" المركزية وعزز تنمية مجتمع الأويجور.

في 744م، أطاح زعيم الأويجور "كوتلوج بويلا" بالمملكة التركية الثانية بدعم من أسرة "تانج" وأعطاه الإمبراطور "شوانزونج" لقب "الخان الفاضل"، وهنا تأسست مملكة الأويجور رسميًّا بإعطاء جميع قبائل "تيل" ولاءها لها وارتفع شأنهم كقوة أخرى لها وزنها في الشمال، ومن الأيام الأولى، حافظت على علاقات سياسية وثيقة مع أسرة "تانج" فتزوج أباطرة "تانج" من أميرات الأويجور، وهب خانات الأويجور غالبًا لمساعدة أسرة "تانج" في الحملات العسكرية.

في البداية، كان عدد قليل من تجار الأويجور، حيث كان معظمهم يعملون في تربية الماشية، ومع مرور الوقت، بدؤوا تبادل خيولهم بكميات كبيرة من الحرير والشاي وغيرها من السلع من أسرة "تانج"، وبيع معظمها إلى الغرب بربح ضخم، فاستقر العديد من رجال أعمال الأويجور أنفسهم في مدن مثل "تشانج آن"، واشتروا الأراضي والعقارات، وأنشؤوا المحلات التجارية، وكثير منهم تزوجوا من شعب "هان" وبقوا في وسط الصين بدلًا من العودة إلى مملكة الأويجور، وعمومًا، أصبح الأويجور أثرياء للغاية بفضل ارتباطهم بأسرة "تانج"، وتأثروا كثيرًا بمجتمعها وثقافتها، فاعتمدوا تقويم "تانج"، ومارسوا الفنون المستفادة مثل النقش وآداب السلوك، كما بدأت نساؤهن بتزيين أنفسهن بالطلاء والمساحيق والتطريز، وبعد أن انتقلوا تدريجيًّا من حياة البدو الرحل إلى شبه الرحل، بدؤوا ببناء المدن على أراضيهم العشبية، وفي الوقت نفسه، تم إدخال المانوية إلى الخانات عبر الصين، وانتشرت لتصبح دين الدولة، وفي وقت لاحق، بسبب النزاعات داخل المجموعة الحاكمة والكوارث الطبيعية المتكررة، انخفضت قوة الخانات حتى انهار حكمهم في 840م، وهاجر شعبهم إلى المنطقة غرب النهر الأصفر و"شينجيانج" حيث زرعوا خصائص ثقافية جديدة، وأصبحوا أسلاف اليوجور والأويجور اليوم.

توبو

تعد هضبة "تشينجهاي" التبتية، التي تقع في شمال غرب الصين، أعلى هضبة في العالم، وتسمى أحيانًا "سقف العالم"، كان أسلاف التبتيين قبيلة من شعب "تشيانج" الذين كانوا يعيشون منذ فترة طويلة وهناك زرعوا الشعير في المرتفعات والحنطة السوداء وربوا حيوانات الياك، والأغنام، والخيول، في أوائل القرن السابع، أجبر "سونجتسان جامبو" جميع قبائل "تشيانج" الأخرى على الخضوع له وأصبح أول "تسينبو" ("رجل قوي"، أو الملك) لـ"توبو"، انتقل مقعد مملكته إلى "راسا" (لوشي) وهي لهاسا الحالية، وأنشأ نظامًا مدنيًّا وعسكريًّا رسميًّا، ووضع قوانين وحرص على التعلم من البلدان المجاورة،

ووضعت الأبجدية التبتية مستوحاة من السنسكريتية، كما قام بتجنيد باحثين من الهند، وحرفيين من نيبال، وأطباء من شبه الجزيرة العربية؛ ولكن ما أعجب به أكثر هو ثقافة أسرة "تانج" في السهول الوسطى، وكان عازمًا على إقامة علاقات ودية معها.

في 634م، جاء مبعوثو توبو الأوائل إلى "تشانج آن" وأرسلت أسرة "تانج" المبعوثين إلى مملكة "توبو" في المقابل، وفي وقت لاحق، قدم "سونجتسان جامبو" طلبًا للزواج من أميرة أسرة "تانج"، ووفقًا للحكايات، أرسلت دول أخرى مثل الهند و"دا شي" مبعوثين إلى الصين يطلبون يد الأميرة "ونشنج" مما وضع الإمبراطور "تايزونج" في موقف حرج، فقرر السماح للمبعوثين بالمشاركة في مسابقة ذكاء يكسب فيها الفائز يد الأميرة، ولا تزال القصة محفوظة في الجداريات داخل قصر "بوتالا" ومعبد "جوخانج" في "لهاسا"، عن كيفية فوز مبعوث "توبو" على المنافسين الآخرين بكل سهولة وبراعة.

وهكذا في 640م، وافق الإمبراطور "تايزونج" على زواج الأميرة "ونتشينج" بـ"سونجتسان جامبو"، وغادرت في العام التالي، ويقال إنها أخذت العديد من حرفيي "هان" معها، بالإضافة إلى العديد من الكتب والبذور، وتعمق إعجاب "سونجستان جامبو" بالثقافة الصينية، فأرسل شبابًا من الأسر الملكية والنبيلة لدراسة الشعر والأدب في المدرسة الإمبراطورية في "تشانج آن"؛ كما طلب بيض دودة القز والحرفيين لصنع النبيذ والورق والحبر، وأكثر من ذلك بكثير، وعاشت الأميرة "ونتشينج" نفسها في "توبو" ما يقرب من أربعين عامًا، وأحبت حياتها هناك، واحترمها الشعب وأحبها الشعب، كما أقيمت لها جنازة كبيرة عند وفاتها، وبُني تمثال للاحتفاء بها ما يزال قائمًا في "لهاسا" الحديثة.

وبعد وفاة "سونجتسان جامبو"، لم تستطع أسرتا "تانج" و"توبو" الإبقاء على السلام بينهما باستمرار، فوقعت عدة حروب واستولى التبت على أربع حاميات عسكرية مهمة في منطقة "آنشي – خوتان" و"شولي" و"كوتشا" و"سوياب" غربي البلاد، وفي عام 692م، أرسلت "وو تزي تيان" الجنرال "وانج شياو جي"

لاستعادة جميع المدن العسكرية الأربع، ثم تمركزت القوات المسلحة في المنطقة، إلا أن العلاقات لم تتدهور تمامًا، فقد تم التوقيع على التحالفات مرارًا وتكرارًا وإرسال المبعوثين بشكل متكرر، وفي عام 710م، أرسل الإمبراطور "تشونجتشونج تانج" الأميرة "جينتشينج" للزواج من حاكم "توبو"، وزيادة تعزيز التبادلات الاقتصادية والثقافية بين البلدين، وقد تم تحقيق السلام في نهاية المطاف بشكل أكثر تحديدًا في وقت لاحق في عام 823م، وسجل على أسطوانة تحالف "تانج – توبو" أو "تحالف العم وابن أخيه " تفاصيل التحالف، ولا تزال الأسطوانة موجودة أمام معبد "جوخانج" في "لهاسا".

جوجوريو

كان شعب "جوجوريو" قد خاض حربًا طويلة مع إمبراطورية السهول الوسطى؛ أدت هذه الحروب إلى إضعاف أسرة "سوي" بشكل كبير، وأدت إلى انتفاضات الفلاحين الضخمة التي أدت في نهاية المطاف إلى سقوط الأسرة، في عام 643م، هاجمت "جوجوريو" و"بايكجيه" "سيلا" في العام السابع عشر من عهد الإمبراطور "تايزونج" (المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة الكورية)، والتي أرسلت بعد ذلك مبعوثين إلى أسرة "تانج" طلبًا للمساعدة، فأرسل الإمبراطور "تايزونج" مبعوثًا إلى "جوجوريو" يحثه على التراجع ورفض طلبه، وقرر "تايزونج" أنه ليس لديه خيار سوى القتال.

وفي الشهر الثاني من عام 645م، وبعد التحضير الدقيق، سار الإمبراطور "تايزونج" نحو "لياودونج" (شرق نهر لياو)، على رأس جيش يبلغ قوامه 60 ألف جندي، بينما اتجه الجنرال "تشانج ليانج" إلى "بيونجيانج" عن طريق البحر بجيش مكون من 40 ألف جندي، تقدمت قوات "تانج" بسلاسة واستعادت أكثر من عشر مدن في طريقها، وفي الشهر السابع، بعد أن وصلت إلى مدينة "آنشي" - "يينج تشينج تزي" اليوم، جنوب شرق "هايتشينج" في مقاطعة "لياونينج"- بدأ الحصار، وكانت المقاومة شرسة؛ فقد اقترب الشتاء، وكثير من الجنود لقوا حتفهم من البرد، وفي الشهر التاسع، اضطر الإمبراطور "تايزونج" لسحب

قواته، ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه فقد الآلاف من الجنود، استعاد عشرات المدن في شمال شرق البلاد وأباد عشرات الآلاف من جنود "جوجوريو" التي ضعفت إلى حد كبير، ولم تعد تجرؤ على إثارة المتاعب في شمال شرق البلاد.

وبعد سنوات قليلة، تم إضعافها ثم دمرت تمامًا على يد قوات "تانج" في عهد الإمبراطور "جاوزونج" في تحالف مع "سيلا"، التي وحدت شبه الجزيرة الكورية في عام 675م، حافظت "سيلا" على علاقات مستقرة مع أسرة "تانج" بإرسال المبعوثين، والطلاب، ورجال الأعمال للتعلم من الثقافة الصينية، ونتيجة لذلك، تم بناء معظم الباغودات الحجرية والطوبية، والمصابيح الحجرية، والقلاع، والأضرحة والأعمدة المتبقية من فترة "سيلا" وفقًا لطقوس أسرة "تانج" وآدابها.

الحدود الشمالية

بالنسبة للإمبراطور "شوانزونج"، كانت الحدود الشمالية واحدة من أولى القضايا التي كان يحتاج إلى معالجتها؛ لأن المتاعب كانت تختمر هناك لبعض الوقت، وفي عام 696م، عندما كانت "وو تزي تيان" على العرش، احتل "لي جين تشونج"، وهو أحد أفراد العائلة المالكة الخيتانية، "ينجتشو" واثنتي عشرة منطقة في "لياوشي" (غرب نهر لياو)، وقد تم القضاء على قوات الإنقاذ المرسلة من بلاط "تانج" تمامًا، وفي عام 703م، استولى أوشيلي، وهو عضو في عشيرة تورجيش النبيلة، على حامية سوياب مع الجزء الغربي من تينجتشو، مما عرقل طريق الحرير.

بذل الإمبراطور "شوانزونج" جهودًا فورية لحل هذه المشكلة عن طريق إنشاء جيش محترف، وأعطى الحق للجنود بالحصول على أسلحة وإمدادات من الحكومة، وأعفاهم من الضرائب والعمل القسري، وبعد ذلك، تم أيضًا إصلاح جيش الحدود؛ فطلب من هؤلاء الجنود المتطوعين أن يحرسوا الحدود وأن يأخذوا أسرهم معهم، وزودتهم الحكومة بأراضٍ ومنازل وأعلنت أنهم "حرس

الحدود الدائمين"، وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك "جنود موحدون" مشابهون للمرتزقة واستبدلوا بالخدمة العسكرية الإلزامية، وهكذا تم فصل أدوار الفلاحين والجنود، مما أدى إلى تحسين القوة القتالية لأسرة "تانج"، وكفل دفاعًا جيدًا عن الحدود.

كما أصدر الإمبراطور "شوانزونج" مرسومًا إمبراطوريًّا لتعزيز القوات العسكرية على الحدود الشمالية الغربية، وتم تعيين ضباط خاصين لتدريب وتوريد الخيول العسكرية، ومن أجل حل مشكلة توفير الغذاء للمنطقة، أنشأ مساحة زراعية كبيرة هناك، كل هذه الجهود سرعان ما أثمرت نتائج، ففي عام 717م، استعادت قوات "تانج" السيطرة على منطقة "ينجتشو"، وأنظمة كثيرة أقامتها الأقليات الإثنية إلى الشمال من سور الصين العظيم أقسمت بولائها لأسرة "تانج".

"نانتشاو"

كان "نانتشاو" نظامًا لا ينتمي لعرق "هان" قد ازدهر في ما يعرف الآن ببحيرة "إرهاي" وبحيرة "ديانتشي" في مقاطعة يونّان من القرن السابع إلى القرن التاسع، وهو واحد من ستة "تشاو" أو "ممالك" من القبائل ذات الصلة، كان "منجشي تشاو" في أقصى الجنوب، وهكذا كان يشار إليها أيضًا باسم "نانتشاو" (المملكة الجنوبية)، وفي أوائل القرن الثامن، وخلال عهد الإمبراطور "شوانزونج" (712 - 756م)، حدد ملك "نانتشاو" الممالك الست بدعم من أسرة "تانج"، وأنشأ مملكة جديدة تسمى نانتشاو ونقلت عاصمتها إلى تايه سيتي (بالقرب مما يعرف اليوم بدالي)، وأثناء فترة حكمها، حكمت مملكة "نانتشاو" كل ما يعرف الآن بمقاطعة يونّان، والجزء الجنوبى من مقاطعة "سيتشوان"، والجزء الغربي من مقاطعة "جويتشو"، وأيدت أسرة "تانج" هذا لاحتواء "توبو" التي ازدادت قوتها وحاولت توسيع نفوذها لـ"يو نّان"، وكانت "نانتشاو" هي الوحيدة من الممالك الست القريبة من أسرة "تانج" أكثر من "توبو"، ومع ذلك ففي الفترة الأخيرة من عهد الإمبراطور "شوانزونج"، تحولت "نانتشاو" إلى

التبت وتمردت ضد أسرة "تانج"، وهو قرار ندمت عليه سريعًا، وتناوب الجانبان بين السلام والحرب منذ ذلك الحين، بيد أن التبادلات الاقتصادية والثقافية استمرت، تأثرت ثقافة "نانتشاو" بشكل واضح بثقافة أسرة "تانج"، في نظامها الإداري الرسمي والأهمية التي تعلقها على الكونفوشيوسية، وكل الكلاسيكيات الصينية، والخط، والمنسوجات كلها في طريقها إلى المنطقة.

مملكة بوهاي

كانت مملكة "بوهاي" نظامًا إقليميًّا قائمًا بين عامي 698 و926م أساسًا على يد شعب "سومو" في قبيلة "موهي" (أو ملجال، أو موجين)، وتغطي أراضيها منطقة شاسعة في شمال شرق الصين، بما في ذلك الجزء الشمالي الشرقي من كوريا الشمالية اليوم ومنطقة بريمورسكي في روسيا، وشكل "مو"، وهو شعب قديم يعمل في الزراعة وتربية الحيوانات والصيد، سبعة قبائل رئيسة في وقت لاحق، وكانت قبيلة سومو، التي احتلت المنطقة الجنوبية، الأكثر تقدمًا، في عام 698م، خلال عهد "وو تزي تيان"، أنشأ زعيم السومو دازورونج (داي جويونج) نظامًا جديدًا عرف في البداية باسم "تشن"، وفي 713م، السنة الأولى من عهد كايوان، اعترف الإمبراطور شوانزونج بإقليم تشن باسم مقاطعة هولهان، أدلى دازورونج المحافظ ومنحه لقب الأمير المحافظ بوهاي، ومنذ ذلك الحين، سميت المنطقة تحت سيطرة زعيم سومو ببوهاي، كانت بوهاي حكومة إقليمية ومؤسسة في نفس الوقت، وتأثرت بشدة بالحضارة الصينية، وقد استند كل من نظمها الإدارية والتعليمية إلى تلك الخاصة بأسرة "تانج"؛ كانت الحروف الصينية تستخدم عادة، وأصبحت الكونفوشيوسية الأيديولوجية الحاكمة وانتشرت البوذية الصينية على نطاق واسع.

ما وراء الإمبراطورية

لم تكن الصين فقط هي التي استشعرت التقدم الكبير الذي حدث في عهد أسرة "تانج"، فقد كانت العلاقات مع اليابان المجاورة ودية، وحتى قريبة؛

فكانت هذه فترة تبادل ثقافي كبير بين البلدين، إذ أرسلت اليابان العديد من المبعوثين إلى الصين، وكثير منهم من العلماء أو الخبراء الذين استوعبوا معرفة وثقافة "تانج" وأعادوها معهم، وكان الباحث الياباني والأرستقراطي، "كيبي نو ماكيبي"، الذي أدخل إصلاحات "تانج" السياسية وحتى الحروف الصينية، مثالًا رئيسًا، كما كان الراهب "كوكاي" الذي قدم البوذية الباطنية إلى اليابان، كما زار العديد من رهبان "تانج" اليابان كما بدأ الدين في الازدهار؛ وربما كان "جيانتشن" أكثرهم شهرة، ودعوا إلى اليابان على يد المجتمع البوذي لتعليم المذاهب البوذية.

كان هذا وقتًا لتطور البوذية بشكل عام، وبالتالي تمثل العلاقات الصينية الهندية، وكانت قصة الراهب "شوان زانج"، الذي ارتحل في 629م من "تشانج آن" للبحث عن الكتب البوذية الأصلية والمعنى الحقيقي للدين، تمثل معلمًا هامًّا في تطوره في الصين، فذهب إلى الهند، وعاد على طول الطريق الجنوبي لطريق الحرير في 643م، وكان معه أعداد كبيرة من الكلاسيكيات البوذية، هذه الرحلة التي تزيد على 25.000 كيلومتر وفرت الإلهام لمن بعده من تحفة مينج الأدبية، "رحلة إلى الغرب" بقلم "وو تشينج" (المعروفة أيضًا باسم "القرد" بعد الترجمة المؤثرة التي قام بها آرثر والي)، والتي حكت قصة سحرية للبحث عن الكتب المقدسة البوذية في السماء الغربية. هذه الفترة من التبادل الثقافي الكبير شملت أيضًا بلاد فارس (إيران الحالية)، مما أدى إلى وصول المانوية، الزرادشتية، والنسطورية، هذه المعتقدات كان لها تأثير كبير خلال عهد أسرة "تانج" وكان يشار إليها باسم "الأديان الخارجية الرئيسة الثلاثة"، وذهبت الصلات مع بلاد فارس لأبعد من ذلك؛ فقد سافر العديد من الفرس إلى الصين للعمل، حيث وجدت الأحجار الكريمة والمجوهرات، والمرجان، والتوابل، والأدوية، وكان رجال الأعمال الفارسيون أيضًا يضعون أعينهم على الكنوز الصينية، وتصدير تدفق مستمر من الحرير، والخزف، وغيرها من السلع إلى بلاد فارس.

إلى الغرب من بلاد فارس كانت داشي الإمبراطورية العربية التي أنشأها محمد، مؤسس الإسلام، والتي توسعت بسرعة إلى الخارج، وبحلول بداية القرن الثامن، كان العرب يسيطرون على معظم آسيا الوسطى حتى جبال بامير ونحو المناطق الغربية من "تانج" الصينية، تحاربت أسرة "تانج" والعرب باستمرار، وفي عام 751م، وقع الصراع النهائي بين الاثنين في تالاس (بالقرب من مدينة جامبيل الحالية في كازاخستان)، حيث مَنِي جيش "تانج" بهزيمة كارثية وانسحب من آسيا الوسطى، ومع ذلك، وعلى الرغم من القتال، فإن الروابط الاقتصادية والثقافية بين الاثنين لم تنقطع أبدًا، فبين عامي 651 و798م، أرسل العرب مبعوثين لأسرة "تانج" سبعًا وثلاثين مرة؛ في منتصف وبعد نصف عهد الأسرة، وسافر العديد من التجار من الجزيرة العربية إلى الصين للعمل، واستقروا في المدن الساحلية مثل "جوانج تشو" و"تشوان تشو"، حيث أدخلوا الإسلام، وكان للتواصل الثقافي بين الاثنين نتائج مهمة لبقية العالم؛ إدخال صناعة الورق، البوصلة، البارود، على سبيل المثال، وبالمثل، أدخلت إنجازات عربية في علم الفلك والرياضيات والطب، وغيرها من المجالات إلى الصين.

الحياة في عالم "تانج"

الزراعة

جعل الإمبراطور "تايزونج" الإنتاج الزراعي همه الرئيس، وانخفض عدد السكان انخفاضًا حادًّا في أعقاب حروب أسرة "سوي"، وكان هناك الآن قدر كبير من الأراضي القاحلة التي ليس لها أصحاب، وهو ما شجع الفلاحين على استعادتها، وفي الوقت نفسه، حافظ على النظام المتساوي - وهو نظام توزيع الأراضي الذي اعتمد في عام 485م خلال عهد أسرة وي الشمالية - حيث خصصت لأسر الفلاحين مساحة ثابتة من الأرض لزراعتها، ومن أجل زيادة تخفيف العبء عليها، أدخل نظام دفع الضرائب بقماش الحرير كبديل للتجنيد الإجباري، دون

قيود عمرية، وقد كفلت هذه التدابير وقت الإنتاج للمزارعين، ومن ثم تطورت الزراعة بسرعة، مما أدى إلى عكس القحط الذي حدث في السنوات الأخيرة من عهد أسرة "سوي" وضمن محاصيل جيدة بشكل استثنائي لسنوات عديدة.

واستمر هذا النهج التدريجي في عهد "وو تزي تيان"، وعززت نظام المساواة في الميدان وعينت خبراء لتجميع كتاب إرشادي عن الإنتاج الزراعي؛ فأصدرت مراسيم لتعزيز الزراعة وتربية دودة القز، وأعلنت أن تعزيز المسؤولين المحليين ينبغي أن يستند إلى إنجازاتهم في مجال الإنتاج الزراعي، وخلال فترة حكمها، كانت المخازن الوطنية مليئة بالحبوب، ويمكن نقلها عبر القنوات في جميع أنحاء البلد بسلاسة، كما أرسلت الجيش لزرع المناطق الحدودية التي لعبت دورًا مهمًّا في تعزيز دفاعها وفي تنميتها العامة، خلال عهد كايوان وتيانباو (713 - 756م)، تحت حكم الإمبراطور شوانزونج، تم توسيع الأراضي الزراعية إلى حد كبير بفضل استصلاح الأراضي على نطاق واسع، واستصلاح الأنهار المجففة والأراضي القاحلة، وبناء نظم الري والمحافظة على المياه، وكانت مشاريع الحفاظ على المياه سمة من سمات الأيام الأولى من حكم "تانج"، فبنيت السدود والخنادق والجرافات لتمكين ري مئات الآلاف من الـ"تشينج" (ويساوي واحد تشينج حوالي 0.058 هكتار)، مما أدى إلى زيادات هائلة في الإنتاج الزراعي.

وقد ساعدت كل هذه التقنيات والأدوات الزراعية الجديدة، وكانت زراعة الأرز مرتين في السنة أمرًا شائعًا بالفعل في الجنوب، ولكن كان يمارس بالتناوب زراعة الأرز والقمح في غضون سنة واحدة، وتطورت زراعة الأرز بسرعة في جيانجنان (الوادي السفلي جنوب نهر اليانجتسي)، حيث كان الفائض يشحن شمالًا؛ وبالتالي أصبح الأرز جزءًا من النظام الغذائي الشمالي الصيني، بالإضافة إلى الزيادات في التوت، والكتان، والفواكه، والأعشاب والمحاصيل التقليدية الأخرى، تم توسيع زراعة الشاي أيضًا نظرًا لشعبية ثقافة الشاي، وأصبح مصدرًا مهمًّا للدخل في السنة المالية لدرجة أن الأسرة فرضت احتكار الدولة على

مبيعات الشاي.

وكــان اختــراع محــراث الشــعاع المنحنــي (المعــروف أيـضًا باسـم محـراث جيانجدونج) أمرًا عظيمًا، فكان مناسبًا لحراثة حقول الأرز في جنوب الصين ويمثـل شيـئًا مـن الثـورة، وكـان هيكلـه معقـدًا يتـألف مـن أحـد عشـر مكـونًا؛ فبالمقارنة مع المحاريث السابقة، كان له ميزتان رئيستان؛ كونه أوسع؛ لذلك يمكن حرث مساحات أكبر من التربة؛ وشعاعه القصير المنحني، وحد من وزن الأداة وسـهل التعـامل معها، كـان قـادرًا علـى الحـرث العميق، وكـان مقيـاسًا للسيطرة على عمق الحفر، وكان قوسه الرشيق أيضًا جميلًا نوعًا ما، ولا يزال يستخدم في بعض المناطق الجنوبية اليوم، ظهرت أيضًا ساقية جديدة، تشبه عجلة الغزل مع أنابيب خشب أو الخيزران متصلة معًا وثابتة على العجلات، مثبتـة علـى تيـارات المياه أو الشلالات، كانت العجلات تدور باستمرار بفعل المياه المتدفقة، وبذلك تصل المياه إلى أنابيب للري.

خـلال عهد كايوان، شهدت أسرة "تانج" دخـلًا سنويًّا يقارب العشرين مليون "هو" (مقياس جاف) من الحبوب؛ وحوالي سبعة ملايين لفة من الحرير، وأكثر من عشرة ملايين دوان من القماش ونحو مليوني سلسلة من القطع النقدية، حتى كان الناس العاديون قادرين على تخزين الحبوب لعدة سنوات متتالية، ومع تطور الزراعة، بدأ السكان يزدادون أيضًا، وبحلول السنة الأخيرة من عهد كايوان، بلغ العدد الإجمالي للأسر المنتجة ما يقرب من ثمانية ملايين ونصف المليون، في حين بلغ عدد السكان نحو 50 مليون نسمة، وهي دورة تصاعدية، فقـد أدى النمـو السكاني إلى زيادة القوة العاملة الزراعيـة المتاحـة؛ ومع ذلك يمكن زراعة المزيد من الأراضي واستكشاف مناطق جديدة، وفي المقابل، كان لهذا كله أثر إيجابي حتمي على التجارة وتبادل السلع.

التجارة وتبادل السلع

كان الإمبراطور "تايزونج" الذي غير ميل الأسر السابقة لتشجيع الزراعة على

حساب التجارة، والآن سمح لكليهما بالازدهار، فنشأت المدن التجارية، بما في ذلك العاصمة "تشانج آن" والعاصمة الشرقية "لويانج"، وهناك عامل رئيس آخر هو أنه بالمقارنة مع عهد أسرة هان، كان لأسرة "تانج" سيطرة أكثر حزمًا وأكثر فعالية على المقاطع الغربية والوسطى من طريق الحرير، كان طريق الحرير شبكة معقدة من الطرق التجارية بدلًا من طريق واحد، وبينما استوعبت الإمبراطورية العديد من البلدات الصغيرة على طول الطريق، سافر الناس بسهولة أكبر، وليس فقط التجار والجنود، بل أولئك الذين يسعون إلى المعتقدات الدينية والتبادل الثقافي.

طريق الحرير، الذي تم افتتاحه خلال عهد أسرة "هان"، بلغ ذروته خلال عهد أسرة "تانج"؛ فتم نقل مجموعة واسعة من البضائع السائبة على طوله بين الشرق والغرب، مما جعله الممر الذهبي في العالم، كما توافد دبلوماسيون من العديد من الدول إلى الصين كما فعل عدد كبير من المهاجرين والأجانب الذين سعوا إلى دراسة الثقافة الصينية المتقدمة، ونتيجة لذلك، لا يزال من الممكن العثور على آثار ثقافة أسرة "تانج" في اليابان وكوريا الجنوبية والشمالية اليوم، وكان لطريق الحرير البحري أيضًا أهمية كبيرة؛ ففي عهد أسرة "تانج" التي وصلت إلى الخليج الفارسي، وبسبب التجارة البحرية المزدهرة، تم تشكيل لجنة تجارة بحرية في "جوانج تشو" لإدارة شؤون التجارة الخارجية خلال عهد الامبراطور "شوانزونج"، وتعد هذه أول هيئة صينية تنظم التجارة الخارجية، وفي الوقت نفسه، أصبحت يانجتشو وتشوانتشو وفوتشو ومينجتشو موانئ تجارية هامة.

في وقت مبكر من عهد أسرة "تانج"، واستمرار النظام القديم الذي مارسته أنظمة هان ووي، تم تنفيذ النشاط التجاري فقط في الأسواق المحددة، وكانت الأسواق تقع عادة في وسط مركز القيادة أو المحافظة، وكانت دائمًا محاطة بجدر وبوابات؛ وتبدأ الأنشطة التجارية عند الظهر وتغلق في المساء، حتى عهد أسرة "تانج" في وقت متأخر، ازدهرت أسواق جديدة، وخاصة في المدن

الجديدة في جنوب الصين، وظلت مفتوحة لساعات طويلة وكان هناك حتى سوق ليلية في العديد من المدن الكبيرة، وخارج المدينة، كانت الأسواق العادية التي بدأت في الظهور معروفة بالمعارض في جنوب الصين والمعارض الريفية في الشمال، وظهرت بنود تجارية جديدة: مكاتب الصرافين، بيوت آمنة لإيداع الأموال، مماثلة للبنوك الحالية؛ كان هناك أيضًا "المال الطائر"، وكان أقرب إلى الأوراق النقدية الحديثة، وشكلًا من أشكال الاختيار أو مشروعًا للتجار الذين باعوا بضائعهم للشركات التجارية في "تشانج آن".

بينما ازدهرت العديد من المدن - "يانجتشو" في "جيانجسو" و"بيتشو" في "سيتشوان" في ما بينها - لم تتمكن مدينة منهم أن تنافس العاصمة "تشانج آن"، فخلال فترة "تانج"، غطت مساحة أكثر من ثمانين كيلومترًا مربعًا، وتألفت من البيت الإمبراطوري، والمدينة الإمبراطورية، والضواحي، كانت المدينة الإمبراطورية تقع حول القصر إلى الشمال، وتقع مدينة القصر شمال ذلك، واحتلتها مختلف الإدارات والمكاتب الحكومية المركزية، وتضم المدينة الخارجية التي امتدت نحو الجنوب والشرق والغرب المناطق السكنية والأسواق، تم فصل كل منطقة سكنية بجدران مسورة تفتح وتغلق وفقًا لجدول زمني صارم، كانت المدينة المزدهرة تحتوي على أكثر من 4000 من المحلات التجارية في 220 تخصصًا تجاريًا، وعدد سكانها ما يقرب من مليون، وبصرف النظر عن كونها مدينة مشهورة على مستوى العالم ومركزًا للتبادل الثقافي بين الشرق والغرب، كانت "تشانج آن" بازدهارها رمزًا لازدهار أسرة "تانج" في ذروتها.

الاختراعات الرئيسة: الطباعة على الخشب والبارود

أصول الطباعة على الخشب غير معروفة على وجه التحديد، ولكن الأدلة تشير إلى أنها اخترعت خلال عهد أسرة تانج، كانت العملية بسيطة: صورة عاكسة أو نص محفور في خشب صلب جيد، مثل العنب أو الكمثرى، ثم يتم تنظيف الخشب بالحبر والضغط على الورق، وفي عهد أسرة "تانج" في وقت لاحق، تم

استخدام الطباعة على الخشب أكثر فأكثر، ووصلت إلى مستوى عالٍ من التطور، مما سمح بالحفاظ على العديد من جوانب الثقافة، وكان لهذه التقنية في الطباعة أيضًا تأثير عميق على بلدان أخرى، مثل كوريا واليابان.

في حين كان تطور الطباعة الخشبية نتيجة لممارسة طويلة، كان اختراع البارود محض حادث، ففي وقت مبكر من حقبتي الربيع والخريف والدول المتحاربة، كان الناس يتوقون للعيش إلى الأبد وسعوا إلى المخدرات التي يمكن أن تقودهم إلى الخلود، وتحدّث القصة الأكثر شهرة عن "تشين شي هوانج" (246 - 209 قبل الميلاد)، أول إمبراطور للصين، الذي أرسل شو فو بصحبة 600 من البنين والبنات الأبكار للبحث عن إكسير الحياة عبر البحر، وعندما فشلت الجهود، حاول الناس تحويل المعادن إلى ذهب لإطالة أمد الحياة، وفي هذه العملية، اكتشف الكيميائيون أن بعض الأدوية، مثل الكبريت والزرنيخ، كانت شديدة السمية؛ لذلك قبل استخدامها، يتم حرقها للحد من سميتها؛ إلا أن ذلك أدى إلى نشوب حرائق في بعض الأحيان، ويذكر كتاب واحد أن حرق الكبريت، ونترات البوتاسيوم، وثاني كبريتيد الزرنيخ الطبيعي، والعسل معًا، وكانت نتيجة التجربة بعد حرق وجه ويدي الخيميائيين، اندفعت النار عبر السطح وأحرقت المبنى بأكمله، وعمل الناس في نهاية المطاف على كيفية استخدام هذا الاحتراق العنيف، وبالتالي اخترع البارود، ووفقًا لبعض المصادر، كان أول سلاح مصنوع من البارود يسمى "سهم النار" وكان يستخدم خلال عهد أسرة "تانج"، ففي عام 868م، عندما هاجم "بانج شون سوتشو في انتفاضته، أطلق أسهم النار على الأكواخ القش المحيطة بأسوار المدينة.

الطب والدواء

كان عهد أسرة "تانج" أيضًا وقتًا للتقدم الطبي، وكان "صن سيمياو"، الذي عاش في مرحلة ما خلال أسرتي "سوي" و"تانج"، طبيبًا عاديًّا ذا عمل استثنائي، وهو كتاب "وصفات تساوي ألف قطعة ذهبية"، وهو يناقش النظرية الأساسية للطب الصيني التقليدي، وتشخيص وعلاج أمراض مختلفة، ويسجل العديد من

الأدوية والوصفات الطبية وكيفية أخذها، ويصف العلاجات، والنظام الغذائي، والتدليك، وطرق أخرى للبقاء في صحة جيدة، كما يلخص أهمية الصحة العامة والنظافة الشخصية للوقاية من الأمراض، ويناقش أيضًا التدريب المهني للأطباء وقضايا أخلاقيات مهنة الطب، وهذا الكتاب معروف بأنه موسوعة للطب السريري في الصين.

وكان عالم طب مؤثر آخر في عهد "تانج" هو "وانج تاو"، ففي 752م، تحت حكم الإمبراطور "شوانزونج" وضع كتاب "أسرار طبية يحتفظ بها المسؤول"، والذي كان في الأساس تجميعًا لجميع الأعمال الطبية التي ظهرت حتى وقته، وعلق حكام "تانج" أهمية كبيرة على الطب، فخلال عهد الإمبراطور "جاوزونج" من أسرة "تانج"، ظهر "طب الأعشاب في أسرة "تانج"، وكان أول عمل من هذا القبيل تنشره الدولة وهو مليء بالرسوم التوضيحية كما أنه تلخيص منهجي لكل الأدوية العشبية قبل فترة "تانج"، وأصبح من كتب الصيدلة التي وجدت طريقها إلى اليابان وبلدان أخرى، وأعقبتها أعمال مماثلة أخرى.

الفلك

كان عالم الفلك الأكثر شهرة في عهد أسرة "تانج" راهب يسمى "يي شينج"، ففي 724م، أجرى قياسات فلكية على نطاق واسع وقام بحساب طول الدرجة الأولى من الزوال الأرضي لتكون 129.22 كيلومترًا، وعلى الرغم من أن هذا يختلف عن قياس 111.2 كيلو مترًا الموجود اليوم، إلا أنه لا يزال القياس الأول في العالم الذي تم الحصول عليه باستخدام المنهج العلمي، وبالتعاون مع "ليانج لينجزان"، صنع "يي شينج" أيضًا أداة كسوف يمكنها أن تراقب حركة الشمس والقمر، واستخدم هذا لتحديد مواقع 150 من النجوم ووضع أول نظرية في العالم في حركة النجوم، وخلال فترة الإمبراطور "شوانزونج"، تم إجراء العديد من التنبؤات بكسوف الشمس، لكنها لم تكن دقيقة بسبب استخدام تقويم "ليند" الذي تم إنشاؤه في 665م؛ لذلك أمر الإمبراطور "يي شينج" للإشراف على صنع واحدة جديدة، وأدى ذلك إلى إنشاء تقويم "دايان"،

الذي تم تنقيحه، بعد إدخاله في كتاب مقسم إلى سبعة فصول، وكان هيكل تقويم "دايان" فعالًا للغاية حتى السنوات الأخيرة من عهد أسرة "مينج" (1368 - 1644).

ثقافة وحرف أسرة تانج

الشعر

وكان الشعر من عهد الأسر الجنوبية و"سوي" يميل إلى أن يكون اصطناعيًّا نوعًا ما، وهي ميزات ورثتها "تانج" لكن هذا كان سيتغير قريبًا؛ ففي ظل محبة الإمبراطور "تايزونج" للشعر، تحول نحو أسلوب البلاط، أرستقراطيًّا، ومتكلفًا إلى حد ما، وقد اتخذ الشعراء المعروفون، بما فيهم "سونج تشيوين" و"شين تشوانكي"، خطوات كبيرة من حيث النمط النغمي والتقنية الشعرية، ووضعت بعض القواعد الأسلوبية الرئيسة في هذه الفترة، مما أدى في نهاية المطاف إلى تشكيل الأحرف الخمسة أو السبعة أحرف في نظم البيت، ومع ذلك، وبالنظر إلى أن هذا الشعر كان في معظمه مكتوبًا بقلم المسؤولين الإمبراطورين، فكان يقتصر على وصف حياة البلاط ورثاء أولئك الموجودين فيه.

تم تصحيح هذا بقلم "أبطال "تانج" الأربعة الأوائل" وهم "وانج بو"، و"يانج جيونج"، "لو تشاولين"، و"لو بينوانج" وغيرهم مثل "شن تزي آنج"، بذل الأبطال الأربعة كل جهد لوضع الشعر على طريق جديد من العاطفة والنشاط، فكانت أبيات "وانج بو" "إذا كان لديك أصدقاء يعرفون قلبك، فلن تبعدكم المسافات"، في "وداع القاضي دو إلى محل عمله" كان نموذجًا من نهج جديد وصادق، أما "شن تزي آنج"، المعاصر، فقد حث على العودة إلى العصور القديمة، "عند صعود البرج في يوتشو" تعبر عن المشاعر التي صمدت عبر العصور:

أين الرجال العظماء في الماضي؟

وأين أبناء السنوات المقبلة؟

السماء والأرض إلى الأبد باقية.

وهنا الآن أنا وحدي أذرف الدموع.

وضع هؤلاء الشعراء أساسًا قويًّا لكل من النمط النغمي ومحتوى الشعر، مما أدى مع الوقت إلى مستوى شعر "تانج" الرفيع.

مع شعر "تانج" رفيع المستوى نتج عدد من الحركات الجديدة، إحداها كانت مجموعة وصف المناظر الطبيعية والشعراء الرعويين؛ وكان "وانج وي" و"منج هاوران" من ممثليها رئيسين، وكان "وانج وي" طموحًا في سنواته الأولى، ولكن بعد ذلك استقر في نصف عزلة وركز على عالم الطبيعة، وحيث كان بوذيًّا من طائفة "الزن"، فعكست قصائده كلًّا من الطبيعة وطائفته، وحياته الانتقائية المنعزلة: "كنت أذهب إلى نهاية تيار ما أو نافورة، وأكتفي بالجلوس والنظر إلى السحب ترتفع فوق الجبل".

ومثل "وانج وي"، عاش "منج هاوران" أيضًا في عزلة ولكنه جاء من خلفية أكثر فقرًا، فكان شعره بالتالي أكثر واقعية ومتقشفًا، ولا تزال قصيدة "صباح الربيع" تعلم للأطفال الصينيين اليوم:

في هذا الصباح الربيعي أرقد في السرير..

لا أستيقظ حتى تصيح الطيور..

ترى بعد ليلة واحدة من الرياح والمطار..

كم سقط من زهور!

وكان شعراء مجموعة شعراء الحدود والحصن أكثر طموحًا وسعيًا للحصول على الشرف العلمي والمناصب الرسمية، وهذا ما دفعهم إلى زيارة المناطق

الحدودية، ومواجهة الخطر والمشقة، وكتابة الشعر المثير لمشاعر الصرامة والحزم والشجاعة على الحدود، واشتهر اثنان من هؤلاء الشعراء وهما "جاو شي" و"تسين شين"، كانت قصائد "جاو شي" رسمية ومتقلبة، أما "سين شين"، من ناحية أخرى، فصور الحياة الغريبة والمناظر الطبيعية في المناطق الحدودية بحماس كبير.

وبعيدًا عن كل هؤلاء الشعراء وحركاتهم، لا يوجد تمثيل أفضل لشعر "تانج" رفيع المستوى من "لي باي"، الشاعر الخالد (المعروف أيضًا في الغرب باسم لي بو)، أنفق "لي باي" سني المراهقة في العزلة، والتجول وممارسة الطاوية، كان بطبيعة الحال روحًا حرة وطليقة؛ وظهر هذا من خلال شعره الذي كان جريئًا، ومليئًا بالخيال، وإيجابيًا: "السماء أعطتنا المواهب، ونحن لم نخلق عبثًا، ألف عملة ذهبية تنفق، يعود أكثر منها مرة أخرى "، ويمكن لأبياته أن تكون أيضًا بارعة ورشيقة، وتعد قصيدة "في ليلة هادئة" واحدة من روائعه:

أمام سريري بركة من الضوء

آه أهذا ثلج على الأرض؟

أنظر إلى أعلى وأجد القمر مشرقًا.

فأنحني، ويغرقني الحنين إلى الوطن.

وكان الممثل الرئيس الآخر لشعر "تانج" رفيع المستوى هو الحكيم الشاعر، دو فو (ويسمى أيضًا تو فو في الغرب)، ولد "دو" في أسرة تقليدية أيدت القيم الكونفوشيوسية، وكان مواليًا للإمبراطور في حين أعرب عن بالغ قلقه لمصير البلد وشعبه، وكانت قصائده سجلًا حقيقيًا للحياة أثناء وحول تمرد "آنشي"، وقد أشير إليها على أنها "تاريخ شعري"، وقد وصفت قصائد مثل "ثلاث قصائد عن المسؤولين الصغار" و"رحلة إلى الشمال" أحداثًا تاريخية كبرى مكثفة مشاعر غنائية استولت على قلب الأمة، وأثنى أيضًا على الأبيات التي نظمها

"دو فو"، وخاصة قصائده ذات الأبيات السباعية المنظومة، كان ماهرًا في استخدام تقنيته لخلق انطباع طبيعي دون جهد، وفي استيعاب القصائد المعاصرة والقديمة من الأجيال السابقة، وخدم "دو فو" كجسر بين شعر "تانج" رفيع المستوى ومتوسط المستوى.

كانت فترات منتصف وآخر عهد "تانج" فترات من التراجع، حيث كانت فترة من الاضطرابات السياسية، فتم نقل السلطة المركزية إلى المحافظين الإقليميين الانفصاليين، ومع ذلك، بنى شعراء منتصف عهد "تانج" على ميراثهم من فترة ازدهار "تانج"، واختار البعض، مثل "تشيان تشي"، "ووى يينج وو"، و"ليو تشانج تشينج" الانسحاب من الحياة العامة، سعيًا وراء العزاء في جمال الجبال والأنهار وتجمعات الشعراء والشرب، وكتب آخرون، مثل "ليو يوشي" و"ليو زونجيوان"، الذين انهارت حياتهم السياسية، قصائد الاكتئاب والحزن، أو أعربوا عن مثابرتهم في مواجهة الشدائد، غير أن مدرستين رئيستين أخريين أخذتا طريقًا مختلفًا، فطالبت مدرسة "هان - منج"، التي قادها بشكل رئيس "هان يو" و"منج جياو"، بالشعر الذي "صرخ ضد الظلم" وأعطى تعبيرًا حقيقيًا للمشاعر والجمال والغرابة، وكان هان يو فخورًا، كريمًا، جدليًا، وجسد شعره صفاته، في حين أن شعر "منج جياو" كان غامضًا وبعيدًا، وانضم إليهم آخرون مثل "جيا داو" و"لي هي"، وكلاهما كان متحمسًا جدًا لفنه وهاجس استخدام اللغة والصورة.

وفي الوقت نفسه، ظهرت مدرسة "يوان باي" الشعرية، وتتميز بسعيها للواقعية وجاذبيتها للشخص العادي، من بين جميع شعرائها، كان "باي جوي" الأكثر نجاحًا، وكتب العديد من القصائد العاطفية العظيمة مثل "أغنية من الندم الأبدي"، والأهم من ذلك، ربما، كان له "قصائد كتبت في منطقة تشين" و"قصائد يويفو الجديدة"، والتي كانت انعكاسًا عميقًا لبؤس الطبقات الدنيا والتعرض للفساد بين النبلاء، في حين كان هناك المزيد من الازدهار الشعري في عمل أشخاص مثل "دو مو" و"لي شانجين"، وشهدت فترة أواخر "تانج" سقوطًا

تدريجيًّا لإمبراطورية "تانج"، ومعها انحدر الشعر، ولكن كان له تأثير عميق على الشعر في وقت لاحق والأدب بشكل عام، وأصبح الجسر إلى الماضي لأجيال من الصينيين.

الروايات

عندما كان شعر "تانج" في ذروته، كانت الرواية الصينية الكلاسيكية القديمة تتطور أيضًا، وقد مرت الروايات الكلاسيكية الصينية بمراحل طويلة من التطور، مع جذورها في الأساطير والحكايات من العصور القديمة النائية، والخرافات العلمية، والأدب التاريخي، وكانت قصص الخيال من فترة الأسر الستة إنجازًا، لكنها كانت مجرد جنين للرواية الحقيقية، وبظهور حكاية اللغة التانجية الكلاسيكية ظهر أخيرًا نضج الروايات الصينية الكلاسيكية.

لبعض الوقت، كان هناك عدد قليل من الأعمال ذات تأثير كبير؛ ومن ضمن الأعمال التي نجت "المرآة القديمة" بقلم وانج دو، و"القرد الأبيض" بقلم مؤلف مجهول، وقد كتب تشانج تشو "جولة في كهف الحوريات في الصين"، بيد أن العلماء الصينيين اكتشفوا مؤخرًا نسخة في اليابان، وتحتوي على أكثر من 10.000 حرف صيني، مما يجعلها أطول من كل حكايات "تانج الكلاسيكية، و"كهف الحوريات" هو في الواقع بيت للدعارة، يصف العمل قضاء بطل الرواية ليلة مع امرأتين، في الشرب والسعي للمتعة، وهكذا كان أول انعكاس للحياة غير المقيدة والطائشة في الأدب في وقت مبكر من عهد "تانج، كتبت بطراز أحرف النثر الأربعة أو الستة أحرف بالتوازي، وكانت لغتها منمقة وخشنة؛ ولكن في نهجها الواضح والحيوي وموضوعها الجديد تميزت عن القصص الخارقة لعهد السلالات الستة وأصبحت مثالًا مباشرًا للحكايات الكلاسيكية في لغة "تانج الوسطى.

كان عهد "تانج" المتوسط مرحلة غنية ظهرت فيها الأساطير والروائع بأعداد كبيرة؛ ومعظم الأعمال التي اعتبرت في ما بعد أمثلة ظهرت في هذه الفترة،

وتستند "قصة ليو يي" بقلم "تشاوي" على عصر "يفنج" الذي حكم فيه الإمبراطور جوزونج (676 - 678م)، ويواجه "ليو يي"، وهو عالم شاب فشل في الفحص المدني الإمبراطوري، ابنة ملك التنين لبحيرة دونجتينج التى أجبرت على رعاية أغنام القطيع، ويقرر "ليو يي" ببسالة تسليم رسالة نيابة عنها، وبالتالي إنقاذها من مصيرها، ونتيجة لذلك، يقترح عمها أن "ليو يي" يجب أن يتزوجها، ولكن صاغ الاقتراح بطريقة جعلت "ليو يي" يرفضه، وفي وقت لاحق مع ذلك، فإن الأميرة التنين تتحول بشكل غامض إلى الآنسة "لو" من "فانيانج" وتجد السعادة مع "ليو يي" بعد كل شيء، هذه الحكاية لليو يي الفاني والأميرة التنين الخالدة هي حكاية حلوة وغريبة قليلًا عن الفروسية والمحبة، وقد اكتسبت شخصية "ليو يي"، الفارس الكريم والشجاع شعبية كبيرة على مر العصور.

من العديد من قصص الحب الأخرى، والأكثر شهرة هي "قصة لي وا"، "قصة ينجينج"، وقصة "هو شياو يو"، اللاتي كتبهن "باي شينجيان"، "يوان تشن"، و"جيانج فانج" على التوالي، كان "باي شينجيان" شقيق الشاعر "باي جوي" الأصغر، في "قصة لي وا"، يسافر شاب من "شينجيانج" إلى العاصمة لإجراء الفحص المدني الإمبراطوري ويقع في حب المحظية الشهيرة "لي وا" التي تبادله مشاعره، وبعد أن أنفق كل أمواله عليها، ألقي في الشارع بقلم صاحبة بيت الدعارة، وتساعده "لي وا" سرًا، وتحثه على بذل جهد حازم للدراسة، وبفضل تفانيها، ينجح الشاب في نهاية المطاف بالفحص، وعند هذه النقطة، تقدم "لي وا" على قطع العلاقة بحيث يكون حرًا في الزواج من فتاة أخرى جيدة، ومن الناحية المثالية، يعبر العمل عن تعاطفه مع مصير المحظيات المؤسف؛ فتظهر البطلة "لي وا" على مدى الرواية متمتعة بالشرف والشجاعة والإيثار والتضحية بالنفس.

في حين كان لـ"قصة لي وا" نهاية سعيدة، تعتبر "قصة يينج يينج" بقلم "يوان تشن"، وهو صديق جيد لـ"باي جوي"، مأساة حب حزينة، فيقابل "تشانج" -

البطل - "تسوي يينج يينج" في معبد الخلاص العالمي، وعندما يحدث تمرد، يحمي "تشانج" أسرة "تسوي" ويبدآن علاقة حب، ومع ذلك، بعد اجتيازه الامتحان الإمبراطوري المدني في العاصمة، يتخلى عنها دون رحمة، واصفًا إياها بالآفة والشيطان، يصور العمل رغبة الفتيات في الحب في تلك الأوقات، ومأساة تدمير الحب بقسوة المجتمع، تمت إدانة "تشانج" بصفته شخصية منذ ذلك الحين، في حين أثار مصير "يينج يينج" البائس الكثير من الشفقة لأنه ألهم اثنتين من الدراما اللاحقة، "نسخة دونج لرومانسية الغرفة الغربية" و"رومانسية الغرفة الغربية"، وكلاهما له نهاية سعيدة يتزوج فيها الحبيبان في نهاية المطاف. وقد أعقبت "قصة يينج يينج" مأساة حب أكبر، وهي "قصة هو شياو يو" بقلم جيانغ فانج، وكانت "هو شياو يو" أيضًا محظية ولكن بدرجة أقل، وقد تخلى عنها "لي يي"، الذي تعهد بالتمسك بها في السراء والضراء للزواج من امرأة نبيلة، وتفتقده "هو شياويو" لدرجة أن تمرض، ويتجنبها "لي يي" حتى يجره فارس يرتدي الأصفر بشراسة إلى فراش مرضها، ولكنها تموت، وبعد وفاتها تصبح شبحًا شرسًا ينتقم من "لي يي"، وبهذه الطريقة تعتبر هذه حكاية أخلاقية قوية.

سخرت القصص الكوميدية من المجتمع من خلال الخرافات والأوهام، ومن الأمثلة على ذلك "حلم الوسادة" بقلم "شين جيجي"، الذي يصور تجربة "لو" الطموح الذي ينام في نزل، ويحلم أنه يتمتع بالثروة والمنصب ولكن يستيقظ ليجد أنه كان مجرد حلم قصير جدًا لدرجة أن الدخن الأصفر الذي كان صاحب النزل يطهيه عندما سقط نائمًا لا يزال غير ناضج، وهذا هو مصدر المثل الصيني "حلم دخن أصفر"، حكاية أخرى هي "حاكم الفرع الجنوبي" بقلم "لي جونجزو"، التي تحكي قصة عن حارس يدعى "تشونيو فين"، الذي يحلم أنه أصبح حاكمًا في "المملكة العظمى المسالمة لشجرة العلماء"، ليستيقظ فقط ويدرك أن هذه المملكة ما هي إلا عش نمل، ويسخر كل من هذه الأعمال من اللهاث خلف المناصب الرسمية والشهرة بين علماء أسرة "تانج".

بعد عصر "تانج" الأوسط، بدأت حكايات اللغة الكلاسيكية في الانخفاض، واختفت قصص الحب من المشهد واستعيض عنها بحكايات عن الفروسية، وكانت واحدة من الحكايات الأكثر شهرة هي "حكاية الرجل ذو الشارب المجعد" بقلم "دو جوانتينج"، وتحكي قصة "هونجفو" خادمة "يانج سو"، وهو جنرال قوي خلال عهد أسرة "سوي"، والتي تهرب مع "لي جينج"، وعلى الطريق، يقابلان مبارزًا ذا شارب مجعد يدعى "تشانج"، ويقع زمن العمل في وقت اضطراب حيث يتنافس العديد من أجل السلطة؛ ويتمتع "تشانج" بالطموح في البداية، لكنه يدرك أنه ليس ندًّا لـ"لي شيمين"، إمبراطور "تانج" في المستقبل؛ لذلك فإنه يودع "لي جينج" و"هونجفو" ويعود إلى الشرق، حيث يحكم العديد من الجزر ويصور كفارس بطل، وأصبحت تماثيل "تشانج" و"لي جينج" و"هونج فو" تعرف باسم "الشجعان الثلاثة"، وقد تم تأليف حكاية مسرحية بقلم كتاب المسرح اللاحقين.

فن الخط

من الأيام الأولى من الأسرة كان أي شخص يريد الحصول على رتبة رسمية يجب أن يكون متفوقًا في الخط، وكان واحدًا من ستة مواد في الأكاديمية الإمبراطورية، وكان "لي شيمين" - الإمبراطور "تايزونج" - داعمًا قويًّا للفن الذي رفعه أيضًا إلى آفاق جديدة، واستخدم الخط المتدفق والمائل والختم والكتابي ولكن كان خط الشعب، والقواعد الجديدة المرتبطة به، هو الذي شهد أعظم التقدم. وظهر "معلمو الخط العادي الأربعة " وهم "أويانج شون"، و"يو شينان"، و"تشو سويليانج"، و"شوي جي"، وكان خط "أويانجج شون" معروفًا بضرباته الدقيقة، وكان عمله "نقش الربيع الحلو في قصر جيوشنج على لوح" مكتوبًا طبقًا للأمر الإمبراطوري عندما كان في سن السادسة والسبعين، وكانت الحروف على اللوح مكتوبة بدقة، بهياكلها المدمجة والرصينة، وبولج في رسم كل جانب من الخط حيث أصبحت الحروف الكبيرة أكبر، والصغيرة منها أصغر، والطويل أطول، وكانت الشجاعة الفنية التي استغرقها القيام بذلك هي التي

جعلت القطعة معلمًا في تاريخ الخط العادي.

كان نهج "يو شينان" هو اتباع الطبيعة وعدم وجود قيود، وكان قادرًا على تقديم الأناقة دون جهد ضمن حدود قواعد صارمة، وأنشأ تحفته "لوح في معبد كونفوشيوس" عندما كان في التاسعة والستين، وأيد "تشو سويليانج"، طالب "يو شينان"، القواعد بشكل أكثر وضوحًا من "يو شينان" أو "أويانج شون"، وتعلم من كل من الأسطوانات وكتب النسخ واستخدم مزيجًا من الأساليب من كل من شمال وجنوب الصين، وكانت تحفته "مقدمة إلى التعاليم المقدسة في باغودا معبد الإوزة البرية" وكتبها عندما كان في الثامنة والخمسين؛ وتتميز حروفها بالأناقة والطلاقة والحيوية، والتي تبين جوانب كل من الخط المقدس والمتدفق.

وكان الرابع من سادة الخط هو "شوي جي"، الذي تعلم بشكل رئيس على يد "تشو سويليانج"، كانت تحفته "لوح لسينشينج"، مكتوبًا عندما كان في السابعة والخمسين، وعرفت بجمالها النادر، وأشاد "دو فو" بخط "شوي جي" ووصفه بأنه نحيل وقوي ومعبر.

واستمرت خطوط فترة "تانج" المبكرة إلى حد كبير في وسط "تانج"، لكن الخطاط الرئيس في هذه الفترة كان "يان تشن تشينغ"، الذي ابتكر بجلب تقنيات الخط العادية إلى خط الختم، وبفضل الفرشاة الغنية والفعالة التي كان من السهل السيطرة عليها والشفافة، ظهر خط "يان" العضلي، ومن ثم فقد عرف بـ"عضلة يان"، وكانت تحفته هي "لوح من معبد الكنز الوفير" الذي تم إنشاؤه عندما كان في الرابعة والأربعين. في هذه الفترة، ظهر سيد كبير آخر للخط العادي وهو "ليو جونجتشوان"، وتشمل أعماله "لوح معبد أعماق الغموض البوذي" ولوحة تحكي جولة الإمبراطور "ووزونج" التفتيشية إلى معسكر جيش "شينس" الشمالي"، تم تنظيم حروفه بدقة، وكانت ضربات فرشاته حادة وزاوية، وأسلوبه قوي، وبالنظر إلى أن عمله نافس عمل "يان تشن تشينج"، فكان يشار إليهم معًا بـ"عضلة يان وعظام ليو".

وتطور الخط المتدفق أيضًا بشكل ملحوظ خلال فترة "تانج"، ونظرًا لحب الإمبراطور "تايزونج" لأعمال "وانج شيتشي"، فقد تخصص العديد من معلمي الخط الآخرين، بما في ذلك الإمبراطور نفسه في هذا الخط، وكان "يان تشن تشينج"، محترفًا للغاية في الخط العادي، ويتقن أيضًا الخط المتدفق، فقد أنهى عمله "خطاب جنازة لابن أخي"، وهو مليء بالحزن في جلسة واحدة، وجاءت لتكون أفضل مثال على الخط المتدفق، تالية فقط لـ"مقدمة للقصائد التي ألفت في حديقة الأوركيد" بقلم "وانج شيتشي".

ومن بين جميع أنماط الخط، كان الخط المائل هو الوحيد الذي ينافس حقًّا الخط العادي خلال عهد أسرة "تانج"، عمل خطاطون مختلفون لتحسينه، ولكن كان "تشانج شو" و"هويسو" هما اللذان اتخذا نهجًا أكثر إبداعًا في ذلك، مضفين عليه روحًا عصرية مبتكرة مما خلق نسخة جديدة وأكثر حرية، وكان "تشانج شو"، والمعروف باسم "تشانج المجنون"، يدور في المكان عندما يكون سكرانًا، ويلتقط الفرشاة ويكتب قطعة ما على عجل، فعلى سبيل المثال، كتب عمله "نموذج خط بعنوان أربعة قصائد قديمة" بجرأة، كما لو كان كتب مرة واحدة، وتبع "هويسو" "تشانج شو"، وأيضًا تمتع بالكتابة وهو مخمور، كانت ضربات فرشاته ممتلئة ورائعة، مثل عجلات دائرة تدور دون توقف، وكان عمله الأكثر شهرة "السيرة الذاتية" غير مقيد ومليئًا بالحيوية ومثالًا ساحرًا على إبداع الخطاط المحموم.

على الرغم من كونهما أقل أهمية، فإن خط الختم الكتابة المقدسة أيضًا أخذت مظهرًا جديدًا خلال عهد أسرة "تانج"، فقد جلب "لي يانجبينج" خط الختم إلى الذروة من خلال خلق أسلوبه الخاص: مرن ورشيق، مع قوة بسيطة وعمود فقري ثابت، وكان عمله "لوح القبور الثلاثة"، وفي الوقت نفسه، كان الخط المقدس يكتب على يد مجموعة متنوعة من الخطاطين.

الرسم

كان حكام أسرة "تانج" ذوي سياسة ثقافية متسامحة ومفتوحة، مما سمح بوجود ثلاثة ديانات في وقت واحد، وقد سمح هذا للرسم، وكذلك الخط، بالصعود لآفاق جديدة، ورث شكل رسم في هذا الوقت مجموعة جيدة من تقاليد أسر "هان" و"وي"، في حين تضمن مهارات من رسوم المناطق الغربية وغيرها، وكان أسلوب هذه الفترة مميزًا وباذخًا، وكان من أهم الفنانين "يان ليبين"، الذي خلق صورًا حية للمعاصرين والشخصيات التاريخية: حيث تصور لوحة "الإمبراطور "تايزونج" يستقبل مبعوث توبو"، على سبيل المثال، بأمانة حدثًا تاريخيًا مهمًا وهو تحالف "تانج" والتبت، والذي تلاه زواج الأميرة "ونتشينج" من "سونجتسان جامبو".

ومن الشخصيات الرئيسة الأخرى "وو داو تزي"، الذي على عكس "يان ليبين"، كان رجلًا من الذين ارتقوا إلى النضج الفني من خلال التعلم من الفنانين والنحاتين الشعبيين، وكان يرسم أساسًا الجداريات البوذية والطاوية التي بلغ عددها أكثر من 300، وكانت أشكاله مليئة بالحياة؛ فتبدو طيات ملابسهم كأنها ترفرف بلطف، وهو التأثير الذي اشتهر به، وكان لإعادة رسم لوحة "الملك السماوي يعرض طفلًا"، والتي فقد أصلها للأسف، تأثير عميق على الجداريات البوذية والطاوية في وقت لاحق.

وكان رسم المناظر الطبيعية قد نضج بالفعل بحلول عهد أسرة "تانج"، والأمثلة على هذه الفترة هي في الغالب صور بانورامية للجبال والأنهار والحجارة والأشجار، وتم اختراع أو تطوير الحبر الأسود والأخضر المخفف وغيرها من التقنيات، وكانت الشخصيات الرئيسة "لي سيشن" وابنه "لي تشاو داو" و"وو داو تزي" و"وانج وي"، ساعد "لي سيشن" وابنه على أخذ رسم صور المناظر الطبيعية باللونين الأسود والأخضر إلى مستوى جديد؛ وكانت لوحات "لي سيشن" من المخابئ والأماكن المعزولة، وتميزت بضربات فرشاة دقيقة وأسلوب دقيق، أما "لي تشاوداو"، فقد اتبع خطى والده، ورسم بشكل مماثل

الأشكال والألوان تفصيليًا، ولكن بخطوط أدق وأكثر روعة.

كان من الشائع للفنانين أن يكونوا متعددي المواهب، فقد استكشف "وو داو تزي"، الذي كان يعرف بشكل رئيس برسمه للأشخاص طرقًا جديدة في رسم المناظر الطبيعية، وخلق "نمطًا متفرقًا" جريئًا وغير مقيد، وتقول الأسطورة إنه خلال عهد "تيانباو"، كلف الإمبراطور "شوانزونج" "وو" بتقديم رسومات في "شو" (سيتشوان اليوم)، ولدى عودته، رسم "وو" منظر نهر جيالينغ الذي يبلغ طوله أكثر من 150 كم في يوم واحد فقط، وهكذا تم تكريمه على أنه "سيد الرسم" على يد الأجيال اللاحقة، وأصبح يحظى باحترام الأب الروحي للفنانين الشعبيين اللاحقين لإنجازاته الهائلة في رسم كل من الأشخاص والمناظر الطبيعية، كما كان "وانج وي"، الشاعر والبوذي المتدين، رسامًا أيضًا، وركز على تقنية الحبر المخفف، وعكست ضربات فرشاته الناعمة الطبيعية أسلوب حياته المنعزل، كانت تركيباته واسعة ورشيقة، وكان لأسلوبه تأثير عميق على اللوحة الأدبية، التي أصبحت السائدة في العصور اللاحقة.

وكان النوع الآخر الذي ازدهر خلال عهد أسرة "تانج" هو رسم الأزهار والطيور؛ فكان أكثر من ثمانين من الرسامين المتخصصين في هذا النوع يظهرون في السجلات، ولكل منهم تخصص، فتخصص "شوي جي" في رسم الغرنوق، أما "تساو با" و"هان غان" فتخصصا في الخيول، وقد طور هؤلاء الرسامون مهاراتهم عن طريق المراقبة الدقيقة لهياكل جسم الحيوانات، وقد وضع العمل الذي تم في هذا الوقت الأساس لمزيد من تطوير هذا النوع خلال الأسر الخمس وأسرة "سونج" (907 - 1279).

الموسيقى والرقص

كانت الفترة الأكثر نجاحًا في تاريخ الموسيقى والرقص في الصين القرن من أواخر عهد أسرة "سوي" حتى ذروة أسرة "تانج"، وقد انتشرت الموسيقى الانتقائية المثيرة، ومعاهد الرقص الكبيرة والعروض الحية الكبرى؛ ويظهر

تنوعها وروعتها في قصائد "تانج" التي وصلتنا اليوم، إضافة إلى اللوحات، والتماثيل السيراميك لفناني الأداء، وبشكل استثنائي، في جداريات كهوف "موجاو".

رأت أسرة "تانج" أن الموسيقى والرقص أصبحت محبوبة على نطاق واسع ليس لدى الأسر المالكة والنبيلة فحسب، ولكن أيضًا لدى الناس العاديين، وفي مناسبات مثل السنة القمرية الجديدة، أو المآدب أو الطقوس الدينية، كانت هناك عروض على جميع مستويات المجتمع، وكان العديد من أباطرة "تانج" من الموسيقيين، ويقال إن "لي شيمين" (الإمبراطور "تايزونج") ألف وأخرج "الأمير تشين يخترق خطوط العدو" وأن "لي لونغجي" (الإمبراطور شوانزونج) قام بمراجعة "رقصة زي قوس قزح"، وعلاوة على ذلك، فإن العديد من محظيات الأباطرة كان لديهن مهارات لا مثيل لها؛ فالسيدة "يانج"، التي كانت محظية من الدرجة الأولى للإمبراطور "شوانزونج"، كانت موسيقية وراقصة بارعة، وقد قيل حتى أنه عندما كان الحاكم العسكري الإقليمي ذو الوزن الزائد، "آن لوشان"، ذا مرونة كبيرة عندما يقوم برقصة هوشوان (والتي تعني حرفيًا "الرقص الإثني المتحمس")، وكثر في "تشانج آن" العاصمة الموسيقيون المحترفون والراقصات اللواتي يؤدين في التجمعات، وقد حضرها النبلاء، والمسؤولون، والأدباء وجميع العاملين فيها بانتظام، في حين أن حتى قواعد الجيش المحلي، والإدارات السياسية والمنظمات المدنية احتوت على مجموعات موسيقية ورقص.

وفي عهد الإمبراطور "شوانزونج"، تم تطوير المؤسسات الملكية للموسيقى والرقص بشكل كبير، فأنشأ الإمبراطور فرقة أوبرا في البلاط، حيث اختار عدة مئات من الفنانين الذكور والإناث الممتازين، وتولى تدريبهم بنفسه، وكانت هناك مدارس أخرى خارج البلاط استقطبت عددًا كبيرًا من المغنين والراقصين والمسرحيين الموهوبين الذين تلقوا أجورًا جيدة للممارسة والأداء، ولعبت هذه المنظمات دورًا مهمًا في التطور السريع للموسيقى والرقص في عهد أسرة

"تانج".

في سلالات "سوي" و"تانج" (581 - 907)، كان النوع الرئيس من الموسيقى يسمى "يان"، ويسمى أيضًا موسيقى مأدبة البلاط، والتي كانت تعزف كما يوحي اسمها أساسًا في الولائم، وفي عهد أسرة "سوي"، ظهرت "التسع فرق"، ثم خلال عهد الإمبراطور "تايزونج"، أضيفت موسيقى "جاوتشانج" إلى التسع فرق، وشكلت "الفروع العشرة "، وأصبحت الأشكال أكثر تنوعًا خلال عهد الإمبراطور "شوانزونج" (627 - 649)، ويرجع ذلك جزئيًا إلى التأثيرات الأجنبية، وكانت الآلات الموسيقية المصاحبة لها تأتي في الغالب من مجموعات الأقليات العرقية مثل "كوتشا" و"كيليانج"، لكنهم جميعًا مزجوا معًا دون قيود.

تقع "دونهوانج" في جنوب غرب مقاطعة "قانسو"، وتقع على طريق الحرير المؤدي إلى المناطق الغربية من الصين القديمة، ولم تكن نقطة عسكرية استراتيجية فحسب، بل كانت أيضًا نقطة توقف مهمة بالنسبة إلى التجار والمبعوثين؛ فاستقر العديد من التجار هناك، وأصبحوا مواطنين مسجلين في "تانج"، ونتيجة لذلك، كانت مدينة متعددة الأعراق والثقافات، كانت "دونهوانج" أيضًا مكانًا مقدسًا للبوذية، ففي وقت مبكر من عهد أسرة "جين" الغربية (265 - 317 م)، وصل اثنان من الرهبان البوذيين البارزين، "فاهو" وتلميذه، "فاهنج"، لتعميم البوذية وثقافة السهول الوسطى؛ وفي 366 م، حفر الراهب "ليتشون" الكهف الأول هناك، وبدأ البوذيون يأتون إلى الحج إلى الكهف، وفي وقت لاحق، تم حفر الكثير منها، واليوم، تم الحفاظ على ما مجموعه 492 كهفًا، ومن بين جميع الكهوف في "دونهوانج"، تعد كهوف "موجاو" هي الأكثر تمثيلًا للعصر، فهي أولها وأكبرها، وذات محتوى غني، في الألفية بعد 366 م، تم حفر الكهوف ونحتها واحدًا تلو الآخر، وتنتشر على المنحدرات، وتمتد نحو 1680 مترًا من الجنوب إلى الشمال، ومن بين الكهوف الـ 492 المتبقية في الجزء الجنوبي من كهوف "موجاو"، تم إنشاء أكثر من 300

كهف خلال سلالات "سوي" و"تانج" (581 - 907)، وبالتالي فهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بثقافة "تانج".

السمة الأكثر استثنائية للكهوف هي الجداريات، والتي تغطي أكثر من 45.000 متر مربع، وهي مصدر لا يقدر بثمن من المعلومات حول الموسيقى والرقص في عهد أسرة "تانج"، ففي جميع الكهوف 492 تقريبًا في الجزء الجنوبي من كهوف "موجاو"، هناك صور للرقص، وهي تقع في واحدة من فئتين: السماوية والأرضية، تصور الأولى صورًا من موسيقيي القصر السماوي، وموسيقيي "أبساراس" يطيرون، وموسيقيي "أوبادادوكا" ("الولادة عن طريق التحول")، وغيرهم، ونرى أن موسيقيي الأبساراس يكادون ينبضون بالحياة حيث يمثلون الآلهة السماوية البوذية المهرة في الغناء والرقص، والذين يطيرون في الجنة في السماء، وتلك الرسوم التي تم إنشاؤها خلال عهد أسرة "تانج" تتمتع بالخيال بشكل خاص، وتشمل المشاهد عادة الأوشحة الحريرية، طبول الخصر، والـ"بيبا" (العود الصيني)، والحبال الملونة، والكؤوس والأطباق، والأوشحة الحريرية الطويلة هي سمة مميزة بشكل خاص، وتصويرها في بعض الحالات معقد للغاية، فعلى سبيل المثال، توجد لوحة سوترا لرقصة بوشاح حرير مزدوج في الكهف رقم 172.

كما تصور الجداريات العديد من جوانب الحياة الأخرى، وخاصة الموسيقى الشعبية الصغيرة والرقصات التي يؤديها اثنان أو ثلاثة، على غرار الرقصات المرتجلة التي يتمتع بها الناس العاديين، ويمكن تصنيفها تقريبًا على أنها رقصات تؤدى في الولائم أو مراسم الزفاف أو النزهات، ومشاهدة المعالم السياحية، والطقوس الدينية، فعلى سبيل المثال، تسجل جدارية مأدبة عرس على الحائط الشمالي للكهف رقم 445 بأمانة العادات الشعبية للمنطقة الشمالية الغربية خلال ذروة عهد أسرة "تانج"، حيث يجلس الضيوف على طاولة الولائم، بينما يقوم العروسان بأداء حفل الزفاف، والراقصون، والفرقة، وقاعة الزفاف المتميزة بسقف مقبب أعطت صورة حية من جوهر حياة أسرة "تانج".

الحرف

حققت صناعة الحرف تقدمًا كبيرًا خلال عهد أسرة "تانج"، وكانت هناك فئتان: الرسمية والخاصة، وصناعة الحرف اليدوية واسعة النطاق، وتديرها وتحكم فيها الوكالات المتخصصة؛ وكانت منتجاتها للمنازل الملكية والأرستقراطيين، وليس للبيع العام، وكان عمالها من الطبقات الاجتماعية الدنيا، ومن ناحية أخرى، فإن صناعة الحرف اليدوية الخاصة، وإن كانت صغيرة نسبيًا من حيث الحجم، تمثل الاتجاه الاقتصادي التدريجي؛ وتشمل الصناعات الجديرة بالذكر المنسوجات والسيراميك والورق.

تتكون المنسوجات أساسًا من الحرير والكتان وكان الحرير خاصًا بالطبقات العليا، والكتان للناس العاديين، وتظهر الاكتشافات الحديثة لحرير "تانج"، مثل تلك التي اكتشفت في عام 1987م لقصر معبد "فامن" تحت الأرض بوضوح المعايير العالية التي وصلت إليها صناعة الحرير في عهد أسرة "تانج" المتأخرة، وتبين الاكتشافات على طول طريق الحرير أيضًا أنها كانت سلعة مهمة للتصدير.

حققت صناعة السيراميك خطوات كبيرة إلى الأمام، فتميزت أسرة "تانج" بصناعة الفخار المزجج ثلاثي الألوان في المقام الأول بالألوان الأصفر والأخضر والأبيض الذي أعطاها اسمها، وتم استخدام الطين الأبيض كقاعدة في عملية الحرق، حيث تدفق الصقيل وانتشر، وتمزج الألوان المختلفة لخلق السطوح الثلاثة الطبيعية الرائعة والمرقشة، كان الفخار يستخدم أساسًا للطقوس الجنائزية، حيث تم اكتشاف كمية كبيرة من الفخار الجنائزي في قبور أسرة "تانج"، وأفضل مثال على ذلك هو تمثال الجمل ثلاثي الألوان المعروض في متحف شانشي التاريخي.

أما إنتاج الورق الذي كان ضرورة ويزداد أهمية، وكانت الورقة الأكثر قيمة ورقة شوان، الذي أنتج أصلًا في ما يعرف بإقليم "جينج" اليوم في مقاطعة

"آنهوي"، وأصبح يعرف باسم ورقة "شوان" في وقت لاحق خلال عهد أسرة "سونج" (960 - 1279)، وذلك بفضل ارتباطه بمقاطعة "شوانتشو" العسكرية، وتميزت ورقة "شوان" بالقوة وبالتالي أصبحت تعرف باسم "الورقة طويلة العمر"، وقد كتبت العديد من الأعمال الخطية التي تم الحفاظ عليها على ذلك النوع من الورق.

الفصل الحادي عشر

الانحدار والانفصال والاضطرابات

انحدار "تانج" وحكم "سونج"

المقدمة

كان سقوط أسرة "تانج" في أعقاب ثورة "لوشان" تذكيرًا قويًّا بأن الأسرة كانت بعيدة كل البعد عن كونها صينية "نقية"، فقد كانت إمبراطورية عالمية تضم مجموعات قوية من غير الهان، وخاصة متحدثين باللغات التركية، ولكن أيضًا مجتمعات ذات صلة بالتبت، في حين أن التأريخ التقليدي في الصين يفضل أن يرى إمبراطورية موحدة كحكم وصعود التحديات السياسية المحلية على أنها انحرافات "انفصالية"، ويوضح صعود وهبوط أسرة "تانج" أن تاريخ السلطة الإمبراطورية في الصين يدور بين فترات السيطرة المركزية على مناطق واسعة وفترات من الانقسامات مع قواعد القوة الإقليمية المتنافسة، والتي غالبًا ما ادعت شرعيتها كحكام للصين بأكملها.

وكان اسم الفترة المعروفة باسم الأسر الخمس والممالك العشر دليلًا على تقسيم الصين في القرن العاشر، وظهرت أسرة واحدة، وهي "سونج"، كحاكم لكل الصين في عام 960م لكنها لم تكن قوية على الرغم من روح التأمل التي ركزت على أسباب انهيار "تانج" والإصلاحات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجذرية التي قام بها "وانج آنشي"، على الرغم من ذلك فإن منحى الكونفوشيوسية الجديدة، والرسم، والشعر علامة لها باعتبارها الفترة التي ساهمت كثيرًا في تنمية الثقافة الصينية.

وقد طغت على التطورات المحلية العلاقات بين "سونج" والقوى الإقليمية الأخرى التي فشل البلاط في التعامل معها بشكل مناسب، على وجه

الخصوص، من أواخر القرن العاشر إلى منتصف القرن الثالث عشر كان المشهد السياسي يهيمن عليه صعود الكونفدرالية القبلية المغولية تحت حكم "جنكيز" خان في المراعي إلى شمال الصين، فدمر المغول أسرة جورتشن "جين" (1115 - 1234م) وبدأ "كوبلاي" خان (خلف "جنكيز") غزو شمال الصين، بحلول عام 1125م فقدت أسرة "سونج" السيطرة على الشمال وانتقلت عاصمتها جنوبًا إلى "هانجتشو"، حيث حكمت باسم "سونج" الجنوبية حتى سقطت أخيرًا في يد المغول في 1279م الذي حلوا محلها بأسرة "يوان"، وبالنسبة إلى التأريخ الصيني التقليدي كان هذا الأمر إشكاليًا، فقد تم استبدال نظام "هان" الصيني بنظام آخر "بربري"، لكن الإمبراطورية كانت موحدة تحت أسرة تحمل اسمًا صينيًّا، ولم تصعد أسرة من عرق "هان" الصيني إلى السلطة مرة أخرى حتى عام 1368م.

انحدار أسرة "تانج"

ثورة "آن لوشان"

"آن - شي" هو الوصف الصيني المعتاد لثورة "آن لوشان" لأنها تشير إلى تمرد كل من "آن لوشان" و"شي سيمينج"، ولكن عادة ما يشار إليها باسم ثورة "آن لوشان" في التأريخ الغربي.

في النصف الأول من القرن الثامن، كانت الصين إمبراطورية موحدة ذات اقتصاد مزدهر، وحكومة ليبرالية نسبيًا، وثقافة متقدمة، وصرف أجنبي كبير - ذروة عبر عنها مصطلح "تانج" رفيعة المستوى"، وفي السنوات السابقة، كان الإمبراطور المجتهد والطموح "شوانزونج" ("لي لونج جي") الذي ساعد على تحقيق ذلك، ومع مرور عهده، بدأ ينزلق إلى حياة من الانحطاط وأصبح مهووسًا بالنساء، وقد أعطيت وظائف رئيسة للمسؤولين الفاسدين وبدأ الناس يعانون.

أعطيت السنوات الأخيرة من حكمه اسم فترة عهد "تيانباو" (والذي يعني حرفيًا "كنوز السماء")، وبحلول هذا الوقت، كانت أسرة "تانج" في ورطة متاعب عميقة اشتعلت على يد شخص يدعى "آن لوشان".

ولد "آن لوشان" في "ينجتشو"، قريبًا من مدينة "تشاويانج" اليوم، بمقاطعة "لياونينج"، كان والده الذي كان يدعى "كانج" من قبيلة من عرق حدودي مختلف لكن والدته تزوجت في وقت لاحق، هذه المرة بـ"آن يانيان"، الأخ الأكبر للجنرال التركي "آن بوتشو" وقد يكون تحدث اللغة التركية لأسرته بالتبني، كان "آن لوشان" ذكيًا، ماكرًا، مقاتلًا شرسًا، وأيضًا قاضيًا جيدًا بين الناس، ومع ذلك، على الرغم من قدرته العسكرية، فقد خسر معركة ضد "خيتان" في 736م، واتهم بأن أعماله المتهورة هي سبب الهزيمة، وقد أرسله الحاكم العسكري إلى العاصمة للعقوبة حيث أعلنه المستشار "تشانج جيولينج" متمردًا وأنه يجب إعدامه، ومع ذلك، أُخذ الإمبراطور بمظهر "آن لوشان" المثير للإعجاب، وعفا عنه، وسمح له بالبقاء في الجيش متغاضيًا عن أخطائه، وبعد أن نجا، لم يترك "آن لوشان" جهدًا للفوز بتقدير الإمبراطور.

وعندما رأى أن محظية الإمبراطور ليدي "يانج" ("يانج جيفي" الشهيرة) قد حظيت باهتمام الإمبراطور الحصري، كرّمها كما لو كانت أمه، على الرغم من أنها كانت أصغر منه بستة عشر عامًا، وسرعان ما سُمِح له بالدخول إلى القصر الإمبراطوري متى أراد، وبدأ في الصعود، وفي عام 742م كان الحاكم العسكري لـ"بينجلو"، وفي عام 744م، حصل على منصب عسكري مساوٍ لمنصب حاكم فانيانج، وفي عام 748م، تم منحه شهادة ذهبية فيها وعد بأنه لن يتم إعدامه إلا بتهمة الخيانة، وفي عام 750م أعطي لقب أمير "دونج بينج"، وفي عام 751م، أصبح حاكمًا عسكريًا لـ"هيدونج"، ومن ذلك الحين، كان تحت إمرته جيش عظيم.

ولكن الآن، مسلحًا أيضًا بمعلومات داخلية عن الحالة الحقيقية للنظام، نما طموحه السري للتمرد ضد إمبراطورية "تانج"، وخلال هذا العملية، ازدادت

علاقته سوءًا مع "يانج جو تشونج"، المفضل لدى البلاط، كان "يانج جو تشونج" ابن عم السيدة "يانج"، ومن خلالها كان قد فاز أيضًا برضا الإمبراطور "شوانزونج"، وأصبح في نهاية المطاف مستشارًا، ومع ذلك، بدا أن "آن لوشان"، المبعوث العسكري لمنطقة ذات أهمية استراتيجية، لم يحترمه، فاستشعر منه الخطر وحذر السيدة "يانج" من الخطر، وحذر الإمبراطور "شوانزونج" أن "آن لوشان" قد يتمرد، وعلى الرغم من شك الإمبراطور في ذلك فقد قام باستدعاء "آن" إلى القصر.

مخمنًا الحقيقة سارع "آن لوشان" إلى القصر لنزع سلاح الإمبراطور "شوانزونج" والسيطرة على أي شخص تجرأ على التشكيك في أفعاله، وكان الكثيرون على دراية بنواياه ولكنهم لم يجرؤوا على الكلام، وبدأ الإمبراطور فقط يدرك أن التمرد كان وشيكًا في أوائل 755م، ولكن بحلول ذلك الوقت كان هناك القليل الذي يمكن القيام به، وفي اليوم التاسع من الشهر الحادي عشر من 755م، وزاعمًا زورًا أنه تلقى مرسومًا للقبض على المستشار "يانج جو تشونج"، أرسل "آن لوشان" قوات من "بينجلو" و"فانيانج" وحاميات "هيدونج"، وانطلق نحو 150.000 جندي إلى الجنوب؛ وهي قوة لا يمكن وقفها، فأخذوا جميع المدن في طريقهم، وعندما وصل الخبر أخيرًا إلى الإمبراطور، عقد مناقشات حول التدابير المضادة، وعاد فجأة إلى نشاطه وروح قتاله القديمة، وكان لدى "جاو شيان تشي" وحدة قوامها 50 ألف شخص في محافظة "شان" بين "لويانج" و"تشانج آن" على استعداد لدعم "فنج تشانج تشينج" الذي كان متمركزًا في ممر "هولاو".

عبر "آن لوشان" وجيشه النهر الأصفر، واستولوا على "كايفنج" و"شينجيانج" بسهولة، وانطلقوا باتجاه "لويانج"، وسرعان ما هزمت قوات "فنج تشانج تشينج" المعدة جيدًا، وسقطت "لويانج" في يد جيش المتمردين بعد خمسة وثلاثين يومًا من رحيلهم من "فانيانج"، وفي اليوم الأول من السنة القمرية الجديدة في عام 756م، أعلن "آن لوشان" نفسه الإمبراطور في "لويانج"، التي

سميت مقاطعة "يان"، وكان هدفه التالي "تشانج آن"، ولكن للإطاحة بالإمبراطور كان يعلم أنه سوف يحتاج أولًا للسيطرة على ممر "تونجوان"، وكان من الصعب الهجوم عليه، ويمكن أن يحول دون تحرك قوات المتمردين إلى الغرب؛ في ذلك الوقت، كان الجنرال "جيشو هان" يدافع عنه، وقد أقنع "يانج جو تشونج"، الذي حمل ضغينة ضد "جيشو"، الإمبراطور "شوانزونج" بالأمر بشن هجوم، وفي الشهر السادس من عام 756م، قاد "جيشو هان" جيشه ضد قوات المتمردين في "لينجباو" بـ"هنان"، وعانى من هزيمة ساحقة، وهكذا تمكن المتمردون من السير مباشرة للاستيلاء على "تشانج آن"، ففر الإمبراطور "شوانزونج" مذعورًا، واغتيل "يانج جو تشونج" والسيدة "يانج".

وبمجرد انحسار التمرد، نظم ابن الإمبراطور "لي هنج" قوات لمكافحة التمرد، وأعلن نفسه الإمبراطور "سوزونج" في لينجوو، وعلى الرغم من كونه أقل ذكاء من والده، كان يتمتع بعون اثنين من الجنرالات الكبار وهما "جو تسي" و"لي جوانج جي" في قمع التمرد، وفي الشهر التاسع من عام 757م، استعاد "جو تسي" "تشان جآن"، وفي الوقت نفسه، عرضت القوات الموالية لنظام "تانج" أرواحهم للخطر لوقف جيش المتمردين من الاندفاع نحو الجنوب في وديان نهر اليانجتسي وهواي، واشتعلت المعركة، ولكن جيش "تانج" حافظ على أرضه، ثم في وقت مبكر من عام 757م، قتل "آن تشينجشو" ابن "آن لوشان" والده وأعلن نفسه الإمبراطور الجديد، وأمضى كل وقته في الشرب، وتجاهل الشؤون الحكومية، وفي الوقت نفسه، انشق "شي سيمينج"، المتمركز في "فانيانج"، إلى "تانج" مع جميع قواته، ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه تم تعيينه الحاكم المساعد لـ"فانيانج" والحاكم العسكري لـ"هيبي"، فإنه وضع أيضًا تحت المراقبة، وباستشعاره عدم الثقة، انشق "شي" مرة أخرى، وفي الشهر الثامن من عام 757م، خسر "آن تشينجشو" "تشانج آن" و"لويانج" نتيجة لهجمات قوات "تانج" المضادة وهرب، وفي عام 759م، شارك "جو تسي" و"لي جوانج جي" في معركة ضخمة مع "شي سيمينج" وهزماه، ولكن "لي جوانج جي" هزم في وقت لاحق وعاد إلى شمال "لويانج"، وأصبحت المبادرة في يد جيش

المتمردين، وقتل "شي شاوي" ابن "شي سيمينج"، أباه مثل ما فعل "آن تشينجشو" بأبيه، واستولى على مقاطعة "يان" في "لويانج"، وفي 762م، سقط الإمبـراطور "سـوزونج" مـريضًا ومـات؛ وصـعد ابنـه، "لـي يـو"، العـرش باسـم الإمبراطور "دايزونج"، وتمكن الجنرال "جو تسي" من تحقيق الاستقرار في الوضع ضد جيش المتمردين الذي بدأ ينهار الآن، وفي عام 763م، انتحر "شي تشاوي" بالقرب من "تشيان آن" اليوم بمقاطعة "هيبي"، وانتهت ثورة "آن – شي" التي استمرت ثماني سنوات.

دمر التمرد اقتصاد الشمال، وعلى النقيض من ذلك ازدهر الجنوب، الذي كان يحل تدريجيًّا محل الشمال كمركز اقتصادي للإمبراطورية، وفي هذا الصدد، لم يكن تمرد "آن – شي" فقط بين مرتفعات وأعماق الإمبراطورية "تانج"، ولكن أيضًا يمثل نقطة تحول في تطور المجتمع الصيني القديم.

جهود لإحياء إمبراطورية "تانج"

في عام 779م، تولى الإمبراطور "ديزونج" العرش مع طموح استعادة أسرة "تانج" إلى مجدها السابق، وكان الإمبراطور البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا قد نشأ خلال ثورة "آن لوشان" وعزم على كبح سلطة أمراء الحرب، غير أن التمرد قد قوض نظام الضرائب "زو يونج دياو" الذي ينص على أن تدفع الأسر المنتجة ضريبة على الأراضي الحكومية تشمل العمالة من الحبوب والقماش والخيـوط، حتـى جـاء عـام 780م وتم إدخـال نظـام ضـريبة مزدوج بناء على اقتـراح مـن المسـتشار يـانج يـان، وقـد اسـتبدلت الرسـوم المنزليـة وضـريبة الأراضي النظم القديمة، وجمعت مرتين في السنة، وقد فرض نظام ضرائب "زو يونج دياو" على البالغين الذكور، وليس على الأراضي المملوكة أو المستزرعة؛ أما في النظام الجديد، فإن الأسر التي لديها المزيد من الممتلكات تدفع المزيد من الضرائب، وأولئك الذين ليس لديهم أرض على الإطلاق يدفعون ضريبة

الأسرة فقط، وأدى ذلك إلى تصحيح أوجه عدم المساواة بين الأغنياء والفقراء إلى حد ما، وعلاوة على ذلك، لا تفرض الضرائب على الأسر المنتجة المقيمة والمقيمين الجدد فحسب، بل على الأرستقراطيين والمسؤولين أيضًا، وبدأ ما يقرب من مليوني أسرة لم يتم التعرف عليها في دفع الضرائب؛ فإن الحكومات المحلية، التي كانت قد عادت بنحو ستة ملايين سلسلة من القطع النقدية النحاسية سنويًّا، تجاوزت الآن أكثر من ثلاثة عشر مليونا، وقد عززت هذه الزيادة الكبيرة في الضرائب بشكل مباشر القوة الاقتصادية للحكومة المركزية، كما عززت استمرار نضال الإمبراطور "ديزونج" ضد أمراء الحرب.

وكان الإمبراطور "ديزونج" عازمًا على إضعاف الحكام العسكريين الذين يرغبون في ممارسة السلطة في مناطقهم واستعادة السلطة المطلقة، وجاءت فرصته في عام 781م عند وفاة "لي باوشن"، الحاكم العسكري لـ"تشينجدي"، فقد طلب ابنه، "لي يو"، أن يرث اللقب، ولكن الإمبراطور رفض بشدة، وفوجئوا بهذا الموقف الصعب، وسرعان ما توحد الحكام العسكريون من الحاميات الأخرى وأعدوا لتعليم هذا الإمبراطور الجديد درسًا، وحتى لا يتفوقوا عليه، قام الإمبراطور "ديزونج" بالإشراف بنشاط على الاستعدادات العسكرية.

وفي الشهر الخامس من 781م، ثارت أربع حاميات في "تشينجدي" و"ويبو" و"تسيجينج"، وحلقة "شنان" الشرقية معًا ضد الحكومة الإمبراطورية، وكان رد فعل الإمبراطور السريع هو إرسال أربعة حكام عسكريين لقمع التمرد، وفي البداية، تقدمت قوة الإمبراطورية بسلاسة، ومع ذلك، أثارت المكافآت غير العادلة التي أعطاها الإمبراطور "ديزونج" السخط بين جنرالاته، وكانت النتيجة التمرد، واضطر الإمبراطور إلى الفرار والبحث عن ملجأ في "فنجتيان" و"ليانجتشو"، وكان ذلك بفضل جهود الجنرال "لي شنج" الدؤوبة لقمع التمرد الذي ساد إلى أن انتصرت أسرة "تانج" في نهاية المطاف.

كان "لي شنج" فارسًا وراميًا ممتازًا، وواسع الحيلة في القتال، وغالبًا ما استخدم أعدادًا صغيرة من الجنود للمفاجأة بأعداء أقوى منه بكثير، وعندما

اندلع التمرد في ثلاث حاميات في "هيبي"، أظهر قدراته الرائعة، وأقنع الجيش كله للتعامل مع المتمردين؛ وفي "جينج يوان"، حصر بين اثنين من قوات المتمردين دون إمدادات أو تعزيزات ولكن بفضل ذكائه وعناده، تمكن من الانتصار، واستعاد "تشانج آن" ورحب بالإمبراطور "ديزونج" مرة أخرى، ولكن بعد ذلك، سُحق طموح "ديزونج"، واعتمد سياسة الاسترضاء تجاه أمراء الحرب على الحدود، كما بدأ في الاستفادة من الخصيان، مما تسبب في مشاكل لا نهاية لها لسنوات لاحقة من عهد "تانج".

عندما مات الإمبراطور "ديزونج"، صعد ابنه الأكبر "لي سونج" العرش باسم الإمبراطور "شونزونج"، ولأنه كان مريضًا بمرض خطير، لم يستمر حكمه سوى بضعة أشهر، ومع ذلك، في هذه الفترة القصيرة من الزمن، أراد أن يحدث فرقًا، ونفذ سلسلة من الإصلاحات السياسية المعروفة باسم إصلاحات "يونجتشين"، وقد صممت هذه لاحتواء مجموعة الخصيان المهيمنة وتصحيح العديد من الممارسات الخاطئة من عهد الإمبراطور "ديزونج"، ولسوء الحظ، كان وقته قصيرًا جدًا؛ إذ سرعان ما فقد قدرته على الكلام، مما سمح للخصيان بطرد مسؤوليه أو إرسالهم إلى المنفى.

بعد "شونزونج" صعد إلى العرش ابنه البكر، "لي تشون"، أو الإمبراطور "شيانزونج"، وكان حاكمًا واعدًا خلال السنوات الخمس عشرة التي حكم فيها في السلطة، واهتم بشؤون الدولة بجد، وأضعف الحكام العسكريين وأعاد تأكيد سلطة الحكومة المركزية، ونتيجة لذلك، تمتعت أسرة "تانج" بدرجة من التجدد، ولكن ليس قبل التعامل مع مختلف جهات التمرد، وكانت الأولى هي جهة "ليو بي"، نائب الحاكم العسكري في "سيتشوان"، ودعا المستشار "دو هوانجشانج" إلى القضاء على التمرد بالقوة؛ فاضطر "ليو بي" إلى التراجع قبل أن يهزم وأخذ أسيرًا، هذا الانتصار عزز تصميم الإمبراطور على القضاء على قوات أمراء الحرب الآخرين في المناطق الحدودية، وقد صدم الانتصار اللاحق على "لي تشي" واستعادة "ويبو" -محافظة "دامينج" الشمالية الشرقية اليوم

بمقاطعة "هيبي"- أمراء الحرب في المناطق الأخرى.

في عام 814م، توفي "وو شاويانج"، الحاكم العسكري لـ"هوايشي" -وهي منطقة إدارية في فترة "تانج" تقع في ما هو معروف الآن بجنوب مقاطعة "هنان"- وحل محله ابنه "وو يوانجي"، وقد شن الإمبراطور "شيانزونج" هجومًا ضده، حيث طلب "وو" مساعدة "وانج تشينج تشونج" من حامية "تشينجدي" و"لي شيداو" من حامية "تزي تشينج"، وبناء على ذلك، أمر "لي شيداو" رجاله بحرق كميات كبيرة من الحرير والمحاصيل في مستودعات لجنة النقل في "هاين"، ثم اغتيال المستشارين "وو يوانهينج" و"بي دو"، اللذين دعيا إلى القضاء على المتمردين، طعن "وو يوانهنج"، بينما فر "بي دو" بأعجوبة، وأخاف هذا المسؤولين في العاصمة لدرجة أنهم لم يجرؤوا على الخروج قبل الفجر؛ وأرسلوا رسائل إلى الإمبراطور يتوسلون له لإزالة المستشار "بي دو" من منصبه ووقف العمل العسكري، ولكن الإمبراطور لم يتزحزح.

استمرت حرب "هوايشي" أكثر من ثلاث سنوات وعانت من العديد من الانتكاسات، ثم في عام 817م، سجلت "تانج" انتصارًا بفضل الجنرال "لي سو"، كان "لي" ابن الجنرال الشهير "لي شنج"، وفي عام 816م، تم تعيينه القائد الأعلى لقوات "تانج" الغربية وأمر بمحاربة "وو يوانجي"، ولدى وصوله إلى "تانجتشو" -"بيانج" الحالية في مقاطعة "هنان"-، أعطيت له معلومات أساسية عن موقف العدو من الهاربين والخونة؛ وهكذا تحت غطاء العواصف الثلجية، قاد جيشًا من 9000 جندي وسار إلى "تسايتشو" في ثلاثة أقسام، وبعد ثلاثين كيلومترًا، وصلوا إلى قرية "تشانجتشاي" ليلًا وقتلوا جميع الحراس، ثم ترك "لي" وراءه 500 رجل لحراسة "هويكو" والجسور على طول طريق النقل، وواصلت قوته الرئيسة مسيرتها ليلًا في الثلوج الكثيفة، ووصلت إلى "تسايتشو" قبل الفجر، واحتل "لي" "تسايتشو" دون أن يفقد جنديًا واحدًا أثناء نوم العدو، واضطر "وو يوانجي" إلى الاستسلام وأعدم في وقت لاحق في "تشانج آن"، ولم تمر فترة طويلة حتى استسلم المتمردون في مناطق أخرى

من "هوايشي" أيضًا، مما أدى إلى عودة المنطقة إلى أسرة "تانج" بعد ثلاثين عامًا من الانفصال.

وتملك الذعر الآن من المتمردين في الحاميات الأخرى مثل "تسانج جينج" و"لولونج" و"تشينج دي"، وتعهدوا بولائهم للبلاط، وكان الاستثناء الوحيد "لي شيداو" في حامية "تزي جينج"، الذي قاوم مقاومة يائسة، وفي عام 818م، شن الإمبراطور "شيان زونج" هجومًا على "تزي جينج"، التي سقطت في حالة من الفوضى؛ فقتل "لي شيداو" على يد رجاله، وحتى الآن، قدم أمراء الحرب الذين ظهروا بعد ثورة "آن لوشان" للحكومة، وبعد نصف قرن، اتحدت إمبراطورية "تانج" مرة أخرى في ما يعرف باسم عصر تجديد "يوانهي"، ولكن الأزمة لم تكن بعيدة.

الاضطراب والانحدار

كانت ثورة "آن لوشان" نقطة تحول لأسرة "تانج"، لكنها شهدت أيضًا ارتفاعًا جديدًا لقوة الخصيان، مما أدى إلى نشوب اللهب من الاضطراب الذي من شأنه أن يحرق الأسرة لمدة 150 عامًا، فعندما اندلعت ثورة "آن لوشان"، اضطر الإمبراطور "شوانزونج" إلى الفرار من الغرب، وأقنع ولي العهد "لي هنج" بإعطاء العرش للخصي "لي فوجو" في "لينجوو" باسم الإمبراطور "سوزونج"، بعد ذلك، اعتمد الملك الجديد بشكل كبير على "لي فوجو"؛ فعند الاستيطان في "تشانج آن"، عينه مسؤولًا عن الحرس الإمبراطوري، وهو منصب قوي بدأ في استغلاله، وعندما تولى الإمبراطور "دايزونج" العرش، أمر خصيًا آخر، وهو "تشينج يوانزن"، ليطيح بـ"لي" ويقتله، ولكن "تشينج" سرعان ما خلق مشكلات خاصة به.

عندما أصبح "تشينج" قائد الحرس الإمبراطوري، قتل واضطهد الجنرالات وكبار المسؤولين على أساس الضغينة الشخصية، وكان مصدر رعب للجميع في البلاط وجعل الحكام العسكريين على الحدود حذرين، ونتيجة لذلك، عندما

غزت قوات مملكة التبت "توبو" إمبراطورية "تانج" في 763، لم يجرؤ أحد على المجيء إلى الإنقاذ، وكان على الإمبراطور "دايزونج" الفرار من العاصمة في حالة من الذعر، وبعد أن أدرك الحقيقة، أرسل "تشينج يوانتشن" إلى المنفى؛ ولكن بعد ذلك، بدلًا من تعلم درسه، عين خصيًّا آخر هو "يو تشاوين"، في منصب القائد العام للجيش، ومثل أسلافه، كان "يو" طموحًا ومتغطرسًا ومتكبرًا، فتخلص منه الإمبراطور "دايزونج" بمساعدة وزرائه، وفي الوقت الحاضر، تم قمع الخصيان.

ومنع ابن الإمبراطور "دايزونج"، الإمبراطور "ديزونج"، الخصيان تمامًا من التدخل في شؤون الدولة في البداية، ولكن بعد تمرد في "جينج يوان"، وبعد أن انقلب ضده العديد من مسؤوليه وجنرالاته، تمكن عدد قليل من الخصيان من حمايته، ومنذ ذلك الحين كان يثق بهم أكثر، ووضعهم في قيادة الحرس الإمبراطوري، وفي الوقت نفسه، أنشأ مجلس المملكة الخاص برؤساء من الخصيان، وهو دور من شأنه أن يتجاوز في نهاية المطاف دور المستشار، وهكذا تمتع الخصيان من أسرة "تانج" بقوة هائلة، فلم يكونوا فقط خارج سيطرة الإمبراطور، ولكن كان بإمكانهم التلاعب بعرشه وحياته نفسها.

وبذل بعض أباطرة "تانج" جهدًا لمواجهة ذلك، وكان أحدهم الإمبراطور "وينزونج" – وقد كان حاكمًا يعمل بجهد ومثابرة وجد - فعلى الرغم من أن مَن وضعه على العرش هم الخصيان، إلا أنه استهجن احتكارهم للسلطة، وحاول معالجة المسألة بمساعدة "تشينج تشو" و"لي شون"، اللذين كانا من أسر فقيرة، وبالتالي أقل من وضع الخصيان، وفي 835، كان الاثنان يعتزمان نصب كمين لمجموعة الخصيان بأكملها في إحدى الجنازات، ولكن "لي"، إذ أراد أن ينسب المجد كله له اتخذ إجراءات في وقت سابق من التي تم التخطيط لها، وسحب الخصي "تشيو شيانج" بحيلة إلى الفناء الخلفي، حيث ينتظر الحراس الإمبراطوريون اغتياله، لكنه تمكن من معرفة نواياه، وقتل "لي" و"تشينج"، بالإضافة إلى أكثر من ألف شخص متورطين، في ما يعرف باسم حادث الندى،

لذلك فعلى الرغم من رغبته بالحكم جيدًا، ظل الإمبراطور "وينزونج" تحت سيطرتهم باعتباره مجرد دمية، وأمكن الشعور بسلطتهم في كل مكان، من المحافظات والمحافظات المحلية إلى الحاميات العسكرية والبلاط المركزي، وتم تقسيم المسؤولين الموالين للخصيان إلى فصيلين: واحد بقيادة "نيو سنجرو"، والآخر بقيادة "لي ديو"، ولم يكن لديهم خلافات سياسية خطيرة، بل كانوا فقط عازمين على تدمير بعضهم بعضًا؛ وبهذه الطريقة فإنهم ببساطة أدوا إلى تفاقم الأزمة الاجتماعية المتنامية لانكماش أسرة "تانج".

في عام 873م، جاء الإمبراطور "شيزونج" إلى العرش، وفي العام نفسه، أصابت كارثة طبيعية خطيرة شمال شرق الصين؛ ففسد محصول كامل أدى بالكثيرين إلى الجوع، لكن البلاط لا يزال يضغط عليهم لدفع الضرائب، مما دفع الفلاحين لليأس، وفي عام 874م، قاد "وانج شيانتشي" ثورة في "تشانجيوان" و"هنان" بدعم من الفلاحين، وسرعان ما تلاه "هوانج تشاو" في "شاندونج"، وانتقلت الانتفاضة من "شاندونج" إلى "هوبي" مقاتلين في أثناء تحركهم، وتزايدت صفوفهم باطراد، وفي عام 878م، قتل "وانج شيانتشي" في المعركة وأرسل رفاته إلى "هوانغ تشاو"، الذي أعلن نفسه الجنرال السماوي وغير لقب العهد إلى "وانغبا"، وفي عام 879م، دفع "هوانج" قواته شمالًا من "جوانج تشو"؛ وانتصرت الانتفاضة في 880م واستولت على "لويانج"، ثم هاجمت "تشانج آن"، وهكذا كان حلم "هوانج" بأن يصبح إمبراطورًا في متناول يده.

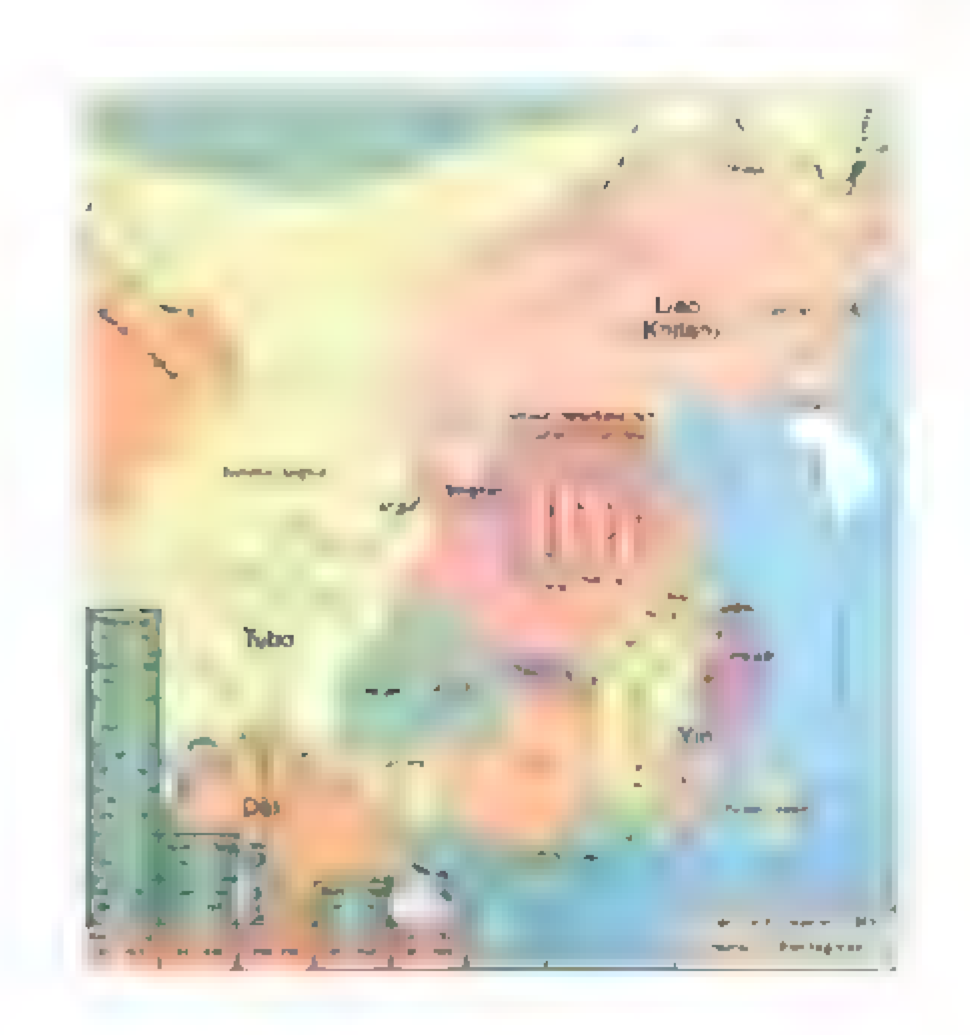
ومع ذلك، عندما احتلت الانتفاضة "تشانج آن"، فشلت في تثبيت انتصارها وأعطى هذا الإمبراطور "شيزونج" الفرصة لحشد قواته، وشن هجومًا مضادًا، وفي عام 882م، استسلم "تشو ون"، المسؤول عن الجناح الشرقي للانتفاضة، وأعاد الإمبراطور تسميته بـ"تشو تشيوان تشونج" وجعله يسير ضد جيشه السابق؛ وجاء 40.000 من قوات "شاتو" -وهي قبيلة تركية- أيضًا للمساعدة، وفي الشهر الرابع من عام 883م، اضطرت الانتفاضة إلى الانسحاب من "تشانج آن" وفي عام 884م، انتحر "هوانج تشاو" مما مثل الفشل النهائي لهذه الثورة

الفلاحية بعيدة المدى.

وقد تمزقت الدولة في الفترة المتأخرة من عهد أسرة "تانج" بسبب الاقتتال الداخلي بين حكام الجيش في "هيبي" و"هنان" ومنطقة "جيانجنان" (الروافد الدنيا لنهر اليانجتسي)، ومن بين هؤلاء، كانت قوات "تشو تشيوان تشونج" و"لي كيونج" الأقوى، وفي عام 903م، اتهم "تشو" الخصيان بتحريض الحكام العسكريين على تهديد السلطة المركزية، وقبول الرشوة، وتداول الألقاب الرسمية مقابل المال، ونجح في محو معظمهم، واكتسب السيطرة الكاملة على الحكومة المركزية، وفي عام 907م، أزال الإمبراطور آي حاكم تابع لـ"تانج" وأسس نظام "ليانج"، وعاصمته "كايفنج"، وانتهى عهد أسرة "تانج"، التي استمرت 289 سنة أخيرًا.

عصر الانقسام: خمس أسر، وعشر ممالك

تشير هذه التسمية إلى الفترة التي بدأت مع إسقاط "تشو ون" لأسرة "تانج" وحتى تأسيس "تشاو كوانجين" لأسرة "سونج" الشمالية (960 - 1127)، وقامت دول ليانج و"تانج" وجين وهان وتشو المتأخرة واحدة تلو الأخرى، بالإضافة إلى عشر دول إقليمية من بينها "شو" السابقة والمتأخرة و"وو" و"تشو" في جنوب الصين (انظر الخريطة 9).



خريطة (9): خمس أسر حاكمة وعشرة ممالك.

وأدار أمراء الحرب الذين انبثقوا من الاضطرابات في نهاية عهد أسرة "تانج" مناطقهم كدول مستقلة، وكان الأكثر قوة في الشمال "تشو ون" الحاكم العسكري لحامية "شوان وو" في "هنان" و"لي كيونج" الحاكم العسكري لحامية "هيدونج" في "شانشي"، ولد "تشو ون"، الذي يدعى أيضًا "تشو تشوان تشونج"، في "دانجشان" بـ"سونجتشو" -محافظة "دانجشان" اليوم بمقاطعة "آنهوي"-، وفي وقت مبكر، انضم إلى تمرد "هوانج تشاو"، ولكن خانه في وقت لاحق، واستسلم لبلاط "تانج"، وكان حاكمًا عسكريًّا لـ"شوانوو"، وبنى سلطته تدريجيًّا باستخدام "كايفنج" كقاعدة له، وفي الوقت المناسب منحه بلاط "تانج" لقب ملك "ليانج"، كما نمت قوته، وخاض معارك متكررة مع "لي كيونج"، الذي كان يدعى آنذاك بملك "جين"، وانتصر في معظمها.

على الرغم من أن "ليانج" المتأخرة حلت محل "تانج"، فإنها سيطرت على منطقة صغيرة فقط عبر "هنان" و"شاندونج"، وأجزاء من "هيبي" و"شانشي" و"هوبي" و"آنهوي"، أما الباقي فقد كان تحت سيطرة "لي كيونج" وأمراء الحرب الآخرين الذين احتفظوا بلقب عهد "تانج"، وسلموا أنفسهم أو تظاهروا بقبول حكم "ليانج" لاحقًا، في حين ظلوا مستقلين في الواقع، وفي عام 912م، قتل "تشو ون" على يد ابنه، "تشو يوجوي"، وكان "لي كيونج" قد توفي بالفعل في ذلك الوقت؛ وخلفه ابنه "لي تسونشو" كملك على "جين" وأعلن نفسه إمبراطورًا في 923م، وقرر الحفاظ على اسم "تانج" وأصبح الإمبراطور "تشوانج زونج" لـ"تانج" المتأخرة، مثل العديد من الحكام، بدأ "لي تسونشو" بشكل جيد، ولكن في وقت لاحق أصبح متعجرفًا، وجاء التمرد، وتوفي في انقلاب عسكري، ودعم الجيش ابن "لى كيونج" المتبنى "لي سي يوان" الذي اعتلى العرش باسم الإمبراطور "مينج زونج" الذي كان حكمه الذي دام لثماني سنوات سلميًا نسبيًّا.

وفي الوقت نفسه، كانت قبيلة قوية ترتفع في الشمال، كانت هذه قبيلة "خيتان"، التي عاشت طويلًا على طول الروافد العليا لنهر "لياو" وسببت المتاعب لأسرة "تانج" على طول حدودها، كانوا بدوا رُحَّلًا وكانت لغتهم ذات صلة بعيدة بالمنغولية، وفي عام 916م، أعلن الزعيم القبلي "ييلو أباوجي" نفسه إمبراطورًا وأنشأ أسرة "لياو" وغزا مملكة "بوهاي" في الشرق والصحراء الشمالية في الغرب، وأنشأ دولة بدوية قوية.

في عام 933م مات الإمبراطور "مينج زونج" حاكم "تانج" المتأخرة، وسقط النظام في حالة من الفوضى مرة أخرى، وفي عام 936م، شن زوج ابنته، "شي جينج تانج"، تمردًا وفي خطوة لم يسبق لها مثيل طلب من الخيتان المساعدة وأعطاهم وعدًا بالأراضي؛ لذلك قاد الإمبراطور "تايزونج" من "لياو"، وهو "ييلو ديجوانج" نفسه جيشًا من 50.000 رجل لهزيمة "تانج" المتأخرة، ثم أصبح "شي جينج تانج" إمبراطور نظام "جين" المتأخرة وعاصمتها "كايفنج"، ومن أجل إظهار ولائه لبلاط "لياو"، قدم "شي جينج تانج" البالغ من العمر 45 عامًا الاحترام الأبوي لـ"ييلو ديجوانج" البالغ من العمر أربعة وثلاثين عامًا، واصفًا اياه بأنه الإمبراطور الأب وهو الإمبراطور الابن، وفي كل عام، أرسل هدية كبيرة لـ"لياو"، وتنازل أيضًا عن المقاطعات الست عشرة من "يانتشو" إلى "يونتشو" (من غرب بكين حاليًا إلى داتونج)، ومن ذلك الحين كانت المناطق النائية من "هيبي" مفتوحة لخيتان، الذين حرموا السهول الوسطى من الدفاع الطبيعي، وأدى عمل "شي جينج تانج" الخائن إلى إهانة البلاط بكامله وتسبب في تمرد لا نهاية له، وفي نهاية المطاف، مات من الإجهاد الشديد.

وعندما تولى ابن شقيق "شينج تانج" "شي تشونجوي"، أعلن الاستقلال عن "خيتان"، فشن الأخير هجومًا واسع النطاق على الجنوب، وفي أوائل عام 947م، غزا الإمبراطور "ييلو ديجوانج" مدينة "كايفنج" وأباد جين المتأخرة، واستقر على السهول الوسطى، وغض الطرف عن نهب جنوده وسرقاتهم، وفرض ضرائب ثقيلة على الشعب، وأدى ذلك إلى مقاومة قوية، وعلاوة على

ذلك، كانت "كايفنج" حارة للغاية في الصيف، لذلك اضطر "بيلو" إلى الانسحاب والعودة إلى الشمال، وأتاح هذا فرصة لحاكم "هيدونج" العسكري من أسرة "جين" المتأخرة "ليو تشي يوان"، الذي أعلن نفسه إمبراطورًا في "تاييوان" في 947م وسمى دولته هان -المعروفة الآن باسم هان المتأخرة-، واستعاد محافظات السهول الوسطى وجعل "كايفنج" عاصمته، لكنه توفي بعد عام واحد فقط، واعتلى ابنه الشاب "ليو تشينجيو" العرش باسم الإمبراطور "يين"، ولكن الوضع السياسي كان غير مستقر للغاية، ففي عام 951م، أطلق "جو وي" من هان المتأخرة انقلابًا للاستيلاء على العرش، ليصبح الإمبراطور "تايزو" حاكم "تشو" المتأخرة.

يمكن وصف الأسر الخمس بأنها غير مستقرة، ومظلمة سياسيًا، واقتصاديًا، مع أربعة عشر من الأباطرة على مدى نصف قرن، وفي الوقت نفسه، نشأت أنظمة مستقلة أخرى في أماكن أخرى من البلاد، معظمها أنشأها الحكام العسكريون خلال الاضطرابات التي شهدتها فترة "تانج" المتأخرة، في حين استمرت الصراعات في السهول الوسطى، فإن القوى الشمالية لم يكلف نفسه عناء المحاولة مع الجنوب، وترك هؤلاء الحكام على عواهنهم، وتدريجيًا، كانوا يدعون أنفسهم بالملوك، وكان لعشرة منهم أهمية أكثر من الآخرين: "وو" التي أنشأها "يانغ شينغمي"، جنوب "تانج" التي أنشأها "لي شنج" في "جيانجسو" و"جيانجشي" وجنوب "آنهوي" اليوم، "شو" السابقة التي أنشأها "وانج جيان"، و"شو" المتأخرة التي أنشأها "منج زيشيانج" في "سيتشوان" اليوم، و"وويو" التي أنشأها "تشيان ليو" في "تشجيانج" اليوم، و"مين" التي أنشأها "وانج تشاو" في "فوجيان" اليوم، و"جنوب هان" التي أنشأها "ليو يين" في "جوانجشي" و"جوانجدونج" اليوم؛ و"تشو" التي أنشأها "ما يين" في "هونان" اليوم، و"نانبينج" التي نشأت على يد "غاو جيشينج" في غرب "هوبي" اليوم، إضافة إلى هذه الأنظمة الجنوبية كان نظام "هان" الشمالية في "شانشي" اليوم.

احتلت "تانج" الجنوبية المساحة الأوسع؛ بينما كانت "نانبينج" هي الأصغر

والتي غطت فقط "جينج تشو"، "زيجوي"، و"يي تشانج" في "هوبي" اليوم، ولم يكن مؤسسو هذه الممالك ذوي أهمية كبيرة، لكنهم فهموا الحياة الشعبية، وحاولوا حماية أراضيهم وتهدئة الشعب وبناء قوتهم، وفي حين كانت قيادتهم غير كفؤ في بعض الأحيان، ومذعورة، وقاسية، وبينما كانت الصراعات الأهلية وقتل أفراد الأسرة أمرًا شائعًا، ظل كثير من الأنظمة سلمية لعقود، مما سمح لاقتصادها وثقافتها بالتطور، وكان الهدف من ذلك هو الحفاظ على استقلالها؛ ولم يكن سوى لجنوب "تانج" وحده تطلعات لتوحيد الصين.

عمل "لي شنج" مؤسس "جنوب تانج" بجد لعقود لجعل ولايته أقوى في الجنوب، وانتظر فرصة لشن هجوم ضد السهول الوسطى، ولكن ابنه، "لي جينج"، ورث العرش وغير استراتيجية والده، وفي ذلك الوقت، استولى جيش "لياو" (خيتان) على "كايفنج"، وسقطت السهول الوسطى في الاضطرابات، فكانت هذه فرصة مثالية للهجوم، ولكن بدلًا من ذلك تجادل "لي جينج" مع "مين" في "فوجيان" و"تشو" في "هونان"، ومنذ ذلك الحين، بدأ جنوب "تانج" في الانحدار ومعها حلمها في الوحدة، ولم تكن هناك إمكانية لتحقيقه إلا مع صعود أسرة "تشو" المتأخرة.

أسس "جو وي" "تشو المتأخرة" في عام 951م وخصص وقته للإصلاح السياسي والاقتصادي منذ البداية، وكان مصممًا على القضاء على الفساد، وتصحيح التشريعات، وتحسين وضع المسؤولين المدنيين وقمع غطرسة الضباط العسكريين، ومن الناحية الاقتصادية، فقد أعاد تنشيط الإنتاج، وهدأ الخارجين عن القانون، وكافأ من قام باستصلاح الأراضي البرية، وخفض أو أعفى من الضرائب، وخصص الخدمات العسكرية بشكل عادل، وساهم كل ذلك في التنمية السلمية في الشمال الذي عانى من الاضطرابات الاجتماعية لفترة طويلة، وفي 954م، توفي "جو وي"، وأصبح ابنه المتبنى "تشاي رونج" الإمبراطور "شيزونج"، الذي عجل بالإصلاحات وأطلق حملة للقضاء على البوذية، وساعد كل هذا على خلق ظروف مواتية للتوحيد، كان الإمبراطور

"شيزونج" طموحًا، ووضع رؤية لمدة ثلاثين عامًا، حيث سيتم استخدام العشرة الأوائل لتوسيع الأراضي، والعشرة الثانية لبناء السلطة، والعشرة الأخيرة لتحقيق سلام لا ينتهي.

لتحقيق هذه الغايات، أعاد الإمبراطور "شيزونج" تنظيم وتأديب الجيش، على أساس أن الجودة كانت أكثر أهمية من العدد، وطرد القديم والضعيف من الحرس الإمبراطوري، ودعا المحاربين من جميع أنحاء البلاد للمشاركة في الفحص العسكري في العاصمة، وقد تم اختيار الأفضل لخدمة الحرس الإمبراطوري والبلاط، وهكذا خفض الإنفاق العسكري وأصبح الجيش أكثر كفاءة؛ وفي الواقع، كان تقريبًا لا يقهر، ففي عام 955م، أرسل الإمبراطور جنرالات وقوات لقهر "شو" المتأخرة في الغرب، واسترداد المحافظات الأربع من "تشينتشو" و"فنغتشو" و"تشنجتشو" و"جيتشو"، ثم قاد الجيش ثلاث مرات بنفسه لغزو جنوب "تانج"، التي اضطرت في النهاية إلى الاستسلام والتنازل عن 14 محافظة و64 محافظة بين نهر اليانجتسي وهواي، وفي عام 959م، أطلق الإمبراطور "شيزونج" حملة واسعة النطاق إلى الشمال لاسترداد المحافظات الست عشرة من "يانتشو" إلى "يونتشو"، كان نهجه سريعًا وغير متوقع، واستمرت المعركة اثنين وأربعين يومًا مع عدد قليل من الضحايا، كان قد استعاد ثلاث محافظات وهي "ينجتشو" و"موتشو" و"تشوتشو"، وسبع عشرة محافظة إلى الجنوب من ممر "واتشياو" عندما انهار فجأة بسبب مرض شديد، واضطر إلى الانسحاب، توفي ذلك العام في سن التاسعة والثلاثين، بعد خمس سنوات ونصف السنة فقط على العرش، ورحلت رؤيته للوحدة معه.

صعود الخيتانيين

كان الخيتانيون مجموعة بدوية قديمة في شمال الصين، وهم في الأصل فرع من "شيانبي"، كانوا يعيشون إلى الغرب من نهر "لياو"، حيث المياه والعشب وفئران، زعمت الأساطير أنه منذ فترة طويلة، سارت إلهة في المنبع في عربة سوداء تجرها الماشية على طول نهر "شار مورون" (هوانج)، في حين ركب إله

في المصب على حصان أبيض على طول نهر الأرض (لاوها)، واجتمعا في التقاطع بين الاثنين ووقعا في الحب، وأنجب أسلاف الشعب الخيتاني، ويعتقد المؤرخون أن الإله والإلهة مثلًا قبليتين ذاتي طوطمين أحدهما الحصان الأبيض والثاني الأبقار السوداء وأنهما اجتمعتا في جبل "موي" واختلطتا بالزواج، وانقسمت ذريتهما إلى ثماني قبائل، والتي كونت الشعب الخيتاني.

وبحلول نهاية عهد أسرة "سوي"، شكل الخيتان تحالف "داهشي" مع قبائل أخرى، ولم يكونوا بقوة أسرة "تانج" أو الدول المجاورة لذلك اختاروا الخضوع لـ"تانج" التي خصصت لهم المحافظة العليا "سونجمو" في جنوب راية البايرين اليمنى اليوم في "تشيفانج" بمنغوليا الداخلية، وعينت رئيس الخيتان محافظًا لها، وبحلول القرن العاشر، وصل مجتمع الخيتانيين إلى نقطة تحول، فقد كان أمراء الحرب في السهول الوسطى يقاتلون باستمرار؛ وتراجعت الدول الأويجورية التركية المحيطة بها إلى حد كبير، وعادة ما يستخدم اسم الأويجور لهذه الفترة وأيضًا للشعب الحديث فليس هناك اتفاق على ما إذا كانا هما نفس الشعب، وفي هذه الظروف ظهر "ييلو أباوجي".

ينحدر "ييلو أباوجي" من عائلة مميزة من قبيلة "ديلا"، والتي نمت قوتها العسكرية تدريجيًا داخل الاتحاد القبلي، وكان ذكيًا، وطموحًا، وشجاعًا، تم اختيار "ييلو أباوجي" ليكون خان الخيتان في عام 907م، وهكذا نشأ الحلم بإنشاء نظام ملكي وراثي مثل تلك الأسر في السهول الوسطى، ولكن وفقًا لتقاليد خيتان، كان انتخاب الخان يعاد كل ثلاث سنوات، حتى جاء عام 916م، فألغى النظام الانتخابي وأنشأ إمبراطورية ملكية وعاصمتها "شانججينج" - جنوب راية بايرين اليسرى اليوم في "تشيفنج"، منغوليا الداخلية - ومنذ ذلك الحين، شرع في مهمته للسيطرة على الشمال والسهول الوسطى.

في عام 916م، عندما كانت السهول الوسطى في حالة من الفوضى، اغتنم "يلو أباوجي" الفرصة لقهر القبائل البدوية الأخرى: الترك، والتويوهون، والتانجوت، والشاتو، وأطلق بعد ذلك حملتين جنوبيتين على أمل إخضاع المنطقة الواقعة

شمال النهر الأصفر، لكنه فشل بسبب نقص الإمدادات، ثم تحول إلى الشرق، وفي عام 926م غزا مملكة "بوهاي" -وتقع تقريبًا شمال شرق الصين اليوم وكوريا الشمالية- وأعاد تسميتها بشرق الخيتان، وبعد ذلك، في طريق عودته، سقط مريضًا ومات.

والآن تولى العرش زوجته الإمبراطورة "شولو"، كان "ييلو باي" ولي العهد، لكن والدته لم تؤيده وبدلًا من ذلك، ذهبت السلطة إلى الابن الثاني "ييلو ديجوانج"، الذي أصبح الإمبراطور "تايزونج" حاكم أسرة "لياو"، وأخضع الإمبراطور "تايزونج" السهول الوسطى، ولكن بعثات والده الفاشلة الجنوبية أعادته إلى الوراء، ولا يزال يتعين عليه حل مسألة كيفية اختراق الدفاعات الشمالية للسهول الوسطى؛ ولكن بعد ذلك صادف الإمبراطور "تايزونج" ضربة حظ.

ففي عام 936م، أرسل حاكم "تانج" العسكري السابق في "هيدونج" "شي جينج تانج"، مبعوثًا يطلب من الخيتانيين تقديم المساعدة ضد نظام "تانج" المتأخرة، وفي المقابل، سوف يقدم للخيتانيين تنازلًا عن المحافظات الست عشرة من "يوتشو" إلى "يونتشو"، كان "شي جينج تانج" يخطط للتمرد لبعض الوقت، لكنه لم يكن متأكدًا من أنه يمكن أن يربح؛ وفي طلب المساعدة من خيتان ضحى بمصلحة السهول الوسطى بأكملها من أجل طموحه الشخصي، وكان الإمبراطور "تايزونج"، بطبيعة الحال، سعيدًا، وكانت "يوتشو" هي بكين اليوم، و"يونتشو" مدينة "داتونج" بمقاطعة شانشي، وشكلت هاتان المحافظتان الحصن الاستراتيجي الرئيس لسلالات السهول الوسطى ضد العدوان الجنوبي للبدو الرحل.

لذلك قاد الإمبراطور "تايزونج" بنفسه جيشًا جنوبًا، وساعد "شي جينج تانج" على هزيمة "تانج" المتأخرة، كان قد نال مكافأته بالفعل بالأراضي الشاسعة للمحافظات الست عشرة، وفقدت السهول الوسطى منطقتها العازلة الشمالية وتعرت تمامًا، ومع ذلك، فإن الأمور لم تسر بسلاسة كما هو متوقع، فقد كانت المقاطعات الست عشرة تتكون إلى حد كبير من الأراضي الزراعية، التي كان

للخيتان الرحل خبرة قليلة في إدارتها، ومع ذلك قاموا بمحاولة جريئة، وطبقوا أنظمة مختلفة على مناطق مختلفة في منطقة الخيتان القديمة والشمال الغربي البدوية، كما أنهم مارسوا الحكم القبلي، في حين أن المحافظات الست عشرة ومنطقة "بوهاي" اتبعت نظم "هان" الإقطاعية القديمة.

في عام 982م، جاء الإمبراطور "شينج زونج" البالغ من العمر 12 عامًا إلى السلطة وكانت والدته الإمبراطورة الأرملة "شياو" وصية عليه، ووصلت أسرة "لياو" الخيتانية ذروتها خلال هذه الفترة، وكانت الإمبراطورة الأرملة "شياو" صاحبة استراتيجية وسياسة حكيمة، فعينت واحدًا من عرق "هان" الصيني وهو "هان ديرانج"، ليكون رئيسًا للمجالس الخاصة، وأعطيت سياسات "هان" الأولوية، وأعيد تنظيم نظام الرتب الرسمية، وتم إصدار قوانين جديدة لإعطاء معاملة متساوية لكل من الخيتان والهان، وبالإضافة إلى ذلك، أنشئ نظام امتحان مدني إمبراطوري في عام 988م لجذب المزيد من مثقفي "هان"، وأمرت الإمبراطورة الأرملة "شياو" أيضًا بتحرير العبيد في المناطق الزراعية، مما يجعلهم دافعي ضرائب يشاركون في الإنتاج الزراعي.

عندما ماتت الإمبراطورة، واصل الإمبراطور "شينج زونج" تعزيز الإصلاحات التي ساهمت في التقدم السياسي والاقتصادي والثقافي للخيتان، وانتشرت أراضي "لياو" من نطاق "خينجان" الخارجي وبحيرة "بايكال" في الشمال إلى جزيرة "سخالين" في الشرق وجبال التاي في الغرب و"هيبي" وشانشي الشمالية في الجنوب، وكانت هناك خمس عواصم، في الجنوب، "بكين" اليوم؛ وفي الشرق، "لياويانج" الحالية بمقاطعة "لياونينج"، وفي الغرب، "داتونج" في مقاطعة "شانشي"؛ وفي المركز، "نينجتشينج" في منغوليا الداخلية، وكانت "لينهوانج" العاصمة العليا في راية بايرين اليسرى الحالية في "تشيفنج" في منغوليا الداخلية وهى أول مدينة عشبية في شمال الصين.

خلال صعود الإمبراطورية الخيتانية، تم وقف طريق الحرير الذي يمتد من السهول الوسطى إلى الغرب، مما دفع العديد من الدول الغربية إلى الاعتقاد بأن

الصين كلها كان يحكمها الخيتان؛ لذلك كان لفظ الخيتان بمثابة مرادف للصين؛ وكان الاسم الذي استخدمه "ماركو بولو" في "رحلات ماركو بولو"، ويستمد المصطلح الإنجليزي القديم للصين "كاثاي" من لفظ "خيتاي" المنغولي، وبعد ازدهارها لأكثر من قرنين من الزمان، سقطت الإمبراطورية تقريبًا بين عشية وضحاها، ولا تزال أسباب ذلك غامضة نوعًا ما.

سلالات "سونج" الشمالية والجنوبية

تأسيس أسرة "سونج" الشمالية

في عام 959م، وعندما كان الإمبراطور "شيزونج" حاكم "تشو" المتأخرة يموت، اتخذ قرارًا صعبًا ليحل "تشاو كوانجين" محل القائد العام للجيش الإمبراطوري "تشانج يون جدي"، على أمل أن يتمكن الجنرال الذي يثق به أكثر من أي شخص من حماية ابنه الوحيد وإمبراطورته الأرملة، ولد "تشاو كوانجين" في 927م، في ما يعرف الآن بـ"لويانج" في مقاطعة "هنان"، لأبي ضابط عسكري ذي مرتبة متوسطة ونشأ في وقت من الاضطراب الاجتماعي وعدم الاستقرار، وفي أوائل العشرينيات من عمره كان غير راضٍ عن الاضطرابات المستمرة والحروب في السهول الوسطى، فغادر المنزل لاستكشاف العالم وحده، وفي وقت لاحق، خدم "جو وي"، رئيس مجلس المستشارين الخاص في "هان" المتأخرة.

ولم تمر فترة طويلة حتى تمرد "جو وي" وأسس نظام "تشو" المتأخرة، ورقى "تشاو كوانجين" لدوره في مساعدته، وبعد وفاة "جو وي"، تولى ابنه بالتبني "تشاي رونج" العرش باسم الإمبراطور "شيزونج"، وأصبح "تشاو كوانجين" واحد من قادة الجيش الإمبراطوري، توفي الإمبراطور "شيزونج" بعد ذلك بقليل، وتوج ابنه البالغ من العمر سبع سنوات، "تشاي زونجشون" باسم الإمبراطور "جونج"، وحتى الآن، كان "تشاو كوانجين" القائد الأعلى للجيش، وشكل أخوية مع تسعة من المحاربين الموهوبين الآخرين بما في ذلك "شي

شوشين ووانج شينتشي" وكان اسمها "الجمعية الصالحة للأخوة العشرة المحلفين"، وسرعان ما بدأت مؤامرة عسكرية بالتبلور.

في عام 960م، بعد وفاة الإمبراطور "شيزونج"، وصلت رسالة عاجلة إلى "كايفنج"، عاصمة "تشو" المتأخرة، أفادت بأن قوات "هان" الشمالية والخيتان تسير جنوبًا، وقد اتخذ مستشارو الإمبراطور الشاب قرارًا متسرعًا بإرسال "تشاو كوانجين" لمواجهة العدو والذي استخدمه "تشاو" لمصلحته الخاصة، وانتشرت شائعات بأنه ابن السماء - وهو مصطلح يعني "الإمبراطور" - بل ادعى البعض أنه رأى شمسين في السماء، علامة على أن إمبراطورًا جديدًا قد يصعد، وقريبًا، كان جيش "تشاو كوانجين" مخيمًا في محطة نقل "تشنتشياو" على بعد عشرين كيلومترًا شمال شرق "كايفنج"، وفي فجر اليوم التالي، دخل قادة الجيش خيمة "تشاو كوانجين" ووضعوا رداء الإمبراطور الأصفر حول كتفيه، وأطلقوا ما أصبح يعرف باسم تمرد "تشنتشياو"، وعندما عاد جيشه إلى العاصمة، لم يكن لدى موظفي البلاط الوقت الكافي للاستعداد؛ فقد تنازل الإمبراطور وصعد "تشاو كوانجين" العرش باسم الإمبراطور "تايزو" منشئًا أسرة "سونج" الشمالية، وعاصمتها "كايفنج".

خلال المرحلة الانتقالية، أولى "تشاو كوانجين" اهتمامًا كبيرًا للانضباط العسكري، فبعد دخول "كايفنج"، أمر قواته بالعودة إلى كتائبهم، وتجنب الجولة المعتادة من النهب والسلب، وعامل الإمبراطورة الأرملة من "تشو" المتأخرة معاملة جيدة، استأنف المسؤولون المدنيون والضباط العسكريون من نظام "تشو" المتأخرة عملهم، ونتيجة لذلك، اكتسبت أسرة "سونج" دعم شعبها منذ البداية، وتم قمع التمرد في وقت مبكر على يد الجيش يقوده الإمبراطور "تايزو" بنفسه؛ ومع ذلك، كان قلقًا بشأن مزيد من التمرد وقرر محو القوة العسكرية لقادة الجيش الإمبراطوري، وفي عام 961م، وهو العام الثاني من حكمه، رتب مأدبة بلاط لهؤلاء القادة، وبينما كانوا يمتعون أنفسهم ويشربون وفي حالة سكر، أعرب الإمبراطور "تايزو" عن أسفه للصعوبات التي يواجهها

الإمبراطور، واقترح عليهم التخلي عن قوتهم العسكرية من أجل حياة سلمية وثرية ومريحة، وفي اليوم التالي، أرسلوا جميعًا استقالاتهم نظرًا لمشكلات صحية، وهو حدث تذكره الأجيال.

استبدل الإمبراطور "تايزو" هؤلاء الرجال بضباط عديمي الخبرة كانوا أسهل بكثير في السيطرة عليهم، والأهم من ذلك أنه غير نظام قيادة الجيش، فتم تقسيم الحراس الإمبراطوريين إلى الفرسان والمشاة؛ وكانت إدارة القصر والإدارتان الجديدتان تسمى بالإدارات الثلاث، ويمكن أن تحتوي بعضها على بعض، وكانت السلطة العسكرية لامركزية، مع فصل الحق في إدارة، وإرسال وتنسيق القوات، بحيث لا يكون لشخص السيطرة الكاملة، وثانيًا، أولى اهتمامًا كبيرًا للاختيار والتكميل والتدريب؛ فلم يتم تجنيد سوى جنود مدربين تدريبًا جيدًا، وثالثًا، تم تنفيذ نظام بديل، تم بموجبه استبدال الجنود كل ثلاث سنوات لمنع الضباط من إقامة علاقات وثيقة معهم.

اعتقد الإمبراطور "تايزو" أن سيطرة الجنرالات والحكام العسكريين على أعداد كبيرة من القوات كانت أكبر تهديد لسلام الإمبراطورية؛ لذا فبناء على نصيحة "تشاو بو"، أزال سلطة الحكام العسكريين، وضبطوا مصادرهم المالية، وأشاروا إلى جنودهم المدربين تدريبًا جيدًا؛ وبدلًا من ذلك، لم تحصل الجيوش المحلية على تدريب عسكري، ولكنها استخدمت كعمال في مشاريع البناء وما شابه ذلك، وعُين المسؤولون المدنيون رؤساء للمقاطعات والمقاطعات العسكرية، وكان لهم سلطة مواجهة الحكام العسكريين، وعلاوة على ذلك، فإن المحافظات والمقاطعات تأتي مباشرة تحت سلطة الحكومة المركزية.

في بداية عهد أسرة "سونج" الشمالية، كانت الأسر الخمس والممالك العشر لا تزال قائمة، وظلت البلاد منقسمة، في الشمال كانت "لياو"، التي أنشأها الخيتان، واعتماد "هان" الشمالية عليها، وفي الجنوب والغرب كانت أنظمة كبيرة نسبيًا بما في ذلك جنوب "تانج"، و"وويو"، و"هان" الجنوبية، و"شو" المتأخرة، وكان هناك أيضًا أمراء حرب، مثل "ليو كونغشياو" في "تشانجتشو"

و"تشوانتشو" في "فوجيان"، و"تشو شينج فنج" في "هونان"، و"جاو باورونج" في "جينجنان"، وبدأ الإمبراطور "تايزو" الآن هجمات ضد دول أخرى بهدف توحيد البلاد.

في 963م، شن حملة ضد "هونان" و"هوبي"، وقهر النظامين الضعيفين في "جينجنان" و"هونان"، وتعرضت جنوب "هان"، و"شو" المتأخرة، وجنوب "تانج" الآن لهجمات "سونج" الشمالية، شعر "منج تشانج"، حاكم "شو" المتأخرة بالتهديد وأرسل "تشاو يانتاو" برسالة مختومة إلى شمال "هان"، واقترح شن هجوم مشترك على شمال "سونج"، ولكن "تشاو" أخذ الأمر بدلا من ذلك إلى الإمبراطور "تايزو"، وفي 964، انقسم جيش "سونج" الشمالية إلى مجموعتين للهجوم على "شو" المتأخرة، وهرب قائد "شو" المتأخرة غير الكفء على الفور تقريبًا، وفي عام 965م، استسلم "منغ تشانج" وانتهت الدولة.

كانت التالية في السقوط هي جنوب "هان"، التي كان يحكمها الطاغية سيئ السمعة "ليو تشانج"، الذي فرض الضرائب الثقيلة ونفذ قوانين وعقوبات قاسية؛ كان قد قتل العديد من جنرالاته؛ لذلك كان جيشه يديره الخصيان، وفي عام 971م، أرسل الإمبراطور "تايزو" هجومًا إلى الجنوب، ولم تكن قوات "هان" الجنوبية مهيأة، وهزمت هزيمة ساحقة، وفي عام 972م، حاول "ليو تشانج" الهرب عن طريق البحر مع محظياته على سفينة محملة بالكنوز، ولكن قبض عليه الخصيان والحراس، وقد خاض معركة أخيرة في "جوانج تشو"، ولكنه عانى من هزيمة ساحقة، فكان الاستسلام لـ"سونج" الشمالية أمرًا لا مفر منه.

الآن سرعت "سونج" الشمالية بخطتها للقضاء على جنوب "تانج"، التي حكمها "لي يو"، وهو رجل وسيم ذو مواهب أدبية استثنائية ولكنه غير كفء في السياسة، وفي عام 974م، أرسل الإمبراطور "تايزو" العمال لبناء الجسور على الأجزاء الضيقة من نهر اليانجتسي بحيث يمكن للقوات العبور، وفي عام 975م، حاصر جيش "سونج" الشمالية عاصمة "تانج" الجنوبية

"جينلينج" ("نانجينج" اليوم)، وبعد عدة أشهر، استسلم "لي يو"، وكانت هذه ذروة حرب الإمبراطور "تايزو" للتوحيد، ففي عام 976م، قاد بعثة شمالية، ثم توفي بشكل غير متوقع، وترك حلمه بالوحدة غير مكتمل، وكان على شقيقه الأصغر، "تشاو كوانغي" (الإمبراطور "تايزونج") أن يتابع تحقيقه.

الإصلاحات والاضطراب من منتصف إلى أواخر عهد "سونج" الشمالية

في الشهر العاشر من 976م، توفي "تشاو كوانجين"، الإمبراطور "تايزو"، فجأة في قصره، ولم يكن بعد قد بلغ الخمسين من عمره، وسبب وفاته لا يزال لغزًا لم يحل، وتعهد الإمبراطور الجديد "تايزونج" بمواصلة سياسات أخيه وأثبت أنه خليفة مخلص، مرقيًا المسؤولين المدنيين ومحافظًا على قبضة حديدية على الجيش، وفي عام 979م، قاد شخصيًا جيشه للتغلب على شمال "هان"، ولكنّ هجوميه التاليين على "لياو" باءا بالفشل، فتخلى تدريجيًا عن حلم السيطرة على المقاطعات الست عشرة، وتحول تركيزه إلى إدارة الشؤون الداخلية، وبدأ مناخ سياسي متحفظ يسود النظام مما سلب قوته وثرواته وهي العوامل التي أدت إلى حركة الإصلاح خلال الفترة الوسطى من عهد الأسرة.

وبحلول الوقت تولى الإمبراطور "تشنزونج" مكان الإمبراطور "تايزونج" في 998م، وكان تهديد غزو "لياو" قد أصبح واقعًا، ففي عام 1004م اقترب جيش "لياو" من النهر الأصفر، وكان بلاط "سونج" في حالة صدمة، بل اقترح بعض المسؤولين نقل العاصمة لتجنب العدو، ولكن بناء على إصرار المستشار المتشدد "تشو تشون"، اضطر الإمبراطور "تشنزونج" نفسه لقيادة الجيش إلى المعركة، مما أدى إلى رفع معنويات جنود "سونج"، ومن الجدير بالذكر أنه حقق النصر الذي جعل معاهدة السلام التي تلت ذلك غير قابلة للتفسير، ووقعت مع "لياو" في 1005م في "تشان يوان" (جنوب غرب "بويانج" اليوم، بمقاطعة

"هنان")، وعرفت باسم تحالف "تشان يوان"، وكانت مليئة بشروط مهينة لـ"سونج"، ومع ذلك، فقد ضمنت فترة طويلة من السلام، ودخلت أسرة "سونج" عصر الانسجام.

سرعان ما انحدرت الطبقة الحاكمة إلى الأسفل وتجاهلت شؤون الحكم، في حين أصبح الإمبراطور "تشنزونج" أخرق ومبذرًا على نحو متزايد، وعندما جاء ابنه الإمبراطور "رينزونج" إلى السلطة، أصبحت الأسرة أكثر هشاشة، وبدأت حربًا واسعة النطاق مع التانجوت في غرب "شيا" (شيشيا)، وعانت ثلاث هزائم على التوالي، على الجبهة الداخلية، والانتفاضات، وأصبحت حركات التمرد متكررة، وفي الوقت نفسه، نمت الدعوات للإصلاح من العلماء والمسؤولين بصوت أعلى، وأدى كل هذا في نهاية المطاف إلى إصلاحات "تشينج لي".

في 1043م، خلال عهد "تشينج لي" عين الإمبراطور "رينزونج" رجلين يحظيان باحترام واسع لإدارة الشؤون الحكومية، وكان هذان الرجلان هما "فان تشونج يان" و"فو بي"، وكان كلاهما على بينة من التحديات الرئيسة التي تواجه أسرة "سونج": الوظائف الإدارية الزائدة عن الحاجة، والإنفاق العسكري المتضخم والمهدر، وقدما وثيقة من عشر نقاط لتصويب البيروقراطية، بما في ذلك إجراءات الشفافية والترقية الشفافة، وتنقيح نظام الامتحانات، والترقية على أساس الجدارة، والتوزيع العادل للأراضي العامة، وقد أدت هذه السياسات الجديدة إلى الحد بشكل كبير من امتيازات البيروقراطيين الفاسدين رفيعي المستوى، مما أدى إلى استياء ومعارضة على نطاق واسع، وبدأ الإمبراطور "رينزونج"، الذي كان قد دعم الإصلاحات في البداية، في التراجع، ولم يمض وقت طويل حتى طرد "فان تشونج يان" و"فو بي" من مناصبهم، وهكذا انتهت إصلاحات "تشينج لي" بالفشل التام.

بعد ذلك، واصل الإمبراطور "رينزونج" الحكم ما يقرب من عقدين في ظل أزمة اجتماعية مستمرة، وفي عام 1044م، وقعت "سونج" و"شيا" الغربية معاهدة سلام بعد حرب استمرت ثلاث سنوات، على الرغم من أن "شيا" الغربية

اعترفت بهزيمتها، إلا أن "سونج" عرضت عليها كمية كبيرة من الفضة والحرير كل عام، مما أدى إلى تعميق أزمتها المالية، وعلى الرغم من أن التزام الإمبراطور بالإصلاح قد ضعف، فإن رغبة مسؤوليه في التغيير السياسي ظلت موجودة.

وبعد أن مات الإمبراطور "رينزونج" تولى العرش "تشاو شو" (الإمبراطور "يينجزونج")، وكانت نواياه جيدة، لكنه لم يكن الابن البيولوجي للإمبراطور "رينزونج"، وعانى أيضًا من المشكلات الصحية؛ وكلاهما منعه من تحقيق الكثير قبل وفاته المبكرة، ومع ذلك، يعتبر ابنه "تشاو تشو" (الإمبراطور "شينزونج") واحدًا من أكثر الأباطرة تميزًا من أسرة "سونج"، فعندما ورث العرش في سن العشرين فقط، كانت الأسرة مثل مريض في منتصف العمر يعاني من مرض مزمن، ومن أجل تحويل المد، تحول إلى الوزير المخضرم "فو بي"، ولكن التوصية الوحيدة للمستشار الشيخ كانت تجنب الحرب، لذلك بدلًا من ذلك، علق الإمبراطور "شينزونج" آماله بالإصلاح على "وانغ آنشي"، الذي كانت له سمعة ممتازة بين العلماء والمسؤولين.

كان "وانج آنشي"، وهو مواطن من "لينتشوان" في "جيانجشي"، رجل دولة بارزًا ومفكرًا وكاتبًا، وكان قد قدم مرة واحدة لمقابلة الإمبراطور السابق "رينزونج" بالتماس من 10.000 حرف، واقترح تجديد النظام القانوني المعيب، وكان الالتماس - على الرغم من تجاهله - قد أثرت بشكل كبير ملفه الشخصي، ورأى الكثيرون أنه يستحق مسمى وزاريًا تنفيذيًا، وأعجب الإمبراطور "شينزونج" كثيرًا بموهبته، وعقد اجتماعات متكررة معه، وطلب نصيحته حول الإصلاحات السياسية والاقتصادية والعسكرية، وفي عام 1069م عين "وانغ آنشي" في منصب "تسانتشي تشينجشي" (منصب مماثل لنائب المستشار)، والذي تنبأ بالعديد من الإصلاحات القادمة، كانت أهداف "وانج" هي زيادة ثروة البلاد وقوتها العسكرية، وتحقيقًا لهذه الغاية، أنشأ وكالة مركزية لتخطيط وتنسيق الإيرادات الحكومية والإنفاق، والحد من النفايات؛ فقد وضع قياسًا

سنويًا للأراضي لضمان فرض ضريبة عادلة، ومشاريع للحفاظ على المياه لزيادة الإنتاج الزراعي، حاميًا الفلاحين في الوقت نفسه من استغلال الربا بموجب قانون المراعي الخضراء، وعسكريًا، تم استبدال الجنود القدماء والضعفاء بالشباب الأقوياء، وتم تفويض التدريب العسكري للمسؤولين المحليين، بحيث يمكن للجنود الاقتراب من رؤسائهم وبالتالي تكون لهم فعالية أكبر في القتال، وفي مجال التعليم، حصل الخريجون المتميزون من الكلية الإمبراطورية المركزية على مناصب رسمية مباشرة.

وبينما كان لدى "وانج آنشي" مثل عليا، فقد عرقلته أوجه قصوره الشخصية: الثقة المفرطة، والإحجام عن قبول آراء الآخرين، وعدم اختيار الأشخاص المناسبين لتنفيذ الإصلاحات، ونتيجة لذلك، فقد عملت العديد من التدابير التي كانت تهدف أصلًا إلى مساعدة الناس على تهديد مصالحهم بدلًا من ذلك، كما مثل المحافظون الإقطاعيون معارضة شرسة، والنتيجة هي وقف تنفيذ الإصلاحات، واندلعت صراعات حزبية بين أولئك الذين كانوا معارضين، وفي نهاية المطاف، سادت الفوضى، وانتهت الإصلاحات بالفشل.

في عام 1085م، توفي الإمبراطور "شينزونج"، وكان الإمبراطور "شيزونج" المتوج حديثًا صغيرًا جدًا ليتولى إدارة شؤون الحكومة، لذلك قامت جدته "جاو" بمهام الحاكم، مما أدى إلى تغيير لقب العهد لـ"يوانيو" بدءًا من العام التالي، وبصفتها من المحافظين، قامت بإلغاء معظم الإصلاحات ووضعت "سيما غوانج" المحافظين الآخرين في مناصب رئيسة في ما أصبح يعرف باسم تغيير "يوانيو"، وقد تم تقديم إخطار إلى البلاط يمنع جميع الإصلاحيين من شغل مناصب رسمية، وقد أدى ذلك إلى زيادة حدة الصراع بين القوى القديمة والجديدة، مما أدى إلى تفاقم الاضطرابات السياسية في فترة سونج الشمالية المتأخرة.

بعد وفاة "جاو"، غير الإمبراطور الشاب لقب العهد من "يوانيو" إلى "شوشنج"، وتعهد بتنفيذ إرادة والده، وأعاد الإصلاحيين الذين بدأت عودتهم إلى السلطة

الجولة المقبلة من الصراعات الحزبية؛ فقد سعوا ظاهريًّا لاستعادة القوانين الملغاة، بينما في الواقع ركزوا على محاربة واضطهاد أعضاء الحزب القديم، ونفي أو قتل الكثير منهم، ووصلت هذه الصراعات إلى أقصى حد من الوحشية في عهد الإمبراطور "هيزونج"، الذي جاء إلى العرش بعد الوفاة المبكرة لأخيه الأكبر، كان الإمبراطور الجديد متواضعًا سياسيًّا ولكن موهوبًا فنيًّا، وعاش حياة مستهترة، لكنه استمر في دعم الإصلاحيين حتى اضطهد حكام "يوانيو" حتى الموت، في عام 1102م، وهو العام الأول من عصر "تشونجنينج"، وصمت مجموعة من 120 من المحافظين في عهد "يوانيو" بما فيهم "سيما جوانج" بالفساد، ومحا الإمبراطور "هيزونج" شخصيًّا أسماءهم التي كانت محفورة عندئذ على بوابة دوانلي في القصر، وفي عام 1104م، تم وصم 189 شخصًا آخرين بالخيانة؛ وفي الواقع، كانت تهمة الانتماء إلى خونة "يوانيو" جاهزة لوصم أي شخص يعتبر غير متعاون. وخطوة خطوة، دفعت هذه الصراعات أسرة "سونج" الشمالية إلى حافة الدمار؛ وفي نهاية المطاف أطيح بها على يد الجورتشن الذين غزوها من الشمال، وتلاشت من التاريخ.

انهيار أسرة "سونج" الجنوبية

كان حكام أسرة "سونج" الجنوبية متدهورين منذ البداية، وعلى ما يبدو عازمين على إغراق حزنهم لفقدان أراضيهم في العيش برفاهية، ومع ذلك، فإن الإمبراطور الرابع، الإمبراطور "نينجزونج"، اهتم بمعاناة الشعب وقاد حياة المقتصدين بنفسه، وكان صعوده إلى العرش غير متوقع، وكان والده الإمبراطور "جوانجزونج" قد عاش حياة المرفهين وأهمل شؤون الدولة؛ لذلك اضطره العديد من الوزراء بموافقة الجدة الإمبراطورية للتنازل عن العرش، وعندما سألت الإمبراطورة الأرملة الأمير ولي العهد أن يتولى العرش بدلًا منه، أبدى "نينجزونج" دهشته، ورفض العرض؛ ولم يقتنع إلا بعد أن رجته كثيرًا وبشكل متكرر، ورقي "تشاو رويو" و"هان توتشو" إلى منصبي مستشار ورئيس المجلس الاستشاري على التوالي لدورهما في هذه المسألة، وأصبحت ابنة

أخت "هان توتشو" الإمبراطورة، بعد ذلك، نمت قوة "هان توتشو" بشكل مطرد، ولكن لأن "تشاو رويو" كان رجلًا يتمتع بالنزاهة، فكان الرجلان في كثير من الأحيان على خلاف بعضهما مع بعض، وحاول "هان" إزاحة "تشاو" بوسائل ملتوية، وفي عام 1195م، تم إخراج كل من "تشاو" ومؤيديه من البلاط، وبعد عامين، لتعزيز موقفه، ادعى "هان" أن زمرة من العلماء الجدد للكونفوشيوسية التي كان منهم "تشاو رويو" مناهضون للحكومة، وطلب من الإمبراطور ليس فقط حظرها، ولكن منع أعضاءها من دخول الامتحان الإمبراطوري المدني والتعيين في المناصب، حتى أنه أحرق كتبهم، وقدم قائمة سوداء بأسماء تسعة وخمسين شخصًا في ما سمي زمرة مناهضة الحكومة، وحدث ذلك خلال عهد "تشينجيوان"، لذا أصبح يعرف باسم حظر حزب "تشينجيوان".

ومن أجل تأمين موقفه بشكل أكبر، اعتزم "هان" استعادة السهول الوسطى من خلال شن حملات شمالية ضد أسرة "جين" التي يحكمها الجورتشن، ولم يكن الإمبراطور "نينج زونج" راضيًا عن الوضع المهين لأسرة "سونج" الجنوبية، وقدم دعمه، حتى عام 1206م، وعلى الرغم من عدم الاستعداد بشكل كامل، اندفعت أسرة "سونج" الجنوبية شمالًا في ما يعرف باسم حملة "كايشي" وقد حذر البعض من ذلك، ولكن "هان توتشو" كان مصممًا؛ وبسبب عدم توقع الهجوم، نجح "هان" في استعادة بعض الأراضي من خلال نصب كمين لجيش جورتشن، ولكن بمجرد أن تعافى جيش "جين" قاتلوا، وهزم جيش "سونج".

وبحلول عام 1207م، تآمر "شي ميوان"، نائب وزير الطقوس مع الإمبراطورة الجديدة "يانج" لقتل "هان توتشو"، وأرسلوا رأسه إلى أسرة "جين"، ووقعوا معاهدة سلام، وكانت معاهدة "جيادينج" الجديدة أكثر إهانة من المعاهدة السابقة؛ فطلبت زيادة في الفضة التي تعطى لـ"جين" كل عام، وطلبوا من إمبراطور "سونج" الجنوبية أن يخاطب حاكم "جين" بلقب العم، وفي 1224م، دفعت وفاة الإمبراطور "نينجزونج" "شي ميوان" والإمبراطورة "يانج" لحبك مؤامرة ضد صعود "تشاو هونج" العرش، وبدلًا من ذلك اختاروا "تشاو يون"،

وهو سليل آخر من العشيرة الإمبراطورية، ليصبح الإمبراطور "ليزونج"، وهكذا أصبح "تشاو يون" مدينًا لشي ميوان بالامتنان والخوف، وأصبح مجرد دمية في يده.

وفي عام 1233م، توفي "شي ميوان" أخيرًا، وانتهى عهد الاستبداد الذي استمر ستة وعشرين عامًا، وسمحت وفاته للإمبراطور "ليزونج" باستعادة السيطرة وتغيير لقب العهد إلى "دوانبينج"، ولكن بعد أربعة عقود من الحكم الاستبدادي، أصبح نظام "سونج" الجنوبي الآن فاسدًا للغاية، وعلى أمل سحبه مرة أخرى من حافة الهاوية، طرد الإمبراطور "ليزونج" زملاء "شي ميوان" من البلاط وعين مجموعة من الناس الشرفاء والموهوبين، تمت دعوة العلماء الجدد الكونفوشيوسيين على نطاق واسع، مثل "تشن ديشيو" و"وي لياوينج"، مرة أخرى.

وفي الوقت نفسه، حدثت تغييرات كبيرة خارج الأسرة، وكان عدوها القوي، وهو أسرة "جين"، يتعرض لهجوم من المغول من الشمال، وفي عام 1232م، أرسل المغول مبعوثين إلى "سونج"، ولمحوا برغبتهم في التضافر لضرب "جين" مقابل "هنان"، وافق الإمبراطور "ليزونج"، وفي عام 1234م، محت "سونج" والقوات المغولية مجتمعة نظام "جين"، وعندما عاد الجيش المغولي إلى الشمال، اغتنمت "سونج" الفرصة لاستعادة مدينة "كايفنج" في "هنان"، واستمرت في "لويانج"، وعند سماع الأخبار، أرسل المغول القوات جنوبًا مرة أخرى، وضربوا قوات "سونج" ضربة ساحقة؛ حيث قتل عشرات الآلاف من نخبة القوات، وكانت بداية أربعة عقود من الحرب. بعد هذه الهزيمة، فقد الإمبراطور "ليزونج" تدريجيًا روحه التوسعية وانغمس في المتعة على حساب شؤون الدولة، وفي نهاية عهده، عهد كل شيء إلى "جيا سيداو"، وكان "جيا سيداو" مرشحًا ناجحًا حصل على أعلى الدرجات في الامتحان الإمبراطوري المدني في 1238م؛ كما كانت شقيقته أيضًا محظية كبيرة للإمبراطور "ليزونج"، ورقي إلى مختلف المناصب العليا، وفي عام 1259م، شن المغول

هجومًا هائلًا على أسرة "سونج" الجنوبية من أربعة اتجاهات - فهاجم "مونجكي"، الخان المغولي "سيتشوان"، وهاجم "كوبلاي" "إيتشو" في "هوبي"؛ وهاجمت شعبة أخرى "هونان" بعد دخول "جوانجشي" من "يونّان"، بينما هاجم آخر "شيانج يانج" في شمال غرب "إيتشو" من جبل "ليو بان" - أرسلت الأخبار موجات صدمة خلال بلاط "سونج"، وأمر الإمبراطور "ليزونج" "جيا سيداو" بمساعدة "إيتشو" بجيش حيث سمع "جيا" بعد أن مضت أربعة أشهر أن "مونجكي" قد توفي في المعركة، وقد أرسل على الفور رجاله إلى "كوبلاي" لإجراء محادثات سلام، وإذ كان في عجلة من أمره للتنافس على لقب الخان، وافق "كوبلاي" على شروط "جيا" وانسحب إلى منغوليا، ثم ادعى "جيا" أن قواته رفعت حصار "إيتشو"، فاستدعاه الإمبراطور "ليزونج" معتقدًا أنه قد قدم خدمة متميزة ونظم له ترحيبًا رائعًا، ثم أعطاه واحدًا من أعلى ثلاثة مناصب في البلاط.

الآن، أبعد "جيا" الخصيان عن التدخل في شؤون البلاط ومنع نساء البلاط من إساءة استخدام صلاحياتهن، ثانيًا، لزيادة الإيرادات الحكومية، كان يخطط لتنفيذ قانون الأراضي العام الذي ينص على شراء الحكومة لثلث أفضل الأراضي التي يملكها المسؤولون كأراضٍ عامة، وتؤجرها للفلاحين، ومع ذلك، كان الإمبراطور مترددًا في الموافقة على هذا الاقتراح لأن هذا من شأنه أن يقوض طبقة الملاك، ولكن "جيا" دفعه إلى الموافقة وحتى التخلي عن قسم كبير من أرضه في غرب "تشجيانج"، وبعد أقل من ستة أشهر، أعلن مجلس الدولة أن المالية الحكومية تحسنت كثيرًا، ولكن "جيا" كان قد أهان العديد من البيروقراطيين رفيعي المستوى وأصحاب العقارات الأقوياء وزرع بذور دماره.

في عام 1267م، قاد "كوبلاي"، الذي أصبح خان المغول، جيشه جنوبًا لمهاجمة "شيانج يانج"، مدينة "سونج" الجنوبية الاستراتيجية، وكانت النتيجة معركة "شيانج فان" الشهيرة، استمر الحصار ست سنوات حتى 1273م، عندما اضطرت المدينة أخيرًا للاستسلام، وكان ذلك حاسمًا؛ فبعد فقدان هذا الحاجز،

سقطت "سونج" الجنوبية تحت سنابك خيل المغول، وفي عام 1274م، سجل الجيش المنغولي العديد من الانتصارات، بما في ذلك الاستيلاء على "إيتشو" و"جيانجتشو" و"آن تشينج"، وفي عام 1275م، قاد "جيا سيداو" شخصيًا جيشًا إلى المعركة، ولكنه هزم تمامًا، واستخدم حراس جنوب "سونج" هذا الفشل في عزله من منصبه، وقتل في طريقه إلى المنفى على يد مرافقيه. وفي عام 1276م، هاجم المغول واحتلوا العاصمة الجنوبية لـ"سونج" مدينة "لينان"، وأسروا الإمبراطور "جونجزونج" البالغ من العمر خمس سنوات، وعلى الرغم من ذلك، واصل العديد من الوزراء مثل "ون تيان شيانج" و"تشانج شيجي" و"لو شيوفو" القتال على طول الساحل الجنوبي الشرقي، وتوج "تشاو شي" و"تشاو بينج" كأباطرة تباعًا، وفي 1278م، هُزم "ون تيان شيانج" وأُسر، وفي عام 1279م، تحت تهديد من الجيش المغولي، ألقى "لو شيوفو" نفسه في البحر حاملًا "تشاو بينج" البالغ من العمر ثماني سنوات على ظهره، وبذلك انتهت أسرة "سونج" الجنوبية، وفي عام 1282م، مات وزير سونج الشهير "ون تيانشيانج" ميتة الأبطال رافضًا التعاون مع الغزاة المغول وقضى سنوات في السجن قبل أن يعدم.

الفصل الثاني عشر

الأنظمة القائمة

سونج، لياو، شيا، جين

المقدمة

تظهر العلاقة بين أسرة "سونج" الصينية ذات الأغلبية من عرق "هان" ونظم الحدود الشمالية "لياو" و"شيا" و"جين" تعقيد العلاقات العرقية في القرن الحادي عشر، وبصفة عامة، كان سكان الحدود أسلاف الشعب المنغولي الحديث، والتبتي، والجورتشن على التوالي، وبشكل عملي كانت مجموعات من قبائل متباينة، بعضها من البدو الرحل وبعضها استقر أو شبه استقر وكانوا في صراع بعضهم مع بعض وكذلك مع عرق "هان" الصيني على الأراضي والسلطة، وتحدثوا مجموعة واسعة من اللغات التي ربما كانت تنتمي إلى الأسر الثلاث وهي المنغولية والتبتية، والجورتشن ولكن العديد من هذه اللغات انقرضت، أما البعض الآخر، مثل تانجوت، الذي ما زالت نصوصه موجودة، فلا تزال غير مفهومة بشكل كامل، كان الخطان يستخدمان لكتابة لغة الخيتان، والتي هي أيضًا لغة منقرضة ولكن ربما كانت قريبة من المنغولية المبكرة، وتشبه بشكل سطحي الأحرف الصينية ولكن لم يتم فك رموزها تمامًا.

وأدى الصراع على السلطة والنزاعات العسكرية بين هذه الشعوب الحدودية إلى إنشاء عدد من الأنظمة التي سجلت في التاريخ الصيني كسلالات، وتفاوضوا مع أسرة "سونج" واعتمدوا بدرجات متفاوتة عناصر الثقافة والتنظيم الاجتماعي الصيني، كما أثروا على لغة وثقافة "هان" الصينية التي أصبحت مختلفة جدًا عن تلك الموجودة في جنوب الصين.

وكانت معظم هذه الفترة مصدر قلق دبلوماسي وعسكري لأسرة "سونج"، ولم

تكن هذه المجموعات القبلية مجتمعة إلا في حالة كونفدرالية أكبر، حيث شكلت تهديدًا خطيرًا لوجود "سونج"، وأصبح هذا التهديد حقيقة واقعة عندما كان اتحاد المغول تحت "جنكيز خان" قادرًا على التغلب على الدول الصغيرة من جميع القبائل الشمالية الأخرى، وخلق قوة عسكرية وسياسية كانت في ذلك الوقت قادرة على غزو "سونج".

المواجهة بين "سونج" و"لياو"

كـانت المقـاطعات الســت عشـرة هــي "يوتشـو" (بكـين الحاليـة)، و"يونجتشو" (داتونغ الحالية في مقاطعة شانشي)، وأربع عشرة محافظة أخرى حولهما، وجعلت جبال "يان" في الشمال وبحر "بوهاي" في الشرق المنطقة ذات أهمية استراتيجية، وحكت الحضارة الزراعية في السهول الوسطى من القبائل البدوية الشمالية، خلال فترة الأسر الخمس (907 - 960م)، طلب "شي جينج تـانج"، وهـو حـاكم عسكري في "تانج" المتأخرة، العون من واحدة من هذه القبائل، وهي الخيتـان للمساعدة في ثورتـه ضد الإمبـراطور، واعـدًا إياهم بـالمقاطعات الست عشرة في المقابل، وفي عام 936م، أسس نظامًا جديدًا، واستولى على "لويانج"، وأعلن نفسه إمبراطورًا، إلا أنه لم يتنازل فقط عن المقاطعات الست عشرة إلى الخيتان كما وعد، لكنه وافق على تسليم 300.000 لفة من القماش والحرير كل عام، وهكذا كان للخيتان لمدة ما يقرب من أربعة قرون، وصول سهل إلى السهول الوسطى، ولم يكن هناك مفر من الحرب بين "سونج" و"لياو".

كـان "تشـاي رونـغ"، وهـو الإمبـراطور "شيزونج" حـاكم "تشـو"، سياسيًّا بارزًا وخبيرًا استراتيجيًّا، ففي عام 959م، قاد جيشًا شمالًا، واستعاد أربع محافظات، وثلاثة ممرات، وسبعة عشر محافظة في شهر أو يزيد، ومع ذلك، عندما سقط فجأة مريضًا ومات، فقدت الأسرة فرصة كبيرة لاستعادة الأراضي الشمالية، وحاولت أسرة "سونج" الشمالية، التي خلفت "تشو" المتأخرة مرة أخرى، ولد "تشاو كوانجين"، وهـو الإمبـراطور "تـايزو" حـاكم "سـونج"، في "تشـوتشو"

الحالية، بمقاطعة "هيبي"، وكان دائمًا كارهًا للتنازل عن مسقط رأسه، على الرغم من أنه هو وجيوشه قاموا بتوحيد الصين إلى حد ما، إلا أنه رفض اللقب الفخري "إمبراطور الدولة الموحدة والسلمية"، فكيف يمكن أن تكون هناك وحدة دون "يوتشو" و"يونتشو"؟ ولكن قمع الولايات الجنوبية وتأمين أراضيه المستعادة حديثًا لم يترك له الوقت للتعامل مع "لياو"، وتوفي للأسف في 976م، تاركًا مهمة استعادة المحافظات لخليفته، الإمبراطور "تايزونج".

وفي عام 979م، أباد "تايزونج" "هان" الشمالية وقاد جيوشه شمالًا، لكنهم لم يتعافوا تمامًا من معاركهم السابقة، وعند الوصول إلى "يوتشو" عاصمة "لياو" الجنوبية، لم يكن لديهم طاقة للاستيلاء عليها، وعندما وصلت نخبة قوات "لياو" تحت قيادة "ييلو زيوجي"، واجهوا جيش "سونج" عند نهر "جاوليانج"، غرب المدينة، وأطلقت السهام على الإمبراطور "تايزونج" وهرب في عربة يجرها حمار، وبعد ذلك قامت قوات "لياو" بغزو المناطق الحدودية مثل "تشنتشو" (محافظة "تشينجدينج" اليوم في هيبي) وممر "واتشياو" وممر "يانمين" الاستراتيجيين، حيث تم نشر قوات "سونج" الشمالية بشكل كبير، ولكن في 986م، بعد عدة سنوات من التحضير، كان الإمبراطور "تايزونج" على استعداد للانتقام لإصابته، وأرسل قوات إلى الشمال مرة أخرى وقسمها إلى ثلاث وحدات قتالية، فانطلق الجناح الغربي من ممر "يانمن" وسرعان ما استولى على محافظات "هوانتشو" و"شوتشو" و"يونتشو و"يينجتشو"، واستولى القسم الأوسط على محافظتي "لينجتشيو" و"ويتشو"، كما خاض الجناح الشرقي طريقه إلى محافظتي "قوان" و"تشوتشو" الحالية في مقاطعة "هيبي"، ولدى سماع الخبر، أمر الإمبراطور "شينج زونج" الجديد الذي تولى العرش حديثًا من "لياو" والإمبراطورة الأرملة "شياو" قواتهما التي كانت مشغولة بصد الجورتشن بالعودة فورًا، ثم ركبا على رأسها للتعامل مع "سونج"، وقد بدأت جيوش "سونج" الثلاثة بشكل جيد، لكنها افتقرت إلى التماسك، فاندفع الجناح الشرقي قدمًا دون إمدادات كافية، وفي الوقت نفسه، وصلت جيوش "لياو" وصدت القوة الوسطى جنوبًا، مما تسبب في خسائر فادحة، ومع

هزيمة القوات الشرقية في ممر "تشيجو"، أمر الإمبراطور "تايزونج" القوات الوسطى والغربية بالتراجع.

بعد هذه الهزيمة، اضطرت أسرة "سونج" لاتخاذ موقف استراتيجي، فقد أصبحت جيوش "لياو" أكثر عدوانيةً، وبدأت في مضايقة المناطق شمال وشرق النهر الأصفر، ثم في عام 1004م، شنت غزوًا أكثر اتساعًا، فقاد الإمبراطور "شينج زونج" حاكم "لياو" والإمبراطورة الأرملة "شياو" شخصيًا جيوشهما عبر العديد من مقاطعات ومدن "سونج" ووصلوا إلى "تشانتشو" ("بويانج" الحالية في مقاطعة "هنان")، وهي مركز النقل الرئيس على النهر الأصفر، وإذا تم الاستيلاء عليه فإن جيش "لياو" سيعبر النهر ويسير مباشرة إلى العاصمة.

فاجأ عدوان "لياو" بلاط "سونج" الشمالية، وفكر الإمبراطور "تشنزونج" الذي كان جبانًا في نقل العاصمة إلى "جينلينج" - "نانجينج" اليوم في مقاطعة "جيانجسو" - أو "تشينجدو"، بيد أن المستشار "تشو تشون" أصر على الهجوم المضاد الذي يجب أن يقوده الإمبراطور بنفسه لرفع معنويات الجيش وهو الأمر الذي أباد آلاف الأعداء بمن فيهم "شياو تالان" القائد الأعلى لجيوش "لياو"، وأعادت الإمبراطورة الأرملة "شياو" تقييم الوضع، وقررت أنه على الرغم من أن جيوشها كانت متغلغلة في أراضي "سونج" إلا أنه لم يكن لديهم السيطرة الشاملة، وبالتالي كانوا في وضع غير مناسب، وبدلًا من ذلك تم التوصل إلى اتفاق سلام كتب بلغتي "هان" والخيتان، وتنص أحكام المعاهدة على أن أسرتي "سونج" و"لياو" دولتان شقيقتان، وأن "سونج" ستقدم 200 ألف لفة من الحرير و100 ألف تايل من الفضة لـ"لياو" كل عام، وبالإضافة إلى ذلك، اتفق الطرفان على رسم خط الحدود في نهر "بيجو"، الذي يحرسه كلاهما، كما طلبت "لياو" من "سونج" التخلي عن محافظتي "ينجتشو" و"موتشو"، وهو الطلب الذي رفض، أنهت هذه المعاهدة المعروفة باسم تحالف "تشان يوان" الحرب بين "لياو" و"سونج"؛ واستمر السلام طيلة القرن التالي، وعزز التبادلات السياسية والاقتصادية والثقافية، ومع ذلك، فقد كان يضع عبئًا ثقيلًا على أسرة

"سونج" الشمالية، مما أدى إلى نقضه في نهاية المطاف.

صعود وسقوط أسرة "شيا" الغربية

يعتقد أن التانجوت هم فرع من قبيلة "تشيانج" القديمة، وهو مصطلح يعبر عن المجموعات العرقية بما في ذلك التبت الذين عاشوا وما زالوا يعيشون في شمال غرب الصين، ويسمون أيضًا "تشيانج" على اعتبار إن هؤلاء الاشخاص هم أسلافهم، وخلال عهد أسرة "تانج" هاجر التانجوت تدريجيًا شرقًا نحو "قانسو" الحالية و"شانشي" بشمال غربي البلاد، وقدمت إلى "تانج" الذي منح زعماءها ألقابًا رسمية، وساعد "توبا سيجونج" رئيس التانجوت بلاط "تانج" في قمع ثورة الفلاحين، ولذلك أعطي له الاسم العائلي الملكي "لي"، وتمت ترقيته إلى منصب الحاكم العسكري لـ"دينجنان"، ومن خلال هذا حصل على خمس محافظات هي "ين تشو" و"شيا تشو" و"سوي تشو" و"يو تشو" و"جينج تشو"، التي تقع حاليًا في "هنجشان" و"سويد" و"ميتشي" و"دينجبيان" في مقاطعة "شانشي"، وبالتالي سيطر على منطقة واسعة حول مقاطعة "شياتشو".

في أوائل عهد أسرة "سونج" الشمالية كان شعب التانجوت لا يزال تابعًا لسلالات السهول الوسطى، وخلال عهد الإمبراطور تايزونج، اندلع نزاع داخلي بينهم، وفي عام 982م عرض "لي جي بينج" الحاكم العسكري التاسع لـ"دينجنان" المقاطعات الخمس التي أعطيت لهم على أسرة "سونج"، مما أدى إلى غضب ابن عمه البالغ من العمر تسعة عشر عاما "لي جي تشيان"، وادعى الأخير أنه سيذهب إلى جنازة مرضعته وهرب إلى ما يعرف بـ"ديجينزي" اليوم، شمال شرق إردوس في منغوليا الداخلية، ومن هناك أعلن الاستقلال، تمهيدًا للحرب ضد أسرة "سونج" الشمالية.

كان "لي جي تشيان" أرستقراطيًا طموحًا من التانجوت، وكون جيشًا في "ديجينزي" واستعد لاستعادة الأراضي المفقودة، وفي 986م، قرر أن يخضع لـ"لياو" مقابل الدعم العسكري؛ فعينته "لياو" الحاكم العسكري لـ"دينجنان"،

وتزوج من الأسرة الملكية ونصب ملكًا لنظام "شيا"، وبفضل هذا الدعم، انتهت جميع الحروب التي قام بها الإمبراطور "تايزونج" ضده بالهزيمة، ثم فرض الإمبراطور "تايزونج" حصارًا اقتصاديًّا وحظر تبادل الملح من شياتشو مقابل المواد الغذائية في السهول الوسطى؛ ولكن "لي جي تشيان" لم يستسلم.

وخلال عهد الإمبراطور "تشنزونج"، كان على أسرة "سونج" أن تعترف بالنظام الانفصالي الذي يحكمه "لي جي تشيان"، وتعيينه لحراسة "شياتشو" كحاكم عسكري لـ"دينجنان"، كان "لي جي تشيان" لا يزال غير راضٍ، وأراد المحافظات الخمس مرة أخرى تحت حكمه، وفي عام 1002م، استولى على "لينجتشو" - "لينجوو" الحالية في منطقة "نينجشيا هوي" ذاتية الحكم - ونقل عاصمته هناك، وغير اسمها إلى "شيبينج"، وفي نهاية المطاف اضطرت أسرة "سونج" للتخلي عن السلطة، ثم قام "لي جي تشيان" بتوسيع أراضيه من "لينجتشو" إلى المنطقة الواقعة غرب النهر الأصفر، بهدف الاستيلاء على ممر "هيشي"، وفي عام 1004م، أصيب بجروح قاتلة في معركة ضد "توبو"، ولكن قبل وفاته أخبر ابنه، "لي ديمينج"، أن يعطي ولاءه لأسرة "سونج"، وبناء على ذلك، وقع "لي ديمينج" معاهدة "جينجدي" وأعلن نفسه تابعًا لـ"سونج" الشمالية، وخلال فترة حكمه التي استمرت ثلاثين عامًا، شارك "لي ديمينج" في بناء الاستقرار الاجتماعي والنمو الاقتصادي الذي أرسى أساسًا صلبًا للازدهار المستقبلي لنظام "شيا" الغربى أونظام "شيا شيا"، في 1020م، انتقلت العاصمة إلى "شينجتشينج" التي بنيت حديثًا - وهي "ينتشوان" الحالية في "نينجشيا" - وفي الوقت نفسه، كان ابنه "لي يوانهاو" قد سيطر تمامًا على ممر "هيشي"، وبدأت "شيا" الغربية في التبلور، وفي عام 1032م، توفي "لي ديمينج" وتولى "لي يوانهاو" البالغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا مكانه.

كان "لي يوانهاو" طموحًا وذكيًّا، قضى ست سنوات يستعد لإنشاء إمبراطوريته بعد وفاة والده، للتأكيد على السمات الثقافية الفريدة لمجموعته العرقية الخاصة، فأمر بتغيير تصفيفة الشعر لتختلف عن تلك الموجودة في السهول

الوسطى، وأصلح النظام السياسي، وأنشأ مناصب رسمية، وأنشأ رتبًا وألقابًا رسمية مدنية وعسكرية، وأنشأ أيضًا اثنى عشر مجلسًا للرقابة العسكرية، وفي فترة قصيرة من الزمن تمكن من إنشاء وتعزيز خط التانجوت الواجب استخدامه قانونًا، وعندما توج أخيرًا في عام 1038م، سمى الأسرة بـ"داشيا"، وكان يطلق عليها أيضًا "شيا" الغربية نظرًا لموقعها، وتجاهل ألقاب "تانج" و"سونج" واستعاد لقب التانجوت "وي"، عند هذه النقطة، وصلت سيطرة "شيا" الغربية إلى النهر الأصفر في الشرق، "يومين" في الغرب، "شياوجوان" في الجنوب، وصحراء غوبي في الشمال، مغطية أكثر من مليون كيلومتر مربع.

بعد عدد من الحروب مع "سونج" و"لياو"، أدرك الثلاثة جميعًا أن الحرب المستمرة كانت تكلف كثيرًا؛ وفي 1044 و1053م، توصل "سونج" و"لياو" على التوالي إلى اتفاق مع "شيا" الغربية، مما سمح لهم بالتبادل الثلاثي والحفاظ على علاقات ودية نسبيًا، دعت أسرتا "لياو" و"سونج" بعضهما بعضًا باسم الأسرة الشمالية والجنوبية، بينما كانت "سونج" و"شيا" الغربية تسميان بعضهما بالأسرة الشرقية والغربية.

خلال أواخر القرن الثاني عشر، بدأ انحدار "شيا" الغربية، وفي الوقت نفسه، ظهرت قوة جديدة آخذة في الارتفاع وهي المغول، ففي عام 1227م، خاض سلاح الفرسان المغولي بقيادة "جنكيز خان" عدة معارك مع "شيا" الغربية، ودمر ما يقرب من جميع مدنها والقصور واستولى على السلع والسجلات، فاختفت أسرة "شيا" الغربية مع شعبها وثقافتها، وتركت العديد من الألغاز للأجيال لاحقة، واعتقد البعض أنه بعد ذلك تم استيعاب التانجوت ببساطة داخل "هان" و"هوي" وغيرها من الجماعات العرقية، ويعتقد البعض أنهم نجوا من الحرب، وسافروا آلاف الأميال إلى مسقط رأسهم في مويا، وهي التبت، اليوم، ما يزال لأهل "مويا" لغتهم الخاصة، وهي تشبه تلك المسجلة في مخطوطات التانجوت.

لا يعرف سوى القليل من تاريخ التانجوت، ففي عام 1971م، تم تسليط بعض

الضوء على ثقافتهم عندما قام فوج من الجيش المتمركز في "نينجشيا" بحفر خندق وكشفت أقراص مكسورة وشظايا مغطاة بما ثبت أنه لغة التانجوت، ووفقًا لكتاب "الحوليات الجديدة" من "نينجشيا" التي تم تجميعها في سنوات "جياجينج" حاكم أسرة "مينج"، فقد دفن العديد من أباطرة "شيا" الغربية عند سفح جبال "هيلان"، وتم اكتشاف تسعة أضرحة، تشمل المدرجات، وقاعات الأضاحي، وأجنحة، وأبراج مراقبة، وأبراجًا عادية؛ وكان أهمها المدرجات الرئيسة، تقع على بعد عشرة أمتار شمال غرف القبر وشكلت مثل الأهرامات، كانت المدرجات في السابق تصنع عادة فوق غرف القبر من أجل إغلاقها، ولكن هذه المدرجات قد نجت على مدى 770 عامًا بسبب هياكلها الضخمة الكثيفة، وقد كانت المقبرة رائعة على مساحة خمسين كيلومترًا مربعًا، لا يزال يجري حفرها ولكن يمكن رؤية الخارج من المقابر اليوم، موجودًا على سهل إلى الجنوب من مجموعة جبال هيلان.

على مدى السنوات الثلاثين التالية، اكتشف علماء الآثار كميات كبيرة من الآثار الثقافية الثمينة، بما في ذلك النصوص، واللوحات، والعملات المعدنية، والنحاس، والفخار، كما تم استخراج العديد من المنحوتات الحجرية الفريدة والمنحوتات الطينية، مثل "شيوين" غريبة الشكل -وهي زخرفة وضعت على طرفي سقف صيني- مصنوعة من الزجاج الأخضر؛ تماثيل حجرية لرجال ونساء، تماثيل ثيران برونزية مذهّبة يبلغ وزنها 188 كجم ومنحوتات خيزران رائعة وكلها إضافات لا تقدر بثمن لدراسة حضارة التانجوت.

صعود إمبراطورية "جين"

يعزى أصل أسلاف "جورتشن" إلى "سوشين"، الذي عاش في "الجبل الأبيض والنهر الأسود" قبل 221 قبل الميلاد، وقد غير أحفاد "سوشين" اسمهم مرارًا، فكانوا "ييلو" خلال عهد أسر تشين وهان (221 قبل الميلاد - 220 م)، ثم "ووجي" خلال عهد "وي" و"جين" وسلالات الشمال والجنوب (220 - 589)، عندما كانت تتألف من سبع قبائل تدعى "بيشان" و"سومو" و"هاوشي"

و"أنشيجو" و"بودو" و"فوني" و"هيشوي"، وخلال عهد أسرتي "سوي" و"تانج" (581 - 907) كانت تسمى "موهي"، وكانت "سومو" القبيلة الأكثر تطورًا وكان قائدها "داي جو يونج" قد أنشأ مملكة "بوهاي" في حوض نهر "أوسوري" اليوم، أما القبيلة الواقعة في أقصى الشمال، وهي "موهي النهر الأسود" التي كانت تسكن حوض نهر "سونج هوا" والروافد السفلى لنهر "آمور" (هيلونجيانج)، فقد ارتفعت تدريجيًّا إلى السلطة خلال عهد الأسر الخمس (907 - 960) وأعيدت تسميتها بجورتشن.

في عام 926م، أبيدت مملكة "بوهاي" على يد أسرة "لياو" وانتقل شعب "بوهاي" جنوبًا بعد عامين، ثم انتقل الجورتشن إلى أرضهم وتداخلوا مع السكان المحليين، وهكذا فإن الجورتشن المشار إليهم في وثائق "لياو" و"سونج" الشمالية كانوا جميع المجموعات العرقية التي تعيش في منطقة نهر "آمور" و"سونج هوا"، وفي وقت لاحق، انتقل بعضهم إلى الجنوب من "لياويانج"، حيث استقروا وتسجلوا، وكان يطلق عليهم "الجورتشن الناضجة"، وعاش بعضهم إلى الشمال من نهر "سونج هوا" وشمال شرق محافظة "نينج جيانج"، ولكنهم لم يسجلوا، وكانوا يسمون "الجورتشن غير الناضجة" وعاشوا على صيد الأسماك والحيوانات، وفي القرن الحادي عشر، تخلت قبيلة "وانيان" من الجورتشن غير الناضجة عن وجودهم البدوي، وانتقلوا إلى الغرب من جبل "داتشينج" واستقروا على أرضها الخصبة، حيث مارسوا الزراعة والحرف اليدوية وأصبحوا تدريجيًّا قبيلة قوية.

عانى الجورتشن قمعًا لا يرحم على يد الخيتان الذين كانوا يتوقون للتحرر، وقد اتخذوا الخطوة الأولى عندما قام واحد من المساعدين البارزين في "وانيان"، "ووجوناي"، بغزو قبائل جورتشن أخرى وشكل اتحاد القبائل، ثم في عام 1113م، انتخب حفيد "ووجوناي أجودا" رئيسًا للاتحاد، وقد تلقى تدريبًا عسكريًّا منذ الطفولة، وأثبت أنه يتمتع بمواهب سياسية وعسكرية بارزة، وفي وقت سابق كان قد وجه إهانة للإمبراطور "تيانزو" حاكم "لياو" في "وليمة

الأسماك الأولى"، وهو تجمع احتفالي يستضيفه الإمبراطور كل ربيع، وكاد أن يعدم، ولدى عودته إلى بلده، أدرك أن غضب الإمبراطور "تيانزو" لن يموت؛ وبالتالي قرر التمرد، فبدأ العمل على توسيع جيش الجورتشن، وبناء الحصون وصنع الأسلحة وفي الشهر التاسع من 1114م، أعلن "أجودا" رسميًا الحرب على أسرة "لياو"، وبفضل عدة آلاف من الجنود المدربين تدريبًا جيدًا، فاز الجورتشن بسلسلة من الانتصارات التي دمرت جيش "لياو" في محافظة "نينج جيانج" و"تشوهيديان" في مقاطعة "جيلين" الحالية، وكان "أغودا"، الذي يقود موجة نجاحه، قد توج نفسه في "هوينينج" - محافظة "بايشنج" الحالية بمقاطعة "هيلونجيانج" - في ربيع عام 1115م، واعتمد اسم "جين العظيم" لسلالته ولقب نفسه "محقق السلام"، وهكذا أصبح أول إمبراطور من أسرة "جين" باسم إمبراطور "تايزو".

وفي وقت لاحق، هاجم "أجودا" "هوانجلونج" -محافظة "نونجان" اليوم في "جيلين"-، وهي بقعة استراتيجية مهمة كانت تحت حراسة "لياو" الشديدة، وقام بتطويقها وضرب التعزيزات التي جاءت لمساعدتها، وعندما وصلت أخبار هذا إلى بلاط "لياو"، قاد الإمبراطور "تيانزو" شخصيًا قوة قوامها 700 ألف جندي أثناء توجههم إلى "جين"، كان جيش "جين" مكونًا فقط من 20.000 جندي قوي، وبالتالي كانت الاحتمالات كلها ضده، شجع "أغودا" رجاله بأفكار المستقبل الخالي من "لياو"، وعزموا على عدم الاستسلام، وكان التاريخ على جانبه؛ لأنه عندما اشتبك الجانبان في المعركة، سحبت "لياو" قواتها فجأة بسبب صراعاتها الداخلية كما اتضح، ولم يضع "أجودا" الوقت لقيادة الفرسان إلى "هو بودا جانج"، غرب محافظة "ووشانج" في ما يعرف اليوم بمقاطعة "هيلونجيانج"، هناك شن هجومًا واسع النطاق على جيش "لياو" الأوسط، وهرب الإمبراطور "تيانزو" من ساحة المعركة، وأبيدت قوته الضخمة تقريبًا، وقد شكلت هذه المعركة نقطة تحول في الحرب بين "جين" و"لياو".

تحرك "أجودا" للاستيلاء على "لياويانج" عاصمة "لياو" العليا، ثم اقترب من

العواصم الثلاث الأخرى أيضًا، وبعد معرفة الحالة غير المستقرة لأسرة "لياو"، أدرك الإمبراطور "هويزونج" حاكم "سونج" أن الانضمام إلى "جين" في مهاجمة "لياو" يمثل فرصة لاستكمال المشاريع التي لم يكملها الإمبراطوران السابقان "تايزو" و"تايزونج"، وربما حتى إنقاذ أسرة "سونج" الشمالية المضطربة بشدة، وفي عام 1120م في إطار "التحالف الذي أجري في البحر" - وسمي كذلك لأنه تم التفاوض عليه بين المبعوثين الذين عبروا بحر "بوهاي" - استولت جيوش "جين" على المحافظات والمقاطعات شمال سور الصين العظيم، في حين استولت "سونج" على المقاطعات الست عشرة، التي وافقت "جين" على أنها يمكن أن تبقى في حوزتها مقابل نفس المبالغ التي دفعتها "سونج" لـ"لياو".

قامت جيوش "جين" التي لا تقهر بسحق "لياو" تمامًا واستولت على العديد من المدن الكبرى بما في ذلك عاصمتاها الوسطى والغربية بينما عانى مئات الآلاف من جنود "سونج" عديمي الخبرة من هزيمتين رئيستين في هجماتهم على "يانجينج" واضطروا إلى طلب المساعدة من "جين"، وفي عام 1122م، قاد الإمبراطور "تايزو" حاكم "جين" شخصيًّا جيوشه للاستيلاء على المدينة، وفي المقابل طلب 500.000 تايل من الفضة كل عام ومليون جوان آخر (ألف قطعة نقدية مربوطة على سلسلة) كضرائب، واعتبر بلاط "سونج" أن استعادة "يانجينج" ومقاطعاتها الست إنجاز مجيد، فوافقوا بسهولة، على الرغم من حقيقة أن قوات "جين" قد نهبت المدينة.

في 1123م توفي "أجودا" في طريق عودته إلى الشمال الشرقي، وتولى شقيقه الأصغر "ووتشيماي" العرش وأصبح الإمبراطور "تايزونج"، وفي 1122م، بعد هجوم شرس من "جين" اضطر الإمبراطور "تيانزو" حاكم "لياو" إلى الذهاب إلى المنفى وسقطت أسرة "لياو" في الاضطرابات، وفي عام 1125م، تم القبض على الإمبراطور "تيانزو" حيًّا بيد قوات "جين"، ودمرت أسرة "لياو" أخيرًا، وحول الإمبراطور "تايزونج" الآن انتباهه إلى أسرة "سونج" الشمالية، بدأت الحرب بين "سونج" و"جين" على يد "تشانج جوي"، وهو جنرال سابق في "لياو" والذي

اغتال جنرالًا آخر من زملائه كان قد استسلم لـ"جين"، ثم استسلم لـ"سونج"، وقبلت "سونج" استسلامه، مما أثار غضب أسرة "جين"، فأرسل الإمبراطور"تايزونج" في الشهر العاشر من عام 1125م معلنًا أن سونج قد جندت عدة خونة وانتهكت اتفاقهم، قوتين منفصلتين للهجوم، هاجمت القوة الغربية "تاييوان" من "داتونج"، بينما سارت القوة الشرقية على طول الطريق لعبور النهر الأصفر، وعندما وصلت الأخبار الإمبراطور "هيزونج" في "كايفنج"، افترض أن جبال "يان" سوف توفر الدفاع الكافي؛ ولم يعد إلى رشده حتى اجتاز جنود "جين" "هيبي" وسرعان ما وضع جيوش العاصمة في يد خصي يدعى "ليانج فانجبينج"، وأمره بحراسة الجانب الشمالي من النهر الأصفر، وفي الوقت نفسه، سلم العرش إلى ولي العهد "تشاو هوان"، الذي أصبح الإمبراطور "شينزونج"، وهرب من الجنوب، لكن مهمة "ليانج فانجبينج" فشلت، وفي أوائل عام 1126م، عبرت جيوش "جين" النهر الأصفر بسهولة ووصلت "كايفنج".

وقد انقسم بلاط سونج الآن بين مؤيدين للقتال وآخرين مؤيدين للاستسلام، ففضل الإمبراطور "شينزونج" التفاوض عن طريق التنازل عن الأراضي ودفع تعويضات، في حين اعتقد "لي غانج" وغيره أنه من الأفضل أن يبدأ الدفاع فورًا، وفي البداية، كان رأي المؤيدين للقتال سائدًا، فعين الإمبراطور "تشينزونج" "لي جانج" لتولي مسؤولية الدفاع عن "كايفنج"، لذلك دعا "لي" القوات الموالية للتجمع من جميع أنحاء البلاد، وتمكن من تحصين المدينة، وأجبر جيش "جين" المعزول على التراجع، وفجأة في تغير واضح للقدر أصبح موقف المؤيدين للاستسلام يحتل مركز الصدارة، فأجبروا "لي جانج" على مغادرة "كايفنج" وتسريح قواته، وفي الشهر الزائد وهو الشهر الحادي عشر من عام 1126م، سارت جيوش "جين" مرة أخرى نحو الجنوب وحاصرت "كايفنج"، كان جيش "سونج" بلا قيادة فعالة فاستسلم، وفي الشهر الرابع من عام 1127م، هرعت جيوش "جين" المنتصرة إلى "كايفنج" وبدأت النهب بشكل وحشي، وقد اختطف الإمبراطوران "هويزونج" و"تشين زونج"، مع المحظيات الإمبراطوريات، وأعضاء العائلة الملكية، والمسؤولين الحكوميين وهم أكثر من

3000 شخص في المجموع واقتيدوا شمالًا، وقد نهب الذهب والحرير والكنوز الأخرى والآثار الثقافية والوثائق في ما أصبح يعرف باسم حادث "جينجكانج"، وهرب اللاجئون من الجنوب وأعادوا تكوين أسرة "سونج" برغبة قوية في الانتقام.

المواجهة بين "جين" و"سونج" الغربية

في عام 1127م، استولى جيش "جين" على "كايفنج" عاصمة أسرة "سونج" الشمالية، واختطف الأباطرة "هويزونج" و"تشينزونج"" مع 3000 شخص آخر، وكان "تشاو جو"، أمير "كانج" وهو الابن التاسع للإمبراطور "هويزونج" الناجي الوحيد (انظر الشكل (20)، وتولى العرش في "ينجتيان" - "شانجتشيو" بمقاطعة "هنان" - وأصبح الإمبراطور "جاوزونج" من أسرة "سونج" الجنوبية التي تأسست حديثًا، وفي وقت لاحق، هرب إلى "لينان" - "هانجتش"و الحالية في محافظة "تشجيانج" - وأقام عاصمته الجديدة هناك، تبعته قوات "جين" على الفور، وعين "لي جانج" كمستشار - وهو الرجل الذي كان قد دعا إلى الدفاع عن "كايفنج" - وركز "لي جانج" على تنظيم كل من الهيئات الإدارية والجيش، وحث على إقامة مقرات الحرب على طول الأنهار الرئيسة لتسهيل الدفاع.



الشكل (20): بورتريه للإمبراطور "جاو تزو" من فترة حكم أسرة "سونج" الجنوبية.

غير أن عددًا من المسؤولين الآخرين كانوا لا يزالون يفضلون فكرة التفاوض على السلام مع "جين"؛ وفعلوا كل ما في وسعهم لعزل "لي جانج" وتقويض أفعاله، ونتيجة لذلك أجبر على الاستقالة بعد خمسة وسبعين يومًا من تعيينه، وبالمثل، كان الإمبراطور "جاوز ونج" مترددًا في التخلي عن السلطة التي اكتسبها نتيجة لسوء حظ عائلته؛ لذلك كان الخيار المفضل له هو تجنب المزيد من المواجهة مع "جين" والوصول إلى هدنة، وعلاوة على ذلك، كانت "سونج"

الشمالية قد تأسست على تمرد مسلح، لكنها ضبطت الجيش لصالح المسؤولين المدنيين منذ ذلك الحين؛ وبالنظر إلى أن الجيش قد بدأت قوته تتزايد مرة أخرى، فقد كان يخشى التمرد، وهكذا كانت سياسته هي الإبقاء على الوضع الراهن والتحدث عن الأمور مع "جين"، مع الحفاظ على قبضة قوية على السلطة، ولم يعين جنرالات شجعانًا إلا عندما كان يواجه خطرًا وشيكًا لمحاربة جيش "جين"، ثم يقوم بتجريدهم من السلطة مرة أخرى بمجرد انتهاء الخطر.

وفي عام 1127م، بدأت أسرة "جين" محاولة أخرى واسعة النطاق للقضاء على عهد أسرة "سونج" الجنوبية التي تأسست حديثًا، وفي الشهر الأخير من ذلك العام، هاجمت جيوشها "كايفنج"، التي كان يحرسها "تزونج زي"، فقام بتنظيم هجمات مضادة فعالة بمساعدة الشماليين الذين تعبوا من وحشية الجورتشن، وشملت هذه القوات "ووما شانتشاي" في "هيبي"، وجيش العمائم الحمر إلى الشرق من النهر الأصفر في مقاطعة شانشي، وجيش "بازي" في جبال "تايهانج"، وفي الشهر الخامس من عام 1128م، أرسل "تزونج زي" رسالة إلى الإمبراطور "جاوزونج" طالبًا منه العودة إلى "كايفنج" وتنظيم بعثة شمالية؛ ولكن الإمبراطور استقر في "يانج تشو" وتجاهله ببساطة، وتوفي "تزونج زي" في الشهر السابع من عام 1128م.

بعد وفاته، انهارت دفاعات "كايفنج"، وشنت أسرة "جين" التي لم ترَ عقبة أمام تقدمها الجنوبي هجومًا كبيرًا آخر على منطقتي نهر اليانجتسي وهوي، أصدر الإمبراطور تايزونج حاكم "جين" مرسومًا ضد الإمبراطور "جاوزونج" وأمر جيوشه بمطاردته، فهرب إمبراطور "سونج" الجنوبية من خلال الفرار إلى الساحل، وتوسل للرحمة من "جين" عبر سلسلة من المبعوثين، إلا أن "جين" لم تتزحزح وساروا إلى الأمام ينهبون ويسلبون؛ ولم يكن أمامهم سوى العائق الوحيد الذي فرضه الجنرال "هان شيتشونج"، الذي خاض معركة شرسة في "هوانج تيان دانج"، وفي عام 1130م، استغل التضاريس الجغرافية للمنطقة في تطويق قوات "جين" البالغ قوامها 100000 جندي بـ 8000 من أفضل رجاله،

واستقر كِلا الجانبين على موعد للمعركة النهائية، وفي التاريخ المحدد، نجح "هان شيتشونج" في إلحاق خسائر فادحة بقوات "جين"؛ حيث ظلوا محاصرين لمدة ثمانية وأربعين يومًا، ولم يهربوا إلا بإعادة فتح المسار القديم لنهر "لاوجوان" وحرق عدد من قوارب جيش "سونج" الجنوبية.

هزت هذه المعركة ثقة "جين" وأجبرتها على إعادة النظر في استراتيجيتها العسكرية، وقد أرسل "تشين هوي" لاختراق بلاط "سونج" الجنوبية وترأس محادثات السلام، وفى الوقت نفسه، وضعت "جين" "ليو يو" كإمبراطور لـ"تشي" في وسط الصين بين النهرين الأصفر وهوي مما شكل منطقة عازلة بين أسرتي "جين" و"سونج"، وقد حول جيش "جين" تركيزه من وديان نهر اليانجتسي ووديان "هواي" إلى "شانشي"، وفي عام 1130م، هاجمت قوات "سونج" في "شانشي"، التي اضطرت إلى التراجع إلى "هي شانج يوان" - جنوب غرب محافظة "باوجي" الحالية بمقاطعة "شانشي" - كانت "هي شانج يوان" موقعًا استراتيجيًّا يصعب الوصول إليه فهو بوابة إلى منطقة الحدود بين "سيتشوان" و"شانشي"، ومع ذلك، قرر جيش "جين" للهجوم، ولكن "سونج" استفادت من الاستخدام الجيد للتضاريس لضرب جيش "جين"، وأثار ذلك غضب حاكم "جين"، الذي أمر بعد ذلك بإرسال أكثر من 100 ألف رجل لتجديد الهجوم. أمر "وو جي" من جيش "سونج" ضباطه باختيار أرقى الرماة لإمطار جيش "جين" بالسهام، مما أدى إلى تراجعهم على عجل وتركهم أسلحتهم خلفهم، استفاد "وو جي" من هذا عن طريق إرسال وحدتين من النخبة لمحاذاة العدو المتراجع، وقطع إمداداته، كان هذا أول مسير رئيس لجيش "جين" منذ زوال سونج الشمالية، واضطرت إلى التخلي عن خطتها لمهاجمة "سيتشوان"، وفي الوقت الراهن، ساد السلام مرة أخرى في نظام "سونج" الجنوبية.

وفي وقت قريب من معركة "هي شانج يوان"، حكم "تالان" أسرة "جين" ودعا إلى التفاوض في السلام مع "سونج"؛ واقترح أن تستسلم "سونج" الجنوبية وتدفع الجزية لـ"جين" في مقابل المنطقة جنوب النهر الأصفر (التي كانت

تسيطر عليها الدولة الدمية "تشي")، أثار هذا التغيير ردود الفعل المختلفة في بلاط "سونج" الجنوبية، فكان الإمبراطور "جاوزونج" مؤيدًا، وعين "تشين هوى" مستشارًا لرئاسة المفاوضات، ومع ذلك، عارضه الكثيرون، فقد كانوا لا يثقون في الجورتشن ولا اقتراحاتهم، ومن بين هؤلاء، كان الجنرال "يوي فاي" الأعلى صوتًا، ولد الجنرال في أسرة من الفلاحين في "تانجيين" بمقاطعة "هنان"، وانضم إلى الحرب ضد "جين" بعد حادث "جينجكانج"، ولأكثر من عشر سنوات قاتل بشجاعة في كل معركة، وسرعان ما ارتفع ليصبح جنرالًا بارزًا رائعًا، وفي 1134م، قاد جيشه إلى "إيتشو" واستعاد ست محافظات بما في ذلك "شيانج يانج"، التي كانت تسيطر عليها الدولة الدمية "تشي"، وفي سن الثانية والثلاثين تم تعيينه حاكمًا عسكريًا وأصبح أصغر وأبرز جنرال من أسرة "سونج" الجنوبية، وقد حظي جيش "يو فاي" باحترام عميق لانضباطه الصارم، وأصبح الدعامة الأساسية للقوات المضادة للجورتشن في القوات المسلحة.

وفي الشهر الخامس من عام 1140م، انقسم جيش "جين" إلى قسمين وسار نحو "شانشي" و"هنان" على التوالي، وصد "يو فاي" هجمات الأعداء في "سيتشوان" و"شانشي"، ووسط وشمال "آنهوي"، ثم توجه إلى السهول الوسطى واستعاد العديد من المحافظات مخالفًا الأوامر، وفي الشهر السابع، حصل على انتصار حاسم في "يانتشينج" بـ"هنان"، وأباد فرقة النخبة "جويزيما" قبل هزيمة قوة الجورتشن الرئيسة في "شوتشانج" بـ"هنان" وطاردهم حتى بعد ثلاثين كيلومترًا من "كايفنج"، وكادت جيوش "جين" تيأس، وكادوا أن يتخلوا عن "كايفنج" ويهربوا شمالًا عبر النهر الأصفر، ولكن الإمبراطور "جاوزونج" قلق من أن هذه الانتصارات المتعاقبة سوف تدمر محادثات السلام مع أسرة "جين"؛ لذلك استدعى جميع جيوش سونج، وترك "يو فاي" أعزل، ثم أرسل اثنتي عشرة لوحة من الذهب (نوع من الرسائل العاجلة)، مما اضطر "يو فاي" وجيوشه للعودة في الحال، ولدى انسحابه، أعرب "يو فاي" عن أسفه لأن عشر سنوات من الإنجازات قد دمرت في يوم واحد، وفي عام 1141م، استدعى الإمبراطور "جاوزونج" ثلاثة جنرالات كبار، من بينهم "يو فاي"، وفصلهم عن

الواجبات العسكرية لتسهيل مفاوضاته، وللتأكد بشكل مضاعف من أنه لن تكون هناك عقبات، أعدم "يو فاي" وابنه في ليلة رأس السنة الصينية، ووقعت "سونج" و"جين" معاهدة "شاوتشينج" التي نصت على استسلام أسرة "سونج" وتنازلها عن الأراضي ودفعها الجزية لأسرة "جين".

الفصل الثالث عشر

الإرث الثري لأسر "تانج" و"سونج"

المقدمة

لا بدَّ من النظر في عهد أسرة "سونج" على جزئين، فقد حكمت "سونج" الشمالية (960 - 1125م) عمليًّا كامل أراضي الصين من عاصمتها في "كايفنج" بعد إعادة توحيد البلاد على يد أول اثنين من الأباطرة، وبعد أن غزت قوات الجورتشن (أسلاف مانشوس) بين عامي 1125 و1127م، فقد بلاط سونج السيطرة على الشمال وأعادت بناء مقرها الإداري في "هانجتشو" وكانت تعرف باسم "سونج" الجنوبية وحكمت حتى عام 1279م، خلال هذه الفترة حكم الشمال أسرة "جين" من الجورتشن.

ولا ينبغي أن ينظر إلى ثلاثمائة سنة من عهد أسرة "سونج" فقط من حيث عدم قدرتها على الصمود في وجه الغزو المغولي، فقد كانت فترة الابتكار التقني والتنمية الصناعية والتجارية التي لا يمكن تكرارها حتى القرن السادس عشر في منتصف عهد أسرة "مينج"، وبدأ التعدين وبناء السفن على نطاق واسع، ونما عدد المراكز الحضرية، وكان هناك تقدم كبير في صناعة الخزف والمنسوجات والورق وفي الطباعة وأيضًا في الزراعة والحفاظ على المياه والري.

كان تطوير شكل مبكر من نوع الطباعة المنقولة مهمًّا في نشر الأفكار في الكتب والصحف الشعبية البسيطة المعروفة باسم "شياوباو" التي كانت مؤثرة بما فيه الكفاية لجذب الرقابة الحكومية، كما مكنت تكنولوجيا الطباعة من إنتاج الأوراق النقدية بكميات كبيرة، وهذا بدوره يسر نمو القطاع التجاري المزدهر.

وكانت الحرب سمة ثابتة للحياة، وخاصة ضد الهجمات من قبائل التي لا تنتمي لعرق "هان" من الشمال، وقد استخدمت التكنولوجيا العسكرية لتطوير أسلحة متطورة، استخدمت أمثلة عديدة منها البارود، وأثبتت هذه في البداية فعالية ضد الأسلحة التقليدية أكثر من سلاح الفرسان البدو ولكن استخدامها انتشر إلى أعداء "سونج" وفي نهاية المطاف في جميع أنحاء آسيا وأوربا.

وقد أدى تطور المدن والبلدات إلى ثقافة حضرية متطورة يمكن أن تتمتع فيها الطبقات الأكثر ثراء بالترفيه وتناول الطعام والشراب من أجل المتعة: فهناك دليل على وجود ثقافة الطعام والشراب يأتي من كتب القوائم وشعبية حفل الشاي الذي سيصبح لاحقًا أكثر أهمية في الثقافة اليابانية عنه في الصينية، كما نشأت ثقافة أدبية بين النخبة، وخاصة الدراسات التاريخية التي بنيت على تقاليد أسرة "تانج"، ليس هذا فقط ولكن أيضًا الموسوعات والأعمال الفلسفية في التقاليد الكونفوشيوسية الجديدة والمقالات النثرية والشعر، وبقيت بعض الأعمال الدرامية من تلك الفترة، ولكن العديد من مجموعات القصص الشعبية بقيت أيضًا، وكانت هذه القصص تُتلى في مناطق الترفيه في المدن وكتبت بأسلوب أقرب إلى العامية بدلًا من الأسلوب الأدبي الرفيع والمعقد الخاص بالنخبة.

اقتصاد مزدهر

على الرغم من الفشل العسكري لأسرة "سونج" فقد كان لديها اقتصاد متطور للغاية، وكانت هذه هي الحال بشكل خاص في الجنوب، الذي احتوى أكثر الأراضي الصالحة للزراعة، ونظم الري المتقدمة، وتقنيات الزراعة التي جاءت من الشمال، إضافة إلى المنسوجات المتطورة والسيراميك وبناء السفن وصناعة الورق وصناعة الطباعة، وقد جاء هذا النمو نتيجة لانتقال الشماليين إلى الجنوب، وهو اتجاه بدأ في وقت متأخر من عهد أسرة "هان" الشرقية، والذي جلب ليس فقط قوة عاملة ولكن أيضًا تكنولوجيات متقدمة، كما كانت ثورة "آن لوشان" خلال فترة منتصف "تانج" عاملًا رئيسًا آخر في تحول

الجنوب إلى مركز اقتصادي؛ لأنه أدى أيضًا إلى تحول السكان بشكل حاد إلى الجنوب، فخلال فترة الأسر الخمس والممالك العشر، كانت هناك تغيرات متكررة في النظام وحرب مستمرة في الشمال، بينما ظل الجنوب مستقرًا نسبيًا، وبحلول عهد أسرة "سونج" الجنوبية، كان الاقتصاد الجنوبي قد تجاوز اقتصاد الشمال.

اختارت أسرة "سونج" الشمالية "كايفنج" عاصمة لها بدلًا من "تشانج آن" و"لويانج" عاصمتي "هان" و"تانج"، بسبب نظام النقل المائي المريح وسهولة الوصول إلى الإمدادات من الجنوب، وقد استخدم مؤسسو أسرة "سونج" استراتيجية توحيد البلاد من الجنوب إلى الشمال، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى اضطرارهم إلى الاعتماد على ثروة الجنوب، فخلال 150 عاما من حكم "سونج" الشمالية، تطور الاقتصاد الجنوبي بسرعة، وزادت كميات البضائع المنقولة والضرائب المدفوعة إلى الشمال، وفي أثناء فترة حكم سونج الجنوبية، واصل الاقتصاد الازدهار، وقد استصلح سكان الجنوب الذين يعملون بجد مساحات واسعة من الأراضي القاحلة؛ فشوهدت الحقول المدرجة في كل مكان على تلالها وجبالها، وكانت الجرافات شعبية بالفعل خلال حكم أسر "سوي" و"تانج" وتم تطويرها أكثر خلال فترة الأسر الخمس والممالك العشر، وفى الوديان السفلى في نهر اليانجتسي ووادي هواي، قام الناس ببناء السدود لخلق الحقول التي ترويها الأنهار أو البحيرات الكثيرة، وكان للسدود بوابات يمكن فتحها في أوقات الجفاف وتغلق خلال الفيضانات، مما يضمن الحصاد الجيد مهما كان الطقس، كما أن السكان الجنوبيين كانوا يتقنون تقنيات زراعية أكثر تقدمًا مثل دوران محصول الأرز والقمح، ويحسنون كثيرًا من أدواتهم: فاستخدموا "حصان الشتلات" على نطاق واسع لسحب وزراعة شتلات الأرز، في حين كانت أدوات الري مثل المضخات الهيدروليكية لم يعد للفلاحين غنى عنها في "جيانجسو" و"تشجيانغ"، كما أدخل إدخال المحاصيل الأجنبية حياة جديدة في الزراعة الجنوبية: فكان أرز "تشامبا" القادم من فيتنام شائعًا بالفعل في جنوب شرق الصين خلال عهد أسرة "سونج" الشمالية، مما يسمح لمناطق

زراعة الأرز بالتوسع بشكل كبير.

وقد نمت سمعة "جيانجسو" و"تشجيانج" اللتين تقعان في الروافد الدنيا لنهر اليانجتسي وحوض بحيرة "تاي" باعتبارهما وعاء الأرز في البلاد كلها، وفي المنطقة المحيطة بـ"سوتشو" و"هوتشو" و"تشانجتشو" جرت الزراعة المكثفة للأرز، وارتبطت بمعظم التحسينات التكنولوجية، واعتمد نظام الزراعة المزدوج هنا، حيث تم حصاد الأرز مرتين في السنة، أو حصاد الأرز والقمح مرتين، وكان هذا أيضًا أول مجال لإدخال أرز "تشامبا" ولزراعة بذور الأرز عالية الجودة التي تم تكييفها مع البيئة المحلية، وقد تفوقت هذه المناطق على إنتاج الحبوب المطحون والتربة الخصبة جزئيًا بسبب أنظمة الري المتقدمة، وكثيرًا ما ارتفعت مياه البحر إلى الأراضي الزراعية في منطقة مصب نهر "تشيانتانج"، مما ألحق الضرر بالجدران البحرية، وخلال فترة الأسر الخمس والممالك العشر، بدأ "تشيان ليو"، حاكم مملكة "وو يو"، إنشاء أقفاص الخيزران وحشوها بالحجارة واستخدمها لبناء جدران واقية من مياه البحر، وخلال الإصلاحات السياسية التي بدأها "وانج آن شي" (1021 - 1086م)، أصبحت مشاريع التحكم في المياه أمرًا شائعًا، فكانت هذه هي الحال بشكل خاص في حوض بحيرة "تاي" خلال عهد أسرة "سونج" الجنوبية مما زاد إنتاجها.

ومن بين المحاصيل النقدية المزروعة على نطاق واسع في الجنوب، كان الشاي هو الأكثر شيوعًا، وكل عام يباع ما يساوي مليون سلسلة من العملات المعدنية النحاسية من الشاي، وتجاوز كل المحاصيل النقدية الشمالية مجتمعة، كما ازدهرت الحرف المصنعة من المنتجات الزراعية مثل الحرير والقطن، وقد زرع القطن لأول مرة في "جوانجشي" و"يونّان" و"فوجيان" ثم في "سيتشوان" ووديان نهر اليانجتسي وهوي، وخلال عهد أسرة "سونج"، صنعت "شو" أو مطرزات "سيتشوان" بعشرات الأشكال واعتبرت الأفضل في العالم، وكانت المنتجات البارزة الأخرى الشاش الناعم من "بوتشو" في "آنهوي"، وخيوط اللوتس و"شينجو" من "فوتشو" في "جيانجشي"؛ حرير الجزية ذو مع الحافة

الحمراء من "جينهوا"، والحرير المطرز بالأزهار من "دونجيانج"، وحرير "سي" من "شاوشينج" بمقاطعة "تشجيانج" ونسيج "جي" من "شاويانج" في مقاطعة "هونان".

كما أصبحت الأقمشة مثل نسيج القنب من "غوانغشي"، وأقمشة الفتيات من "شيانجشان" بـ"نينجبو" في "تشجيانج"، وأقمشة "ياوبان" المصنعة في "كونشان" من "سوتشو" في "جيانجسو" وأقمشة "تشيان" من "جيانجشي" مشهورة.

وازدهر إنتاج السيراميك بشكل كبير خلال عهد أسرة "سونج" الجنوبية، فكانت "جينج تشن" في مقاطعة "جيانجشي" "عاصمة الصين" في صناعته لفترة تعود إلى فترة الأسر الخمس، وبمرور الوقت، أقيمت أفران في كل قرية وانتشر استخدام الأواني الخزفية في كل أسرة؛ وتم تصدير المنتجات النادرة إلى الخارج عبر طريق الحرير البحري، مما عزز صناعة بناء السفن بشكل هائل، تجدر الاشارة إلى أن "نينجبو" و"ونتشو" و"لينهاي" و"جينهوا" في "تشجيانج" و"جانتشو" و"جيان" في "جيانجشي" و"تشانجشا" و"تشانجدي" في "هونان" كانت كلها مراكز لبناء السفن، حيث أقامت الحكومة مكاتب للإشراف على بناء سفن خاصة بها إلى جانب المشروعات الخاصة.

وصلت صناعة الورق أيضًا إلى ذروتها خلال عهد أسرة "سونج"؛ فكانت هناك مصانع ورق في جميع أنحاء البلاد، ولكن "تشجيانج" و"سيتشوان" و"فوجيان" كانت مراكز رئيسة، واستخدمت مواد خام مختلفة مثل الخيزران والقنب وتوت الورق والكابوك لإنتاج أنواع مختلفة من الورق، ومن ناحية أخرى، كانت الطباعة تطورًا جديدًا، وباستثناء "كايفنج"، عاصمة أسرة "سونج" الشمالية، كانت معظم مراكز الطباعة في المواقع الجنوبية مثل "هانجتشو" و"جينهوا" في "تشجيانج" و"تشينجدو" في "سيتشوان" و"جيانيانج" في "فوجيان"، ويرجع ذلك إلى سهولة وصولهم إلى المواد الخشبية، والاقتصادات المزدهرة، ووجود عدد كبير من السكان والأدباء، والطلب الكبير على الكتب والوثائق، كما

أدى النمو العام في الاقتصاد إلى ظهور النقود الورقية، وبحلول عهد أسرة "سونج" الجنوبية، كانت الأموال الورقية تتداول على نطاق واسع، لتحل محل العملات النحاسية باعتبارها الشكل الرئيس للعملة.

وقد عزز الاقتصاد الجنوبي المزدهر خلال عهد أسرة "سونج" تطور الثقافة كما رفع الوضع السياسي للجنوبيين، فخلال عهد أسرة "سونج" الشمالية، كان نصف المستشارين [رؤساء الخدمة المدنية] من الجنوب؛ كما كانوا كذلك أيضًا خلال عهد أسرة "سونج" الجنوبية، وكان ازدهار الجنوب بالنسبة للشمال من المقرر أن يستمر الآن في الألفية القادمة.

وفي المجتمع الصيني الإقطاعي، كانت التجارة دائمًا مزدهرة على حساب الزراعة؛ ولكن أسرة "سونج" أعطتهما وزنًا متساويًا، مؤكدة على التنمية الاقتصادية وإدخال القوانين التي عززت التجارة، تم تقسيم الحواجز بين المناطق السكنية (فانج) والسوق (شي)، ورفعت القيود المفروضة على ساعات التداول، والآن، افتتحت المطاعم - المطاعم والمخابز بشكل خاص - للعمل في الفجر وأغلقت لفترة طويلة بعد منتصف الليل، هذا إذا أغلقت على الإطلاق؛ أما "وازي" وهي أماكن الترفيه، فبقيت أبوابها مفتوحة ليلًا ونهارًا.

وبفضل السياسات المريحة وإمكانية تحقيق الأرباح، أصبح عدد متزايد من الناس تجارًا، وبرزت مراكز تجارية مزدهرة، وظهرت العديد من الأسواق الإقليمية الكبيرة، ولكل منها مدينة كمركز تجاري لها، فكانت "تشينجدو" في سيتشوان مركزًا للنقل في جنوب غرب الصين، ولم تكن فقط مركز توزيع السلع المنتجة في غرب سيتشوان، مثل الحبوب والحرير والسيراميك والشاي والورق والكتب، ولكن أيضًا ميناءً تجاريًا مهمًا لتجارة الشاي والخيول مع الأنظمة المحيطة مثل "توبو" و"دالي"، و"سوتشو" في حوض بحيرة "تاي"، و"جيانكانج" على الروافد الدنيا من نهر اليانجتسي، و"إيتشو" في مناطقها الوسطى، و"هانتشونج" في "شانشي" مراكز اقتصادية إقليمية أخرى، أما "كايفنج"، عاصمة "سونج" الشمالية، و"لينان"، عاصمة "سونج" الجنوبية، فكانتا

أكبر المدن في الصين والأكثر ازدهارًا في العالم.

كانت "كايفنج" في مقاطعة "هنان" الحالية تعرف أيضًا باسم "دونج جينج"، "بيان تشو"، أو "بيان ليانج"، وأصبحت تدريجيًا ميناء لنقل الحبوب، نظرًا لموقعها الرئيس على طول قناة "تونج جي"، ولم تكن فقط القلب السياسي والاقتصادي والثقافي للصين، ولكن أيضًا مدينة المستهلك الصاخبة بالتجارة، ولم تعد المتاجر تقتصر على الأسواق المحاطة بالجدار، ولكنها كانت منتشرة في جميع أنحاء المناطق السكنية على طول الشوارع أو الأنهار، والتي تطورت لاحقًا إلى شوارع عالية مزدحمة، كما كان هناك العديد من الأسواق الليلية، ويصور "تشانج زدوان"، رسام أسرة "سونج" الشمالية، مشهد شارع "كايفنج" في لوحة "على طول النهر خلال مهرجان تشينج مينج": الشوارع مليئة بالمخازن واللافتات، وزينت المخازن بفوانيس أو أوشحة ملونة أو خطوط ورسومات نادرة، وتبدو المدينة بأكملها مغمورة بوسائل الترفيه، وعرضت جميع أنواع العروض في أماكن "وازي" أو الترفيه، وانتشرت المطاعم وازدهرت ازدهارًا كبيرًا.

وكانت مدينة أسرة "سونج" الرئيسة الأخرى هانجتشو (تسمى أيضًا يوهانج أو لينان)، محطة القناة الكبرى وأصبحت مزدهرة بشكل متزايد بعد منتصف فترة تانج، أما في عهد أسرة "سونج" الشمالية، فكانت أكبر مدينة في الجنوب الشرقي، واختارتها أسرة "سونج" الجنوبية لتكون عاصمتها، وخلال ذلك العهد عندما كانت تعرف باسم "لينان"، تجاوز عدد سكانها مليون شخص، وازداد الطلب على السلع الاستهلاكية، ودخل عدد لا يحصى من السفن المدينة عبر نهر تشيانتانج، والقناة والبحر.

وفي المقاطعات والبلدات والريف، لم تكن الأنشطة التجارية أقل ديناميكية، وكانت أسواق البلدات تابعة لأسواق المدينة؛ كانت كلمة البلدة (zhen) اختصارًا لكلمة "حماية" (zhenshou)؛ لأنها كانت إلى حد كبير حصونًا قبل عهد أسرة "سونج"، وأصبحت الآن مناطق تجارية وسكنية توجد فيها وكالات الضرائب،

وتنتشر الآلاف من أسواق المدن في جميع أنحاء البلاد؛ فقد تطور الكثيرون بسرعة بحيث تجاوز وضعهم الاقتصادي وضع البلدان ذات المركز الأعلى، كما نشأت العديد من الأسواق القروية خلال عهد أسرة "تانج" المتأخرة و"سونج"، وفي البداية، كانت مناسبات عادية حيث يجلب الفلاحون منتجاتهم لتبادل الأدوات الزراعية والبقالة، ولا أحد يعيش فعلًا هناك، ولكن هذا تغير مع تطور الأسواق إلى مناطق سكنية؛ وبعضها التي تعتبر أقرب إلى أسوار المدينة تطورت إلى مراكز تجارية جديدة.

خلال عهد أسرة "سونج"، كانت العملات النحاسية تستخدم على نطاق واسع في معظم أنحاء الصين، ولكن سيتشوان وحدها استخدمت النقود المعدنية، كانت ثقيلة، ومنخفضة القيمة، ومرهقة، مما أعاق استخدامها كثيرًا لمسافات طويلة أو في التجارة السائبة، ثم "جياوزي"، وهي نوع من القسائم النقدية التي ظهرت وأصبحت أول ورقة مالية في الصين القديمة وربما في العالم، وقد أصبح ذلك ممكنًا بفضل التطورات في الطباعة الخشبية، وقد تم تبادل العملات المعدنية من الحديد مقابل النقود الورقية، التي كانت مماثلة للإيصال، ولكن يمكن تبادلها أيضًا، وخصم ثلاثين ون من كل جوان من العملات النحاسية كفوائد (حيث 100 ون تعادل واحد جوان)، ومع نمو الاقتصاد، كان استخدام النقود الورقية أكثر فأكثر في البداية في سيتشوان فقط، ولكنه انتشر تدريجيًا في المناطق الواقعة شمال نهر اليانجتسي، وأنشأت الحكومة مكتب المال الورقي في كايفنج، الذي كان مسؤولًا عن طباعة وإصدار الـ"جياوزي"، وعندما تقلصت أسرة "سونج" الجنوبية وقل عدد المصكوك من النقود النحاسية، استخدمت النقود الورقية على نطاق أوسع، وظهرت أربعة أنواع رئيسة من العملات الورقية في مناطق مختلفة، كما كان هناك إصدار جديد من سيتشوان حل محل "جياوزي" منخفضة قيمة في 1107م وسمي "تشيانين"، وتسمى أيضًا العملات من وسط وشمال آنهوي "جياوزي" أيضًا، أما تلك التي استخدمت في "هانجتشو" فكانت "هويزي"، وكلها تم تبديلها بالعملات الحديدية، وكانت النقود الورقية من الجنوب الشرقي تسمى أيضًا "هويزي"، ولكن تم تبديلها

بالعملات النحاسية فقط، وكانت هويزي العملة الأكثر استخدامًا على نطاق واسع في عهد أسرة "سونج" الجنوبية؛ وكان لكل منها مناطق تداول خاصة بها وكانت هناك أسعار صرف في ما بينها.

كما أصبحت التجارة الخارجية ذات أهمية أساسية في هذه المرحلة، فبعد ثورة "آن لوشان"، أصبحت العلاقات مع العديد من الجماعات العرقية في الشمال الغربي متوترة، حيث كانوا يسيطرون على ممر "هيشي" وحاصروا طريق الحرير المؤدي إلى الغرب، وخلال عهد أسرة "سونج" الجنوبية على وجه الخصوص، احتل معظم وسط الصين، وبالتالي لم يكن أمام حكومة "سونج" أي خيار سوى تطوير التجارة الخارجية، وكان كل من الطفرة الاقتصادية الجنوبية وصناعة بناء السفن المزدهرة، مع تقنيات الإبحار المتقدمة، عوامل مساهمة، وعين الإمبراطور "تايزو" لجنة التجارة البحرية في "جوانج تشو"، والبعض الآخر سرعان ما أنشئ في "هانجتشو"، و"مينجتشو"، و"تشيوانتشو"، و"ميتشو"، وأماكن أخرى، وكانت اللجنة مسؤولة عن تلقي الضرائب على رجال الأعمال الأجانب والإشراف وفرض الضرائب عليهم، وكذلك فحص الضرائب المفروضة على السفن المحلية وتحصيل الضرائب منها؛ وبالتالي جمع كمية كبيرة من الإيرادات، وكانت العديد من الموانئ، مثل "جوانج تشو" و"تشوانتشو"، ذات شهرة عالمية، في حين كانت "مينجتشو" أصغر، وتداولت بشكل رئيس مع اليابان و"جوريو" (كوريا)، وشملت الصادرات العديدة من أسرة "سونج" الخزف والحرير والنقود المعدنية، في حين كانت الواردات أساسًا: التوابل، والأدوية، والعاج، وقرون وحيد القرن، عاش رجال الأعمال الأجانب في مدن الميناء على طول الساحل الجنوبي الشرقي في المناطق المعروفة باسم "فانفانج"، وشكل كل ذلك جزءًا من الاقتصاد المزدهر لأسرة "سونج"، والإنجازات الفنية والثقافية البارزة، على الرغم من سمعتها بالفقر والضعف.

وحيث إن الطبقة الحاكمة لأسرة "سونج" عاشت للمتعة، فإنه ليس من المستغرب أن طعامهم أصبح أكثر دقة وحساسية، ويقال إن هناك أكثر من

ثلاثين وصفة لطهي السمك وعشرين لطهي لحم الضأن، فضلًا عن عشرة أو عشرين نوعًا من التوابل، كان ينظر إلى النظام الغذائي الرائع لأسرة "سونج" في الأسواق الليلية، التي كانت مفتوحة على مدى الساعة، والعديد من المطاعم أغلقت لبضع ساعات فقط في الليل قبل إعادة فتحها لبيع وجبة الإفطار والوجبات الخفيفة عند الفجر، ومنذ أن سادت البوذية في عهد أسرة "سونج"، أصبح الطعام النباتي جزءًا حيويًّا من النظام الغذائي، وفقًا لـ"سجلات حلم العظمة"، كانت العديد من الأطباق التي كان يدخل في اسمها الدجاج، السمك، أو معدة الحيوان كانت مصنوعة في الواقع من التوفو والخضروات، ولكن شكلت لتظهر خلاف ذلك، كما استخدمت الأعشاب على نطاق واسع، وذلك لإضافة الذوق ولأسباب طبية.

شهدت أسرة "سونج" اشتهار حفل الشاي، فقد أحب الجميع، من الإمبراطور والمسؤولين إلى الناس العاديين، شرب الشاي، ويمكن رؤية الصف على صف من بيوت الشاي في مدن مثل "كايفنج" و"لينان"، التي قدمت أنواعًا مختلفة من الشاي على مدار السنة، وأصبح تخمير الشاي فنًّا خاصًّا، وبدأ الرجال المتعلمون الانخراط في "لعبة الشاي"، وهي مسابقة بين صانعي الشاي على أساس لون الشاي ورائحته، وفي متحف القصر الوطني في "تايبيه"، توجد لوحة تعود إلى عهد "سونج" الشمالية باسم "جمع أدبي" تعطي صورة حية للعبة: فلا تجلس شخصياتها على الأرض ولكن على كراسي أمام طاولات طويلة، مما يدل على تطوير الكراسي أيضًا، ظهرت الكراسي في عهد أسرة "تانج"، وبحلول عهد أسرة "سونج" كانت شعبيتها قد أدت إلى جعل جميع الأثاث الداخلي أطول، مما أدى بدوره إلى تغييرات في ترتيب الأثاث، وأدوات المطبخ، وعادات المعيشة، أصبحت الطاولات متنوعة على نحو متزايد ولها العديد من الوظائف؛ مثل المذابح والمكاتب وطاولات الآلات الموسيقية، وهلم جرًّا، وكانت الطاولات الجانبية طويلة والكراسي التي تسمح بجلسة القرفصاء فقط بعضًا من العناصر الأخرى التي تظهر، وكانت كلها انعكاس لسعي شعب سونج للحياة المريحة.

وقد شوهد ذلك أيضًا في طراز مساكن ذلك العهد، فلم توجد فقط المساكن الفخمة، ولكن أيضًا الحدائق الخاصة التي كانت بسيطة، وأنيقة، وطبيعية في الأسلوب، وأصبحت من الأماكن الهامة للمتعلمين ليؤلفوا الشعر ويسترخوا، كما أحب شعب "سونج" أيضًا السفر إما بالحصان، أو العربات التي تجرها الخيول، أو عن طريق الكرسي المحمول الذي لم يقتصر استخدامه على الطبقة الحاكمة العليا، بل انتشر إلى الشعب العادي؛ حيث تصف الحكاية الشعبية "ملاحظات يي جيان" امرأة ريفية مسنة يحملها اثنان من المواطنين على كرسي لرؤية أقاربها.

وكانت الرياضة شعبية جدًّا خلال عهد أسرة "سونج"؛ فعلى سبيل المثال لعبوا "تسوجو" بالكرة الجلدية الخفيفة والمرنة، وأضيف لها خلال أسرة "تانج"، مكانان متعاكسان لتسجيل الأهداف كما هي الحال في كرة القدم الحديثة، وخلال عهد أسرة "سونج"، لعبت "تسوجو" ذات الهدف الواحد على نطاق واسع، وكان الهدف في المركز عبارة عن حفرة في الوسط، ولعب الفريقان على جانبين متقابلين من الشباك وحاولوا ركل الكرة من خلال الحفرة، دون السماح بالاتصال الجسدي، وكانت مسابقة مهارات "تسوجو" الفردية أكثر تعقيدًا؛ حيث يمكن للاعبين لمس الكرة بأقدامهم وسيقانهم وركبهم وأكتافهم، ويتم الحكم على صعوبة الحيل، وكان هناك حتى لاعبو تسوجو محترفون والذين كان لهم منظمة خاصة بهم تدعى جمعية "تشيون"، وكانت اللعبة أيضًا شعبية في البلاط الملكي.

في الوازي - أو أماكن الترفيه من هذه الفترة - كانت رواية القصص، وسرد التاريخ، والألعاب البهلوانية، والغناء، والحوارات المصورة، والرقص والعرائس موجودة في كل مكان، وكانت الـ"زاجو" شعبية جدًّا، مثل "موليان ينقذ والدته"، والتي شملت الغناء والرقص والموسيقى والحوارات الهزلية، والألعاب البهلوانية، كان في "كايفنج" أكثر من خمسين وازي ولينان أكثر من اثنى عشر، وكلها جذبت حشود المتفرجين، وازدادت المهرجانات الخاصة، وكان لمهرجان

الربيع ومهرجان المصابيح أهمية خاصة، وخاصة الأول، الذي يحتفي بالعام الجديد، ففي هذا اليوم، يقيم الإمبراطور مأدبة كبيرة، ويرتدي الناس ملابس جديدة، ويطبخون وجبة خاصة ويحتفلون معًا في وليمة، وفي عهد أسرة "سونج"، بدأ الناس في حزم البارود في ورقة سميكة لخلق الالعاب النارية، وقد أقيم مهرجان المصابيح، الذي صنع فيه الناس الفوانيس الجميلة، وفي اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الأول، وهو أول ليلة في السنة يظهر فيها قمر كامل ويعتبر يوم حظ سعيد يقوم الجميع بما في ذلك النساء للخروج لرؤية الفوانيس ليلًا؛ لذلك، نظرًا لمحدودية الاتصال بين الجنسين، أصبح مهرجان المصابيح فرصة ثمينة للرومانسية.

العلوم والتكنولوجيا والثقافة

كان اختراع الطباعة المتحركة نتيجة لعملية طويلة من التطور؛ فظهر الحرف الصيني (يين) (بمعنى "الطباعة") لأول مرة في عهد أسرة "شانج"، وفي عهد أسرة "تانج"، راجت طباعة الكتلة ولكنها كانت غير فعالة سواء من حيث الوقت أو العمل؛ إذ لو كان حرف واحد خاطئًا أو مفقودًا، فقد انتفت فائدة الكتلة بأكملها، كما كان حجمها كبيرًا واحتاجت مكانًا كبيرًا لتخزينها، فأصبحت هناك حاجة إلى حل جديد، وأصبحت الطباعة المتنقلة هي ذلك الحل، وأنشأها "بي شنج" خلال سنوات "تشينج لي" (1041 - 1048م) في عهد الإمبراطور "رينزونج"، على النحو الموثق في "مقالات حوض الأحلام" بقلم عالم سونج الشمالية "شين كو"، فتحفر الأحرف على كتل من الطين (كتلة واحدة لكل حرف)، ثم تحرق وبعدها تنشر عجينة من مادة تشبه الراتنج والشمع ولباب الورق على صفيحة حديدية تسخن حتى تنعم العجينة قليلًا، ويمكن للطباعة أن تثبت عليها، وبمجرد تجهيزها تضغط اللوحة عليها لصنع النسخة؛ وبعد ذلك، تسخن اللوحة مرة أخرى لإزالة كتل الحروف، وعادة، استخدمت لوحتان بالتبادل، واحدة للطباعة وواحدة للتنضيد، وكانت الميزة الكبيرة من هذا على كتلة الطباعة أن الأحرف يمكن نقلها واستخدامها مرة أخرى، ومع مرور الوقت،

ظهرت حروف مصنوعة من الخشب، والطين، والخزف، والنحاس، وفي القرن الثالث عشر، انتشرت الطباعة المنقولة شرقًا إلى اليابان عبر كوريا، وغربًا إلى وسط آسيا وبلاد فارس، وكذلك إلى أوروبا خلال الحملة المغولية الغربية.

في عصر أسرة "تانج" الوسطى والمتأخرة، كان البارود يستخدم لإنتاج القنابل وقذائف النار [الرمح الذي يربط به أنبوب من الخيزران المحتوي على البارود] لأغراض عسكرية؛ كما استخدمت أسرة "سونج" الشمالية الأسلحة النارية على نطاق واسع، وكان في عاصمة "سونج كايفنج" العديد من مصانع الذخيرة، بما في ذلك ورش عمل البارود، وكان على عمال البارود أن يتذكروا جميع إجراءات الإنتاج ويعملوا في سرية، واستورد بلاط سونج الكبريت من اليابان لإنتاج البارود ومنعت إرسال الكبريت والنترات إلى مكان آخر، خاصة إلى "لياو"، كما شجعوا على البحث والتطوير في مجال الأسلحة النارية وكافأت من حقق نتائج ناجحة.

وخلال عهد الإمبراطور "رينزونج"، قام وزير يدعى "تسنج جونج ليانج" بتأليف الكلاسيكية العسكرية "مخطط العلوم العسكرية"، الذي سجل ثلاث وصفات البارود: لقنبلة الأيروسول السامة، والقنبلة النارية، والقنبلة النارية المزودة بإبر الحديد، وذكر أيضًا الأسلحة النارية الأخرى مثل سهم البارود وقنبلة الاشتعال والقنبلة الصاعقة وجهاز البارود ذو الرأس الحديدي وذيل القش.

وشهدت الحروب بين سونج الجنوبية وجين تطوير كلا الجانبين المتنافسين للبارود والقنابل، في عام 1161م، استخدم جيش سونج سلاحًا جديدًا يسمى "قنبلة الصاعقة" في معركة في مانشان الحالية في مقاطعة "آنهوي"، وفي 1221م، عند مهاجمة "تشيزو" في "هوبي" في أراضي "سونج"، استخدم جيش جين قنبلة مغلفة بالحديد تسمى "القنبلة التي يهز رعدها السماء"، والتي كانت أقوى بكثير من القنبلة الصاعقة الورقية، كما استخدم المغول القنبلة المكسوة بالحديد عند مهاجمة "جين"، ثم أدخلوا هذه التكنولوجيا في وسط وغرب آسيا في أثناء اندفاعهم غربًا، ورفعوا مستواها واستخدموها في حروبهم ضد

سونج.

واستخدم "تشن جوي"، محافظ "ديان" في "هوبي" في عهد أسرة "سونج" الجنوبية الأولى، بندقية النار (وتشبه قاذف اللهب)، وهو أقدم سجل في العالم لسلاح ناري على شكل أنبوب؛ وفي عهد الإمبراطور "ليزونج"، ظهر رمح النار وهو أنبوب من الخيزران محمل بالرصاص، يطلق بحرق البارود؛ وكانت من أوائل البنادق.

في فترة الدول المتحاربة، تم اختراع جهاز توجيه يسمى "سينان"، وبدا وكأنه ملعقة مصنوعة من المغناطيس المصقول، ولكن بما أن التلميع يقلل المغناطيسية، لم يكن الجهاز يستخدم على نطاق واسع، ثم تم اكتشاف طريقة المغنطة الاصطناعية في عهد أسرة "سونج"، مما أدى إلى اختراع البوصلة كما هو معروف اليوم، ويصف الكتاب الكلاسيكي العسكرية لسونج الشمالية "مخطط العلوم العسكرية" وصف جهاز التوجيه الذي كان عبارة عن ورقة من الحديد على شكل سمكة، تسخن لإخلال الترتيب الجزيئي فيها، ثم تبرد بسرعة، وبالتالي تصبح ممغنطة، وتستقر مشيرة في اتجاه الشمال، ومع ذلك، فإن هذا الأسلوب لم يعطها أي خصائص مغناطيسية قوية.

وبعد ثلاثة أو أربعة عقود لاحقة، سجل "شين كو" طريقة أخرى من المغنطة الاصطناعية في "مقالات حوض الأحلام"، وهي عبارة عن فرك إبرة حديدية على الحجر المغناطيسي، قدمت هذه الطريقة السهلة المغناطيسية طويلة الأمد وتحسينًا كبيرًا في استخدام البوصلة، يذكر "شين كو" أيضًا أربع طرق لعمل البوصلة: تطفو الإبرة في وعاء من الماء؛ أو تثبيتها على مسمار، أو وضعها على حافة وعاء؛ أو تعليقها من سلسلة، وسرعان ما تم التخلي عن الطريقتين الثانية والثالثة، ولكن الأولى استخدمت في البوصلة البحرية، في حين أن الرابعة وهي أفضلها تطورت إلى البوصلة البرية.

واستخدمت أجهزة تحديد الاتجاه أساسًا للكهانة والعمليات العسكرية، ولكن

مع بدء التجارة الخارجية في الازدهار، فإنها بطبيعة الحال كانت تستخدم للملاحة، ففي أوائل القرن الثاني عشر، ذكر عالم الجيولوجيا الشمالية "تشو يو" في كتابه "أحاديث بينغتشو" أن الملاحين شاهدوا الشمس يومًا بعد يوم والنجوم ليلًا، ولكن عندما كان الجو غائمًا كان بإمكانهم استخدام البوصلة فقط، وتظهر هذه السجلات أن البوصلة كانت تستخدم في وقت مبكر من عهد أسرة "سونج" وكان من شأنها أن تفيد التجارة الخارجية إلى حد كبير.

في عام 621م، أصدر الإمبراطور "جاوزو" من أسرة "تانج" مرسومًا لتجميع التاريخ حتى عهده، وقد خلق ذلك سابقة للتاريخ الذي ترعاه الحكومة؛ فقبل ذلك، لم يكن هناك مؤرخون للبلاط، أما من أسرة "تانج" فصاعدًا، كانت كل أسرة جديدة تجمع تاريخًا للأزمان السابقة، ونتيجة لذلك تم الاحتفاظ بسجل كامل نسبيًا، وعلى الرغم من أن الأعمال التي تشرف عليها الحكومة لعبت دورًا كبيرًا في تأريخ الصين، فإن سيطرة البلاط عليها أصبحت صارمة على نحو متزايد، وهو عامل انتقدته الأجيال اللاحقة، وكان المؤرخ الرسمي "ليو تشي جي" من أسرة "تانج" يدرك جيدًا عيوب مكتب التاريخ الذي عمل فيه مؤرخو البلاط، ولد "ليو" في "سوتشو" الحالية بمقاطعة "جيانجسو"، وأحب كتب التاريخ من الطفولة، كان له اهتمام خاص بالتطور التاريخي والاتجاهات، وأخذ الملاحظات أثناء قراءاته، والتي قدمت مواد لعمله العظيم "عموميات حول التاريخ" في وقت لاحق، وعندما أصبح بالغًا خدم ثلاث فترات كمؤرخ رسمي، وكانت كل فترة تنتهي باستقالته؛ لأنه وجد القواعد والتشوهات المطلوبة بقلم كتابة البلاط محبطة للغاية؛ لذلك أمضى تسع سنوات في كتابة "عموميات حول التاريخ" من تلقاء نفسه، وكانت أول دراسة تاريخية منهجية مكتوبة على الإطلاق في الصين.

يعطي الكتاب ملخصًا شاملًا وحاسمًا وبناء لخصائص ومزايا وعيوب كل من الأحداث الزمنية والسير الذاتية، ويوضح بالتفصيل الأساليب والمهارات اللازمة لكتابة التاريخ، كان "ليو" أول من اقترح ثلاثة شروط مسبقة يجب

توافرها في المؤرخ: الموهبة التاريخية، والمعرفة التاريخية والحس التاريخي، وتبع أبناؤه خطاه: فكتب الابن الرابع "ليو تشي" "المؤسسات السياسية الخمسة والثلاثين" وجعله على غرار كتاب الشعائر.

وفي منتصف عهد أسرة تانج، قرر "دو يو" (جونشينج) أن يضيف إليها، وكان "الوثائق الشاملة" هو النتيجة، ولد "دو" في "تشانج آن" الحالية، بمقاطعة "شانشي"، وولد لأسرة من المسؤولين كما كان أيضًا مسؤولًا طوال حياته.

كانت إمبراطورية "تانج" التي عاش فيها تنحدر بعد ثورة "آن لوشان"، وعلى الرغم من أن البعض داخل الطبقة الحاكمة ما زالوا يأملون في إنقاذها من خلال الإصلاح، وبالنظر إلى هذا، أولى "دو يو" أيضًا اهتمامًا لإدارة شؤون الدولة، ونجاح وفشل القوانين والمؤسسات القديمة، وصنع السياسات، استغرقت كتابة "الوثائق الشاملة" ستة وثلاثين عامًا وبلغ 200 مجلد؛ حيث يصف تطور القوانين والقواعد القديمة من وقت الإمبراطور الأصفر إلى أواخر عهد "تيانباو" والإمبراطور "شوان زونج" حاكم "تانج"، ووضع العمل القواعد الأساسية الأسلوبية لكتابة التاريخ، والتي اعتمدها في ما بعد "تشينج تشياو" في "التاريخ العام" و"ما دوانلين" في "التاريخ النقدي للمؤسسات"، وأبرز "دو" قسم "المالية والاقتصاد" بشكل خاص، مما يعكس رؤيته المتقدمة أن الظروف المادية والمعيشية تلعب دورًا حاسمًا في تنمية الثقافة.

وزادت أسرة "سونج" على هذه الإنجازات من عهد "تانج" بإنشاء وكالات متخصصة لتطوير التأريخ؛ كما أن المؤرخين المستقلين أنتجوا أعمالًا رئيسة، مثل "التاريخ الجديد للسلالات الخمس" بقلم أويانج شيو، و"مجموعة المواد المتعلقة بالتحالفات الشمالية للمحاكم الثلاث" بقلم شو منجشين، وكان اثنان من أفضل ما كتب هما "التاريخ العام" بقلم تشينج تشياو و"التاريخ النقدي للمؤسسات" بقلم ما دوانلين، كان "تشينج تشياو" من مواليد مقاطعة فوجيان الحالية، كانت أسرته فقيرة، لكنه درس بجد وكان لديه مجموعة واسعة من الاهتمامات بما في ذلك التاريخ، وفي ذلك الوقت، غزت جين الشمالية الجنوب؛

وكان "تشينج" الذي ناصر المقاومة النشطة غاضبًا من معاهدة السلام المهينة وتحولت إلى الكتابة بدلًا من ذلك، وكان "التاريخ" العام عمله الذي انهمك فيه لبقية حياته، هو كتاب التاريخ يعتمد السيرة الذاتية على غرار أسلوب "سيما تشيان" في "سجلات المؤرخ" وامتد لـ200 مجلد، ويعتبر "المخطط" الذي يورد نقد "تشينج" التاريخي هو القسم الأكثر تميزًا.

أما "التاريخ النقدي للمؤسسات" بقلم ما دوانلين فهو سرد للمؤسسات من العصور القديمة إلى عهد الإمبراطور "نينج زونج" من أسرة "سونج"، كان "ما" مؤرخًا لأسرة "سونج" و"يوان" (960 - 1368م) وولد في "لي بينج"، "جيانج شي"، وكان عمره اثنين وثلاثين فقط عندما سقطت أسرة "سونج" الجنوبية في 1279م، صدم بشدة وقرر تلخيص الدروس التي يمكن استخلاصها من هذا الحدث، وكان عمره أربعة وثلاثين عندما بدأ، ولم ينته الكتاب إلا بعد أكثر من عشرين عامًا، وتقدم مجلدات العمل البالغ عددها 348 مجلدًا وصفًا شاملًا للفترات التي سبقت عهد أسرة "سونج"، كما كشفت عن الفساد في حكمه الذي يعود إلى ثلاثة قرون، وترتبط وجهات نظر "ما" مع المواد التاريخية، مما يجعل هذا العمل من الأعمال الرئيسة في التأريخ الصيني.

ولكن أعظم عمل من عهد أسرة "سونج" هو "إعادة رواية الأحداث التاريخية كمرآة للحكومة" بقلم "سيما جوانج" المعروف أيضًا باسم "جونشي"، وولد في ما يعرف الآن بمقاطعة شانشي وكان سياسيًا معروفًا، وكاتبًا، ومؤرخًا عاش في عهد "سونج" الشمالية، وعلى الرغم من أن المستشار عاش حياة بسيطة، وكان نموذجًا لتطبيق المبادئ الكونفوشيوسية، وبينما كان يعارض إصلاحات "وانج آنشي" خلال عهد الإمبراطور "شينزونج"، طلب من الإمبراطور أن يضعه في منصب في إحدى المحافظات؛ وبمجرد أن وصل "لويانج"، تجاهل الشؤون السياسية واختلى بنفسه لكتابة التاريخ، مما استغرق منه تسعة عشر عامًا، وبمساعدة المؤرخين "ليو شو"، "ليو بان"، و"فان زويو"، لتجميع روائعه التاريخية، وبعد أن أنجزه كان مرهقًا ومريضًا وتوفي بعد أقل من عامين.

هذا العمل، وهو الأول في الصين الذي يكتب بالترتيب الزمني هو تاريخ شامل يقع في 294 مجلدًا، ويسجل 1.362 سنة من الملك "وي لي" من أسرة "تشو" (425 - 401 قبل الميلاد) إلى الإمبراطور "شيزونج" حاكم "تشو" المتأخرة في فترة الأسر الخمس، وتمثل 371 عامًا من فترات "سوي" و"تانج" والأسر الخمس 40 في المئة من المحتوى، وهي ذات قيمة تاريخية هائلة، في حين أن العلاقات السياسية والعسكرية والعرقية هي المحور الرئيس، ويصف الكتاب أيضًا الاقتصاد والثقافة، ويقيم الشخصيات التاريخية، ويبدو أن "سيما جوانج" حاول أن يحذر الأجيال اللاحقة من خلال روايته عن صعود وسقوط الأسر السابقة؛ واستغرق الكثير لوصف فترات معينة من السلام والازدهار، مثل حكم الأباطرة الحكماء "ون" و"جينج" من أسرة "هان" الغربية، والسنوات الذهبية من حكم "تشينجوان" من أسرة "تانج".

وكان للكتاب أثر كبير على المؤرخين اللاحقين، فخلال عهد أسرة "سونج" الجنوبية، كتب "لي تاو" "تتمة إعادة رواية الأحداث التاريخية كمرآة للحكومة"، وظلت مسيرة "لي" الرسمية مستقرة بسبب عدم استعداده لتملق "تشين هوي"، الذي كان يمارس قوة حقيقية في ذلك الوقت، وكان عمله الهائل يبلغ 1063 مجلدًا واستغرق أكثر من عشرين عامًا لإكماله، ويذكر تاريخ 168 سنة من عهد أسرة "سونج" من الإمبراطور الأول "تشاو تشوانج ين" إلى الإمبراطور "شينزونج".

فضلًا عن إنتاج هذه الأعمال التاريخية الضخمة، شهدت أسرة "سونج" ظهور نشاط جديد، وهو النقش، وكانت أهداف الدراسة الرئيسة هي النقوش على البرونز القديم والأقراص الحجرية، مع التركيز على السجلات الببليوجرافية والبحوث الخطية؛ ويعتبر سلف علم الآثار الصينية، وظهر عدد كبير من الأعمال الرائدة، مثل "مجموعة النقوش القديمة" بقلم "أويانج شيو"، وكتاب "لو دالين" "المصور من التحف"، وكتاب تشاو مينج تشينج "ملاحظات حول البرونز القديم والنقوش الحجرية".

وظهر أسلوب أدبي جديد خلال عهد أسرة "هان"، والذي بلغ ذروته في الأسر الجنوبية والشمالية، وكان يسمى النثر الموازي، الذي ركز على النقائض التي شكلتها الجمل الثنائية المقترنة بدقة في المعنى، وظهر أيضًا استخدام النغم والتواؤم الإيقاعي وكانت مليئة بالبلاغة والتورية، وكثيرًا ما ضحوا بالمحتوى الهادف لصالح النمط، وعلى الرغم من وجود بعض الأمثلة البارزة، فإن معظمها كان جامدًا في الشكل وفارغًا من المحتوى، ونتيجة لذلك، فقد تعرض للانتقاد اللاذع من العديد من العلماء، الذين دافعوا عن النثر الكلاسيكي الذي كان موجودًا قبل عهد أسرة "هان"، فإن النمط الكلاسيكي سهل، ويتكون أساسًا من جملة واحدة مع عدم وجود قيود الشكل، وبالتالي هو أكثر ملاءمة ليعكس الواقع، وازدهر هذا النمط خلال سلالات تانج وسونج، وكان يعرف باسم حركة النثر الكلاسيكي، ظهر عدد من الكتاب المتميزين وكان أشهرهم هم سادة النثر الثمانية: "هان يو"، "ليو تزونجيوان"، "أويانج شيو" "وانج آنشي"، و"سو شون"، و"سو شي"، و"سو تشي"، و"تزنج جونج".

بدأت الحركة في عهد أسرة "تانج" مع "هان يو"، الذي اعتبر النثر الموازي مبتذلًا، وعزز أسلوبه الكلاسيكي ليس من أجل الأسلوب وحده، ولكن لإحياء الكونفوشيوسية، وكانت مقالاته غنية بالمحتوى والشكل، وكتبت بلغة واضحة ومتحمسة أكدت على اعتقاده بأن الكتابة يجب أن تنقل الحقيقة، فعلى سبيل المثال، شن في كتابه "عن المعلمين" هجومًا عنيفًا على العلماء الذين يشعرون بالخجل من التعلم من المعلمين، ودعا بحماس للتعلم منهم، ويوجد هذا إضافة إلى أعماله الأخرى "الأعمال المجمعة لهان يو".

دعم "ليو تزونجيوان" نهج "هان"، وهو مواطن ولد في "يونجي" الحالية في مقاطعة شانشي، واقترحا معًا سلسلة من الأفكار الأيديولوجية والنظرية والأدبية، وقد روجت هذه لتعاليم الكونفوشيوسية، وهاجمت الكليشيهات النثرية الموازية، وسعت من أجل الأصالة، ومن الأمثلة الممتازة على عملهم "ثماني ملاحظات أثناء السفر عن محافظة يونجتشو"، وهي رحلة متميزة

تربط مشاعر المؤلف مع تصوير المناظر الطبيعية لمدينة "يونجتشو".

درَّب "هان يو" و"ليو زونجيوان" مجموعة من الكتاب الشباب، ولكن بعد وفاتهم، انحرفت الحركة لعدم وجود القيادة وأصبح النثر الموازي منتشرًا مرة أخرى، وفي السنوات الأولى من عهد أسرة "سونج" الشمالية، وضعت مجموعة من المتعلمين المنحطين نمطًا منمقًا من الشعر يسمى "شيكون"، وكان "أويانج شيو" القادم من "يونجفنج" الحالية بمقاطعة "جيانجشي"، هو الذي أعاد التوازن، وأدى إلى العودة إلى النثر الكلاسيكي، وإذ يقول إن الكتابة يجب أن تكون صحيحة في المحتوى، وموجزة ولكنها أنيقة في الأسلوب، كان مثالًا وقدم أدب أسرة "سونج" الشمالية بشكل جديد تمامًا، تم العثور على معظم أعماله في "أعمال أويانغ شيو المجمعة"، وفي عام 1057م، بصفته مسؤولًا في الأكاديمية الإمبراطورية، ترأس الامتحان الإمبراطوري المدني وعاقب بشدة المرشحين الذين استخدموا النثر الموازي لكتابة مقالاتهم، على الرغم من أنه انتقد لهذا إلا إنه أجبر المثقفين على تعلم النثر الكلاسيكي، ولم يخرج فحص ذلك العام سو شي - وهو زعيم أدبي لمع لاحقًا - بل أيضًا اثنين من أفضل ممارسي أساليب النثر الكلاسيكي وهما "تزنج جونج" و"سو تشي"، وكان "سو تشي"، مع شقيقه "سو شي" وأبيهما "سو شون" معروفين باسم "الثلاثي سو"، وجميعهم لعبوا دورًا رئيسًا في تعزيز هذا النوع.

كان سو شون مواطنًا من "ميشان" الحالية بمقاطعة "سيتشوان"، وعندما كان صغيرًا، كان يكره القراءة، وسافر لسنوات عديدة بدلًا من ذلك؛ لم يبدأ في الدراسة حتى بلغ السابعة والعشرين من عمره، وعندها بدأ يتفوق في المقالات حول الاستراتيجية العسكرية وفي النقد التاريخي والتعليق الاجتماعي، في "حول خطأ الدول الست"، عزا سقوط الولايات إلى رشوتهم لدولة "تشين"، وبالتالي كان يقدم المشورة لحكام سونج لتجنب سياسات مماثلة، كانت كتاباته واضحة، بليغة، ومقنعة، وكان عنيدًا في نهجه، وتوفي في الخامسة والخمسين فقط، ولكن ولديه "سو شي" و"سو تشي" كانا أكثر موهبة وخاصة

"سو شي" (المعروف أيضًا باسم "سو دونجبو")، الذي أصبح شخصية أدبية كبيرة أخرى في عهد "سونج" الشمالية، وركز بشكل أكبر على الأصالة والتعبير والجدارة الفنية، معتقدًا أن كتابة المقالات يجب أن تكون غير مقيدة بالأعراف، وكان نثره مشابهًا لـ"هان يو" في الجودة، ولكن بالنظر إلى أن لكل منهما سماته المميزة التي يشار إليها باسم "مد هان وبحر سو"، كان سو تشي الأخ الأصغر لسو شي، وفي حين افتقر إلى الأسلوبية تألق والده وشقيقه، ومع ذلك كان معلقًا ممتازًا على السياسة والتاريخ، وكانت انتقاداته للعلل الاجتماعية دائمًا حاسمة، ولغتها بسيطة وموجزة.

وكان متبع آخر للنمط الكلاسيكي، تأثر بأويانج شيو، هو "تزنج جونج"، ولد "تزنج" في عائلة من العلماء وكان موهوبًا ذا ذاكرة مذهلة، وكان مؤيدًا بشكل خاص لحركة النثر الكلاسيكي، وجادل بأن الرسالة الأخلاقية يجب دائما أن تكون لها الأسبقية على جمال وبلاغة اللغة، ونتيجة لذلك، كانت مقالاته بسيطة طبيعية؛ وكان نثره مصقولًا ومرتبًا بعناية، وتميز بالمنطق السليم، التقى تزنج بـ"وانج آنشي" في سن مبكرة، وأصبحا صديقين مقربين، وعلى الرغم من أنه عارض إصلاحات "وانج"، إلا أنهما تعاونا لتعزيز الحركة الكلاسيكية.

وكان "وانج آنشي"، المعروف أيضًا باسمي "جيفو وبانشان"، أو "وانج لينتشوان"، من مواليد "دونجشيانج" الحالية بمقاطعة "جيانجشى"، ولم يكن فقط رجل دولة بارزًا، بل أيضًا كاتبًا ممتازًا، وخاصة في المقالات السياسية، التي كانت منظمة جيدًا وتحتوي على فهم عميق، ومن الأمثلة على ذلك "ورقة رسمية مقدمة إلى الإمبراطور "رينزونج"، التي دعت إلى الإصلاح الاجتماعي، وعارض أسلوب شيكون المسرف، فقد رأى الأدب كوسيلة لخدمة المجتمع، معظم أعماله، مثل "مرثية تشونج يونج"، كان لها دلالات سياسية قوية، وكانت قوية وموجزة في الأسلوب، وقد جمعت أعماله في "الأعمال المجمعة لوانغ لينتشوان" و"تتمة للأعمال المجمعة "لوانج لينتشوان".

الفصل الرابع عشر

التوسع الإقليمي والازدهار الثقافي

أسرة "يوان" (1206 – 1368م)

المقدمة

كانت أسرة "يوان" منزلًا حاكمًا منغوليًا مدرجًا مع جميع الأسر الأخرى في الصين، واحتلت أيضًا الجزء الشرقي من الإمبراطورية المغولية العظمى التي امتدت غربًا من الصين بطول الحدود الآسيوية مع أوروبا، وهو مجتمع متعدد الثقافات ولكنه مجتمع لا تزال فيه المجموعات الإثنية بعيدة كل البعد عن المساواة، وكان المغول يهيمنون على الحكومة المركزية والكثير من الحكومات الإقليمية، وكان أشخاص من عرق "هان" الصيني يعملون كموظفين لأسباب عملية حيث اضطروا إلى إدارة شؤون شعب "هان" بشكل رئيس، لكن المغول لم يكونوا على ثقة تامة بهم وقد استخدموا أيضًا أشخاصًا من وسط آسيا - شعب "سيمو" - في أدوار رئيسة مثل تحصيل الضرائب، وكان أدنى فئة من الناس في هذا التسلسل الهرمي الجنوبيون الذين كانت تحكمهم أسرة "سونج".

ونتج نظام الحكم الذي اعتمده الـ"يوان" عن التحديات التي واجهها المغول البدائيون المعتادون الحياة القبلية في إدارة شعب "هان" الذين استقروا ومارسوا إما الزراعة في المناطق الريفية أو كان لهم أسلوب حياة تجاري حضري متطور في المدن والبلدات، وبشكل عملي فقد أعاد الحكام المغوليون إدخال جوانب من نظام الخدمة المدنية التي تم تطويرها في أسر "تانج" و"سونج"، ولذلك كانوا على دراية بالسكان الصينيين مع ضمان بقاء النظام بأكمله تحت سيطرتهم العامة.

واستفادت الصين من الاتصالات مع وسط وغرب آسيا التي تطورت في ظل

الإمبراطورية المغولية، ولا سيما طرق التجارة البرية (طريق الحرير) التي أعيد إحياؤها بهذا الاتصال، ولم يكن المغول جاهلين بالتجارة البحرية، وقد ازدهرت موانئ جنوب شرق الصين نتيجة لهذه التجارة.

على الرغم من أن الصين كانت تحت الغزو فإنها لم تصبح أبدًا مجتمعًا مغوليًّا، فقد ظل المغول نخبة حاكمة ولكن معظم السكان لم يكن لهم اتصال مباشر معهم، وواصلوا العيش كصينيين في ثقافة تهيمن عليها اللغة الصينية، واستمرت بعض التطورات الأدبية التي ظهرت خلال عهد أسرة "سونج"، ولا سيما صعود الأدب باللغة الصينية العامية بدلًا من اللغة الأدبية الكلاسيكية، كان عصرًا للروايات والقصص القصيرة ولكن الأكثر شهرة كانت الدراما الشعبية.

وكان هذا الرضا عمليًّا لا يعني أن الصينيين قبلوا الحكم المغولي، فكان في الرسم والخط الذي ازدهر أيضًا هناك إشارات متكررة أحيانًا إلى ذلة العيش في بلد محتل، وعندما أضعفت المعارضة الفصيلة بلاط المغول في القرن الرابع عشر، في فترة الكوارث الطبيعية واستياء الفلاحين، كان التمرد بقيادة "تشو يوان" تشانج" قادرًا على الاطاحة ببلاط "يوان" وتأسيس أسرة جديدة وهي "مينج"، التي سجلت عودة الحكم إلى عرق "هان" الصيني.

تأسيس "يوان"

التوسع الإقليمي للإمبراطورية المغولية

يمكن إرجاع أصول المغول إلى شعب "دونجو" في فترة ما قبل "تشين" (قبل 221 قبل الميلاد)، وفي وقت لاحق انتقلوا غربًا، ووصلوا إلى جبال "خنتي" على طول الروافد العليا لنهر "أونون"، وخلال عهد أسرتي "سوي" و"تانج" (581 - 907م)، كانوا يعرفون باسم "منجو شيوي" كواحدة من قبائل "شيوي" العشرين، ثم "منجو" خلال أسرة "لياو" (907 - 1125م)، وكانوا تابعين للأتراك، ثم الأويجور؛ من فترة الأسر الخمسة إلى عهد أسرة "سونج" الأولى، ودفعوا

الجزية للخيتان والجورتشن.

عندما أصبح والد "جنكيز خان" "ييسوجي" رئيسًا لقبيلة "تشيان منجو"، كانت مجموعات بدوية أخرى تعيش أيضًا على هضبة المغول، بما في ذلك الكريد والتتار والميركيد والنايمان والأونجود، وفي عام 1162م، قاد "ييسوجي" شعبه ضد التتار وقتل زعيمهم، "تيموجين"، وكانت زوجة "ييسوجي" "كان هيلون" قد ولدت لتوها أول ابن له، لذلك تكريمًا للفوز، أطلق عليه اسم "تيموجين"، الذي أصبح في ما بعد يعرف باسم "ابن السماء الفخور"، "جنكيز خان" ("تشينجيز خان" يعكس النطق المنغولي الحديث).

وعندما كان "تيموجين" يبلغ من العمر تسع سنوات، سمم التتار أباه "ييسوجي"، وطردت عائلته من عشيرة "بورجيجين"، ومنذ ذلك الحين، عاش "تيموجين" في فقر، ولكن نشأ على أمل في استعادة ثروات أسرته، ولهذه الغاية، أعطى سترة السمور (مهر زوجته "بورتي") إلى حليف والده السابق "توجرول"، رئيس الكريد، وبالتالي جدد العهد بينهما؛ كان ينظر إلى "توجرول" على أنه يمثل الأب، كما حصل على دعم "جاموخا"، رئيس "جاداران"، وأصبح تدريجيًّا أكثر قوة، وفي عام 1196م، أرسلت أسرة جين رئيس وزرائها "وانيان شيانج" للقضاء على التتار، وهي المهمة التي ساعد "تيموجين" و"توجرول" على تحقيقها، وفي المقابل، نصبت أسرة "جين" "توجرول" (خانا)، في حين نصب "تيموجين" "تشاوتيهولي" (القائد العسكري)، مما زاد كثيرًا من مكانته وهيبته، وفي عام 1203م، اختلف "تيموجين" و"توجرول"، ونشبت بينهما المعارك؛ وانتصر "تيموجين" بعد هزيمة أولية وضم الكريد تحت قيادته، وفي عام 1204م، غزا "نيمان" من الهضبة المغولية الغربية وقام بتوحيد معظم القبائل البدوية في السهوب.

في ربيع عام 1206م، عقد "تيموجين" مجلسًا (كوريليتاي) من رؤساء المغول، عند منبع نهر "أونون"، واعترفوا بأنه الخان وأعطي لقب "جنكيز خان"، وفي الوقت نفسه، كافأ إخوته ومسؤوليهم على خدمتهم؛ فتم تسجيل الناس

وتقسيمهم إلى وحدات - جماعات من 100، وكتائب من 1000 - تم تعيين "ناكير" الرفيق الذي يثق فيه "تيموجين" بشدة، مع غيره من الرفاق المخلصين والأقارب، "نايان" (قائد) للكتائب، وكل منهم تحت إمرته 1000 أسرة، والتي منحت جميعًا مراعي محددة، وزيد الحرس الإمبراطوري لجماعة "تيموجين" وهم جيش "كيسيج"، من 1000 إلى 10.000 جندي، وقد أصدر قانون "ياك جاساج" (القانون العظيم) وتم تعيين جاركي (قضاة) لإنفاذه، وأمر كاتب الأويجور "تاتاتونجا" بإنشاء الخط المغولي استنادًا إلى الخط الذي استخدمه الأويغور، وقد شكلت هذه الإجراءات الأساس الرسمي للإمبراطورية المغولية، التي بدأت بعد ذلك غزوًا غير مسبوق لدول أخرى، وفي ظل القيادة الرائعة لـ"جنكيز خان"، اعتبر النبلاء المعينون حديثًا الحرب والنهب والسلب مهنتهم، واتسعت أراضيهم بسرعة.

كانت دول "جين" و"شيا" الغربية قريبة جغرافيًا من الأراضي المغولية، وأصبحت لا محالة من أهداف "تيموجين" الأساسية، وفي عام 1206م، اغتصب "لي أنتشوان" من أسرة "شيا" الغربية العرش، وكان غير راغب في تقديمه إلى المغول، ودعا بدلًا من ذلك إلى الحماية من عهد أسرة "جين"، وهاجمه "جنكيز خان" في عام 1209 غازيًا "شيا" الغربية، ثم في عام 1211م، غزا أسرة "جين" انتقامًا لوفاة والده؛ واجتاحت الجيوش المغولية الآن إمبراطورية "جين"، عبر مناطق شاسعة شمال النهر الأصفر وغرب وشرق جبال "تايهانج"، وفي عام 1214م، اضطر الإمبراطور "شوانزونج" حاكم "جين" لإرسال مبعوثين للتفاوض على السلام وعرض الأميرات والحرير الذهبي والخيول، والتي أقنعت أخيرًا الجيوش المغولية بالتراجع، ولخوفه من غزو المغول نقل الإمبراطور "شوانزونج" العاصمة إلى "بيانج ينج" ("كايفنج" الحالية في مقاطعة "هنان").

في عام 1217م، عين "جنكيز خان" "موتشالي" لقيادة الحرب ضد "جين"، ثم في عام 1218م، أرسل جنرال آخر وهو "جيبي" لإبادة "لياو" الغربية في آسيا

الوسطى، كما قتلت جيوشه أمير نايمان كوشلوغ، "محمد" حاكم "خوارزم" الواقعة إلى الغرب من "لياو" الغربية، والذي ارتكب خطأ ذبح قافلة المغول والمبعوثين التي أرسلها "جنكيز خان"، مما أدى إلى حرب بين الإمبراطوريتين، ففي عام 1219م، قاد "جنكيز خان" 200.000 جندي وأسلحة حصار الثقيلة مثل المنجنيق والأسلحة النارية لمهاجمة جيش "خوارزم"، والتي على الرغم من تكون جيشها من أكثر من 400.000 جندي قوي، هزمت مرارًا وتكرارًا، توغل الجيش المغولي في عمق إقليم خوارزم؛ وهرب محمد إلى جزيرة بحر قزوين النائية، وتوفي في 1220م، في ربيع 1225م، عاد "جنكيز خان" إلى "منغوليا" بعد محاولة فاشلة لغزو الهند.

في هذا الوقت، كانت أسرة "شيا" الغربية في حالة تغير مستمر بسبب سرعة تغير الأباطرة، ففي عام 1223م، جاء الإمبراطور "شيانزونج" إلى العرش، وتخلى عن ولائها للإمبراطورية المغولية لصالح تحالف مع "جين"، حتى عام 1226م، قاد "جنكيز خان" جيشًا كبيرًا لمهاجمة "شيا" الغربية بحجة أنها تحالفت مع العدو، وفي الشهر الخامس من السنة الكبيسة 1227م، نفدت المواد الغذائية والإمدادات في "تشونجشينج"، عاصمة "شيا" الغربية؛ وفي الشهر السادس ابتلوا بالزلازل؛ لذلك كان الإمبراطور "مو" الآن حريصًا على السلام، وفي الشهر السابع، أصيب "جنكيز خان" بالمرض وتوفي في سن السادسة والستين في معسكره، ولكن قبل أن يموت، أمر جيوشه بالحفاظ على وفاته سرًّا وذبح كل شعب "شيا" الغربية بعد استسلامهم، وبعد ثلاثة أيام، اقترب الإمبراطور "مو" منهم، وقتل على الفور، مما أدى إلى انهيار "شيا" الغربية.

وقد فكر "جنكيز خان" كثيرًا لمن يجب أن يكون خليفته، فقد كان أصل ابنه الأكبر "جوسي" من الميركيت، وكان ابنه الثاني "تشاكاداي" سريع الغضب ومتهورًا، وكان يمكن للأصغر "تولوي" أن يأخذ المنصب وفقًا للتقاليد المنغولية، لكنه كان صغيرًا جدًّا، لذلك اختار ابنه الثالث، "أوغداي"، الذي كان قد قاتل في كثير من الحروب إلى جانبه، وفي خريف عام 1229م، عقد كبار الأمراء

والوزراء المنغوليين "كوريلتاي" لانتخاب خان جديد، وتمسك بعض أفراد العائلة المالكة بالتقاليد وأيدوا تولوي في نقاش دام أربعين يومًا؛ ولكن عندما توفي جوسي، قدم "تشاجاداي" دعمه لـ"أوجداي"، ولم يكن لدى "تولوي" أي خيار سوى دعم شقيقه.

وبوصفه الخان الجديد، بدأ "أوجداي" في تعزيز وتركيز سلطته، وفي عام 1231م، أباد "شيا" وفقًا لإرادة والده، وأرسل ثلاث وحدات لقطع أراضي "سونج" الجنوبية وغزو "جين"، قاد "أوجداي" نفسه الوحدة الوسطى المتجهة إلى "شانشي"، وأمر "تيموج أودشيجن" بقيادة الجناح الأيسر من "شاندونج" و"تولوي" بقيادة الجناح الأيمن لمحاصرة "جين" من "باوجي" في "شانشي"، وفي 1232م، بعد مسيرة طويلة، وصل "تولوي" وجيوشه إلى جبل "سانفنج" في "جونتشو" (جنوب غرب "يو" الحالية في مقاطعة "هنان")، وهنا فرضوا حصارًا على قوات "جين" الرئيسة، التي كان قوامها 150 ألفًا، وأبادتهم، ثم حاصر الجيش المغولي "بيانج ينج"، حيث فر الإمبراطور "آيزونج" إلى "كايتشو"، وفي عام 1234م، دخلت الإمبراطورية المغولية وأسرة "سونج" الشمالية في تحالف واستولت على "كايتشو"، منهية بذلك وجود أسرة "جين".

وقبل تحالفهم، اتفقت أسرة "سونج" والإمبراطورية المغولية أنه بعد سقوط "جين"، تعاد "هنان" إلى سيطرة "سونج"، ولكن المغول لم يحافظوا على كلمتهم؛ لذلك أرسلت أسرة "سونج" الجيوش لاستعادتها، وعندما وجدوا جميعًا المدينة فارغة، بدأت حرب بين البلدين استمرت أكثر من أربعين عامًا، وهاجمت الجيوش المنغولية في وقت واحد من الروافد الدنيا لنهر اليانجتسي ومن "سيتشوان"، مما أدى إلى هزيمة ساحقة، بعد ذلك، بعد أن استعاد "منج جونج" "شيانج يانج"، وكان "يو جي" قد بنى دفاعات حول الجبال ومدن "سيتشوان"، اشتبكت الدولتان مرة أخرى، وفي الوقت نفسه، بدأ "أوجداي" تنظيم حملة ثانية غربًا، وهذه المرة في اتجاه "قبجاق" و"روسيا"، وفي 1235م، عين "باتو" ابن "جوسي"، قائدًا عامًا؛ قاد "باتو" الجيوش المغولية إلى سهول روسيا

الحالية، واحتل العديد من المديريات والمدن، بما في ذلك "ريازان" و"موسكو" و"فلاديمير" قبل محو القبائل التي تعيش في جبال القوقاز ومناطق شمال البحر الأسود، مثل القبجاق، وفي عام 1241م، أرسل "باتو" جيشين آخرين إلى الغرب؛ وقاد "بيدير"، ابن "تشاكاداي"، القوات الجنوبية؛ لمهاجمة "ماجير" وهي المجر الحالية، في حين قاد "باتو" نفسه الجيش الشمالي لمهاجمة بولندا الحالية، وفي نهاية عام 1241م، التقى الجيشان في نهر الدانوب، في تلك المرحلة، تلقى "باتو" أنباء أن "أوجداي" قد سقط مريضًا ومات؛ لذلك عاد هو وجيوشه إلى الشرق، وكان معظم الجنرالات من هذه الحملة غربًا هم الأبناء الأكبر للنبلاء المغول، مثل "بيدير"، ابن "تشاغاداي"، و"جويوك"، ابن "أوجاي"، و"مونجكي"، ابن "تولوي"، وبالتالي كانت تعرف باسم حملة الأبكار الغربية.

بعد وفاة "أوجداي"، أخذت زوجته "نيماتشين" مكانه بشكل مؤقت، ولكن بسبب الصراع بين الفصائل ظل خلفه غير محدد لمدة خمس سنوات، وفي عام 1246م، انتخب "جويوك"، الابن الأكبر لـ"أوجداي" ليخلف أباه، لكنه توفي في 1248م؛ وكانت "تشايميش" أرملته، تعتزم اتباع مثال "نيماتشين"، ولكن بعد ذلك عقد "باتو" كأمير كبير مجلسًا (كوريليتاي) وأوصى بـ"مونجكي" ابن "تولوي" ليكون الخان الجديد، وبعد نزاع شرس، أصبح "مونجكي" رسميًا خان الإمبراطورية المغولية في عام 1251م، ثم أعدم الإمبراطورة "تشايميش" وقمع المتمردين في معسكرات "أوجداي" وتشاجاداي"، وبينما عززت هذه التدابير سلطته وأرست الأساس لمزيد من التوسع في القوة المغولية، فإنها زرعت أيضًا بذور تدميرها.

حرب التوحيد

كان "مونجكي" الابن البكر لـ"تولوي" - الابن الأصغر لـ"جنكيز خان" - الخان الرابع للإمبراطورية المغولية رجلًا حازمًا، يفضل الصيد على حياة البذخ، وبحلول

الوقت الذي جاء فيه إلى العرش، امتدت الإمبراطورية بقدر البحر في الشرق وحوض نهر الدانوب في الغرب، أي ما يقرب من نصف أوراسيا، وبعد توطيد سلطته، استعد لمزيد من التوسع وأمر "هوليجو"، شقيقه، لشن حملة غربية ضد الإمبراطورية الإسلامية "خوارزم" ومقرها في بلاد "فارس" التي كانت ترفض الخضوع للمغول، وفي الوقت نفسه، أصبحت أسرة "سونج" الجنوبية، التي تشترك حدودها الجنوبية مع الإمبراطورية المغولية، شوكة في جسد "مونجكي"، فأمر شقيقه الأصغر "كوبلاي" بتحمل المسؤولية عن الشؤون العسكرية جنوب صحراء "جوبي"، في الأراضي التي كان يحكمها عرق الهان الصينيون سابقًا.

وكان "كوبلاي" حريصًا على استيعاب الثقافة الصينية منذ أن كان صغيرًا، فكان قد خضع لتعلم الكونفوشيوسية، وقام بتجنيد العديد من علماء الكونفوشيوسية من "هان" إلى "أوردو" (مقر القيادة أو مقر السلطة)، وكان من بينهم "شو هنج"، وهو معلم عظيم في "تشينجتشو" للكونفوشيوسية الجديدة، وقدم هؤلاء العلماء محاضرات وقدموا المشورة بشأن الشؤون العسكرية، واقترح "كوبلاي" - بناء على اقتراحهم - حملة استكشافية إلى "دالي" في مقاطعة "يونّان"، حيث كان ينوي تطويق "سونج" من الخلف، وفي عام 1253م، أطلق هذه الحملة الجنوبية من المناطق الشرقية من التبت، وبعد رحلة طويلة وقتال لا ينتهي أخضع "دالي" وأسر الملك "دوان شينجتشي" أخيرًا، وكانت هذه المرحلة الأولى من غزوه لـ"سونج"، في عام 1254م، وفي هذه الأثناء، كانت الحملة الغربية التي قادها "هوليجو" تسير على ما يرام، مع إبادة الموراي والخلافة العباسية في 1256 و1258م على التوالي، اتجه "هوليجو" وجيوشه غربًا لمهاجمة سوريا.

وفي عام 1258م، بدأ "مونجكي" خان هجمة كاملة ضد "سونج"، وقاد بنفسه القوات المغولية الرئيسة إلى "سيتشوان"، مخططًا للذهاب للمصب من الروافد العليا لنهر اليانجتسي، وأمر "كوبلاي" الجنرال "أوريانجكاتاي" بغزو "إيتشو" في

محافظة "هوبي" بـ"يونّان" للمسير شمالًا لمهاجمة "هونان" عبر "جوانجشي" والجنرال "تاشاير" لمهاجمة "شياجيانج" شمال غربى "إيتشو" من جبل "ليوبان" ومن ثم الهجوم من ثلاثة أطراف، وسار هو بسلاسة في البداية، وفي وقت متأخر من عام 1258م، وصل إلى مدينة "دياويو" في منطقة "هيتشوان" في تشونجتشينج بمقاطعة "سيتشوان"، هذه المدينة الجبلية تحيط بها المياه من ثلاثة جوانب، وكانت جدرانها الحجرية مرتفعة عدة أمتار وتمتد لمسافة عشرين كيلومترًا تقريبًا، وقد دافع عنها قائد القوات "وانج جيان" بقوة وكان مستعدًا للقتال حتى الموت، وكان مسلحًا بنخبة من الجنود ولديه الكثير من الطعام والمياه.

غاضبًا، تجاهل "مونجكي" النصيحة للتخلي عن "دياويو" وانضم للقوات مع "كوبلاي" على طول نهر اليانجتسي السفلي، وأمر رجاله بالهجوم بدلًا من ذلك، وكان هذا كارثيًا؛ استمر الحصار لأكثر من ستة أشهر، وأدى فقط إلى القضاء على الجيش المغولي، وعلاوة على ذلك، ومع ارتفاع معنويات المدافعين عن حقوقهم، شن "وانغ جيان" عدة غارات ليلية على ثكنات المغول، بحيث عاش الجنود المغوليون في حالة من الذعر المستمر، وفي نهاية المطاف، في الشهر السابع من عام 1259، أصيب "مونجكي"، وتوفي متأثرًا بجروحه، وكان آخر أمر له هو قتل كل روح في "دياويو" بمجرد أن يتم الاستيلاء عليها، ولكن جيشه اضطر إلى التراجع.

كانت معركة "دياويو" خسارة فادحة، ولكن الأهم من ذلك، أنها منعت الجيوش المغولية من الانضمام إلى القوات لضرب أسرة "سونج" الجنوبية، التي عاشت في أمان لمدة عشرين عامًا أخرى، في 1279م، وعندما حان الوقت في نهاية المطاف، أمر "وانغ لي" قائد "دياويو" رجاله بإلقاء أسلحتهم بشرط أن يعفو المغول عنهم، وكانت المدينة الوحيدة التي قاومت المغول وتجنبت الإبادة.

وبعد معرفته بوفاة "مونجكي"، تخلى "كوبلاي" على الفور عن إيتشو، التي كان قد حاصرها منذ أكثر من شهرين، وعاد إلى الشمال للقتال من أجل منصب

الخان، وبذلك وصلت الحرب على أسرة "سونج" إلى نهاية مؤقتة، ولد "كوبلاي" في عام 1215م، وهو الابن الرابع لتولوي والشقيق الأصغر لـ"مونجكي"، ووفقًا للتقاليد المنغولية، كان من المستحيل عليه أن يرث لقب خان؛ لأنه لم يكن الأكبر أو الابن الأصغر، ومع ذلك، كان قد اكتسب مكانة عالية عسكريًا في أثناء الحرب مع أسرة "سونج" الجنوبية بما فيه الكفاية للتنافس مع شقيقه الأصغر، "أريك - بوك".

في عام 1260م، تولى "كوبلاي" و"أريك - بوك" الحكم في "كايبينج" و"قرة قورم" على التوالي، واندلعت الحرب بينهما، ثم في عام 1261م، ثار "لي تان"، القائد الإقليمي لـ"شاندونج" لقوات المغول ضد حكم "كوبلاي"، وفي الوقت نفسه، خان "آلجو" "أريك - بوك" وأعلن الولاء لـ"كوبلاي"، قاتل "أريك - بوك" "آلجو"، مما أعطى "كوبلاي" الفرصة لقمع التمرد، وفي 1264م، استسلم "أريك - بوك" إلى "كوبلاي"، الذي أصبح الخان الخامس للإمبراطورية المغولية؛ وفي عام 1271م، أطلق عليه اسم "يوان" وأصبح هو نفسه الإمبراطور الأول لأسرة "يوان".

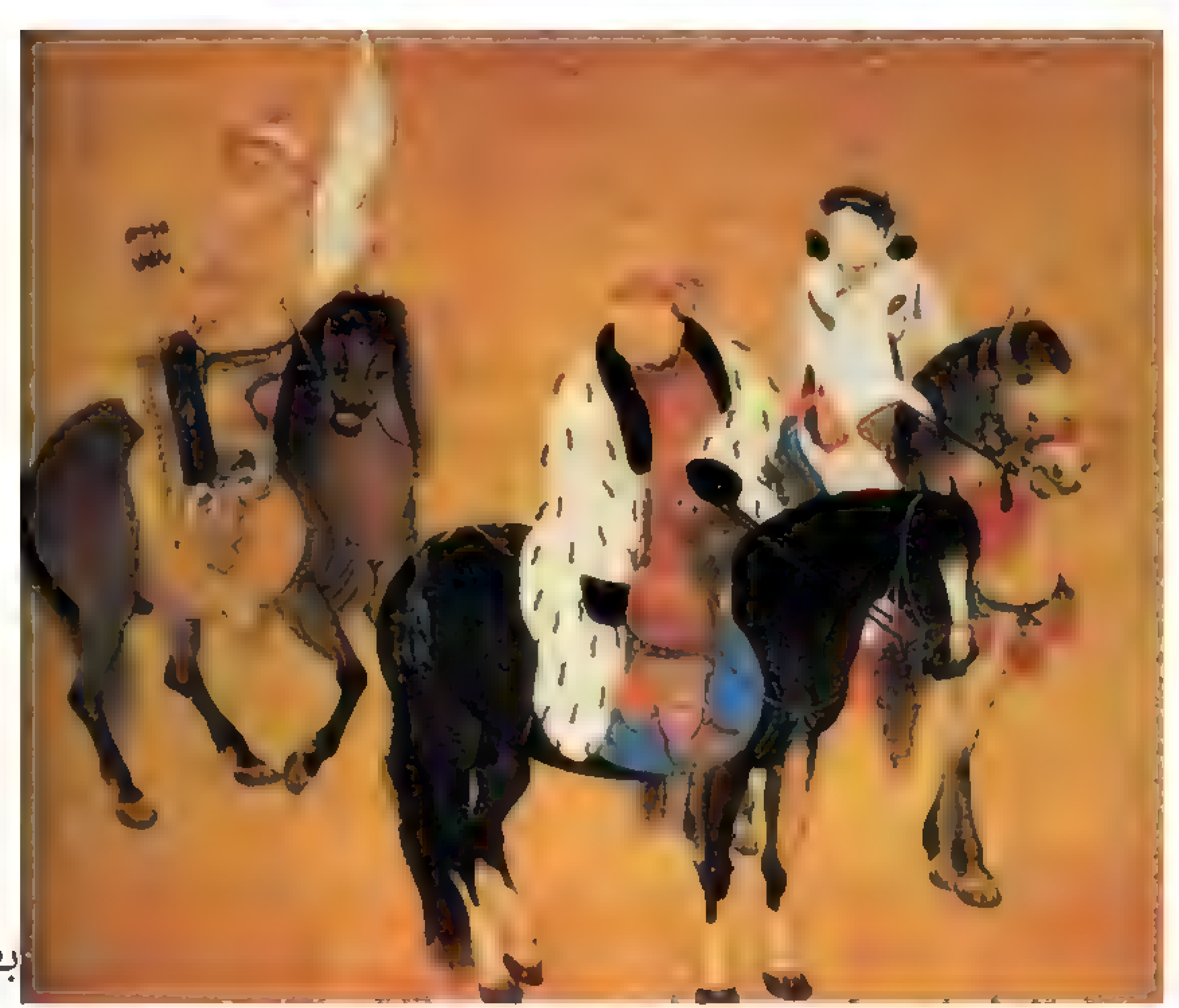
وفي الوقت نفسه، في عام 1260م، استسلم الجنرال "ليو تشينج" للمغول بخمس عشرة محافظة و300.000 أسرة مما يساوي نصف أراضي "سونج" في "سيتشوان"، وشرع في تدريب البحرية القوية لـ"كوبلاي"، وتقديم المشورة له أيضًا لمواصلة الحرب واختراق دفاعات "شيانج يانج" في مقاطعة "هوبي"، حتى في عام 1261م، أرسل "كوبلاي" قطعًا من اليشم كرشوة لعامة "شيانج يانج"، طالبًا أن يقام سوق خارج المدينة وهو ما وافقوا عليه، قام المغول ببناء جدران حول سوقهم كذريعة لحماية معاملاتهم التجارية، ثم قاموا بتحصينه، ثم في عام 1267م، هاجموا المدينة، لتطويق إمدادات المياه والماء، وفي عام 1272م انهزمت، والآن فقدت "سونج" المدينة تلو الأخرى حتى استسلم الإمبراطور جونج، وسقطت العاصمة لين آن في الشهر الأول من عام 1276م.

وعلى الرغم من استسلام الإمبراطور، واصل مسؤولو "سونج" مثل و"ن

تيانشيانج" مقاومة "يوان"، ولد "ون تيان شيانج" في "جيتشو" في مقاطعة "جيانجشي" الحالية واجتاز الفحص المدني الإمبراطوري في سن العشرين خلال عهد الإمبراطور "ليزونج"، قبل أن تبدأ جيوش "يوان" بغزو "سونج" الجنوبية تحت قيادة "بيان"، عين حاكمًا لـ"جانتشو" في "جيانجشي"، وفي 1275م، أصدرت الإمبراطورة الأرملة "شي" مرسومًا داعية الناس إلى الثورة وإنقاذ البلاد، فقام "ون تيان شيانج" بتجنيد 10.000 مقاتل على الفور لحماية "لينان"، لكنه لم يكن كافيًا، عندما استسلمت "لينان" في نهاية المطاف، تم تعيينه رئيسًا للمجلس الخاص للتفاوض في معسكر "بيان" العسكري، ولكن تم اعتقاله وإرساله شمالًا، وقد هرب تحت جنح الليل في "تشينجيانج" ثم بحرًا عن طريق "تونجتشو"، وبعد وصوله إلى "ونتشو"، جمع قواته السابقة وقاتل، ولكن في الشهر الثاني عشر من 1278م فشل مرة أخرى في "وبولينج"، وتم القبض عليه مرة أخرى وإرساله إلى "دادو" -بكين الحالية، عاصمة أسرة "يوان"-؛ هناك، على الرغم من عدة جولات من المفاوضات، كان لا يزال يفضل الموت على الاستسلام، وحتى عام 1282م، كانت هناك شائعات عن خطة لاختطافه، وكان "كوبلاي" مضطربًا إلى حد كبير، وقرر إعدامه، كان عمره فقط سبعة وأربعين عامًا عندما توفي، لكنه ظل طويلًا رمزًا للمقاومة للشعب الصيني.

وبينما كان "ون تيان شيانج" يقاتل جيوش "يوان"، ساعد مسؤولون سابقون من "سونج" الجنوبية مثل "تشن يى تشونج" و"تشانج شى جى" "تشاو شي" أمير "يي"، و"تشاو بينج"، أمير "جوانج"، على الفرار من الجنوب، وفي الشهر الخامس من عام 1276م، تولى "تشاو شي" العرش في "فوتشو" مسميًا عهده "جينجيان"، ولكن مع تقدم جيوش "يوان" هرب إلى "ليتشو"، حيث توفي، وفي عام 1278م، أصبح شقيقه الأصغر "تشاو بينج" الإمبراطور، ولكن عهده لم يدم طويلًا، ففي الشهر السادس، أخذت "ليتشو" وفي العام التالي، هزم جيش "سونج"، فحمل "لو شيوفو" "تشاو بينج" على كتفيه وألقيا بأنفسهما في البحر، وقد قامت أسرة "يوان" الآن بتوحيد البلاد بأسرها، وحكمت إقليمًا أكبر من أي نقطة أخرى في التاريخ الصيني.

نظام حكومة "يوان"



بعد سبعين عامًا من الحرب، تم توحيد أسرة "يوان" للبلاد، فامتدت أراضيها من جبال "يين" في

الشمال، إلى "ليوشا" في الغرب، وإلى أقصى الشمال الشرقي والبحر في الجنوب (انظر الخريطة 10)، وفي وقت مبكر من عام 1260م، عندما أصبح

"كوبلاي" خانًا، كان المغول قد بدؤوا في التعلم من الثقافة المتقدمة لشعب "هان" وورثوا أنظمة "هان" الأساسية للحكومة، وتم الحفاظ على العديد من

أنظمة المغول القديمة (انظر الشكل 21).

الشكل (21): "كوبلاي خان" يصطاد.



خريطة (10): منطقة نفوذ أسرة "يوان" الحاكمة.

وخلال عهد "كوبلاي" خان، أنشئت أمانة مركزية كأعلى هيئة إدارية في البلاد، مع رئيس وزراء يمارس السلطة على ست وزارات، كان هذا في الأساس نظام "هان"، ولكن "وانغ وينتونج" وغيرهم ممن عملوا داخله تورطوا في التمرد بقيادة "لي تان"، وتم إعدامهم، وفقد "كوبلاي" الثقة في عرق "هان" كله بعد

ذلك، حيث عين ابنه الثاني، ولي العهد "تشينجين" (الذي كان اسمه المغولي "تشينجيم") رئيسًا للأمانة المركزية، واستمرت ممارسة تعيين مغول لرئاسة هذه الهيئة طوال عهد الأسرة، كانت العاصمة "دادو"، والمناطق المحيطة بها ("هيبي" و"شاندونج" و"شانشي" ومنغوليا الداخلية) تخضع للمقاطعة المباشرة للأمانة.

وفي أوائل فترة أسرة "يوان"، عين المسؤولون أساسًا من أسر منغولية ثرية؛ واختير الموظفون من خلال الامتحان الإمبراطوري المدني الذي كان نظامه متبعًا في عهد الإمبراطور "رينزونج"، ولكن لم يكن لذلك تأثير كبير؛ فالنبلاء المغوليون ما زالوا مهيمنين إضافة إلى الأتراك والسيمو، ولم يسمح لعرق "هان" الصيني إلا بشغل الرتب الأدنى في الوظائف، وفي المجتمع المغولي التقليدي، استمد الدخل أساسًا من الممتلكات الخاصة وغنائم الحرب؛ فلم يكن مفهوم الرواتب قائمًا، وفي وقت لاحق، تم إدخال نظام الرواتب تدريجيًا لأنها أصبحت متأثرة بثقافة "هان"، وتم تنفيذه بشكل كامل عندما كان "كوبلاي" خانًا على العرش، وإن كان ذلك في شكل مبسط إلى حد كبير، وتتمثل إحدى السمات الرئيسة في أن المسؤولين المركزيين والمحليين أخذوا رواتبهم في شكل مبالغ نقدية، في حين أن أولئك على مستوى المحافظات والمقاطعات يعطون رواتبهم نقدًا جزئيًا وجزئيًا بإيجار الأراضي.

أجرى "كوبلاي" خان تعديلات على الجيش المغولي على أساس نظام الجيش الصيني، منشئًا تدريجيًا نظامًا مزدوجًا من القوات المركزية والمحلية، غير أن الجيش احتفظ، بوجه عام، بالعديد من سمات تنظيمه البدوي الأصلي: فعلى سبيل المثال، يمكن للضباط الذين قدموا خدمة مشرفة تجنيد وإدارة مرؤوسيهم، كما تم الإبقاء على النظام الأرستقراطي المنغولي للإقطاعيات، الذي كان مشابهًا للنظام الإقطاعي الصيني، حيث يتمتع أصحاب الإقطاعيات بامتيازات سياسية واقتصادية ولديهم مؤسسات بيروقراطية منفصلة، على الرغم من أن "كوبلاي" خان اتخذ عددًا من التدابير للحد من قوة لوردات

الإقطاع، فلم يحقق نجاحًا يذكر، فخلال عهد أسرة "يوان"، أصبحت خطوط التصدع التي أنشأها هذا النظام واضحة بشكل متزايد، مما أدى إلى تكثيف الصراع بين الطبقة والعرق.

وأسست أسرة "يوان" حكومات المقاطعات لحكم أراضيها الشاسعة، مما ترك إرثًا مهمًّا للأجيال القادمة، وبعد فترة من التعديل، استقر عدد هذه الهيئات في المقاطعات العشر، ولذلك فكان كل واحد منها مسؤولًا عن منطقة جغرافية كبيرة، ويمارس زعماء المقاطعات سلطة كبيرة، ولمنع هذه السلطات المحلية من أن تصبح قوى انفصالية قوية، تم تعيين ستة أو سبعة مناصب رسمية رفيعة داخلها للمغول والأويغور والأتراك وال"هان" الصينيين، حتى يتمكنوا من السيطرة بعضهم على بعض، وظلت بعض الإدارات مثل المسؤولين عن الطرق والجيش الصيني تحت سيطرة الحكومة المركزية، وفي أماكن مثل "شانشي" و"جيانجنان" (الروافد الدنيا لنهر اليانجتسي) تمت إقامة شبكة من الهيئات الإشرافية لمراقبة حكومة المحافظة، وكانت إمبراطورية "يوان" أيضًا تجاهد للحفاظ على السيطرة العسكرية؛ لذلك خلق نظام يشبه البانوراما التي تتجاهل الحدود الجغرافية الطبيعية والعلاقات الاقتصادية الإقليمية، فعلى سبيل المثال، كان جزء من منطقة "هانتشونج" جنوب جبال "تشينلينج" في "سيتشوان" تحت سيطرة مقاطعة "شانشي" حتى لا يكون المتمردون قادرين على استخدام جبال "تشينلينج" كحاجز في حالة حدوث تمرد في "سيتشوان"، ويجب إبلاغ الحكومة المركزية بكل شيء سواء كان مهمًّا أو غير مهم قبل إنفاذه، بما في ذلك تعيين المسؤولين، مما حال دون حصول السلطات المحلية على سلطة مفرطة.

كما تم تأسيس حكومة إقليمية في مملكة "جوريو" في شبه الجزيرة الكورية، ومع ذلك، وبالنظر إلى أن الغرض منها هو التحضير لغزو اليابان، احتفظت "جوريو" بمنظماتها الرسمية ولم تكن ملزمة بدفع الإيرادات إلى إمبراطورية "يوان"، كما كانت منطقة "توبو" (منطقة التبت الحالية) منطقة خاصة، وبما أن

القوى الدينية كانت معقدة، عينت أسرة "يوان" القادة الدينيين لإدارتها، وفي وقت لاحق، أنشئت هيئة تسمى لجنة الشؤون البوذية والتبتية في الحكومة المركزية، وكان لها نفس مركز الأمانة المركزية والمجلس الخاص والمراقبة، [كانت دائرة الرقابة هيئة رقابية رفيعة المستوى قامت بالرقابة على أجهزة الحكومة]، وعين فيها كل من الرهبان البوذيين والعامة واهتمت بالشؤون العسكرية والسياسية في منطقة التبت. وعمومًا، قام المغول بتكييف طرقهم البدوية لتناسب المجتمع الزراعي في السهول الوسطى، ولعب رجل واحد على وجه الخصوص دورًا هامًّا في هذه العملية: "ييلو تشوكاي"، وهو من شعب الخيتان وكان على دراية جيدة بثقافة "هان"، ولد لعائلة نبيلة من الخيتان، وكان من نسل "ييلو أباوجي"، مؤسس إمبراطورية أسرة "لياو"، كان متقدمًا وبارعًا مع معرفة ممتازة بعلم الفلك والجغرافيا والبوذية والطاوية، وعندما صعد "أوجداي" العرش، تم تعيينه مدير أمانة، ودعا إلى الحفاظ على الحضارة المتقدمة في السهول الوسطى، والنهج الكونفوشيوسي للحكومة؛ واعتمد أنظمة الضرائب ونظم تسجيل الأسر، وأصلح النظام السياسي، وعارض عمليات القتل التعسفي، وأوصى بعدد من العلماء الكونفوشيوسيين للمناصب الرئيسة، بعد وفاة "أوجداي"، أزاحه منافسوه بعيدًا إلا أن "كوبلاي" خان طور أفكاره في الإصلاحات لاحقًا.

وقد بدأ الحكام المغول أنفسهم، الذين سبق لهم أن تفوقوا إلى حد كبير في الحروب، بالاستقرار وسعى بعضهم إلى شغل المناصب الرسمية، وبدؤوا في قبول أساليب الإنتاج وأسلوب الحياة للـ"هان" الصينيين وعملوا جنبًا إلى جنب مع الجماعات العرقية الأخرى، وتركوا علامة لا تُمحى على تاريخ الأمة الصينية.

ثقافة واقتصاد "يوان"

العاصمة "دادو"

تجاوزت مساحة حكم أسرة "يوان" كثيرًا من أسر "هان" و"تانج"، ومنذ البداية، اعتقد الأباطرة المغول أن القصور الرائعة من شأنها أن تسهل حكمهم، وهكذا بدأ بناء واسع النطاق لم يسبق له مثيل رسميًا في العاصمة "دادو" - المعروفة للمغول باسم "خان باليق" ويعني حرفيًا مدينة الخان وبنيت في موقع "بكين" الحالية - في بداية عام 1267م واستمر حتى عام 1287م، واجهت "دادو" الجنوب وكانت مستطيلة الشكل، وكانت النقطة المركزية في "جيشويتان"، حيث يقع جناح المركز اليوم، كانت المدينة محاطة بسور طوله 28.600 متر وكان فيها أحد عشر بوابة أو مدخلًا، في هذه المدينة كانت المدينة الإمبراطورية، مسورة على نحو مماثل وتعتبر مدينة داخل المدينة كما كان العرف في ذلك الوقت، وقسمت القصور الملكية، داخل المدينة الإمبراطورية، إلى ثلاث مجموعات: مجمع "دامينج هول"، وجناح "يانتشون"، ومجمع قصر الشرق، كانت المدينة بأكملها مصممة بشكل جيد، بالشوارع الكبرى باتساع عشرين خطوة واتساع الشوارع الجانبية اثنتي عشرة خطوة، وبشكل عام، اتبعت مدينة "دادو"، وخندق المدينة، والقصور مبادئ التخطيط المنصوص عليها في الطقوس الكلاسيكية الكونفوشيوسية مثل "طقوس تشو" و"كتاب الطقوس"، واتبع الأسلوب المعماري، والهيكل، وتسمية القصور التقاليد الصينية، ولكن التخطيط والديكور تماشى مع الـ" أوردو" المنغولية (المعسكر أو القصر الرئيس التقليدي المغولي)، حتى أنه كان أمام سلم البلاط رقعة من الـ"شيجيانساو"، وهو نوع من العشب المزروع من المراعي الشمالية.

كانت "دادو" مركزًا سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا في عهد أسرة "يوان"، تم فصل المناطق السكنية والأسواق - على عكس مدن أسرة "سونج" - حيث تم القضاء على التمييز بالفعل، وفقًا لـ"طقوس تشو" و"كتاب الطقوس"، كانت القصور في الجبهة والأسواق في العمق، وكانت معظم الأسواق على مقربة من برج الطبل وبرج الجرس (اثنان من السمات التقليدية للمدن الصينية التي كانت تستخدم على حد سواء لتحديد الوقت)، والبحيرة في وسط المدينة، أو "يانج جياوشي" إلى الغرب، على سبيل المثال، كانت أسواق الأرز والدقيق تقع بالقرب

من برج الجرس، في حين كانت أسواق الأغنام والخيول والماشية والإبل والحمير والبغال بالقرب من "يانج جياوشي"، وكانت السلع الأخرى متاحة في "شيشيكو"، وكانت هناك أيضًا أسواق للحطب والساتان وقبعات الفراء والحمام والإوز والبط واللؤلؤ والكتب والأحذية والمركبات والخنازير والأسماك والمجوهرات والفحم والكعك على البخار، والفاكهة، كانت هناك أيضًا سوق الرقيق حول "يانج جياوشي"؛ لأن المغول كثيرًا ما أخذوا أسرى في الحرب، وبحلول عهد "تشي يوان" من عهد "كوبلاي" خان، تم إغلاق هذا، ولكن الموقع لا يزال قائمًا، تم جلب المنتجات والكنوز النادرة من جميع أنحاء البلاد والخارج إلى الأسواق في "دادو"، مثل العبيد الشباب من "كونلون" وبلاد فارس؛ والمصنوعات الخزفية، والحرير المطرز، والمنحوتات من الروافد الجنوبية لنهر اليانجتسي و"وويو" -"تشجيانج" الحالية و"جيانجسو" الجنوبية-، والذهب والقصدير من منطقة "جينجشو" ("هوبي" الحالية)، والحرير من "شاندونج"؛ والخيول من "هيبي"، كانت مدينة هجينة عرضت معالم عرفت بأنها صينية إضافة إلى غيرها التي أظهرت الاحتلال المغولي.

كان ازدهار "دادو" واضحًا للجميع، لكنه عرض أيضًا ثروة من الثقافات المختلفة التي شملت الكونفوشيوسية والبوذية والطاوية من الصين، والمسيحية والإسلام من أماكن أخرى، واعتمدت أسرة "يوان" سياسة دينية حرة وشاملة، مما سمح لمختلف الأديان بالانتشار، وشملت هذه البوذية التبتية وتشان (المعروف في شكله الياباني "زن")، ومدرسة بوذية الماهايانا التي نشأت في الصين، في الطاوية، اجتذبت مدارس تحقيق الكمال، والعظمة الحقيقية، وتايي ومدارس الوحدة الأرثوذكسية العديد من الأتباع، في حين وجد الإسلام أيضًا مكانه، ففي هذا الوقت، وصل العديد من شعب "سيمو" (التي تعني حرفيًا ذوي العيون الملونة) من آسيا الوسطى، وكان أيضًا المصطلح الإداري لما كان أشبه بالطائفة التي تضم مجموعة من الأعراق، وجاء البعض لأسباب تجارية، وكان آخرون أسرى، وكان معظمهم من المسلمين، ومع الوقت شكلوا مجموعة عرقية مميزة معروفة في الصينية باسم "هويهوي"، كما وصلت المسيحية،

وازدهر عدد من الفروع - على سبيل المثال النسطورية، التي وصلت في وقت مبكر من عهد أسرة "تانج" - وجلب المبشرون الكاثوليكية وعمَّدوا ما يقرب من 6000 شخص في "دادو"، وأرسل البابا رئيس أساقفة إلى المدينة، ومن المعروف أن بعض المسيحيين الصينيين قاموا بالحج إلى القدس.

وكان لتبادل المعرفة بين الثقافات أثر عميق، ومن الأمثلة على ذلك إدخال الطب الإسلامي، فكتب "هو سو هوي" المسلم والطبيب الإمبراطوري المسؤول عن الطعام والشراب، "مبادئ النظام الغذائي الصحيح" لاستكشاف العلاقة بين الغذاء والتغذية والنظافة الغذائية والوقاية من الأمراض، وأنواع مختلفة من المواد الغذائية، وبالتالي جلب المعرفة الجديدة لعلم الدواء الصيني التقليدي، وقد حظي "قانون الطب"، وهو تحفة مكتوبة أصلًا باللغة العربية، بتقدير كبير وحفظ في المكتبة الإمبراطورية وأكاديمية الطب الإسلامي، التي عرفت في ما بعد باسم المكتب الطبي الإسلامي.

في عهد "كوبلاي" استدعي عالم الفلك الفارسي الشهير "جمال الدين" إلى "دادو"، حيث قدم ثلاثة وعشرين كتابًا علميًا وسبع أدوات فلكية، بما في ذلك الكرة السماوية الاستوائية، ثم عين مديرًا لمرصد بني في عام 1271م، وأثر على العالم الصيني الشهير "غو شوجينغ"، الذي ألف "تقويم شوشي" ويعني حرفيًا "عرض الفصول الأربعة (الرسمي)"، وهو التقويم الذي تم تقديره لدقته، وقد حل محله تقويم آخر في 1368م ولكنه ظل قيد الاستخدام حتى أوائل عهد أسرة "تشينغ"، كما تم تقديم العديد من الأعمال الرياضية من اليونان القديمة والجزيرة العربية إلى الصين في هذا الوقت.

لعبت مواطن البندقية "ماركو بولو" دورًا مهمًّا في التبادلات الثقافية بين الصين والعالم الخارجي خلال عهد أسرة "يوان"، حيث ذهب والده "نيكولو بولو" وعمه "مافيو بولو" إلى الصين في حوالي 1265م وزارا "كوبلاي" الذي أرسلهما مرة أخرى برسالة للبابا يطلب فيها مائة من المبشرين للقدوم وتعليم المسيحية والعادات الغربية لشعبه، في 1271م، انطلق آل "بولو" للصين مرة أخرى، وهذه

المرة يرافقهم "ماركو" البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، ووصلوا في 127 دون المبشرين، الذين فشلوا في إكمال الرحلة الشاقة، كان "ماركو بولو" شابًّا بارعًا حاز على إعجاب "كوبلاي" خان، وقد شغل منصبًا في عهد أسرة "يوان" لمدة سبعة عشر عامًا، وأرسل في عدة مناسبات كمبعوث إلى "يونّان"، و"شامبا"، والهند، وأماكن أخرى، وفهم انبهار "كوبلاي" خان بالعادات الأجنبية، فكان يقدم له تقريرًا بكل التفاصيل من رحلاته، وفي المقابل وثق به "كوبلاي" ثقة عميقة، والكثير من هذا الجانب من حكايات رحلات "ماركو بولو" لا يثق بها المؤرخون، وعندما حان الوقت، قيل إن "كوبلاي" أمره بالذهاب إلى أوربا وإيصال رسائل إلى البابا وملوك بريطانيا وفرنسا؛ وفي عام 1295م، عاد ماركو بولو إلى البندقية، ولكن تم القبض عليه في الحرب بين البندقية وجنوة، وأثناء سجنه، أملى وصفًا لأسفاره التي أصبحت تعرف باسم "رحلات ماركو بولو"، وقد أعطى تصويرًا حيًّا للأحداث السياسية الرئيسة والأخلاق والعادات والمعتقدات الدينية والمنتجات والتجارة في عهد أسرة "يوان"، والتي تتطابق مع مصادر أخرى، ولكن مع بعض المبالغة وعدم الدقة التي وضعت لأغراض أدبية، وفتحت عالمًا جديدًا غير عادي لزملائه الأوربيين في وقت كان معظمهم يجهلون المجتمعات خارج شواطئهم.

التكامل العِرقي

يتكون السكان الصينيون في الغالب من شعب "هان" الذي اختلط مع العديد من الآخرين على مدى التاريخ، كانت هذه هي الحال بشكل خاص خلال بوتقة انصهار أسرة "يوان"، وكان الصينيون تقليديًّا حذرين، وأقل إثارة للقلق، من الأقليات العرقية؛ ولكن حكام أسرة "يوان" لم يكونوا أنفسهم من عرق "هان"، واعتمدوا سياسة عرقية شاملة ومنصفة لتعزيز هيمنتهم.

وعلى مدى أقل من قرن من الزمان، أقامت جميع الجماعات العرقية في الصين علاقات وثيقة مع اختفاء أو انحراف الفروق؛ كان الخيتان والجورتشن يعتبرون من الـ"هان" الصينيين في هذا الوقت، وآخرون، مثل التانجوت، تم

تفريقهم على يد الحكام المغول، وكان النظام نفسه يقوده النبلاء المغوليون، كان المغول يسيطرون على الحكومة على جميع المستويات، ولكنهم عينوا أشخاصًا من عرقي "هان" الصيني و"سيمو" [المسلمين في آسيا الوسطى في الغالب] للتعامل مع مختلف الشؤون، واستغلوا الصراع العرقي لتعزيز موقفهم، وكان عدد كبير من الشخصيات البارزة من ال"سيمو"؛ فعلى سبيل المثال، خلال عهد "كوبلاي" خان، زاد "أحمد فاناكات" من ال"سيمو" و"سينج" من "الأويغور" الضرائب ودعما ثروة البلاد، وفي الأدب والفن، كان "ما زوتشانج"، وهو من "أونجود" المناطق الغربية، و"جاو كيجونج"، و"سا دولا"، وهما رجلان متعلمان من أصل "هوي" مسلم، و"يو كيو" من التانجوت، يكتبون بالصينية ويؤلف قصائد موزونة، اختفى تدريجيًّا تمييز "هوا يي" (البرابرة الصينيون)، وخاصة في "دادو"، حيث اختلط التجار والمرتزقة والمسافرون والدبلوماسيون والمبشرون والحرفيون والمهندسون من جميع أنحاء العالم وتحدثوا بلغات مختلفة.

كان المعتقد التقليدي للمغول هو الشامانية، ولكن بعد غزو "توبو" (التبت الحالية)، أصبحوا متأثرين ببوذية لاما، التي رأوها وسيلة لتعزيز سيطرتهم على المنطقة، وكان "كوبلاي" خان، على وجه الخصوص ذا شغف كبير بذلك وعظَّم الفاغسبا لاما كمعلم أعظم، وبالتالي رفع اللامية فوق الأديان الأخرى، وفي وقت لاحق، اخترع الفاغسبا لاما نظامًا جديدًا لكتابة اللغة المنغولية، وسماه "كوبلاي" خان معلم الإمبراطورية، كما كانت لجنة الشؤون البوذية والتبتية تتمتع بمكانة متميزة داخل حكومة "يوان"، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أن أباطرة "يوان" تبعوا البوذية التبتية (كانوا من المغول بالطبع، وليس من أصول التبت)، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى تأثير الدين وقادته على المناطق المحلية، كما كانت مناسبة للظروف الاجتماعية المحددة في التبت، وقد اتبعت جميع الأسر اللاحقة تقريبًا هذا النمط، حيث حافظت التبت على علاقة وثيقة مع الحكومة المركزية.

وأشار مسمى شعب "هويهوي" من أسرة "يوان" إلى الشعب الفارسي أو التركي في وسط وغرب آسيا، الذين كانوا مسلمين، أَسَرَ المغول أعدادًا كبيرة من الـ"هويهوي" في حملاتهم الغربية وأخذوهم إلى الشرق؛ وفي الوقت نفسه، وبفضل طرق التجارة بين الصين والغرب، وصل العديد من التجار المسلمين من غرب ووسط وجنوب شرق آسيا إلى الصين على طول طريق الحرير برًّا أو بحرًا، وأيًّا كان أصلهم أو لغتهم أو مهنتهم، فقد عرفوا جميعًا باسم "هويهوي"؛ فقد تفرقوا في الواديين العلوي والسفلي من النهر الأصفر، وكذلك على جانبي سور الصين العظيم ونهر اليانجتسي، مما جعل الإسلام في كل ركن من أركان البلاد، تم بناء المساجد، وأنشأ بلاط "يوان" مكتب شؤون "هويهوي" على مستوى الحكومة المركزية للإشراف على الأنشطة الدينية والتعامل مع الشؤون المدنية الإسلامية مثل النزاعات والزواج والممتلكات.

جلب شعب "هويهوي" الثقافة الإسلامية إلى الصين، وظهرت مؤلفات لعدد من مشاهير "هويهوي" من كتاب المقالات والشعراء والمؤرخين والمفكرين والرسامين، وكان أحدهم الرسام والشاعر "غاو كيجونج"، الذي تفوق في رسم المناظر الطبيعية والخيزران بالحبر، وآخر كان الشاعر "سا دولا"، الذي كان على معرفة واسعة بالتاريخ، والكلاسيكية الكونفوشيوسية والجغرافيا والوقاية من الفيضانات، وتعاليم "لاو تزي" و"تشوانج زي"، وفي العلوم، كان عالم الفلك البارز "جمال الدين"، وعالم الطب "سادي ميشي"، وعالم التغذية والطبيب "هو سو هوي" فضلًا عن الاستراتيجيين "ألاو وادينج" و"الإسماعيليون"، وكانوا كلهم من الـ"هويهوي"، كما أصبح خط الـ"هويهوي"، الذي يستند إلى اللغة العربية، الخط الرسمي لشعب "هويهوي"؛ وتفوقوا في مجال الأعمال التجارية وشاركوا أساسًا في النقل والتجارة، وخاصة في المجوهرات، تدريجيًّا، اعتبروا أنفسهم من الصينيين، وتقاسموا اللغة المشتركة، والحياة الاقتصادية، والقيم، وبالتالي شكلوا مجموعة عرقية جديدة هي الـ"هوي".

الاقتصاد

مع مرور الوقت، أصبحت إمبراطورية "يوان" واحدة من أغنى البلدان في العالم، وكافأ "كوبلاي" خان أولئك الذين انخرطوا في الإنتاج الزراعي، ودعم على نطاق واسع نظام التونتيان، الذي نشأ في عهد أسرة "هان" الغربية وكان شكلًا من أشكال الرعاية الحكومية للزراعة، وشجع بلاط "يوان" على استصلاح الأراضي القاحلة، وخفض ضريبة الأراضي؛ ونتيجة لذلك؛ قلل انتعاش الزراعة من ويلات الحرب عامة سريعًا بشكل مذهل، وفي عام 1270م، أنشئت الإدارة الزراعية على مستوى الحكومة المركزية، وأصبحت في ما بعد الإدارة الزراعية العليا، وكانت مسؤولة بالكامل عن الزراعة وتربية دودة القز، وكثيرًا ما أرسل الخبراء والمستشارين الزراعيين في جولات تفتيش، وكان الحفاظ على المياه أمرًا بالغ الأهمية؛ فأنشأ بلاط "يوان" إدارة الري، التي تعمل أساسًا على المستوى الإقليمي، للإشراف على مشاريع الحفاظ على المياه وبناء السدود، وشملت شبكة الأنهار والقنوات المجففة أنهار "هون" و"لوان" و"يي" وقناة "سانباي"، كما كلفت الحكومة الإدارة الزراعية العليا بتصنيف كتاب بلقب "أساسيات الزراعة"، وهو أول كتاب صدر عن الحكومة حول الزراعة، وقد أولت أسرة "يوان" اهتمامًا دقيقًا لتنمية المناطق الحدودية؛ تم إرسال الجنود والفلاحين إلى شمال صحراء غوبي لزراعة الأراضي في مناطق الحامية، وتم تزويدهم بالأدوات والمواد الغذائية ومعدات الصيد والملابس، وكان من أبرز المناطق "قراقورم"، عاصمة الإمبراطورية المغولية، التي ازدهرت بفضل رئيس حكيم كفل دراسة قبائلها الزراعة.

وأدى طلب المغول على الأسلحة المتطورة والمجوهرات الراقية إلى نمو كبير في قطاع الحرف اليدوية؛ فتم تعيين أعداد كبيرة من العمال المهرة في الحكومة كحرفيين، كما ازدهرت صناعة النسيج، وخاصة القطن، ويرتبط هذا التطور مع امرأة اسمها "هوانج داوبو" ولدت في "ونجينج" بـ"سونج جيانج" (بالقرب من شنغهاي الحالية)، وزوجت في سن مبكرة، وهربت إلى "ياتشو" في "هاينان" نتيجة للمعاملة السيئة، حيث كان شعب "لي" لطفاء ورحبوا بها، وبقيت هناك لمدة ثلاثين عامًا، وتعلمت تقنيات المنسوجات

المتقدمة، وأصبحت هي نفسها خبيرة، لكنها افتقدت وطنها دائمًا؛ لذلك عادت في حوالي عام 1295م، وكان ما وجدته هو أنه على الرغم من أن زراعة القطن كانت منتشرة في الجنوب، فإن تكنولوجيا النسيج كانت متخلفة؛ لذلك اعتمدت على معرفتها وبدأت في تطوير أدوات لخلق أشكال جميلة تتمتع أيضًا بالألوان الزاهية، وسرعان ما كان "لحاف وونيجينج" يباع في جميع أنحاء البلاد، وهكذا أصبحت منطقة "سونج جيانج" مركز صناعة القطن في البلاد، وتم بناء ضريح على شرف "هوانج داوبو".

كان السبب وراء اختيار أسرة "يوان" لمكان عاصمتها "دادو" (بكين الحالية) أساسًا لاعتبارات سياسية، بيد أن المدينة ما زالت تعتمد على منطقة نهر اليانجتسي للحبوب وغيرها من الإمدادات، كانت القناة الكبرى طريق الشحن الرئيس ولكن اتبعت مسارًا غير مريح ومشتتًا، حتى في 1289م، تحت إشراف المستشار "سانج"، حفرت قناة أخرى تقع على طول غرب مقاطعة "شاندونج" ويبلغ طولها الإجمالي أكثر من 125 كيلومترًا، وسماها "كوبلاي" خان "هيتونج"، ولسوء الحظ، كان عليها أن تتوقف في "تونجتشو"، على بعد قليل إلى الشرق من العاصمة؛ وكان على النقل في هذا القسم السفر برًّا، وهو أمر شاق، وخاصة خلال موسم الأمطار، ثم بذلت محاولات لمعالجة المشكلة، وكانت "تونجتشو" في مستوى أرضي أقل بكثير من "دادو"، وذلك لملء القناة كان لا بدَّ من تحويل المياه من العاصمة، في البداية، تم استخدام ينبوع ولكن هذا فشل، ثم في عام 1265م، تم استخدام نهر "هون" (نهر "يونج دينج" اليوم)؛ ولكن نظرًا لانحداره الحاد وعدم وجود مناطق توقف، كان من المستحيل على القوارب الضخمة التي تحمل الحبوب الذهاب إلى المنبع، وفي نهاية المطاف، تم توجيه مياه الينابيع من شمال غرب "دادو" من خلال بوابة المياه الغربية، إلى المدينة، ثم جنوبًا إلى "جيشويتان" والخروج من المدينة عبر بوابة "ونمنج" في جنوب شرق البلاد، وكان اسم هذا النهر "تونجوي"، وامتد لمسافة ثمانين كيلومترًا؛ وحلت أخيرًا مشكلة نقل الحبوب في العاصمة، وقدمت مساهمة حيوية في التبادل الثقافي بين الشمال والجنوب وازدهار "دادو".

ومقارنة بالنقل النهري، كان النقل عن طريق البحر أسرع وأكثر ملاءمة، وتم تطويره بالفعل بفضل اثنين من القراصنة، وهما "تشو تشينج" و"تشانج شوان" من أسرة "سونج" الجنوبية، شكّل هذا الزوج مجموعة لنهب السفن البحرية، وكلما واجههما الجنود الحكوميون، فروا شرقًا إلى المناطق الساحلية في "شاندونج"، أو حتى شمالًا إلى جبال "يان" و"جيشي" في مقاطعة "هيبي"، حدث ذلك خمس أو ست عشرة مرة، مما سمح لهم بالتعرف على الطرق الساحلية، وعندما سقطت أسرة "سونج" الجنوبية، استسلم "تشو" و"تشانج" إلى بلاط "يوان"، وفي عام 1276م، أمرهما المستشار "بيان" بإيصال بعض الكتب والمستندات المنهوبة من بلاط "سونج" الجنوبية إلى "دادو" عبر الطريق البحري، فاقترح "تشو" و"تشانج" شحن البضائع في الوقت نفسه، وهي فكرة تجاهلها البلاط في البداية، لكن التكلفة الباهظة لنقل البضائع إلى الشمال ظلت مشكلة؛ لذلك في عام 1282م، قام المستشار بإعادة النظر فيها، وفي عام 1287م، أقام بلاط يوان مكتب الشحن البحري بالتحديد للإشراف على صناعة الشحن وإطلاق مشروع نقل بحري واسع النطاق، ومنذ ذلك الحين، أصبح النقل البحري ناجحًا إلى حد كبير، حيث تم شحن أكثر من ملياري كيلوجرام من الحبوب سنويًا.

أدب وفن "سونج" و"يوان":

شعر "تسي": "تسي" هو شكل قديم من الشعر الغنائي، ونشأ في موسيقى مآدب البلاط أيام أسرة "تانج" (618 - 907م) وتطور تدريجيًا إلى نوع أدبي مستقل، وبلغ ذروته خلال عهد أسرة "سونج" (960 - 1279م)، وبدأ الأدباء كتابة قصائد "تسي" في أوائل فترة "تانج"، ثم في منتصف "تانج"، وجربها "باي جوي" و"ليو يوشي" و"تشانج تشيهي"، والشعراء الآخرون، ولكنهم لم يكونوا شعراء "تسي" حتى الآن بالمعنى الحقيقي، وشهدت فترة "تانج" المتأخرة ظهور "ون تينجيون"، أول شاعر "تسي" متخصص، كان "ون" متلافًا إلى حد ما، ومعظم قصائده المزخرفة، والمليئة بالغزل قد ألفت لمغنيات، وأخذ شعر "تسي" على يد

الفارين من الحرب إلى "سيتشوان" الغربية، حيث ازدهر خلال أواخر "تانج" وفترات الأسر الخمس (907 - 960م)، وواصل شعراء "تسي" في "سيتشوان" مسيرة "ون تينجيون" وألفوا المجموعة الأولى، "مجموعة من أغاني بين الزهور"، وقد أصبح شعر "تسي" الآن راسخًا سواء من حيث الشكل أو المحتوى.

وكان التالي في الأهمية لشعراء "تسي" في "سيتشوان" الغربية أولئك الذين عاشوا في أسرة "تانج" الجنوبية (937 - 975م)، والذين أخذوا هذا النوع في اتجاه أكثر حزنًا، فقد قدم آخر الأباطرة "لي يو" بعد أن شهد سقوط أسرته رسميًا، الحزن والكآبة إلى الأسلوب الشعري، وقد أعطاه أسلوبه الفريد لقب "إمبراطور تسي".

وصل شعر "تسي" إلى ذروته في عهد أسرة "سونج"، وكان يقع في فئتين: مدرسة الغناء ومدرسة البطولة، الأولى تميل إلى أن تكون رومانسية ذات ايقاعات، موجزة في هيكلها ومنعشة في الأسلوب، وهذا الأخير يضم مجموعة واسعة من المواضيع، ونمط نغمي ومخطط قافية حر، ومشاعره جريئة، في أوائل عهد أسرة "سونج" الشمالية، شكل "يان شو"، "أويانج شيو"، و"ليو يونج" مدرسة الغناء، واتبع الاثنان الأولان الأسلوب الدقيق والمحفوظ من "سيتشوان" الغربية وجنوب "تانج"، وكان "يان شو" ماهرًا في وصف المودة والاستياء بين العشاق، في حين عبر "أويانج شيو" أيضًا عن رؤى حول الحياة، ولكن "ليو يونج"، كان هو الذي أحدث ثورة في الشكل، كان "ليو يونج" على دراية بحياة الناس العاديين، وقد كتبت معظم قصائد "تسي" الخاصة به للمتجرين في الشوارع والبغايا، واصفًا الحياة الحقيقية بلغة بسيطة، كانت قصائده طويلة، وبطيئة في الإيقاع، وواحدة من أكثرها شهرة هي "رنين الجرس تحت المطر"، التي يصف حزن فراقه عن حبه.

وفي منتصف حكم "سونج" الشمالية المتأخر، دخلت مدرسة الغنائية مرحلة جديدة مع ظهور "يان جيداو"، "تشين غوان"، و"تشو بانجيان"، كان "يان

جيداو" ابن "يان شو"، ومر بالعديد من العلاقات العاطفية التي أثرت فيه بعمق؛ لذلك واصل أسلوب والده، معربًا عن تفانيه العاطفي للحب، ومثل "يان جيداو"، عاش "تشين جوان" حياة شاقة، وقادته الصعوبات في حياته المهنية الرسمية والنضالات السياسية إلى اليأس، وسكب من حزنه في قصائده، ووصف أحزان الفراق بشكل أكثر براعة من "يان جيداو"، ومع ذلك، عرض شعر "تشو بانغيان" ميزة أخرى تمامًا، فكان "تشو"، بصفته مسؤولًا سابقًا في معهد الموسيقى الحكومية، سيد الشعر العروضي وحاول جعل "تسي" شكلًا أدبيًا موحدًا ذا إيقاع متصاعد وهابط.

وفي الوقت نفسه ظهرت مدرسة البطولة بقيادة "سو شي" - شخصية جريئة وحرة وغير مهتمة بالتقاليد - كتب عن جميع جوانب الحياة، مما جعل هذا النوع من الشعر أكثر شمولًا بكثير؛ وضحى بالعَروض من أجل التعبير وتخلي عن دقة واحتياط أسلافه، وكان شاعر آخر من نفس المدرسة، وهو "شين تشيجي" قد نشأ تحت احتلال "جين"، والذي كان عاجزًا عن مقاومته، وهكذا كان له قصائد "تسي" أكثر بطولية وكانت أقل أدبية في الأسلوب من زميله "سو شي"، كما أنه رصع الهيكل بالتعليقات، وأنماط الجملة من النثر القديم في شعر "تسي"، وبالتالي خلق فرعًا جديدًا من هذا النوع، وقد أثر على العديد من المعاصرين واللاحقين بما في ذلك "لو يو"، و"تشن ليانج"، و"ليو جو"، و"ليو كيتشوانج"، و"تشن رينجي" الذين شكلوا مدرسة "شين" ورفعوا المدرسة الجريئة غير المقيدة للبطولة إلى ذروتها.

وخضع شعر "تسي" تقريبًا وقت سقوط أسرة "سونج" الشمالية لمرحلة ثالثة من التطور وذلك بفضل "لي تشينجتشاو"، الشاعرة المتميزة للمدرسة الغنائية حيث حملت تقاليد أواخر عهد أسرة "تانج" والأسر الخم، وسجلت حياتها ومشاعرها بطريقة طبيعية وبسيطة بشكل خاص، وفي عملها الأشهر، "أبطئ أبطئ أيها اللحن"، وكانت تستخدم التكرار، وخلقت نوعًا جديدًا من الأبيات بسبعة أحرف صينية متكررة.

وشهدت هذه الفترة أيضًا تشكيلة واسعة من الشعراء السياسيين من مدرسة البطولة، مثل "تشانج يونجان"، و"لي جانج"، و"تشاو دينج"، الذين رثوا جميعًا فقدان الأرض، والإهانة الوطنية، ومآسي الناس في آياتهم، وفي منتصف وأواخر عهد أسرة "سونج" الجنوبية في ما استقر الوضع تدريجيًّا، دخل شعر "تسي" المرحلة الأخيرة من التطور، وكان الشاعر الأكثر تميزًا فيه "جيانج كوي"، وهو رجل من أصل متواضع، قاد حياة التجوال يبيع مخطوطاته، ولكنه سعى في قصائده قبل كل شيء لنمط نقي وحساس وأنيق، ومثل "ليو يونج" و"تشو بانجيان" كان ماهرًا في كل من الموسيقى والشعر؛ فقد زودت سبع عشرة من قصائده بمقاييس موسيقية ولم ينجُ سوى هذه المقاييس من أسرة "سونج".

الـ"تشو"؛ دراما "يوان": في الدوائر الأدبية لـ"يوان" كانت دراما الـ"تشو" الخاصة بأسرة "يوان" تساوي شعر "تسي" عند "تانج" و"سونج"، وانقسمت إلى فئتين: "زاجو" و"سانتشو"، كانت "زاجو" الدراما الشعرية المرفقة بالموسيقى جامعة بين السيناريو والأداء، أما "سانتشو" فكانت شعرًا مكتوبًا بأنماط نغمية على غرار الإيقاعات المستمدة من الموسيقى الشعبية؛ لذلك لم تكن هناك حاجة إلى مسرح، ومن النموذجين، كانت الـ"زاجو" أول من ازدهر، وخضعت لمرحلتين من التطور: في البداية، خلال أوائل فترة "يوان" كانت منتشرة أساسًا في شمال البلاد، وكان كتابها "جوان هانشينج" و"وانج شيفو" و"باي بو" و"ما تشيوان"، في هذا الوقت، تم إلغاء نظام الامتحانات المدنية الإمبراطورية، وانخفضت مرتبة العلماء، وكان "جوان هانتشينج"، الذي كان على دراية جيدة في الكلاسيكية قد مُنع من شغل وظيفة رسمية وتحول إلى كتابة الـ"زاجو"، وأضفى عليها النضج مع خلق شخصيات لا مثيل لها واستخدام لغة بسيطة، وكان "الظلم الواقع على دو إي" تحفته الأشهر.

وتحكي قصة "دو إي"، التي تباع كعروس طفلة على يد والدها المنكوب بالفقر، وعندما يموت زوجها يرغب بها متوحش يُدعى "تشانج لور"، ولكنها ترفض

بحزم، فيسمم تشانج بطريق الخطأ والده ويتهم "دو إي" بالقتل، وعندها يدينها قاضي المحافظة عند إعدامها، وإذ هي مليئة بالحزن والسخط، تقدم احتجاجًا حماسيًّا مدعيًا أن ثلاث ظواهر غير عادية سوف تظهر إذا كانت قد تعرضت للظلم، حيث سيلوث دمها الحرير الأبيض، وسوف تسقط الثلوج من السماء في منتصف الصيف، وسيصيب الجفاف الأرض لمدة ثلاث سنوات متتالية، ويحدث الثلاث منهم، ويمكن أن ينظر إلى احتجاجها على أنها هجاء ضد الحكم الإقطاعي، وتعبير عن الرغبة الشعبية في الثورة. أمَّا "رومانسية الغرفة الغربية" بقلم "وانج شيفو" فهي كوميديا رومانسية، مقتبسة من قصة "تانج" الكلاسيكية "قصة يينج يينج" التي كتبها يوان تشن"، وتروي القصة الأصلية كيف يلتقي الباحث الشاب "تشانج جونروي" ابنة عائلة مسؤول ثري، "تسوي يينج يينج"، ويقعان في الحب، ولكن يتم التخلي عن "يينج يينج" بشكل مأساوي، ولكن "وانج شيفو" أعطى الحكاية نهاية سعيدة يجتاز فيها "تشانج" الفحص المدني الإمبراطوري، ويعود إلى "يينج يينج"، مما يعبر عن شوق العشاق الحقيقيين ليتزوجوا، وفي عصر كانت فيه الأخلاقيات الإقطاعية تفوق المشاعر الإنسانية، كان هذا إعلانًا جريئًا.

وفي الوقت نفسه، خلق "باي بو" و"ما تشي يوان" أساليب جديدة للـ"زاجو" مثل الاقتباس من القصص التاريخية، وكان "باي بو" قد عانى من الفوضى وسفك الدماء في طفولته وكان لديه فهم عميق لتقلبات الحياة، وكانت مسرحيته "المطر على شجرة الباراسول الصينية" تم اقتباسها من "أغنية الندم الأبدي" بقلم شاعر "تانج" "باي جوي"، وتروي قصة حب مأساوية بين الإمبراطور "شوانزونج"، "لي لونج جي"، ومحظيته "يانغ يوهوان"، حيث أقسما على الحب الأبدي، ولكن ينفصلان خلال ثورة "آن لوشان"، وتموت "يانج" خنقًا، ويحزن الإمبراطور "شوانزونج" لبقية حياته، كما تم اقتباس "الخريف في قصر "هان"" بقلم "ما تشيوان" من قصة تاريخية، حيث ترفض "وانغ تشاوجون"، إحدى جميلات أسرة "هان" رشوة الرسام الإمبراطوري "ماو يانشو"؛ لذلك رسمها قبيحة عمدًا فنفيت إلى "القصر البارد"، مما يدل على أنها لم تحصل على

الحظوة، ويكتشف الإمبراطور "يوان" ما حدث ويأمر بإعدام "ماو"؛ ويهرب هذا الأخير إلى "شيونجنو" (قبيلة قديمة في الصين) ويشجع ملك "شيونجنو" على الزواج من "تشاوجون"، ولا يكون أمام الإمبراطور "يوان" سوى الموافقة على الزواج، لذلك تلقي "تشاوجون"، التي تحب بلدها والإمبراطور بعمق نفسها في نهر.

في منتصف وأواخر فترة "يوان" حل جنوب البلاد محل الشمال كمركز لكتابة الـ"زاجو"، فتأثرت بالثقافة الجنوبية، وكانت الموضوعات الرئيسة الرومانسية والحكايات عن الخلود، وقد تم تنقيح اللغة وتنميقها على النقيض تمامًا مما كان متبعًا في الشمال، وكان "تشنج جوانجزو" كاتب الـ"زاجو" الجنوبي في ذلك الوقت، وقد اقتبست "روح فتاة جميلة راحلة" من حكاية أسرة "تانج" الكلاسيكية "الروح المتحررة من جسدها"، وتقول القصة أن "تشانج كيانو" و"وانج ونجو" مخطوبان قبل الولادة، لكن أم "كيانو" غير معجبة بـ"ونجو" لأنه ليس لديه منصب رسمي؛ لذلك يضطر إلى الرحيل إلى العاصمة لإجراء الامتحان المدني الإمبراطوري، وتفتقده "كيانو" كثيرًا لدرجة أنها تسقط مريضة، وفي غيبوبتها تترك روحها جسدها وتتبع "ونجو" لسنوات عديدة، وعندما يفوز بالمركز الأول في الامتحان ويعود إلى الزواج بها، تعود روحها إلى جسدها أخيرًا، وهكذا فإن المسرحية تثير شجاعة الإناث في كسر المعايير الإقطاعية التقليدية في السعي إلى الحب.

ومن بين الكتاب المعروفين بكتابة الـ"زاجو" الجنوبي "تشياو جي" الذي كتب "الزواج في الحياة الآخرة" و"جونج تيانتينج" الذي ألف "الوعد الذي تم الوفاء به" و"تشين" "جيانفو" "أبوة ابن صديق متوفى" و"جين رينجي" لكتابته "شياو هي يطارد "هان شين""، و"يانج زي" عن مسرحية "الجنرال يتظاهر بالجنون"، ومع ذلك، انحدرت الـ"زاجو" بانحدار أسرة "يوان".

اتبعت "سانتشو" نفس نمط "زاجو"، ومع تحول مركزها من الشمال إلى الجنوب، كان "قوان هانتشينج"، وهو كاتب "زاجو"، يتقن الـ "سانتشو" أيضًا،

وذلك باستخدام خطوط متوازية قصيرة للتعبير عن المقاومة للتقاليد والسعي لتحقيق الاستقلال الشخصي، وكان كتاب "زاجو" "باي بو" و"ما تشي يوان" أيضًا يؤلفون الـ"سانتشو"، وعلى عكس "جوان هانشينغ"، الذي ترك تمامًا الأخلاق الإقطاعية والمناصب الرسمية، كانوا يأملون في الحفاظ على وظائفهم الرسمية، وعندما خاب أملهم مرارًا وتكرارًا، أصبحت السخرية والعزلة موضوعاتهم المعتادة، وأصبح "ما تشي يوان" على وجه الخصوص أصبح يعرف باسم "والد حزن الخريف".

ازدهرت كتابة "سانتشو" في الجنوب في أواخر فترة "يوان"، وتوسعت الموضوعات، مع التركيز على المواضيع الحزينة، وأسلوب الكتابة أصبح مستقرًا ومنضبطًا، وكان كتاب "سانتشو" الجنوبيون هم "تشانج كيجيو"، و"تشياو جي"، و"تشانج يانجاو"، وكتب "تشانج كيجيو"، وهو متخصص في الـ"سانتشو"، عن مجموعة واسعة من المواضيع بلغة واضحة، رشيقة، ويعتبر شخصية رئيسة في تحول أسلوب الـ"سانتشو"، كما يتمتع "تشياو جي" بشهرة مساوية، فبعد أن عاش حياة صعبة، نجا من معاناته عن طريق الكتابة عن الجبال والأنهار والبلاط في لغة حساسة ومنضبطة، وكان هو و"تشانج كيجيو" معروفين باسم "لي باي ودو فو كتابة الـ"سانتشو" " مقارنين إياهما بالشعراء الأكثر شهرة من أسرة "تانج"، وفي الوقت نفسه، كتب "تشانج يانجاو"، الذي كتب أيضًا عن الجبال والأنهار، مواضيع سياسية.

الرسم

مهدت تنمية الاقتصاد الاستهلاكي والحياة الثقافية النابضة بالحياة الطريق لرسامي "سونج" و"يوان" للازدهار، وقد ظهر العديد من الرسامين المشهورين بقيادة "لى جونج لين" و"تشانج زيدوان" و"ليانج كاي"، أتقن "لي جونج لين" الرسم السهل الأنيق على أساس الخط، وكانت لوحته "الخيول الخمسة"، وهي تصور خمسة خيول كهدية عرضت على بلاط "سونج" من المناطق الغربية، واستخدم الرسم الخط مع عدد قليل من المناطق من الحبر ذي الألوان الفاتحة،

وكان مثالًا على تمكنه من استخدام أدواته، وكان "تشانج زيدوان"، الذي عاش في عهد أسرة "سونج" الشمالية الأخيرة، هو أيضًا سيد الرسم التصويري، واتخذ نهجًا واقعيًا، وأعاد إنشاء الاستعراضات المعقدة والمهيبة، ولوحته "على طول النهر خلال مهرجان "تشينج مينج" هي لوحة مرسومة على ورقة طويلة وتصور صخب وثروة "بيانج ينج" ("كايفنج" اليوم)، عاصمة أسرة "سونج" الشمالية، مع السفن الذاهبة والآيبة، والمحلات المكتظة بشكل كثيف، وحشود الأشخاص، وعلى الرغم من تنفيذها على نطاق واسع، إلا أن التكوين منظم وهي ميزة نادرة في اللوحات الصينية القديمة، بعد "تشانج زيدوان" كان "ليانج كاي" من أسرة "سونج" الجنوبية الذي تأثر بعمق بالفكر الطاوي والبوذي، وكان معروفًا بلقب " ليانج المجنون"، بدأ دراسة تقنيات رسم "لي جونج لين" الخطية، ولكنه انتقل إلى خطوط أكثر جرأة وأكثر تعبيرًا، وكانت لوحة "الشاعر لي باي" و"السماوي المخمور" من روائعه، وكان الرسم في عهد أسرة "يوان" اللوحة أقل إنجازًا، ولكن مع ذلك ظهر عدد من الفنانين مثل "تشاو منج فو"، و"تشيان شوان"، و"وانج يي"، رسم "تشاو منج فو" الناس والخيول باستخدام فرشاة رشيقة وقوية، وميز "وانج يي" نفسه عن رسامي "يوان" الآخرين بأعمال دقيقة وحساسة.

كما اشتهر رسم الأزهار والطيور أيضًا إلى آفاق جديدة، وظهر نمطان: "جونج بي"، التي تحتوي على رسم ذي جودة عالية، و"شييي"، والتي تستخدم الرسم الحر، وخلال فترة الأسر الخمس، ظهرت مدرستان لـ"جونج بي"، واحدة أكثر حرية وحالمة أكثر، والأخرى المعنية بإظهار الازدهار والرتبة؛ وهيمنت الأخيرة في أوائل عهد أسرة "سونج" الشمالية، أما لاحقًا في عهد أسرة "سونج" الجنوبية، فكان "تشاو جي" -الإمبراطور "هيزونج" من "سونج" - هو نفسه رسامًا عظيمًا، خلق "تشاو" أسلوبه الخاص الذي شدد على المحاكاة، والترتيب البارع للزهور والطيور، ومزيج من الشعر والخط والرسم والختم، وتضمنت روائعه "الدراج الذهبي" و"زهور القطن"، و"الببغاء ذو الألوان الخمسة على شجرة مشمش مزهرة".

وفـي سـعيهم للبسـاطة والأناقـة، تخلـى فنانو "سـونج" تـدريجيًّا عـن نمـط "جونجبي" المزخرف، وتحولوا بدلًا من ذلك إلى رشاقة فرشاة "شيي" الحرة، فأفسحت الثروة والرتبة مثل طائر العنقاء والدراج الذهبي الطريق للبرقوق ذي المعنى الرمزي للغاية والخيزران والأوركيد والأقحوان والصنوبر أو الحجارة، وتجسد الرغبة في الإيمان، النبل، الانفتاح والعفوية، وكان "تشينج سيشياو" يفضل بساتين الفاكهة والأقحوان، أما "تشاو منج فو" ففضل الخيزران، وفضل "وانج ميان" البرقوق.

من بين مختلف أنواع الرسم، كان رسم المناظر الطبيعية هو الأبرز، وبعد أن نما إلى مرحلة النضج خلال فترات "وي"، "جين"، "سوي"، "تانج"، والأسر الخمس، وصل الآن إلى ذروته في عهد أسرتي "سونج" و"يوان"، وكان من الرائدين في هذا المجال "لي تشينج" و"فان كوان" و"جو شي" في "سونج" الشمالية، وتميز أسلوب "لي تشينج"، بالفخر والانفرادية، وصور الغابات النائية والآفاق البرية، كان يستخدم ضربات فرشاة بسيطة وحبرًا مخففًا لخلق الجبال والصخور التي بدت تقريبًا مثل السحب، وكان لعمله تأثير كبير على الأدب في المستقبل مع أعمال مثل "لوح قراءة حجر العش" و"الغابات الباردة والجبال" (انظر الشكل 22)، في حين كان "فان كوان" مختلفًا تمامًا، إذ كان خبيرًا في تقنيات "قطرات المطر" وطبقات من الحبر، خلقت أعمال "فان" تأثيرًا قاتمًا، ففي حين عبر عن روعة وقوة الجبال والصخور، كان عمله ثقيل الجو، وكانت تحفته "مسافرون بـين الجبـال والجـداول"، وهنـاك رسام آخر للمناظر الطبيعيـة هو "جو شي"،



واستخدم المبادئ التوجيهية الثلاثة

من الارتفاع والعمق والمسافة لتأطير وتكوين رسوماته.

الشكل (22): جبل وغابة باردين للرسام "لي تشينج".

ظهر أربعة رسامين مناظر طبيعية موهوبين خلال عهد "سونج" الجنوبية: "شيا جوي"، و"ما يوان"، و"لي تانج"، وليو "سونج نيان"، وكان "شيا" و"ما" هما الأكثر تميزًا، فاستخدم "شيا جوي" أولًا الحبر الخفيف، ثم قبل أن يجف، يضيف الحبر الأغمق بحيث يمتزجان معًا، كما أنه يرسم جزءًا من المشهد فقط، ومن هنا جاء لقب "شيا ذو الجانب الجزئي"، وبالمثل، فضل "ما يوان" أيضًا إظهار زاوية واحدة من المنظر الطبيعي، وبالتالي أصبح يعرف باسم "ما ذو الركن الواحد". وشهدت أسرة "يوان" دمج الرسام "تشاو منجفو" لفني "شيي" و"جونج بي"

للتعبير عن المناظر الطبيعية بأقصى قدر ممكن، كما رأينا في تحفته "ألوان الخريف على جبال كيو وهوا"، وطور "هوانج جونجوانج" و"وانج منج" و"ني زان" و"وو تشن" الفن بعد ذلك، وبتأثرهم بـ"تشاو منجفو"، أولوا اهتمامًا دقيقًا لاستخدام الفرشاة والحبر، وحاولوا أيضًا دمج الشعر والخط في لوحاتهم، وأثر عملهم على العديد من الرسامين من أسر "مينج" و"تشينج"، والرسامين الصينيين المعاصرين.

الخط

في عهد أسرة "سونج" تسارع الأدباء لتقليد خط الحكام مما أعاق تطوره، على الرغم من أن تأثيره على المعنى كان تأثيرًا دائمًا، وكان كبار الخطاطين في هذه الفترة هم "سو شي" و"هوانج تينججيان" و"مي فو" و"تساى شيانج" و"تشاو جي" (الإمبراطور هيزونج من أسرة "سونج")؛ كان الأربعة الأوائل يعرفون بالخطاطين الأربعة الرئيسين لأسرة "سونج"، وكان "تساي شيانج" هو الأكبر، واستمد عمله أصوله من الخط من أسرتي "جين" و"تانج"، التي أكدت القواعد؛ ولكنه يمثل الانتقال من القواعد إلى السعي وراء المعنى، بدا الخط العادي متآلف، وله شكل جميل وأنيق، وقد تميز أسلوبه الخط بالضربات المجوفة المكتوبة بسرعة عالية، ومن ثم كان يعرف أيضًا باسم "الخط المائل الطائر"، والذي كان فريدًا من نوعه في ذلك الوقت، وكان "سو شي" هو أعظم خطاط بين الأربعة؛ فقد سعى إلى الحرية وعدم التقييد ولم يهتم بالتفاصيل، وتفوق في الخطين المتدفق والعادي، وتبدو ضربات فرشاته في غاية البساطة وتجسد في الواقع محيطًا من التعبيرات، "نموذج خطي لقصائد معنونة عن مهرجان الطعام البارد في هوانغتشو" تعتبر ثالث أكبر قطعة استخدم فيها الخط المتدفق في العالم، والأولى والثانية هما "مقدمة وانغ شيتشي لقصائد كتبت في جناح الأوركيد" و"يان تشنتشينج" "خطاب نعي لابن شقيقي".

وكان "هوانج تينججيان"، وهو خبير في الخطين المتدفق والمائل، في المرتبة الثانية بعد مدرسه وصديقه "سو شي"، وكانت روائعه" "قصيدة لجناح سونج

فنج"، حاشية لقصائد "سو شي" في مهرجان الطعام البارد في "هوانجتشو" و"غنائية إلى عمود"، أما "مي فو"، الذي ظهر في وقت لاحق، فتفوق في جميع أنواع الخطوط، ولكنه برع في الخط المتدفق على وجه الخصوص، وكان يكتب بسرعة وبقوة لخلق نمط جديد قوي، وشملت روائعه "قصيدة في شاوشي" و"نموذج خطي بعنوان الكتابة على الحرير المغزول من سيتشوان"، بالإضافة إلى الأربعة خطاطين الرئيسين، كان "تشاو جي" وهو الإمبراطور "هيزونج" حاكم "سونج"، هو أيضًا جديرًا بالذكر، وكان النمط "الذهبي النحيل" أو (شوجينتي) الذي اخترعه لا مثيل لها حتى اليوم، فكانت له ضربات جميلة وخفيفة ومعتدلة، وانتهت ضربات الفرشاة الأفقية مع ضربة فرشاة قطريًا لأسفل لإنشاء وقفة ثابتة، والضربات العمودية تنتهي بنقطة، أفضل أعماله شملت "ألف حرف كلاسيكي بالخط العادي".

وكان خطاطو "يوان" يميلون لتقليد أسلافهم من "سونج" بدلًا من الابتكار بأنفسهم؛ ومع ذلك تميز عدد قليل منهم، مثل "تشاو منج فو"، وكان "تشاو" مع "أويانج شون" و"يان تشنتشينج"، و"ليو جونجتشان" معروفين باسم "معلمو الخط العادي الأربعة".

الفصل الخامس عشر

الملكية المركزية لأسرة "مينج"

(1368 – 1644م)

المقدمة

إن اسم أسرة "مينج" هو أكثر ما هو مألوف خارج الصين، ويرجع ذلك أساسًا إلى شهرة الخزف المنتج خلال تلك الفترة، أما في الصين فيحتفى بها كأسرة "صينية" حلت محل نظام "يوان" المغولي: وكانت في الواقع آخر أسرة "صينية"، وأطيح بها في نهاية المطاف على يد مانشو الذين حلوا محلها بأسرة "تشينج"، حكمت "مينج" الصين لمدة 275 سنة، وبعد إنشاء نظام إمبراطوري جديد في نهاية القرن الرابع عشر تطورت إلى نظام ديناميكي ومزدهر بحلول القرن السادس عشر فقط لتتراجع في القرن السابع عشر: وهي دورة أسرية نموذجية وفقًا للتأريخ الصيني التقليدي.

نشأت أسرة "مينج" عن حركة تمرد عُرفت باسم "العمائم الحمر" التي اعتنقت مزيجًا من المعتقدات الكونفوشيوسية، والطاوية، والبوذية، واستولى زعيمها "تشو يوان تشانج" على "نانجينج" في 1356م، وأعلن نفسه الإمبراطور "هونج وو" أول أباطرة "مينج" بعد ذلك بعامين، ونقل خليفته، الإمبراطور "يونج لي"، عاصمة بلاده إلى بكين لضمان دفاعات أفضل ضد تهديد القوة المنغولية المنتشرة في السهوب الشمالية، أعادت "مينج" الخدمة المدنية ونظام الفحص وهذا ساعد في تطوير نخبة مستقرة من طبقة النبلاء التي استخدمها البلاط لحكم الصين خلال فترة الأسرة.

كانت حكومة "مينج" مركزية وسلطوية ولكن النظام ترأس فترة من التنمية الاقتصادية الاستثنائية التي بلغت ذروتها في القرن السادس عشر، على أساس

توسيع صناعات الحرف اليدوية والشبكات التجارية، لم يقتصر نمو الصناعات اليدوية على السلع البسيطة المطلوبة للمنزل أو المزرعة، بل شمل المنتجات التي أظهرت مستويات عالية من التطور التقني والفني، لا سيما صناعة الخزف التي كان مقرها في مدينة "جينج تشن" في مقاطعة "جيانجشي"، كما تم إنتاج الحرير والمنسوجات الأخرى، غالبًا من أفضل النوعيات بكميات تجارية.

تأسيس أسرة "مينج"

سقوط عهد أسرة "يوان"

كما هي الحال مع أسر الـ"هان" الصينية العرقية، كان القمع الوحشي الطبقي سمة من سمات أسرة "يوان" المغولية، كما كانت الصراعات العرقية المكثفة يعود تاريخها إلى عهد "كوبلاي" خان، تم تقسيم السكان إلى أربع طبقات وفقًا للعرق، شكلت المغولية الحاكمة أعلى طبقة، وشعب "سيمو" الطبقة الثانية، و"هان" الصيني الطبقة الثالثة وشكل الجنوبيون الطبقة الأدنى، وتعني كلمة "سيمو" بالصينية "العيون الملونة"، أي ليس اللون الأسود فقط، وكان مصطلحًا يستخدمه الـ"يوان" لمنطقة الشمال الغربي والمناطق الغربية، وكذلك للأجانب، وفي ذلك الوقت، تضمن عرق "هان" الصيني الصينيين أيضًا في شمال الصين والجورتشن والخيتان في الأصل تحت حكم أسرة جين (1115 - 1234م)، بالإضافة إلى أشخاص من "سيتشوان" و"يونّان"، أما الفئة الرابعة وهي "الجنوبيين"، فكانوا من أبناء أسرة "سونج" الجنوبية السابقة، التي استسلمت لـ"يوان"، ويمكن اعتبار معظمهم من الصينيين الـ"هان"، لكنهم ربما ضموا أيضًا أسلاف الأقليات العرقية الحالية، ومن خلال وضع الـ"سيمو" في الطبقة الثانية كان حكام "يوان" يأملون في كسب ولائهم، ومن خلال تقسيم الصينيين إلى الجنوبيين الـ"هان" من الدرجة الثالثة والجنوبيين من الطبقة الرابعة، كانوا يهدفون إلى إضعاف "هان" باستخدام استراتيجية فرِّق تسد.

في حين أن النظام المكون من أربع طبقات كان يحمي مؤقتًا المكانة المميزة لنبلاء المغول، فقد أدى إلى نشوب صراع على السلطة بينهم ودعم الفساد، فمنذ وفاة "كوبلاي" خان عام 1294م إلى تتويج الإمبراطور الأخير، "توجان - تيمور" في عام 1333م، كان هناك تسعة أباطرة في أربعين سنة فقط، واستمر كل واحد في المتوسط أقل من خمس سنوات، وتميز عهدهم بالإسراف، فعلى سبيل المثال، كان للإمبراطور "وولزونج" إيرادات سنوية قدرها 2.8 مليون سبيكة، ولكن في أقل من عام أنفق 8.2 مليون، مما خلق عجزًا هائلًا، تم إنفاق معظم الأموال على الأنشطة الدينية مثل بناء المعابد، وفي الوقت نفسه، انزلق الحكم الرسمي على جميع المستويات إلى الاستغلال والفساد الذي ترك الناس يكافحون من أجل البقاء، وفي عام 1333م، أدت العواصف والفيضانات في بكين وحدها إلى ما يصل إلى 400.000 شخص يعانون من المجاعة، كان الوضع ناضجًا لانتفاضات الفلاحين.

كان تغيير قيمة المال هو طريقة حكام أسرة "يوان" في التعامل مع الأزمة المالية، فقد أصدروا الأموال الورقية بتهور، وبالتالي خلقوا تضخمًا صارخًا، وارتفعت الأسعار، وأصبح المال الورقي في كل مكان عديم القيمة على نحو متزايد والتجار في المحافظات والمقاطعات اضطروا إلى اللجوء إلى المقايضة، وفي الوقت نفسه، في عام 1344م، سقطت أمطار غزيرة في المجرى الأوسط للنهر الأصفر، مما أدى إلى اختراق السدود وإغراق العديد من المدن والبلدات، وعندما فاض النهر في القناة الكبرى، التي كانت وسيلة الاتصال الرئيسة بين جنوب الصين ومنطقة العاصمة ووسائل تزويد الشمال بالحبوب، تم اختراق ذلك أيضًا، مما تسبب في فيضانات واسعة النطاق، وقعت المزيد من الانهيارات للسدود في 1346 و1348م، واضطر الآلاف إلى الفرار، كانت المعاناة واسعة النطاق وأدت إلى أكل لحوم البشر في بعض الأماكن، وفي عام 1351م، قام "توجان - تيمور"، آخر إمبراطور لـ"يوان"، بتعيين "جيا لو" للتعامل مع مشكلة النهر الأصفر، وظف "جيا" 150 ألف فلاح، عانوا بالفعل من الفيضانات والمجاعة

والأوبئة، وأجبروا الآن على العمل في مشروع إعادة توجيه النهر، فماتوا بأعداد كبيرة وظلت جثثهم متناثرة على طول الضفاف، على الرغم من أنه في أقل من ثمانية أشهر تم إعادة النهر الأصفر إلى مساره السابق وتم تنظيم تدفقه بنجاح، وقد جلب هذا المسعى أسرة "يوان" إلى حافة الدمار.

وكان من بين طبقة الفلاحين "هان شانتونج" من "لوانشينج" في "هيبي"، وهو من الذين قاموا بتجنيد أفراد في جمعية "اللوتس الأبيض" المناهضة للحكومة مع "ليو فوتونج" من "فويانج" في "آنهوي"، وقاما سرًّا بنحت رجل ذي عين واحدة، وعلى ظهر هذه الدمية كان هناك نقش يقول إنه بمجرد ظهور حجري رجل بعين واحدة فإن الوقت قد حان لتمرد الناس على طول النهر الأصفر، ثم دفنوا التمثال الحجري في قاع النهر وانتظروا حفرها، وعندما تم اكتشافها فوجئ الفلاحون، وانتشر الحديث عن التمرد بسرعة، وكان "هان شانتونج" و"ليو فوتونج" يخططان للتمرد في مدينة "يينجتشو" - مدينة "فويانج" اليوم في مقاطعة "آنهوي" - في الشهر الخامس من عام 1351م، لكن الأخبار عن خطتهم قد تسربت وتم قمع التمرد على يد الجيش، وألقي القبض على "هان شانتونج" وأعدم، لكن "ليو فوتونج" نجا؛ وفي اليوم الثالث من ذلك الشهر، قاد ثورة أخرى واستولى على "يين - تشو" بنجاح، وبما أن جميع الجنود المتمردين كانوا يرتدون عمامة حمراء، فكان يطلق عليهم اسم "جيش العمائم الحمر"، وتحت قيادة "ليو"، فازوا بسلسلة من المعارك ضد جيوش "يوان"، وارتفعت أعدادهم إلى 100.000 جندي، وفي عام 1355م، أعلن "ليو" "هان لينر" - ابن "هان شانتون" - ليكون إمبراطور "سونج" العظمى في "بوتشو"، وكانت هذه محاولة للحصول على دعم الجمهور لإحياء اسم أسرة "سونج" المنقرضة وإعادة تأسيس قوة عرق "هان" الصيني.

هذا التمرد الناجح شجع بشكل كبير "بن - يين - يو" وأتباعه الذين كانوا يخططون لتمرد على طول نهري "يانجتسي" و"هواي"، كان "بن - يين - يو"، المعروف باسم "الراهب بين"، محبوبًا على نطاق واسع بفضل مهاراته الطبية

الاستثنائية، وفي الشهر الثامن من عام 1351م، تمرد هو و"شو شوهوي" في "جيشون" بـ"هوبي"، مرتدين أيضًا عمائم حمراء، ولكن عرفوا باسم جيش العمائم الحمر الجنوبي، وبعد الاستيلاء على "تشيشوي" (شيشوي اليوم) في مقاطعة "هوبي" وجعلوها عاصمة لإمبراطورية "تيانوان" التي أنشؤوها حديثًا، ومع اندلاع الثورات في جميع أنحاء البلاد، احتلت الجيوش الثلاثة التابعة لـ"ليو فوتونج" بنجاح العديد من مدن "يوان" في عام 1357م، لكنها كانت سيئة التنظيم وهُزمت في نهاية المطاف، في هذه المرحلة، توفي "بنج يين جيو" في المعركة واستولى "تشن يوليانج" على إمبراطورية تيانوان وغير اسمه إلى "دا هان"، والذي يعني حرفيًا "الـ"هان" العظيم"، وهكذا فشل "ليو فوتونج" و"بنج يينجيو" في الإطاحة بحكم "يوان" بالكامل، ولكن وجهت جهودهم ضربة قاتلة للنبلاء المغول.

أما الرجل الذي نجح في النهاية فكان "تشو يوان تشانج" الذي ولد لعائلة فقيرة في "هاوتشو" ("فنجيانج" اليوم في مقاطعة "آنهوي") في 1328م، وفي ربيع عام 1344م، توفي والده وشقيقه الأكبر بسبب المرض المنتشر على طول نهر هواي، ونظرًا لكونه معدمًا أصبح تشو راهبًا مبتدئًا في معبد "هوانج جو"؛ وفي عام 1352م، عندما كان عمره خمسة وعشرين عامًا، انضم إلى جيش العمائم الحمر، وبسبب شجاعته في ساحة المعركة، أصبح قائدًا للقوات، ولم يكن موهوبًا فحسب، بل أيضًا منضبطًا للغاية، فقد عرف كيف ينشر مرؤوسيه، واحتل مدينة "جيان كانج" الجنوبية المهمة استراتيجيًا ("نانجينج" اليوم في مقاطعة "جيانجسو") في عام 1360م، وجذب العديد من الرجال الموهوبين إلى خدمته، مثل "لي شانتشانج" أحد الأصدقاء المقربين له ورئيس وزرائه الأول، و"ليو جي"، وهو استراتيجي عسكري ممتاز، وسرعان ما سيطر على مقاطعتي "جوانجدونج" و"فوجيان"، وبالتالي سيطر على أجزاء كبيرة من جنوب شرق الصين، وفي العام نفسه، تحرك ضد أسرة "يوان" في الشمال، وصاغ "سونج ليان"، مستشاره السياسي، "الإعلان ضد المغول"، الذي عبر عن قرار الإطاحة بالحكم المغولي، وإعادة بناء إمبراطورية الـ"هان" التي يعيش فيها الناس في

سلام ورضا، ثم قاد كل من "شو دا" و"تشانج يو تشون"، جنرالات "تشو يوان تشانج"، جيشًا من 250 ألف جندي شمالًا، وفي الوقت الحالي، كانت أسرة "يوان" في حالة من الفوضى، وفي الشهر الثامن من عام 1368م، قام جيش "تشو يوان تشانج" مباشرة بالسير إلى عاصمة "يوان" "دادو" (بكين الحالية) حيث واجه مقاومة بسيطة، وهكذا انتهى حكم أسرة "يوان" البالغ من العمر سبعة وتسعين عامًا.

الملكية المطلقة لأسرة "مينج"

في الشهر القمري الأول من عام 1368م، أعلن "تشو يوان تشانج" نفسه إمبراطورًا في "نانجينج" وكان عمره أربعين عامًا، سميت إمبراطوريته العظمى "مينج" وأصبح الإمبراطور "هونج وو"، الذي يعني "العسكري الأعظم"، وبعد وفاته، أصبح يعرف باسم (Taizu of Ming) والتي تعني (جد "مينج" العظيم)، وبالنظر إلى أن البلد أصبح الآن معدمًا، فقد استولت الحكومة المركزية على النظم الإدارية [الموجودة أصلًا] التي تعود إلى عهد أسرة "يوان" من أجل استعادة الحياة الطبيعية والإنتاج الزراعي في أقرب وقت ممكن، كان "لي شان تشانج" و"شو دا" هما أول اثنين من المستشارين، وتصرفا بحذر، وحافظا على علاقة جيدة مع الإمبراطور، ومع ذلك، كان منصب رئيس الوزراء منصبًا رئيسًا، الأمر الذي جعل "تشو يوان تشانج" غير مستقر، وبينما كان يزن خياراته، قدم له رجل فرصة، وكان "هو وييونج"، وهو من سكان "دينجيوان" في "آنهوي"، وقد انضم إلى انتفاضة "تشو" في شبابه، وقد بدأ مسيرته الرسمية في الحكومة المحلية وشق طريقه بحماس حتى صار مستشارًا في عام 1373 م، ومستغلًا ثقة "تشانج" فيه، شكل عصبة خاصة به بين المسؤولين ولجأ إلى الوسائل الخفية، مثل فتح مراسلات الإمبراطور لتعزيز موقفه، وهذا دفع العلاقة الهشة بالفعل بين الإمبراطور والمستشار إلى نقطة الانهيار.

في عام 1380م، كشف أحد المرؤوسين للإمبراطور أن "هو" يخطط للتمرد، وهي جريمة أُعدم هو وعائلته بأكملها نتيجة لها، كما ورط الإمبراطور الآباء المؤسسين لأسرة "مينج"، مثل "لي شانتشانج"، واحدًا تلو الآخر حتى الموت، وبشكل حاسم، أدرك "تشو" أن التهديدات الموجهة إليه ولإمبراطوريته لم تكن من رجال مثل "هو وييونج"، بل من المراكز التي احتلوها؛ لذلك ألغى مناصب السكرتير والمستشار، وأسس مناصب الوزارات الست: الأفراد، والإيرادات، والطقوس، والحرب، والعدالة، والأشغال العامة، وهكذا لم يعد شخص واحد يتحكم في كل شيء، وكل وزير يرفع تقاريره مباشرة إلى الإمبراطور، مما أعطاه فعليًّا السلطة التي كانت سابقًا مع المستشار، ومع إلغاء نظام المستشار، تم توحيد قوة الإمبراطور، ولكن هذا جلب معه مشكلات جديدة، فإن الأباطرة الذين يسيئون استخدام سلطتهم سيسببون كارثة، في حين أن ذوي الأمانة الشديدة سيثقلون بالعمل، في عام 1382م، مدركًا لهذه العيوب، أنشأ "تشو يوان تشانج" أمانة كبرى من كبار المسؤولين، في البداية، عمل الأمناء الكبار كمستشارين للإمبراطور ولم يكن لديهم سوى القليل من القوة الحقيقية، ولم يشاركوا في صنع القرار حتى عهد "تشو دي"، الإمبراطور "تشينجزو" حاكم "مينغ".

إلى جانب إلغاء دور المستشار وتولى السلطة الإدارية، شدد "تشو يوان تشانج" أيضًا السيطرة على الجيش، قسم اللجنة العسكرية الرئيسة إلى خمسة أقسام، الوسط واليسار واليمين والأمام والظهر، كانت لهذه اللجان العسكرية الخمس سلطة إدارة القوات، لكن دون سلطة تعبئتها؛ ومن جهة أخرى، كانت وزارة الحرب تمتلك القوة لتعبئة القوات، ولكن ليس لإدارتها، وفي حالة الحرب، تقوم الوزارة بتعبئة القوات بناء على أوامر الإمبراطور ويقود الجنرال الذي عينه الإمبراطور مؤقتًا القوات في ساحة المعركة، هكذا كانت القوة العسكرية تحت سيطرة الإمبراطور بالكامل، وتم احتواء السلطات المحلية أيضًا، وقد قسموا إلى ثلاث وزارات، واحدة للشؤون المدنية والمالية، وواحدة للمسائل الإشرافية والقضائية، والثالثة للشؤون العسكرية المحلية، عملت هذه بشكل منفصل

وأشرفت بعضها على بعض، مما جعل التمرد المحلي أكثر صعوبة.

على الرغم من كل هذه الإجراءات، ما زال "تشو يوان تشينج" يشعر أنه تحت التهديد، وأدى ذلك إلى إنشاء قوة شرطة سرية - "جينييوي" أي "الحرس ذو الزي المطرز"، الذين كانوا مسؤولين أمام الإمبراطور فقط، وفي عام 1382م، أعطى "تشو يوان تشانج" الـ"جينييوي" سلطات الكشف والاعتقال والاستجواب، مما يسمح لهم للتجسس على رعاياه، وفي وقت لاحق، أنشأ الإمبراطور "تشينجزو" و"شيانجزونج" المزيد من منظمات الخدمة السرية في شكل الأقسام الشرقية والغربية، والتي كان يديرها خصيان البلاط ويقودها الإمبراطور مباشرة، ومن الآن فصاعدًا، أصبح التجسس مفرط الانتشار.

ومع ذلك، أدرك "تشو يوان تشانج" أن جهوده لن تكون ذات قيمة إذا لم يسيطر على أفكار الناس وجعل المثقفين في صفه، وأفضل وسيلة للقيام بذلك هي عن طريق نظام الامتحانات المدنية الإمبراطورية، بالنسبة للإقطاعيين، اعتبر الفحص الطريقة الوحيدة لتمييز أنفسهم والشروع في وظائف كمسؤولين؛ لذا قررت حكومة "مينج" أن مواد الاختبار ستتركز فقط على النصوص الكونفوشيوسية الموثوقة؛ الكتب الأربعة (التعاليم العظيمة، مذهب الاعتدال، المختارات، منجزي) والكلاسيكيات الخمسة (كتاب التغيرات، كتاب الوثائق، كتاب الأغاني، حوليات الربيع والخريف، وكتاب الطقوس)، فلا يمكن أن تحيد الامتحانات عن التعليقات على هذه بقلم العلماء الكونفوشيوسيين مثل "تشو شي"، كما كان عليهم أن يكملوا "مقالة ذات ثمانية أرجل"، والتي اتبعت شكلًا صارمًا: الافتتاح، والتضخيم، والتعرض الأولي، والحجة الأولية، والحجة المركزية، والحجة اللاحقة، والحجة النهائية، والاستنتاج، ولم يسمح بالابتكار إطلاقًا، وهكذا تم خنق التفكير الحر، وعلق "جو يان وو"، المفكر في أواخر عهد أسرة "مينج"، قائلًا إن "الكارثة الثقافية للمقال الثماني كانت شديدة مثلما حدث مع "تشين شي هوانج" وهو يحرق الكلاسيكيات الكونفوشيوسية".

مع مثل هذه السيطرة المشددة، كان ينبغي أن يعيش "تشو يوان تشانج" دون

قلق، لكن - وبجنون العظمة بطبيعته - كان يشتبه في كثير من الأحيان بالمسؤولين عن تشويه سمعته، وعقد تحقيقات أدبية على نطاق واسع بين عامي 1384 و1396م، وقد أسيء فهم كتابات بريئة، وقطع رؤوس مؤلفيها، مما أدى إلى قمع الفكر بشكل أكثر تدميرًا من ذلك الذي فرضه المقال الثماني.

الاضطرابات داخل بلاط "مينج"

تماشيًا مع نظام البكورية التقليدي، أصبح نجل "تشو يوان تشانج"، "تشو بياو" وليًّا لعهد أسرة "مينج" الجديدة، تأكد والده من أنه تم إعداده بعناية، مستخدمًا العديد من العلماء الكونفوشيوسيين لتعليمه والتأكيد على مدى صعوبة إدارة الإمبراطورية، نشأ ولي العهد شابًّا لطيفًا وخيرًا، ومع ذلك، بدءًا من 1377م، عندما سمح له "تشو يوان تشانج" مبدئيًا بالتعامل مع شؤون الدولة، ظهر تباين قوي بين الأب والابن، دعا "تشو بياو" لعدالة وإنسانية الكونفوشيوسية، وكثيرًا ما تشاجرا، وفي عام 1392م، كان الأمير ولي العهد قد مات قبل أن يتمكن من الصعود إلى العرش.

تركت وفاة "تشو بياو" والده فريسة للحزن، والآن في عمر الخامسة والستين، كان عليه أن يختار خليفة آخر، فقد توفي الابن الأكبر "تشو بياو" قبل عشر سنوات؛ لذلك أصبح "تشو يونوين"، الابن الثاني لـ"تشو بياو"، الخيار الأول للإمبراطور، على الرغم من أنه كان في الرابعة عشرة فقط، إلا أنه أظهر حكمة عظيمة وبرًّا بوالديه، وكان محبوبًا للغاية من جده؛ لذلك، عندما توفي الأخير بعد ست سنوات، كان هو الذي تولى العرش، وغير لقب الملكية إلى "جيانوين" أي (تأسيس الفضيلة المدنية)، وكان يعرف باسم الإمبراطور "جيانوين".

أصبح من الواضح الآن أن "تشو يوان تشانج" قد ترك الإمبراطور "جيانوين" مع مشكلة مستعصية على الحل، ففي الأيام الأولى لأسرة "مينج"، تبنى النظام الإقطاعي للأسر السابقة ليس فقط لتعزيز القوة المطلقة للملكية، ولكن أيضًا لتأمين العرش لعائلة "تشو"، حيث عين أبناءه الأربعة والعشرين كأمراء

إقطاعيين ومنحهم الأرض في مواقع استراتيجية في جميع أنحاء البلاد، على أمل أن يدعموا العائلة المالكة ويحموها، أولئك الذين أشاروا إلى دروس الماضي ونصحوا بإضعاف الأمراء الإقطاعيين استقبلوا بالقليل من الاهتمام، على سبيل المثال، "يي بوجو"، الذي تم سجنه، وتعذيبه، ثم تجويعه حتى الموت.

عندما توفي "تشو يوان تشانج" في عام 1398م، أعلن "تشو يونوين" مرسوم والده الأخير؛ وهو طلب بأن يبقى الأمراء الإقطاعيون في أراضيهم بدلًا من القدوم إلى بكين من أجل الجنازة، وأمر "تشو دي"، أمير "يان"، الذي كان في طريقه بالفعل إلى تكريم والده، بالعودة (انظر الشكل 23)، أدى هذا إلى استياء كثير منهم وبدأ الإمبراطور "جيانوين" بالنظر في كيفية إضعافهم، وكان معظمهم من أمراء الحرب المحليين، كما كان "تشو دي" في الواقع الأقوى بأكثر من 100.000 جندي، واعتقد الوزير "تشي تاي" أنه يجب أن يكون الهدف الأول للإمبراطور الجديد، ومع ذلك، نصح الوزير "هوانج زيتشينج" الإمبراطور "جيانوين" بالتعامل مع الأمراء الآخرين أولًا؛ لأن "تشو دي" كان مستعدًّا بشكل جيد وسيكون من الصعب هزيمته على المدى القصير، وهكذا بدأت الحركة لإضعاف اللوردات الإقطاعيين، فخفض "تشو يونوين" مرتبة الأمير "تشو" إلى مرتبة المدنيين، وأحاط قصره بالقوات، ونفاه إلى يونّان، وألغيت الألقاب الإقطاعية لأمراء "داي" و" مين" و"شيانج"، و"تشي"، ونصح الإمبراطور "جيانوين" بالتحرك بحذر أكبر، في حالة تصاعد الموقف إلى اضطراب سياسي؛ وقد اقترح أن يشجع اللوردات الإقطاعيين على تقسيم أراضيهم بين جميع أبنائهم، وليس البكر فقط، لتخفيف سلطتهم، غير أن "تشو يونوين"، المدعوم بانتصاره المبكر، كان واثقًا من قدرته على حل المشكلة مرة واحدة وإلى الأبد.



الشكل (23): بورتيه للإمبراطور الشاب "جوو دي" من فترة حكم أسرة "مينج".

وبعد أن تم إزاحة العديد من الأمراء الإقطاعيين، أدرك "تشو دي" أنه من المحتمل أن يكون أحد القادمين الذين سيتم طردهم؛ لذا بدلًا من انتظار حدوث ذلك، قام بضربة وقائية، متهمًا مستشاري الإمبراطور الخاصين "تشي تاي" و"هوانج زيتشينج" بالغدر وفي الشهر السابع من 1399م حشد جيشه ضدهم، زاعمًا أن هدفه كان تطهير البيئة المحيطة بالإمبراطور، وأطلق على نفسه اسم "جينجنان"، والذي يعني "التهدئة"، وأطلق على جيشه اسم جيش "جينجنان"؛ وعرفت الحرب الأهلية التي تلت ذلك داخل العائلة المالكة بحملة

"جينغنان"، وفي بداية الحرب، كان جيش "تشو دي" أضعف من الإمبراطور، ولكن العديد من مسؤولي البلاط والجنرالات ذبحوا على يد "تشو يوان تشانج" في السنوات الأولى من عهد أسرة "مينج"، وكان "لي جينغ لونج"، القائد الحالي، فتى أخضر العود له خبرة قليلة بالحرب، وعلى النقيض من ذلك، كان "تشو دي" يتمتع بالبراعة والحذق وفاز في سلسلة من الانتصارات، وفي عام 1400م، هزم جيش "لي جينج لونج" الذي يبلغ قوامه 100.000 جندي خارج بوابات مدينة "جينان" (في "شاندونج")، وبفضل قائد المدينة "شنج يونج" قاومت جينان مقاومة شرسة لمدة ثلاثة أشهر، وخوفًا من قطع طريق إمداداته اضطر "تشو دي" إلى التراجع إلى بكين، واستعاد "شنغ يونج" الأراضي المفقودة وسار إلى الشمال، مستفيدًا من ذلك إلا أنه عانى من هزيمة على يد تشو دي في "تسانجتشو"، ولكن في خضم النصر، قلل "تشو دي" من شأن قوة "شينج يونج" مما أدى لحصاره في معركة "دونجتشانج"، وتم إنقاذه في الوقت المناسب من خلال التعزيزات، ومنذ ذلك الحين، سجل سلسلة من الانتصارات، لكنه كان لا يزال غير قادر على السيطرة على أرضه لأنه على الرغم من خسارته العديد من المعارك، كان للجيش الإمبراطوري احتياط مستمرة من الجنود والطعام، وسادت حالة من الجمود وكانت الظروف غير مواتية لـ"تشو دي". ثم، بينما كان "تشو دي" يشعر بالإحباط، تلقى رسالة سرية من خصي في البلاط، أخبره أن الدفاع عن "نانجينج"، عاصمة "مينج"، كان سيئًا ويمكن بسهولة أن يغزوها، لذلك في عام 1402م، قاد "تشو دي" جيشه مباشرة جنوبًا، متجاوزًا "جينان" شديدة التحصين، ووصل كلا الجانبين إلى طريق مسدود على نهر "فاي"، في هذه اللحظة الحرجة، أمر الإمبراطور "جيانوين" خطّه الأمامي العام "شو هويتزو" بالاتجاه إلى "نانجينج"، وانتهز أمير "يان" الفرصة، وفاز بالنصر الكامل، ثم عبر نهر هواي، وسرعان ما عبر نهر اليانجتسي عبر "جواتشو"، وسار بجيشه مباشرة إلى "نانجينج"، وفتح "لي جينغ لونج"، حارس بوابة "جينتشوان" في شمال "نانجينج" البوابات واستسلم، ومع دخول "تشو دي" وقواته، واشتعلت النيران في قصر الإمبراطور، ووفقًا لسجلات "مينج" الرسمية، فإن الإمبراطور

اليائس ومحظياته قاموا بحرق أنفسهم، لكن الأسطورة تقول إنه هرب من خلال ممرات سرية قبل انهيار القصر، وعاش كراهب، وهكذا في عام 1402م، تولى "تشو دي" العرش وأصبح الإمبراطور "تشينجزو"، والمعروف باسم إمبراطور "يونجلي" وعلى الرغم من وصوله إلى السلطة عبر وسائل غير مشروعة، فقد أثبت أنه قائد غير عادي.

اقتصاد أسرة "مينج" وسياستها الخارجية

الاقتصاد المزدهر وإدارة الأراضي

خلال الأيام الأولى لأسرة "مينج"، انخفض عدد السكان، وكانت الأراضي الزراعية قفرًا والناس معوزين، ولإصلاح هذا الأمر، طبق الإمبراطور الموهوب الأول، "تشو يوان تشانج"، سلسلة من السياسات الاسترجاعية، مثل مكافأة استصلاح الأراضي البور، والحد من التجنيد والضرائب العمالية، وبناء أنظمة الري والسدود، وتنظيم الجنود والفلاحين للعمل على الأرض، في نهاية عهده، كانت الأراضي الزراعية تزرع على نطاق واسع، وكانت القوات مكتفية ذاتيًا من الغذاء، وزادت عائدات الضرائب الحكومية بشكل كبير، فقد تعافى المجتمع والاقتصاد، وكانا يتوسعان.

مع الانتعاش الاقتصادي جاء ارتفاع تدريجي في عدد السكان، مما أدى إلى تزايد الضغط على الإمدادات الغذائية، من أجل زيادة إنتاج الحبوب، بدأت المناطق في الجنوب في إدخال زراعة مزدوجة للأرز، مع محاولة مناطق مثل "هاينان" زراعة المحاصيل الثلاثية، أصبح الأرز والقمح الغذاء الأساسي، ولكن تم إدخال محاصيل عالية الإنتاجية مثل الذرة والبطاطس الحلوة من الخارج، زرعت الذرة لأول مرة في منتصف عهد أسرة "مينج" في المقاطعات الجنوبية مثل "فوجيان" و"تشجيانج" و"يونّان" و"جويتشو"، وبحلول نهاية الأسرة،

انتشرت زراعاتها إلى شمال الصين، تم جلب البطاطا الحلوة إلى "جوانجدونج" و"فوجيان" من جنوب شرق آسيا في السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، وأثبتت أنها لا تقدر بثمن في أوقات المجاعة، إن الزراعة الواسعة للذرة والبطاطا الحلوة كانت أفضل استخدام للأراضي القاحلة التي كانت غير مناسبة للأرز والقمح، مما أدى إلى زيادة كمية الطعام المزروع، ومن المحاصيل المزدهرة أيضًا، خلال فترة حكم "تشو دي"، شجع المزارعون - بل كل أسرة منتجة- على زراعة القطن، أو القنب، أو التوت، تم إعفاء المزارعين من الضرائب إذا زرعوا المزيد من القطن؛ لذلك انتشرت زراعة القطن في جميع أنحاء الأرض، حيث أصبحت "هيبي" و"هنان" و"شاندونج" المراكز الجديدة له ونتيجة لذلك كان هناك تحول من استخدام الكتان إلى القطن في صناعة المنسوجات والملابس، أصبحت منطقة "سونج جيانج" (بالقرب من شانجهاي اليوم) مركز المنسوجات القطنية الرئيس، إضافة إلى "هانجتشو" و"هوتشو" أيضًا.

كما تطورت الصناعات الأخرى بسرعة، مثل صناعة الحرير والبورسلين، وصناعة الورق والطباعة، مما ساهم بشكل مباشر في ازدهار البلاد، وفي منتصف فترة "مينج"، جاء عدد كبير من المنتجات الزراعية والمصنعة يدويًا إلى السوق، مما خلق اقتصادًا مفعمًا بالاستهلاك، وظهرت مراكز استهلاكية متطورة، مثل "بكين" و"نانجينج" و"سوتشو" و"هانجتشو" و"جوانج تشو" و"تشوانجتشو"، وبدأ بعض التجار الأكبر في استثمار رؤوس أموالهم في الإنتاج الحرفي، في صناعة النسيج في وادي نهر الـ"يانجتسي" السفلي، تطورت علاقات التوظيف مع مالكي الآلات الذين يوفرون رأس المال، والعمال الذين يتم توظيفهم للعمل.

عزز الاقتصاد المزدهر قوة "مينج" الكلية، بعد أن ورثت معظم الأراضي الشاسعة لأسرة "يوان"، كان عليها الآن محاولة إدارتها، كانت أسرة "يوان" قد قسمت الإمبراطورية إلى عشر مقاطعات، وفي عام 1428م، السنة الثالثة من

حكـم "شـواندي"، ألغـت أسـرة "مـينج" نظـام إدارة المقـاطعات، ووضـعت المحافظات الشمالية والمقاطعة الفرعية التي كانت تعمل في المقاطعات تحت المقاطعـة القضائية المباشـرة لـ"بكين"، والجنـوب تحـت المقاطعـة القضائية المباشـرة لـ"نانجينج"، كما تم إنشاء 13 لجنة إدارية جديدة هي: "شاندونج" و"شانشي" و"هنان" وشاآنشي" و"سيتشوان" و"هوجوانج" ("هوبي" و"هونان") و"تشجيانج" و"جيانجشي" و"فوجيان" و"جوانجدونج" و"غوانغشي" و"يونان" و"غويتشو"، وبما أن الجمهور كان على دراية بكلمة "شنج" "المحافظة" التي كانت تُستخدم أثناء حكم "يوان"، فقد عُرفوا أيضًا باسم "شنج".

وسرعان ما أكد بلاط "مينج" السيطرة على الحدود الشمالية الشرقية، ففي عام 1403م، وهو العام الأول له بوصفه الإمبراطور "تشينجزو"، أصدر "تشو دي" مرسومًا منحه السلطة على قبائل صيد الحيوانات والأسماك الذين يعيشون في المنـاطق الـدنيا مـن نـهر "أمـور"، وبعـد فتـرة وجـيزة، أنشأ بلاط "مينج" لجنة "نورجـان" العسـكرية الإقليميـة، وفـي عـام 1409م، ذهـب خمسـة وسـتون مـن مشـايخ "نورجـان" إلى بكيـن ليقسموا الولاء للإمبراطور "يونجلي"؛ وفي عام 1411م، بنـاء علـى أوامـر الإمبـراطور، أبحـر أسطول "ييشيها" المكـون مـن 25 سفينة أسفل نهر "سونجاري" لإنشاء اللجنة، وامتدت إدارتها من نهر "أونون" في الغرب، إلى جزيرة "سخالين" في الشرق، وإلى نطاق "خينجان" الخارجي في الشمال، وبحر اليابان في الجنوب، ومن عام 1411 إلى عام 1432م، نظم "يايشا"، بصفته مفوضًا إمبراطوريًا، بعثات عديدة إلى المنطقة؛ حيث أجرى العديد من مشاريع البناء هناك، وأبرزها معبد "يونغ نينغ"، سهّل إنشاء اللجنة سيطرة بلاط "مينج" على المجموعات الإثنية في الشمال الشرقي، مما خلق استقرارًا طويل الأمد في المنطقة.

في أجزاء أخرى من الشمال، كانت الأمور مختلفة، فمنذ تأسيس أسرة "مينج"، استـمر المغـول فـي مضـايقتهم للجنـوب، هنـا، عـاد حكـام "مينج" إلى الفكرة القديمة لبناء سور عظيم لحماية أنفسهم ضد فرسان المغول، خضع الجدار

لعملية إصلاح وتقوية ثابتة تقريبًا طوال فترة الأسرة، لقد تم بناء السور العظيم الذي نراه اليوم على فترات "مينج" المختلفة، ويمتد من ممر "شانهاي" -على حدود مقاطعتي "لياونينج" و"هيبي"- وفي الشرق إلى ممر "جيايو" -في مقاطعة "-قانسو" اليوم- في الغرب، وكانت المواقع الرئيسة في القسم الشرقي قوية بشكل خاص، حيث بنيت بالحجارة والطوب الضخم، وكانت المواقع التسع الأكثر أهمية محصنة بقوة، وكانت "لياودونغ"، و"جيتشو"، و"شوانفو"، و"داتونج"، و"تايوان"، و"يانسو"، و"نينجشيا"، و"جويوان"، و"قانسو"، وكان مشروع ممر "شانهاي" هو نقطة انطلاق الجدار في الشمال الشرقي وكان هو الأكبر، وتم تكريمه بلقب "الممر الأول تحت السماء"، ووفقًا للأسطورة عندما تم التخطيط لممر "جيايو"، فقد قدر المصمم بدقة عدد الطوب المطلوب، ولم تتبقَّ سوى لبنة واحدة فقط عند انتهاء المشروع.

سياسة "مينج" الخارجية

جذبت أسرة "مينج" القوية العديد من المبعوثين الأجانب الذين جاؤوا ليقدموا ولاءهم، وعكست رحلات "تشينج هي" السبع البحرية التبادلات بين الصين وآسيا وإفريقيا، وخلال حكم الإمبراطور "يونجلي"، توافد العديد من الملوك والسعاة والقوافل الآسيوية إلى الصين، فزار ملوك وملكات "بورنيو" و"ملقا" و"سولو" مدن "نانجينج" و"بكين"، وكان بعضهم برفقة أكثر من خمسمائة شخص، وقام الإمبراطور "يونجلي" بإغراقهم بالمآدب والهدايا، وتم عرض الهدايا التي قدمها الزوار في قاعة "وينهوا" في المدينة المحرمة، وعند عودته من رحلته البحرية السادسة، أحضر "تشينج هي" معه 1200 مبعوث وتاجر من عشرة بلدان بعيدة كل البعد عن الخليج الفارسي، حيث تم الترحيب بهم جميعًا بكرم كبير.

ارتفع الآن نظام الخراج القديم إلى آفاق جديدة، وكان هذا النظام بمثابة ترتيب بين بلد مركزي قوي وجيرانه، أقر فيه الجيران بالقوة له ودفعوا الخراج بالسلع، وتلقوا الهدايا والحماية في المقابل، وفي عام 1371م، أدرج "تشو يوان

تشانج"، الإمبراطور "تايزو" حاكم "مينج"، خمس عشرة دولة لم يغزها بلاط "مينج"، بما في ذلك "أنام" و"تشامبا" و"كوريا" و"سيام" و"ريوكيو" و"سومطرة" و"جافا" و"بورنيو"، حددت هذه الدول المنطقة الواقعة تحت سيطرة الصين بشكل فعال، كما حدد "تشو يوان تشانج" مبدأ أن إمبراطورية "مينج" ينبغي أن تعطي أكثر مما تتلقى، والذي جاء تدريجيًّا ليهيمن على العلاقات الدولية في العالم الشرقي، وصل هذا إلى ذروته خلال عهد الإمبراطور "يونجلي"، عندما أبحرت أساطيل "تشنج هي" إلى جنوب شرق آسيا، وغزت القوات المغولية في الشمال، ودفع ما يصل إلى خمسة وستين مملكة وقبيلة الخراج لحكومة "مينج"، كان نظام الخراج علاقة بين الصين والدول الأضعف حولها، وتفترض المصادر الصينية أنه من خلال المشاركة في نظام الخراج، أقرت الدول الأصغر بسيطرة الصين، أو حتى سيادتها، كان هذا أبعد ما يكون عن الحالة وكان النظام يعمل كشكل من أشكال الدبلوماسية مع تبادل الهدايا بين بلاط "مينج" والولايات الأصغر التي تعتبر نفسها مستقلة.

وبشكل غامض، لا يقدم أرشيف "مينج" الضخم أي تسجيل لرحلات "تشنج هي"، هذه السجلات، التي تم تخزينها في الأصل في وزارة الحرب بـ"مينج"، ووجدت ضائعة في عهد الإمبراطور "شيان تسونج"، كانت ستحتوي دون شك على قدر كبير من المواد المباشرة، بما في ذلك مراسيم الأباطرة، وتشكيل الأسطول وقوائم الأسماء، ومذكرات "تشينج" والفواتير، وأكثر من ذلك بكثير، في عدم وجودها تم استخدام مواد تاريخية أخرى لتجميع الحقائق، ففي عام 1405م، في السنة الثالثة من حكمه، نظم الإمبراطور "يونجلي" أسطولًا ضخمًا يضم ستين سفينة و27800 من البحارة وبناة السفن والجنود والحرفيين والأطباء والمترجمين، كان طول أكبر سفينة 147 مترًا، وعرضها 60 مترًا ويمكن أن تحمل أكثر من ألف شخص، وقد تم تجهيزها بأحدث المعدات الملاحية، مثل الخرائط البحرية والبوصلات، لكنها بنيت، بشكل مدهش، ليس للأغراض العسكرية ولكن للبعثات.

على الرغم من وجود روابط بحرية بين الصين والدول الأجنبية منذ أسرتَي "تشين" و"هان"، فإن أسطول "مينج" الضخم المنظم جيدًا كان أول ما سجل كقوة استكشافية إلى المحيطات البعيدة في التاريخ الصيني، كان هناك تكهنات لا مفر منها حول نوايا الإمبراطور الحقيقية، اعتقد البعض أنه يريد إظهار قوة وتفوق أسرة "مينج" في البحر، فضلًا عن تعزيز التبادلات الودية مع دول المحيط الهندي، ورأى آخرون أنه اجتذبه العاج والتوابل والمجوهرات في هذه المناطق، بل إن البعض يعتقد أنه بنى الأسطول لاكتشاف مكان الإمبراطور "جيانوين"، "تشو يونوين"، وتعمقت الشائعات بأن هذا الأخير لم يمت في الحريق الذي شب في قصره في "نانجينج"، لكنه فر إلى الخارج وكان يستعد لاستعادة سلطته.

تحمل قائد هذه الحملة البحرية الضخمة مسؤولية كبيرة، كان يحتاج إلى معرفة الملاحة، وبناء السفن، وفنون الحرب، كان بحاجة إلى أن يكون قائدًا عسكريًا حاسمًا، على دراية بتاريخ وطبيعة وثقافة الدول المحيطة بالمحيط الهندي، وسوف يحتاج إلى إظهار مهارات دبلوماسية كبيرة، هذه المسؤولية التاريخية سقطت في نهاية المطاف على "تشنج هي"، وهو قائد بحري بارز، ولد "تشينج هي" في عام 1371م لعائلة مسلمة في ما يعرف اليوم بـ"جينينج" في "كونمينج" بمقاطعة "يونّان"، كان لقبه الأصلي "ما" واسمه "سانباو"، مما يعني "الجواهر الثلاثة" في البوذية، كان والده، "ما هاتشي"، مسلمًا يقوم برحلات الحج إلى مكة، وهكذا اكتسب فهمًا للأراضي الأجنبية منذ سن مبكرة، في عام 1381م، خلال عملية تهدئة "مينج" في "يونّان"، تم القبض على "تشينج هي"، وأصبح خصيًا وأدخل خدمة "تشو دي"، الذي كان لا يزال أمير "يان"، وكان يسمى أيضًا "سانباو" الخصي، ولأنه كان طويل القامة ووسيمًا ومبدعًا وحيويًا، كان "تشو دي" يفضله بشدة، وفي وقت لاحق، تبعه "تشنج هي" في التمرد وأظهر شجاعة استثنائية، ولمكافأته على شجاعته، أعطاه "تشو دي" لقب "تشينج"، وعندما تولى العرش، عينه أميرالاً ليقود الأسطول إلى المحيطات الغربية حول جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي.

غادر أسطول "تشينج هي" القوي من "ليوجياجانج" - في مقاطعة "جيانجسو" - في عام 1405م، بداية رحلته الأولى، وتبعها ستة رحلات أخرى، في 1408 و1412 و1413 و1421 و1424 و1430م، على مدى فترة تسعة وعشرين عامًا، قاد خلالها أسطوله حول آسيا وإفريقيا، وزار أكثر من ثلاثين دولة ومنطقة بما في ذلك فيتنام الحالية، كمبوديا وكينيا، ولأن سفن "تشنج هي" محملة بالخزف، والشاي، والحرير، والذهب، والفضة، والسلع الصينية الجيدة الأخرى، كانت تعرف باسم "قوارب الكنز"، وأينما رسا كان يقدم هدايا للسيد على أمل إقامة علاقات ودية وكان يتاجر مع التجار المحليين للعاج والتوابل والأحجار الكريمة وغيرها من السلع الثمينة التي تعكس المظهر العادي لنظام الخراج، عندما وصل الأسطول إلى سريلانكا، قدم الذهب والفضة إلى المعابد المحلية وأقام شاهدًا تذكاريًا؛ وبقيت آثار رواياته على سبيل المثال في "سيمارانج" و"سام بوه تونج" في "جاوة" بإندونيسيا، ومن بين الرحلات السبعة، كان أبعدها الساحل الشرقي لإفريقيا، جنوب خط الاستواء: رحلة تمت قبل أكثر من نصف قرن من قبل أن يجد الإيطالي "كريستوفر كولومبس" والبرتغالي "فاسكو دي غاما" طرقهما البحرية الجديدة، وجذبت رحلته العديد من الرحالة والملوك والمبعوثين والأساطيل التجارية إلى الصين، ولكن الروابط المتنامية مع العالم الخارجي كان لها أيضًا الأثر العكسي لجذب المزيد من الصينيين إلى جنوب شرق آسيا، ولا سيما لوزون (في الفلبين) وجاوة، وفي نهاية عهد أسرة "مينج"، كان 30.000 إلى 40.000 صيني يعيشون في "لوزون" و20.000 إلى 30.000 في جاوة، ومعظمهم من الفلاحين الفقراء، والحرفيين، والتجار من المقاطعات الساحلية في جنوب شرق الصين، لم يقتصر الأمر على التكنولوجيا والثقافة الجديدة، بل شاركوا بنشاط في التنمية جنبًا إلى جنب مع السكان المحليين، وحوّلوا الأراضي البور إلى أراضٍ خصبة، حل الخزف الصيني محل أوراق الموز التقليدية المستخدمة في لوزون وجاوة للأكل والشرب؛ ورحبت الأسواق الجاوية بأموال النحاس الصينية، والتي سهلت التجارة، في حين أن الرحلات البحرية التي قام بها "تشنج هي" كان لها تأثير بعيد المدى على سمعة أسرة

"مينج" الدولية، فقد ركزت فقط على التأثير السياسي بدلاً من الربح، وبهذا، وضعت عبئًا اقتصاديًا ضخمًا على حكومة "مينغ"، أدت عوامل كهذه، إلى جانب الفساد المتزايد، إلى انخفاض تدريجي في قوة إمبراطورية "مينج"، وجاء وقت لم تعد فيه مثل هذه الحملات الكبرى ممكنة.

علاقة الصين مع جيرانها

منغوليا: انهارت أسرة "يوان" الحاكمة المنغولية في عام 1368م، وفر آخر إمبراطور لها، "توجان - تيمور"، إلى شمال الصين وعثر عليه ميتًا بعد عامين في "دوولون"، في ما يعرف الآن بمنغوليا الداخلية، ومع ذلك، واصل المغول حكمهم في المناطق الواقعة شمال السور العظيم، وبعد عدة أجيال، قسمهم الصراع الداخلي إلى ثلاث مجموعات رئيسة: أحفاد "جنكيز خان" كونفدرالية التتار، الذين احتلوا الجزء الأكبر من أراضي المغول والمنطقة الواقعة جنوب بحيرة بايكال في روسيا اليوم وعادة ما يشار إليهم فقط بالمغول؛ "الأويرات"، الذين عاشوا في حوض "دزونغار" وفي غرب منغوليا؛ و"ووليانجا" أو (أوريانجاي)، الذين استقروا في المناطق القريبة من نهري "لاوها" و"لياو"، وكان هناك سفك دماء متكرر بين القبائل الثلاث، الذين قاموا بغارات على حدود "مينج" خلال عهدها.

حاول الإمبراطور "هونجو"، "تشو يوان تشانج"، باستمرار الجمع بين كونه جارًا جيدًا والتمتع بميزة الدفاع النشط، كذلك فعل ابنه، "تشو دي"، الإمبراطور "يونجلي"، مما جعل رئيس المغول ملكًا يقدم الذهب والفضة والحرير والقماش والحبوب، ولكن إذا كانت هناك أي محاولة للغزو، فقد قوبل المغول بهجوم مضاد قوي، كما استخدم "تشو دي" الصراع القبلي بين المجموعات المغولية، بحيث لا يمكن لقبيلة واحدة أن تصبح قوية بما فيه الكفاية.

كان "الأويرات" أقوياء اقتصاديًا وسياسيًا في أوائل عهد أسرة "مينج"، وشنوا هجمات كثيرة على مناطق "مينج" الحدودية، ومع ذلك، بحلول منتصف

الأسرة، حل تتار المغول محل "الأويرات" باعتبارهم التهديد الرئيس، وعاش المغوليون حياة بدوية، حيث رعي الخيول والأغنام والجمال، وقد زودت الصين الداخلية أساسًا بالضروريات اليومية، مثل الحرير والقماش والحبوب والمقالي الحديدية، ومع تدهور العلاقات، حظر بلاط "مينج" الاتصال المتبادل والتجارة؛ لذا كان الفرسان المغوليون يركبون جنوبًا وينهبون أشياء مثل أواني الطهي، ثم يتاجرون بها في ما بعد كمواد نادرة ومكلفة، قاتلت قوات "مينج" مرة أخرى عن طريق الاستيلاء على الخيول وإشعال النار في العلف.

وبدءًا من 1540م قدم "آلتان" خان العديد من طلبات التجارة، وقد أعجب كثيرًا بحضارة "هان"، واستقدم أهل "هان" لتعليم شعبه المهارات الزراعية وبناء المنازل، وجعل أبناءه وإخوته الصغار يتعلمون الكلاسيكيات الصينية، وحرصًا على استعادة الروابط التجارية مع بلاط "مينج"، أرسل عشرات من المبعوثين الخاصين الذين قتلوا جميعًا، لفرض تغيير في الموقف، لجأ إلى العنف، في عام 1550م، قاد هجومًا على حدود "مينج"، واستولى على "تونجتشو"، واقترب من بكين، ثم، بعد موجة من النهب، تراجع، هذا الهجوم، المعروف باسم حادثة (جنجشو) لأنه وفقًا للنظام الصيني التقليدي لسنوات التسمية، حدث في عام جنجشو، وأرسل موجات صادمة عبر الصين، مما أجبر حكومة "مينج" على تعزيز حدودها وإبرام اتفاق متبادل مع المغول، وفي عام 1571م، أُعطي "آلتان" خان لقب "شونيي" "ملك الطاعة والولاء" [ومن الواضح أن هذا تمنٍ ينطوي عليه اللقب هنا] وجعلت حكومة "مينج" مدينتي "داتونج" و"شوانفو -"شيوانهوا" الحالية في مقاطعة "هيبي"- متاحة للتجارة، وسرعان ما أصبحت "هوهوت" مركز المغول للتجارة مع الصين، وكانت أسواقها متألقة لا بالحرير والمنسوجات الأخرى فقط ولكن أيضًا بالخيول والجمال ومنتجات الفراء من المنغوليين، وكان "آلتان" خان وزوجته يزوران السوق شخصيًا، وعندما توفي الخان، تولت زوجته المسؤولية، وحافظت لعقود عديدة على السلام على طول الحدود.

التبت: تم التعامل مع التبت كمنطقة إدارية في الصين منذ عهد أسرة "يوان"، على الرغم من أنها تتمتع بحكم ذاتي كبير، خلال عهد أسرة "مينج"، كان يعرف باسم "يوتسانج"، وخلال فترة حكم أسرة "يوان" المتأخرة وأوائل "مينج"، تم تفريق السلطة السياسية محليًا ولم تكن السلطة الدينية مركزية، زار المعلم الملكي "نامبيل بيل سانجبو" البلاط الملكي الصيني وحصل على لقب "معلم الرخاء البوذي " من الإمبراطور "هونجوو"، كما تم منح بعض مسؤوليه مناصب، في عام 1407م، أمرت حكومة "مينج" المجموعات العرقية في "سيتشوان" والتبت ببناء طرق تقود من "يا آن" في "سيتشوان" إلى "يوتسانج" وواصلت هذه الطرق، التي تمتلئ بمحطات التوصيل، التفاعل إلى حد كبير بين التبت والصين الداخلية.

في أوائل عهد أسرة "مينج"، تم تقسيم اللاما إلى طائفة "باي" (الطائفة البيضاء)، والطائفة "هوا" (طائفة الزهور)، والطائفة "هونج" (الفرع الأحمر)، وفي وقت لاحق، قام الراهب التبتي "تسونج - خابا" بتأسيس طائفة "جيلوجبا"، التي كان أعضاؤها يرتدون قبعات صفراء، وبالتالي أطلق عليهم اسم "طائفة هوانج" (أو الطائفة الصفراء)، وبدعمها الانضباط الذاتي، والتوق للتعلم، والانفصال عن السعي وراء السلطة، أصبحت طائفة "هوانج" تحظى بشعبية كبيرة بين الأرستقراطيين التبت، وفي عام 1409م، عقد "تسونج - خابا" جمعية دينية في "لاسا" من 8000 راهب، وأرسل "تشو دي"، الإمبراطور "يونجلي"، مبعوثين ملكيين ليوجهوا دعوة إلى "تسونج - خابا"، والذي أرسل بعد ذلك تلميذه "شاكيا يشي" إلى بكين، حيث تم منحه لقب "القائد العظيم"، ووفقًا للتقاليد الدينية، تجسد اثنان من تلاميذ "تسونج - خابا" ليحملوا إرثه - وكانا أول دلاي لاما وبانتشن لاما - وفي عام 1581م، قدم الدالاي لاما الثالث وثيقة إلى السكرتير الملكي الملكي "تشانج جوتشينج"، يطلب فيها الاعتراف بوضعه في التبت، ويعد بالخراج في الوقت المحدد، وهو ما وافقت عليه حكومة "مينج"، أصبحت العلاقة بين التبت والحكومة المركزية أقوى؛ وزار المزيد من اللامات والتجار والمسؤولين التبتيين بكين، وأنشأت حكومة "مينج"

أسواقًا لتبادل الخيول والشاي لتلبية احتياجاتهم.

الأويجور: بعد انهيار أسرة "يوان"، بقيت المجتمعات الناطقة بالتركية إلى الشمال والجنوب من جبال "تيان" (أسلاف الأويغور في "شينجيانج") في أيدي أحفاد "تشاغاداي" خان المغولي، وبمرور الوقت، انتشروا في العديد من المناطق، بما في ذلك "خوتان" و"بشباليك" و"كومول" و"توربان"، في البداية، كان شعب "توربان" على علاقة جيدة مع الحكومة المركزية، ودفعوا الخراج، ومع ذلك، عندما تم ضم "كومول" في عام 1472م، بدأت "توربان" في غزو أراضي "مينج" وتمكنت تدريجيًا من السيطرة على ممر "هيشي" في مقاطعة "قانسو"، ازدادت قوة "توربان" أكثر عندما تواطأت مع القبائل الشمالية مثل "الأويرات"، وكانت التنمية الاقتصادية داخل مجتمعات الأويجور غير متساوية خلال عهد أسرة "مينج"، وعاشت بعض المجتمعات حياة بدوية، بينما تحول البعض الآخر إلى الزراعة وطوروا الحرف اليدوية باستخدام مواد مثل اليشم والزمرد، كان الأويجور ماهرين في الأعمال التجارية، وتجارة الخيول والإبل واليشم وجلود الخيل المدبوغة والأقمشة الحريرية والأواني الصينية، وبينما كانوا في الأصل بوذيين، تحولوا إلى الإسلام بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر.

الجورتشن: لقد عاش الجورتشن منذ فترة طويلة في شمال شرق الصين، قبل عهد أسرة "تشين"، كانت تعرف باسم "سوشن"، وفي أسرتي "سوي" و"تانج" عرفوا باسم "موهي" وفي عهد أسرة "لياو" أصبحوا يعرفون باسم "جورتشن"، وفي عصر يونغلي، قسمتهم أسرة "مينج" إلى "هايشي" و"جيانتشو" و"ييرين"، وفي وقت مبكر من عام 1411م، أنشأ إمبراطور "يونجلي" لجنة "نورغان" العسكرية الإقليمية للإشراف على "جيانتشو" والقبائل الأخرى، كما أقاموا أسواقًا في المناطق الحدودية، حيث كان بإمكان الجورتشن بيع الجينسنج أو فرو المنك أو الماشية أو الأعشاب الطبية مقابل الملح والأدوات الزراعية والمقالي والحديد والحرير، كانت أدوات المزارع الحديدية ذات أهمية قصوى

للجورتشن، وقام "نورهاجي"، القائد البارز في "جيانتشو" والأب المؤسس لاتحاد "مانتشو"، ببناء ثروته من زراعة قطعة أرض وعرة، وفي نهاية المطاف وحد مجموعات الجورتشن الثلاث وحكمها.

مجموعات عرقية أصغر: كانت مجموعات مثل "مياو" و"ياو" و"تشوانج" و"يي" تعيش في مقاطعات "جوانجدونج"، و"جوانجشي"، و"يونّان"، و"جويتشو"، و"سيتشوان"، و"هوجوانج"، وكانت التنمية الاقتصادية في هذه المناطق متفاوتة وكانت هناك اختلافات اجتماعية كبيرة، في عام 1382م، أنشأ إمبراطور "هونجو" لجنة "يونان" الإدارية (ما تعادل مقاطعة حاليًا)؛ وفي عام 1413م، أنشأ إمبراطور "يونجلي" لجنة "جويتشو" الإدارية، واعتمدت طرقًا مختلفة للتعامل مع الاختلالات الاقتصادية، في المناطق الأكثر تقدمًا، تم تنفيذ سياسة "جايتو جويليو"، حيث تقوم حكومة "مينج" بتعيين شخص من خارج المنطقة وينتمي لعرق "هان" الصيني كرئيس مدينة أو محافظة أو قرية، وفي المناطق الأقل نموًّا، ظل النظام الوراثي لتوزيع المناصب على السكان المحليين، هذه الإجراءات تعني الإدارة الأقوى للأقليات العرقية من حكومة "مينج"، كانت هناك بعض الانتفاضات المسلحة بقلم القادة المحليين، ولكن معظمها انتهى بالفشل، وعلى النقيض من ذلك، قدم بعض القادة المحليين مساهمات كبيرة نحو الوحدة الوطنية، والتوسط في النزاعات، وبناء الطرق الجبلية، وتعزيز الاتصال الاقتصادي والثقافي.

نقابات التجار والخدمات المصرفية

وبحلول منتصف عهد أسرة "مينج"، ومع توسع الاقتصاد بسرعة، كان عدد كبير من التجار يعملون في الصناعة والأعمال، وتركوا بصماتهم في جميع أنحاء البلاد، حتى في الخارج، ولزيادة أنشطتهم وحمايتها، شكلوا مجموعات تجارية للمساعدة المتبادلة، أو نقابات، على أساس الروابط الجغرافية والعشائرية،

وخلال عهد أسرة "مينج" و"تشينج"، كانت عشر نقابات من هذا النوع نشطة في "شاآنشي" و"شانشي" و"شاندونج" و"فوجيان" و"هويتشو" و"دونجتينج" و"جوانجدونج" و"جيانج يو" و"لونج يو" و"نينجبو"، وكانت أكثرها شهرة في "شانشي" و"هويتشو".

وفي عهد أسرة "مينج"، كانت مقاطعة "شانشي" غنية بالموارد المعدنية، وتطورت صناعاتها الزراعية والحرفية بسرعة، ومع التوسع في اقتصادها جاءت زيادة حادة في عدد السكان، مما أدى إلى نقص الأراضي، مما أجبر الناس على التخلي عن أنشطتهم التقليدية وتحويلها بدلًا من ذلك إلى الأعمال التجارية، وهذا يخالف الافتراض الكونفوشيوسي الأساسي بأن الزراعة هي المهنة الصحيحة الوحيدة لغير المسؤولين وأن الأعمال مخجلة ولا تدخل إلا في الأماكن التي لا يوجد فيها بديل، وانضم تجار "شانشي" معًا لتطوير نمط تشغيل مشابه لنظام المخزون المشترك الحديث، وهو مشروع كبير، وسبب مهم لرفاههم الدائم، وأنشؤوا أيضًا نقابات مثل نقابة "لينفين" ونقابة "شانيو"، وكانت في الأصل للحفاظ على الصداقات، ولكنها استخدمت في وقت لاحق لحماية مصالحهم، وكانت في المقام الأول نقابات تجارية، وبحلول عصر أسرة "تشينج"، تطور التجار من "شانشي" إلى أقوى مجتمع تجاري في البلاد، وكان أعظم ابتكاراتهم هو إنشاء مكاتب تبادل لتبادل الأموال ونقلها، ويرجع السبب في ذلك إلى أنهم كانوا يعملون في الغالب في التجارة لمسافات طويلة، الأمر الذي تطلب استثمارات رأسمالية كبيرة وكان معدل الدوران بطيئًا للأموال، وفي وقت مبكر، افتتحوا مكاتب المحاسبين للتعامل مع الودائع والقروض، وتطورت هذه المكاتب إلى مكاتب الصرف، ويعتقد بشكل عام أن مكتب "ريشنجتشانج" للصرافة هو أول بنك في "بينجياو" في "شانشي".

في البداية، تعاملت شركات الصرافة في "شانشي" مع التحويلات المالية في جميع أنحاء البلاد، مع تركيز عملياتها الرئيسة في الشمال، وفي ذروتها، كان هناك أكثر من 4000 فرع في جميع أنحاء البلاد، وأيضًا في طوكيو وموسكو،

وبمرور الوقت، بدؤوا في التعامل في الإيداعات والإقراض، وساعدوا الآخرين على بيع المناصب والألقاب الرسمية، وساعدوا حكومة "تشينج" على دفع الضرائب، والرواتب الرسمية، وما إلى ذلك، حتى عهد "شيانفنج" و"تونجتشي"، وكانت شركة تحويل الأموال في "شانشي" تحتكر أعمال الحوالات في جميع أنحاء البلاد، ولكن مع أواخر عهد أسرة "تشينج"، أصبح تجار "شانشي" يشعرون بالرضا، وتلاشت تدريجيًّا من الساحة الاقتصادية للصين وتراجعت أهميتها مقارنة بالمؤسسات التجارية الجديدة، وخاصة تلك المرتبطة بالأعمال التجارية الأجنبية.

كان تجار مقاطعة "آنهوي" في منتصف عهد أسرة "مينج" على قدم المساواة مع تجار "شانشي"، وكانت مدينة "هويتشو" في مقاطعة "آنهوي" جميلة، محاطة بالجبال، ولكنها كانت مكتظة بالسكان وكثيرًا ما ضربتها الفيضانات والجفاف، ونتيجة لذلك، غادر كثير من الناس للقيام بأعمال تجارية في مكان آخر، تعود سجلات سكان "هويتشو" كمتاجرين إلى أسرة "جين" الشرقية، وهي فترة ذهبية امتدت ثلاثة قرون من منتصف "مينج" إلى أواخر عهد أسرة "تشينج"، وبين عهود أباطرة "مينج" "تشينجهوا" و"هونجتشي"، تشكل تجار "آنهوي" تدريجيًّا في مجموعات تجارية، اشتهرت بامتلاك "روح الجمال" - وهي الشجاعة وعدم الخوف من التضحية والعمل الشاق - وغالبًا ما كانت تشرع في رحلات عمل لمدة عشر سنوات، وبما أن "هويتشو" كانت مسقط رأس "تشو شي"، وهو أستاذ كونفوشيوسي، كان أكبر فرق بين هؤلاء التجار وغيرهم هو التزامهم بالعقيدة الكونفوشيوسية، كان تجار "آنهوي" متعلمين، مما ساعد في تعاملهم التجاري وبصيرتهم، وأيضًا نظرًا لمستوى التعليم العالي نسبيًّا، كان من الأسهل بالنسبة لهم الاتصال مع المسؤولين والباحثين، والتي كانت المفتاح لنجاح الأعمال في المجتمع الإقطاعي.

مع تطور الاقتصاد الاستهلاكي خلال عهد الإمبراطور "تشينج هوا" في عهد أسرة "مينج"، استغل التجار في مقاطعة "جوانجدونج" موقعهم الجغرافي

المواتي، وشكلوا نقابة "جوانجدونج" المعروفة، وفي أسرة "مينج" و"تشينج" الحاكمة، كانت "جوانج تشو" هي الميناء الوحيد المسموح له بممارسة التجارة الخارجية، واستفاد رجال أعمالها من هذا لتوسيع تداولهم في الخارج، وعملوا بجد واجتازوا المخاطر وسعوا بنشاط لنشر أنشطتهم إلى مواقع بعيدة مثل إندونيسيا وماليزيا، وبفضل انفتاحهم وروحهم الإيجابية ازدهروا، في حين ذوت الجماعات التجارية الأخرى.

الفصل السادس عشر

القرصنة والحرب والتمرد

انحدار "مينج" وصعود "تشينج"

المقدمة

خلال فترة حكم أسرة "مينغ"، أصبح البلاط الإمبراطوري يشعر بالقلق إزاء السفن اليابانية التي بدأت في الظهور على الساحل الجنوبي الشرقي للصين، وعاملتهم "مينج" على أنهم قراصنة، على الرغم من أنه سيكون أكثر دقة وصف العديد منهم كتجار أو ملاحين، وأشارت الصين القديمة إلى اليابان باسم "وو"، وهو مصطلح هجومي يعني "قزم" أو "فقير" أحيانًا، وكانت كتابات المؤرخين الصينيين عمومًا سلبية عن اليابان، خاصة في ضوء طموحاتها الإمبراطورية في أوائل القرن العشرين والاحتلال الوحشي للصين خلال الحرب العالمية الثانية وهذا ينعكس مرة أخرى في مناقشات العلاقات السابقة بين البلدين، هناك أيضًا نص كونفوشيوسي فرعي يكره التجارة من أي نوع، وألقى بلاط "مينج" باللوم على الحكومة اليابانية في ما يتعلق بمشاريع التجار الخاصة في الحقيقة إلى الساحل الصيني بحثًا عن التجارة والأرباح التي ساهمت في تطوير اقتصاد تجاري على الساحل الجنوبي الشرقي للصين الذي ارتبط بالتجارة مع اليابان، واستنكر البلاط هذا التطور التجاري الذي كان خارج سيطرتهم، على الرغم من وجود مستوى غير مسبوق من التطور التجاري داخل الصين خلال نفس الفترة، وكثير من "القراصنة اليابانيين" كانوا في الواقع صينيين، وربما كانت السفن الصينية قد خضعت لطاقم من رجال القتال اليابانيين.

في أوائل القرن السادس عشر حل البرتغاليون محل "القراصنة اليابانيين"

باعتبارهم مصدر القلق الأجنبي الرئيس لبلاط "مينج"، كان البرتغاليون أول تجار أوربيين يصلون إلى الصين مع توسع إمبراطوريتهم، وسيتم استبدالهم في الوقت المناسب بالهولنديين ثم البريطانيين (وإلى حد ما بالفرنسيين) باعتبارهم التهديد الاستعماري الرئيس، والذين يهدفون في المقام الأول إلى التجارة ولكنهم مدعومون بوحدات عسكرية ومتمركزون في معاقلهم على أطراف الإمبراطورية الصينية، ظهر التجار الهولنديون في بحر الصين الجنوبي في القرن السابع عشر ولكن بعد الصراع مع البرتغاليين فشلوا في تأسيس قاعدة في البر الرئيس للصين واستقروا في "باتافيا" ("جاكرتا" في إندونيسيا) وأجزاء من جنوب "تايوان".

في النهاية لم يكن "البرابرة الأجانب" على الشواطئ الجنوبية من الأسباب التي أدت إلى زوال أسرة "مينج"، بل كانت عبارة عن مزيج من الخلافات الحزبية الداخلية داخل النظام، وتمرد الفلاحين وتهديد أعدائهم البدو التقليديين من الشمال، على الرغم من أن المغول قد هزموا فقد استمروا في مهاجمة النظام الصيني من السهوب، لكنهم استبدلوا بدورهم بالمملكة الشمالية الأقوى من الجورتشن الذين أنشؤوا أسرة "جين" المتأخرة، على يد القائد القبلي، "نورهاجي" في 1616م بعد أن كان قد وحد القبائل المتفرقة في الشمال الشرقي، وأعيد تسمية الكونفدرالية الناتجة بالمانشو، وبعد وفاة "نورهاجي"، أعيد تأسيس "جين" المتأخرة، وهي الأسرة التي ستحكم الصين من 1644 إلى 1911م.

الاضطراب وانحدار أسرة "مينج"

دفاع "مينج" الساحلي

كانت العلاقات بين الصين واليابان على الدوام قريبة بشكل معقول: كان هناك اتصال ثقافي وتجارة بين الدولتين ولكن مع نزاع عسكري محدود، جاء بعض التجار من الأعضاء الفقراء لطبقة الساموراي اليابانية أو كانوا متشردين، لكن

آخرين كانوا من العائلات التجارية التي أصبحت قوية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ونجحت أعمالهم في التغيير في الوضع السياسي الداخلي في اليابان، أشارت الصين القديمة إلى اليابان باسم "وو"، وهو مصطلح هجومي يعني "قزم" أو "فقير"، في حين كان "كو" يعني "قرصانًا" أو خارجًا عن القانون؛ لذلك كان القراصنة اليابانيون يعرفون بـ "وو كو".

بدءًا من عام 1192م، فقد الإمبراطور الياباني السلطة تدريجيًّا لتصبح في يد القادة العسكريين، "الشوجون"، وفي أواخر عهد أسرة "يوان" وبداية عهد أسرة "مينج"، كانت أسر اليابان الجنوبية والشمالية في حالة نزاع؛ فكان اللوردات الإقطاعيون يشاركون في حروب طويلة الأمد، مما جعل عددًا كبيرًا من محاربي الساموراي بلا مأوى وبلا عمل، فإذا هُزم أمراؤهم الإقطاعيون، فقد الخدم هذه الحماية وأصبحوا "رونين" وتعني "الساموراي المفتقر إلى الكمال"، ولكسب لقمة العيش، كان بعضهم ينفذ غارات مسلحة على طول الساحل الشرقي للصين، وفي وقت مبكر من 1369م، في السنة الثانية من عهد "تشو يوانتشانج"، غزا القراصنة اليابانيون مرارًا أماكن مثل سوتشو وجزيرة "مينج تشونج"، واتخذ "تشو يوان تشانج" إجراءات دفاعية فعالة، حدَّت بشكل فعال من "كارثة وو" (مشكلة القرصنة) ومنعتها من الانتشار، ومع ذلك، مع تزايد الفساد وتخفيف الدفاعات الساحلية، شهدت المناطق الساحلية عودة نشاط القراصنة.

بلغ نشاط القراصنة ذروته بعد "حادث نينجبو"، وهو صدام بين قوتين يابانيتين في ميناء "نينغبو" حول التجارة البحرية مع الصين، وفي عام 1523م، أرسل وزير اليسار الياباني ("سادايجين" وتعني الوزير الأعلى) الراهب "سوسيتسو كندو" إلى "نينجبو"، وفي وقت لاحق، قام وزير اليمين ("يودايجين" وتعني الوزير الأصغر) بإرسال راهب آخر، هو "رانكو زويسا" (ممثل إحدى العائلات التجارية اليابانية وهي "هوسوكاوا")، وكان "سونج سوتشينج" أحد مواليد "نينجبو" الذين لجؤوا إلى اليابان وعملوا عند

عائلة "هوساكاوا" كربان سفينة، ولديه روابط محلية، فقام برشوة خصي من لجنة التجارة البحرية لفحص شحنات "رانكو زويسا" قبل شحنات "سوسيتسو كندو"، الذي أغضبه ما اعتبره محاباة كبيرة، وهاجم وقتل "رانكو زويسا"، كما قتل بعض قادة "مينج" من قوة مكافحة القرصنة اليابانية، ونهب المناطق الساحلية في "نينجبو"، مما أدى إلى كشف الدفاعات الساحلية المتساهلة والمسؤولين الفاسدين، إثر الفوضى التي تلت ذلك، بعض المسؤولين في البلاط اعتقدوا خطأ أن لجنة التجارة البحرية كانت مرتعًا للقرصنة اليابانية، وألغتها، فكان هذا كارثيًا وأجبر إلغاؤها التجار اليابانيين الذين يعملون لحسابهم الخاص إلى الإبحار على طول الساحل الصيني، والتواطؤ مع التجار بحثًا عن التجارة الخاصة والأرباح، ونهب المناطق الساحلية في طريقهم.

ومما زاد الوضع سوءًا فإن الاقتصاد الاستهلاكي الأكثر حرية والهجرة السكانية على طول الساحل الشرقي خلال عهد الإمبراطور "جيا جينج" (1521 - 1567م) كان يعني أنه كان من الشائع للأغنياء توظيف الأشخاص المشردين للعمل من أجلهم، والتهريب، الذي قد يعني أي تجارة لا يسمح بها البلاط على وجه التحديد، انتهك قوانين "مينج" وتم قمعه بيد القوات الحكومية؛ لذلك فر التجار إلى البحر، حيث استغلوا المحاربين اليابانيين المكافحين، والقوات العسكرية المشكلة، وأسس قواعد في الخارج في اليابان و"لوزون" (الجزيرة الرئيسة في الفلبين حاليًا)، وكان "وانج تشي" و"شو هاي" اثنين من هؤلاء التجار؛ فقد دمرت قوات مثل قواتهم التي يسيطر عليها المحاربون اليابانيون، السلام والاستقرار في جنوب شرق الصين.

واضطرت إمبراطورية "مينج" للرد، ففي عام 1547م، تم تعيين "تشو وان" المنسق الأعلى في "تشجيانج" للإشراف على الدفاعات الساحلية والشؤون العسكرية في "تشجيانج" و"فوجيان"، بدأ هجمات ضد القراصنة اليابانيين مع بعض النجاح، مما أسفر عن مقتل أكثر من 90 من المهربين والقراصنة، لكن العديد من الطغاة المحليين والنبلاء الفاسدين في مقاطعتي "فوجيان"

و"تشجيانج" كانوا يستفيدون من التهريب؛ لذلك شكّل "تشو وان" تهديدًا لمصالحهم، لذلك، قدموا اتهامات كاذبة ضده، وصدقها الإمبراطور "جيا جينج"، وطرد "تشو وان" من منصبه؛ وانتحر في ما بعد وأصبح القرصنة بعد موته أكثر تفشيًا.

في هذه الأثناء، كان الإمبراطور "جيا جينج" مهووسًا بالخيمياء والدين، ولم يهتم كثيرًا بالمسائل الإدارية، وترك معظم شؤون المقاطعة إلى السكرتير الأعلى للائتلاف الملكي، "يان سونج"، عين "يان" المرؤوسين الموثوقين مثل "تشاو وينهوا" للتعامل مع القراصنة اليابانيين، لكن "تشاو" قام ببساطة بمضايقة المسؤولين الإقليميين ونهب خزائن الدولة وأخذ رشاوى، وفي نهاية المطاف، تم اكتشافه ومعاقبته مع خفض الرتبة ليصبح من العامة.

كان الجنرال "هو زونجشيان"، مفتش الإمبراطورية في منطقة "تشجيانج" هو الذي أعطى حكومة "مينج" بصيص أمل، فلم يجند هو فقط العديد من الرجال الموهوبين مثل "يو داو" و"تشي جيجوانج"، بل قام بتدريب القوات أيضًا في قتالهم ضد القائدَيْن اليابانييْن الرئيسيْن للقراصنة، "وانغ تشي" و"شو هاي"، وخلال هذه الفترة، كان الاقتصاد التجاري على الساحل الجنوبي الشرقي للصين مرتبطًا بالتجارة مع اليابان، واستنكر البلاط الصيني هذا التطور التجاري الذي كان خارج سيطرتهم، وفي الواقع كان العديد من "القراصنة اليابانيين" صينيين، وربما كانت السفن الصينية تتمتع بحماية من رجال القتال اليابانيين، كان "وانج تشي" يعمل لفترة طويلة على طول الساحل الجنوبي الشرقي مع عصابة ضخمة من القراصنة، وبعد الكثير من التخطيط، جذبه "هو زونجشيان" إلى فخ، وفي عام 1559م، قطع رأسه، وكان "شو هاي"، الراهب في الأصل، يتبع عمه في التجارة البحرية، وقدمه عمه كتأمين للقراصنة اليابانيين، لكنه لم يتمكن بعد ذلك من استبداله، وعندها تحول "شيو هاي" إلى القرصنة بنفسه، وللتعامل معه، استخدم "هو زونجشيان" أسلوب المصيدة مرة أخرى، مستغلًا حب "شو" لمحظيته "وانج تسويشياو"، استسلم "شيو هاي" ولم يدرك

أن "هو" سيقتله على أي حال.

بعد هذه النكسة، نقل القراصنة الباقون مركزهم إلى مقاطعة "فوجيان"، حيث واصل جنرالات "مينج" القتال ضدهم، ففي عام 1563م، شن الجنرال "يو داو" هجومًا ثلاثيًا لاستعادة مدينة "شينجهوا"؛ وقتلت قوات "مينج" 2200 من القراصنة وأنقذت 3000 مدني تم اعتقالهم، وفي الوقت نفسه، تم تكليف الجنرال "تشي جيجوانج" بالدفاع عن "تايتشو"، وهي اليوم "لينهاي" في مقاطعة "تشجيانج"، فقام بتجنيد المزارعين وعمال المناجم من "ييوو" لبناء جيش جديد، وجند 3000 جندي في خريف عام 1559م، وبعد تدريب شهرين فقط، أصبحوا نخبة القوات، وفي عام 1561م، فازوا بتسعة انتصارات متتالية في "تايتشو"، وطردوا القراصنة اليابانيين من مقاطعة "تشجيانج"، كما قام "تشي جيجوانج" بتحرير "شيانيو" في عام 1563م، والتي كان يحاصرها أكثر من 20.000 قرصان، بقوة قوامها 6000 جندي فقط، بعد ذلك، تعاون "تشي جيجوانج" مع "يو داو" للشروع في حملة ضد جيش "وو بينج"، الذي كان قراصنته البالغ عددهم 10.000 نشطين على طول سواحل "فوجيان" و"جوانجدونج"، ونجحوا أخيرًا في القضاء عليه في 1566م، وتم قمع تهديد القراصنة اليابانيين على طول الساحل الجنوبي الشرقي الآن بشكل أو بآخر، وجلب هذا المزيد من الاستقرار لحكومة "مينج"، مما سمح لمسؤولي البلاط بالتركيز على الشؤون السياسية والاقتصادية، وتعزيز الأسرة كقوة عظمى في العالم الشرقي.

العدوان الاستعماري المبكر

في عام 1514م، قامت مجموعة من البرتغاليين بالهجوم على الصين واحتلت مدينة "تونمون" بالقوة ("توين مون" الحالية بهونغ كونغ) على طول ساحل "جوانج تشو" تحت ذريعة دفع الخراج للبلاط الصيني، ثم استقروا، وأقاموا المنازل المبنية؛ كما أرسلوا مبعوثين إلى الصين، على أمل المشاركة في التجارة، وفي ذلك الوقت، وبصرف النظر عن تقديم التقليد، حظرت أسرة

"مينج" التجارة البحرية والتعامل مع الدول الأجنبية، ولذلك تم رفض الطلبات البرتغالية، ولكن لم يتم ردعها بسهولة، فبعد احتلالهم لـ"تونمين"، بدؤوا في تصنيع البنادق والأسلحة الأخرى، والاستعداد النشط للحرب، وأبلغ كبار مراقبي الرقابة "تشيو داولونج" و"هو آو" ذلك إلى البلاط واقترحوا إخراج البرتغاليين من البلاد، لكن الإمبراطور "تشينجدي"، الذي كان لديه انطباع جيد عن البرتغاليين، خلاف ذلك.

عندما توفي الإمبراطور "تشينجدي" في 1521م، تولى "جيا جينج" العرش وأمر على الفور مفوض "جوانجدونج" القضائي، "وانج هونج"، بحراسة الممرات البحرية وطرد البرتغاليين، في الوقت الحالي، كان البرتغاليون يسرقون ويقتلون ويحرقون المنازل والمقابر في "تونمين"، مما سبب الغضب بين السكان المحليين، فقام "وانج" فورًا بنشر مزيد من القوات، ثم استولى على السفن الحربية، وجند السكان المحليين إلى الجيش واستكشف الوضع في البحر، وعندما أصبحت الاستعدادات كاملة، أعلن مرسوم الإمبراطورية إلى البرتغاليين، مطالبًا بمغادرتهم، وعندما تجاهلهم البرتغاليون، اندلعت الحرب وكان هذا أول صراع صيني غربي.

شن "وانج" هجومًا على الأسطول البرتغالي، ولكن تم رده بالمدفعية الشرسة، ثم علم أنه على متن السفن البرتغالية كان هناك عدد قليل من الصينيين الذين يعرفون كيفية صنع البنادق والبارود، أرسل "وانج" رجاله إليهم سرًّا، وقدم لهم مبالغ طائلة من المال لمساعدته، وبالتالي أصبح أول رجل في الصين يتعلم بنشاط عن الأسلحة المتقدمة للغرب، وأصبح الآن أفضل تسليحاً، وشن هجومًا آخر، فعانى البرتغاليون من خسائر فادحة وهربوا إلى ملقا، واستعاد الصينيون "تونمين".

رفض البرتغاليون قبول فشلهم وعادوا إلى المياه الصينية في العام التالي، وعندما تم رفض طلبهم التجاري مرة أخرى، هاجموا المناطق الساحلية وتواطؤوا مع القراصنة الصينيين، في 1548 و1549م، نجح المنسق الكبير

لمقاطعة "تشجيانج"، "تشو وان" في طرد البرتغاليين مرتين؛ ولكن مع ذلك استمروا في فكرة تأسيس موطئ قدم تجاري في الصين، برؤيتهم للقوة العسكرية لجيش "مينج"، اتخذوا نهجًا مختلفًا، ففي 1553م، ادعوا أن إحدى سفنهم التجارية قد ضربت الشعاب المرجانية، وطلبوا السماح لهم لتجفيف بضائعهم في "ماكاو"، وتواطأ المسؤولون المحليون مع التجار البرتغاليين للسماح لهم بإنشاء قواعد ودفعوا لهم مقابل ذلك، وقبل "وانج بو"، نائب مدير الإدارة البحرية الرشوة وسمح لهم باستخدام ماكاو كميناء بضريبة بنسبة 20 في المائة، ولكن لم يكن لديه خيار سوى تحويل 500 تايل من الفضة إلى الديوان الملكي الذي اعتبروه إيجار الأرض؛ وبدءًا من ذلك الحين، تم دفع الإيجار سنويًا إلى الصين، مما يعني أن حكومة "مينج" قد أجرت ماكاو تقريبًا إلى البرتغاليين، إلا أن هذا لم يمنحهم حق الإقامة، ولذلك قاموا في البداية بإنشاء ملاجئ مؤقتة لإجراء التجارة فيها، ولكن في وقت لاحق، بدؤوا في بناء المنازل والحصون وحتى المصالح الرسمية، في حين غضَّ المسؤولون الصينيون الطرف عن ذلك.

بعد حروب الأفيون، ومع تكثيف الصراعات بين الصين والغرب والحكم الفاسد لحكومة "تشينج"، كان المستعمرون البرتغاليون حريصين على جعل "ماكاو" مستقلة عن الصين، ووقعت الصين في النهاية معاهدة الصين - البرتغال في بكين عام 1887م، التي نصت على أن "تقر الصين نفس الحقوق الدائمة للبرتغال في إدارة ماكاو والأراضي التابعة لها كما فعلت على أراضيها في أماكن أخرى".

في عام 1601م، وصل أسطول هولندي إلى "ماكاو"، وطلب الإذن بالتجارة في الصين، لكن البرتغاليين لم يسمحوا له بالهبوط، وبعد عدد من المحاولات الفاشلة، تحول الهولنديون إلى مكان آخر، واستولوا على قاعدة تجارية على طول ساحل "فوجيان"، وخلال رحلاتهم العديدة، اكتشفوا أن جزر "بينجهو" (المعروفة بالبرتغالية باسم بيسكادوريس)، على طول ممر بحري حي،

كما كانت قريبة من "فوجيان" وكانت ظروفها مثالية لبناء الميناء؛ وأدركوا أنه من خلال احتلال هذا المركز الرئيس والتحكم فيه، يمكنهم احتكار التجارة، وفي عام 1604م، وصل رجل هولندي يدعى "ويبراند فان وارويك" إلى "بينجهو" بسفنه الحربية، وبدأ في إنزال الخشب لبناء المنازل، وأمرتهم السلطات في "فوجيان" على الفور بالمغادرة، لكن الهولنديين تمكنوا من البقاء برشوة "غاو تساي"، مسؤول الضرائب المحلي.

الآن قرر مسؤولو "مينج" طردهم بالقوة، وأرسلوا الجنرال "شن يونج" إلى "فوجيان" للقيام بذلك، كان "شن" من مقاطعة "آنهوي"، كان قد صنع لنفسه اسمًا من خلال هزيمة كتيبة فرسان من المغول قوامها 3000 جندي بتسعة وعشرين جنديًا فقط في "ليوجياكو"، وهو ممر استراتيجي في "جيتشين"، وفي مواجهة الغزاة الهولنديين وعدم رغبة الجيش الفوجي في الدخول في معركة، ذهب "شن" إلى "بنجهو" بنفسه ليحذر "ويبراند فان وارويك" بأنه يجب عليه المغادرة؛ في غضون ذلك، قام بتجميع خمسين سفينة حربية، أعجب "وارويك" بـ"شن"، ودون أدنى شك في نواياه، دعا "ويبراند فان وارويك" فنانًا ليرسم صورة له، وأعطاه أيضًا بعض البنادق والرصاص كدليل على الاحترام، وهكذا أجبر جيش "مينج" الهولنديين على الانسحاب من "بنجهو" دون إطلاق رصاصة واحدة، وكتعبير عن الشكر أقام السكان المحليون لوحة تحكي ما حدث.

في عام 1622م، قامت السفن الحربية الهولندية مرة أخرى بغزو "بينجهو"، هذه المرة بنت القلاع وأجبرت الصينيين على العمل من أجلهم، مات كثير من التجويع والتعب، كما دأب الهولنديون على مضايقة البر الصيني الرئيس، مما أدى إلى تعطيل الحياة على طول الساحل الجنوبي الشرقي، وفي عام 1624م، أرسل المنسق الكبير لـ"فوجيان" "نان جويي" "وانج مينجشيونج"، قائد قوة الحامية، للهجوم على المستعمرين الهولنديين عن طريق البحر، وعلى الرغم من أسلحتهم المتقدّمة، فقد كان عددهم يفوق الهولنديين الذين طلبوا هدنة، ووافقوا على إخلاء "بنجهو"، ثم ذهبوا إلى "تايوان" وتوسلوا السكان المحليين

لمنحهم مكانًا "بحجم جلد البقرة فقط"، نظرًا لأن السكان المحليين كانوا يعتقدون أن الهولنديين لا يحتاجون إلا إلى مساحة صغيرة لسفنهم فقد وافقوا؛ واصل الهولنديون احتلال كامل جنوب "تايوان"، حيث قاموا ببناء القلاع، وتعزيز الدفاعات، وبناء مدن "آنبينج" و"تشيجيان" تدريجيًا.

أزمة تومو

مع سقوط أسرة "يوان"، تراجع المغوليون إلى المراعي الشمالية، حيث انقسموا مع الوقت إلى "ووليانجشا" (أوريانجاي)، التتار، وقبيلة "الأويرات"، في البداية، كان التتار أقوى المجموعات الثلاث، لكن المعارك مع إمبراطور "يونجلي" استنزفت قوتهم، وفي هذه الأثناء، ازدادت قوة "الأويرات" ببطء، وفي عام 1434م، قتل زعيم "الأويرات" "توجون" زعيم التتار وجمع معًا شعبه وخيوله، ولم تمر فترة طويلة حتى كان قد أتم التوحد بالكامل بين الأويرات والتتار، ثم، في عام 1439م، مرض ومات، واعتلى ابنه "إيسن" العرش وكان يعرف بالمعلم الإمبراطوري.

وخلال القرنين التاليين عمل حكام أسرة "مينج" بشكل شبه مستمر على بناء سور الصين العظيم لتجنب إزعاجات المغول، وفي عام 1449م، على أساس أن بلاط "مينج" قد أهان مبعوثه الذي دفع رشاوى، قسّم "إيسن" قواته إلى أربع وأطلق غزوًا واسع النطاق، وكان إمبراطور "مينج" في ذلك الوقت "ينغزونج" (الإمبراطور "تشينجتونج")، الذي وضع ثقته في خصي القصر، "وانج تشن"، وكان "وانج تشن"، وهو من محافظة "وويي" في مقاطعة "هيبي"، في يوم من الأيام مدرسًا كونفوشيوسيًا، وفي وقت لاحق، بسبب خطأ ارتكبه، اختار أن يصبح خصيًا، وبفضل إلمامه بالكلاسيكيات، تم إرساله لمساعدة ولي العهد آنذاك "ينجزونج" في دراسته، أنعم ينجزونج عليه لقب "المعلم وانج الشرفي، وبمجرد توليه العرش، وضعه في قلب سلطة أسرة "مينغ"، بدأ "وانغ تشن"، المحمي بـ"ينجزونج"، في استغلال موقفه وشكل زمرة لمتابعة مصالحه الخاصة، ثم بدأت الأسرة بأكملها تنحدر نحو الفوضى.

في هذه الأثناء، قاد "إيسن" قوته الرئيسة في هجوم مباشر على "داتونج"، وهي نقطة استراتيجية على الحدود الشمالية لـ"مينغ"، وعندما أرسل قائد داتونج طلب المساعدة من بكين، استغل "وانج تشن" الفرصة لتعزيز موقفه، وشجع "يينجزونج" على قيادة القوات بنفسه، كان الإمبراطور يستمتع بفكرة اتباع خطى جده، لكن معظم وزرائه ظنوا أن هذا أمر شديد التهور، وخطر سخيف على عرشه، واقترحوا عليه تولي قيادة القوات من بكين، ولكن لم يسمع "يينجزونج" غير رأي "وانغ تشن"، عين "ينجزونج" أخاه الأصغر غير الشقيق "تشو تشيو"، ملك "تشينج" (مقاطعة في مقاطعة "شاندونج")، لرعاية الأمور في العاصمة، في حين سارع إلى تولي قيادة 500.000 جندي بنفسه، وفي الشهر الثامن من عام 1449م، وصل "داتونج"، ولكن في اليوم التالي، حصل على أنباء مفادها أن قواته الأمامية قد سُحقت، وصار الطقس سيئًا بدرجة نمت في قواته الخوف والذعر؛ لذلك نصحه "وانج تشن" بالانسحاب، وكان الخيار الواضح هو التوجه شرقًا والعودة إلى بكين عبر طريق آمن وسهل، لكن "وانج تشن" أراد أن يزور الإمبراطور مسقط رأسه، "ويتشو" - تقع الآن في مقاطعة "هيبي" - وهكذا غيرت القوات الاتجاه، ولكن بعد ذلك قال "وانج تشن" إن مثل هذا العدد الكبير سوف يدوس محاصيل عائلته؛ لذا غير رأيه وحول طريقهم شرقًا مرة أخرى، نحو "شوانهوا"، وكان نصف اليوم المهدور بهذه الطريقة حاسمًا، فعندما وصلوا إلى قلعة "تومو"، كان "إيسن" على رأس قوات الأويرات قد تمكن من مطاردتهم ومحاصرتهم، كانت "تومو" عاليًا، وتفتقر إلى إمدادات المياه؛ وهكذا قام الأويرات بقطع مصدر المياه، وعانى جيش "مينج" من الجوع والعطش والارتباك الذي لا يطاق، ولم تمر فترة طويلة حتى أرسل "إيسن" فريقًا للتفاوض على السلام، وتم السماح لقوات "مينج" بجلب المياه، إلا أنه كان فخًا: فهاجمت قوات الأويرات، وألقت عدوهم في حالة من الفوضى، وأوقعت 100 ألف ضحية، هلك معظم المسؤولين المرافقين في الفوضى، وأُخذ الإمبراطور "ينجزونج" سجينًا، وتعرض "وانج تشن" للضرب حتى الموت على يد أحد ضباطه، "فان تشونج" "من أجل مصلحة العالم".

هزت أنباء أزمة "تومو" أسرة "مينج" حتى النخاع، ومع أسر الإمبراطور، تجمع المسؤولون المذعورون في البلاط، وقد استقطبت الأزمة كل جندي مُجهَز جيدًا، تاركين أقل من 100 ألف من الضعفاء والمسنين للدفاع عن بكين، كان معظم المسؤولين في البلاط مرعوبين لدرجة أن بعضهم اقترح نقل العاصمة إلى "نانجينج"، الفكرة التي قاومها نائب وزير الحرب، "يو تشيان"، الذي أصر على أنه يجب حماية بكين.

ولد "يو تشيان" في "هانجتشو" في مقاطعة "تشجيانج"، في سنواته الأولى كان قد تولى مسؤولية "جيانجشي" و"هنان" و"شانشي" وأماكن أخرى، ونتيجة لطريقته المتميزة بالحيوية كان محبوبًا للغاية من الناس، وبعد توليه منصبه في حكومة "مينج" المركزية، تم سجنه وحكم عليه بالإعدام بسبب الإساءة إلى "وانج تشن"، إلا أنه عفي عنه من خلال الجهود الحثيثة التي بذلها زملاؤه من المسؤولين والجمهور، والآن، في هذه اللحظة من الأزمة، رأى أن البلاد في حاجة ماسة إلى ملك، وتوسل الإمبراطورة الأرملة لوضع ملك "تشينج"، "تشو تشيو"، على العرش؛ لذلك في الشهر التاسع من عام 1449م، خلف "تشو تشيو" شقيقه الأكبر الإمبراطور "ينجزونج" ليصبح الإمبراطور "دايزونج" وغير اسم الحقبة إلى "جينجتاي" ("المنظر السني") وكان يعرف باسم إمبراطور "جينجتاي" (انظر الشكل 24).



الشكل (24): بورتريه لـ"جوو تشي يو"، إمبراطور مقاطعة "جينج تاي" في فترة حكم أسرة "مينج"

فور توليه السلطة، أصدر مرسومًا بألا يسمح لأي قائد عام بالاتصال مع "إيسن"، هـذا أحبـط مخطـط "إيسـن" بشـكل فعـال لاسـتخدام "ينجزونـج" لاسـتلاب الممتلكات والمدن من أسرة "مينغ"، فسار إلى بكين مصطحبًا "ينجزونج" معه كرهينة ووضع المدينة تحت الحصار، وطالب بالأراضي من بلاط "مينغ"، وهو الطلب الذي تم رفضه كما حدث من قبل، وجعل الإمبراطور "جينجتاي" "يو تشـيان" المسـؤول عـن الـدفاع عـن بكين، حيـث أمر "يـو" الحاميات المحلية

بالتعجيل للعاصمة، كان يعلم أن جيش الأويرات بارع في الفروسية، والرماية، والقتال في العراء، وأن اختراق التحصينات لم يكن من نقاط قوتهم، ويمكن لجيش "مينج" الاعتماد على جدار المدينة والخندق، وكانوا أيضًا جيدي التسليح، وباستخدام عدد قليل من الجنود، وجه جنود "مينج" العدو إلى كمين، ثم أطلقوا النار عليهم بالبنادق وغيرها من الأسلحة، كما شنوا هجمات ليلية أدت إلى إرهاق الأويرات، عندما رأى "إيسن" أن التعزيزات كانت تقترب من بكين، خشي من أن طريقه للهروب سوف ينقطع، وتراجع، أمر "يو تشيان" قواته بتركيز قوتهم النارية على ثكنات "إيسن"، مما تسبب في سقوط عدد لا يحصى من الضحايا، وفر الأويرات في حالة ارتباك إلى الجانب الآخر من ممر "شانهاي".

على الرغم من الهزيمة، قام "إيسن" بعدة محاولات أخرى للاندفاع جنوبًا، لكن تم صدّه بدفاعات جيش "مينج" الحصينة، وفي 1450م، لم يكن لديه بديل سوى إطلاق سراح "ينجزونج" دون قيد أو شرط، على أمل الاستفادة من الصراع الداخلي في بلاط "مينج" التي من المقرر أن تسببه عودته، عاد "ينجزونج" على النحو الواجب إلى بكين وأعطي اللقب الفخري لأب الإمبراطور الحاكم؛ ولكن خوفًا من تهديد عرشه، وضعه "جينجتاي" تحت الإقامة الجبرية في القصر الجنوبي، وقطعه بالكامل عن العالم الخارجي، ثم في 1457م، في السنة الثامنة من حكمه، سقط الإمبراطور "جينجتاي" بمرض خطير، وتآمر "شي هنج" و"شو يوتشن"، وآخرون لإعادة "يينجزونج" إلى العرش، وقاموا بانقلاب عسكري، تم تسليم السلطة إلى "ينجزونج"؛ وبعد شهر، في سن الثلاثين، توفي الإمبراطور "جينجتاى".

وبعد أن عاد إلى عرشه، خدع "شيه نج" وآخرون الإمبراطور "ينجزونج" لقتل "يو تشيان" بتهمة التآمر، ويقال إنه في يوم وفاة "يو"، كانت السماء ملبدة بالغيوم؛ حيث عرف الجميع أنه تعرض للظلم، ومع ذلك، فبعد أن عانى من سنة مهينة في الشمال وثماني سنوات من الإقامة الجبرية، كان الإمبراطور

"ينجزونج" قد نضج، وبعد الظلم بقتله "يو تشيان"، عين "لي شيان"، و"وانج آو"، وغيره من المسؤولين الفاضلين، وطرد المتملقين، وأوقف أيضًا ممارسة دفن المحظيات أحياء مع الإمبراطور المتوفى، وفي السنوات السبع التي تلت ذلك، رأى الناس حاكمًا مختلفًا تمامًا.

جهود الإحياء في أواخر عهد "مينج"

في عام 1566م، أصبح الإمبراطور "لونج تشينج"، "تشو زايهو"، الحاكم الجديد لأسرة "مينج"، وبدأ بتنصيب معلمه، "جاو جونج" في منصب السكرتير الكبير للأمانة العامة الكبرى، وبعد سوء ممارسات الإمبراطور "جيا جينج" (1552 - 1567م)، كان "جاو جونج حريصًا على إدخال الإصلاحات، ولكن توفي "تشو زايهو" بعد أقل من ست سنوات على العرش، وكان مصحوبًا بوفاته نزاع مفتوح وسري داخل الحكومة المركزية، وفي هذا الموقف صعد "تشانج جوتشينج".

وكان ابنه "تشونج يجون"، ابن الإمبراطور البالغ من العمر عشر سنوات، الذي أصبح الحاكم الجديد كإمبراطور شنزونج ولقب عهده بلقب "وانلي" "التقويمات العشرة آلاف" لذا كان يعرف باسم إمبراطور "وانلي" (انظر الشكل 25)..



الشكل (25): بورتريه لـ"جوو إي توين"، إمبراطور مقاطعة "تشين تزونج" في فترة حكم أسرة "مينج"

ونظرًا لكونه صغيرًا جدًّا، أمر ثلاثة مسؤولين رئيسين - وهم "جاو جونج"، و"تشانج جوتشينج"، و"فينج باو" - بمساعدته، وسرعان ما ظهرت الاختلافات بين الثلاثة وسرعان ما أصبحت حادة، ومع ازدياد قوة "فنج باو"، طلب "جاو جونج" من زملائه المسؤولين عزله؛ كما أعرب عن أمله في الحصول على دعم من "تشانج جوتشانج"، لكن نية "تشانج جوتشانج" الأصلية كانت طرد "جاو جونج" بدلًا من "فنج باو" وذهبت أخبار كل هذا إلى الإمبراطور "شنزونج" وأمه، ونتيجة لذلك طُرد "جاو جونج" من البلاط في اليوم التالي، وفي الكفاح من أجل السلطة، فاز "تشانج جوتشانج"، وكان كبير السكرتارية الملكية.

ولد "تشانج جوتشينج" في عام 1525م في "جيانجلينج" بمقاطعة "هوبي"، وبعد نجاحه في سن مبكرة، اجتاز أعلى اختبار مدني إمبراطوري في سن الثالثة والعشرين، وبدأ مسيرته الرسمية كمترجم في أكاديمية "هانلين"، المركز الفكري للبلاط الإمبراطوري التي كان نشاطها الرئيس إنتاج وثائق حول سياسات البلاط، كان "تشانج جوتشينج" يعرف بوضوح مدى الفساد الحكومي وأن الناس العاديين عاشوا حياة بائسة تتخللها انتفاضات فلاحية، كان يعتقد أن التغيير يتطلب رجلًا يمتلك الكثير من الحكمة والاستراتيجية، وهو شخص كان شجاعًا بما فيه الكفاية لكسر وإعادة بناء النظام الإمبراطوري، لكنه شكك أيضًا في أن ذلك ممكن، عندما انتهت فترة ولايته التي استمرت سبع سنوات في الأكاديمية، قرر الاستقالة، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية بقي في المنزل ممارسًا القراءة والكتابة، على أمل العثور على الإلهام، ثم، وبتشجيع من والده عاد إلى العاصمة واستأنف مسيرته، هذه المرة خدم كمسؤول في الأكاديمية الإمبراطورية، وانتظر فرصته، وفي نهاية المطاف، انتهز فرصته لطرد "جاو جونج"، ولم يضيع وقته في الشروع في مهمة الإصلاح الشاقة.

وألقى "تشانج جوتشينج" باللوم في الفوضى السياسية خلال فترات حكم الأباطرة "جيا جينج" و"لونج تشينج" على عدم كفاءة المسؤولين الحكوميين، وأعرب عن اعتقاده بأن الانتفاضات الفلاحية لها السبب الجذري نفسه، ولذلك اعتبر إصلاح الإدارة الرسمية أمرًا حيويًا، وفي 1573م، قدم قانون تقييم الأداء لتقييم أداء المسؤولين، كان على كل مسؤول إتمام مهامه في وقت معين، ويتم تقييمه كل شهر والحصول على تقرير سنوي عن أدائه، كان الأمر متروكًا للوزارات الست والرقابة (هيئة رقابة حكومية مصممة لمحاسبة المسؤولين ومنع الفساد) لمعاقبة أولئك الذين تأخروا أو سببوا تراكمًا، وقد عزز ذلك بشكل كبير كفاءة المستويات المختلفة للحكومة، والأهم من ذلك، مهد الطريق أمام "تشانج جوتشينج" للتصدي لقضية التمويل الشائكة.

كانت الحكومة المركزية على حافة الانهيار المالي، فهدف "تشانج" إلى خفض

النفقات وزيادة الإيرادات، وقلل عدد المسؤولين والرسوم الإضافية، وحاول تقليل نفقات العائلة المالكة إلا أن ذلك لم يكن كافيًا، فلا يمكن أن يتحقق حل الأزمة المالية لأسرة "مينج" واستعادة التوازن المالي إلا عن طريق زيادة الضرائب، وبما أن الناس العاديين كانوا فقراء للغاية، فإن الحكومة تستطيع فقط زيادة الدخل عن طريق فرض ضرائب على الأراضي التي يشغلها المسؤولون، والأقارب الملكيون، والأسر الغنية والقوية، وملاك الأراضي، مما سيواجه حتمًا مقاومة شديدة، واعتقد "تشانج جوتشينج" أن الأغنياء كانوا يقدمون تقارير خاطئة عن مساحة الأراضي التي يمتلكونها للتهرب من الضرائب؛ لذا، وعلى الرغم من اعتراضات البيروقراطيين ومالكي الأراضي على جميع المستويات، فقد أمر بإجراء حصر للأراضي الخاصة بالنبلاء، والناس العاديين، والمسؤولين في جميع أنحاء البلاد، وتم اكتشاف الكثير من الأراضي الزراعية المخبأة، مما يضمن فرض ضريبة على الأراضي، قدم "تشانج جوتشينج" أيضًا قانون السوط الوحيد، الذي حل محل العمل القسري بضرائب الأراضي الإقطاعية، ومع هذه الضرائب، استأجرت الحكومة الإقطاعية العمالة؛ فكانت الضريبة تتكون من ضرائب الاقتراع وضرائب الأراضي، والتي ساهمت بشكل كبير في تبسيط تحصيل الضرائب، أدى هذا الإصلاح إلى المزيد من ترسيخ روابط الفلاحين بالدولة، وبالتالي إطلاق العمل من أجل تطوير الحرف اليدوية، كما عززت الفضة كوسيلة للدفع إلى حد كبير تسويق المنتجات الزراعية وتشجيع تطوير التجارة.

لضمان حسن سير الإنتاج الزراعي، ركز "تشانج جوتشينج" تركيزًا كبيرًا على إنشاء مشروعات للحفاظ على المياه، خاصة على النهرين الأصفر وهواي، وأزال هذا على نحو فعال خطر الفيضانات، وضمن الإنتاج الزراعي، وكان أيضًا في حالة تأهب لاحتمال الحرب على الحدود؛ فعيّن "تشي جيجوانج" لتحصين الدفاعات في "جيتشين"، جنوب غرب بكين اليوم، والجنرال "لي تشينجليانج" كوصي على "لياودونج" في شمال شرق البلاد، ونظموا أنظمة دفاع عسكرية صارمة صمدت فعليًّا ضد الغزو والمغول.

في عام 1582م، وهو العام العاشر من حكم الإمبراطور "شنزونج"، أرهق "تشانج جوتشينج" من العمل المفرط ومات على ما يبدو مطمئنًا بأن الإمبراطورية عادت إلى مسارها، لكن على الرغم من إسهاماته غير العادية في عهد أسرة "مينج"، إلا أنه وقع في صراع سياسي بعد موته، فقد صادر الإمبراطور "شنزونج" الذي غضب طويلاً من مبادئه الصعبة ممتلكات أسرة "تشانج"، وكل عائلته وأقاربه إما ماتوا ميتات غير طبيعية أو أجبروا على الرحيل للمنفى، ودون قيود "تشانج جوتشينج"، بدأ الإمبراطور "شنزونج" يفقد الاهتمام بالسياسة، ومنذ ذلك الحين، خرجت أسرة "مينج" عن نطاق السيطرة.

ثلاثة أمور تسيء لسمعة للبلاط

كان الإمبراطور "شنزونج"، أو الإمبراطور "وانلي"، صاحب فترة حكم في عهد أسرة "مينج"، تميز عهده بالعديد من الخلافات، وانسحب من البلاط لمدة ثلاثين عامًا تقريبًا، دون منح السلطة لوزرائه أو خصيان القصر، مما أدى إلى توقف الحكومة تقريبًا، وعلاوة على ذلك، لم يكن لإمبراطورته ابن، وفي عام 1586م، في السنة العاشرة من حكمه، أنجبت محظيته "جونج" "تشو تشانجلو"، وبعد أربع سنوات، أنجبت محظية أخرى، "تشينج"، ابنه "تشو تشانجشون"، كان ينبغي أن يكون "تشو تشانجلو" هو ولي العهد، ولكن "شينزونج" أحب "تشينج"، ومنح المنصب لابنها بدلًا من ذلك، كان الجميع يشكون في أن هذا كان بسبب مكيدة "تشينج"، قدم الوزراء بإصرار مذكرات تطالب بأن يُمنح "تشو تشانجلو" لقبه الشرعي، والذي تم تجاهلهم جميعًا بعناد متساوٍ من "شنزونج"، وفي نهاية المطاف، اقترحت "تشينج" أن يتم منح كل ثلاثة من أبناء الإمبراطور لقب الأمير، وأن "تشو تشانجشون" قد يصبح وليًا للعهد عندما يحين الوقت المناسب.

لذلك طلب "شنزونج" من الباحث الكبير "وانج شيجو" صياغة المرسوم الذي من شأنه أن يجعلهم أمراء، ولم يرغب "وانج شيجو" بإغضاب "شنزونج"، لكنه

كان أيضًا خائفًا من التعرض للاحتقار من الحاشية؛ لذلك كتب إلى الإمبراطورة، وطلب منها رعاية الابن الأكبر حتى يصبح من النسل الرسمي، تجاهل "شنزونج" هذا، مُصرًا على مرسوم "الأمراء الثلاثة"، كانت هناك ضجة في البلاط، حيث تعرض "وانغ شيجو" للانتقادات بسبب التملق حتى لم يعد لديه خيار سوى الاستقالة، واضطر الإمبراطور "شنزونج" إلى إلغاء مرسومه، وأخيرًا، في 1601م، تدخلت الإمبراطورة الأرملة؛ وقد حصل "تشو تشانجلو" البالغ من العمر عشرين عامًا على لقب ولي العهد، وأعطي "تشو تشانجشون" لقب أمير "فو"، لكنه فشل في الاهتمام بالإقطاعية، باقيًا بدلًا من ذلك في العاصمة، وأثار هذا الأمر قلقًا كبيرًا بين الوزراء الذين طالبوا الإمبراطور بتوليته منصبه في الإقليم الذي كان مسؤولًا عنه وفقًا للتقاليد، في 1614م، واستجابة للضغط، غادر الأمير في النهاية، لكن الخلاف الذي طال أمده أثار غضب الإمبراطور، الذي لمعاقبة وزرائه استدار مرة أخرى إلى قرينته "تشينج" للحصول على المشورة، ونأى بنفسه عن البلاط.

في عام 1615م، طارد رجل يدعى "تشانج تشاي" الخصيان الذين كانوا يحرسون البوابات واقتحم قصر "سيتشينج" مسلحًا فقط بعصا خشبية، ثم اقتحم سكن ولي العهد، وبعدها تم إخضاعه واستجوابه، وتسبب هذا في ضجة هائلة وأصبح الحادث يعرف باسم "حالة الاعتداء على القصر"، وبدأت الشائعات في الانتشار، على الرغم من حقيقة أن الأمير "فو" قد غادر وتولى منصبه في "لويانج"، فإن مؤيديه ما زالوا يحتفظون بالسلطة في العاصمة، وكانت "تشينج" لا تزال محظية "شينزونج" المفضلة، وكان البعض على يقين من أن "تشانج تشاي" كان يعمل لدى "تشينج" والأمير "فو"، وأن الخطة كانت لقتل ولي العهد، ومع ذلك، اعتقد المسؤولون الذين يحققون في القضية اعتقادًا راسخًا أنه لا علاقة له بمؤيدي "فو"، مدعين أن "تشانج تشاي" كان مجرد مجنون، بقي العديد غير مقتنعين، وقد قام "وانج تشيشاي"، وهو قاضٍ في وزارة العدل، بالتحقيق سرًا مع "تشانج تشاي"، الذي اعترف بأنه تم تحريضه على قتل ولي العهد من اثنين من الخصيان الذين كانوا يعملون عند "تشينج".

أكد اعتراف "تشانج تشاي" شكوك العامة، طالب أنصار ولي العهد بإجراء تحقيق شامل، لكن مع استمراره، أصبحت "تشينج" متورطة، وطلب الإمبراطور "شنزونج" وقف كل شيء، واستدعى جميع وزرائه ووعد بأن يرث ولي العهد العرش، كما طلب من "تشو تشانجلو" أن يعلن أن "تشانج تشاي" قد اقتحم قصر "تسيتشينج" لمجرد أنه مجنون، ويفترض أن هذا الاجتماع قد حسم القضية وحال دون تدهور الوضع؛ وقد أُعدم "تشانج تشاي" والاثنان الخصيان، بينما بقيت "تشينج" دون أن تصاب بأذى، لكن الشائعات تراجعت.

في عام 1620م، بعد خمس سنوات، توفي الإمبراطور "شنزونج" وتولى ابنه البكر "تشو تشانجلو" البالغ من العمر 39 عامًا العرش، وسمى عهده تايتشانج، وأصبح الإمبراطور "جوانجزونج"، وفي الأيام الأولى من عهده، أطلق سلسلة من الإصلاحات لإعادة جهاز الدولة إلى الحياة، لكن تبين أن أحد إخفاقاته كان شغفه بالمرأة، ومن أجل تبديد أي ضغائن، قدمت له "تشينج" ثماني فتيات جميلات، واقترحت أيضًا ترقية محظيته المفضلة "لي"، سر هذا الإمبراطور الذي أنعم على "تشينج" بلقب الإمبراطورة الأرملة، وجعل "لي" الإمبراطورة، لكن صحة الإمبراطور "جوانجزونج" كانت ضعيفة، وتفاقمت بشكل مطرد تحت ضغط شؤون الدولة، عندها أعطاه خصي يعمل لدى "تشينج"، "تسوي ونشينج"، دواء تسبب في إسهال شديد، سقط مريضًا، وادعى مسؤول آخر في البلاط، "لي كيتشو"، أن لديه دواءً ناجعًا يمكنه علاج أي مرض، وأعطاه حبتين حمراوين، وكانت النتيجة في صباح اليوم التالي أن تم العثور على الإمبراطور الشاب ميتًا بعد ثلاثين يومًا فقط على العرش.

لم يتم التحقق أبدًا ما إذا كانت الحبوب تحتوي على السم، لكن "حالة الحبوب الحمراء" صدمت كلًّا من البلاط والجمهور وكثفت النضالات الحزبية داخل بلاط "مينج"، اعتقد العديد من الوزراء أن "تشينج" كانت قد خططت لقتل "جوانجزونج" واستبداله بابنها، وطالبوا بإجراء تحقيق دقيق، في النهاية، تم إرسال "لي كيتشو" إلى المنفى وتم تخفيض رتبة "تسوي ونشنج" وإرساله إلى

"نانجينج"، وأصبحت هوية الإمبراطور الجديد التركيز الرئيس، وقد ترك الإمبراطور "شنزونج" وصية تنص على أن حفيده "تشو يوجياو" يجب أن يرث العرش، وعلى الرغم من أن والدته البيولوجية، "وانج"، تمتعت بمكانة أعلى من "لي"، فقد استخدمت "لي" حب "جوانجزونج" لها كذريعة لإهانة وإذلال "وانج"، التي قيل إنها ماتت بسبب الغضب، بعد وفاتها، وضع "تشو تشانجلو" "تشو يوجياو" في حضانة لي، وعندما اعتلى "تشو تشانجلو" العرش في الوقت الذي انتقل فيه الإمبراطور "جوانجزونج"، انتقلت "لي" و"تشو يوجياو" إلى قصر الطهارة السماوية، وعندما توفي، سيطرت السيدة "لي" على القصر وتآمرت للاحتفاظ بـ"تشو يوجياو" من أجل أن تصبح الإمبراطورة الأرملة.

في يوم وفاة "جوانجزونج"، اقتحم "يانغ ليان"، و"ليو ييتشو"، ووزراء آخرون قصر الطهارة السماوية، وطلبوا رؤية ولي العهد لمناقشة صعوده إلى العرش، حاولت "لي" أن توقفهم، لكنها أجبرت على الموافقة، وعندئذ وقف الوزراء أمام "تشو يوجياو" وصاحو قائلين: "عاش الإمبراطور!" تم تحديد موعد لتتويجه، وفي الوقت نفسه طلب الوزراء من "لي" الانتقال إلى قصر "هويلوان"؛ ولكن بالنظر إلى أن قصر الطهارة السماوية كان المكان الذي أقام فيه الإمبراطور وقام فيه بشؤونه اليومية، رفضت، ورفض أيضًا طلبها لتكون الإمبراطورة الأرملة، وتكثفت الخلافات.

تم الضغط على "لي" للانتقال، لكنها قاومت حتى وقف جميع الوزراء عند بوابة القصر، وحثها الخصي "وان آن"، وغادرت في نهاية المطاف مع ابنتها الطفلة بين ذراعيها وذهبت إلى قصر "هويلوان" الذي خصص خصيصًا للمحظيات الإمبراطورية القديمة، وحدث التتويج الكبير لـ "تشو يوجياو"، وسُمي العام التالي في العام الأول من حكمه "تيانتشي" لكن على الرغم من أن "لي" قد انتقلت من القصر، إلا أن الصراع لم ينتهِ بأي شكل من الأشكال، فبعد عدة أيام، اشتعلت النار فجأة في قصر هويلوان، هرع الجميع لإنقاذ "لي" وابنتها، ونجوا بصعوبة، لكن الشائعات كثرت، مما يشير إلى أن "تشو يوجياو" كان المحرض،

وبدا أن إنكاره الشديد قد أوصل القضية إلى نهايتها، كل هذا يعرف باسم "حالة الإبعاد عن القصر".

وقعت هذه الأحداث الثلاثة في السنوات الأخيرة من عهد أسرة "مينج" وتسمى "ثلاث قضايا بلا حل في أواخر عهد "مينج"، في حين أنها غير مهمة نسبيًّا في حد ذاتها، فقد أدت إلى نزاعات كبيرة بين الفصائل، وفي حقبة "تيانتشي"، استخدمتها عصبة "دونجلين" وفصيلة الخصيان باستمرار كذرائع لمهاجمة بعضهم بعضًا، مما أدى إلى الانحدار المستمر للأسرة.

إساءة استخدام السلطة وحركة "دونجلين"

في عام 1620م، أصبح "تشو يوجياو"، حفيد الإمبراطور "شنزونج"، والمعروف باسم الإمبراطور "شيزونج"، إمبراطور "مينج" الخامس عشر وأخذ اسم الحقبة "تيانتشي" ويعني (الافتتاحية السماوية)، لم يكن لديه اهتمام كبير بالحكم، لكنه كان لديه حب نادر للأعمال الخشبية، وغالبًا ما كان يعمل في وقت متأخر من الليل، كان موهوبًا للغاية فكانت المنحوتات والأسرّة التي يصنعها رائعة، وبصرف النظر عن مصنعه الخشبي، كان شغوفًا أيضًا بالهندسة المعمارية وبنى قصرًا مصغرًا في إحدى ساحاته، لقد كان عملًا معقدًا وحساسًا، يبلغ ارتفاعه نحو المتر، وأظهر مهارة غير عادية، وللأسف لم يكن لديه نفس المهارات عندما يتعلق الأمر بالهياكل الإمبراطورية لأسرة "مينج".

خلال عهد الإمبراطور "شنزونج"، أصبح "جو شيانتشينج" مشهورًا بمحاضراته في أكاديمية "دونجلين" في "ووشي" في مقاطعة "جيانغسو" الحالية، أصبحت الأكاديمية مركزًا مؤثرًا للجدل السياسي والهجاء، وجذبت ممثلي الحكومة من جميع الأنواع؛ هذا أدى إلى ما كان يعرف بحركة "دونجلين"، كان الأعضاء منتبهين وصادقين، وقدموا نقدًا صريحًا للحكومة والإمبراطور، كان لهم نفوذ سياسي كبير، ولعبوا دورًا مهمًّا في أحداث مثل "القضايا الثلاث غير المحلولة

في أواخر عصر "مينج"، وفي وقت مبكر من عهده، وضع الإمبراطور "شيزونج" قدرًا كبيرًا من الثقة في عصبة "دونجلين"، كما أصبح معروفًا - إذ كانت الأحزاب الفصائل ملعونة في الكونفوشيوسية التقليدية - وتولى أعضاء مثل "يانج ليان"، "زو جوانجدو"، و"صن تشينجزونج" جميع المناصب المهمة.

وفي الوقت نفسه، كانت هناك قوتان شريرتان في ارتفاع داخل البلاط: مدام "كي" و"وي تشونجشيان"، كانت مدام "كي" مرضعة الإمبراطور "شيزونغ"، وقد اهتمت به منذ طفولته، وعندما اعتلى العرش، كان لا يزال يتبع نصيحتها ومنحها لقب سيدة "فنجشنج" أما "وي تشونجشيان" فكان أحد خصيان القصر، وكان يتمتع أيضًا بثقة الإمبراطور "شيزونج" بفضل قربه من مدام "كي"، ولد لعائلة متواضعة في محافظة "سونينج في "هيبي"، لم يتعلم جيدًا ونشأ دون مهنة، وكان سيئ السمعة في شبابه بسبب القتال والشرب ولعب القمار، وفي أحد الأيام خسر في القمار وأهانه المقامرون الآخرون، في غضب خصى نفسه وغير اسمه وتسلل إلى القصر، حيث أصبح خصيًا.

عندما اعتلى الإمبراطور شيزيونج العرش، رقى "وي تشونجشيان" لمساعدته في كتابة التعليقات على المذكرات المرسلة إلى الإمبراطور، كانت المذكرات الرسمية للاتصالات إلى الإمبراطور والتعليقات، عادة تكتب باللون الأحمر، بقلم الإمبراطور أو مسؤوليه وكانت لها قوة المرسوم الإمبراطوري، كان هذا منصبًا رئيسًا، مما أتاح للخصي جلب مرؤوسيه الموثوقين إلى القصر، وهكذا، من فترة "جياجينج" (1522 - 1566م) فصاعدًا، أعطيت القوة المتضائلة للخصيان فرصة جديدة للحياة، وسرعان ما بدأ "وي" يتدخل في شؤون الدولة، واستفاد من شباب الإمبراطور، وأرشده إلى البحث عن المتعة في كل فرصة؛ وكلما كان مشغولًا بالنجارة، كان "وي" يقدم له أكوامًا من الوثائق العسكرية والسياسية ليراجعها، فكان الإمبراطور ينحيها جانبًا، ويسمح لـ"وي" بالتعامل معها- كما أحب - وبالتالي أصبح الحاكم الفعلي.

وشعر بعض أعضاء "دونجلين" بالتهديد الذي يشكله "وي تشونجشيان" ومدام

"كي"، وفي وقت مبكر من حكم "تشو يوجياو"، اقترح المراقبون الإمبراطوريون، "تشو زونججيان" و"وانج شينيي"، عبثًا أن تطرد مدام "كي" من القصر، في وقت لاحق، قام "ليو تسونجتشو"، وهو قاضٍ، بمحاسبة "وي" من أجل تحريض الإمبراطور على الانغماس في الفجور، لكنه فشل أيضًا في إزاحته من منصبه، وفي عام 1623م، تم تعيين "تشاو نانشينج"، عضو "دونجلين"، وزيرًا للأفراد وأعطى "يي شيانجاو" وغيرهم سلطة فصل المسؤولين، هذا جعل المسؤولين غير المنتمين لـ"دونجلين" غير آمنين إلى حد كبير، لذلك لجؤوا إلى "وي تشونجشيان" للحصول على الدعم وانضموا إلى الخصيان في القتال ضد عصبة "دونجلين"، أصبح الصراع بين الخصيان ومجموعة "دونجلين" منسجمًا في نسيج الصراع بين الفصائل الذي كان قائمًا منذ عهد "وانلي"، وبدعم من فصيلة المناهضين لـ"دونجلين"، نما تأثير "وي" تدريجيًا، وفي الشهر الثاني عشر من عام 1623م، تم تعيينه رئيسًا للقسم الشرقي، المقر الرئيس للخدمة السرية الإمبراطورية، وشن العمود الفقري لـ"دونجلين"، وهو نائب الرقيب الإمبراطوري، "يانج ليان"، هجومًا شرسًا ضده، وقدم بيانًا مكتوبًا إلى الإمبراطور سرد فيه جنحه الكثيرة.

سبب هذا الذعر لـ"وي"، فذهب إلى الإمبراطور ليتوسل الرحمة بمساعدة مدام "كي" وغيرها من الخصيان، كان الإمبراطور "شيزونج" مقتنعًا بولائه وبراءته وأصدر مرسومًا لتوبيخ "يانج ليان" لاتهامه الأشخاص الشرفاء زورًا، شكلت هذه الحادثة المعركة الحاسمة بين عصبة "دونجلين" وخصيان "وي"، وبعد ذلك بدأ موقف حركة "دونجلين" بالانزلاق، مما ضمن الانحدار النهائي وسقوط الأسرة، جمع أنصار "وي" قوائم بمسؤولي "دونجلين"، وفي 1625م سجن "وي" ستة منهم بتهم مزيفة بالرشوة، وبعد تعذيب شديد، ماتوا جميعًا في السجن وأصبحوا معروفين باسم "الشهداء الستة"، وفي عام 1626م، تمت سبعة اعتقالات أخرى، فأغرق أحدهم نفسه وتوفي الباقون في السجن، فأصبحوا "الشهداء السبعة الإضافيون"، وقام بعض أعضاء "دونجلين" بالانتحار، وقُتل بعضهم، وسُجن بعضهم، وتم فصل بعضهم الآخر من منصبه إلى أن تم القضاء

على الحركة عمليًّا، كان لدى "وي" الآن سلطة مطلقة، وتلقى تمجيدًا مريبًا أينما ذهب، وتلقى أقاربه وأصدقاؤه جميع الترقيات وصارت في حوزتهم ثروات ضخمة؛ كانت قوة "وي" كبيرة لدرجة أن الأضرحة شيدت له في جميع أنحاء البلاد.

وفي عام 1627م، توفي الإمبراطور "شيزونج" دون ابن ووريث في قصر الطهارة السماوية؛ تولى شقيقه "تشو يوجيان" العرش، مطلقًا لقب "تشونجتشن" على عهده، ولطالما ازدرى الإمبراطور "تشونجتشن" سلوك "وي تشونجشيان" ومدام "كي"، لكنه أدرك أنه نظرًا لقوة "وي تشونجشيان"، فإن عليه أن ينتظر الفرصة المناسبة للتصرف، وبعد شهرين، تجمع أعضاء "دونجلين" المتبقين مرة أخرى لمهاجمة "وي"؛ وبعد ذلك بقليل، أعلن إمبراطور "تشونجتشن" طرد "وي"، وأرسله إلى المنفى، وفي وقت لاحق، أعطى الإمبراطور أوامر بالقبض عليه، ثم شنق الخصي نفسه، وقد تم جلد السيدة "كي" حتى الموت في مكتب "هواني"، حيث تقضي السجينات وقتًا في غسل الملابس، وسرعان ما انهارت عصابة الخصيان، وعوقب العديد من أعضائها بشدة، وبذل الإمبراطور "تشونجتشن" جهودًا كبيرة لإعادة البلاد إلى الازدهار، وجلب الأمل لأسرة "مينج" المترنحة، لكن سنوات من الفساد والنزاع بين الفصائل واحتكار الخصوم للسلطة تركت بصمتها.

نهاية عهد أسرة "مينج"

القوة العسكرية المنحسرة

في عام 1619م، في السنة السابعة والأربعين من عهد الإمبراطور "شنزونج"، عانت قوات "مينج" هزيمة كبيرة في معركة "سارو"، وهو ممر جبلي بالقرب من "فوشون" في ما يعرف الآن بمقاطعة "لياونينج"، وبدأت في اتخاذ موقف دفاعي ضد "جين" المتأخرة، والتي ستُعرف لاحقًا باسم "المانشو"، وعند هذه النقطة، برز المسؤول المعين حديثًا "شيونج تينجبي" إلى المقدمة، كان

"شيونج تينجبي" من "جيانجشيا" في مقاطعة "هوبي"، وكان له جهوده الشخصية في الجبهة، حيث كان لديه معدات تم إصلاحها وتأكد من أن القوات كانت منتشرة بشكل جيد، واستقرت الأوضاع في "لياودونج"، ومع ذلك، كان أقل فعالية في البلاط، حيث كان صراخه لا يزعج فقط أعضاء عصبة "دونغلين"، بل أيضًا "تشيجيانج" والخصيان، وبعد أن شغل منصبه لأكثر من عام، اتهمه الثوار الانتقاميون بأنه لم يحقق ما يكفي في "لياودونج"، تمت إقالته، وخلفه "يوان ينجتاي"، الذي كان جاهلًا بالمسائل العسكرية وسرعان ما جعل الأمور أسوأ، هذا أعطى الزعيم "جين" المتأخرة "نورهاجي" الفرصة، وكان سريعًا في انتهازها، ففي عام 1621م (السنة الأولى من حكم الإمبراطور "شيزونج")، قاد قواته على طول نهر "هون" لمهاجمة "شنيانج" و"لياويانج"، وإذ هزم "يوان ينجتاي" تمامًا انتحر، وسقطت جميع الأراضي شرق نهر "لياو" الآن في يد "جين" المتأخرة.

عندما وصلت الأخبار إلى العاصمة، فوجئ بلاط "مينج"، وتم استدعاء "شيونج تينجبي" على عجل، ثم اقترح "الترتيب الثلاثي" الشهير الذي كان يتمركز فيه سلاح الفرسان في "جوانجنينج"، والبحرية في "تيانجين" ومنطقة "دنجلاي"، وتم بناء خط دفاع على طول نهر "لياو"، وافق بلاط "مينج" على الخطة وعين "وانج هواتشين"، الذي كان مقره في "جوانجنينج"، كمنسق أعلى في "لياودونج"، ظاهريًا للتعاون مع "شيونج"، ومع ذلك، استخف "وانج هواتشين" نتيجة لجهله وتعنته بعدوه القوي بازدراء، ووضع خطة هجوم تتعارض مع الترتيبات الدفاعية لـ "شيونج تينجبي"، وقد سارت الأمور من سيء إلى أسوأ بفضل السياسة المتشابكة لبلاط "مينج"، في هذا الوقت، كانت عصبة "دونجلين" في صعود، بقيادة "يي شيانجاو" في سنواته الأولى، كان "شيونج تينجبي" ينتمي إلى زمرة "تشو" المنافسة؛ ولكن "وانغ هواتشين" كان المفضل لدى حركة "دونجلين"، فقد قاد وانغ أكثر من 100 ألف جندي في "جوانجنينج"، بينما قاد "شيونج" عددًا أقل بكثير في ممر "شانهاي"، وفي نهاية المطاف، أضعف الجدل بينهما وضع "مينج" بشدة في "لياودونج".

في عام 1622م، عبرت قوات "نورهاجي" نهر "لياو"، واشتبك جيش "وانج هواتشين" بشكل أعمى مع العدو وتم سحقه؛ وبفضل الخونة داخل المدينة، سرعان ما استولت قوات "جين" المتأخرة على معقل "جوانجنينج"، نجا "وانج هواتشين" في حالة من الذعر واضطر "شيونج تينجبي" لقيادة عدد صغير من القوات لحماية ذلك التراجع إلى ممر "شانهاي"، وقد تم مساءلة كل من "شيونج تينجبي" و"وانج هواتشين" بعد سقوط "جوانجنينج"، ولكن نظرًا لأن صراحة "شيونج تينجبي" جعلت منه هدفًا لهجمات حزبية، فقد حكم عليه أخيرًا بالإعدام، وفي عام 1625م، تم إعدامه، وتم عرض رأسه في تسع مدن شمالية رئيسة كتحذير للآخرين.

كان البلاط الآن في حيرة في ما يتعلق بكيفية إدارة منطقة "لياودونغ"، ولكن في هذه اللحظة الحرجة، أخذ رجل الدولة المسن "صن تشينج زونج"، معلم الإمبراطور "شيزونج"، المسرح، فأصبح قائدًا لممر "شانهاي" في عام 1623م واستمر في استراتيجية "شيونج تينجبي" الدفاعية النشطة، حيث أسس "خط الدفاع جوان - نينج - جين" الشهير الذي ربط ممر "شانهاي" و"نينجيوان" و"جينتشو"، وقام بتأمين الإمدادات الغذائية، وقام بتدريب عسكري وإصلاح الأسلحة، مما جعل الخط الأمامي أكثر صعوبة في الانتهاك، وقد تم دفع جيش "جين" المتأخرة إلى الخلف، واستقر الوضع تدريجيًا، ومع ذلك، فحتى زعيم قيادي مثل "صن تشينج زونج" لم يتمكن من الإفلات من الاقتتال الداخلي لبلاط "مينج"، فكان مركزه العالي وحياة مهنية طويلة جذابة لأمثال "وي تشونجشيان"؛ ولكن عندما رفض "صن تشينجزونج" إظهار المحسوبية، تحولت ضغائن "وي" إلى مخططات مصممة للتخلص منه، في عام 1625م، استخدم حزب الخصيان هزيمة صغيرة من "مينج" في نهر "لياو" لإجبار "صن" على الاستقالة ونفيه، وخلفه "غاو دي"، مؤيد "وي تشونجشيان".

بمجرد توليه المنصب، اعتبر أن "جاو دي" أظهر الجبن بإصراره على التراجع، وسحب الجيش بأكمله إلى الجنوب، وهو ما أثار استياء الجنود والمدنيين،

ومن بين جميع الذين تراجعوا، أقسم ضابط واحد، هو "يوان تشونجهوان"، أنه سيموت على أن ينسحب، متعهدًا بالدفاع عن "نينجيوان" حتى النهاية المريرة، وكما هو متوقع، فإن انسحاب "غاو دي" جذب انتباه "جين" المتأخرة، وبدت مدينة "نينجيوان" المنعزلة كهدف سهل، وفي أوائل عام 1626م، عبر جيش "نورهاجي" نهر "لياو" وحاصر المدينة، وأقسم "يوان تشونجهوان" وأتباعه يمينًا بالدم للدفاع عنها؛ وموجة بعد موجة هاجم جنود "جين" المتأخرة، ولكن صدتهم المدفعية المدافعة عن المدينة، وفي نهاية المطاف، بعد أن حصد عددًا لا يحصى من الضحايا، لم يكن لدى "نورهاجي" أي خيار سوى الانسحاب، وكانت معركة "نينجيوان" هي أول انتصار كبير لجيش "مينج" منذ معركة "سارو"، وبددت أسطورة "نورهاجي"، كما عززت بشكل كبير سمعة "يوان تشونجهوان" في منطقة "لياودونج"، وعززت الروح المعنوية لكل من جيش "مينج" والشعب.

في عام 1627م، بقيادة خلف "نورهاجي" "هونج تايجي"، ضرب جيش "جين" المتأخرة مرة أخرى، ومرة أخرى، نجح "يوان تشونجهوان" وآخرون في الدفاع عن "جينتشو" و"نينجيوان"، ونتيجة لذلك تمكن جيش "مينج" من نقل خط دفاعه من "نينغيوان" إلى "جينتشو"، وهو إنجاز كبير، ووسط الاحتفالات في بلاط "مينج"، تمت مكافأة عدد كبير من المسؤولين غير المستحقين مثل "وي تشونجشيان"، في حين أن البطل الحقيقي، "يوان تشونجهوان"، تم تجاهله بشكل مقصود وكانت هذه علامة على سوء الأوضاع، ولكن في عام 1627م، توفي الإمبراطور "شيزونج" وأصبح شقيقه الأصغر "تشو يوجيان" الإمبراطور "تشونجتشن"، مما أدى إلى إزالة "وي تشونجشيان" وزمرته من الخصيان، وتم استدعاء "يوان تشونجهوان" وعين حاكمًا عسكريًّا لمنطقة "جي - لياو" (المنطقة من بكين على طول الطريق إلى "جينتشو" ونهر "لياو" عبر ممر "شانجهاي")، مما يشير إلى فترة من الانتعاش السياسي.

بعد فترة وجيزة من توليه منصبه، كان على "يوان تشونجهوان" التعامل مع

"ماو وينلونج"، وهو جنرال كان متمركزًا في جزيرة "بيداو" في الخطوط الأمامية، كان "ماو" تابعًا لـ"وانج هواتشين" وتمكن مرة بالكاد بمئة جندي من الاستيلاء على مدينة "جين" المتأخرة "تشينجيانج"، كان "نورهاجي" قد أرسل بسرعة إلى الجيش لاستعادة المدينة المفقودة، مما أجبر "ماو" على التراجع إلى كوريا، وفي وقت لاحق حارب من "بيداو"، وفتح جبهة جديدة على طول الجناح في "جين" المتأخرة، وبعد عدة سنوات، أصبحت "بيداو" معقلًا دفاعيًا لـ"مينج" على ساحل "لياودونج" الذي لعب دورًا رئيسًا في منع جيش "تشينج" من التحرك جنوبًا، وخلال معركة "نينجيوان"، قاد "ماو ونلونج" قواته مباشرة إلى "شنيانج"، عاصمة "جين" المتأخرة، مما أجبر "نورهاجي" على التراجع للدفاع عنها، وهو عامل رئيس في انتصار المعركة، وهكذا كان كل من "يوان تشونجهوان" و"ماو وينلونج" حليفين طبيعيين، ولكن بينما تم اختيار "يوان تشونجهوان" على يد عصبة "دونجلين"، كان لماو ون لونغ علاقات وثيقة مع الطرف المنافس، وامتدت الصدامات بينهما إلى ساحة معركة "لياودونج"، وفي عام 1629م، خرج "يوان" عن طريقه لقتل "ماو".

وعندما سمعت "جين" المتأخرة الأخبار، كان هناك فرح عظيم، وحشدوا كل قواتهم في ثلاث مجموعات، عبروا السور العظيم، وشنوا هجومًا مباشرًا على بكين، وهرع "يوان تشونجهوان" مع قواته من ممر "شانهاي"، وأجبرهم على الانسحاب؛ ولكن بعد ذلك، وباستغلال نقاط الضعف العديدة بين الفصائل في بلاط "مينج"، قام "هونج تايج" بزراعة المعارضة بدعوى أن "يوان تشونجهوان" قد صاغ اتفاقية معه سرًا، نجحت الخطة: وألقي القبض على "يوان تشونجهوان" وسُجن واتهم بالخيانة، في 1630م، تم إعدامه علنًا، ونفي أشقاؤه وزوجته، وأثار إعدام "يوان" غضبًا جماعيًا بين جنود خط المواجهة، الذين فكروا أنه حتى بطل حرب مثل "يوان" قد قتل بلا رحمة، فما هو الهدف من مواصلة القتال؟ تدهورت المعنويات وتدهور الوضع في "لياودونج" بشدة؛ مما منح قادة "جين" المتأخرة الفرصة للاستيلاء على نصيب الأسد من المنطقة.

تمرد "الملك الجريء"

بعد وفاة الإمبراطور "شيزونج"، انتقل اللقب إلى شقيقه الأصغر "تشو يوجيان"، إمبراطور "تشونجتشن"، الذي بذل جهودًا كبيرة للقضاء على زمرة الخصيان، وبدا كما لو أن أسرة "مينج" قد تتعافى، لكن الفصائل القوية بقيت، والآن جاء دور مجموعة الباحثين الرسميين لظهور الإمبراطور والتلاعب به إلى درجة أنه عاد مرة أخرى إلى الخصيان في محاولة للسيطرة على الوضع، تكثفت النزاعات داخل الطبقة الحاكمة، وحاول الإمبراطور "تشونجتشن" المضي قدمًا في إصلاحات جديدة، ولكن أسرة "مينج" لديها عادات راسخة بعمق.

كان الفلاحون في هذا الوقت يعانون بشكل كبير، وقد تم الاستيلاء على معظم الأراضي على يد الأرستقراطية أو البيروقراطية، وكان آلاف الفلاحين معدمين، ونُفوا من أراضيهم، وبدءًا من السنة السادسة والأربعين من عهد "وانلي"، بدأ بلاط "مينج" في جمع الضرائب لدفع تكاليف الدفاع عن "لياودونج"، ثم رفعتها لدفع تكاليف القتال المستمر وتدريب القوات، ازدادت التوترات الاجتماعية، وتفاقمت بسبب سلسلة من الكوارث الطبيعية، وأدت موجات الجفاف والفيضانات وأوبئة الجراد إلى مجاعات لا نهاية لها، وحتمًا، كانت موجات انتفاضات الفلاحين هي النتيجة.

بدأت ثورات الفلاحين في محافظة "تشينج"، ومحافظة "شنشي"، وفي عام 1627م، حيث دفعت الأراضي القاحلة، والضرائب الثقيلة، واللاجئون، والكوارث الطبيعية، والضغوط الحكومية الفلاحين إلى أقصى حدودهم، هرعوا في إحدى الأمسيات وهم مسلحون وغاضبون إلى مبنى الحكومة حيث كان "تشانج دوياو" حاكم المحافظة، يأمر بجمع الحبوب، وهرب في رعب إلى قصره، ولكن تم القبض عليه وقتل، وألهم هذا كل ضحايا المجاعة في جميع أنحاء البلاد للتمرد.

في عام 1628م، قاد "جاو يينجشيانج" من "أنساي" في مقاطعة "شانشي"،

والذي أطلق على نفسه اسم "الملك الجريء" -كان تاجر خيول، وفارسًا وراميًا استثنائيًا- جيشًا متمردًا عبر شمال "شانشي" وعبر الحدود إلى مقاطعة "شنشي"، وفي عام 1634م، اجتمعت قوات الفلاحين من مناطق بعيدة في "شينجيانج" في مقاطعة "هنان" لمناقشة الإطاحة بأسرة "مينج" - وهو حدث عُرف بمؤتمر "شينجيانج" - تم تعيين "جاو يينجشيانج" قائدًا؛ وتحت قيادته كان "لي زيتشينج"، الذي سرعان ما بدأ يظهر موهبته، اقترح "لي" استراتيجية للعمل معًا ولكن للانقسام عند الاشتباك مع العدو، وهكذا تم تقسيم قوات الفلاحين بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، مع توجيه قسمها الرئيس شرقًا، حيث كان العدو ضعيفًا، بعد ذلك بوقت قصير، خرج "جاو يينجشيانج" و"تشانج شيانتشونج" شرقًا، وحققا انتصارات متتالية، ولكن في عام 1636م، قاتل "جاو" جيش "مينج" في طريقه إلى "شيآن"، وهزم، وقد أُخذ سجينًا وأُرسل إلى بكين، حيث أُعدم، وأعطي لقب "الملك الجريء" بعدها إلى "لي زيتشينج".

ولد "لي زيتشينج" لعائلة فقيرة في قرية "جيتشيان"، بإقليم ميتشي بمقاطعة "شانشي"، كان راهبًا في طفولته، ثم راعيًا، وكشخص بالغ تم تجنيده في الحكومة كساع، ولكن عندما ضربت تخفيضات مالية محطات السعاة فقد وظيفته، وفي العام التالي، أجبرت المجاعة والكوارث الطبيعية "لي" ومعاونيه - ومعظمهم من الفلاحين من قريته - على الانضمام إلى جيش المتمردين، كان "لي" شجاعًا وحيويًا ومنضبطًا، وقد برز بين أقرانه، وفي 1634م، كان قد حوصر بحوالي 50000 جندي من "مينج" في "هانتشونج" - مقاطعة "شانشي" الجنوبية- في شِعْب "تشيشيانج" فتظاهر بالاستسلام، وظهرت قواته على طول المسار الخشبي على طول واجهة المنحدر، ثم أعادت تجميع صفوفها وفازت بسلسلة من الانتصارات، في عام 1635م، بينما سار "غاو ينغشيانج" وجيوش الفلاحين الأخرى شرقًا من "شانشي" إلى "هنان"، ظل "لي زيتشينج" في وسط "شانشي"، يقاتل حول جبال "تشينلينج"، ونما جيشه إلى نحو 30.000 – 40.000 رجل.

ولكن في عام 1638م، عانى جيش "لي" من انتكاسة شديدة عندما قام هجوم مشترك بقيادة "هونج تشينجشو" و"صن تشوانتينج" بتخفيض جيشه إلى ثمانية عشر فارسًا فقط، أجبر "لي" على الاختباء على جبل "شانجلو"، والاستعداد للعودة، وبعد مرور عامين، هزم "تشانج شيانتشونج"، زعيم جيش متمردين آخر، "يانج سيتشانج"، وزير حرب "مينج"، في مقاطعة "سيتشوان"، وقرر "لي" بأن تكون هذه لحظة عودته، وأمر جيشه بمهاجمة مقاطعة "هنان"، وهي مقاطعة ضربها الجفاف والجراد، حيث كانت الضرائب مرتفعة للغاية، وهنا، تضخمت صفوف المتمردين باللاجئين، إلى جانب عدد من العلماء الذين خاب أملهم، بما في ذلك "نيو جينشينج" الشهير، و"سونج شيانتسي"، و"لي يان"، كان "لي يان" على وجه الخصوص؛ لأنه هو الذي طرح فكرة تقسيم الأرض على قدم المساواة وإلغاء نظام دفع ضرائب الحبوب، مما حظي بتأييد كبير بين الطبقة الدنيا.

في عام 1641م، استولى جيش "لي" على "لويانج" وقتل "تشو تشانجشيون"، أمير "فو"، وصادر ممتلكاته وقام بتوزيعها على الفقراء، وعلى الرغم من أن جيشه تكبد خسائر كبيرة في معركة "كايفنج"، فإن سقوط المدينة هز حكم "مينج" في وسط الصين، وقد سار "لي" إلى محافظة "هوجوانج" (أي ما يعادل اليوم مقاطعتي "هونان" و"هوبي")؛ وبمساعدة من مستشاريه الأكاديميين، نأى بنفسه عن نمط "العصابة المتجولة" وأقام قوة في "شيانج يانج"، معلنًا نفسه "الجنرال العظيم المعين من السماء"، وهزم الجنرال "مونج تشوانتينج"، وبعد ثلاث سنوات، في عام 1644م، أسس "لي" نظام "شون" في "شيآن" وأطلق عليه اسم عصر "يونج تشانج"، والذي يعني "الازدهار الدائم"، وأنشأ الوزارات والمكاتب، واعتمد نظام الفحص المدني الإمبراطوري التقليدي، وأمر بسك عملات "يونج تشانج"، وسار جيشه إلى "شانشي" واستولى على "تاييوان"، ثم أخذ مدينة "تشانجبينج"، وأخيرًا، استولوا على بكين، مما أدى إلى إنهاء أسرة "مينج"، وفي اليوم السابق، شنق الإمبراطور "تشونجتشن" نفسه على تلة

الفحم إلى الشمال من المدينة المحرمة.

وقد أُمر الآن جنرال "مينج" السابق "تانج" بتسليم "وو سانجوي"، الذي كان يحرس ممر "شانهاي"، وعلى مضض قرر "وو سانجوي" أن يتعهد بالولاء وانطلق مع قواته إلى بكين، وفي طريقه، علم أن والده "وو شيانج" تعرض للتعذيب على يد جيش الفلاحين، وأن "لي شيتشينج" كان قد قبض على صديقه المحبوب "تشن ان"، وسرعان ما غير رأيه ورفض الاستسلام لنظام "شون"، وعلاوة على ذلك، باسم الانتقام للإمبراطور "تشونجتشن"، قاد قواته مرة أخرى إلى ممر "شانهاي" وشن هجومًا مفاجئًا على جيش "تانج تونج"، وعندما سمع "لي زيتشينج" الأخبار، انطلق إلى الممر مع 100.000 جندي، وقد طلب "وو سانجوى"، الذي أدرك أنه لم يكن أمامه فرصة مع "لي"، طلبًا عاجلًا من قوات "تشينج" في الشمال، وعندما وصل جيش "شون" إلى الممر، حصلوا على النصر تقريبًا حتى هاجمت قوات "تشينج" من الخلف، وهزم جيش "شون" تمامًا، واضطر "لي" إلى التراجع، وبقيادة جنرال "دورجون" قائد "تشينج" بدأ جيش "تشينج" مسيرة سريعة على بكين.

كانت معنويات جيش "شون" الآن منخفضة للغاية، وسقطت بكين في حالة من الفوضى، اعتلى "لي زيتشينج" العرش ولكن بعد أن أصدر أمرًا بحرق قصور "مينج" وأبراج البوابة التسعة، وفر من المدينة، عانى جيشه هزائم متتالية في طريقهم من "شانشي" إلى "شيآن"، وجاءت التقارير الآن أن "هنان" تمردت على النظام الجديد، طلب "لي يان" وزوجته "هونج نيانجتشي" 20.000 جندي لقمع التمرد، لكن "لي زيتشينج" لم يثق به، استغل "نيو جينشينج" الفرصة ليقترح أن "لي يان" كان يخطط للتمرد وأن على "لي زيتشينج" التخلص منه، ووافق "لي زيتشينج"، وهكذا في اليوم التالي، بحجة دعوته إلى القدوم إلى خيمته للشرب، قتل "نيو جينشينج" "لي يان" وشقيقه الأصغر "لي مو"،عندما أصبح هذا معروفًا، انخفضت معنويات الجيش أكثر، وانهارت قوات المتمردين.

وطارد جيش "تشينج" الآن قوات الفلاحين التابعين لـ"لي زيتشينج"، وواحدًا

تلو الآخر، أخذ الجنرالات الفلاحون أسرى وأعدموا، وفي عام 1645م، قاد "لي زيتشينج" بقايا قواته إلى جبل "جيوجونج" في محافظة "تونجشان" في "هوبي"، وهنا كانوا محاطين بملاك العقارات وقتلوا؛ لذا فقد انهار نظام "شون" القصير، وخنق على يد تحالف بين الأرستقراطيين من "تشينج" وملاك العقارات من "هان".

بلاط "مينج" الجنوبية المنكوب

في عام 1644م، ألقت الأنباء التي تفيد بأن جيش المتمردين التابع لـ"لي زيتشينج" قد سيطر على بكين وأن الإمبراطور "تشونغتشن" شنق نفسه على تلة الفحم -"جينجشان" اليوم- الذعر بين أفراد العائلة المالكة والمسؤولين في "نانجينغ"، وكانت مشكلتهم الأولى هي تولية خليفة، حيث لم يتمكن أي من أبناء "تشو يوجيان" الثلاثة من الهروب من بكين، وكان أحفاد الإمبراطور "شينزونج" الباقين أمراء "فو" و"هوي" و"روي" و"جوي"، وحيث إن الثلاثة الأخيرين كانوا يعيشون في أماكن نائية مثل "جوانجشي" و"سيتشوان"، فلم يتم احتسابهم لأن سفرهم سيستغرق وقتًا طويلًا إلى "نانجينج"، واعتبر "تشو يوسونج"، أمير "فو"، وابن أخته "تشو تشانجفانج"، أمير "لو"، ومقره في "هنان" المجاورة، أكثر المرشحين الواعدين، وفضل بعض المسؤولين "تشو تشانجفانج" على عمه؛ لأن "تشو تشانجشيون"، والد "تشو يوسونج"، كان في وقت من الأوقات منافسًا على العرش وكان يخشى أن ابنه سوف ينتقم له، ومن ناحية أخرى، كانت قوات الخصيان بقيادة "ما شيينج"، الحاكم العسكري لـ"فينجيانج"، قريبة من "تشو يوسونج"، وزعمت أنه كان أقرب قريب للإمبراطور "تشونجتشن"، "تشو يوجيان".

عندما رأى "ما شي يينج" أن مسؤولين أقوياء مثل "شي كيفا" يفضلون "تشو تشانجفانج"، استغل هذه الفترة من التردد للحصول على دعم الآخرين، مثل الجنرال "هوانغ ديغونج" و"ليو ليانجزو" و"جاو جي" و"ليو زيتشينج" و"ليو كونجتشاو"، وقد رُحب بـ"تشو يوسونج" في "نانجينج" فجأة وبشكل غير

متوقع من المسؤولين فلم يكن أمام "شي كيفا" و"جاو هونجتو" الذين كانوا دائمًا يفضلون ابن أخيه خيار سوى تقديم دعمهم، وفي الشهر نفسه، قبل "تشو يوسونج" لقب الوصي، ثم صعد العرش بنفسه، وأعلن أن العام القمري القادم سيكون العام الأول من عهد "هونج جوانج"، مما يمثل بداية عهد أسرة "مينج" الجنوبية.

كان بلاط "هونج جوانج" فاسدًا بشكل لا يمكن إصلاحه، على الرغم من حقيقة أن أراضيها غطت أغنى مناطق الصين وأنها تمتلك جيشًا ضخمًا يتألف من أكثر من مليون جندي، فإن النظام كان هشًّا وبلا جذور، كما كانت الحال في الاتحاد المتعجرف لأصحاب الأراضي في "جيانجنان" - الروافد الدنيا لنهر اليانجتسي - وأمراء الحرب الذين هربوا من هجوم جيش الفلاحين المتمردين، وورث النظام الجديد السياسات التي أزعجت الناس تحت حكم إمبراطور "تشونجتشن"، بل ازداد الفساد وسوء الكفاءة والصراع الداخلي سوءًا، وكان الإمبراطور الجديد، "تشو يوسونج"، يتمتع بنمط حياة باهظ، غير مهتم بشؤون الدولة وعهد بكل شيء إلى "ما شي يينج"، وفي 1644م، عشية عيد الربيع، وجد مكتئبًا، لكن بدلًا من الادعاء بأنه قلق على النظام، اعترف بأنه يفكر في اختيار عدد من النساء من الأسر الجيدة لتجديد مخزونه من محظياته.

استفاد "ما شيينج" من عدم مسؤولية الإمبراطور في إكساب نفسه المزيد من النفوذ، حيث طرد أو أبعد المسؤولين المستقيمين الذين رفضوا دعمه، وتنافس محدثو النعمة من "نانجينج" بعضهم بعضًا للحصول على السلطة والثروة؛ وظهرت نزاعات جديدة في مظاهر قديمة باستمرار، سواء داخل أو خارج البلاط، بعيدًا عما كان يأمل به العديد من الجنود والناس العاديين، لم يبد النظام أي علامة على تجديد الحياة في الأسرة الحاكمة أو تنفيذ إجراءات عملية لتحقيق الاستقرار، على الرغم من سوء النزاعات الداخلية، إلا أن التهديدات الخارجية كانت أسوأ.

في عام 1644م، تم إرسال القوات شمالًا للحماية من جيش "شون"، عندما أتت

الأنباء بأن "وو سانجوي" قد استسلم للمانشو وأن جيش "شون" قد هزم، ابتهج بلاط "هونج غوانج" على أمل أن يقتل جيش "تشينج" جيش الفلاحين ويقسم الغنائم، ومع ذلك، لم يكن لدى المانشو مثل هذه النوايا، فكانت خطتهم هي الاستيلاء على السهول الوسطى لأنفسهم، كما علم بلاط "هونج جوانج" عندما تم تجاهل مبعوثيه وإهانتهم، وفي عام 1645م، سار جيش "تشينج"، بقيادة الأمير "دودو" شرقًا من "شيآن" إلى "جايدي" -مدينة "شانجتشيو" اليوم- في مقاطعة "هنان"، واستعد للتوجه جنوبًا، وفي الوقت نفسه، تبع جيش آخر تابع لـ"تشينج" بقيادة "آجيجي" القوات الرئيسة لجيش "شون" من مقاطعة "هنان" الغربية إلى "شيانغيانغ"، بمقاطعة "هوبي"، عرف "زو ليانجيو"، جنرال "مينج" المتمركز في "وو تشانج"، أنه من غير المرجح أن يفوز وغير تكتيكاته من خلال السير باتجاه الشرق، معلنًا أنه سيقتل "ما شيينج" و"روان داتشينج" باسم "إبادة الوزراء الخائنين للإمبراطور"، سار في "جيوجيانج" بمقاطعة "جيانجشي"، ومرض ومات، وأعلن ابنه، "زو مينجينج" نفسه نائب القائد، ونفذ رغبات والده الراحل في السير نحو "نانجينج"، وفي الشهر الرابع، عبر جيش "تشينج" بقيادة "دودو" جنوبًا من "جايدي"، وعبر نهر "هواي" واتجه إلى "يانجتشو" بمقاطعة "جيانجسو"، وفي هذا المنعطف الحرج، أمر "ما شيينج" و"روان داتشينج" "هوانج ديجونج" بقيادة قواته الغربية لمحاربة "زو مينجينج"، وفي وقت لاحق من ذلك الشهر، شن جيش "تشينج" هجومًا كبيرًا ضد "يانجتشو" واستولى على المدينة في اليوم التالي، مما أدى إلى ذبح سكانها في ما أصبح يُعرف باسم "مذبحة يانجتشو العشرية".

وفي وقت لاحق من ذلك العام، اقترب جيش "تشينج" من عبارة "جواتشو"، حيث واجه جيش "مينج" على الجانب الآخر من نهر اليانجتسي، واستدعى "ما شيينج" الوزراء لمناقشة الوضع، واقترح البعض أن عليهم الاستسلام؛ وبحلول الوقت الذي عبر فيه جيش "تشينج" النهر، فرَّ العديد من كبار المسؤولين في بلاط "هونج جوانج" بالفعل، وتم القبض على "تشو يوسونج" وأرسل إلى "نانجينج"، واستسلم جيش قوامه ما يقرب من ربع مليون رجل بقيادة "زو

مينجينج" دون قتال، كما استسلمت الوحدات الأربع المتمركزة في "جيانجبي" أيضًا إلى "دودو"، وبعد انهيار بلاط "هونج جوانج"، هرب "ما شيينج" والإمبراطور "هونج جوانج" إلى "هانجتشو"، حيث استعدّا لتنصيب "تشو تشانج فانج"، أمير "لو"، في الشهر السادس من عام 1645م، وصلت الأخبار أن جيش "تشينج" كان يقترب في الوقت الذي كان فيه الأمير يقبل لقب الوصي، وتقرر أن الاستسلام كان أفضل خيار.

كان انهيار كل من بلاط "هونج جوانج" وقصر أمير "لو" بمثابة استيقاظ وقح لملاك الأراضي من الـ"هان" في جنوب الصين، والذين أدركوا فجأة أن المانشو لن يتحالفوا معهم لمجابهة جيش الفلاحين، ولن يسمحوا بوجود نظام من الـ"هان"، ومنذ ذلك الحين، تحدث أولئك الذين فضلوا القتال ضد "تشينج" بصوت أعلى، وبينما كان أمير "لو" على وشك الاستسلام، نهض الجنود في "تشجيانج" للقتال ضد "تشينغ"، وفي الوقت نفسه تقرر أن "تشو ييهاي"، أمير "لوه"، يجب أن يكون الوصي الجديد، وهي الفكرة التي حصلت على دعم من القوات المناهضة لـ"تشينج" في وسط "تشجيانج"، ومع ذلك، فعندما تولى منصبه، نصب "تشو يوجيان"، أمير "تانج"، في "فوتشو" ولقب عصره "لونغوو"، وبصفته عم أمير "لوه"، أصدر الإمبراطور "لونغوو" مرسومًا إلى وسط "تشيجيانج"، يسعى إلى التعاون في القتال ضد المانشو؛ ولكن الوزير الذي يخدم أمير "لوه" رفض قبول المرسوم وقطع العلاقات مع الإمبراطور "لونجوو"، وأعطى العداء الناتج جيش "تشينج" الفرصة لتدميرهم.

حتى داخل نظام أمير "لوه" كان الصراع متفشيًا، فاستولى جنرالات وخصيان وأقارب مختلفون على السلطة، مما أدى إلى تقليص حكمه إلى نظام دمى، وعلاوة على ذلك، لم تستطع الميليشيا فعل أي شيء برغم احتقار الحكومة لها بسبب نقص الدعم المالي، وفي الشهر السادس من عام 1646م، خاض جيش "تشينج" عبر نهر "تشيانتانج" (الضحل في ذلك الوقت بسبب الطقس الحار) واتجه إلى "شاوشينج"، في اللحظة التي رأوا فيها اقتراب جيش "تشينج"،

تداعت قوات "مينج" المتمركزة بالقرب من النهر، واستسلم "ما شيينج"، و"روان داتشينج"، وغيرهم إلى المانشو، وفرَّ أمير "لوه" إلى الساحل، وتم الاستيلاء على جميع المناطق الشرقية من "تشجيانج" على يد جيش "تشينج"، وبعد هروبه، قاد أمير "لوه" حياة تجول في المناطق الساحلية، وتوفي في "تايوان" في 1662م.

على الرغم من طموحه في تجديد إمبراطورية "مينج"، كان الإمبراطور "لونجوو" في الواقع تحت سيطرة "تشينج تشيلونج"- والد "تشينج تشينج جونج" - الذي ساعده على الصعود إلى العرش، وبعد استسلام "تشينج تشيلونج" إلى المانشو، ووقع الإمبراطور "لونجوو" في يد جيش "تشينج"، مسجلًا نهاية نظامه الذي استمر خمسة عشر شهرًا، وبعد ذلك بفترة وجيزة، أعلن "تشو يولانج"، أمير "جوي" نفسه وصيًّا واعتلى العرش في وقت لاحق، ونجا نظامه "يونجلي" لمدة ستة عشر عامًا، لكنه عاش حياة بائسة يتجول في المناطق الجنوبية الغربية من الصين، وحاول في مناسبة واحدة حتى الفرار إلى بورما، وعندما تم شنقه في نهاية المطاف على يد "وو سانجوي" في "كونمينج"، كان الانهيار الأخير لنظام جنوب "مينج" - وإمبراطورية "مينج" ككل - قد اكتمل.

صعود الجورتشن

تم تدمير أسرة "جين" التي أسسها الجورتشن على يد المغول، لكن الجورتشن لم ينسوا ذلك تمامًا، وفي أوائل عهد أسرة "مينغ"، تم تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات: "جيانشو"، التي كانت تعيش في منطقة امتدت من الحدود الشرقية لـ"فوشون" إلى الشرق وشمال جبل "تشانجباي"، وشمال نهر "يالو"، الـ"هايشي" الذين عاشوا من الحدود الشمالية من "كايوان" في "لياونينج" إلى المنعطف الكبير في الروافد الوسطى لنهر "سونج هوا"؛ والجورتشن البريون، الذين سكنوا في الروافد الوسطى لنهر "سونج هوا" وحوض نهر "آمور"، وأصبحت "جيانتشو" بالقرب من "ويسو" (الوحدة العسكرية) في "لياودونج"،

وبالتالي تأثرت بثقافة واقتصاد الـ"هان"، وكانت الأكثر تقدمًا في المجموعات الثلاث؛ بمعنى أنهم تصرفوا مثل الـ"هان" الذين يعتبرون أصحاب الثقافة الأكثر تقدمًا.

لاحظت حكومة "مينج" الطموحات المتوسعة للجورتشن، الذين يسيطرون الآن على الشمال الشرقي، وقرروا تعزيز صلاحياتهم القضائية عليهم، وبدلًا من إعلان الحرب، قدمت "مينج" نظامًا يسمى "ويسو" الجورتشن، فأعطت حكومة "مينج" رؤساء الجورتشن مناصب مثل المحافظ أو المفوض العسكري، وقدمت لهم الأختام الرسمية، قاد هؤلاء المشايخ الـ"ويسو" ودفعوا خراجًا منتظمًا لبلاط "مينغ"، وكان الأكثر تأثيرًا في كل "ويسو" الجورتشن هم حراس "جيانتشو" الثلاثة - وحدة دفاعية مكونة من حرس جيانتشو، وحرس يسار "جيانتشو" وحرس "جيانتشو" الأيمن - الذي أنشئ عندما استقر الجورتشن أخيرًا بعد الانتقال جنوبًا بشكل مطرد في "هيتوالا" -بمقاطعة "شينبين" الحالية في مقاطعة "لياونينج" - وأصبحت المنطقة المشتركة بين الحراس الثلاثة - وهي حوض نهر "سوتزي" - مهدًا لأسرة "تشينج".

لتعزيز سيطرتها على "ويسو" الجورتشن، أنشأت حكومة "مينج" اللجان العسكرية الإقليمية في الشمال الشرقي، كما أقامت أسواقًا للخيل في مراكز النقل وبالقرب من مستوطنات الجورتشن لتحفيز التجارة وتيسير اندماج الجورتشن مع الهان، في حين اعتقدت حكومة "مينج" أن الوضع تحت السيطرة، فإن قوة جورتشن جيانجتشو كانت في الواقع في توسع، وخلال عهد الإمبراطور "ينجزونج"، استولى حرس يسار "جيانتشو" تدريجيًا على قوات الحرس الثلاثة، ليصبح قائدًا بقوة الأمر الواقع، وكسر توازن القوة بين المجموعات الثلاث وهذا شكل تهديدًا لحكومة "مينج"، وفي عام 1467م، استجاب جيش "مينج" من خلال اصطياد وقتل "دونج شان"، زعيم الحرس الأيسر، وإرسال قوات لتطويق حرس "جيانتشو" الثلاثة، وتم تدمير أكثر من 400 قرية محصنة لجورتشن جيانتشو، وقتل أكثر من ألف شخص، ومرة أخرى

انقسمت قبائل الجورتشن، وكافح كل من أجل البقاء وحده.

ومع ذلك، لم تفقد جورتشن جيانتشو طموحها، فبعد فترة طويلة من استعادة قواها، نهض حرس "جيانتشو" والحرس الأيمن مرة أخرى وغزوا "ليودونج" عدة مرات، وكان قائد الحرس الأيمن، "وانج جاو"، شجاعًا بشكل خاص، وأسر وقتل العديد من جنرالات "مينج"، وفي عام 1570م، عينت حكومة "مينج" الجنرال الشهير "لي تشينج ليانج" كقائد "لياودونج" الإقليمي، وفي 1574م، بقيادته قوة قوامها 60.000 جندي، قضى على قوات "وانغ غاو"، وتم القبض على "وانج" نفسه وأُعدم بقسوة، في حين أُسِر حفيده "نورهاتشي"، وأصبح جنديًا تحت قيادة "لي".

"نورهاتشي": مقاطعة "خان" من السماء

وُلد "إيسين جيورو هالا إي نورهاتشي" في عام 1559م في "هيتوالا" -محافظة "شينبين" اليوم- في مدينة "فوشون" بمقاطعة "لياونينج" (انظر الشكل 26)، في حين كان "وانج جاو" جده لأمه، كان "نورهاتشي" أيضًا من نسل "مونجكي تيمور"، القائد الأعلى لحرس اليسار في "جيانتشو"، حيث كان جده لأبيه، "جيوتشانجا"، ووالده "تاكسي"، قائدين عسكريين أيضًا، فقد أمه في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان يعامل معاملة سيئة من زوجة أبيه، وفي سن الخامسة عشرة، أصبح هو وشقيقه الأصغر "سورهاتشي" خدمًا في منزل "وانج جاو".



الشكل (26): بورتريه لـ"نور ها تشي".

بعد أن أسره "لي تشينجليانج"، تعلم "نورهاتشي" الانضباط العسكري، واستراتيجية الحرب، وثقافة هان، لكنه بقي الجورتشن الذي لم ينس أبدًا إعدام "وانج جاو"، أو الحرق والنهب الذي قام به جيش "مينج"، وفي الوقت المناسب، هرب من جيش "لي" وعاد إلى المنزل، وبعد وفاة "وانج جاو"، انخرطت قبائل جورتشين جيانتشو في صراع داخلي استفادت منه أسرة "مينج"، وفي عام 1583م، قاد الزعيم "نيكان وايلان" جيش "مينج" لمهاجمة "فورت جور" - قرية "جولو" اليوم في محافظة "شينبينج"-، حيث كان ابن

"وانج جاو" "أتاي" متحصنًا، حاول والد "نورهاتشي" وجده لأبيه إقناع "أتاي" بالاستسلام، ولكن قوات "مينج" قتلتهم، تمكن "نورهاتشي" وشقيقه الأصغر "سورهاتشي" من الفرار، لكن جيش "مينج" استولى على المدينة وذبح أكثر من 2000 شخص.

بعد عودته إلى "جيانتشو"، أرسل "نورهاتشي" رسالة إلى بلاط "مينج"، يسأل لماذا قتلوا جده وأباه، فأرسلت "مينج" رفاتهما إليه، وكذلك ثلاثين رسالة إمبراطورية، وثلاثين حصانًا، ولقبوه بالجنرال "لونجهو" (نمر التنين) وأيضًا ابن "دودو"، والذي سمح له برئاسة قيادة الجيش، مع ثلاثة عشر درعًا ورثها عن والده وجده، وربما استخدمت كرموز لتأسيس سلطته، وبدأ في رسم انتقامه، ولأنه يدرك أنه لم يكن قويًا بما يكفي لهزيمة حكومة "مينج"، قرر أن مهمته الأولى ستكون توحيد قبائل الجورتشين، وبصبر، على مدى العقد التالي، طبق استراتيجيته للحفاظ على علاقات جيدة مع حكومة "مينج" والمغول، وقهر أضعف وأقرب القبائل أولًا.

جعل صعود "نورهاتشي" موقف "جورتشين هايشي" غير مستقر، وللحد من توسعه، تحالفت تسع قبائل بما في ذلك "ييهي" و"هادا" و"أولا" لشن هجوم عليه، ونشروا 30.000 جندي في ثلاثة طرق، غير أن "نورهاتشي" نجح في جذب جيش الحلفاء إلى جبل "جور"، وهناك هزمهم، وكانت هذه معركة جبل "جور" الشهيرة، التي أعطت "نورهاتشي" أملًا حقيقيًا في النجاح، استغرق الأمر عشرين سنة أخرى لتوحيد هايشي والجورتشن البريين ولكنه نجح في النهاية، وفي عملية تأسيس نظام الرايات الثماني، وكان لهذا النظام أصوله في نظام صيد الجورتشن المعروف باسم "نيرو"، فعندما يذهب الجورتشن للصيد يأخذ كل شخص سهمًا واحدًا، وكان هناك قائد لكل عشرة أشخاص يُعرف باسم "نيروييجين"، ولم يكن هؤلاء القادة ثابتين بل يتم اختيارهم فقط لفترة الرحلة الاستكشافية الواحدة، وبحلول عام 1601م، تم تقسيم الجورتشن إلى أربع رايات مختلفة الألوان: الأصفر والأبيض والأحمر والأزرق، وكان في كل

"نيرو" 300 رجل، وخمسة "نيرو" في كل "جالان"، وخمسة "جالان" في كل "جوسا"، والتي كانت راية واحدة مهيمنة على الكل، ومع نمو أعداد الجورتشن، أضيفت أربع رايات جديدة: الحدود الصفراء والحدود البيضاء والحدود الحمراء والحدود الزرقاء، في حين تم تسمية الأربع الأصلية بالسهول الصفراء والسهول البيضاء والسهول الحمراء والسهول الزرقاء، ولم تكن هذه الرايات الثماني قوة قتالية موحدة فحسب وإنما كان لها أيضًا وظائف إدارية وعسكرية وغيرها، كان "نورهاتشي" هو قائد جميع الرايات الثماني وأيضًا القائد المباشر للرايتين الصفراوين، بينما كان أبناؤه وأبناء أخوته وأحفاده يقودون الست الآخرين.

في عام 1603م، بدأ "نورهاتشي" ببناء قلعة في "هيتوالا"؛ وفي 1616م، أعلن نفسه خانًا هناك وأنشأ "تيانمينج" (مقاطعة السماء) كاسم للعصر الجديد؛ لذلك تم الاعتراف به كخان "تيانمينج" (حاكم مقاطعة السماء)، كما قام بتغيير اسم "هيتوالا" إلى "شينججينج"، واستمرت الأسرة تعرف باسم "جين" وهي ما يشير إليها المؤرخون عادة بـ"جين" المتأخرة، وقد قام "نورهاتشي" بتوحيد معظم قبائل الجورتشن، ولكن في عام 1618م، اعتقادًا منه بأن حكومة "مينج" كانت تقف إلى جانب قبيلة "يي"، فأصدر "التظلمات السبعة" وحشد قواته للثورة ضد "مينغ"، وهو ما كان في الواقع ذريعة للذهاب جنوبًا لنهب مناطق "هان"، وعكس استياء الأقليات الشديد في الشمال الشرقي من سياسات "مينج" القمعية، وفي الشهر الرابع من عام 1618م، قاد "نورهاتشي" 20 ألف جندي مباشرة إلى "فوشون"، استسلم قائد "مينج"، "لي يونج فانج"، وأبيد 10000 جندي أرسلوا كتعزيزات للقائد الإقليمي "تشانج شينجين"، وفي الشهر السابع، استولى "نورهاتشي" على "تشينجي" ومدينتين أخريين كانتا مثل "فوشون" بوابات استراتيجية في "لياودونج"، كما فاز بمجموعة من الانتصارات التي صدمت كل من ببلاط "مينج" حتى الإمبراطور "وانلي" المهمل.

في عام 1619م، قررت حكومة "مينج" شن هجوم وقائي واسع النطاق على

"جين" المتأخرة، وجُمع مليونا تايل وجُندت أعداد كبيرة من القوات ربما تصل إلى 470.000 جندي، وقام "يانج جاو" نائب وزير الحرب، بوضع خطة "لياودونج" وتولى القيادة الشخصية لـ"شنيانج"، قُسمت القوات إلى أربعة جيوش وسارت مباشرة إلى "هيتوالا" في محاولة للقضاء على "جين" المتأخرة.

أعطى "لي يونج فانج" الجنرال المستسلم من "فوشون" بعض النصائح الجيدة لـ"نورهاتشي" وهي: التمسك بنقطة واحدة للهجوم المضاد، ولكن العديد من نقاط الهجوم كانت من صنع "مينج"، وبناء على ذلك، أرسل "نورهاتشي" 60.000 من نخبة جنوده للقتال على الطريق الغربي مرسلًا 500 فقط إلى الشرق، وخاض الجانبان معركة حاسمة في "سارو" الواقعة إلى الشرق من "فوشون"، هُزمت قوات "مينج" على ثلاث جبهات، وأجبرت على التراجع عن أخرى؛ انتهت المعركة التي استمرت أربعة أيام بانتصار ساحق لـ "جين" المتأخرة، واعتبرت معركة سارو كحدث رئيس، مما يدل على نقطة تحول في العلاقات بين "مينج" و"جين" المتأخرة، دمرت دفاعات "مينج" الحدودية في "لياودونج" بشكل دائم، في حين نمت قوة "جين" المتأخرة وكذلك طموحها السياسي، فضم "نورهاتشي" كلًّا من "كايوان" و"تيلينج"، وضم قبيلة "ييهي"، وبالتالي نجح في توحيد جميع قبائل الجورتشن، كما استخدم ختم "تيانمينج جين" - ختم الإمبراطور - ليحل محل ختم الحرس اليساري "جيانتشو"، مما يرسخ وضعه الجديد.

في قلب كل هذا كمن فساد بلاط "مينج"، وبذخ الإمبراطور "وانلي"، كان المسؤولون على جميع المستويات فاسدين، في حين عاش الناس العاديون في بؤس شديد، وجعل الانضباط البطيء والتمرد المستمر إلى جانب النزاع الداخلي بين القادة والجنرالات من المستحيل على الجيش توفير الحماية ضد الأعداء الأقوياء، ومن أجل عكس الوضع، عين بلاط "مينج" "شيونج تينجبي" كقائد لـ"لياودونج"، فضل "شيونج" الدفاع الراسخ عن الدخول في حروب بلا هدف، وفرض النظام العسكري، وأعدم المنشقين، وأمر بزيادة المركبات

المصنعة والأسلحة النارية، وحصن القلاع، وهكذا أوقف هجوم "جين" المتأخرة بشكل مؤقت، ولكن بعد عام واحد فقط، كان كل من الإمبراطور "وانلي" والإمبراطور "تايتشانج" قد ماتا، وقد اعتلى الإمبراطور "تيانتشي" العرش، طُرد "شيونج تينجبي" وخلفه "يوان ينجتاي" الذي تسبب في الفوضى.

ومرة أخرى، انتهز "نورهاتشي" الفرصة، وفي 1621م، أرسل جميع قواته وانتشر في ثمانية صفوف مستوليًا على قلعة "فنججي" و"شنيانج" و"لياويانج" و"جوانج نينج"، وبعد أن خرق دفاع جيش "مينج" عند نهر "لياو"، أوقف هجومه وبدأ إدارة المناطق المحتلة، وقمع مقاومة "هان"، وحفر القنوات، وبدأ تطوير الإنتاج، وفي 1625م، نقل العاصمة إلى "شنيانج" لتعزيز حكمه في "لياونينج" ووضع الأسس لهجوم واسع النطاق على "مينج". خلال هذه الفترة، ظلت "مينج" و"جين" المتأخرة في طريق مسدود عسكريًّا.

بعد سقوط "جوانج نينج"، عين بلاط "مينج" "وانج زايجين" قائدًا لـ"لياودونج"، اعتقد "وانج" الذي يتسم بالخجل والبلادة، أنه ينبغي عليهم الانسحاب من ممر "شانهاي"، وهو خطة عارضها السكرتير الأعلى "صن تشينغ تسونج"، وفي عام 1623م، طرد بلاط "مينج" "وانج" وعين "صن" كقائد بدلًا منه، بنى "صن تشينج تسونج" خطًّا دفاعيًّا قويًّا حول "جينتشو" و"نينجيوان" و"سونجشان" و"شينجشان" ونهر "شياولينج" ونهر "دالينج" و"نينجيوان" في المركز، جعل هذا الخط ممر "شانهاي" منيعًا، واستقر الوضع العسكري في "لياودونج".

وعلى الرغم من براعته الواضحة، فقد تم إقصاء "صن تشينج تسونج" على يد الخصي "وي تشونج شيان" في عام 1625م، وأصبح "غاو دي" قائدًا لـ"لياودونج" وانسحب من ممر "شانهاي"، وعكس كل ما كان "صن تشينج زونج" قد فعله، وتُرك الجنرال "يوان تشونجهوان" فقط ليدافع عن موقعه في مدينة "نينجيوان" المعزولة، واستغل "نورهاتشي" هذا الموقف وسار بقواته غربًا؛ ففي عام 1626م، قاد 130.000 جندي عبر نهر "لياو" وطوق "نينجيوان"، لم تكن للمدينة أي تعزيزات، لكن "يوان تشونجهوان" كان قائدًا ملهمًا تعهد 20 ألف

رجل بالدفاع عنه بحياتهم، وأجبر جيش جين على مغادرة "نينجيوان" بعد ثلاثة أيام إثر تعرضه لخسائر فادحة جراء هجمات مدفعية "مينج"، كانت هذه أول هزيمة تعرض لها "نورهاتشي" خلال مسيرته العسكرية التي استمرت لثلاثين عامًا، وأول فوز لبلاط "مينج" في قتالهم ضد "جين" المتأخرة، ولم يستطع "نورهاتشي" الذي كان في أواخر الستينيات تحملها؛ فمات متأثرًا بجروحه وقرحة في معدته في الشهر الثامن من ذلك العام، وأدى انتصار "نينغيوان" وموت "نورهاتشي" مؤقتًا إلى تهدئة الوضع الذي واجهته أسرة "مينج"، لكن فترة الراحة كانت قصيرة جدًّا.

"هونج تايجي" يؤسس إمبراطورية تشينج

كان "هونج تايجي" الابن الثامن لـ "نورهاتشي"، وعندما كان في سن السابعة اعتبر معجزة، وتبع والده وإخوته الأكبر في القتال وارتفع تدريجيًّا إلى مكانة بارزة، كان جريئًا وشجاعًا وماهرًا في استخدام القوس، وسرعان ما كسب ثقة "نورهاتشي"، وعندما تم تأسيس "جين" المتأخرة، صنف أحد الأبناء الأربعة الكبار (نبلاء مانشو) وتناوبوا على إدارة الشؤون المهمة للدولة، كان "نورهاتشي" يفكر في أن يكون ابنه الثاني "دايسان" خليفته على العرش، لكن "دايسان" اتهم بإقامة علاقة غرامية مع زوجة أبيه الثانية، السيدة "فوكا"، وعلى الرغم من عدم وجود أدلة قاطعة، شعر "نورهاتشي" بالغضب، وأصيبت سمعة "دايسان" بأضرار بالغة، وفي نهاية المطاف، لم يتم تعيين أي وريث؛ لذلك بعد وفاة "نورهاتشي"، نشأ صراع على السلطة، وكان "نورهاتشي" قد عين "دايسان" وأمين و"مانجولتاي" و"هونج تايجي" كقادة على أبرز أربع رايات من الرايات الثماني؛ وتولى الرايات الأربع الصغار "آجيجي" و"دورجون" و"دودو" و"جيرجالانج"، أما أولئك الذين تنافسوا بشدة على العرش هم "دايسان" و"هونج تايجي" و"آجيجي"، وقد فقد "دايسان" رتبة ولي العهد، ولكن بعد أن قاتل لسنوات عديدة وميز نفسه في ساحة المعركة، كان لا يزال رأسًا للأربعة الكبار.

كان "هونج تايجي" شجاعًا وحيويًا، ومساويًا لـ "دايسان" من حيث خدمته العسكرية البارزة؛ وحاز كلاهما ثقة "نورهاتشي". كان "آجيجي" ابن "نورهاتشي" الثاني عشر - شجاعًا ومحبًا للقتال، وكان "دورجون" و"دودو" أشقاءه الأصغر سنًا، وكان الثلاثة معًا قادة لرايتين، وكانت والدتهما السيدة "آباهاي" قرينة "نورهاتشي" الأساسية، وكانت ضليعة في شؤون الدولة، والآن، ادعى "هونج تايجي" وغيره زورًا أن الإمبراطور المحتضر أصدر مرسومًا يأمر "آباهاي" بالانتحار، وبالتالي حرمان "آجيجي" من راعٍ قوي، وهنا وجد الإخوة الثلاثة، وجميعهم شباب عديمو الخبرة أنفسهم عاجزين عن التنافس على العرش، بدا "دايسان" الآن المرشح الأكثر ترجيحًا، ولكن بعد دراسة متأنية، قرر أنه ليس لديه القدرة على تحمل العبء الثقيل المتمثل في النجاح كخان، بدلًا من ذلك، صوت لصالح "هونج تايجي"؛ لذا، في اليوم الأول من الشهر التاسع من عام 1626م، اعتلى "هونج تايجي" العرش رسميًا وحدد بداية العام التالي بداية عهد "تيانكونج"، وكان هو نفسه يعرف أيضًا باسم "تيانكونج خان".

كان في "جين" المتأخرة أرستقراطية راسخة تملك العبيد ولكنهم اتبعوا شكلًا من أشكال الديمقراطية العسكرية، حيث تحددت الحكومة الوطنية بشكل أساسي من أربعة من كبار الأبناء، ومن أجل إضعافهم، أنشأ "هونج تايجي" مجموعة من ثمانية وزراء رفيعي المستوى تم اختيارهم بعناية و16 من الوزراء الأقل رتبة لتولي الإدارة اليومية، واستخدموا أعذارًا مختلفة لتحديد إقامة أو إعفاء أو معاقبة كبار السن، ثم صاغ إدارته على غرار نظام "مينج"، وأصلح مؤسسات "جين" السياسية، فعلى سبيل المثال، أنشأ أكاديمية لترجمة كتب "هان" إلى لغة المانشو وتجميع قائمة بنجاحات وإخفاقات الأسرة الحالية، وتعمل بشكل فعال كمجلس استشاري، وفي وقت لاحق، قام بتغيير هذه الأكاديمية إلى ثلاثة أقسام داخلية للبلاط: الأقسام الوطنية، والإدارات الدينية، والأكاديمية، وكان كل منهم يتكون من كبار الأمناء والأمناء الذين يضطلعون بأدوار استشارية في صنع السياسات الوطنية، كما أنشأ "هونج تايجي" ست وزارات تخضع لسيطرته المباشرة، وأنشأ سلطات منفصلة للتفتيش على

الأنشطة الحكومية وتكون مسؤولة عن الشؤون المغولية، وقد أشير إليهم بشكل جماعي باسم الإدارات الثلاث والوزارات الثماني.

للحفاظ على الاستقرار في المناطق المحتلة حديثًا، ألغى "هونغ تايجي" أيضًا السياسات العرقية القمعية التي كانت سمة من سمات عصر أبيه الراحل، ومنح العفو لشعب "هان" الذي أجبر على الفرار، وحظر اضطهاد الجورتشن لشعب هان، وكانت إحدى خطواته الرئيسة فصل سكان "هان"، وتعيين مسؤولي "هان" لإدارة شؤونهم، كما أولى اهتمامًا للتنمية الاقتصادية وبناء الجيش، واتبع نظام الرايات الثماني في جيوش المغول و"هان"، وصنع مدافع بعيدة المدى، وأطلق حملتين إلى كوريا وقطع روابطه مع أسرة "مينج"، وباتباع نهج الجزرة والعصا، أخضع أيضًا القبائل المغولية، وبالنسبة لأسرة "مينج"، فإن "هونج تايجي" قد زرع الفتنة لتحقيق إعدام جنرال "مينج" العام "تشونج هوان" على يد الإمبراطور "تشونجتشن" المرتاب دومًا.

وبعد هذه الفترة من الدمج الناجح، أصبح "هونج تايجي" غير راضٍ إلى حد كبير عن السيادة على جزء من البلاد فقط، وفي عام 1636م، أسس نظام "تشينج" الكبير وأعلن نفسه إمبراطورًا، وتسمية عهده "تشونجدي"، وأعيدت تسمية الجورتشن إلى المانشو، وأصبح "هونج تايجي" أكثر احترامًا للإمبراطور "تايزونج" أول إمبراطور في عهد أسرة "تشينج"، وكان اختيار اسم "تشينج" بدلًا من "جين" ذا دوافع عميقة، فعندما قام "نورهاتشي" بتسمية أسرته، كان قصده هو غزو أسرة "مينج" وفي الوقت نفسه توحيد فصائل الجورتشن المتفرقة، لكن "هونج تايجي" شعر أنه من الضروري التخلي عن هذه العلاقة بالماضي، بسبب استياء شعب "هان" من الحروب العديدة الظالمة التي شنت ضدهم، وعندئذ فقط سيحقق هدفه في أن يصبح إمبراطورًا للـ"هان" الصينيين، وهكذا، في حين كان النظام السياسي في حقبة ما بعد "جين" يهيمن عليه المانشو، فقد شمل أيضًا الهان والمغوليين وغيرهم من سكان الشمال الشرقي.

في نفس الوقت الذي أسّس فيه "هونج تايجي" أسرة "تشينج"، قام بأربع محاولات لغزو أسرة "مينج" عبر منغوليا، وأبعد ما وصل إليه هو "شاندونج"، وضرب "مينج" ضربة كبيرة، بعد ذلك، وجه هجماته الرئيسة على المنطقة الواقعة شمال ممر "شانهاي" في محاولة لتدمير الدفاعات المحصنة لـ"مينج"، وفي عام 1640م، اندلعت حرب كبيرة عندما هاجم "هونج تايجي" مدينة "جينتشو"، مما أدى إلى معركة "سونججين" الضخمة، كانت "جينتشو" معقلًا عسكريًّا كبيرًا لـ"مينج" في الشمال الشرقي من ممر "شانهاي"، وأصبح موقعها الاستراتيجي أكثر أهمية بعد احتلال "جين" لمناطق مهمة من "لياونينج"، وبعد انتصار "يوان تشونجهوان" على "نينجيوان"، نشرت "مينج" المزيد من القوات على طول خط "نينجيوان" - "جينتشو"، مما خلق حالة من الجمود مع "تشينج" دامت لأكثر من عشر سنوات، وأغلقت سلسلة من المدن العسكرية الاستراتيجية الطريق باتجاه الجنوب من ممر "شانهاي" إلى الداخل، وكان أولها "جينتشو"، وهكذا، لمهاجمة بكين كان على قوات "تشينج" أن تستولي على هذه الحصون.

وبالاعتماد على دروس من الهزائم السابقة، قام "هونج تايجي" بالاستعدادات لحصار طويل، محيطًا "جينتشو" بجنود "تشينج" بإحكام، وأرسلت "جينتشو" طلبًا للمساعدة من بلاط "مينج"؛ لذلك أرسل الإمبراطور "تشونجتشن" "هونج تشينجتشو"، وهو جنرال ذو خبرة عسكرية واسعة، ليقود محاولة إنقاذ مع 130 ألف رجل، تمرس "هونج تشجتشو" في "لياودونج" واكتسب ببطء ميزة في ساحة المعركة، ووصلت طليعة قواته إلى بلدة أخرى من البلدات العسكرية وهي "سونجشان"، مما ألحق أضرارًا كبيرة بقوات "تشينج" وخفف الأزمة بشكل مؤقت.

ومع ذلك، أراد كل من وزير الحرب "تشن شينجيا" والإمبراطور "تشونجتشن" نتائج سريعة، فأمر هذا الأخير "هونج تشينجتشو" سرًّا بالاشتباك في معركة حاسمة، محبطًا قام "هونج تشينجتشو" بتخزين إمدادات الجيش على جبل

"بيجيا"، وهي جزيرة قبالة الساحل بين "شينجشان" و"تاشان"، ثم قاد جيشه إلى "سونجشان"، استغل "هونج تايجي" فرصته وقاد نخبة قواته في هجوم خلفي، مما أدى إلى قطع إمدادات "مينج"، وبعد أن شعر "هونج تشينجتشو" أن معنويات رجاله بدأت تتأرجح، أمر بالانسحاب السريع، وعلى الفور فقد السيطرة على قواته، ففر ضباطه ونصبت قوات "تشينج" لهم كمينًا أعقبته هزيمة ساحقة، وقتل عشرات الآلاف من جنود "مينج"، وتراجع "هونج تشينجتشو" بعد ستة أشهر من المقاومة اليائسة، استولى على "سونجشان" وتم القبض على "هونج تشينجتشو" وكانت معركة "سونجشان" في نهايتها.

بعد سقوط "سونجشان"، فقدت قوات "مينج" المتمركزة في "جينتشو" الإرادة للقتال، واستسلمت، سقطت جميع معاقل الجبهة الأمامية العسكرية، بما في ذلك "تاشان" و"شينجشان" إلى الشمال من ممر "شانهاي" في أيدي "تشينج"، بعد ذلك، واصل "هونج تايجي" خطته الأصلية لمداهمة مناطق "مينج" الحدودية، وحاول تشكيل تحالف مع قوات المتمردين الفلاحين ضد أسرة "مينج"، كما حاول كسب "وو سانجوي"، قائد حامية ممر "شانهاي" التابع لـ"مينج"، ورحب بالمجموعات العرقية في التبت، وبعد أن استنفدت طاقته توفي "هونج تايجي" في 1643م، تاركًا حلمه في السيطرة على السهول الوسطى لخلفه، الإمبراطور "شونتشي".

الفصل السابع عشر

"تشينج": الخضوع النهائي للإقطاع

(1644 – 1911م)

المقدمة

مع انهيار أسرة "مينج" واحتلال عاصمتها السابقة على يد جيوش المانشو في عام 1644م، دخلت الصين عهدًا آخر في الحقبة الإمبراطورية وهي أسرة "تشينج"، ومن سخرية القدر أن الأسرة الأخيرة من الإمبراطورية الصينية لم يكن يتحكم بها عرق الهان الصيني وإنما المانشو، وكان الهان ينظرون إليهم على أنهم شعب غريب وغير مثقف، ولم يختف الاستياء من احتلالهم للصين، فقد أعيد تأجيجه في أواخر القرن التاسع عشر وكان أساس التغيرات الثورية في نظام الحكم والمجتمع الصيني في القرن العشرين.

إن العدد القليل نسبيًا من القادة العسكريين والأرستقراطيين ضمن المانشو لم يكن باستطاعتهم أن يحكموا الصين بأنفسهم وكانوا يعتمدون على مجموعة من البيروقراطيين الذين كانوا من أصل صيني والذين كانوا مستعدين لخدمتهم، وقد وصف نظام الحكم الذي تطور بأنه نظام مانشو - صيني، تمت الكثير من أعمال الإدارة باللغة الصينية، كما هو موضح في الوثائق الهائلة التي أنتجها مسؤولوها، مما أدى إلى الادعاء بأن الحضارة المتفوقة للصينيين قد "سحقت" المانشو، ومع ذلك، هيمن المانشو على البيروقراطية والحكومة وخلقوا محفوظات موازية من سجلات الأحداث، فكانت المذكرات المرفوعة للإمبراطور والقرارات بلغة المانشو، التي تم الاعتراف بأهميتها في نهاية المطاف في أواخر القرن العشرين.

بعد التوطيد المبكر للسلطة وتحول المانشو الرحل إلى نخبة مستقرة، استقر

التحالف المضطرب، وخلال عهد إمبراطورين كبيرين، "كانجشي" و"تشيانلونج"، توسعت الإمبراطورية إلى الشمال والغرب ورافق التطورات الاقتصادية المهمة نمو هائل في عدد سكان الإمبراطورية، كما شهدت هذه العهود ازدهار الثقافة الصينية، وليس ثقافة المانشو، في البلاط الإمبراطوري والنخبة الحاكمة، على الرغم من أن هذا كان مقيدًا بنظام رقابة صارم بلغ ذروته في "عمليات البحث الأدبيـة" فـي فتـرة "تشيانلونج" التـي تـم حظـر الكتـب فيـها، ودمـر العلماء المعارضين أو المنفيين، وانتهى عهد الازدهار والثقافة الرفيعة في أواخر القرن الثامن عشر، ودخلت الأسرة فترة تراجع لم تسترد عافيتها منها بالكامل، وكانت الأسباب الرئيسة لهذا التراجع هي تكاليف التوسع العسكري الطموح والدفاع، والفساد داخل البلاط والخدمة المدنية؛ والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية على الصعيد الوطني التي أدت إلى تمرد الفلاحين والأقليات.

انشـغل البـلاط بتـايوان والعلاقـات مع الإمبراطوريـة المتوسـعة فـي روسـيا القيصرية لمعظم فترة الأسرة، كانت تايوان مستعمرة جزئيًا على يد الهولنديين وكـانـت أيـضًا المـلاذ الأخـير لمؤيـدي أسـرة "مـينج"، كـان وضـع تـايوان تحـت السيطرة أولويـة قصوى بالنسبة لحكومة "تشينج" خلال القرن السابع عشر وخاصة القرن الثامن عشر، خلقت الهجرة من "فوجيان" ومقاطعات أخرى من البر الصيني إلى تايوان مجتمعًا من الهان الصينيين شرد السكان الأصليين في أجزاء كثيرة من الجزيرة، وأصبحت محافظة تابعة لـ"تشينج" في عام 1887م ولكن احتلها اليابانيون في عام 1895م، ويمكن إرجاع المشاكل الحالية في العلاقات بين تايوان والبر الرئيس إلى هذا التاريخ غير العادي.

توحيد إمبراطورية "تشينج"

المقاومة ضد "تشينج"

في الشهر الرابع من عام 1645م، حاصرت قوات "تشينج" بقيادة "دودو"، وهو أحد أصغر أبناء "نورهاتشي" مدينة "يانجتشو"، وحمى القائد العسكري لـ"مينج"

"شي كيفا" المدينة وكبد جيش "تشينج" خسائر فادحة؛ لكن بعد ستة أيام، تمكنوا من اقتحام المدينة وإلقاء القبض على "شي كيفا" وإعدامه، وبسبب غضبهم من رفض المدينة الاستسلام، أمر "دودو" بذبح سكانها، كان عملًا من أعمال الوحشية التي لم يسبق لها مثيل، وبصرف النظر عن عدد قليل من الناس الذين تمكنوا من الفرار، وعدد قليل آخر تمكن من الاختباء، قتل ما يقرب من جميع سكان "يانجتشو" وتركت جثثهم في جميع أنحاء المدينة، وكتب "وانج شيوتشو" وهو أحد الناجين، رواية باسم "مذبحة يانجتشو العشرية"، وهي رواية حية لشاهد عيان على الإرهاب الذي استمر عشرة أيام، والذي أوضح عدد الوفيات بأكثر من 800 ألف شخص.

من خلال هذه الفظاعة، حاول حكام المانشو أن يجبروا شعب "هان" في جنوب الصين على الخضوع، ولكن ذلك كان عديم الجدوى، فبعد دفن جثث أصدقائهم وأقاربهم، واصل القلة الذين تبقوا قتالهم، وبمجرد أن استولى جيش "تشينج" على "نانجينج" و"سوتشو" و"هانجتشو"، فرض المانشو سلسلة من السياسات القمعية، واضطروا شعب "هان" إلى حلق شعرهم وتبني تسريحات شعر المانشو وقد قوبل الرفض بقطع الرأس، كما كان لا بدَّ من ارتداء ملابس على طراز مانشو، تم الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي في جميع أنحاء البلاد وأجبر الناس على العبودية، فرَّ العديد منهم ببساطة، لكن حكام المانشو وضعوا بعد ذلك قانونًا يعاقب بشدة العبيد الهاربين، وأولئك الذين يؤوونهم، كان ترتيب حلق الرؤوس هو الأصعب في القبول بالنسبة إلى الهان؛ لأنه كان انتهاكًا عميقًا للتقاليد، وأكثر من ذلك فكان علامة على الإذلال، وقد قاومه الجميع من المثقفين التقليديين إلى المستويات الدنيا من المجتمع، فكانت هناك مقاومة في كل مكان، وفي مدينة "جيادينج"، كانت المعارضة الشعبية للحلاقة الأشد قوة، ولجأ بلاط "تشينج" مرة أخرى إلى الذبح، وتم محو أولئك الذين كانوا ضد السياسة بالكامل، وعلقت لافتة على جبل من العظام مما يدل على أن الأمر قد تم تنفيذه.

استمر القتال ضد "تشينج"، وكانت المقاومة ضدهم تنتقل إلى الشمال والجنوب من نهر اليانجتسي، وأدت إلى تشكل "جيوش كويدونغ الثلاثة عشر" وكانت هذه الحركة موجودة في "سيتشوان"، و"هوبي"، و"شانشي"، ومقاطعات "هنان" ويشير اسم "كويدونج" إلى منطقة في "سيتشوان" الشرقية وغرب "هوبي"، على طول الخوانق الثلاثة على نهر اليانجتسي، وقد تطورت جيوش كويدونغ الثلاثة عشر من جيش للفلاحين المتمردين في نهاية أسرة "مينج"، بعد وفاة "لي زيتشينج"، وقادة جيوشه المتبقين، بما في ذلك "ليو تيتشون" و"هاو يونج تشونج"، و"لي لايهانج"، وقد وصلت في نهاية المطاف إلى منطقة "سيتشوان" - "هوبي"، كان "ليو تيتشون" الأكثر احترامًا، وانتخب زعيمًا من قبل جميع جيوش الفلاحين، وانضم إليهم أيضًا "وانج جوانجشينج"، من جنوب "مينج"، وأصبح جبل "ماولو" في إقليم "شينجشان" بمقاطعة "هوبي" مركزهم، ولمواصلة القتال على المدى الطويل ضد قوات "تشينج"، جند جيش المتمردين اللاجئين لبناء الحاميات وزراعة الأراضي؛ خُفضت أيضًا الضرائب وأُلغيت قوانين الملح الفاسدة، ونتيجة لذلك، عاش الناس وعملوا في سلام لأكثر من عقد من الزمان.

في هذه المنطقة كانت هناك جبال عالية ووديان عميقة تمكن جيش المتمردين من استخدامها بشكل جيد، فسارت جيوش كويدونغ الثلاثة عشر شمالًا من "شانجلو" و"هانتشونج" وهاجمت "شانشي"، ثم ساروا غربًا من "دانجيانج" إلى "هنان" لمهاجمة مقاطعات "نيشيانج" و"شيتشوان"، قام قائد الفلاحين البارز "لي لايهنج" بالتنكر هو وقواته كتجار، وتسللوا إلى موقع قوات "تشينج" وهزموهم، وقطعوا طريقهم جنوبًا إلى "هونان"، وفي عام 1663م، في السنة الثانية من حكمه، أرسل الإمبراطور "كانجشي" عددًا من الجنرالات لشن هجوم مشترك على جيوش كويدونج الثلاثة عشر، ولكن بعد أكثر من عام من القتال العنيف، لم يحقق جيش "تشينج" أي تقدم.

ومع ذلك، انقسم جيش المقاومة من الداخل، فاستسلم "وانج جوانجشينج"

إلى "تشينج"، وتمكن جيش "تشينج" من دخول "سيتشوان" الشرقية وإنقاذ "بينج دونجان" الذي كان من عشيرة "مينج" الملكية، وتم اعتقال "هاو يونج تشونج" على يد جيش "ج" وقتل لأنه لم يستسلم، وخاض "ليو تيتشون" معركة مريرة، لكنه انتحر، وفي النهاية، بقي الوحيد المتبقي هو "لي لايهينج" الأسطوري، الذي تحصن في "جيولاينبينج" في جبل "ماولو" وقاتل بضراوة، استخدمت "تشينج" جواسيس داخل جيش المتمردين لتسلق الجزء الخلفي من الجبل والهجوم من الأعلى، فأضرم "لي لايهينج" النار في نفسه، وهزم جيوش كويدونج الثلاثة عشر التي استمرت لمدة 21 عامًا، على يد جيش "تشينج".

وفي الوقت نفسه، كانت هناك مقاومة قوية من شعب "هوي" في شمال غرب البلاد، ففي أوائل عام 1648م، السنة الخامسة من حكم "شونتشي"، قاد جنرالات "هوي" "ماي لايين" و"دينج جودونج" الناس في "جانسو" في تمرد ضد فظائع وقمع المانشو، ولزيادة مصداقيتهم، اختاروا عضوًا في العائلة المالكة "مينج"، وهو "تشو شيبين" قائدًا لهم، وعلى الرغم من أن "تشو" اعتقل وأعدم على يد جيش "تشينج" بعد ذلك بوقت قصير، فإن هذا دل على أن الهدف من الانتفاضة هو استعادة "مينج"، وشارك العديد من "الهان" إلى جانب "هوي"، فاستولوا على "تشانجيي" و"ووي" و"جيوتشوان"، وأماكن أخرى في "قانسو" واكتسبوا زخمًا، فاختبأ واحد من مسؤولي "غانسو" المعينين على يد حكومة "تشينج"، "فان تشي" في الجبال، واختفى آخرون، وانهار حكم المانشو في مقاطعة "قانسو" واستغلالًا لانتصارهم، سار جيش المتمردين جنوبًا إلى "تشينجهاي"، وفي الشهر الرابع من عام 1648م، عندما تلقى حكام المانشو تقارير عن الانتفاضة، أرسلوا "تونجي"، أحد اللوردات، لإخماد لهيب التمرد، وفي غضون وقت قصير، سقطت "تاوتشو" و"لانتشو" في يد جيش "تشينج"، وقتل "ماي لايين"، وواصلت قوات المتمردين المتبقية القتال، ولكنها هُزمت في أوائل عام 1649م، وقد تم أسر معظم القادة وقتلوا.

على الرغم من أن هذه الثورات كانت غير ناجحة في نهاية المطاف، إلا أن هذه المقاومة العنيدة جعلت حكام "تشينج" يدركون أن المذابح لن تجعل الناس يخضعون لحكمهم؛ لذا فقد خففوا سياساتهم تدريجيًّا، ومع ذلك، فإن عشيرة "تشينج" في جزيرة تايوان كانت مشكلة؛ لذلك قاموا بإدخال سياسة مغلقة لعزل الناس في البر الرئيس عن عائلة "تشينج"، ومنع شعب هان من التواطؤ مع الأجانب، وفي 1656م، أصدر الإمبراطور "شونتشي" حظرًا بحريًّا كان سببه الظاهري كبح القرصنة، وفي عام 1661م، أصدر بلاط "تشينج" أمرًا آخر، وهو "الإخلاء البحري الكبير"، والذي أجبر الناس الذين يعيشون في الجزر وعلى طول الساحل على التحرك من خمسة عشر إلى خمسة وعشرين كيلومترًا إلى الداخل فلا يمكن عبور هذه الحدود، وتم تقييد التجارة الخارجية، وأثر هذا بشدة على التنمية الاقتصادية للمناطق الساحلية، مما أدى إلى انتشار الخراب والهبوط، وعلى الرغم من أنه تم تخفيفه لاحقًا، فإن الحظر قطع الصين عن العالم الخارجي، وبدأت تتخلف وكادت في نهاية المطاف أن تصبح شبه مستعمرة من القوى الغربية.

استعادة "تشينج تشينجونج" لتايوان

ولد "تشينج تشينج جونج" في "هيرادو" في اليابان عام 1624م - وهو العام الذي احتل فيه المستعمرون الهولنديون تايوان - لأم يابانية وأب صيني باسم "تشينج تشيلونج"، وعاش في اليابان حتى سن السابعة، عندما عاد مع والده إلى "آنبينج" بمقاطعة "فوجيان"، وقد أعيدت تسميته "تشينج سين"، وأصبح "شيوكاي" في سن الخامسة عشرة (خريج الامتحان المدني الإمبراطوري على مستوى المقاطعة)؛ وفي الحادية والعشرين من عمره، أصبح طالبًا في الأكاديمية الإمبراطورية في "نانجينج"، حيث تأثر كثيرًا بالعالم الشهير "تشيان تشيانيي".

في عام 1644م، اقتحم "لي زيتشينج"، زعيم جيش المتمردين الفلاحين بكين، وشنق الإمبراطور "تشينجتشن" نفسه على تل الفحم، وهلكت إمبراطورية

"مينج" العظيمة، ثم سار جيش "تشينج" جنوبًا عبر ممر "شانهاي"، وهزم جيش "لي زيتشينج" المتمردين ودخل بكين، وفي عام 1645م، وضع "تشينج تشيلونج"، "هوانج داوتشو" وآخرون "تشو يوجيان" على العرش في "فوجيان" باسم الإمبراطور "لونجوو"، تبع "تشينج سين" والده وقدم نفسه إلى الإمبراطور الذي -مع الاعتراف بمواهبه - منحه اللقب الملكي "تشو"، بالاسم المذكور "تشينج جونج"، ومن ذلك الحين كان يعرف باسم "جوشنجيي" - الذي يعني حرفيًا "صاحب اللقب الإمبراطوري" - وكان غالبًا ما يُعرف في الغرب باسم "كوشينجا"، وهي تنويعة من "جوشنجيي".

وفي وقت مبكر من شتاء عام 1646م، عندما هاجمت قوات "تشينج" مقاطعة "فوجيان"، استسلم "تشينج تشيلونج" والد "تشينج تشينج جونج" واقتيد إلى الشمال، وتعرضت والدته للاغتصاب على يد جندي من "تشينج" وانتحرت، وقد عزز هذا، إضافة إلى إيمانه بتعاليم الكلاسيكية الكونفوشيوسية، عزز ولاءه لأسرة "مينج"، فكان ينظر إلى الانتحار كوسيلة للهروب من الشعور بالعار، وقد عُرض على كبار المسؤولين الذين حكم عليهم بالإعدام كحل مشرف أكثر من الإعدام، وكان الحافز لشخص ما للانتحار في بعض الأحيان أن طريقة الإعدام كانت بربرية لدرجة أن الانتحار كان خيارًا أفضل بكثير.

في أواخر 1646م، أدى اليمين في "آنبينج" بمقاطعة "فوجيان" لمحاربة "تشينج"، كان "لونج وو" الإمبراطور ميتًا بالفعل، ولكن "تشينج" احتفظ باسم العصر لإظهار تصميمه، وقام بتجنيد الجنود في "ناناو" بمقاطعة "جوانجدونج"، وأجابه العديد من أولئك الذين كانوا في السابق بقيادة والده.

لقد قاتل "تشينج" جيئة وذهابًا بين "جولانجيو" و"آنبينج" و"هايتشينج"، وفي عام 1648م، عندما علم أن أمير "جوي" "تشو يولانج"، قد أعلن نفسه إمبراطورًا في "تشاوتشينج"، بمقاطعة "جوانجدونج"، اقترح استخدام اسم العصر "يونجلي"؛ وأنعم الإمبراطور "يونجلي" عليه بلقب أمير "يانبينج" في المقابل.

تمركز "تشينج تشينج جونج" بقواته في "جينمن"، وهي جزيرة صغيرة قريبة من البر الرئيس المعروف أيضًا باسم "كوموي"، و"شيامن" (آموي)، وهو ميناء ساحلي مهم في "فوجيان"، وفرض الانضباط الصارم وأصبح أقوى وأقوى، تعاون مع "تشانج مينجتشن وتشانج هوانجيان"، وخاض معارك على طول المناطق الساحلية من "تشجيانج" و"فوجيان" و"جوانجدونج"، واستولى على المدن والأراضي، وأصبح شوكة في جانب حكومة "تشينج" لدرجة أن حياة والده الذي لا يزال في الشمال كانت مهددة بالموت، كتب "تشينج تشيلونج" مرارًا إلى ابنه، متوسلًا إليه أن يستسلم، لكن "تشينج تشينج جونج" لم يتزحزح، وألقى بلاط "تشينج" بـ"تشينج تشيلونج" في السجن، دون تأثير على ابنه.

وعلى الرغم من أن "تشينج تشينج جونج" قد جعل الوضع في "جينمن" و"شيامن" تحت السيطرة، فإن نظام "يونجلي" قد انتقل الآن إلى بورما واحتلت قوات "تشينج" معظم أراضي الصين الرئيسة، ومع إغلاق السواحل والحدود، وجد "تشينج" أنه من الصعب محاربة "تشينج" في البر الرئيس؛ لذلك انتقل إلى تايوان، كانت تايوان أرضًا صينية منذ العصور القديمة، ومع ذلك، في عام 1622م، في السنة الثانية من عهد الإمبراطور "شيزونج"، احتل المستعمرون الهولنديون أرخبيل "بينجهو"، المعروف أيضًا باسمه البرتغالي "بيسكادوريس"، وعندما هزمتهم حكومة "مينج" في عام 1624م، فروا إلى تايوان حيث بنوا جدارًا وخندقًا حول الجزيرة، وفي كل عام كانوا ينقلون ثروات تعادل أربعة أطنان من الذهب إلى هولندا، ويسيطرون على الجزيرة بلا رحمة، وعلاوة على ذلك، أجبروا التايوانيين على التحول إلى المسيحية، مما أدى إلى مقتل أولئك الذين رفضوا، وكانت الثورات شائعة؛ وكانت أكثرها شهرة بقيادة "جو هوايي"، والتي على الرغم من قمعها بشكل دموي أظهرت أن الحكم الاستعماري الهولندي كان يتضاءل.

عندما زار "تشينج تشيلونج" اليابان في شبابه، أصبح صديقًا لـ"يان سيتشي"

من "هايتشينج"، وفي عهد الإمبراطور "شيزونج"، تعبوا من استبداد المسؤولين اليابانيين وحاولوا التمرد، وجعلوا "يان سييشي" زعيمًا لهم، وهزموا وأبحروا إلى تايوان، حيث بدؤوا الزراعة، وسرعان ما عبر آلاف الأشخاص البحر إلى تايوان قادمين من "تشانجتشو" و"تشوانتشو"، مما شكل قوة عمل جديدة، وخلال عهد الإمبراطور "تشينجتشن"، قبل "تشينج تشيلونج" العفو، وغادر تايوان إلى البر الصيني الرئيس، في ذلك الوقت، كانت "فوجيان" تعاني من جفاف شديد؛ لذلك اقترح "تشينج تشيلونج" شحن الناس الجائعين إلى تايوان، حيث أعطي لكل منهم بعض الفضة الخالصة، وثور واحد لكل ثلاثة أشخاص؛ لذا كانت استعادة "تشينج تشينج جونج" لتايوان هو استعادة الأراضي الصينية وكذلك أرض أجداده، ولعب شخص واحد دورًا حاسمًا في هذا، وكان ذلك "هي بن".

قبل بضع سنوات، كان "هي بن" يتبع "تشينج تشيلونج" لتايوان، اعتنق المسيحية، ودرس اللغة الهولندية وأصبح مترجمًا، لكنه مع ذلك كان وطنيًا وكره المعاملة الهولندية لمواطنيه، قام بمسوحات سرية لقنوات الأرض والموانئ والشحن، ورسم خرائط للساحل، كان هناك كل من القناة الشمالية والجنوبية عند مدخل خليج "داشياو"، كانت القناة الجنوبية متاحة تمامًا، ولكنها كانت كلها داخل خط النار الهولندي، كانت القناة الشمالية ضيقة؛ إذ لم يكن بمقدور سوى السفن الصغيرة المرور عبرها، ولم يكن لديها دفاعات هولندية، ومع ذلك، أدى التآكل طويل الأجل إلى إمكان عبور السفن الأكبر حجمًا للقناة.

وفي عام 1661م، لجأ "هي بن" إلى "تشينج تشينج جونج"، وأظهر له خرائطه، وحثه على استعادة تايوان، وفي الشهر القمري الثالث من ذلك العام، أصبح "تشينج" قائدًا عامًّا لقوات بحرية قوامها 25.000 جندي وعدة مئات من السفن الحربية، وأبحر من خليج "لياولو" في "جينمن"، وفي الشهر التالي، وصلوا إلى ميناء "لورمين" في تايوان، حيث وجدوا المياه عميقة بما فيه الكفاية لتمرير

سفنهم عند المد العالي، وبقيادة "هي بن"، أبحرت السفن الحربية الكبيرة عبر الميناء، ودارت حول الامتداد الهولندي وألقت مراسيها في ميناء "هيلياو"، حيث هبط البحارة وأقاموا مخيمهم.

وفي الوقت نفسه، أرسل "تشينج تشينج جونج" قواته لاحتلال الموانئ الرئيسة، وقطع الاتصالات بين تايبيه ورأس شاطئ الجيش الهولندي، مدينة "تشيتشيان"، إضافة إلى اتصالهم بالعالم الخارجي، وبعد ذلك، قاتل "تشينج" قبالة الهجوم الهولندي المضاد من البر والبحر، وحاصر مدينة "تشيتشيان"، سرعان ما استسلم "ياكوبوس فالينتاين"، القائد الهولندي هناك، وأصبحت القوات الهولندية الباقية الآن محصورة داخل مدينة تايوان، شنت قوات "تشينج" هجومًا، لكن "فريدريك كويت"، القائد الهولندي، قاوم بعناد؛ لذلك قرر "تشينج" مواصلة الحصار، وبكل بساطة الانتظار، وأعاد تسمية مدينة "تشيتشيان" بـ"دونج دو مينج جينج" أي -"لعاصمة الشرقية لأسرة "مينج"- وأسس مقاطعة "تشينجتيان"، مع السلطة القضائية على مقاطعتين هما "تيانشينج" و"وانيان"، وأرسل جنرالاته إلى أماكن مختلفة للزراعة، وبالتالي ضمان حصولهم على الطعام على الرغم من الحصار التجاري البحري الذي وضعته عليهم حكومة "تشينج"؛ لذا فإن جيش "تشينج" كان له جذور ثابتة في تايوان، وفي عدة مناسبات هزم قوات الإغاثة الهولندية القادمة من "باتافيا".

بعد ثمانية أشهر من الحصار، تم تدمير مدينة تايوان ودفاعاتها بالكامل بمدافع "تشينج"، ومات العديد من الجنود الهولنديين إما جوعًا أو بسبب المرض؛ وكلهم كانوا ضعفاء جدًّا، أُجبر القائد "فريدريك كويت" أخيرًا على التفاوض على الاستسلام، وفي 1 فبراير 1662م، تبادلا معاهدة حيث أعيدت تايوان إلى الصين، بعد ذلك، بدأ "تشينج تشينج جونج" ورجاله الزراعة على نطاق واسع، مع إشراك اللاجئين من "تشانجتشو" و"تشوانتشو" و"هويتشو" و"تشاوتشو"، كما تم إرسال جنود لديهم خبرة في الزراعة لمساعدة المزارعين المحليين، وأنشئت محاكم ومدارس محلية، مما أسهم في تنمية تايوان، ثم، في 23 يونيو

1662م، سقط "تشينج تشينج جونج" مريضًا، ومات في التاسعة والثلاثين من عمره.

قمع الإمبراطور "كانجشي" للإقطاعيات الثلاث

كان عام 1661م عامًا خاصًا للغاية؛ فقد شهد زوال نظام جنوب "مينج" الأخير، وموت الإمبراطور "شونتشي"، وتنصيب ابنه الثالث، "شوانيي" البالغ من العمر ثماني سنوات، والذي أصبح الإمبراطور "كانجشي" (واسم عهده "شينجزو")، بدا مستقبل هذا البلاط الجديد قاتمًا، حيث واجه الإمبراطور الشاب مجتمعًا ضعيفًا، وحكومة هشة، ووزراء أقوياء، وسادة إقطاعيين، ومع ذلك برعاية جدته برز كسياسي داهية وحازم بشكل غير عادي.

وقد عُرفت المشكلة الخاصة التي تواجهه باسم سانفان، التي تُرجمت حرفيًا باسم الإقطاعيات الثلاث، وهي الأقاليم الثلاثة التي يحكمها نبلاء "هان" ذوو الألقاب التي منحها لهم المانشو، وكان قادتهم أمير "بينجشي" "وو سانجوي"، حاكم "يونّان" و"جويتشو"، وأمير "جينجنان" "جينج جينج تشونج" حاكم "فوجيان" و"بينجنان"، والأمير "شانج كيشي"، الذي حكم "جوانجدونج"، وقد منحهم البلاط هذه الألقاب على أمل أن يساعدوا في تعزيز دفاعات الحدود، ولكن بدلًا من ذلك، أصبحوا أكثر قوة، وتعذرت السيطرة عليهم مباشرة نظرًا لبعدهم عن الحكومة المركزية، وكانت قوتهم الصاعدة تقلق الإمبراطور الجديد في "كانجشي"، لدرجة أنه علق شريطًا ملونًا على عمود، معلنًا أكبر مخاوفه الثلاثة وكانت الإقطاعيات الثلاث في أعلى القائمة.

وقد أزعج هذا الأمر القادة الثلاثة، الذين تساءلوا عما كان يدور في خلد الإمبراطور، وفي ربيع عام 1673م، وبعد فترة طويلة من التفكير، قدم "شانج كيشي" طلبًا إلى الإمبراطور ليحل محله ابنه "شانج تشيشين" كحاكم لمقاطعة "جوانجدونج"، حتى يتسنى له التقاعد إلى منزله في منطقة "لياودونج"، ورأى الإمبراطور "كانجشي" هذا فرصة جيدة لإضعاف جميع خصومه الثلاثة، وهكذا

قبل طلب "شانج كيشي" بالتقاعد، لكنه رفض السماح لـ"شانج تشيشين" بخلافته، على أساس أنه متكبر وغير مطيع؛ وبدلًا من ذلك أمره بمصاحبة والده مرة أخرى إلى "لياودونج".

سرعان ما سمع "وو سانجوي" و"جينج جينج تشونج" الأخبار المثيرة للقلق، وناقشا ما يجب القيام به، تقدم كلاهما بطلب مماثل للتقاعد، جزئيًّا لاستعادة ثقة البلاط، وجزئيًّا لرؤية ما سيحدث، لم يخطط أي منهما للتقاعد، ولا في الواقع كانوا يتوقعون أن يقبل الإمبراطور، وعندما فعل، دون تردد، وفي الوقت نفسه أعفى جميع الأطراف الثلاثة من واجباتهم، كانوا مستاءين، وبعد بعض التردد، قرر "وو سانجوي"، وهو سياسي محنك، أن يثور، لقد مرت عشر سنوات فقط منذ سقوط جنوب "مينج"، وكان سكان "هان" يحنون إلى النظام القديم، وكانت إزالة قوى "هان" الإقطاعية بهذه الطريقة غير محبذة، ومن ناحية أخرى، أرسل "جينج جينج تشونج" الناس إلى تايوان لمناقشة التمرد مع "تشينج جينج"، الابن الأكبر لـ"تشينج تشينج جونج"، غافلًا عن كل هذه المؤامرات، كلف الإمبراطور "كانجشي" مختلف الوزارات لتسهيل الإجراءات.

في الشهر الحادي عشر من عام 1673م، استدعى "وو سانجوي" مرؤوسيه وأعلن رسميًّا عن بدء الثورة، وأعلن نفسه "الجنرال العسكري الأعلى" وذكر أنه كان يحارب "تشينج" لاستعادة حكم "مينج"، ثم أمر الجنود باستعادة زيهم وتسريحة شعرهم، حتى أنه أقام مراسم تذكارية في ضريح الإمبراطور "يونجلي" للإعراب عن امتنانه لأسرة "مينج"، على الرغم من أنه هو من قتل الإمبراطور "يونجلي" نفسه، كما أنه أدلى بالعديد من التصريحات المثيرة للفتن (من وجهة نظر "تشينج") والتي تهدف إلى إطلاق مشاعر "هان" المناهضة لـ"تشينج"، وسارع المسؤولون المحليون والمواطنون في "يونّان" للاستجابة.

ولم يصل تقرير مفصل عن تمرد "وو سانجوي" إلى البلاط حتى أواخر الشهر التالي، وصُدم البلاط، لكن الإمبراطور "كانجشي" لم يصب بالذعر، فقام بنشر القوات وفي محاولة لكسب دعمهم، أوقف عملية عزل "شانج كيشي" و"جينج

جينج تشونج"، لكن "جينج" لم يتزحزح، وفي العام التالي، بدأ ثورة في "فوتشو"، متبعًا خطى "وو سانجوي" في استعادة زيّ وتسريحة شعر "هان"، ووعد "تشينج جينج" بالتعاون معه في مهاجمة "جوانجدونج"، وسرعان ما استولى جيش المتمردين على العديد من المقاطعات، بما في ذلك "يونّان" و"قويتشو" و"سيتشوان" و"جوانجشي" و"هونان" و"فوجيان"، وإذا تمكن جيش "وو سانجوي" من عبور نهر اليانجتسي والانطلاق شمالًا، فمن المحتمل أن يجبر حكام "تشينج" إلى العودة إلى "مانشوريا"، ومع ذلك، وفي هذه اللحظة الحرجة، ارتكب "وو" خطأ استراتيجيًا كبيرًا، فخوفًا على سلامة ابنه "وو ينجشيونج"، الذي كان في العاصمة، لم يجرؤ على المسير بسرعة كبيرة جدًّا، بدلًا من ذلك تمركز بجيشه عند ضفة النهر، وانتظر، وكانت مخاوفه قائمة على أساس جيد: فقد قتل الإمبراطور "كانجشي" ابنه وحفيده مما أغرق "وو سانجوي" بالحزن والغضب والندم، لقد فوت أفضل وقت للهجوم ووجد نفسه في مأزق.

وبعكس زملائه، ظل "شانج كيشي" مواليًا لبلاط "تشينج"، رغم محاولات "وو سانجوي" العديدة لإقناعه بالانضمام إلى الثورة، ومع ذلك، انضم ابنه "شانج تشيشين" الذي حرم من فرصة وراثة لقب والده إلى قوات "وو سانجوي" في ربيع عام 1676م، غير قادر على إيقاف ابنه، مات "شانج كيشي" وقيل إنه مات من الغضب والإحباط، والآن انقلبت الإقطاعيات الثلاث على البلاط، لكن ثورة "شانج تشيشين" لم تفعل الكثير لمساعدة قضيتهم، وفي شتاء ذلك العام، هُزمت قوات "جنج جينج تشونج" واستسلم للإمبراطور "كانجشي"، الذي أعاد لقبه، وفي 1677م، استسلم "شانج تشيشين" أيضًا، وبالمثل، سمح الإمبراطور "كانجشي له باستخدام لقب أمير "بينجنان"، وفي 1678م، أعلن "وو سانجوي" نفسه إمبراطورًا لأسرة "تشو" العظمى في "هنجيانج" بمقاطعة "هونان"، وبدأ في الإنعام بالألقاب على مرؤوسيه، كان أتباعه من أهل "هان" الذين كانوا يأملون في استعادة أسرة "مينج" الحاكمة، يشعرون بخيبة أمل وابتعدوا، وفي الخريف مات "وو" من اليأس وواصل حفيده "وو شيفان" مهمته.

في عام 1680م، أبلغ شقيق "شانج تشيشين" الأصغر سرًّا الإمبراطور "كانجشي" بأن أخاه الأكبر ما زال حاقدًا عليه، فأمر الإمبراطور، الذي كان لا يثق في "شانج تشيشين" منذ فترة طويلة باعتقاله، وتم إرساله إلى بكين وأعدم في النهاية، وفي عام 1681م، غزا جيش "تشينج" قاعدة "وو سانجوي" في "يونّان"، وانتحر "وو شيفان"، ومع هزيمة أكبر عدو له حول الإمبراطور "كانجشي" انتباهه إلى الإقطاعي الأخير المتبقي وهو "جينج جينج تشونج"، الذي ما زال تابعه "ما جيويو" يشكل تهديدًا، وفي عام 1682م، وبمجرد أن تمت تهدئة "يونّان" وقمع قوة "ما" العسكرية، تم إعدام "جنج جينج تشونج" وابنه.

أدى هذا في نهاية المطاف إلى إنهاء التمرد الذي دام ثماني سنوات؛ لكن الإمبراطور "كانجشي" رأى أن جذوره تكمن في فشل "تشينج" في كسب رضا الشعب، وخلص إلى أن الحل هو تحسين إعادة الإعمار والإنتاج، وتخفيف التوتر بين المانشو وهان، وبين المسؤولين وعامة الناس، سمحت هذه الأفكار ببداية حقبة من السلام والازدهار.

استعادة تايوان

كان استيلاء "لي زيتشينج" على بكين في عام 1644م بمثابة نهاية لعصر أسرة "مينج"، وجمع بقايا أنصار "مينج" في وقت لاحق جيشًا في جنوب شرق الصين لمحاربة "تشينج"، ولهذه الغاية، استعاد "تشينج تشينج جونج" تايوان من الهولنديين في عام 1661م وبدأ حكم عائلته في تايوان، وعندما توفي هناك بعد عام واحد فقط، ورث ابنه الأكبر "تشينج جينج" منصب والده، وواجهت حكومة "تشينج" الآن معضلة ما يجب فعله بشأن أسرة "تشينج"، وفي عام 1667م، أرسل الإمبراطور "كانجشي" القائد الإقليمي "كونج يوان تشانج"، في محاولة للتفاوض مع "تشينج"، لكنه فشل في تحقيق أي تقدم، وفي 1669م، حاول "مينج تشو" وزير العدل مرة أخرى إعادة الاختصاص

القضائي لـ"تشينج" على تايوان من خلال المحادثات السلمية، واعدًا أنها ستصبح إقطاعية تحت قيادة "تشينج جينج"، وقبل "تشينج جينج"، ولكن بشرط ألا يقوم سكان تايوان مثلهم مثل الكوريين بتغيير تصفيفة شعرهم، وهنا رفضت حكومة "تشينج" وانهارت المحادثات.

في هذه الأثناء، ازداد عدم استقرار الإقطاعيات الثلاث؛ لذا قام الإمبراطور "كانجشي" بتأجيل قضية تايوان، ولكن بعد ذلك في 1673م، أرسل أمير "جيانجنان" الأمير "جينج جينج تشونج" مبعوثين إلى تايوان للتحالف مع "تشينج جينج"، الذي وافق على قيادة وحدة إلى "شيامن" في مقاطعة "فوجيان"، وقد ألغى "جنج جينج تشونج" التحالف نتيجة لعدم رضاه عن قلة عدد الجنود في "تشينج" وأمر بفرض حظر على التبادل البحري، فهاجمه "تشينج جينج" غاضبًا واستولى على "تشوانتشو" و"تشانجتشو" و"تشاوتشو"، وهي موانئ على الساحل الجنوبي الشرقي، وأزعج هذا "جينج جينج تشونج"، وحاول بكل وسيلة استعادة العلاقات ولكن دون جدوى، وفي 1676م، استسلم "جنج" إلى حكومة "تشينج"، وترك "تشينج جينج" يقاتل وحده في "شيامن"، وفي 1680م، جُرّ "تشو تيانجوي" نائب العام لسلاح بحرية "تشينج" للخيانة واستسلم معه 300 بارجة وأكثر من 20.000 رجل لحكومة "تشينج"، ولم يكن أمام "تشينج جينج" خيار سوى التخلي عن "شيامن" والتراجع إلى تايوان.

بعد ذلك، أصبح "تشينج جينج" محبطًا للغاية لدرجة أنه تخلى عن شؤون البلاط، ونقل مسؤولياته إلى والد زوجته "تشن يونج - هوا" وعين ابنه الأكبر "تشينج كيزانج" كوصي، وتوفي بعدها في 1681م، كان ينبغي أن يكون "تشينج كيزانج" هو وريث العرش، ولكن كان يُنظر إليه على أنه تهديد من عمه وآخرين، بدعوى أنه كان مجرد ابن بالتبني، تم فصله ثم أعدم شنقًا؛ وكان عمره فقط ثمانية عشر عامًا، وقد اعتلى "تشينج كيشوانج"، الابن الثاني لـ"تشينج جينج"، العرش في سن الحادية عشرة، لكن السلطة الحقيقية كانت في يد عمه "تشينج تسونج" وشركائه.

وفي العام نفسه، قمعت حكومة "تشينج" الثورة المتمردة التي دامت ثماني سنوات للإقطاعيات الثلاثة، وأصبح بإمكانها الآن أن تستثمر وقتها في توحيد الصين، وكانت المهمة الأولى تعيين الجنرال المناسب للمعركة البحرية مع تايوان، والعامل الرئيس في هذا القرار كان "ياو تشيشنج"، ولد في "كوايجي" بمقاطعة "تشجيانج"، وتم تعيينه حاكمًا عامًّا لـ"فوجيان" عام 1678م، وأوصى بـ"شي لانج" كقائد أعلى للهجوم، اشتهر "شي" بذكائه وشجاعته، وكان في يوم من الأيام أحد مرؤوسي "تشينج تشيلونج"؛ واستسلما معًا إلى المانشو في عام 1646م، وانضم إلى قوات "تشينج" مؤقتًا، لكنه انشق بعد ذلك وانضم إلى "تشينج تشينج جونج"، ومع ذلك، اختلف مع "تشينج" حول القرارات العسكرية، وعندما قتل أحد أقارب "تشينج" في عام 1651م، أصدر "تشينج" أمرًا بإلقاء القبض على "شي" وعائلته، تمكن "شي" من الفرار، ولكن "تشينج" قتل والده وشقيقه الأصغر، فعاد "شي" ينضم إلى قوى "تشينج" غاضبًا.

عارض كثيرون تعيين "شي لانج" متحججين بخيانته السابقة، والشائعات بأنه لا يزال على علاقة مع عائلة "تشينج" مما جعل حكومة "تشينج" تشتبه به، وعلاوة على ذلك، فإن إخفاقاته في الحملات الاستكشافية ضد تايوان في 1663 و1665م جعلت العديد من الوزراء يشكون في كفاءته العسكرية، تشاور الإمبراطور "كانجشي" مع السكرتير الأعلى "لي جوانجدي" غير متأكد مما يجب القيام به، الذي أشار إلى أنه لا أحد يفهم المعارك البحرية ضد تايوان أفضل من "شي لانج"، وأن عائلة "تشينج" كانت تخافه، وبعد الكثير من المداولات، صدق الإمبراطور على التعيين.

وهكذا في يوليو عام 1683م، كان هناك أكثر من 20 ألف رجل و300 سفينة حربية عملاقة و230 سفينة متوسطة وصغيرة الحجم متجهة من "فوجيان" إلى جزر "بنجهو"، وهي قاعدة بحرية لتايوان بين تايوان والبر الرئيس، ونظرًا لخطر حدوث الأعاصير في تموز / يوليو، افترض "ليو جو شوان"، القائد الأعلى للجيش التايواني، أنه لا يوجد خطر من "تشينج"، ولم يكن قد أعد دفاعاته؛

لكن في 9 يوليو، وصل جيش "تشينج" إلى جزيرة "وانجآن" وهاجم في اليوم التالي، بعد عدة معارك، عانت تايوان خسائر فادحة في السفن والرجال، وبالمقابل، قتل فقط نحو 300 جندي من "تشينج"، ولم تخدش سفنهم الحربية، وما زال "ليو جو شوان" الذي ما زال يخشى الأعاصير يضيع أفضل وقت للرد، وقد اضطر في النهاية إلى التراجع إلى تايوان بعشرات من القوارب الصغيرة.

دمرت معركة جزر "بنجهو" أقوى قوات "تشينج"، وبقي "شي لانج" الآن على الجزر لاسترضاء سكانها، معلنًا إعفاءً لمدة ثلاث سنوات من الضرائب والتجنيد، وهي خطوة قوبلت بالامتنان، وفي الوقت نفسه، اقترح "شي" توحيد تايوان مع البر الرئيس عن طريق إجراء محادثات سلام مع "تشينج" وهي استراتيجية وافق عليها الإمبراطور "كانجشي"، خوفًا من أن يتسبب "تشينج" ومتابعوه في حدوث مشكلات أكبر في أماكن أخرى، حتى إنه قدم عفوًا عن "تشينج" في حالة استسلامه؛ لذلك تم استقبال "شي لانج" في تايوان في أكتوبر 1683م، وقدم له "تشينج كيشوانج" خطاب الاستسلام وختمه الذهبي، وعلى عكس التوقعات، لم يقم "شي" بالانتقام من "تشينج" لما فعله بعائلته، بل عقد بدلًا من ذلك مراسم تذكارية للإقرار بمساهمة أسرة "تشينج" في الجزيرة.

وداخل حكومة "تشينج"، ظلت تايوان محل خلاف، واعتقد البعض أنها لن تجلب إلا القليل من الإيرادات، ودعا إلى نقل المقيمين التايوانيين إلى البر الرئيس والتخلي عنها كلية، عارض "شي لانج" بشدة هذه الفكرة، مشيرًا إلى أن تايوان كانت بمثابة حماية للمقاطعات الساحلية في جنوب شرق الصين، وأنه إذا تم التخلي عن سلطة تايوان، فإن الهولنديين سيعودون دون شك إليها، ولذلك اقترح إنشاء قوات دفاع في تايوان، وجزر "بنجهو"، وهو اقتراح وافق الإمبراطور "كانجشي" في النهاية، وفي عام 1684م، أنشأت حكومة "تشينج" محافظة واحدة وثلاث مقاطعات في تايوان، خاضعة لمقاطعة "فوجيان".

الدفاع عن الحدود ضد روسيا القيصرية

كانت الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الخامس عشر سنوات حافلة بالأحداث لأسرة "مينج"، بعد أن هددها تمرد الفلاحين وأزعجتها المناوشات مع جيش "تشينج" في الشمال، فوصلت إلى حافة الانهيار، وفي الوقت نفسه، توسعت روسيا في حوض نهر "لينا" في شرق سيبيريا، وفي 1632م أنشأت مدينة "ياكوتسك" كقاعدة لتوسعها الجنوبي، وفي صيف عام 1643م، أمر "جولوفين"، حاكم "ياكوتسك"، المستكشف "فاسيلي دانيلوفيتش بوياركوف" بقيادة 132 رجلًا جنوبًا في أول رحلة استكشافية ضد الصين، وفي فصل الشتاء، سافروا عبر سلسلة "خينجان" الخارجية إلى المناطق الوسطى لنهر "زيا" ("جينكيري بيرا" بلغة المانشو)، الذي كان يسكنه شعب "داور"، أظهر لهم الداور كرم الضيافة، لكنهم لم يقابلوا إلا بالقسوة؛ لذلك توقف الداور عن إطعامهم وتنظيم المقاومة بدلًا من ذلك، وفي مواجهة النقص في الطعام، أمر "بوياركوف" الوحشي مرؤوسيه أن يأكلوا جثث خمسين من الأسرى المحليين للبقاء على قيد الحياة في فصل الشتاء، وقد أشار شعب نهر "آمور" (هيلونجيانج) إلى هؤلاء الغزاة بأنهم شياطين يأكلون البشر وخاضوا الكثير من المعارك ضدهم، ونتيجة لذلك، نجا أقل من نصف الروس، وفي عام 1645م، لم يجرؤوا على البقاء أو العودة بالطريق نفسه، وتمكنوا في النهاية من النزول من مصب نهر "آمور" إلى البحر، ولم يتمكنوا من العودة إلى "ياكوتسك" حتى السنة التالية.

بالعودة إلى روسيا، أبلغ "بوياركوف" القيصر بغنى منطقة "هيلونجيانج"، مما أثار طموحه، وفي عام 1649م، نظم منظم ومغامر روسي يُدعى "ييروفي بافلوفيتش خاباروف"، عند سماعه عن الحبوب والمنك رحلة استكشافية لسبعين رجلًا، سافر عبر طريق مختلف عبر سلسلة "خينجان" الخارجية، ووصل إلى مدينة "ياكسا" التي تقع تحت سلطة شعب "داور" وهي الآن في روسيا، حيث تعرف باسم "ألبازينو"، وبحلول هذا الوقت، سقطت أسرة "مينج" ونهضت بدلًا منها أسرة "تشينج"، وطالب "خاباروف" السكان المحليين بدفع

"خراج من الفراء" إلى القيصر، لكن أمير "داور" "جويجودار" رفض رفضًا قاطعًا، بدعوى أنهم قد دفعوا الجزية بالفعل للإمبراطور "شونتشي"، غاضبًا، طلب خاباروف المساعدة من "ياكوتسك" وفي سبتمبر 1650م عاد مع تعزيزات، وقضى الجيش الروسي على الداور الذين قاوموا نصف يوم فقط.

وفي 1651م، غزا خاباروف قرية "جوالار" على الروافد الدنيا لنهر "آمور"، شكا القرويون وحشية الغزاة إلى "هايسي"، "جانج جين" - الاسم المستخدم في لغة المانشو للجنرال - في "نينجوتا" - مدينة "نينجآن" اليوم - وفي عام 1652م، أمرت حكومة "تشينج" "هايسي" بمحاربة الجيش الروسي، وبدعم من السكان المحليين، أصيب أكثر من ثمانين من الأعداء الروسيين أو قتلوا، لكن "هايسي" أمر قواته بالقبض عليهم أحياء، مما أثر على الروح المعنوية، وتغير الميزان لصالح الروس.

وهكذا هُزمت "تشينج" في معركة "جوالار"، وهي المعركة الأولى بين الصينيين والروس، ولكن هذا كان بداية مقاومة الصين للغزو الروسي، ويشير الرد السريع لحكومة "تشينج" إلى الأهمية التي تعلقها على السلامة الإقليمية، وفي عام 1653م، أدى الصراع الداخلي بين الروس إلى إقالة "خاباروف" وعودته إلى روسيا، ليتولى "ستيبانوف" نائبه المنصب، ولحماية السكان المحليين، قامت حكومة "تشينج" بنقلهم إلى داخل البلاد وأرسلت قواتها مكانهم، وفي 1658م، قتل ستيبانوف وفي 1659م، استعاد جيش "تشينج" مدينة "ياكسا"، وبحلول عام 1660م، تم القضاء على القوات الغازية على طول المجرى السفلي لنهر "آمور".

ومع ذلك، فإن الروس لم يستسلموا بسهولة، فبعد أن استغلوا انشغال "تشينج" بالثورة الثلاثية، قاموا بغزو "هيلونجيانج" مرة أخرى واستعادوا العديد من المدن، بما في ذلك "ياكسا"، وفي تحدٍ لتحذيرات حكومة "تشينج"، واصلوا توسعهم، حتى طالبوا بخضوع "تشينج" إلى القيصر الروسي؛ لذلك، عندما انتهت مشكلة ثورة الإقطاعيات الثلاث أخيرًا في عام 1681م، بدأ الإمبراطور

"كانجشي" على الفور في تعزيز شمال شرق الصين، وفي ربيع عام 1682م، قام بجولة تفقدية لمدن مثل "شينججينج" وهي "شينيانج" الحالية و"وولا" وهي "جيلين" الحاليـة، وأجريت الاستعدادات الكاملة للهجوم المضاد، وتم إنشاء جميع محطات التوصيل، إضافة إلى أنظمة الأراضي والمياه.

فـي الشهر التاسـع من عام 1683م، أمرت حكومة "تشينج" الجيش الروسي بالمغادرة، تجاهل الروس هذا وساروا إلى مدينة "آيهوي"، لكن "سابسو"، جنرال "تشينج"، هزمهم وأحرقوا معقلهم على الروافد الدنيا لنهر "آمور"، والآن تم عزل "ياكسا"، وفي عام 1685م، أمر الإمبراطور "كانجشي" بهجوم كبير على المدينة من البر والبحر، وفي نفس الوقت، تم إرسال أمر دبلوماسي نهائي، مكتوب بثـلاث لغات - المانشـو والمغوليـة والروسـية - إلـى القائـد الروسـي، للمطالبـة بتراجعه، وعنـدما تحداه، شن جيش "تشينج" هجومهم، وبعد عدة أيام من القتال، والتي عانى فيها الجيش الروسي خسائر هائلة، ذهب القائد الروسي "تـولبوزين" إلـى معسـكر "تشـينج" واسـتسلم، سـمح لـه بالانسـحاب إلـى "نيرشينسك"، ثم انسحب جيش "تشينج" بعد أن دمر "ياكسا" تمامًا.

في خريف عام 1685م، أرسلت روسيا تعزيزات إلى "نيرشينسك"، وبعلمه أن جيش "تشينج" قد انسحب، قاد "تولبوزين" القوات إلى "ياكسا"، واستَعَر غضب "تشينج"، وفي أوائل عام 1686م، وصل تقرير الغزو الروسي إلى الإمبراطور "كانجشي"، الذي أمر بالرد الفوري، وفي الشهر الخامس من عام 1686م، وصل جيش من أكثر من 2000 جندي إلى "ياكسا" وأمر الروس بالاستسلام، وتجاهل "تـولبوزين" هذا الأمر؛ لذا في الشهر السادس هاجمت قوات "تشينج"، وفي وقت لاحـق، قتـل "تـولبوزين" بـدانة مـدفع، وأصبح "بيتون" هو القائد، جاء الشتاء وبعد تعرضه للتعذيب بسبب البرد القارس والمجاعة والطاعون، أصبح الجيش الروسي أضعف من أن يقاتل ولم يكن لديه خيار سوى التفاوض.

في الشهر الرابع من عام 1689م، أرسل إمبراطور "كانجشي" "سونج جوتو" إلى "نيرشينسك" للتفاوض مع المبعوثين الروس.

حدد الطرفان الآن الحدود بين الصين وروسيا، وافق الروس على الانسحاب من "ياكسا" ووافقت حكومة "تشينج" على التخلي عن "نيرشينسك"، تم التوقيع على المعاهدة، والمعروفة باسم كل من معاهدة "نيرشينسك" ومعاهدة "هيلونجيانج"، في الشهر القمري السابع باللغات اللاتينية والروسية والمانشو، ووضعت علامات على الحدود منقوشة بلغات المانشو والصينية والروسية والمنغولية واللاتينية، وتتبع الحدود المتفق عليها نطاق "خينجان" الخارجي ونهر "أرجون" ونهر "جوربيتسا"؛ حيث تقع الأراضي شمال نهر "آمور"، جنوب نطاق "خينجان" الخارجي، وشرق نهر "أوسوري" تحت سيطرة حكومة "تشينج"، كما أشارت المعاهدة إلى تدمير "ياكسا"، والتجارة بين الطرفين، والتسوية المتعلقة باللاجئين، وعلى الرغم من استمرار المناقشات حول نزاهتها ومزاياها، فإنها أدت إلى مائة عام من السلام في المناطق الحدودية الشمالية الشرقية للصين.

قمع تمرد "دزونجار" ودمج التورجوت

بعد سقوط أسرة يوان، تراجع الشعب المغولي إلى الأراضي العشبية الشمالية، حيث واصلوا العيش كرُحَّل، وفي أواخر عهد أسرة "مينج"، انقسموا إلى ثلاث مجموعات: المغوليين الجنوبيين، ومغوليي "خالخا" الشماليين ومغوليي "إليوث" الغربيين الذين كانوا جزءًا من كونفدرالية الأويرات، تم تقسيم الـ"إليوث" إلى قبائل "دزونجار" و"هوشوت" و"دوربيت" و"تورجوت"، كانت منغوليا الجنوبية (بشكل عام منغوليا الداخلية اليوم) قد خضعت لأسرة "تشينج" قبل انتقالها جنوبًا إلى السهول الوسطى، وحصلت على لقب منحه الإمبراطور، حافظت الخالخا والإليوث على علاقات وثيقة مع "تشينج"، حيث دفعا الجزية وتلقوا الدروع والأقواس والسهام في المقابل، كان الزواج بين المانشو والمغوليين أيضًا سياسة أساسية في "تشينج"؛ وكانت زوجات

الإمبراطور "هونج تايجي" والإمبراطور "شونجي" مغوليات، وتزوج العديد من أميرات "تشينج" من المغوليين من القبائل جنوب وشمال صحراء غوبي.

في أوائل القرن السابع عشر، خلال حكم "باتار هونتايج"، كان سكان "دزونجار" في الغرب يوسعون نفوذهم، واضطر سكان التورجوت المجاورون إلى الانتقال إلى وادي نهر الفولجا، وفي عام 1670م، هاجم زعيم "دزونجار"، "جالدان" خان، الـ"هوشوت" وتغلب عليهم، واحتلت "دزونجار" الآن "هامي و"توربان"، فضلًا عن الجزء الغربي من ممر "هاشي" - في مقاطعة "قانسو" - وفي هذا الوقت، كانت روسيا القيصرية تحاول التوسع في شمال الصين، وقرر "جالدان" خان تشكيل تحالف معها، وفي عام 1688م هاجم بتحريض من روسيا مغول الخالخا الذين كانوا تحت بقيادة "جيبتسونداما" لاما، فطلبوا المساعدة من بلاط "تشينج"، ونظم الإمبراطور "كانجشي" على الفور عملية إنقاذ، مطالبًا بأن يسحب "جالدان" خان قواته، تجاهل "غالدان" خان هذا، وفي 1690م غزا جنوب منغوليا، متمركزًا في قواته على بعد 350 كيلومترًا فقط من بكين.

في هذه اللحظة الحرجة، أمر الإمبراطور "كانجشي" شقيقيه، "فوتشوان" و"تشانجنينج"، لتوجيه قواتهم إلى ممري "جوبيكو" و"شيفينجكو"، وفي الشهر السابع، ذهب الامبراطور بنفسه إلى "بولوهيتون" - "لونجهوا" الحالية في مقاطعة "هيبي" - كقائد أعلى للقوات المسلحة، ووقع القتال ضد قوات "جالدان" خان في "أولانبوتون" في الشهر التالي، وأنشأ الـ"دزونجار" معسكرًا دائريًا للجمال، ولكن هزمتهم قوات "تشينج"، وفي النهاية أرسل "جالدان" خان لاما كبيرا، وهو رجل دين بوذي في التقليد التبتي، للتفاوض على وقف لإطلاق النار بينما كان هو نفسه يفر في الليل إلى الشمال.

في 1695م، كان يسير للهجوم مرة أخرى، وأمر 30 ألف فارس من شرق "خابدو" بالهجوم على "بيان أولان" إلى الشمال من نهر "خيرلن"، وأرسل الإمبراطور "كانجشي" 100 ألف جندي على ثلاث جبهات، وقاد القوات المركزية بنفسه وتناول الطعام ونام في نفس المخيم مثل رجاله لتعزيز معنوياتهم، وبعد

قتال عنيف، هزم الـ"دزونجار"، ومن أجل وضع حد لطموحاتهم، نظم الإمبراطور "كانجشي" هجومًا ثانيًا، حيث تم إلقاء القبض على ابن "جالدان" خان على يد جنود "هوي" المسلمين، ولم يكن أمام زعيم "دزونجار" خيار سوى السلم أو القتـل، وهكذا استعيد السلام أخيرًا؛ وعاد الخالخا إلى وطنهم، حيث عززت حكومة "تشينج" الآن سلطتها القضائية.

ثار الـ"دزونجار" مرة أخرى خلال عهد الإمبراطور "يونجتشينج"، الذي أمر قواته للتقدم من الشمال والغرب، لكن "فوردان"، القائد الشمالي، كان متلهفًا إلى النصر لدرجة أنه اقتحم كمينًا لزعيم "دزونجار"، "جالدان تسيرين"، وعانى من هزيمة قاسية في معركة "هيتونجبو"، وبفضل انتصاره، استمر "جالدان تسيرين" في استفزاز جيش "تشينج" بنهب منطقة الخالخا، وفي 1732م، هاجم منطقة "خيرلن" (كيرولين) مع 30.000 جندي وخاض معركة شرسة في "إرديني دزو"، ليقع في كمين بعد ذلك، وتمرد الـ"دزونجار" مرة أخرى خلال عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، الذي أرسل قواته مرتين إلى المناطق الحدودية الشمالية والغربيـة، وانضمت إليهم القبائل المنغولية الأخرى التي عانت على يد الـ"دزونجار"، وهزمتهم قوات "تشينج" في عام 1757م، ولوضع حد للحروب، أمر الإمبراطور "تشيان لونج" بذبح الـ"دزونجار"، ومما أدى إلى دخول المناطق الحدودية الشمالية والغربية في إمبراطورية "تشينج" واحتواء التوسع الروسي، كما ساهم في اندماج التورجوت في الصين بعد قرن ونصف القرن من الهجرة إلى الغرب.

في عام 1761م، ثار الـ"تورجوت" ضد روسيا القيصرية وقوبلت ثورتهم بالقمع بقسوة، وفي وقت لاحق، عند شن حرب ضد تركيا، حاولت روسيا تجنيد جميع المنغوليين من الـ"تورجوت" فوق سن السادسة عشرة لجيشهم، مما أدى إلى مزيد من الاستياء، وفي عام 1767م، عقد رئيس الـ"تورجوت"، "أوباشي" خان، اجتماعًا سريًا مع شعبه لمناقشة العودة إلى وطنهم في الشرق، ولكن بعد أن عاشوا في وادي نهر الفولجا لما يقرب من 150 عامًا، كانوا مترددين في التخلي

عـن أراضـيهم الجـديدة، وأزيحـت الفكـرة جـانبًا، وفي عـام 1770م، عقد الـ"تورجوت" اجتماعًا آخر تعهدوا فيه بالعودة إلى جذورهم، في الرابع من يناير عام 1771م، جمع "أوباشي" خان جنوده وطالبهم بمحاربة روسيا بدلًا من البقاء عبيدًا، لكن خطته تسربت، مما أجبره على المغادرة المبكرة، واضطر أولئك الذين يعيشون على الضفة الشرقية لنهر الفولجا، غير القادرين على العبور لأن الشتاء الدافئ لم يجمد المياه للبقاء وراءهم، وسرعان ما وصلت أخبار مغادرة الـ"تورجوت" إلى سانت بطرسبرج، وأرسلت الإمبراطورة كاترين العظيمة فارسًا من القوزاق لمطاردتهم، وسرعان ما حوصر الـ"تورجوت"، الذين كانوا يسيرون على الأقدام مع الماشية، وقتل العديد منهم، كما قضى على عدد منهم سوء الأحـوال الجويـة والمـرض، كان قرار المغادرة متسرعًا إلى درجة أن حكومة "تشـينج" لـم تكن لديها أي فكرة عن عودتهم، وبالتالي فشلت في تقديم أي مسـاعدة، واجتمع الإمبـراطور "تشـيان لـونج" مع "أوباشي" خان وبعض من مواطنيـه في المنتجع الصيفي الإمبراطوري "جيهول" (ريهي)، حيث أقيمت مأدبـة كبـرى تكريمًا لـهم، وأقيم لوحـان حجريـان كبيران فـي معبـد "بـوتو تزونجشينج" قبل ستة أشهر من وصول الناجين إلى وجهتهم..

قمع تمرد الـ"أويجور" والحروب ضد المتسللين الأجانب

بـين 1750 و1760م، عنـدما تـم قمـع تمرد زعمـاء أو رؤسـاء قبيلـة "دزونجـار"، هـرب اثنـان مـن رؤسـاء الأويجـور، "برهـان الـدين" وشقيقه الأصغر "خواجة جهان"، من السجن في "تشينج" وعادوا إلى وطنهم "كاشجريا" في "شينجيانج" الحالية، وقد تمت الإشارة إليها باسم "هيتشو"، وهي الترجمة الصوتية للكلمة الفارسـية "خوجـا"، والتـي تعنـي "السليل المقدس" - وهـو لقب احترام لأحفاد محمد، نبي دين الإسلام - وفي 1757م، شن الأخوان تمردًا ضد بلاط "تشينج"، حـيث جمعـا الأرسـتقراطيين مـن قبـائل الأويجـور الأخـرى، لكن بعض الـدول والمدن، مثل "آكسو" و"كوجا"، رفضت الانضمام، وأبلغت بلاط "تشينج" بالثورة؛ لذلك في عام 1758م أرسلت حكومة "تشينج" قوات لقمعها، وبعد أن عانوا من

الاضطهاد في ظل الشقيقين، انشق العديد من الجنود المتمردين؛ لذلك غزت قوات "تشينج" قريبًا "كاشجار" و"ياركاند"، ثم فر الأخوان إلى "بدخشان"، شرقي أفغانستان اليوم، ولكن بعد المفاوضات مع "تشينج"، قتلهما رئيس "بدخشان"، ولتشديد سلطتها على "شينجيانج"، قامت حكومة "تشينج" بإقامة مسؤول إشرافي، ووكيل إمبراطوري محلي، وحاكم عسكري في "كاشجار".

ثم حول الإمبراطور "تشيان لونج" اهتمامه إلى حدود الصين مع بورما، حيث كانت الحرب مستمرة، ففي 1753م، ارتفع رئيس البورميين "آلاونج بايا" إلى السلطة، وأعاد توحيد البلاد عن طريق إنشاء أسرة "آلاونج بايا" (المعروفة أيضًا باسم أسرة "كونباونج"، واستمر حكمها من 1752 إلى 1885م)، وأجبر الأقليات العرقية على طول حدودها مع الصين على دفع الخراج، وأرسل بعضًا من مشايخهم للسلطات في "يونّان" طلبًا للمساعدة، ولكن في ذلك الوقت، كانت حكومة "تشينج" مشغولة للغاية في قمع ثورة الإخوة الأويجور في "شينجيانج"، وببساطة استرضت البورميين، وفي عام 1762م، هاجم جنود بورما وجماعة "موبانج تسو" العرقية، أي ما مجموعه 2000 شخص، قبيلتي "مينجدينج" و"غينغما" في الصين، وأسروا رئيس "مينجدينج" وحرقوا المكاتب الحكومية في "جينجما" ولكن "يونّان" لم تستجب لهم.

في عام 1765م، اندلعت حرب بين بورما وسيام (تايلاند اليوم)، وحيث كانت مدينة "تشيلي توسي" -"شيشوانغبانّا" اليوم، بمقاطعة "يونّان"- في طريق الجيش البورمي فقد قاموا بنهبها من أجل المال والطعام والعمل، وقوبلوا بمقاومة غير فعالة على يد ليوزاو، الحاكم العام في "يونّان" و"جويتشو"، الذي انتحر في وقت لاحق، وفي عام 1766م، قاد "يانج ينججو"، الحاكم العام الجديد، القوات إلى الحدود البورمية، وانتشرت شائعة أنها قد بلغت 500.000 جندي؛ وفي الواقع، كان هناك فقط 20.000 منهم، حقيقة اكتشفها البورميون سريعًا، وردًا على ذلك، أرسلوا 30.000 من الجنود المهرة لدحر قوات "تشينج" تمامًا، ثم كذب "يانج ينججو" أمام بلاط "تشينج"، مدعيًا أنه قتل مئات الآلاف

من الأعداء، عندما كشف الإمبراطور "تشيان لونج" الكذبة، أمر "يانج" بالتكفير عنها بحياته، والحاكم التالي "مينجروي"، لم يفعل سوى القليل؛ فقاد قوة قوامها 50.000 جندي، وسار ببطء شديد بحيث كان لدى البورميين متسع من الوقت لإعداد هجوم قاتل، حيث قُتل "مينجروي" ومعظم جنرالاته.

في عام 1768م، شن الإمبراطور "تشيان لونج" حربًا واسعة النطاق ضد بورما، وقام "فوهينج"، المفوض السامي الذي تم تعيينه حديثًا، بالسير بقواته على طول الطريق إلى "لاوجوانتون"، البوابة إلى العاصمة البورمية "آفا"، وحلت حالة من الجمود وسعى البورميون للسلام، والذي قبلته حكومة "تشينج"، نظرًا لأن القوات كانت تعاني من الزحار، وتم التوصل إلى اتفاق سلام رسمي في الشهر الحادي عشر من عام 1769م، منهيًا الحرب التي استمرت سبع سنوات بين الصين وبورما والتي كانت مكلفة للجانبين، ومع ذلك، جلبت الحرب تغيرًا كبيرًا في جنوب شرق آسيا، فاستعادت سيام أراضها المفقودة واعترفت بورما بقوة الصين العسكرية، مما أدى إلى علاقات جيدة بين البلدين على مدى أكثر من قرنين.

إلى جانب النزاع مع بورما، دخلت الصين أيضًا في حرب مع "آنام" (جزء من فيتنام اليوم)، التي تحدت "يونّان" و"جوانجشي"، كان الإمبراطور "ينجزونج" من أسرة "مينج" قد جعل "لي لين" ملك "آنام"، وكانت أسرة "لي" تحت سيادة بلاط "تشينغ"، ولكن في عام 1788م، حدث انقلاب، حيث هاجم "روان هوي" "ليتشينج"، عاصمة "آنام"، وهرب الملك "لي وي تشي"، وقد أبلغ "صن يونج" حاكم مقاطعة "جوانجشي" هذه الأنباء إلى بلاط "تشينج"، وعندها أمر الإمبراطور "تشيان لونج" بإرسال الجنود، ولم يلقوا مقاومة في البداية، وتم إنقاذ "ليتشينج" وهرب "روان هوي" إلى "جوانجنان"، وفي الشهر الثاني عشر، أعيد "لي وي تشي" وعادت أسرته إلى أراضيها.

لكن "روان هوي"، على الرغم من هزيمته، لا يزال لديه عشرات الآلاف من الجنود، وفي ليلة رأس السنة الجديدة في 1789م، عندما كان جنود "تشينج"

يحتفلون، ورد فجأة أن "روان" قد شن هجومًا، وتحولت الاحتفالات إلى فوضى، وتمكن أقل من نصف جنود "تشينج" من الفرار واستسلم الباقون، وفي الشهر الرابع، أعلن الإمبراطور "تشيان لونج" "روان هوي" ملكًا على "آنام"، واستقر "لي وي تشي" ورجاله في بكين، وبالنظر إلى أن أسرة "تشينج" كانت غير مبالية نسبيًّا بمن حكم هذه الدولة الشاذة، فإن العلاقة بين الصين و"آنام" ظلت ودية.

في هذه الأثناء، كان التوتر يختمر في التبت، ففي عام 1788م، اندلع الصراع بين الشقيق الأصغر للبانتشن لاما السادس، "ميبام تشودروب جيامتسو"، وأخيه الأكبر، "ترونجبا تولكو"، والتفت الأول إلى الجورخا للحصول على المساعدة، وكان "جورخا" في الأصل قرية تابعة لمنطقة "جانداكي" في وسط غرب نيبال، ولكن تم احتلالها في وقت لاحق على يد الهنود الذين أسسوا مملكة "جورخا"، وفي الشهر السادس من عام 1788م، أرسل "باهادور" شاه 3000 جندي من "جورخا" تحت القيادة المشتركة لـ"دامودار باندي" و"بام" شاه للاستيلاء على المناطق الواقعة على الحدود الجنوبية للتبت قبل أن يحاصر "شيجآرزونج" ("تينجري" الحالية)، وأرسلت "تشينج" الجنود للتدخل، فأرسل الإمبراطور "تشيان لونج" حارسه الشخصي الإمبراطوري، "باتشونج"، ليكون قائدًا للجيش، ومع ذلك، عندما وصلت قوات "تشينج" إلى الحدود بين الصين و"جورخا"، اتضح أن "الدالاي لاما"، و"ترونجبا تولكو"، و"يامانتاي" قد تفاوضوا سرًّا مع "جورخا"، حيث ستدفع التبت 300 سبيكة فضية على شكل حذاء كل عام لانسحاب قوات "جورخا"، تمت الموافقة على اتفاقية السلام من جانب "باتشونج"، الذي أخفاها عن الإمبراطور وعاد إلى بكين، متلقيًا المكافأة عن خدماته المتميزة.

ثم في عام 1791م، هاجمت "جورخا" التبت، مدعين أن التبت لم تدفع المبلغ المتفق عليه من سبائك الفضة، وبما أن الهجوم لم يكن متوقعًا، فقد أحرزوا تقدمًا سريعًا وسرعان ما استولوا على "تاشيلهونبو"، عاصمة التبت، وسرقوا

الدير، استشاط بلاط "تشينج" غضبًا، وخوفًا من العقاب، انتحر "باتشونج"، وأرسلت قوات جديدة إلى التبت، ومن ثم توسل ملك "جورخا" على عجل من أجل السلام، لكن الإمبراطور "تشيان لونج" كان الآن في مزاج لعقاب شخص ما، ورفض التفاوض، سارت نخبة قوات "تشينج" نحو "جورخا" ووصلت إلى جبل "يونجيا"، ولكن المقاومة الشديدة من قوات "جورخا" أبطأت مسيرتهم نحو العاصمة، ومع وصول الثلوج الشتوية، التي من شأنها إغلاق الممرات الجبلية، تم التوصل إلى اتفاق سلام ووافقت "جورخا" على دفع الجزية كل خمس سنوات في مقابل انسحاب قوات "تشينج".

الدالاي لاما والبانتشن لاما

دخلت البوذية التبتية، والتي تسمى أيضًا بوذية اللاما، إلى التبت في القرن السابع الميلادي، وتميزت بشكل فريد بدمج الدين والسياسة، تم تقسيمها إلى خمس مدارس، والتي أصبحت طائفة "جيلوجبا" أكثرها أهمية، ولد مؤسسها، تسونج - خابا (الرجل من وادي البصل) في معبد تار (المعروف أيضًا باسم دير كومبوم) في مقاطعة "هوانجتشونج" بمقاطعة "تشينجهاي" (انظر الشكل 27)، كراهب من سن مبكرة، درس طائفة واسعة من العقائد البوذية، وجاء للدفاع عن الانضباط الصارم للرهبان البوذيين - لا الزراعة، وعدم الزواج - كما عزز إدارة المعابد، بدعم من النظام المحلي، وأطلق جمعية دارما في لاسا عام 1409م، وفي وقت لاحق بنى دير "جاندين" وأصبح رئيس الدير هناك، مما أشار إلى بداية طائفة "جيلوجبا"؛ وتبعته أديرة أخرى مع نمو نفوذه.

وفي عام 1578م، دعا "آلتان" خان من قبيلة "توميد" المغولية "سونام جياتسو" من دير "دريبونج" لقبول لقب الدالاي لاما - والذي يعني حرفيًا اللاما "المحيط" (أي واسع العلم) - ويعتقد العديد من التبتيين أن الدلاي لاما هو تجسيد لأفالوكيتشفارا، وهو بوديساتفا يتميز بالتعاطف الشديد ظهر في

السنوات الأولى للبوذية، وفي عام 1642م، هزم "جوشري" خان (1582-1655) حاكم قبيلة "هوشود" المغولية أعداء طائفة "جيلوجبا"، وبالتالي رسخت أسسها فوق جميع المدارس البوذية في تلك المنطقة، ويمكن إرجاع لقب "بانتشن إرديني" إلى عام 1645م، عندما منحه "غوشري" خان إلى "لوبسانج كيوجي"، رئيس دير "تاشيلهونبو" في "جيلوجبا"، ووضع البانتشن لاما في المرتبة الثانية بعد الدالاي لاما.



الشكل (27): لوحة الأنجكا التبتية.

بعد إعادة توحيد البلاد، اعترفت حكومة "تشينج" بألقاب الدالاي لاما والبانتشن

لاما من أجل تعزيز سيطرتها على التبت، وفي عام 1652م، دعي الإمبراطور "شونزي" الدلاي لاما الخامس "لوبسانج جياتسو" إلى بكين، وقد استقبلته حكومة "تشينج" بحرارة وأمضى شهرين في القصر الأصفر، الذي تم تشييده خصيصًا لإيوائه، وقد أغدق عليه بأصناف من الذهب والحرير الملون والخيول والسروج، بالإضافة إلى مرسوم وختم ذهبي، وفي العام التالي، اعترف الإمبراطور "شونزي" رسميًّا بدوره باعتباره الزعيم الديني والسياسي الرئيس للتبت، ولدى عودته إلى الوطن، أقام الدالاي لاما أكثر من اثنى عشر من الأديرة المبنية بالذهب والفضة التي قدمتها بلاط "تشينج"، وأقام رسميًّا اللوائح والطقوس الخاصة بطائفة "جيلوجبا"، وكتب هو نفسه أعمالًا في مختلف الموضوعات، بما في ذلك "قصص الملوك والوزراء التبتيين"، و"تفسير جديد للكائنات"، و"ملاحظات تعليمية حول تنظيم المسار البوذي"، و"مقدمة إلى التراحم" ويُنظر إليها الآن جميعًا على أنها كلاسيكيات بوذية.

في عام 1713م، ولاحتواء سلطة الدالاي لاما، منح الإمبراطور "كانجشي" لقب الـ"بانتشن إرديني" لـ"لوبسانج يشي"، خامس البانتشن لاما، وقد حصل على مرسوم من الذهب (رد مكتوب بخط يد الإمبراطور على مذكرة أو مسألة على الحرير الذهبي) وختم ذهبي، وطلب منه مشاركة السلطة الإدارية مع الدالاي لاما، وكان موقعهما على التوالي في لاسا في "أو" (جبهة التبت المعينة) و"تاشيلهونبو" في "شيجاتسي" التي تقع في "تسانج" (المعروفة باسم ظهر التبت)؛ واستقرت أسرة البانتشن لاما في "شيغاتسي"، والتي أصبحت في ما بعد مركزًا للدين والسياسة التبتية، وفي عام 1727م، أضافت حكومة "تشينج" نائبًا إمبراطوريًّا للحكم مع الدالاي لاما والبانتشن لاما، وقد شاركوه الحكم من الناحية النظرية ولكن في الواقع كان على جميع المسؤولين المحليين في التبت اتباع أوامر النائبين الإمبراطوريين، وكانوا يقومون بإبلاغ جميع شؤون التبت إلى الإمبراطور دون سواهم، كما أشرف النائب الإمبراطوري على نظام الجرّة الذهبية، والإشراف على البحث عن التناسخ الجديد، وتنصيب الدالاي، والبانتشن، وأي بوذا حي آخر.

في الأيام الأولى، واجهت طائفة "جيلوجبا" بعض المعارضة من القوى المحلية، وكان لنظام التناسخ دور مهم في ضمان استقرارها، وكانت الميزة المهمة لهذا البحث عن الفتى الذي تجسدت فيه الروح، وكانت هناك آلية كاملة لاختبار واختيار المرشحين، والتي بدأت مع النُذُر التي ينبغي أن تحدث قبل وبعد وفاة الـ"بوذا" الحي القائم، وتنبؤات حامي الدارما، كان مطلوبًا من المرشحين التعرف على ما استخدمه الـ"بوذا" الحي في حياته اليومية، ويتم اختيار صبي واحد من خلال هذه الاختبارات، ومن عهد "كانجشي" إلى "تشيان لونج"، نشأ صراع عنيف بين مختلف الطوائف في التبت، حيث حاولت كل واحدة منهم السيطرة على الـ"بوذا" الحي؛ وأصبح اختيار الصبي الذي تجسدت فيه الروح فاسدًا، مع أن المرشّح المختار غالبًا ما يأتي من عائلة كبيرة من المغول أو التبت.

بعد تعيين نائب إمبراطوري في عام 1727م، كان يجب الإبلاغ عن الاختيار من خلاله إلى بلاط "تشينج"، حقيقة أن الانتقاء كان بانتظام من نفس العائلات جعل الإمبراطور "تشيان لونج" يدرك أن الإصلاح ضروري، عامل آخر كان الأحداث التي أعقبت وفاة البانتشن السادس في عام 1780م، حيث استولى شقيقه الأكبر على ممتلكاته، وهو لاما في دير "تاشيلهونبو"، ولم يَتَلَقَّ شقيقه الأصغر، "ميبام تشودروب جيامتسو" - وهو الشاماربا لاما العاشر من طائفة "كارما كاجيو" ذوي القبعة الحمراء - أي شيء، فهرب إلى مملكة "جوركا" وتآمر مع ملكها لمهاجمة التبت، فأرسل الإمبراطور "تشيان لونج" على الفور جيشًا كبيرًا إلى التبت، وعاقب بشدة خيانة "ميبام تشودروب جيامتسو".

كل هذا أدى إلى إصدار مرسوم ملكي ذي تسع وعشرون مادة بحكم أفضل في التبت لعام 1793م، وأمرت المادة الأولى ببروتوكول جديد، ألا وهو نظام الجرة الذهبية، لتقرير التناسخ في الدالاي لاما والبانتشن لاما، حيث يضع حماة الدارما الأربعة الآن شريحة معدنية في جرة ذهبية، حيث يكتب اسم كل مرشح وتاريخ ميلاده بلغات المانشو والصينية والتبتية، وبعد سبعة أيام من الصلاة، تسحب شريحة وتحديد الصبي الصحيح على يد اللامات الأعلى

والنائب الإمبراطوري أمام تمثال "ساكياموني" في معبد "جوخانج". وإذا تم العثور على فتى واحد فقط، يتم كتابة اسمه على شريحة معدنية ووضعها مع شريحة أخرى فارغة في الجرة، وإذا سحبت القصاصة الفارغة، فلا يمكن أخذ الصبي على أنه التجسد الصحيح، إذًا فلا بدَّ من العثور على صبي آخر، أشرف على العملية برمتها ورفع تقاريرها إلى البلاط الإمبراطوري نواب أباطرة "تشينج"، وبالتالي كان الأمر كله في أيدي حكومة "تشينج"، وكان لنظام الجرة الذهبية تأثير كبير على المجتمع وعلى الدوائر البوذية في التبت ومنغوليا، كما ساهمت في استقرار المناطق الحدودية للصين وتقوية العلاقة بين الطبقة العليا الدينية والرهبان والسكان العاديين.

الازدهار الأخير للمجتمع الإقطاعي الصيني

القوة المتنامية للملكية تحت حكم أسرة "تشينج"

بدأ الحكم الأوتوقراطي في الصين في عهد أسرة تشين (221 - 206 قبل الميلاد)، ووصل إلى ذروته في عهد أسرة "تشينج"، عندما أسس "نورهاتشي" أسرة "جين" المتأخرة، تم تحديد الشؤون العامة بالاشتراك مع الـ"بايلي" (اللوردات)، وكان معظمهم من أبناء "نورهاتشي" أو أبناء إخوته، وكانوا يتمتعون بقوة هائلة، وعندما تولى الإمبراطور الأول لـ"تشينج"، "هونج تايجي"، العرش، أدرك أن اللوردات أقوياء للغاية، ولذلك قام بتخفيف تأثيرهم من خلال تعيين ثمانية من الأوصياء الذين يحق لهم مناقشة جميع شؤون الدولة مع الـ"بايلي"، وعلى الرغم من أن المرشحين للوزراء كانوا محصورين في نبلاء مانشو، فقد تم اختيارهم من الـ"بيزي"، الذين كانوا في مرتبة أدنى من الـ"بايلي" ويمكن التحكم فيهم بسهولة أكبر.

ورثت حكومة مانشو أنظمة "مينج" السياسية والاقتصادية، مع توحيد البلاد وتعزيز الحكم الاستبدادي، أصبح الصراع على السلطة بين مجلس الحكام والإمبراطور أكثر حدة، في السنة الأولى من حكم الإمبراطور "كانجشي"،

سيطر أربعة أعضاء فقط، وهم "سونين" و"إيبيلون" و"سوكسا" و"أوبوي"، على المجلس، ولتخفيف سلطتهم، زاد الإمبراطور "شونتشي" عدد الأعضاء، وفتح الباب لطبقة النبلاء الأدنى والوزراء، وحتى لشعب "هان"، لم يفقد المجلس السلطة الحقيقية حتى ظهور المكتب الجنوبي، التي تقع في الركن الجنوبي الغربي من قاعة الطهارة السماوية، وفي الأصل، كان هذا هو المكان الذي كان يناقش فيه الإمبراطور "كانجشي" شؤون الدولة مع أعضاء المجلس، ولكن عندما ظهرت الخلافات، كان للمجلس الكلمة الأخيرة، كان الإمبراطور مصممًا على استعادة السلطة مرة أخرى، ولفعل ذلك جعل من المكتب الجنوبي قاعدته حصرًا لمرؤوسيه الموثوق بهم، وفي الوقت الذي تطور فيه إلى جهاز دولة أساسي حيث تم البت في العديد من الشؤون الرئيسة تحت سيطرته المباشرة، وترك المجلس عاجزًا.

في عام 1729م، كانت السنة السابعة من حكم الإمبراطور "يونج تشينج"، شمال غرب الصين في حالة حرب، تقع الأمانة الكبرى خارج بوابة التناغم الأعظم؛ لذا كانت هناك مخاطر من تسرب الأسرار العسكرية، وهكذا تم تأسيس بيت الأسرار العسكرية داخل بوابة الأجداد البارزين، والتي هي أقرب بكثير إلى البلاط الداخلي، تم إرسال أعضاء الأمانة العامة الجديرين بالثقة إلى العمل في ذلك البيت لمساعدة الإمبراطور والتعامل مع الأمور العسكرية العاجلة، وفي عام 1732م، تم تغيير اسم البيت إلى المجلس الكبير، واختار الإمبراطور الوزراء من بين كبار الأمناء، أو الوزراء، أو وكلاء الوزراء، أو المرؤوسين الموثوقين، واختير الأمناء في المجلس الأعلى من أعضاء الأمانة العامة الكبرى، وأكاديمية "هانلين"، والوزارات الست، وبلاط الشؤون القبلية، ومع ذلك، كان المسؤولون في الوزارة متزامنين ومؤقتين، وأجريت الترقيات أو التخفيضات أو التحويلات في أقسامها الأصلية، بالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك تسلسل هرمي بين الوزراء والأمناء في المجلس منذ اختيارهم من الإدارات المختلفة، مما يجعل من غير المحتمل أن يتعاونوا بعضهم مع بعض، وباختصار، لم يكن المجلس الأعلى أكثر من مجرد أمانة لممارسة سلطة

الإمبراطور، ولم يشكل تهديدًا لحكمه.

في عام 1791م، والسنة السادسة والخمسين من عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، ألغي مجلس الحكام وأعيد توزيع سلطاته على المجلس الأعلى، الذي أصبح السلطة العليا للبلاد، وهكذا أصبحت السلطة التي كانت تخص المسؤولين الآن في يد الإمبراطور، مما جعل الحكم الأوتوقراطي في ذروته، وكان أحد جوانب مركزية السلطة هو نظام المذكرات، الذي ورثته أسرة "تشينج" المبكرة من عهد أسرة "مينج"، وبرز نوعان من المذكرات "تيبين" للشؤون العامة و"تزوبين" في الأمور الشخصية، ومع ذلك، لا يمكن لأي من النوعين الوصول إلى الإمبراطور مباشرة، حيث يتعين على الأمانة الكبرى قراءتها ومناقشتها قبل تقديمها له، وبالتالي كان النظام مستهلكًا للوقت وغير آمن؛ لذا طلب الإمبراطور "كانجشي" من مسؤوليه الموثوقين وحكام المقاطعات إرسال "مذكرات سرية" تصل إليه مباشرة، مما مكنه من مراقبة موظفيه وعامة الجمهور على نحو أكثر فعالية، ومنذ بدء كتابة هذه التذكارات وإرسالها سرًّا، تم ضبط النفس المتبادل بين حكام المقاطعات والمفتشين والمسؤولين المحليين والمسؤولين المركزيين والبلاط الداخلية والخارجية، فقد عرف الإمبراطور كل شيء؛ لأن مخبريه كانوا في كل مكان.

وهناك علامة أخرى على الاستبداد المتنامي لأسرة "تشينج" وهي العدد غير المسبوق من عمليات التحقيق الأدبية، فاضطهد المثقفون الذين كتبوا أي شيء اعتبره الحكام مهينًا، وتظهر السجلات التاريخية أن هناك سبع حالات من هذا القبيل في عهد الإمبراطور "شونتشي"، واثنتا عشرة خلال عهد الإمبراطور "كانجشي"، وسبع عشرة خلال عهد الإمبراطور "يونجتشينج" وأكثر من مائة وثلاثين في عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، حدثت الحالة الأولى من هذا النوع في عام 1647م، وهي السنة الرابعة من عهد الإمبراطور "شونزي"، تم القبض على راهب يدعى "هانكي" مع كتاب تاريخ اسمه "حكاية الثورة" في حوزته، والذي سجل أعمال الثوار المناهضين لـ"تشينج"، وبعد سجن دام سنة، نُفي إلى

"شنيانج"، وفي حالة "تشوانج تينج لونج" (المعروف أيضًا باسم حالة "تاريخ أسرة "مينج") في عهد الإمبراطور "كانجشي"، تعرض أكثر من سبعين شخصًا للتعذيب أو الشنق، ونُفي مئات آخرون، ومع ذلك، تجاوزت هذه الأحداث المدى خلال عهد الإمبراطور "تشيان لونغ"، عندما أسفرت سبع وأربعون حالة عن أحكام الإعدام، وعدد لا يحصى من المتورطين، كان الحكم يعتمد في كثير من الأحيان على التخمين غير العقلاني أو حتى الارتياب، وقتل عدد قليل من المجانين الذين قاموا بنشر سطور هجومية بتقطيع أوصالهم، كل هذا خنق التعبير الشعبي والإبداع بالأغلال، وأعاق البحث والتطوير الأكاديمي في البلاد.

الرخاء في عهود "كانجشي" و"يونج تشينج" و"تشيان لونج"

كان هناك جدل كبير حول الازدهار خلال 115 عامًا من عام 1681م، عندما أُخمدت الإقطاعيات الثلاثة، إلى 1796م، عندما اندلعت الثورات بقيادة جمعية اللوتس البيضاء في "سيتشوان" و"شانشي" و"هوبي"، وقد ادعى البعض أن فكرة "الحقبة المزدهرة" هي دعاية، في حين أن البعض الآخر آمن بأن هذه المرة هي آخر ازدهار للحكم الإقطاعي في الصين، ومقارنة بالأسر السابقة، كانت أسرة "تشينج" تتمتع بقوة مركزية أكثر اكتمالًا وكفاءة، مما ساعد على الحفاظ على وحدة البلاد، ومع ذلك، تخلفت الصين عن الغرب، وبالرغم من أن عهود الأباطرة "كانجشي" و"يونجتشينج" و"تشيان لونج" شهدت نظامًا سياسيًا فعالًا فإنها لم تكن متناغمة مع الزمن.

اهتم الإمبراطور "كانجشي" بتعزيز النظام الرسمي، ووجود مجموعة كبيرة من المسؤولين الشرفاء والمستقلين، ممثلين في "يو تشينجلونج"، ولكن بحلول نهاية عهده، كانت روحه المائلة للعفو سببًا في ألا يتلقى المسؤولون غير الشرفاء عقوبة خطيرة، وأصبح الفساد منتشرًا، وقام الإمبراطور "يونج تشينج"، خليفة "كانجشي"، بقمع الفساد ومحاولة منعه عن طريق مكافأة

المسؤولين الذين يتلقون رواتب عالية على أمل أن يؤدي ذلك إلى الحد من الفساد في الحكومة، لكن عندما وصل الأمر إلى عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، وخاصة في فترة لاحقة، ارتفع الفساد والاختلاس مرة أخرى، وتجاهلهم الإمبراطور، وكان لهذا تأثير حتمي على الاقتصاد.

في حالة الفوضى التي حدثت في أواخر عهد أسرة "مينج" وأوائل عهد أسرة "تشينج"، أصبحت الأراضي قاحلة، وأُغلقت الأعمال التجارية وانخفض عدد السكان بشكل حاد نتيجة للحرب التي لا نهاية لها، شكّل ذلك تحديًا كبيرًا لبلاط "تشينج" الجديد الذي طبق العديد من الإجراءات لتعزيز الإنتاج، كان أهم إصلاح هو تحويل ضريبة الاقتراع إلى ضريبة الأراضي، والانتقال من نظام الضرائب على أساس الأرقام السكانية لمنطقة معينة إلى واحدة استنادًا إلى كمية الأرض المملوكة، وهو نظام يوزع العبء الضريبي بشكل أكثر عدلاً، تم إطلاق هذه السياسة في عهد الإمبراطور "كانجشي" ونضجت خلال فترات حكم "يونجتشينج" و"تشيان لونج"، فقد حررت الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا وغيرهم من العمال من ضريبة الاقتراع الضخمة التي كانت تثقل كاهلهم لآلاف السنين، وفرضت ضرائب أثقل على الملاك، مما أدى بدوره إلى تقييد شهيتهم لزيادة ملكيتهم للأراضي، ساعد النظام على تقليص الإجراءات الضريبية، حيث أصبحت ضريبة الأراضي القاعدة الضريبية الوحيدة، تم تخفيف السيطرة على حركة الناس، مما مكن الفلاحين والعاملين اليدويين من بيع عملهم حيثما كانت هناك حاجة إليه، حفز هذا الناس على العمل بجدية أكبر، مما أدى إلى زيادة الإنتاج والتنمية الاجتماعية، وكانت الزيادة الحادة في عدد السكان خلال عهود "كانجشي" و"تشيان لونج"، وبالتالي النمو في الاقتصاد الزراعي نتيجة لهذه السياسة، ووفقًا لـ"السجل المدقق لأسرة "تشينج"، كان هناك 19.13 مليون دافع ضرائب في عام 1661م، حيث ارتفع إلى 24.62 مليون في 1711م؛ وبالنظر إلى أن دافعي الضرائب كانوا من الذكور البالغين فقط، فإن هذا يعطي مؤشرًا على إجمالي السكان في ذلك الوقت.

بدأت الصناعات الحرفية التي دمرتها الحروب في أواخر عهد أسرة "مينج" وأوائل عهد أسرة "تشينج" في الازدهار في منتصف عهد الإمبراطور كانجشي، كانت صناعة الحرير ذات أهمية خاصة ومزدهرة في "سوتشو" و"هانجتشو" و"جوانج تشو" و"فوشان"، وأسس بلاط "تشينج" مكاتب إدارية في "جيانجنينج" و"سوتشو" و"هانجتشو" للسيطرة على الصناعة وتسهيل توريد السلع الحريرية المحسنة إلى البلاط، وساهمت الزيادة الحادة في عدد ونوعية آلات غزل الحرير في التطور السريع لصناعات الحرير المنزلية، كما حدثت تطورات مهمة في صناعة القطن، مع تطورات ملحوظة في ماكينات النسيج والأنوال، مما سمح بتحسين النوعية والكمية، وكانت صناعة الخزف أيضًا واحدة من الصناعات الحرفية الرئيسة لأسرة "تشينج"، وكان مركزها في "جينجديتشن" في مقاطعة "جيانجشى" كمركز لها، وخلال عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، اشتهر أكثر من أربعين موقعًا آخر لإنتاج الخزف.

ازدهر تجهيز السكر، وصناعة المعادن والحديد، وتكون سوق في الداخل والخارج، كما نما التوسع التجاري في السلع الزراعية؛ فتوسعت المزارع والبلدات، وتطورت التجارة الخارجية، وقبل أن يعتلي الإمبراطور "جياتشينج" العرش، تمتعت الصين بتوازن مواتٍ للتجارة، ومع ذلك، يؤكد العديد من الباحثين أن الإبداع الفكري والثقافة والاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا انخفض بالفعل مقارنة مع أواخر عهد أسرة "مينج"، بل وأكثر من ذلك بالمقارنة مع الغرب، وقد قادت "مينج" العالم في بناء السفن، والهندسة المعمارية، والحرير، والأواني الصينية، وقد شكل إنتاجها الصناعي أكثر من ثلثي الإجمالي العالمي، في المقابل، شكل الإنتاج الصناعي لأسرة "تشينج" في عام 1840م نسبة ستة بالمائة فقط من حيث القيمة العالمية.

كما دفعت أكثر من عشرين دولة أخرى الخراج لأسرة "تشينج"، وحددت معاهدة "نيرشنسك" الحدود بين الصين وروسيا، ومنعت هذه الأخيرة من الغزو من الشمال، لكن الصين أدارت ظهرها للعالم بينما كان الغرب يحتفل بعهد

جديد، وحافظت إمبراطورية "تشينج"، تحت ستار الرخاء، على موقفها لفترة، لكن الفجوة بين الصين والعالم الغربي نمت على نطاق أوسع، وبعد نصف قرن من الحكم المزدهر لأباطرة "كانجشي" و"يونج تشينج" و"تشيان لونغ"، أصبحت الصين شبه مستعمرة.

أزمة الحكم في منتصف وآخر عهد أسرة "تشينج"

حكم الإمبراطور "تشيان لونج" لمدة أربع وستين سنة (على الرغم من كونه في المرتبة الثانية بعد الإمبراطور "كانجشي"، فقد حكم بالاسم فقط لستين عامًا)، تميزت الإنجازات العظيمة بالجزء المبكر من عهده، ولا سيّما التوسع في المنطقة الخاضعة لسيطرة الأسرة لتشمل الكثير من غرب الصين، ولكن سنواته الأخيرة - لا سيما في العقدين الأخيرين - شابها الفساد، وسوء الممارسة السياسية، وعجز الخزانة وبؤس الشعب، وفي ذروة نشاطه، كانت الخزانة تحتفظ بفضّة أكثر مما كانت في عهد الإمبراطور "كانجشي"، ولكن بتخليه عن العرش، كانت فارغة تقريبًا.

كان بلاط "تشينج" يعاني من البيروقراطية، والمحسوبية، والصراع السياسي، والمشكلات التي ساءت خلال فترات حكم الإمبراطور "تشيان لونج" و"جياتشينج"، كان أسوأ مسؤول هو الأسطورة "هيشين"، وكان عضوًا في المجلس الكبير في عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، كان "هيشين"، الذي كانت يدعى في الأصل بـ"شانباو"، عضوًا في راية المانشو الحمراء، ولد ابنًا لضابط عسكري عادي، وكان موهوبًا وعمل بجد، درس الكلاسيكيات الكونفوشيوسية، وأتقن لغة المانشو، والهان، والمغولية، والتبتية، وفي عام 1769م، ورث "هيشين" البالغ من العمر عشرين عامًا لقب "القائد العام للمركبات الخفيفة من الدرجة الثالثة"، وفي العام التالي، اجتاز الامتحان المدني الإمبراطوري، لكنه فشل في الفوز بلقب، ثم في سن الثالثة والعشرين، تم تعيينه كحارس شخصي إمبراطوري، وغيرت هذه الوظيفة حياته؛ لأنها مكنته من الفوز بعطف الإمبراطور "تشيان لونج"، ومنذ ذلك الحين، تمت ترقيته بسرعة من حارس

شخصي إلى مسؤول رفيع المستوى في غضون ستة أشهر فقط، ولم تمر فترة طويلة حتى كان وزيرًا في المجلس الكبير.

كان داهية بارعًا عرف كيف يرضي الإمبراطور ولكن الأهم من ذلك، كان خبيرًا في جمع المال، فقد أدى تبذير السنوات الإمبراطورية الأخيرة إلى إفلاس البلاط، وللتعامل مع هذا، وضعت "هيشين" نظامًا تم بموجبه تغريم المسؤولين المحليين بسبب عدم الكفاءة؛ لكن المسؤولين عوضوا ذلك عن طريق نقل الخسائر إلى مرؤوسيهم وأخيرًا إلى الناس، وبينما كان يجمع الأموال والخراج للإمبراطور، كان "هيشين" يملأ جيوبه هو بشكل مستمر، حيث كان هو المشرف على الخراج كله، وهو امتياز مكنه من أن يجمع لنفسه كنوزًا أكثر عددًا وقيمة من تلك الموجودة في القصر الإمبراطوري، كما شكل "هيشين" زمرة خاصة به لتأمين منصبه، وفي عام 1799م، توفي الإمبراطور "تشيان لونج"، وقام الإمبراطور "جياتشينج" على الفور بمقاضاة "هيشين"، اتهم بعشرين جريمة وحكم عليه بالموت، وعندها شنق نفسه؛ صودرت ممتلكاته وحسبت قيمتها تقريبًا بقدر الإيرادات الكاملة للبلاط على مدى فترة خمسة عشر عامًا.

كان الإمبراطور "تشيان لونج" هو الذي رعى المسؤولين الفاسدين مثل "هيشين"، الأمر الذي أدى إلى قضية "يين تشوانجتو" العبثية، كان "يين" من "مينج تزي" في مقاطعة "يونّان"، وفي السنة الخامسة والخمسين من عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، قدم "يين"، الذي كان آنذاك عضوًا في الأمانة العامة ونائبًا للوزارات، مذكرة رسمية عن الممارسات الخاطئة في النظام الدقيق للمسؤولين المحليين الذين وضعهم "هيشين"، واقترح إلغاءها، هذا أزعج الإمبراطور، الذي اعتمد على الغرامات؛ لذلك أمر "يين" بالذهاب والتحقيق، وفي غضون ذلك، أخبر المسؤولين المحليين سرًّا بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة ضده، لذلك لم يكتشف "يين تشوانجتو" شيئًا، وكان عليه تقديم استقالته.

أدت مستويات الفساد حتمًا إلى الاضطرابات، فخلال فترة حكم الإمبراطور

"كانجشي"، كان هناك استياء واسع النطاق بين دافعي الضرائب في المناطق الريفيـة فـي "جيانجشي" و"فوجيـان" وغيرها من المقاطعات، مع مطالب بإعفاءات الضرائب والإيجارات، في عام 1786م، بدأ الناس في تايوان ثورة ضد المسؤولين الفاسدين، بقيادة "لين شوانجوِن"، انتشر التمرد، وهاجم ما يصل إلى 100.000 من المتمردين بلاط مقاطعة تايوان، وعلى الرغم من فشله، فقد هز التمرد بشدة بلاط "تشينج".

وكان أكبر تمرد لجمعية اللوتس البيضاء، تختلف الآراء حول أصل الجمعية، فيعتقد بعض العلماء أنهم من الطائفة البوذية التي عبدت "بوذا مايتريا"، ويعتقد آخرون أنها كانت مذهبًا للعبادة المانوية، إلا أن ما هو مؤكد هو أنهم كانوا بمثابة نقطة تجمع لحركات التمرد الفلاحية، وفي منتصف عهد أسرة "تشينج"، سادت الجمعية في "سيتشوان"، و"هوبي"، و"شانشي"، و"قانسو"، و"هنان"، حيث كانت مصادرة الأراضي والضرائب والإيجارات المبتذلة قد ضغطت على الفلاحين أكثر من قدرتهم على التحمل، وشجعت تعاليم المجتمع على المساعدة المتبادلة، وادعت أن أتباعها سينجون من الكارثة بحماية اللوتس المقدسة، وفي عام 1774م، أوضح "فان مينجدي"، رئيس الجمعية أن نهاية العالم كانت قريبة، وفي وقت لاحق، ادعى "ليو تشي شي" و"سونج تشي تشينج" أن أتباعهم سيكونون محميين من الحرب وسوء الحظ الآخر؛ ووعدوا بتوزيع الأراضي والدخل على قدم المساواة، فازداد عدد الأتباع بسرعة، واستعدت الجمعية لإطلاق حركة التمرد.

اضطر بلاط "تشينج" لأخذ الأمر على محمل الجد؛ وبحلول عام 1794م، تم اعتقال معظم النشطاء، باستثناء قلة ممن هربوا، مثل "ليو تشيشي"، ومع ذلك، فإن الحملة فرضت على المسؤولين والجنود فرصًا للابتزاز والاختلاس، في حين قتل العديد من الأبرياء أو ألقي بهم في السجن، مع شعار "المقاومة والقتال"، أعد "ليو تشيشي" وأتباعه تمردًا آخر في السنة الأولى من عهد الإمبراطور "جياتشينج"، حيث وافق كل متمرد على لف رأسه بقطعة من

القماش الأبيض كطريقة تأكيد هويته، عند اكتشافهم، وأمر بلاط "تشينج" على الفور بقمعهم.

كان جيش "شيانج يانج" بقيادة "وانج تسونجر" و"ياو تشيفو" قوة أخرى، وأينما ذهبوا، تلقوا مساعدة من السكان المحليين، الذين قدموا الماء والملبس والغذاء والبارود، وبفضل هذا فقد فازوا في سلسلة من المعارك، مما أجبر الحكومة على حشد المزيد من القوات، انعكس الوضع ببطء، ففي عام 1798م، بعد قتال مرير، حاصرت قوات ملاك الأراضي وقوات "تشينج" المتمردين، فانتحر "وانج كونجر" و"ياو تشيفو"، وفي الوقت نفسه، توسع جيش "سيتشوان" المتمرد بقيادة "شو تياندي" و"لينج تيانلو" بسرعة من خلال الاستفادة من انشغال قوات "تشينج" بجيش "شيانج يانج"، ومع ذلك، غير بلاط "تشينج" الآن من تكتيكاته، حيث حلّ محلّ العديد من المسؤولين الفاسدين سلطات مختصة وتحالف مع الملاك المحليين، الذين تمكنوا من قطع دعم السكان المحليين للمتمردين، وفي عام 1801م، توفي "شو تياندي" في المعركة، واستمر أتباعه في القتال ولم يتم قمعهم حتى عام 1804م، وكان التمرد الذي استمر لمدة تسع سنوات في خمس مقاطعات هو الأكبر في العهد المتوسط لأسرة "تشينج" وضرب بلاط "تشينج" ضربة قاسية، مما أدى إلى تدهوره منذ ذلك الحين.

الفصل الثامن عشر

العلم والفكر الفلسفي والثقافة

في عهدي "مينج" و"تشينج"

المقدمة

لم تكن بكين العاصمة السياسية فحسب بالنسبة لأسرتي "مينج" و"تشينج" الحاكمتين، بل كانت مركزًا للكون، فقد نظر البلاط الإمبراطوري إلى نفسه كحُكم تحت رعاية السماء، كما صممت بنية القصر والمدينة المحيطة به للتأكيد على هذه الحقيقة ودمج الأساس الفلسفي في الكونفوشيوسية التي ظلت فلسفة الدولة الرسمية خلال ما تبقى من الإمبراطورية، مع إدخال تحسينات عليها، وظهرت الكونفوشيوسية الجديدة وأصبحت الأيديولوجية الحاكمة في وقت مبكر من عهد أسرة "سونج"، ولكنها كانت أساسية في تفكير أسرة "مينج"، وكذلك "تشينج"، على الرغم من أصول ذلك البيت الحاكم المنشورية الذي كانت معتقداتهم التقليدية خليطًا من الشامانية والبوذية، وواجهت الأرثوذكسية الكونفوشيوسية تحديات تتمثل في التفكير العلمي والتكنولوجي الغربي منذ أوائل القرن السادس عشر، لكن أسس الكونفوشيوسية بقيت كما هي.

خلال عهد أسرة "مينج"، بدأ ظهور أدبيات لم تكن مخصصة فقط للقضايا الفلسفية والأخلاقية والتي ناشدت القراء من خارج النخبة الحاكمة، فكانت الرواية الصينية مكتوبة بلغة تقترب من اللغة المنطوقة أكثر من اللغة الأدبية الرسمية، وقد ترجع أصولها في هذه الفترة وما زالت أعمال مثل "حافة الماء"، و"رومانسية الممالك الثلاث"، و"رحلة إلى الغرب"، و"جين بينج مي" تقرأ على نطاق واسع، لم يصل الرسم إلى نفس المستويات التي كان عليها في أسرة

"سونج"، ولكن الفنون الأخرى ازدهرت على وجه الخصوص زخرفة الخزف التي حفلت بها فترة "مينج".

استمرت شعبية الرواية في عهد أسرة "تشينج"، التي بلغت ذروتها في أواخر القرن الثامن عشر، في ما يعتقد الكثيرون أنه أعظم أعمال الروايات الصينية التقليدية، "حلم القصور الحمراء" (هونجلومنج) الذي تمت ترجمته أيضًا بـ"قصة الحجر"، ومن الإنجازات السياسية الأدبية الأخرى في الفترة نفسها كانت تجميع "سيكو تشوانشو" (المكتبة الكاملة لأربعة فروع من الأدب)، وضعت هذه المجموعة الضخمة من الأدب الصيني للحفاظ على جميع الأعمال المعتمدة من الأدب والفلسفة والتاريخ، ومع ذلك، فقد تم استخدام المشروع أيضًا لمنع أي عمل كان يعتبر هدامًا أو تجديفًا، وهو ما يمثل استمرارًا في التحقيقات الأدبية السابقة للأسرة.

ازدهر الشعر والخط والرسم، لكن أعمال هذه الفترة لم تعد ذات قيمة عالية مثل تلك التي كانت سائدة في الأسر السابقة، ومع ذلك، ظهر واحد من أكثر أشكال الفن الصيني تميزًا، أوبرا بكين، كشكل متطور وشعبي من الترفيه خلال عهد أسرة "تشينج".

التكنولوجيا والأفكار

إعادة إعمار بكين

في عام 1399م، اعتلى "تشو دي" العرش باسم الإمبراطور "تشينجزو" أو إمبراطور "يونجلي"، وأسس عاصمته في "نانجينج"، ترك هذا شمال الصين دون حماية، يعاني من مضايقات مستمرة من الشعوب غير الصينية على الحدود، وعلاوة على ذلك، وبالنظر إلى أنه استولى على عرش ابن أخيه، الإمبراطور "جيانوين"، الذي كان له تأثير كبير في "نانجينج"، شعر "تشو دي" بعدم الارتياح؛ لذلك اتخذ قرارًا مهمًّا وهو نقل العاصمة، وفي عام 1403 م، قام

بتغيير اسم "بيبينج"، وهو ما يعني "السلام أو التهدئة في الشمال" إلى "بيجينج" (بكين) "عاصمة الشمال"، وفي عام 1406م، سميت بكين بـ"شينجتزاي" - "مكان آخر غير العاصمة يعيش فيه الإمبراطور" - وتم جلب العمال والمواد من جميع أنحاء البلاد لبناء قصر وجدار المدينة، وقد تم الانتهاء منها بعد خمسة عشر عامًا في عام 1420م، وارتفعت في النهاية مدينة بكين لتصبح مكانًا مهمًّا في الشرق.

كانت بكين تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسة: مقر الإقامة الإمبراطورية، والمدينة الإمبراطورية والمدينة الداخلية، كانت الإقامة الإمبراطورية المركزية معروفة بالمدينة المحرمة؛ كان هذا هو المكان الذي عاش فيه الإمبراطور وأدار شؤونه، وخارج هذه المدينة الإمبراطورية وما بعدها تقع المدينة الداخلية، والمعروفة أيضًا باسم المدينة العظيمة، وقام تل "وانسوي"، وهي تلة اصطناعية تعرف باسم "جينجشان" أو تل الفحم في قلب المدينة بأكملها، ويمر من خلاله المحور المركزي بين الشمال والجنوب، وكانت المباني الرئيسة متموضعة بشكل متناظر على جانبي هذا المحور المركزي، وأعطت هذه الترتيبات بكين جوا مهيبًا وعظيمًا.

خلال فترة "جيا جينج"، تم إصلاح المدينة الخارجية بسبب هجمات متكررة على يد مغول الأويرات؛ كان هذا عملًا ضخمًا وكانت الأموال محدودة؛ لذلك في النهاية تم تجديد الجزء الجنوبي فقط، إلى جانب ذلك، تم بناء مذابح حول بكين، للأرض والشمس والقمر والسماء، كانت هناك تسعة بوابات داخلية للمدينة وسبع بوابات خارجية، كانت المنطقة السكنية الرئيسة في المدينة الداخلية؛ وكانت المساكن عادة تجمعات من المباني تتركز حول فناء.

قسم علم التنجيم الصيني القديم السماوات إلى ثلاثة أقسام: القصر الأسمى والممنوع الأرجواني والسوق السماوية، كان المحيط الأرجواني المحظور في المركز وكان المكان الذي عاش فيه الحاكم السماوي؛ لذلك دعا أباطرة "مينج" قصرهم "المدينة الأرجوانية المحرمة"، وهي الطريقة التي حصلت بها المدينة

المحرمة على اسمها، كان هذا الصرح المهيب مستطيلًا، ذا أسوار وخندق، كان طوله 961 مترًا من الشمال إلى الجنوب وعرضه 753 مترًا من الشرق إلى الغرب، وكان محاطًا من الجوانب الأربعة بسور يزيد ارتفاعه عن 10 أمتار، وكان خارجه بعرض 52 مترًا، تم تقسيم المدينة إلى قسمين، كانت الساحة الخارجية تحتوي على ثلاث قاعات رئيسة، بينما احتوت الساحة الداخلية على ثلاثة قصور رئيسة: قصر الطهارة السماوية وقصر الاتحاد والسلام وقصر السلام الأرضي، وفي ذلك الوقت، كانت المدينة المحرمة أكبر مجموعة من القصور في الوجود.

في السنة التاسعة عشرة من عهد "يونجلي"، قُصفت القاعات الرئيسة الثلاث، التي لم تستخدم إلا منذ بضعة أشهر فقط، بالبرق وسُويّت بالأرض، واعتقد إمبراطور "يونجلي" أن هذا كان عقابًا من السماء للاستيلاء على العرش وتحريك العاصمة؛ فلم يجرؤ على إعادة بنائها، وعلى مدى العشرين سنة التي تلتها ظلت قطعة من الآثار المدمرة، وفي نهاية المطاف، تم تجديدها، ولكن أحرقت مرة أخرى في العديد من المناسبات اللاحقة، وما نراه اليوم أعيد بناؤه خلال عهد أسرة "تشينج"، وتم تغيير أسماء القاعات الثلاث الكبرى في عهد "شونتشي" إلى قاعة التناغم الأعظم، وقاعة التناغم المركزي، وقاعة الحفاظ على التناغم.

ويشار عادة إلى قاعة التناغم الأعظم باسم قاعة العرش، وكانت تستخدم لجميع أنواع الاحتفالات، ويعود تاريخ التصميم الذي نراه اليوم إلى ما بعد ترميمه في عهد "كانجشي" وهو أكبر هيكل خشبي في المدينة المحرمة، وخلفها توجد قاعة التناغم المركزي، حيث يستريح الإمبراطور قبل المشاركة في الاحتفالات، وحيث يتلقى احترام مسؤوليه، ووراء هذا قاعة الحفاظ على التناغم، حيث قام الإمبراطور بتغيير ملابسه أثناء عهد أسرة "مينج"، وخلال عهد أسرة "تشينج"، كانت مكان دعوة الوزراء لتناول الطعام معه، والجزء الأكثر روعة من القاعة هو الطريق الحجري الإمبراطوري أسفل منتصف

مجموعة من السلالم إلى الخلف، فهناك المنحوتات الحجرية على السلالم بين الدرجات، ولم يُسمح سوى للإمبراطور فقط بالعبور فوقها حيث يحمل على كرسي ويهبط حاملوه على الدرجات، وتعد أكبر هذه المنحوتات، المعروفة باسم نحت التنين والسحاب الحجري، أكبر نحت في المدينة المحرمة ويبلغ طوله 16.57 مترًا وعرضها 3.07 أمتار.

وراء قاعة الحفاظ على التناغم تقع بوابة الطهارة السماوية، ثم تأتي الساحة الداخلية التي تحتوي على قصر النقاء السماوي، وهو أحد القصور الثلاثة التي عاش فيها الإمبراطور وأدار شؤون الحكومة اليومية، وهناك أيضًا جناح مذهّب يُعرف باسم قصر بلد الأنهار والجبال، ويرمز إلى أن الأنهار والجبال بين يدي الإمبراطور، وقاعة الاتحاد والسلام، حيث تلقت الإمبراطورة التهاني والهدايا في عيد ميلادها، ووراء ذلك يقع قصر الهدوء الأرضي، مقر إقامة الإمبراطورة في عهد أسرة "مينج"، والموقع الرئيس للطقوس الشامانية في عهد أسرة "تشينج"؛ وكان أيضًا غرفة العرس للإمبراطور، وما بعد ذلك تقع الحديقة الإمبراطورية الأنيقة، ذات المناظر الطبيعية الخلابة، والمقسمة إلى أجنحة زرعت بأشجار قديمة، وبصرف النظر عن القاعات الثلاث الكبرى، والقصور الثلاثة الكبرى والحديقة الإمبراطورية على طول المحور المركزي للمدينة المحرمة، هناك أيضًا 8000 غرفة إضافية على كِلا الجانبين، تغطي مساحة إجمالية تبلغ 163.000 متر مربع.

كان بناء بكين تعبيرًا فعليًا عن الفكرة الصينية بأن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة، مع المدينة الإمبراطورية في الوسط، والمكاتب التي تم ترتيبها بشكل مضغوط في الحكومة المركزية والبحيرات والحدائق المتناسقة، فقد جمع تخطيط المدينة رموز الثقافة الصينية التقليدية التي استغرقت عدة آلاف من السنين.

العلوم والتكنولوجيا وإدخال التعليم الغربي

شهدت أسرة "مينج" تقدمًا كبيرًا في الطب، وعلى وجه الخصوص، ظهر العمل الكبير "خلاصة المواد الطبية"، الذي كتبه "لي شيتشين" من "جيتشو في مقاطعة "هوبي" -"جويتشو" في محافظة "تشيتشن" - وكان والده، "لي يان ون"، طبيبًا محليًا معروفًا، وسار "لي شيتشين" على خطى والده، فكان يعمل في المستشفى الإمبراطوري، الذي عالج أعضاء البلاط، خلال هذه الفترة، كان لديه حق الوصول الكامل إلى الأعمال الكلاسيكية الواسعة في مجموعة القصر، وشاهد العديد من العينات الطبية التي يصعب الوصول إليها عادة، ومع ذلك، اكتشف أيضًا العديد من الأخطاء في النصوص الطبية القديمة، وعقد العزم على إنتاج نص شامل بنفسه، وبعد عام واحد في المستشفى، اعتذر عن الخدمة واستقال، وعندها عاد إلى المنزل وبدأ ببطء في كتابة "مجموعة المواد الطبية" أو "بن تساو جانج مو"قام "لي" بزيارات مكثفة للمناطق النائية، وفحص الأعشاب وجمعها، وأيضًا طلب من السكان المحليين معلومات عن الأدوية العشبية، وجمع العديد من العلاجات الشعبية، كما أنه زرع الأعشاب بنفسه وقام بتركيب العديد من الأدوية التي كثيرًا ما اختبرها على نفسه، وبعد سبعة وعشرين عامًا، تم الانتهاء من العمل في نهاية عام 1578م، وكانت "مجموعة المواد الطبية" ملخصًا منهجيًا لمعارف وخبرات الأعشاب السابقة التي استمرت ألفي عام، وحاول تصحيح الأخطاء وتدارك السهو قدر الإمكان، وحتى اليوم، لا يزال يستخدم كمرجع مهم للغاية.

في ميادين علمية أخرى، ظهرت أعمال لأشخاص مثل "سونج ينج شينج" في "استكشاف أعمال الطبيعة"، كان "سونج ينج شينج" من مواطني "فنجشين" بمقاطعة "جيانطشي" اليوم، على الرغم من أنه ولد لعائلة من العلماء، فإنه كان يكره تبذير الأثرياء، وكان غالبًا ما كان يذهب إلى الحقول لمعرفة المزيد عن الإنتاج الزراعي، وأصبح مدرسًا، وبمرور الوقت أنتج "استكشاف أعمال الطبيعة"، وهو بحث علمي وفني شامل عن الزراعة والحرف اليدوية، الكتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء، يصف الجزء الأول تقنيات إنتاج الملابس والأغذية، والجزء الثاني يسجل التقنيات الحرفية؛ أما الجزء الثالث فيتعامل مع صهر

المعادن وتصنيع الأسلحة وصنع الحبر والصبغات وإنتاج الكحول وصيد اللؤلؤ وصقل اليشم.

في هذه الأثناء، كانت الأفكار الغربية تصل ببطء إلى الصين، بدأ المبشرون الغربيون بالوصول في الجزء الأخير من عهد أسرة "مينج"، وكان أحد أكثر الشخصيات تأثيرًا هو "ماتيو ريتشي"، ولد "ريتشي" لعائلة أرستقراطية إيطالية، ومنذ شبابه، برع في الرياضيات والفيزياء والفلك والطب، إضافة إلى صنع الساعات، ورسم الخرائط الجغرافية، والحفر، في عام 1571م انضم إلى جمعية يسوع، وفي عهد "وانلي" في أسرة "مينج" (1573 - 1620) تم إرساله كمبشر إلى الصين، حيث عاش لسنوات عديدة، ومن أجل الاندماج، تبنى الاسم الصيني "لي مادو"، وتعلم اللغة الصينية بعمق واستوعبها وتكيف مع العديد من جوانب الثقافة الصينية، فكان يرتدي الزي الصيني ويعيش وفقًا لآداب وتقاليد الصين، كان من الممكن طرد المبشرين الغربيين إذا اعترفوا بالقدوم إلى التبشير، فتابع "ريتشي" طريقه بحذر، حيث قدم لأول مرة صورًا للسيدة العذراء والخرائط والإسطرلاب لجذب الفضول، وقبل القيام بأي عمل تبشيري، قام بتكوين صداقات مع الأدباء الصينيين ونشر المعرفة الغربية بالجغرافيا، والفلك، والهندسة، وما إلى ذلك؛ كما أنشأ خريطة العالم الأولى في التاريخ الصيني، والخريطة الجغرافية الكاملة لجميع ممالك العالم، وفي رسائله إلى رئيسه اليسوعي في أوروبا، غالبًا ما طلب من روما أن يرسلوا إلى الصين المبشرين الذين كانوا ماهرين في علم الفلك، وحساب التقويم، وغير ذلك من العلوم، ولكن في الواقع، كان هو نفسه بارعًا للغاية في هذه المجالات، وفي عام 1596م، في "نانتشانج"، نجح "ريتشي" في توقع حدوث كسوف الشمس، مما جلب له شهرة محلية كبيرة.

من بين جميع الباحثين في أسرة "مينج"، كان الأكثر تأثيرًا هو "شو جوانج تشي"، وكان اسمه المسيحي "بول"، وولد في محافظة "شانجهاي" بمقاطعة "سونج جيانج" (انظر الشكل 28)، ومنذ شبابه كان مهتمًا للغاية بتكنولوجيا

الإنتاج الزراعي، وحساب الفلك والتقويم، وأعمال الري، وما إلى ذلك، فعندما سمع عن "ماتيو ريتشي"، ذهب إليه وأصبح الاثنان صديقين مقربين، قام "ماتيو" بتعليم "شو جوانجتشي" نظريات الباحث الإغريقي "إقليدس" والنظريات الرياضية الأخرى، وبعد ذلك قرر "شو" ترجمتها إلى اللغة الصينية، وأقنع "ماتيو" بالعمل معه، كتبت العناصر أصلًا باللغة اللاتينية؛ لذا قام "ماتيو" بتقديم ترجمة شفوية كتبها "شو" بعد ذلك، وعمل بجد على المصطلحات الصحيحة، وسمي العمل الناتج "أصول الهندسة" باللغة الصينية، وهو أصل الهندسة التي يتم تدريسها في الصين اليوم، وأصبحت المجلدات الستة الأولى مادة أساسية للقراءة لعلماء الرياضيات في أواخر عهد أسرة "مينج"، وساعدت على تطوير الرياضيات الصينية الحديثة، لسوء الحظ مات "ماتيو ريتشي" قبل أن تتم ترجمة المجلدات التسعة المتبقية، ولكن "شو جوانج تشي" كتب العديد من الأعمال العلمية الأخرى، مثل الموسوعة الكاملة للإدارة الزراعية، والتي شملت جميع جوانب الإنتاج الزراعي القديم، كما قدمت تكنولوجيا الري الأوروبية.



الشكل (28): بورتريه لـ"شو جوانج تشي".

الكونفوشيوسية الجديدة

كانت الكونفوشيوسية الجديدة عبارة عن نظام فلسفي جديد يعتمد على الكونفوشيوسية، واستجابة للتحديات التي تفرضها البوذية، والطاوية التي ظهرت لأول مرة في عهد أسرة "تانج" وتوطدت خلال عهد أسرة "سونج" عندما كان الحكام حريصين على إيجاد شكل جديد من أشكال الكونفوشيوسية لتصبح الأيديولوجية السائدة. يعتبر كل من "هو يوان"، و"صن فو"، و"شي جي" من الرواد في الكونفوشيوسية الجديدة، ويعرفون باسم "المعلمون الأوائل في

"سونج""، وبحلول فترة "تشينج لي"، كانت الكونفوشيوسية الجديدة في ازدياد، وظهرت العديد من الشخصيات المهمة وتم تطوير العديد من الفروع، وكانت المدارس الرئيسة هي مدرسة "تشو دون يي" في "ليان"، ومدرسة "تشانج زاي" في جوان، ومدرسة "تشينج هاو" و"تشينج يي" في "لو"، ومدرسة "شاو يونج" في "شيانجشو"، يُعرف هؤلاء العلماء بـ "الأساتذة الخمسة للكونفوشيوسية الجديدة".

وقد كان دور "تشو دون يي" محل جدل كبير، لكن العديد من الكونفوشيوسيين الجدد اعتبروه مساهمًا رئيسًا، كانت أعماله الفلسفية الرئيسة هي كتاب "شرح الرسم البياني"، وكتاب "فهم الجميع"، واستنادًا إلى الصدق والذهن المتحرّر من الفكر أو الرغبة، قام ببناء إطار نظري للكونفوشيوسية الجديدة، ومع ذلك، فإن نظريته بسيطة إلى حد ما، كانت مدرسة "لو" التي أسسها الأخوان "تشينج هاو" و"تشينج يي" (المعروفين باسم "الثنائي تشينج") والتي حققت أكبر قدر من النجاح والتأثير الأكبر، كان "تشينج هاو" يعرف باسم المعلم "مينج داو" أو "تشينج الأكبر"، في ما اشتهر "تشينج يس" بـ "المعلم يي تشوان" أو "تشينج الأصغر"، وقد تم تجميع أعمالهما في طبعة حديثة، "الأعمال المجمعة للثنائي تشينج"، شدد "تشينج هاو" على معرفة "القلب"، وأصر على أن ضبط النفس الأخلاقي والعالم الخارجي والنفس كانت واحدة؛ وعلى هذا النحو، كان مؤسس الفلسفة القلبية، كما يعتقد "تشينج هاو" أن "لي" (المبدأ) هو روح كل الأشياء وكل المخلوقات، ويعتقد الأخوان أن "تيانلي" (المبدأ السماوي) هو تسلسل هرمي يعتمد على المبادئ الأخلاقية الإقطاعية، وهكذا، يقع "لي" في صلب مدرسة فلسفة الثنائي "تشينج"، وأعطى هذا للكونفوشيوسية الجديدة اسمها الصيني، الذي يعني حرفيًا "دراسة لي".

بحلول حقبة "سونج" الجنوبية، كان هناك شخص واحد قد لخص بشكل منهجي نظريتي "تشينج" وشكل أيديولوجية شاملة ومتطورة من المثالية الموضوعية، كان هذا هو "تشو شي"، الذي ولد في "يوشي" بمقاطعة "فوجيان"،

أنشأ "تشو شي" نظام الفكر الخاص به عن طريق تجميع مذاهب "تشو دون يي"، و"تشانج زاي"، والإخوة "تشينج"، إضافة إلى الأفكار الطاوية والبوذية، نظمت كل من نظريتي "تشينج" و"تشو شي" معًا باسم كونفوشيوسية "تشينج - تشو الجديدة"، وأنشأ "تشو شي" نظامًا نظريًّا يحتوي على "لي" و"تشي" في جوهره، حيث "لي" هو المبدأ الموجود في كل شيء ويحكم الكون، وهو أصل كل شيء، هو الأساسي، و"تشي" ثانوي، وفقًا لهذه النظرية، تطغى المبادئ السماوية على الرغبة؛ لذا يجب إزالة الرغبة، كما قدم "تشو شي" مبدأي "جيو" (تحقيق الأشياء) و"تشي تشي" (اكتساب المعرفة).

في الفترة نفسها، تم تطوير مناقشة على أساس اعتراضات "لو جيو يوان"، الذي جاء من قرية "تشينجتيان" بمقاطعة "جينشي" في "جيانجشي"، كان منشئ المثالية الذاتية، أو نظرية العقل القلبية، في "سونج" الجنوبية، كان يعتقد أن "لي" (الحقيقة أو العقل) يملأ الفراغ بين السماء والأرض، وأنه لا يمكن فصل كل من الـ"زِن" (القلب) والـ"لي"، فالقلب هو الكون نفسه، والقلب والعقل لا يتغيران إلى الأبد، وكان يعتقد أنه من غير الضروري أن ينظر إلى خارج الذات لجذور الأشياء، فيمكن العثور على كل شيء في القلب، وضمن قوانين الطبيعة.

في بعض النواحي، كانت نظرية "لو جيو يوان" في القلب - العقل معارضة تمامًا للنظريات الكونفوشيوسية الجديدة لـ"تشي شي"؛ لذا، وللتوفيق بين الخلافات بين الاثنين، دعا "لو زوتشيان"، صديقهم الجيد وكذلك كونفوشيوسي جديد، "لو" و"تشو" إلى نقاش في معبد "إيهو" في "شينتشو" بـ"جيانجشي"، وعرف باسم مؤتمر "إيهو" وكان حدثًا كبيرًا في تاريخ الفكر الصيني، وعلى مدى ثلاثة أيام، انتقد "لو" المثالية الموضوعية لـ"تشو شي" لكونه غير منظم، في حين زعم "تشو" أن المثالية الذاتية لـ"لو جيو يوان" كانت بسيطة للغاية، ووجد كلاهما الجدال مثمرًا وافترقا باحترام.

خلال عهد أسرة يوان، أدركت الطبقة الأرستقراطية المغولية أنها ستحتاج إلى

استخدام الفكر الكونفوشيوسي لتعزيز حكمها، وأصبحت كونفوشيوسية تشينج - تشو الجديدة مذهبًا حكوميًا، ومع ذلك قامت على خصائص معينة، فاختفت المعارضة بين "تشو" و"لو" تدريجيًا، مما يمهد الطريق لمدرسة "يانج مينج" من أسرة "مينج"، تبنى حكام أسرة "مينج" كونفوشيوسية تشينج - تشو الجديدة؛ وأصبح عمل "تشو شي"، وهو كتاب "ملاحظات على الكتب الأربعة"، كتابًا في الامتحانات المدنية الإمبراطورية، وهكذا أصبح هذا الشكل الرسمي للدين طريقًا للثروة والمناصب العالية، وأصبحت الآثار السلبية لأيديولوجيتها الخانقة واضحة بشكل متزايد، فبحلول منتصف عهد أسرة "مينج"، حيث أصبح الصراع بين الطبقات الاجتماعية أكثر حدة، نشأت تطورات جديدة أبعدت تدريجيًا مدرسة "تشينج -تشو" عن عرشها.

ولد "وانج يانج مينج" في "يو ياو" بمقاطعة "تشجيانج" وكان اسمه في الأصل "وانج شورين"، وأصبح ناسكًا في كهف "يانجمينج"، حيث كان يمارس الطاوية، ودعا نفسه "يانج مينج زي"؛ من هذا كان يسمى المعلم "يانج مينج"، وبالتالي "وانج مينج يانج مينج"، وبحث عن حلول في مواجهة الأزمة الاجتماعية الخطيرة على نحو متزايد في عهد أسرة "مينج"، وخلص إلى أن العلماء الذين يدورون في فلك كونفوشيوسية تشينج - تشو الجديدة بلا جدوى للدولة، وهكذا فقد ورث وطور نظرية "لو جيو يوان"، فابتكر فلسفة قلبية جعلتها الأجيال اللاحقة معروفة باسم "نظرية لو - وانغ للعقل والقلب"، وقسمت إلى ثلاثة أجزاء:

أولًا: لا توجد مبادئ خارج العقل؛ ثانيًا: المعرفة كعمل؛ ثالثًا: أن المعرفة فطرية، وأكد فكر "وانج يانجمينج" على الوعي الذاتي والوعي الأخلاقي الجوهري للفرد.

كانت تطورات كهذه بمثابة إنجاز عظيم في تاريخ الفلسفة الصينية، لكن الكونفوشيوسية كانت موجودة في الأجواء الأكثر استبدادية لأسرة "تشينج"، وعند هذه النقطة، تحول معظم العلماء إلى نقد النصوص.

مرحلة جديدة في الكونفوشيوسية

خلال عهد أسرة "مينج" و"تشينج"، كان المجتمع الإقطاعي الصيني يتدهور، ومع ذلك، استمر الحكام الإقطاعيون في الضغط على الزراعة، وتقييد التجارة، واستخدام "الأدلة الثلاثة الكبرى" (الرعية يقودها الحاكم، والأب يقود الابن والزوج يقود الزوجة) و"الفضائل الخمسة الثابتة" (الإحسان والبر والآداب والحكمة والإخلاص) لخنق الشعب، في هذا السياق، حاولت مجموعة من الرجال ثاقبي النظر تحطيم الأيديولوجية القديمة والسماح بتطوير الشخصية، واستلهموا من رجل يدعى "لي تشي"، من مواليد "تشوانتشو" بمقاطعة "فوجيان"، والذي اجتاز الامتحان المدني الإمبراطوري على مستوى المحافظة في سن السادسة والعشرين، وبدأ مسيرته المهنية لمدة عشرين عامًا، كانت روائعه "كتاب للحرق" و"تكملة كتاب للحرق" وكان هذا الكتاب يحمل اسمًا مناسبًا، حيث تم حرقه عدة مرات على مدار أسرتي "مينج" و"تشينج"، ليتم حجبه في كل مرة.

كانت هذه الكتب شائعة للغاية لأنها أدانت تعاليم "كونفوشيوس" و"منسيوس"، التي كانت تعشقها الطبقة الحاكمة، صرخوا ضد الظلم الذي لحق بالمرأة من خلال الأخلاق الإقطاعية، وكشفوا الاستغلال الوحشي للشعب على يد حكامهم، ويعلق "لي تشي" آماله على "رجل يتمتع بفضيلة عظيمة" بدلًا من إسقاط النظام الإقطاعي، لكن الطبقة الحاكمة الإقطاعية صُدمت بنفس القدر، فقبض عليه الإمبراطور "شنزونج" وأحرقت كتاباته بتهمة تعطيل النظام الاجتماعي وإفساد عقول الناس.. انتحر "لي" في السجن في سن السادسة والسبعين.

كان لرائد الاستبداد المعادي للإقطاعيين، وأيديولوجية "لي تشي" المتمردة والروح القتالية تأثير دائم، وعلى خطاه ظهر مفكر عظيم آخر كان يطلق عليه "أبا التنوير الصيني"، كان هذا هو "هوانج تسونج شي"، الذي ولد في "يو ياو"

بمقاطعة "تشجيانج"، كان والده "هوانج تزونسو"، أحد الأعضاء المشهورين في عصبة "دونجلين" أو أكاديمية "دونجلين"، وهي مجموعة سياسية مؤلفة من علماء ومسؤولين في البلاط في أواخر عهد أسرة "مينج"، وكان "هوانج" على دراية جيدة بعلم الفلك، والتقويمات، والتاريخ، والعديد من الموضوعات الأخرى، ولكن على وجه الخصوص في الفلسفة والسياسة، انتقد النظام الملكي الاستبدادي، معربًا عن أفكاره في "ملاحظات حول إصلاح النظام السياسي"، هاجم هذا الرأي القائل بأن البلد بأكمله كان ملكًا للحاكم؛ كما عارض وضع الضغوط على الزراعة على حساب التجارة، مجادلًا بأن التجارة يمكن أن تلبي أيضًا الاحتياجات الأساسية للناس، وكان في الواقع نوعًا من الرأسمالية الديمقراطية المبكرة.

وكان أحد معاصري "هوانج" هو "جو يان وو"، الذي أتى من "كونشان" في "سوتشو"، وكان مع "هوانج تزونج شي" و"وانج فوتشي" "علماء الكونفوشيوسية الثلاثة العظماء في أواخر عهد "مينج" وأوائل عهد "تشينج" المبكر"، وقد شارك "جو" في العديد من الانتفاضات ضد أسرة "تشينج"، وعندما هزموا، سافر في جميع أنحاء البلاد قبل أن يستقر ليكتب، ولم يخدم أبدًا في بلاط "تشينج"، وقد عبر عن آرائه حول الفلسفة والسياسة والاقتصاد في تحفته "ملاحظات عن المعرفة المتراكمة من يوم إلى يوم"، والتي قال فيها إن الشخصية الأخلاقية الجيدة هي أكثر أهمية من العمل البحثي، لقد فرق بين أمة غازية وشعب محتل؛ فسقوط الأسرة يعني فقط تغيير الاسم، ولكن إذا تم دفع الناس إلى ذبح بعضهم بعضًا، فإنهم قد هزموا حقًّا، وأعرب عن اعتقاده أن من واجب المسؤولين أن يدافعوا عن الأسرة الحاكمة من الآخرين، ولكن يجب على كل فرد أن يتحمل مسؤولية ازدهار بلاده أو تدهورها.

كان وانج "فوتشي" من مواطني "هينجيانج"، بمقاطعة "هونان"، وبعد سقوط أسرة "مينج"، التحق بالقوات الموالية لولي العهد الأمير "جوي" في الجنوب في محاولة للإطاحة بنظام "تشينج"، وعندما فشل النضال، تراجع إلى منطقة

ريفية ليكتب، كان "وانج" مفكرًا من "الهان" ذا وعي عرقي قوي؛ لذا شعر بغضب شديد بسبب غزو المانشو، وسعى للحصول على إجابات في التاريخ، ووضع أفكاره في "بعد قراءة إعادة رواية الأحداث التاريخية كمرآة للحكم" و"عن أسرة "سونج""، وقد علق كتابه الأول على صعود وسقوط الأنظمة السابقة، وطرق إدارة الدولة؛ واستكشف النظرة التطورية للتاريخ استنادًا إلى قراءته لكتاب "إعادة رواية الأحداث التاريخية كمرآة للحكم".

الأدب والفن في عهد أسرة "مينج"

الخيال العامي

كتب الخيال في الصين القديمة إما باللغة الكلاسيكية أو العامية الصينية، وبلغ الكلاسيكيون الصينيون مرحلة النضج في عهد أسرة "تانج"، بينما كانت الكتابة باللغة العامية لا تزال في شكل بدائي، تطور الاقتصاد التجاري وتوسعت الطبقة الحضرية في أسرة "سونج" وشهدت "يوان" ظهور روايات شعبية في شكل مكتوب، ومن هذه نشأ الخيال الصيني العامي، وكانت أول رواية عظيمة باللغة الصينية العامية "رومانسية الممالك الثلاث"، فقد انتشرت في أسرتي "سونج" "يوان" القصص حول الممالك الثلاث؛ وكانت مملكة "وي" التي كان مقرها في "لويانج" اليوم، "شو" في "تشينجدو" و"وو" في "نانجينج" اليوم، وقام "لو جوان تشونج" بعمله العظيم بناء على هذه القصص في أوائل عهد أسرة "مينج".

يقع "رومانسية الممالك الثلاث" في أواخر عهد أسرة "هان" الشرقية وأسرة "جين" الغربية المبكرة، ويبدأ ذلك عندما يقسم "ليو باي" و"جوان يو" و"تشانج فيي" أن يكونوا أشقاء، ويواصل وصف الصراعات العسكرية والسياسية التي تلت ذلك بين "وي" و"شو" و"وو"، وتنتهي القصة بتوحيد البلد كله تحت حكم أسرة "جين" الغربية، ويصور "لو جوان تشونج" مملكة "شو" كمملكة شرعية، ومكان الحكاية، ويمثل حاكمها "ليو باي" العدالة، في حين يمثل حاكم "وي"

وهو "تساو تساو" على أنه الشرير، وباختصار، ينقل المؤلف الكراهية التي يشعر بها الناس تجاه الحكام الفاسدين وتوقهم إلى الحكمة، لكن شعبية العمل لم تكن مبنيـة فقط على محتوياته بل على مزاياه الفنيـة، مثل الجمع بين الحقيقة والخيـال، هيكل كبير ومعقد وخطوط قصصية حية، ويوفر رؤية بانورامية لحروب فترة الممالك الثلاث، والأكثر إثارة للإعجاب هو تصويره لمجموعة من الشخصيات، بما في ذلك "تساو تساو" البطل الغادر، و"ليو باي" الحاكم الخير؛ والجنرالات الثلاثة "تشو يو"، الرصين ولكن ضيق الأفق، و"جوان يو"، الحكيم والجريء، و"تشانج فاي"، سريع الغضب والملتزم بالطريق القويم، والأكثر مدعاة للإعجاب هو "تشو جي ليانج"، الذي يكرس نفسه لمساعدة "ليو باي" وابنه، وهو رجل حكيم ومهذب يضع استراتيجيات عسكرية لا نهاية لها، من حـيث اللغـة، ابتعـد الكتـاب عـن نمـط الروايـات المكتوبـة باللغـة الصـينية الكلاسيكية واعتمد الصينية الحديثة البسيطة في ذلك اليوم.

أدت هذه الرواية إلى طفرة في الرومانسيات التاريخية، وكان أعظمها رواية "حافة المياه" البطولية لـ"شي نايآن"، ففي حين دارت "رومانسية الممالك الثلاث" حول الإمبراطور والوزراء والجنرالات، فإن "حافة المياه" تدور حول الأبطال، ففي نهاية "سونج" الشمالية، أدى الفساد السياسي وإهمال الحكام إلى ثورة مجموعة من الشخصيات البطولية ضد الحكومة، ونظموا أنفسهم في جيش المتمردين بقيادة "سونج جيانج"، ولكن "سونج جيانج" عين في البلاط في وقت لاحق وساعد في قمع التمرد، مما أدى إلى مقتل معظم الهاربين، تشكل هذه الأحداث الأساس لـ"حافة المياه"، وبينما تعكس الرواية القيمة المنخفضة التي وضعت للولاء والعدالة في المجتمع الإقطاعي، فإن أهميتها الفنيـة أكبر، حيث يوفر هيكلها الحي للقراء مؤامرات مقنعة وشخصيات حقيقية مثل المتهور البريء "لي كوي" والصريح الدقيق "لو تشي شين"، ويعد "لين تشونج" هو الشخصية الأبرز؛ فهو قائد عسكري لـ 800.000 من حراس الإمبراطور، يقتل أعدائه ويفر لجبل "ليانج" للانضمام إلى المتمردين، تمثل "حافة المياه" التقدم في استخدام العامية الصينية؛ ففي حين تستخدم

"رومانسية الممالك الثلاث" الأشكال الكلاسيكية والعامية، ولكن من حيث الوصف والسرد، فإن اللغة الصينية العامية في "حافة المياه" كانت أكثر نضجًا، وبشكل عام، كان لها تأثير هائل على ما أعقب ذلك، بما في ذلك الروايات والأوبرا، وأدت إلى مجموعة من الروايات عن الأبطال الأسطوريين، مثل "رومانسية عائلة يانج" و"الرومانسية الشعبية لعودة أسرة "سونج".

في أواخر عهد أسرة "مينج"، ظهرت روايات عن الآلهة والشياطين، وكانت واحدة من أكثرها شعبية وهي "رحلة إلى الغرب"، كانت قصة عن مغامرات "شوانجزانج" إلى الجنة الغربية لإعادة الكتب المقدسة البوذية شائعة منذ عهد أسرة "تانج"، والآن أنتج منها "وو تشينج آن" رواية كاملة، وتحكي عن ولادة "صن ووكونج"، وهو قرد حجري، معروف أيضًا باسم الملك القرد، والكوارث الثمانية والثمانين التي يختبرها مع رفاقه قبل أن ينجحوا في الوصول إلى السماء الغربية، وتركز "رحلة إلى الغرب" على القلب النقي والشخصية التي يمثلها الملك القرد، فإن تجاربه ورحلته كلها عن تنقية القلب وإراحته؛ وتؤكد الرواية قيمة الذات والسعي وراء جمال الإنسان، يخلق الكتاب أيضًا عالمًا من الخيال، مع مواقع جاذبة للقارئ، وصور خارقة للطبيعة للآلهة والشياطين، ومعارك هائلة، ورسمت شخصيات مثل الراهب "شوان زانج" و"بيجسي" و"الملك الشيطان - الثور" وأميرة "بالمفان" و"الطفل الأحمر" بقوة لدرجة أنها استمرت في التأثير على الثقافة الشعبية.

وتبع ذلك العديد من الأجزاء التالية والتقليد للروايات الناجحة، مثل "ملحق رحلة إلى الغرب"، و"رحلة إلى الشرق"، و"ثلاثة رجال يدعون "سوي" يدحرون الشياطين"؛ إلا أن الأكثر تأثيرًا كانت "انفصال الآلهة" بقلم "شو تشونج لين" و"لي يونشيانج"، الذي يرسم التحول من أسرة "شانج" إلى أسرة "تشو"، ويركز على الصراع بين فصيلين من الآلهة، وبفضل "رومانسية الممالك الثلاث" و"حافة المياه" و"رحلة إلى الغرب"، بدأ الخيال في الازدهار باللغة العامية الصينية، وظهرت كتب عظيمة مثل "جين بينج مي"، و"سان يان إير باي"،

و"العلماء"، و"حلم القصور الحمراء" واحدًا تلو الآخر.

روايات السوق الكبيرة

من بين الروائع الأربع العظيمة لأسرة "مينج" - "رومانسية الممالك الثلاث"، و"حافة الماء"، و"رحلة إلى الغرب" و"جين بينج ماي" - تعتبر "جين بينج ماي" أعظمها، اكتمل تأليفها منتصف فترة "وانلي"، وتنسب إلى "لانلينج شياو شياو شينج"، ولكن في وقت لاحق فشل أجيال من العلماء في معرفة من يكون هذا الكاتب، وعلى عكس الروايات الثلاث الأخرى، لم يتم تطويرها من القصص الشعبية الموجودة، بل كانت أول رواية باللغة الصينية العامية مما يشير إلى التحول عن التعاون إلى التأليف الفردي، وتقع أحداث القصة في أواخر عهد أسرة "سونج" الشمالية وتبدأ بـ "جريمة قتل "وو سونج" لشقيقة زوجته"، وهي قصة متضمنة في "حافة الماء"، وعلى الرغم من أن جميع القصص تدور في أسرة "سونج"، فإن القصد منها هو تقديم حكاية مفصلة ونقد للحياة في عهد أسرة "مينج"، فلا يقتل "شيمن تشينج" ولا "بان جينليان" على يد "وو سونج"، كما هو موضح في "حافة المياه"؛ وبدلًا من ذلك، يتخذ "شيمن تشينج" "بان جينلينج" كمحظية، وكونه بيروقراطي، مستبد، ورجل أعمال ثري، يتملق "تساي جينج" المعلم الإمبراطوري الذي يتصف بالفسق والتهتك، وفي النهاية قتلته تجاوزاته، الشخصيات النسائية مثل "بان جيانليان" و"لي بانج إير" أيضًا تحيا حياة مليئة بالثراء والمكائد، ولكنها تنتهي في الفقر والبؤس، وهكذا يفضح المؤلف بلا رحمة الإسراف والبذخ في طبقة التجار الناشئة، لكن "جين بينغ ماي" يقدم أيضًا عرضًا حيًا للحياة اليومية للناس العاديين، بدلًا من أفعال الأباطرة والأبطال، وبالمثل تعد الشخصيات متطورة بشكل أكبر، ومع ذلك، نظر إليها البعض على أنها شديدة الوضوح من الناحية الجنسية، ونتيجة لذلك، فإن ما يقرأ من "جين بينج ماي" على نطاق واسع اليوم هو نسخة مختصرة ومنقحة.

تبع "جين بينج مي" الكثير من الأجزاء والروايات المقلدة لها، فأثرت على "سان

يان إير باي"، و"قصص حب لتحذير العالم"، و"حلم القصور الحمراء" و"العلماء"، كما تم إرسالها لخارج الصين، وحققت أداءً جيدًا هناك؛ من هنا، ازدهرت روايات السوق الكبيرة، خاصة تلك المكتوبة باللغة الصينية العامية.

من بين المجموعات العديدة من القصص القصيرة باللغة الصينية العامية، كان "سان يان إير باي" الأكثر نجاحًا، ويشير اسم "سان يان" إلى المجموعات الثلاث من القصص القصيرة التي حرّرها "فنج منجلون": "قصص لتنوير العالم"، و"قصص لتحذير العالم"، و"قصص لإيقاظ العالم"، وكلها تستند إلى روايات موجهة، يشير "إير باي" إلى المجلدين المكوّنين من "قصص رائعة" بقلم "لينج مينج شو"، ومعا تصور عادات الطبقة التجارية في عهد أسرة "مينج"، بالنظر إلى ازدهار التجارة والحرف، يصور رجال الأعمال إلى حد كبير في ضوء إيجابي، وموضوع آخر هو حرية اختيار الزوج، وتعكس قصص الفردية والشهوانية في العصر، احتضنت القصص التحرك نحو التخلي عن الأخلاق والطقوس الإقطاعية، وترتيب الزواج، وحتى عدم المساواة بين الجنسين، يتم استكشاف جميع قصص اللصوص والمحبين والخونة لمن ارتبطوا بهم، والخيانات والانتحار مع الواقعية النفسية، وبشكل عام حقق "سان يان إير باي" تقدمًا كبيرًا في البنية، وتصوير الشخصيات، واستخدام اللغة الصينية العامية، وفي أواخر عهد أسرة "مينج"، اختار رجل يدعى "جوسو باووينج لاورين" أربعين قصة من قصصه لمجموعة جديدة بلقب "قصص رائعة"، والتي لا تزال هي المجموعة الأكثر شعبية من القصص القصيرة باللغة الصينية العامية.

ومع تأثير "سان يان إير باي"، ازدهرت القصص القصيرة باللغة الصينية العامية في أواخر عهد أسرة "مينج" وأوائل عهد أسرة "تشينج"، وتضمنت "حجر الإيماء"، و"قصص قصيرة"، و"مجموعتان من البحيرة الغربية"، و"تحية لذروة كمال الرواية" وتزامن هذا مع عودة كونفوشيوسية تشينج - تشو الجديدة خلال عهد أسرة "تشينج"، ثم بدأت في الانحدار.

أوبرا "مينج"

كان الـ"زاجو" نوعًا من الدراما الشعرية التي تم إعدادها للغناء على الموسيقى التي ازدهرت خلال عهد أسرة "يوان"، واستمرت الأوبرا في التطور خلال عهد أسرة "مينج"، عندما ظهر شكل جديد يسمى "تشوانتشي" أو الرومانسية والذي استند على الـ"زاجو" من أسرة "يوان" و"نانشي" (الأوبرا الجنوبية) من أواخر فترة "يوان"، كان في الـ"زاجو" مغنٍ رئيس واحد وأربعة فصول، أما في الـ"نانشي"، فلم يكن هناك مغنٍ رئيس وزاد عدد الفصول، وخلال عهد أسرة "مينج"، بدأ هيكل وأنماط الموسيقى القديمة في نانشي بالتوحد، وأصبحت الكلمات أكثر دقة وكان هناك أربعة أساليب موسيقية، وفي الواقع، تطورت إلى شكل جديد هو "تشوانتشي".

مرت "تشوانتشي" خلال ثلاث فترات من التطور، في البداية، بسبب سياسات الحكومة القمعية، تأثرت إلى حد كبير بالأخلاق الكونفوشيوسية الجديدة، وتعد "قصة الكيس" التي كتبها "شاو تسان" مثالًا نموذجيًا، وكان العمل الأقل تأثرًا "الولاء" بقلم "ياو ماوليانج"، و"ختم الذهب" بقلم "سو فوتشي"، و"الحواجز المتشابكة" بقلم "وانج جي"، و"ألف قطعة من الذهب" التي كتبها "شين تساي"، وفي منتصف عهد أسرة "مينج"، واجهت الحكومة الفاسدة على نحو متزايد غارات مغولية من الشمال ومضايقات قراصنة يابانيين على طول الساحل الجنوبي الشرقي، فبدأ كتاب "تشوانتشي" في وصف الأحداث الفعلية، التي روجوا فيها للاعتماد على النفس والكفاح ضد الغزاة، كانت قصص مثل "السيف" بقلم "لي كايشيان"، و"غسل الشاش" بقلم "ليانج تشين يو"، والقصة مجهولة الكاتب "قصة العنقاء الصارخة" هي الـ"تشوانتشي" الأكثر شهرة في ذلك الوقت، وتستند قصة "السيف" على قصة "لين تشونج" في "حافة المياه"، وتحكي الأوبرا كيف أنه يرفع التماساته للدولة مرارًا وتكرارًا عن الفظاعات التي يرتكبها "تونج غوان" و"جاو تشيو"؛ وهو لا يستسلم أبدًا، حتى عندما يتم توريطه وإجباره على أن يصبح خارجًا عن القانون، أما "غسل الشاش" بقلم "ليانج تشين يو" فهي قصة مأساوية تعبر عن الحب والوطنية حدثت خلال

الحروب بين ممالك "وو" و"وي" في حقبة الربيع والخريف، حيث تترك "شي شي" من "يوي" تترك حبها الحقيقي لإغواء ملك "وو"، مما يساعد على تحقيق النصر لـ"يو"، في حين استندت قصة "قصة العنقاء الصارخة" على الشؤون السياسية في ذلك اليوم، وتحكي عن كيف ضحى "شيا يان" وغيره من الوزراء بحياتهم لمحاربة مسؤولي البلاط الغادرين "يان سونج" و"يان شيفان".

وصلت الـ"تشوانتشي" ذروتها خلال منتصف فترة "مينج"، وانقسمت إلى شقين: مدرسة "لينتشوان" بقيادة "تانج شيان تزو"، ومدرسة "ووجيانج" بقيادة "شين جينج"، جاء "تانج شيانتزو" من عائلة باحثين، وتماشيًا مع التفكير السائد في نهاية عهد "مينج"، كان يعتقد أن الأوبرا يجب أن تعكس دفء الحياة وفرحها، وكتب "أحلام لينتشوان الأربعة": "جناح الفاوانيا"، و"حلم هاندان"، و"حلم المعاون الجنوبي"، و"دبوس الشعر الأرجواني"، وكان جناح الفاوانيا الأكثر نجاحًا فيها، ويروي قصة السيدة "دو لينيانج" التي تحلم باجتماع سري مع عالم يدعى "ليو مينج ماي"؛ وعندما تستيقظ، تمرض بالمحبة، وتموت، وبعد ثلاث سنوات، يحفر قبرها "ليو مينج ماي" ويعيدها إلى الحياة، ويتزوجان، ولكن لا يتم الاعتراف بزواجهما إلا بعد صراع ضد قانون الأخلاق الإقطاعي، إن الأسلوب الرومانسي في العمل، والشعر الغنائي، والمؤامرة المعقدة، واللغة الشعرية، وتصوير الشخصيات جعلها أكثر الأعمال تأثيرًا بعد رواية "وانج شيفو" "رومانسية الغرب" في عهد "أسرة يوان"، عمل مؤثر آخر من مدرسة "لينتشوان" كان قصة "وانج جياونينج وشين تشون" بقلم "منج تشينجشون"، كانت هذه أيضًا قصة حب، ولكنها مأساة أُجبرت فيها الفتاة على الوعد بنفسها لرجل من عائلة غنية ونبيلة، وعندها تموت هي وحبيبها الحقيقي من الحزن.

اختلف "شين جينج" ومدرسة "ووجيانج" في التأكيد ليس فقط على المحتوى والشعور، بل على أهمية الأخلاق والتقاليد، واهتم أيضًا اهتمامًا كبيرًا بالموسيقى، فكانت "النوتات الموسيقية للألحان التسعة الجنوبية والتناغمات الثلاثة عشر" بقلم "شين جينج"، وهي عبارة عن مجموعة من مئات الألحان،

اعتبرت مرجعية موثوقة لكتاب الأوبرا عند البحث عن أشكال موسيقية لنصوصهم، وعلى هذا النحو ساهمت كثيرًا في توحيد الفن، حتى أن "شين جينج" حاول تعديل "جناح الفاوانيا" الخاصة بـ"تانج شيان تزو"، مما أدى إلى "الصراع بين تانج وشين" الشهير، وكانت قصة "شين جينج" "غواية الفارس الشريف"، المستقاة من "حافة المياه" هي تحفته؛ تميزت بلغة طلقة وبسيطة تصف بطولة "وو سونج" وولاءه للإمبراطور، وكان الأعضاء الآخرون في مدرسة "ووجانج" هم "لو تيانتشينج" و"يي شيانجزو"، و"يوان يولينج".

وبينما كان "تشوانتشي" هو الشكل السائد، وُجدت أيضًا الأوبرا المحلية؛ فعلى سبيل المثال، عرضت "أوبرا زهر الطبل بـ"فنجيانج"، الـ"تشوي"، وهو شكل من أشكال الفن الشعبي يتضمن الغناء التقليدي، ورواية القصص، والحوار الهزلي، والحديث المصاحب بالتصفيق والحديث المتبادل، مع الغناء والرقص، ويمكن إرجاع أوبرا زهر الطبل إلى عهد أسرة "سونج" الجنوبية، ثم تفرعت منها أشكال مختلفة، فنشأت نسخة "فنيانج" نشأت من محافظة "فنجيانج" في شمال شرق مقاطعة "آنهوي" خلال أواخر عهد أسرة "يوان"، وتأسست رسميًا في أوائل عهد أسرة "مينج"، تعرضت محافظة "فنجيانج" بشكل مستمر للكوارث، مما اضطر الكثيرين إلى مغادرة بلدهم الأصلي وكسب قوتهم من خلال غناء أوبرا زهر الطبل، وفي البداية كان هناك عادة امرأة وزوجة شقيقها، واحدة تضرب الطبلة والأخر الناقوس، وبين النغمات، كن يغنين معًا، وفي نهاية عهد أسرة "مينج"، كان هذا الشكل شائعًا جدًا، أما خلال عهد الإمبراطور "تشيان لونج" في عهد أسرة "تشينج" فقد تغير الشكل؛ فزاد عدد المؤدين من اثنين إلى ستة أو ثمانية أو أكثر، وكانت تؤدى حتى في البلاط الإمبراطوري.

الخط والرسم

الخط: ضم الخطاطون الأوائل في "مينج" "الثلاثي سونج": "سونج كي" و"سونج سوي" و"سونج جوانج"، وخلال عهد الإمبراطور "هونجوو"، اشتهر "سونج كي" على وجه الخصوص بخطه المائل القديم، كما يظهر في "جي جيو

تشانج"، كان لخطوطه الطويلة النحيلة تأثير كبير في ذلك الوقت، وكان خط "سونج سوي" المائل غير تقليدي، في حين كان كتابه "الختم الصغير" يعتبر أرقى ما أنتج في عهد أسرة "مينج"، وبرع "سونج جوانج" في الخط الجاري المائل في مزج بين الأنماط من أسرتي "جين" و"تانج"، مما يعطي عمله مظهرًا جريئًا غير مقيد.

منذ عهد الإمبراطور "يونجلي"، بدأ بلاط "مينج" في البحث عن الخطاطين الجيدين لكتابة ال"وايتشي" (الأوامر الإمبراطورية للرتب المنخفضة) وأيضًا الأفضل لكتابة الـ"نيتشي" (الأوامر الإمبراطورية للرتب العليا)، وكان يجب على الخط أن يكون معتدلًا ومستقيمًا وغامقًا بحجم متماثل في ما يُعرف باسم "أسلوب السكرتارية"، ورث "شين دو" أسلوب "يو شينان" (خطاط وشاعر من أسرة "تانج") بكتابة حروف صينية جميلة وقوية ومستديرة ومستقيمة، ومن روائعه "دفتر خط جينجتشاي" مكتوبة بالخط العادي، و"مجموعة من القصائد" بالخطين المتدفق والديني، كان "شين تسان"، شقيق "شين دو" الأصغر، يتفوق في الخط المتدفق والعادي ولا سيّما الخط المائل، وكان من روائعه "ألف شخصية كلاسيكية"، مكتوبة بالخط المائل.

بعد عهدي "تشينجهوا" و"هونجتشي"، نبذ خطاطو "مينج" تدريجيًا أسلوب السكرتارية وبدؤوا في استكشاف أشكال جديدة، وأصبحت مدرسة "وو" مهيمنة، كما نرى في ممثليها "تشو يونمينج"، "ون تشينجمينج"، و"وانج تشونج"، "جاء تشو يونجمينج" من عائلة من الخطاطين؛ لذا كان لديه الفرصة لاستكشاف واستيعاب أنماط مختلفة من العديد من المعلمين المشاهير، وغير أسلوبه باستمرار، وكانت النتيجة أن عمله كان قويًا وجميلًا وطبيعيًا، كان "ون تشينج مينج" خطاطًا بارزًا ومتنوعًا، وواصل الكتابة حتى في سن التسعين بالـ"ينجتوكاي" (الأحرف الصينية الصغيرة في الخط العادي)، وأصبح يعرف كواحد من الخالدين في فن الخط، أما "وانج تشونج" فكان ماهرًا في الخط العادي والمتدفق والمائل، وكان خطه في بعض الأحيان مدورًا ورشيقًا، وأحيانًا

متصلًا وجريئًا.

أنتج أواخر عهد "مينج" عددًا كبيرًا من الخطاطين، أشهرهم هو "الأربعة الكبار في أواخر "مينج"، وهم "شينج دونج" و"دونج تشي تشانج" و"تشانج رويتو"، و"مي وانتشونج"، تبع "شينج دونج" أساليب أسرتي "جين" و"تانج"، ولا سيّما أسلوب "وانج شيتشي"، وملأ عمله بروح الخط التي كانت سائدة في أسرة "جين"، وطور "تشانج رويتو" فن الخط الخاص به بناء على كتاب "تشونج يو" من عصر الممالك الثلاث، و"وانغ تشيتشي" من أسرة "جين" الشرقية، وتبنى "مي وانتشونج" الخط المائل والمتدفق لـ"مي فو" من أسرة "سونج" الشمالية، وخلال أربعين عامًا، انتشر هذا الأسلوب في جميع أنحاء البلاد، أما "دونج تشي تشانج" فبدأ تعلم فن الخط في سن السابعة عشرة، وبتبنيه العديد من الأساليب، أصبح الخطاط الأكثر تأثيرًا في عهد أسرة "مينج"، كان يستخدم في الغالب الخط المتدفق المائل، لكن كان الخط الصغير العادي الذي استخدمه هو الأكثر بروزًا، وكتبت رائعته "السوترا الماسية "، مكتوبة بالخط العادي صغير الحروف، و"مدح صورة السيد دونجفانج" مكتوبة بالخط العادي القوي متوسط الحجم، وتمثل "برج يوييانج" سنوات خبرته الوسطى، في حين يجسد كتاب "ملاحظات عن بحيرة جونلوما" أعماله المتأخرة، ويجمع بين أسلوبه الخاص وأسلوب "يان تشينج تشينج" و"لي بيهاي"، وكلا الخطاطين اشتهرا في عهد "تانج".

الرسم: يمكن تقسيم الرسم في أوائل "مينج" إلى ثلاث مدارس: مدرسة معلمي الفن، والتي اعتمدت أساليب من أسرتي "سونج" و"يوان"، مدرسة البلاط ومدرسة "تشجيانج" الصاعدة، كان معظم لوحات معلمي الفن تتكون من المناظر الطبيعية، واتبع بعض الرسامين أسلوب "دونج يوان" و"جوران" الراهب و"لي تشينج"، و"جو شي" من فترة الأسرات الخمس وأسرة "سونج" الشمالية، بينما قام آخرون بمحاكاة رسامي أسرة "يوان"، ولا سيما "هوانج جونجوانج" و"ني زان"، وكان لهم تأثير كبير على الأجيال اللاحقة.

تمتع الأباطرة الأوائل من "مينج" باللوحات الفنية، وكانوا يجندون الفنانين للرسم في البلاط الإمبراطوري، وقد أدت هذه البيئة الخاصة إلى تطوير أسلوب مميز يُعرف باسم رسم البلاط.

لم يكن حكام "مينج" مهتمين بالعزلة أو البساطة، بل كانوا يفضلون الأناقة واللون والصور الحية، وخير من يمثل هذه المدرسة "داي جين" من محافظة "تشجيانج" وتلميذه "وو وي"، اللذين أصبحا من الشخصيات الرائدة في مدرسة "تشجيانج".

وأصبحت مدرسة "وو" في "سوتشو" المدرسة المهيمنة خلال منتصف فترة "مينج"، وكان يمثلها "شين تشو" و"ون تشينجمينج" و"تانج يين"، و"تشو ينج"، ولد "شين تشو" في عائلة من الخطاطين والرسامين، وفي شبابه كان دقيقًا، ولم ينتج سوى أعمال صغيرة، وهكذا كان يعرف باسم "شين الدقيق"، ولكن بعد سن الأربعين، بدأ في رسم صور كبيرة مستخدمًا ضربات جريئة ونشطة، وانتهى من كل منها في جلسة واحدة، وتشمل أعماله الدائمة "جبل "لو" السامق" و"القارب الراسي وسط الغيوم العالية" و"مرح تسانجتشو".

أما "ون تشينجمينج"، الذي كان أصغر من "شين تشو"، فكان رسامًا بارعًا وكذلك خطاطًا، ويعرف الاثنان معًا باسم "شين - ون"، وقد درس "ون" تحت قيادة "شين"، ثم شرع في دمج أنماط العديد من رسامي أسرتي "سونج" و"يوان" في عمله، وقد اشتهر بالتفاصيل والوضوح في لوحاته المبكرة، وجرأته في منتصف العمر، ومزجه بين الجرأة والتفاصيل في شيخوخته، تشمل أعماله الدائمة "ستوديو تشن شانج"، و"حفلة شاي في جبل هوي"، و"إلهات نهر شيانج".

عاش اثنان من معاصري "ون جينجمينج"، وهما "تانج يين" و"تشيو ينج"، في "سوتشو"، وفي وقت لاحق، عرف "تانج ين" باسم "تانج بوهو"، وعلى الرغم من أنها تبدو عادية، فإن أعماله غنية ولها تأثير كبير، وتشمل روائعه "تأمل

براعم البرقوق"، ومنظر لبيتاي"، و"سيدات البلاط من أسرة "شو" السابقة"، أما "تشيو يينج" فعمل في البداية كدهان ثم درس الرسم في عهد "تشو تشن"، تميز بوضوح شخصياته ولمسات الفرشاة الدقيقة، ومن تحفه "قصص الشخصيات"، و"صباح ربيعي في قصر هان"، "براعم خوخ جنة الخالدين".

استمرت مدرسة "وو" في التطور في أواخر عهد أسرة "مينج"، فبعد عهد الإمبراطور "جيا جينج" قام رسامو المناظر الطبيعية بتقسيم المدارس الداخلية، وبحلول نهاية الأسرة كان الأكثر تأثيرًا في هذه المدارس مدرسة "هواتينج"، التي تتميز بخطوط ناعمة وحبر خفيف، وكان الممثل الشهير لها "دونج تشي تشانج"، وفي لوحات الزهور والعصافير، تحول النمط السائد من استخدام الفرشاة الناعمة إلى استخدام الحبر بشكل حر، واستخدم الرسامون مثل "شو وي" الخطوط جريئة لكشف حقيقة الروح وليس الشكل.

ثقافة "تشينج"

الحدائق الكلاسيكية

في الأصل كانت الحدائق الكلاسيكية الصينية أماكن يصطاد فيها الملوك وتحدث فيها النبوءات، ولكنها تطورت تدريجيًا إلى أماكن للترفيه والتسلية، تنقسم الحدائق الصينية بشكل رئيس إلى الحدائق الملكية في الشمال والحدائق الخاصة في الجنوب، ويطلق على الحدائق الملكية أو الإمبراطورية اسم "يوان" أو "يو" أو "يوان جونج" في الوثائق القديمة وتختلف تمامًا عن الحدائق الخاصة؛ لأنها كانت تهدف إلى تجسيد التفوق الإمبراطوري.

أشهر الحدائق الملكية هي القصر الصيفي القديم والقصر الصيفي ومنتجع "تشينجدي" الصيفي، تم تشييد القصر الصيفي القديم في عهد أسرة "مينج"، وقد سماه الإمبراطور "كانجشي" الذي قدمه إلى "ينتشن"، إمبراطور

"يونجتشينج"، كهدية، وتطور نتيجة 150 سنة من العمل الشاق الذي امتد على مدى عهود خمسة من الأباطرة، بما في ذلك "يونجتشينج" وتشيان لونج"، في فترة "تشيان لونج" على وجه الخصوص، تم بناء جزء كبير كتقليد للحدائق الشهيرة في الجنوب والأساليب المعمارية في أوروبا؛ لذا فهو مفخرة ليس فقط للمباني الملكية الأنيقة، ولكن أيضًا المناظر الطبيعية الجميلة والحدائق في المناطق الجنوبية ونمط النهضة الإيطالية، يمتد القصر الصيفي القديم على مساحة تبلغ 160.000 متر مربع، ويضم ثلاثة أجزاء: "يوان مينج يوان" (حديقة السطوع الكامل)، و"تشينج تشون يوان" (حديقة الربيع الخالد) و"تشي تشون يوان" (حديقة الربيع المزهر)، وتعد "يوان مينج يوان" هي الأكبر، وهي في المقام الأول عبارة عن حديقة مائية بها العديد من الممرات المائية التي تقطعها، وغالبًا ما يستخدم اسمها للقصر الصيفي القديم ككل، وتعد المنطقة الوسطى في الغرب هي الجزء الأكثر جمالًا، في حين أن البحيرة الخلفية تحيط بها تسع جزر مميزة، كان قصر الصيف القديم مشهورًا في جميع أنحاء العالم، ولكن تم تدميره على يد الفرنسيين والبريطانيين في عام 1860م، ثم نهب وأحرق في عام 1900م.

"تشينج يي يوان" (حديقة الموجات الصافية) التي تسمى الآن القصر الصيفي، هي أكبر حديقة إمبراطورية موجودة في الصين وأفضلها، كانت في الأصل مسكنًا مؤقتًا وحديقة لأباطرة أسرة "تشينج"، وقد تم بناؤه في عهد الإمبراطور "تشيان لونج"، وتم تصميمه على غرار البحيرة الغربية في "هانجتشو"، دمر في حرب الأفيون الثانية على يد القوات البريطانية والفرنسية، أعيد بناؤه في عام 1886م وأعيدت تسميته بالقصر الصيفي، وعلى الرغم من أن معظم المباني العالية قد تم ترميمها بشكل كبير، فإنه كان لا بدَّ من تقليص حجمها بسبب التمويل المحدود، بالإضافة إلى ذلك، تم تغيير الرسومات الملونة التي تزين الممرات والمنازل إلى لوحات على طراز "سوتشو" تماشيًا مع تفضيلات الإمبراطورة الأرملة "تسيشي"، يتكون القصر الصيفي بشكل رئيس من تل الدوام وبحيرة "كونمينج"، مع مياه تغطي ثلاثة أرباع

المنطقة بأكملها، تم تصميم الأجنحة، والمتنزهات، والقاعات، وغيرها من الميزات الاصطناعية لتنسجم مع الجبال والبحيرات والعناصر الطبيعية الأخرى بطريقة متناغمة.

يُعد منتجع "تشينجدي" الصيفي الحديقة الملكية الأبعد عن مدينة بكين، يقع إلى الشمال من مدينة "تشينجدي"، والمعروفة باسم "ريهي" أو "جيهول" بمقاطعة "هيبي"، وقد بدأ بناءه الإمبراطور "كانجشي" ثم توسع بشكل مستمر خلال فترة حكم "يونجتشينج" و"تشيان لونج" ليصبح أكبر قصر إمبراطوري قديم في الصين، بينما أمضى حكام أسرة "تشينج" صيفهم هناك، كان أيضًا مركزًا سياسيًا خارج السور العظيم، حيث كان بإمكان الحكام إقامة علاقات ودية مع كونفدراليات القبائل في الحدود الشمالية التي أتوا منها أصلًا، يتماشى التصميم العام للمنتجع مع التضاريس، حيث يمتزج بشكل طبيعي مع التضاريس والمياه المحيطة، ويعد أعلى ما وصل إليه فن البستنة، وينقسم إلى أربعة أجزاء: منطقة القصر الأنيق، منطقة البحيرة بتأثيرات "جينجنانج" الغنية (الروافد الدنيا من نهر اليانجتسي)، والمنطقة المنبسطة، والتي تشبه المناظر الطبيعية وراء سور الصين العظيم؛ ومنطقة التل، التي تمثل الجبال الشهيرة في الشمال، ونظرًا لموقعه فقد شمل العديد من المعابد ذات المظهر التبتي والمغولي القوي، بما في ذلك المعبد البوذي الذي بناه الإمبراطور "تشيان لونج" لاستقبال "البانتشن" السادس، الزعيم السياسي والديني للتبت، تمت إضافة هذا الموقع الرائع إلى قائمة اليونسكو للتراث العالمي في عام 1994م.

وفي حين اتسمت حدائق الشمال الإمبراطورية بالبذخ والفخامة، فإن الحدائق الخاصة في الجنوب كانت رائعة وأنيقة، والأكثر شهرة هي الحدائق في "سوتشو"، وتبرز من بينها حديقة "المسؤول المتواضع"، وتقع في رقم 178 شارع "دونجباي" في "سوتشو" وصممها فنان أسرة "مينج" الشهير "ون تشينج مينج"، واستغرق بناؤها ستة عشر عامًا، وقصة هذه الحديقة هي أنه عندما كان "وانج شيانشن"، وهو رقيب في بلاط إمبراطور "جيا جينج" في عهد أسرة

"مينج"، محبطًا في حياته المهنية، ذهب للعيش في عزلة في "سوتشو" واستأجر "ون" لتصميم الحديقة، وعلى مدى 500 عام منذ اكتماله، تغيرت ودمرت بشكل كبير، ولكن تم ترميمها بالكامل في عام 1949م، وهي عبارة عن حديقة كبيرة تضم الطراز الكلاسيكي والفاخر، وتحتوي على جزيرة ذات تلة، ورصيف للخيزران، وربوة من أشجار الصنوبر، وجداول متعرجة، ينقسم إلى حديقة شرقية وحديقة غربية وثالثة مركزية تتمتع بأفضل المناظر، وتنتشر البرك في الحديقة المركزية، إضافة إلى الأجنحة والشرفات، وتجسد بالكامل خصائص "جيانجنان".

على قدم المساواة مع حديقة "المسؤول المتواضع" تأتي "ليو يوان" أو "حديقة التأمل"، وتقع خارج بوابة "تشانج" في "سوتشو"، وكانت في الأصل الحديقة الشرقية لـ"شو تاي"، المسؤول عن الخيول لدى الإمبراطور "جيا جينج"، وتتميز الحديقة بتصميم بسيط ومليء بالروابي، وتحتوي على صخور مصنوعة على يد خبير الأحجار الشهير "تشو بينجتشونج"، كان هذا المكان مملوكًا لـ"ليو شو "في عهد أسرة "تشينج"، التي أعادت تسميته إلى قصر "هانبي" في عهد الإمبراطور "جياتشينج"، وفي وقت لاحق، في عهد الإمبراطور "تونجتشي"، اشترى "شنج شورين" الحديقة وقام بتوسيعها وإعادة تسميتها "ليو يوان"؛ وعلى الرغم من التجديد الرائع، فإن ذلك سرق منها الهدوء الأصلي.

تعتمد الملامح الرئيسة لـ"حديقة التأمل" هي "قمة الغيوم"، و"قاعة نانمو" و"الشروق بعد المطر"، و"قمة الغيوم" عبارة عن حجر "تايهو" نحيل شفاف.. تقول الأسطورة إنه أعطي ضمن الخراج للإمبراطور في أواخر عهد أسرة "سونج" الشمالية، أما قاعة نانمو فهي مزينة بشكل رائع ومزودة بسقف من خشب نانمو ذي الجودة العالية، وداخل الرواق، يبلغ طول الرخام الطبيعي الدائري الذي يطلق عليه "الشروق بعد المطر" متر واحد، ويبلغ سمكه 15 مليمترًا، ومزين بشكل طبيعي مثل لوحة مائية ذات منظر طبيعي جبلي.

مشاريع ثقافية حكومية

في أواخر عهد أسرة "مينج" وأوائل عهد أسرة "تشينج"، حدثت تغيرات اجتماعية كبيرة، فخلال فترة حكم "كانجشي" و"يونجتشينج" و"تشيان لونج"، اضطلع بلاط "تشينج" بالمهمة الضخمة لجمع وتصنيف الأعمال المكتوبة، جزئيًا للسيطرة على فكر الناس، ولكن أيضًا لتعزيز فكرة السلام والازدهار الوطنيين، ومن بين جميع المجموعات الرسمية، أشهرها كانت "المجموعة الكاملة من الرسوم التوضيحية والكتابات من الأزمنة القديمة إلى الأزمنة الحالية" و"المكتبة الكاملة لأربعة فروع من الأدب".

تضم الأولى أكثر من 10.000 مجلد، بما في ذلك أربعين مجلدًا من الرسومات، سمى الإمبراطور "كانجشي" الكتاب بنفسه، وكتب الإمبراطور "يونجتشينج" المقدمة، استغرق الأمر ثماني وعشرين سنة لإكمالها وكانت مجموعة من أقسام الكتب المختلفة، وتُعرف أيضًا باسم الموسوعة الإمبراطورية، وقد تم تنظيمها بوضوح وبشكل جميل، وكان مترجمها "تشن منغلي" من "فوجيان" الذي أصبح "شويكاي" (مرشح اجتاز الامتحان المدني الإمبراطوري على مستوى المقاطعة) في سن الثانية عشرة و"جورين" (مرشح ناجح على مستوى المقاطعات) في سن التاسعة عشرة، ومع ذلك، شارك في ثورة الإقطاعيات الثلاثة واتهم زورًا واعتقل وحكم عليه بقطع الرأس، ولحسن الحظ، لم يُعدم بفضل وزير العدل "شيو تشيانشو"، لكنه نُفي إلى "فنجتيان" ("شنيانج" اليوم)، وخلال السنوات السبعة عشرة التي قضاها هناك، كتب عدة كتب وقام بتجميع سلسلة من السجلات المحلية، وفي عام 1698م، تم استدعاؤه إلى بكين، وعُين في العام التالي لتعليم "يينتشي" - الابن الثالث للإمبراطور "كانجشي - والذي منحه إمكانية الوصول إلى مكتبة كبيرة، ووجد أن الكتب الموجودة بها العديد من أوجه القصور، مما جعله يقرر بمباركة الإمبراطور تجميع عمل كامل يشملها جميعًا، وقد تم الانتهاء منه بعد ست سنوات في عام 1706م، لكنه ظل غير منشور، توفي الإمبراطور "كانجشي" في عام 1722م، ولأسباب سياسية، قام إمبراطور "يونجتشينج" بطرد "تشن مينجلي" للمرة الثانية، وأخيرًا نُشر كتابه

في عام 1726م، لكن اسمه لم يظهر على الغلاف.

أما "المكتبة الكاملة لأربعة فروع من الأدب"، والمعروف أيضًا في الغرب باسمه الصيني "سيكو تشوانشو" فظهر إلى النور عندما اقترح "تشو جون"، مفوض التعليم في مقاطعة آنهوي، في عام 1772م تجميع عمل يمكن أن يتطابق مع "موسوعة يونجلي" في عهد أسرة "مينج"، وقد قبل الإمبراطور "تشيان لونج"، ولم يدخر بلاط "تشينج" أي جهد في جمع الكتب من جميع أنحاء البلاد، بل وحتى تقديم مكافآت لتقديم الطلبات، تم إنشاء مكتب للعمل، وتم تعيين مجموعة من المسؤولين المهمين والمشاهير والعلماء لإدارة ونسخ ومراجعة المشروع، بحلول الشهر الثاني عشر من عام 1781م، تم نسخ المجموعة الأولى وتجميعها وتقديمها إلى الإمبراطور، وتم الانتهاء من ست مجموعات أخرى في وقت لاحق، وتم الاحتفاظ بجميع المجموعات السبع في سبع غرف بنيت خصيصًا في شمال وجنوب الصين، ومع ذلك، بسبب الحروب والفوضى الاجتماعية في القرون التي تلت ذلك، لم يتبقَّ سوى ثلاث مجموعات ونصف المجموعة فقط، وتشير تسمية "الفروع الأربعة" إلى "جينج" (النصوص الكلاسيكية الصينية)، والـ"شي" (التاريخ والجغرافيا)، والـ"زي" (الفلسفة، والفنون، والعلوم)، والـ"جي" (مختارات الأدب الصيني)، كما تم تصنيفها في "تاريخ أسرة "سوي"، على الرغم من أن أكثر من 3500 من الكلاسيكيات تم جمعها وتوحيدها في 36000 مجلد فردي، فإن رقابة "تشينج" عنت أيضًا أنه لا يمكن قراءة سوى الكتب التي تم تجميعها رسميًا، تم تدمير وحذف الكثير أيضًا إذ تشير الأدلة إلى أن أكثر من 100 ألف كتاب قد دُمِّر، وهو عمل قورن بحرق الكتب ودفن علماء الكونفوشيوسية أحياء في عهد أسرة "تشين".

ظهرت أيضًا مجموعات مختلفة من الكتب المجمعة بشكل خاص في أسرة "تشينج"، مثل "مجموعة الكتب التي جمعت في مكتب شيبوتزو" والتي نشرها "باو تينجبو" وابنه، ولد "باو تينجبو" (1728 - 1814م) لأب رجل أعمال ثري، واشترى والده كتبًا باهظة الثمن من "سونج" و"يوان"، وبنى مكتبًا للاحتفاظ

بها، كما أحب "باو تينجبو" الثقافة القديمة ولم يتولَّ أي منصب رسمي، بل كان يشتري الكتب ويجمعها، وعندما أمر الإمبراطور "تشيان لونج" بجمع الكتب التي تم ترحيلها من الأسر السابقة ليتم تسليمها، قدم "باو" أكبر عدد وتلقى "مجموعة كاملة من الرسوم التوضيحية والكتابات من الأزمنة السابقة إلى الأزمنة الحالية" من البلاط كمكافأة، وعندما اكتملت "المكتبة الكاملة لأربعة فروع من الأدب"، تمت إعادة جميع كتب "باو"، وحتى الإمبراطور "تشيان لونج" ألف قصيدة للثناء عليه، وهذا هو الذي ألهم "باو" لإنتاج "مجموعة من الكتب التي جمعت في مكتب شيبوتزو"، وعلى مدى ثلاثة أجيال، تم الانتهاء من سلسلة من ثلاثين مجلدًا.

خطا رسم الخرائط الجغرافية خطوات كبيرة إلى الأمام في عهد أسرة "تشينج"، فكانت "الخريطة الكاملة للعالم"، التي أنشأها المبشر اليسوعي الهولندي "فرديناند فربايست" في 1674م لتقديم المعرفة الجغرافية بالغرب إلى الإمبراطور "كانجشي"، وقدمت وصفًا كاملًا لعادات وموارد العالم، ومعلومات عن الجبال والأنهار الرئيسة، وبفضل هذا، أصبح الإمبراطور "كانجشي" مهتمًا بالجغرافيا وقرر وضع خريطة للصين، وبعد عقود من التخطيط والمسح والرسم، اكتملت الخريطة أخيرًا في عام 1718م، وسمّاها الإمبراطور "كانجشي" "الخريطة الكاملة للصين"، أو "هوانجيو تشوانلانتو".

عَمَلٌ رئيسٌ آخر في ذلك الوقت كان قاموس "كانجشي" الذي تم تجميعه تحت إشراف الإمبراطور "كانجشي"، واستنادًا إلى "قاموس الأحرف وإجادة الحروف الصحيحة" الخاص بأسرة "مينج"، واستغرق الأمر ستة أعوام لتجميعه واستكماله في عام 1761م، ويتألف القاموس من اثنى عشر قسمًا، كل منها تميز بواحد من "الفروع الاثنى عشر الدنيوية"، حيث يتم تصنيف جميع الأحرف الصينية البالغ عددها 47.035 وفقًا لرابطات الأحرف الصينية، كما يتم ترتيبها وفقًا لعدد الأحرف الصينية، وكان أكبر قاموس صيني حتى عام 1914م عندما تم نشر "قاموس الصين العظيم"، وكان أيضًا أول كتاب مرجعي يحمل

كلمة "نزيديان" (القاموس) في اسمه.

أحلام القصور الحمراء

خلال عهد أسرتي "مينج" و"تشينج"، وصلت الرواية الكلاسيكية الصينية إلى ذروتها، وكان حلم القصور الحمراء (حلم الغرفة الحمراء) بلا شك أعظمها جميعًا، في حين يعتقد أن أول ثمانين فصلًا كتبها "تساو شويتشين"، استمر الجدل حول تأليف الأربعين الباقية، مع اقتراح اسمي "جاو إي" و"تشينج يي وان" ككاتبين بديلين، حتى أن البعض يعتقد أن أحلام القصور الحمراء لم يكتبها "تساو شويتشن" على الإطلاق، بل كتبها عمه "تساو فو".

وأيًّا تكن الحقيقة، فقد حمل "تساو شويتشين" - واسمه الحقيقي "تساو تشان" وسمى نفسه "منج روان" - أسماء فنية منها "شويتشين" و"تشنشي"، أو "تشنبو"، وكان أسلافه من الهان الصينيين الذين انتقلوا إلى لياودونج من مقاطعة "هيبي"، وفي عام 1619م، عندما هاجمت قوات "تشينج" بقيادة "دورجون" مدينة "تيلينج"، تم القبض على أحد أسلافه وسجّل في راية المانشو البيضاء، ليصبح بذلك "باوي" من الهان، وهو ما يعني العبد المنزلي في لغة المانشو، كان "تساو تشينيان"، وهو سلف آخر، ضالعًا في عدد من عمليات الاستغلال العسكرية قبل وبعد دخول قوات "تشينج" إلى السهول الوسطى، والتي أكسبت عائلته شهرة وثروة، خدم جد "تساو شويتشين" وجده ووالده وعمه كمفوضين لمكتب إدارة المنسوجات في "جيانجنينج"، والتي كانت مكلفة من بين العديد من المهام الأخرى بصنع القماش للعائلة الإمبراطورية، ولذا كانوا ذوي حظوة عند الإمبراطور "كانجشي"، ونتيجة لذلك عاش "تساو شويتشين" حياة الترف في طفولته.

بعد أن اعتلى العرش الإمبراطور "يونجتشينج"، بدأ بتطهير الأعداء المفترضين، وسجن الأحفاد الإمبراطوريين وإزاحة وزراء الإمبراطور "كانجشي" المفضلين، وقد أُجبر "تساو فو" على ترك منصبه بتهمة الفساد،

وصودرت ممتلكات الأسرة، وفي عام 1728م، اضطرت العائلة بأكملها للعودة إلى بكين، وعندما اعتلى "تشيان لونج" العرش، استمتعت أسرة "تساو" بفترة قصيرة من الازدهار، لكنهم تورطوا في مؤامرة تمرد "يونلو" و"هونجشي"، ومرة أخرى، تمت مصادرة ممتلكاتهم وانخفضت مرتبة العائلة، كل هذا أعطى "تساو شويتشين" بصيرة عميقة في تقلبات الحياة، وبدأ الكتابة للتعبير عن مشاعره، حيث وصف صعود وسقوط عائلة إقطاعية كبيرة في "حلم القصور الحمراء"، وهو عمل ظل مشهورًا منذ ذلك الحين.

استغرق العمل من "تساو شويتشين" عشر سنوات، وكان اسمه في الأصل "قصة الحجر"، وكان معروفًا أيضًا باسم "حكاية علاقات راهب"، "مرآة للرومانسية" و"الجميلات الاثنتا عشرة من جينلينج"، ونقحها باستمرار، وأخذ تعليقات أصدقائه، لا تتبع الرواية قواعد الحكايات الكلاسيكية التقليدية، ليس فقط في الطريقة التي تقدم بها الروايات الجيدة والسيئة، ولكن أيضًا في مستوى التوصيف الأكثر عمقًا، والشخصية المركزية هي "جيا باويو"، المخلص للحب، ويبقى صادقًا في هذا المسعى طوال حياته، وفي النهاية يصبح راهبًا؛ وهو يكره الفكرة التقليدية القائلة بأن الرجل يجب أن يصبح مسؤولًا للحصول على الثروة والمجد لعائلته، وعندما يحاول ابن عمه "شي شيانجيون" إقناعه بالقيام بذلك، يغضب، لكنه يعتقد أن ابنة عمه الآخر، "لين دايو"، تفهمه بشكل أفضل، ونتيجة لذلك، فإن "دايو" واثقة من أنها و"باويو" ملائمان لبعضهما بشكل جيد، ومع ذلك، يعتقد آخرون أن "شو باوتشاي"، وهي فتاة عاقلة تلتزم بالأخلاق الإقطاعية، ستصبح زوجة أكثر ملاءمة لـ"باويو"، و"باوتشاي" تحبه، ولكن باعتدال، حتى عندما يتعرض للضرب والإصابة على يد والده، فإنها لا تظهر حزنها كما تفعل "دايو"، ولكنها تحاول إقناعه باتباع رغبات والده ويصبح مسؤولًا، ومن الواضح أن حب "جيا باويو" و"لين دايو" بعضهما لبعض يدل على الابتعاد عن "الحفاظ على المبادئ السماوية وإزالة الرغبات الإنسانية"، وهي الفكرة الكونفوشيوسية السائدة حول أسرة "تشينج"، وهكذا ينتهي حبهما بمأساة.

إلى جانب المصير المأساوي للشخصيات، تروي الرواية انحدار عائلة "جيا" سواء من حيث الثروة أو العلاقات بين الأشخاص، وعلى العائلة أن تحافظ على مظهرها في عيش حياة مترفة وفاخرة، لكن من الناحية السياسية، لم يحقق رجال "جيا" أي شيء، تعاني الأسرة من صراع بين الأسياد والخدم، والحموات وزوجات الأبناء، وبين الإخوة، وبين الأطفال الذين تلدهم الزوجات وبين الذين تلدهم المحظيات، وبين الأمهات والأبناء، وبين الزوجات والمحظيات، وفي نهاية المطاف فالدمار هو مصير الأسرة.

تكمن أهم نقاط للرواية في الطريقة التي تؤدي إلى تقويض النهاية السعيدة للرواية الصينية التقليدية، فمأساة عائلة "جيا"، التي تتكون من مآسي الزواج والحب والمصير، لا يمكن فصلها عن السياسة في ذلك الوقت، وبذلك تكشف آراء "تساو شويتشين" الواضحة بشأن الازدهار الواضح لعهد الإمبراطور "تشيان لونج".

الشعبية المتزايدة للروايات

بعد توحيد "تشينج" للصين، تكيف المانشو مع ثقافة "هان" الصينية، ولكن في حين تسامح حكام "تشينج" مع العلماء، فقد أطلقوا أيضًا أبحاثًا أدبية واسعة النطاق لحماية وتعزيز قوتهم، ومع ذلك، كان بعض العلماء شجعانًا بما يكفي للتعبير عن أفكارهم، ووجدوا طرقًا لانتقاد الحقائق الظالمة وفساد المجتمع ضمنًا، فكان "تساو شويتشين" و"بو سونجلينج"، و"وو جينجتزي" من الكتاب البارزين الذين صاغوا روايات استثنائية باللغة الصينية العامية والكلاسيكية، وكان بفضلهم أنه خلال هذه الفترة التي لم يجرؤ أحد على التحدث فيها، تمكنت الدوائر العلمية من البقاء على قيد الحياة.

ولد "بو سونجلينج" في أسرة فقيرة من ملاك الأراضي، وأظهر موهبة مبكّرة باحتلاله المرتبة الأولى في اختبارات الأولاد في المقاطعات والأقاليم والمحافظات، لكنه كان محبطًا باستمرار في الامتحانات التي أعقبت ذلك، حتى

سن الواحد والسبعين، عندما تم قبوله في النهاية كـ"سويج ونج شينج" (طالب موصى به بالأكاديمية الإمبراطورية)، وقد أجبره إخفاقه على العمل كمساعد وموظف، أو مدرس خاص، أو ككاتب ظل ليقيم أود نفسه، لكن على الرغم من فقره، لم يتوقف "بو سونج لينج" عن الكتابة، فكتب العديد من الأعمال الرائعة، منها "قصص غريبة من استوديو صيني"، وهي مجموعة من القصص القصيرة باللغة الصينية الكلاسيكية، وهي الأكثر شعبية.

تضم "قصص غريبة من استوديو صيني" ما يقرب من 500 قصة قصيرة حول مجموعة متنوعة من المواضيع وكتبت في أنماط مختلفة، بحبكات رائعة وهياكل متقنة، ومعظم شخصياتها من الخالدين والثعالب والأشباح؛ لذلك يُعرف العمل أيضًا باسم "قصص الأشباح والثعالب"، يقال إنه قبل البدء في الكتاب، كان "بو سونجلينج" يقدم الشاي والتبغ للمارة، ويطلب منهم سرد قصة خيالية للدفع، ومع ذلك لا يوجد إنكار أن العديد من القصص جاءت من عامة الناس، وبعضها مستمد من أساطير "تانج"، وهي تشمل قصص الحب بين الباحثين الموهوبين والسيدات الجميلات، والصداقات بين البشر والأشباح، وقصص المتمردين ضد المجتمع، الشخصيات، بما في ذلك الأشباح، تميل إلى أن تكون خيّرة، وليست مخيفة، كما يتم تصوير النساء باحترام؛ فقد دعا "بو سونجلينج" لتحررهن، وحرية السعي وراء الحب الحقيقي، تم إعادة طبع "قصص غريبة من استوديو صيني" بعدد لا يحصى من المرات منذ النشر، وتمت ترجمتها على نطاق واسع؛ وكانت هناك العديد من الاقتباسات منها للمسرح والأوبرا والسينما والتلفزيون.

كان إخفاق "بو سونجلينج" المتكرر في الامتحانات المدنية الإمبراطورية تجربة شائعة بين العلماء، الذين بدا لهم أن امتحاناتهم كانت نوعًا من الجنون، وكان كتاب "العلماء" بقلم "وو جينج تزي" سردًا مفصلًا لما يقابله مثل هؤلاء الرجال، ولد "وو جينجتزي" في أسرة علمية في مقاطعة "آنهوي"، وفي تلك الأيام، كان هدف كل شخص هو اجتياز الامتحانات الإمبراطورية ويصبح

مسؤولًا، بفضل خلفيته، تلقى "وو" تعليمًا جيدًا وسرعان ما تميز بين أقرانه، تم نقل والده، الذي كان مسؤولًا، من مكان إلى آخر، وذهب معه "جينج تزي"، وتعلم كل شيء عن المسؤولين الرسميين، والعلماء، وكيفية اجتياز الامتحان المدني الإمبراطوري، وحول المقالة الثُّمانية (بنية مقالة جامدة يجب أن يتقنها للنجاح)، ورأى إخفاقات النظام، وشهد أيضًا أن والده فقد موقعه لأنه لم يمالئ رؤساءه، وعندما كان في الثانية والعشرين، توفي والده، بعد ذلك، ألهمه عدم رضاه عن نفاق الأخلاق الإقطاعية لكتابة "العلماء"

استغرق العمل ما يقرب من عشرين عامًا ليكتمل، وكانت أول رواية ساخرة واقعية كبيرة، فقد انتقد نظام الامتحانات المدنية الإمبراطورية، وانتقد نظام المقالات الجامد الثماني الذي ساد في أسرتي "مينج" و"تشينج"، واستعمل الهجاء لفضح المحسوبية والفساد من المسؤولين، وغطرسة طبقة الاستبداد، وفحش أبناء الرجال الأغنياء، وجشع الـ"جورين"، مهارة المشاهير، وخداع الـ"تشينجكي" (رعاة الأقوياء الذين امتصوا المانحين)، وتفشل شخصية "تشو جين" حتى يصبح "شيوكاي"، ويحزنه هذا؛ فقد فشل "تشو جين" في أكثر من عشرين اختبارًا مدنيًا إمبراطوريًا، ولكن عندما يحقق حلمه في النهاية، كان سعيدًا جدًّا لدرجة أنه أصبح مجنونًا، يصور كتاب "العلماء" مجموعة من الرجال الذين يحتقرون الرتبة والثراء، تمثل هذه المثل والتوقعات شخصية المؤلف، وعمومًا، كان للعمل تأثير مباشر على صعود الرواية الساخرة الحديثة في الصين.

وكانت الرواية النقدية هي شكل آخر حقق شعبية بعد عام 1900م، وقد شجع فشل إصلاح الأيام المائة وحركة تمرد بوكسر، والفساد الحكومي، والإذلال الوطني، وتدهور الصين العديد من العلماء على كتابة الروايات، وتعتبر "الكشف عن الدوائر الرسمية" بقلم "لي باوجيا"، و"الأحداث الغريبة التي شوهدت خلال عقدين من الزمن" بقلم "وو ووياو"، و"رحلات لاو تسان" بقلم "ليو إي"، و"زهرة في بحر الخطيئة" بقلم "تزي نج بو" أعظم أربع روايات من هذا النوع في أسرة

"تشينج" الراحلة، كما تعتبر "الكشف عن الدوائر الرسمية" أفضل الأربعة.

بدأ "لي باوجيا" يظهر موهبة للشعر في طفولته، فحل أولًا في الامتحان المدني الإمبراطوري على مستوى المقاطعة، لكنه فشل في المستويات المستقبلية، فذهب إلى شنغهاي، وأمضى عقدًا هناك في كتابة الصحف والعديد من الأعمال الأخرى بما في ذلك "الكشف عن الدوائر الرسمية"، و"التاريخ الموجز للتنوير"، و"سجل الصين الحالي"، وكانت "الكشف عن الدوائر الرسمية"، الذي بدأ فيها عام 1901م، تتكون من عشرة أجزاء، كل منها يحتوي على اثنى عشر فصلًا، ولكن على مدى السنوات الخمس التالية لم يكمل سوى خمسة أجزاء، وفي عام 1906م، في سن الأربعين، مرض ومات، تاركًا الفصول الستين غير مكتملة، كانت هذه أول رواية صينية تنشر بشكل تسلسلي في صحيفة صينية، وقد عرض "لي باوجيا"، من خلال تصويره للمسؤولين من جميع رتب السلم الوظيفي في نقطة انتقالية رئيسة، تملقهم المستمر، والتصادم بين مصالحهم الذاتية، والاقتتال الداخلي.

بشكل عام، عكست روايات أسرة "تشينج" الحياة الاجتماعية المعاصرة، سواء للطبقة الحاكمة أو على مستوى القاعدة الشعبية، كما أنها أعطت وصفًا مفصلًا للشخصيات تمامًا بخلاف أي وصف سابق، وفي الواقع، تجاوزت الرواية في عهد أسرة "تشينج" جميع الأنواع الأدبية الأخرى من تلك الفترة.

إبداعات في الخط والرسم

اتبع الرسم والخط اتجاهات أسرتي "يوان" و"مينج"، حيث أصبحت رسومات العلماء البارزين مهيمنة بشكل متزايد، وكان معظم الأباطرة في أسرة "تشينج" مهتمين بالرسم، مما أدى إلى انتشار الفنانين، حيث سجل 6000 منهم، وكان كثير منهم روادًا لمدارس وأساليب جديدة.

كان الخطاطون النموذجيون في العهد المبكر لأسرة "تشينج" هم "الرباعي وانج" و"الرهبان الأربعة"، تكونت المجموعة الأولى من "وانج شيمن" و"وانج

جيان" ووانج هوى" و"وانج يوانتشي"، وجميعهم منحدرون من أسر علمية وفي جعبتهم مجموعات واسعة من اللوحات والمخطوطات، وبعد أن اعترف بهم الأباطرة ودعموهم، شكلوا مدرسة الرسم التقليدية، فمالوا جميعًا إلى تصوير المناظر الطبيعية الهادئة وتقليد الأنماط القديمة، ودافعوا عن أسلوب المدرسة الجنوبية، التي ركزت على ضربات الفرشاة القوية، وعمومًا قاموا بالكثير لتعزيز تقنيات الفرشاة والحبر المستخدمة في الرسم الصيني.

خلال الفترة نفسها، رفض "الرهبان الأربعة" الأساليب القديمة، فسياسيًا، رفضوا التعاون مع بلاط "تشينج"، ورفضوا الالتزام من الناحية الفنية، وبدلًا من ذلك كانوا يناصرون الفردية والابتكار، كانت أعمالهم مليئة بالعاطفة، معبرين عنها بأساليب فريدة وجديدة، كان "الرهبان الأربعة" هم "هونجرين" و"كونتسان" و"تشو دا" و"شي تاو"، الذين كانوا يحنون إلى عهد أسرة "مينج"، فقد فقدوا مواقعهم السابقة، وهي حقيقة استاؤوا منها بشدة، وفي النهاية تحولوا إلى البوذية، وكان " تشو دا " الأكثر تأثيرًا بين الأربعة.

كان "تشو دا" الجيل التاسع وسليل أسرة تنحدر من "تشو تشوان"، الأمير "نينجشيان" من أسرة "مينج"، كان كل من جده وأباه رسامين وخطاطين مشهورين، وقد قام هو بنفسه بتأليف قصائد من سن الثامنة، ورسم المناظر الطبيعية من سن الحادية عشرة، وتفوق في فن الخط، وبذلك أصبح مشهورًا في سن مبكرة، ومع ذلك، سقطت أسرة "مينج" بعد ذلك بوقت قصير، ولم يقدم "تشو دا" إلى بلاط "تشينج"، وإذ غلبه الغضب والأسى أصبح راهبًا بوذيًا، وفي وقت لاحق كاهنًا طاويًا، متجاهلًا العالم البشري.

استخدم "تشو دا" العديد من الأسماء الفنية والأنيقة، ولكن من سن التاسعة والخمسين، اتخذ اسم "باداشانرين" وأبقى عليه حتى مات، قام عادة بنقش الحروف الصينية (八大山人) ba da shan ren بشكل عمودي بحيث يشبه الحرفان الأولان (八大) الحرف الصيني (哭) ku، والذي يعني "البكاء" أو الحرف (笑) xiao الذي يعني "الضحك" أما الحرفان الأخيران(人山)

الموضوعين بشكل رأسي معًا يشبهان الحرف الصيني "تشي" (之)، ويعني "شيء ما"؛ لذلك فإن اسمه يعني "عدم معرفة ما إذا كان يضحك أم يبكي" وهو تعبير دقيق عن حزنه وإحباطه في الحياة.

اشتهر "تشو دا" أكثر برسمه، الذي كان حرًّا وطبيعيًّا في الأسلوب، ونفذه بضربات فرشاة بسيطة وجريئة، وتم تضخيم الزهور والطيور والأسماك والحشرات في شكل يرمز إلى عزلته المتكبرة، وقد تأثر الفنانون في القرون الثلاثة منذ ذلك الوقت به، حيث أنتجوا أعمالًا تحتوي على عدد قليل من الصور - طائر واحد أو زهرة على سبيل المثال، وعادة ما يرسم "تشو دا" مناظره الطبيعية بالحبر، وتكشف عن شعور عميق بالوحدة والكآبة، ويتضح حنينه لأسرة "مينج" أيضًا، كخطاط كان بارعًا في الخطين المتدفق والمائل، والنقوش على الكتل الحجرية ذات الشكل الأسطواني، وكان يقدم تقليدًا واعيًا لأنماط الخط من أسرة "هان" و"وي" و"جين" و"تانج"، وخاصة الخطاط الأول المشهور "وانج شيتشي" (321–379م)، ويميل "تشو دا" إلى استخدام الحبر الخفيف وفرشاة الكتابة البالية، كان أسلوبه مقيّدًا، لكنه معبر وطبيعي.

ولد "شي تاو"، وهو عضو آخر من الرهبان الأربعة، خلال عهد أسرة "مينج"، وكان لديه وعي قوي مماثل بهوية "مينج"، معظم اللوحات في العصر كانت مقلدة ومملة، وهو مصمم على التغيير، واقترح عدم تبني أي أسلوب محدد في فن الخط، وهو ما ألهم بدوره الرسامين، ومثَّل هذا بداية مدرسة "يانجتشو"، وظهور مجموعة من الرسامين المبتكرين المعروفين باسم "رسامو يانجتشو الغرباء الثمانية" في منتصف عهد أسرة "تشينغ"، تختلف الآراء حول من كانوا، لكنهم عادةً ما يُعتقد أنهم كانوا "لو بين" و"لي فانجيانج" و"لي شان" و"جين نونج" و"هوانج شين" و"تشن جشي" و"جاو شيانج" و"وانج شيشين" الذين رفضوا الخضوع للتقاليد، وكانوا جميعهم تجريبيين، ودعوا إلى الفردية، والتعبير عن الإبداع الفردي، وتقدموا بتقنيات الرسم بالحبر التي اعتمدها أمثال "تشن تشون" و"شي تاو"، وطوروا تقنيات استخدام الفرشاة المهترئة

ورش الحبر، وخلقوا أنماطهم الخاصة والفريدة، وأدى ذلك إلى تطور في رسم معلمي الفن، والذي كان يستخدم في الأصل كوسيلة للهروب من الواقع، لكنها أظهرت الآن اهتمامًا بالحياة الحقيقية، ومع ذلك، وبالنظر إلى أنهم كانوا لا يزالون مقيدين بقيود الإقطاع، فإن الرسامين الثمانية كانوا غالبًا محبطين وغاضبين وكان عليهم أحيانًا التنازل من أجل العيش.

كانت مدرسة الخط المنقوش تطورًا آخر في عهد أسرة "تشينج"، في حين ارتفع شأن خط الختم والخط الديني بشكل كبير، كان "وانج دوو"، أحد أكثر الخطاطين نفوذًا، هو الذي عاش في الفترة ما بين أسرتي "مينج" و"تشينج"، وبفضل عمله الفريد، كان يُعرف باسم "الخطاط السحري "وانج دوو"، اشتهر "وانج دوو" بفرشاة حرة وجريئة، جسدت الانسجام بين الانضباط والحرية والتوتر والاسترخاء، ومعظم نماذجه الخطية ورسائله ونقوشه قد صُنع منها نقوش حجرية، وأشهرها الموجودة في "كتاب "نيشانيوان" للخط"، و"كتاب "لانجهوا جوان" للخط"، كان "وانج دوو" متعدد المواهب، فكانت كتاباته بالخط العادي الكبير والصغير والخط المتدفق المائل كلها ممتازة، واشتهر "فو شان"، وهو أصغر من "وانج دوو"، بأنه الخطاط الأكثر استثنائية في أوائل عهد أسرة "تشينج"، وكان معجبًا بخط "يان تشنتشينج" كثيرًا، واتبع أسلوبه، كان لقواعده الأربع الخاصة بفن الخط تأثير كبير على الخطاطين اللاحقين، وفي الفترة نفسها ظهر "سونج تساو"، الذي تجسد أسلوبه الجريء والسخي في "كلاسيكية ألف حرف في مخطوطة بالخط المتدفق".

أوبرا بكين

في الشهر الثامن من عام 1790م، احتفلت كل مدينة بكين بعيد ميلاد الإمبراطور "تشيان لونج" الثمانين، حيث كان المسؤولون يتدفقون إلى المدينة المحرمة من جميع أنحاء البلاد، وقام "جيانج هيتنج"، وهو تاجر ملح من مقاطعة "تشجيانج"، بتنظيم فرقة أوبرالية من مقاطعة "آنهوي" تسمى "فرقة سان تشينج" لهذه المناسبة، وجمعوا بين نغمات "إيرهوانج" من "آن تشينج"

في "آنهوي" مع نغمات من بكين ونغمات "تشين" من مقاطعة "شآنشي"، وقدموا أداءً رائعًا، وبفضل موسيقاها الرائعة ومخططاتها الهادئة التي يسهل اتباعها، بالإضافة إلى أسلوبها الجديد، أثبتت أوبرا "آنهوي" شعبية كبيرة لدى جماهير بكين، ونتيجة لذلك، واصلت فرقة "سان تشينج" تقديم العروض بعد فترة طويلة من انتهاء احتفالات عيد الميلاد.

يعود الفضل في نجاح فرقة "سان تشينج" إلى "جاو لانتينج"، الذي لعب دور المرأة بمرافقة موسيقى "إيرتشانج"، وأصبح "جاو"، الذي كان اسمه "يوجوان"، مديرًا لفرقة "سان تشينج" في سن الثلاثين في 1803م، وسرعان ما توافدت الفــرق الأخــرى، بمــا فــي ذلــك فــرق "ســيتشينج" و"ووتشــينج" و"ســيشي" و"تشــونتاي" و"هيتشــون" إلــى العاصـمة، ممـا أدى إلـى انـدلاع منافسـة شـرسة ولكنها مثيرة، اشتهرت فرق "سان تشينج" و"سيشي" و"هيتشون" و"تشونتاي" علـى التوالـي بالـ"تشو تزي" (zhouzi): (المسـرحيات كاملـة الطـول) والـ"تشو تزي" (quzi) (نغمات كونتشو) و"با تزي" (دراما الفن القتالي) و"هاي تزي" (أعمال تضم ممثلين وممثلات شباب)، وكان دخول هذه الفرق الأربع من فرقة "آنهوي" إلى مسرح بكين بمثابة بداية أوبرا بكين.

وبمجرد أن أصبحت أوبرا "آنهوي" أكثر أشكال الأوبرا شعبية في بكين، لم يعد باستطاعة فناني الأشكال الأخرى المنافسة؛ فاضطروا إلى التخلي عن أسلوبهم الخـاص والانضـمام، ونتيجـة لـذلك، اسـتوعبت ميـزات هـذا النـوع من الأوبرا الأنواع الأخرى، وتطور هذا إلى مزيج من أنماط "بانتشيانج" و"تشوباي"، في حين أن الأساس النغمي للموسيقى كان من "إيرهوانج" و"شيبي"، وظهرت أوبرا بكين الجديدة هذه في عهد الإمبراطورين "داوجوانج" و"شيان فنج".

تتطلب أوبرا بكين بعض المهارات الأساسية وهي الغناء، والتحدث، والتمثيل وفنون القتال المعدلة، وعلى كل فنان أن يتقن هذه المهارات الأربع ليحكي موضـوع الأوبـرا للجمـهور، وفـي البـداية، كـان هنـاك سـبعة أدوار صـارمة: "شـنج" (الـذكر)، "دان" (الأنثـى)، "جـينج" (الوجـه المطلـي)، "مـو" (الـذكور في

منتصف العمر)، "تشو" (المهرج)، "ووهانج" (المقاتل البهلواني)، و"لونجتاو" (الممثل الذي يلعب في الأجزاء التي تتطلب سيرًا)؛ ولكن في وقت لاحق كان هناك أربعة: "شنج" و"دان" و"جينغ"، و"مو"، ولكل قسم فروعه الخاصة، فيشير "شنج" إلى جميع أدوار الذكور باستثناء الوجه المطلي والمهرج، وينقسم إلى الذكور العجائز، والرجل الشاب، ومن يمارسون الفنون القتالية، والرضع، و"دان" يشير إلى جميع الأدوار النسائية، وتنقسم إلى الأنثى الشابة والمتوسطة العمر والأنثى الشابة النشيطة والأنثى المراهقة والأنثى التي تلعب الفنون القتالية والأنثى العجوز والأنثى القبيحة والإناث الخبيرات في مصارعة الظل والمبارزة، وهلم جرّا، ويشير "جينج"، الوجه المطلي، إلى الشخصيات الذكورية الغريبة في الشخصية أو المظهر، وهناك نوعان من الـ"جينج" وهما الذكور الذين يتحدثون في الغالب والذكور الذي يؤدون في الغالب، ويطلق على "تشو"، وهو دور كوميدي، "الوجه المصبوغ الصغير"، حيث توجد دائمًا لطخة من الطلاء الأبيض على جسر أنف الشخصية، وزين جميع الممثلين والممثلات في أوبرا بكين وجوههم بالألوان، وترمز الدهانات المختلفة إلى الشخصيات التي تمثل، وهي سمة مهمة للغاية، ويمكن التعرف عليهم على الفور، من هذا النوع. لدهانات الوجه معانٍ مختلفة على أجزاء مختلفة من الوجه، فعلى سبيل المثال، يشير رسم الهلال على جبهة المسؤول "باو تشينج" إلى النزاهة والاستقامة، ورسم النمر على وجه الجنرال "يانغ تشيلانج" يشير إلى الجرأة، وبشكل عام، يشير اللون الأحمر إلى الولاء والفروسية، والأبيض: الخبث وعدم الجدارة؛ والأسود: الجدية والبطولة، وهكذا فمن الممكن قراءة شخصية الشخصيات وعقليتها، وموضوع الأوبرا، من خلال الماكياج.

عندما ظهرت أوبرا بكين، ظهرت مجموعة من الممثلين البارزين، كان هناك ثلاث عشرة شخصية مؤسسة على وجه الخصوص، صورها فنان يُدعى "شن رونجبو" في لوحة واحدة، مما قدم أدلة حيوية للأجيال اللاحقة التي تسعى لفهم أدوارهم، وأزيائهم، وسلوكهم (انظر الشكل 29)، من الثلاث عشرة، كان "تشينج تشانجينج" و"تان شينبي" الأكثر شهرة، كان "تشينج تشانجينج"، الذي

يدعى أيضًا "تشينج تشون"، رئيسًا لفرقة "سانتشينج"، وكان معروفًا بزعيم أوبرا "آنهوي" وشخصية مؤسّسة في أوبرا بكين، لعب شخصيات تاريخية مشهورة مثل "وو تزي شو" و"يو فاي" و"لو سو"، أما في الحياة الواقعية، فكان يحتقر رجال السلطة والثروة، ورفض زيف الطبقات العليا، في إحدى المرات، تم اختطافه ليقوم بأداء قسري، لكنه رفض القيام بذلك حتى اكتشف أن الأوبرا المعنية كانت "جي جو ما تساو" (اضرب الطبل والعن تساو تساو)، فلعب دور "مي هنج"، الذي كان يضرب على الطبلة، بينما كان يلعن جمهور الطبقة العليا الذي يبحث عن المتعة.



الشكل (29): ثلاثة عشر من المغنيين الأوبراليين بأوبرا بكين.

كان "تشينج" حريصًا على تنمية المواهب، وأصبح العديد من تلاميذه في ما بعد مؤدين مؤثرين؛ وكان أحدهم "تان شينبي"، الذي ابتكر أسلوبه الخاص في الأداء بإضافة ميزات أوبرات "كونتشو" و"بانجزي" و"داجو" إلى أوبرا بكين، كما امتلك أيضًا صوتًا فريدًا من نوعه، وفي عام 1905م، حولت مسرحية "تان" "تا دينج جون" إلى فيلم أخرجه "رن جينجفنج"، وكان "تان" هو الذي دفع بأوبرا بكين إلى مستوى جديد، وشكل مدرسة "تان"، المدرسة الأكثر نفوذًا.

يمثل ظهور "رباعي "دان" العظيم" العهد الذهبي لأوبرا بكين ذروتها، ففي عام 1927م، نظمت جريدة "شونتيان تايمز" استطلاعًا للرأي في بكين عن أفضل من أدى أدوار السيدات؛ وتم ترشيح "مي لانفانج" و"شانج شياو يون" و"تشينج يان تشيو"، و"شون هويشنج"، وكان لكل واحد من الأربعة أسلوبه الخاص، كان "مي" جادًا وأنيقًا، و"شانج" قويًا ونشطًا، و"تشانج" عميقًا ورشيقًا، وكان "شون"

معطاء وساحرًا، وأدّت عروضهم إلى عهد هيمن فيه الـ"دان" على مسرح أوبرا بكين، وكان "مي لانفانج" الأكثر شهرة؛ ولد لعائلة من فناني أوبرا بكين، وبدأ يتعلم المهارات في سن مبكرة، خلال مسيرته المهنية، قام بتشكيل أسلوبه الخاص، والذي سمي في ما بعد بمدرسة "مي"، كان "مي" أيضًا وطنيًّا رفض خلال الحرب المعادية لليابان الأداء للعدو.

بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، اعترفت بأوبرا بكين بأنها "جوهر الثقافة الصينية"، وتأثرت بالثورة الثقافية (1966 - 1976م)، لكن حتى ذلك الحين، ظهرت نصوص الأوبرا المؤثرة، مثل "الفانوس الأحمر" و"الاستيلاء على الجبل الأحمر بالحيلة"، وكانت تعرف باسم "أوبرات النموذج الثوري" وعكست تاريخ الصين الحديث كما رآه الحزب الشيوعي في ذلك الوقت، أما اليوم، مع زيادة دراسة الحضارة الصينية القديمة وإعادة التفكير في الثقافة الصينية التقليدية، أصبح المزيد والمزيد من الناس مهتمين بهذا النوع، وفي عام 2010م، أدرجت أوبرا بكين في قائمة اليونسكو للتراث الثقافي غير المادي للبشرية.

الفصل التاسع عشر

الحروب والتمرد: حروب الأفيون

تمرد الممالك والقوى الأجنبية

المقدمة

استمرت أسرة "تشينج" لمدة 267 عامًا، من عام 1644 حتى عام 1911م، لكن طبيعة الأسرة تغيرت تمامًا بعد حرب الأفيون في 1840 - 1842م، قبل الحرب، واصلت "تشينج" سياساتها التقليدية في التعامل مع جميع القوى الأجنبية كما لو كانت أدنى منها، وبعد هزيمة قوات "تشينج" على يد البريطانيين في عام 1842م أصبح من الواضح بشكل متزايد أن هذا لم يعد ممكنًا، على الرغم من أن البعض في البلاط حاول الحفاظ على هذا التقليد، خلقت الهزيمة أزمة ثقة داخل النظام لم يتم حلها بشكل مرضٍ قبل الانهيار النهائي للإمبراطورية.

بعد حرب الأفيون، أدت مجموعة من الأزمات الداخلية والخارجية إلى إضعاف قبضة بلاط "تشينج" على السلطة، وكانت "تسيشي"، التي عرفت ببساطة في ما بعد باسم الإمبراطورة الأرملة، قد ارتقت من موقع متواضع في البلاط إلى رتبة محظية كبيرة، ومن خلال التلاعب في العلاقات داخل القصر والتأثير على خلافة العائلة، نجحت في السيطرة على إمبراطور تحت السن القانونية، في البداية كوصي من ضمن الوصاة ومن ثم الوصي الوحيد، وبين عام 1861 ووفاتها في عام 1908م، مارست الإمبراطورة الأرملة السلطة العليا على البلاط، وكانت تقوم بأعمال الإمبراطور دون اللقب؛ لأن ذلك كان لعنة في عقل وإيمان المسؤولين الكونفوشيوسيين.

في عام 1851م، تعرضت "تشينج" لتهديد بعصيان كبير، الـ"تاي بينج" الذين نجحوا في توظيف أيديولوجية شبه مسيحية لإقامة أسرة بديلة في

"نانجينج" قبل أن يتم سحقها في نهاية المطاف، كان عدوها عبارة عن جيش إقليمي جديد تم تأسيسه لحماية "تشينج" ضد التمرد، نجحت هذه الجيوش الإقليمية في إخماد ثورة الـ"تاي بينج" وغيرها من الثورات ولكن ساهمت في نهاية المطاف في سقوط الأسرة، حيث إنها وفرت مراكز القوة المضادة التي قوضت حكومة "تشينج".

بعد الهزيمة المدمرة على يد البريطانيين، واجهت "تشينج" والصين ضغوطًا من قوى أجنبية أخرى كانت مصممة على الحصول على حصة من تجارة مربحة، حاولت فرنسا توسيع سلطتها الاستعمارية من فيتنام إلى جنوب غرب الصين بنجاح محدود، وكانت اليابان، التي نجحت نجاحًا باهرًا في الانتقال السريع من دولة ضعيفة مهددة بالاستعمار إلى قوة استعمارية في حد ذاتها أكثر نجاحًا، وأظهرت حرب 1894 - 1895م مع الصين حول المصالح المتضاربة في كوريا ضعف مؤسسة "تشينج" السياسية وقواتها العسكرية، وسيطرت اليابان على كوريا، كما ضمت جزيرة تايوان التي احتفظت بها حتى عام 1945م، واستفاد عدد متزايد من القوى الغربية من ضعف الصين لتأسيس مصالحهم الدبلوماسية والتجارية أو تعزيزها، فقد برهنت فعاليتهم على قدرتهم على إقامة قوة عسكرية كبيرة في عام 1900م لتخفيف القيود الخارجية في بكين التي كانت تحت الحصار من ثوار بوكسر، وخلال القرن التاسع عشر، أدى الضغط الناجم عن التوسع الروسي نحو الشرق إلى خلق صراعات على الحدود الشمالية والغربية للصين، حيث سعت "تشينج" إلى الحفاظ على المكاسب الإقليمية السابقة للأسرة وتوطيدها.

حرب الأفيون

الصين والغرب قبل حرب الأفيون الأولى

تسارعت الثورة الصناعية البريطانية، التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر، بشكل سريع على مدى القرن القادم، ومع تطوراتها التكنولوجية، ظهرت الحاجة

إلى المواد الخام والأسواق، وانتشرت إلى الخارج في جميع أنحاء العالم، ففي آسيا، وصل البريطانيون إلى الهند، وبورما، وأفغانستان، ووضعوا أنظارهم على الصين، وفي وقت مبكر من 1689م، كانت بريطانيا تتاجر رسميًّا مع "جوانج تشو"، ولكن طلبها على السلع الصينية كان أكبر بكثير من العرض، ولتغيير هذا الوضع، بدؤوا في شحن الأفيون في الزوارق الحربية، وبسبب القيود المفروضة على التجارة، كانت قوارب التهريب البريطانية تشاهد في كثير من الأحيان في البحر جنوب شرق الصين.

في هذه الأثناء في أواخر عهد أسرة "تشينج"، كانت الصين تظهر علامات على التراجع، ففي عام 1795م، خلف الإمبراطور "جياتشينج" الإمبراطور "تشيان لونج"، وورث دولة فاسدة مليئة بالفوضى وتعاني من الصراع الطبقي، أخذ المسؤولون مثل "هيشين" الرشاوى وأقروا القانون حسب غاياتهم الخاصة، مما قوّض الإدارة الداخلية، لكن على الرغم من انحطاطها، ما زالت الصين تعتبر نفسها مركزًا للعالم، معتقدة أن "كل الأراضي والشعوب تنتمي إلى الإمبراطور"، وبفضل الاقتصاد المكتفي ذاتيًّا، تمكنت حكومة "تشينج" من ممارسة سياسة الباب المغلق، لم يتم قطع جميع العلاقات الخارجية، لكن "جوانج تشو" كانت ميناء الصين الوحيد المفتوح، وكانت التجارة التي مرت بها هي السبيل الأساسي الذي يربط الصين بالعلاقات مع العالم الخارجي.



وكانت المصانع
الثلاثة عشر أو المصانع أو المستودعات والشركات التي تديرها، والتي عينتها

بلاط "تشينج"، هم الوكلاء الوحيدون لهذه التجارة، وكان عليها أن تدفع مبلغًا
كبيرًا من المال لضمان احتكارها التجاري (انظر الشكل 30)، لقد تم تمزيقهم

بالمعارضـة الـداخلية والابـتزاز والفسـاد، مما أدى إلى التخلـف عن سداد المدفوعات إلى الغربيين، وعندما أصبحت الصراعات التجارية بين الصين

والغرب شرسة على نحو متزايد، ارتفعت حدة الخلاف بين الأجانب المعنيين، ويعتقد البريطانيون أن الحكومة المركزية في بكين كانت تجهل ممارسات

سوء التصرف في المصانع، وسعت إلى الاتصال ببلاط "تشينج" مباشرة.

الشكل (30): ثلاثة عشر مصنعًا بمقاطعة "جوانج جوو".

في عام 1793م، بموافقة من رئيس الوزراء البريطاني، تم تعيين "جورج ماكارتني" مبعوثًا خاصًّا للصين، وللتأكيد على أهمية مهمته، رفعته الملكية البريطانية إلى عضو مجلس ومنحته لقب فيكونت، وقد انطلق الوفد من لندن حاملًا مجموعة متنوعة من الهدايا، بما في ذلك قبة سماوية والتلسكوبات والسجاد والنحاس، وطلب من اللورد "ماكارتني" جمع معلومات تتعلق باقتصاد الصين وسياساته وأفكاره وثقافته، لكن هدفه الرئيس هو فتح التجارة بين البلدين وتطوير العلاقات المواتية لبريطانيا.

في 14 سبتمبر 1793م، التقى الإمبراطور "تشيان لونج"، الذي كان يرتدي ملابسه اليومية، "جورج ماكارتني" في خيمة حديقة "وانشو" في المنتجع الصيفي في "تشينجدي"، بالطريقة التي كان يجتمع بها عادة مع المبعوثين من الدول التابعة، لإظهار احترامه، ولم يؤدِ "ماكارتني" الذي كان يرتدي أفضل ملابسه الـ"كوتو" الكامل لكنه انحنى، وهو يثني ركبة واحدة، مما أزعج الإمبراطور، وقدم تمثالًا مزينًا بأحجار كريمة يحمل رسالة من جورج الثالث ملك بريطانيا العظمى وإيرلندا وفرنسا، كما أعرب عن أمله في أن تتمكن

بريطانيا من تعيين مبعوثها في بكين وأن تفتح الصين "نينجبو" و"تيانجين" كموانئ تجارية، لكن الإمبراطور رفض، قائلًا إن الصين، وهي بلد غني بالموارد، لا تحتاج إلى استيراد أي شيء، تم تحذير البريطانيين من التجارة في "تشجيانج" و"تيانجين"، وقال إنهم سيطردون إذا استمروا في محاولة القيام بذلك.

بالنسبة إلى الإمبراطور "تشيان لونج"، لم تكن هذه المقابلة مختلفة عن أي مقابلة أخرى؛ كان عيد ميلاده في 17 سبتمبر، وحضر "جورج ماكارتني" الاحتفالات، حصل "تشيان لونج" على هدايا أخرى من الغرب وانتقل إلى المنتجع الصيفي وطلب من "ماكارتني" أن يراها، ووصفها "ماكارتني" في يومياته قائلًا: "كنت غير مرتاح لأن هدايانا ربما بدت أقل شأنًا"، ومن أجل استعادة كرامته، دعا "ماكارتني" بشكل ودي "فوكانجان"، وهو نائب المانشو أو حاكم "ليانجوانج" وهما مقاطعتا "جوانجدونج" و"جوانجشي" لإلقاء نظرة على تدريبات الجنود البريطانيين على البنادق والمدافع، ولكن هذا الأخير رفض، اضطر "ماكارتني" محبطًا إلى مغادرة بكين في 7 أكتوبر، بعد أن نجح جزئيًا في مهمته، حيث واصل السفر إلى "هانجتشو" وأماكن أخرى في شرق الصين عبر القناة الكبرى، وبقي في "ماكاو" لبعض الوقت، ثم غادر الصين في 17 مارس 1794م.

أثناء إقامته، أجرى "ماكارتني" العديد من التحقيقات حول قوة الصين العسكرية على طول الساحل، أدرك أن الصين ضعيفة، لكنه عارض الحرب بسبب تأثيرها على التجارة، وتنبأ بأن أي حرب من شأنها أن تسبب فوضى في التبت التي لها مصلحة في بريطانيا بسبب ممتلكاتها المتنامية في الهند، وأن تايوان وكوريا سوف تنفصلان عن حكومة "تشينج"، وأن روسيا ستحتل جزءًا من الأراضي الصينية، وأن الصين ستعاني أعمال الشغب، كل هذا تبين أنه حقيقي، لقد فوتت الصين فرصة لإعادة الدخول إلى العالم واعتناق التصنيع، كانت أسرة "تشينج" المتدهورة مثل سفينة حربية قديمة مع قائد غير كفء

على رأسها، ولم يكن هناك مفر من تحطمها، وحالما حدث ذلك، تراجعت الصين أكثر وأصبحت معروفة باسم "رجل آسيا المريض".

الأثر المدمر للأفيون في "هومين"

لقد أسفرت مهمة البعثة البريطانية باهظة التكاليف إلى الصين عن فشل دبلوماسي، كان الشاي الصيني، والحرير، والراوند شائعًا جدًّا في بريطانيا ومستعمراتها، وكان تسعة أعشار شحنة شركة الهند الشرقية إلى الصين ذهبًا؛ عشر واحد فقط هو البضائع، هذا خلق مشكلة ميزان المدفوعات للبريطانيين؛ لذلك كان لدى الصين فائض تجاري كبير، لكنها لم تُبْدِ أي اهتمام بالمنتجات الصناعية في الغرب، وهو وضع استمر حتى عشرينيات القرن التاسع عشر، ولكن بعد عام 1826م، حدث تغيير كبير، وفي جذره وضع الأفيون.

الأفيون، "ديان" باللغة الصينية (المصطلح الصيني العادي الآن هو ال"يابي")، ويستخدم مصطلح "ديان" الذي يترجم بأنه "دخان كبير" في العامية، ويصنع من الخشخاش، الذي قدمه العرب والأتراك إلى الصين في نهاية القرن السابع، في البداية، تم استخدامه طبيًّا لتهدئة الأعصاب وتخفيف الألم، وفي ستينيات القرن الخامس عشر بدأ الناس في "فوجيان" و"جوانجدونج" تدخينه للاسترخاء، ومع نمو الطلب، تمت زراعة الخشخاش في بعض المقاطعات الجنوبية في الصين، في بادئ الأمر، حظر بلاط "تشينج" استيراده وتدخينه لأسباب أخلاقية، ولكن مع استيراد المزيد والمزيد من الفضة الصينية في الخارج، تحولت المشكلة من كونها قضية أخلاقية إلى قضية مالية خطيرة، حظرت الصين لأول مرة تدخين الأفيون وتجارته في عام 1729م، لكن الواردات بلغت ذروتها بين عامي 1838 و1839م. ويكمن الفرق بين الأفيون والسلع الأخرى في عدم شرعيتها؛ المعاملات التي يتعين الاضطلاع بها نقدًا، وكان التجار يدفعون أولًا نقدًا في المكاتب التجارية الأجنبية، ثم يبحرون إلى

جزيرة "لينجدينج" في مصب نهر اللؤلؤ في قوارب تهريب صغيرة لجمع بضائعهم من العوامات الأجنبية، وقبل الحظر على تدخين الأفيون وتجارته، كان هناك ما بين 100 إلى 200 قارب تهريب تعمل في المياه حول مدينة "جوانج تشو"، وغالبًا ما يتم الإتجار بالمُتجِرين بالمجتمعات السرية وقطاع الطرق، ويقومون بنقل وإقراض الأموال من خلال البنوك المحلية في مقاطعة "شانشي".

ولا يمكن فصل النمو السريع لتجارة الأفيون عن استهلاك الأفيون في الصين، في وقت مبكر، كان معظم مدخني الأفيون من عائلات المسؤولين، ولكن هذه الممارسة انتشرت على جميع مستويات المجتمع - حتى للرهبان والراهبات البوذيين والكهنة الداويين - قبل حرب الأفيون الأولى (1840 - 1842م)، أمكن رؤية أوكار الأفيون في كل مكان تقريبًا في مقاطعتي "جوانجدونج" و"فوجيان"، مع انتشار مشكلة الإدمان على نطاق واسع، كما أعاق تدخين الأفيون الطلب على السلع الأخرى، مما أدى إلى تقلص الأسواق، وبحلول منتصف وأواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان ما يقرب من أربعة إلى خمسة ملايين تايل من الفضة يتدفقون في الخارج سنويًّا، مما أدى إلى انخفاض كبير في كمية الفضة في الصين، وهذا يعطل بشدة الاقتصاد المحلي، مما يؤثر بدوره على سعر الصرف بين الفضة والنحاس، وللتعامل مع هذه الأزمة المالية، اضطرت الحكومة الصينية للحد من نقاء النحاس وزيادة كمية العملات المعدنية النحاسية في كل عام، مما أدى إلى ازدهار العملة النحاسية في سوق العملة الصينية.

على الرغم مما كان يحدث، فإن حكومة "تشينج" لم تعتمد التنظيم الفعال، لم يكن هناك نظام جمركي شامل ولا قوة بحرية فعالة لمكافحة التهريب، علاوة على ذلك، كان مسؤولو الجمارك فاسدين، وفي عام 1834م، ألغت الحكومة البريطانية احتكار شركة الهند الشرقية للتجارة مع الصين، مما أدى إلى تغييرات كبيرة في العلاقات الصينية البريطانية، والآن، حلت التجارة الرسمية

للحكومة البريطانية محل التجارة غير الرسمية لشركة الهند الشرقية، عينت الحكومة البريطانية ثلاثة من المشرفين على الأعمال، ولكن هذا فشل في إرضاء أي من الحكومتين، وفي عام 1836م، تم تعيين "تشارلز إليوت"، وهو ضابط في البحرية الملكية، كمشرف رئيس على التجارة البريطانية في الصين.

طلبت الحكومة البريطانية من "إليوت" إقامة علاقات رسمية متساوية ومباشرة مع كبار المسؤولين الصينيين، عندما قدم أول خطاب له إلى "دنج تينجتشن"، الحاكم العام في "جوانجدونج" و"جوانجشي"، استخدم بحكمة صيغة "بينجتاي" - عادة ما يتم مخاطبة السلطات العليا بها - لإظهار احترامه، وبالتالي، سمح له المسؤول الصيني بالدخول إلى مدينة "جوانج تشو"، عندما تولى "إليوت" منصبه، اكتشف أن بعض المسؤولين الصينيين كانوا يحاولون إضفاء الشرعية على تجارة الأفيون، اعتقادًا منهم أنه إذا تم فرض رسوم جمركية عليها، فإن هذا سيؤدي إلى وقف تدفق الفضة إلى الخارج، كما اعتقدوا أن الحكومة يجب أن تسمح بزراعة الخشخاش في الصين لمنع التدفق الداخلي، ومع ذلك، عندما قدم مذكرة رسمية ضد رفع الحظر إلى بلاط "تشينج"، رفض الإمبراطور "داوجوانج" هذه الفكرة، وفي 19 سبتمبر 1836م، أمر "دنج تينجتشن" بتدمير الأفيون، وبحلول نهاية عام 1837م، نجح "دنج" في تفكيك شبكة تهريب الأفيون، وأدى هذا إلى ركود في تجارة الأفيون ووجه للتجار البريطانيين ضربة قوية.

في حين كان "دنج تينجتشن" يناضل من أجل الحظر في "جوانج تشو"، كان هناك جدل ساخن في بكين حول أفضل طريقة للقيام بذلك، قدم "هوانج جوزي"، المسؤول عن الشؤون الخارجية، مذكرة رسمية في الثاني من يونيو عام 1838م اقترح فيها أن الأشخاص الذين فشلوا في التخلي عن تدخين الأفيون في غضون عام واحد يجب أن يحكم عليهم بالإعدام، حصل هذا الاقتراح على دعم "لين زيشو"، الحاكم العام لـ"هوجوانج"، الذي حذر بعد ذلك أنه إذا لم يتم حظر الأفيون، فسيتم ترك الصين بلا جنود صالحين ولا إمدادات

من الفضة، واقترح ستة تدابير صارمة لحظر الأفيون، لكنه مارس الحذر في حالة المهربين الأجانب، ونجح في تنفيذ إجراءاته في مقاطعتي "هونان" و"هوبي"، وفي 31 ديسمبر 1838م، جعله إمبراطور "داوجوانج" من المفوض الإمبراطوري المكلف بحظر التجارة في "جوانج تشو".

وصل "لين زيشو" إلى "جوانج تشو" في 10 مارس 1839م، وأمر بمعاقبة مهربي الأفيون الصينيين والمدخنين بشدة، وعلى الرغم من اتخاذه موقفًا أكثر تساهلًا تجاه المتداولين الأجانب، فإن تعهده بحظر الأفيون أدى حتمًا إلى نشوب صراع، وقام بمصادرة الأفيون الذي يملكه المتجرون، إلى جانب 42.741 من أنابيب الأفيون و43.144 كيلوجرامًا من الأفيون؛ تمت معاقبة عدد كبير من المسؤولين الفاسدين، لكن المهربين الأجانب مثلوا صعوبة خاصة، حاول التفكير بحل يتبعه معهم، وكتب عبثًا رسالتين إلى العاهل البريطاني، الملكة فيكتوريا، وفي يوم 18 مارس 1839م، أمر "لي زيشو" التجار الأجانب المتمركزين في "جوانج تشو" بتسليم جميع الأفيون في غضون ثلاثة أيام ووقف التهريب نهائيًا.. تم تجاهل هذا الموعد النهائي، وفي 24 مارس، أمر "لين" بوقف التجارة الخارجية، وحاصر المكتب التجاري البريطاني لمدة ستة أسابيع لانتهاكها لوائح بلاط "تشينج".

في هذه الأثناء، تم شحن المزيد من الأفيون من الهند، واعتقد "تشارلز إليوت" أن التجارة ستعود بمجرد أن يتم تسليم الأفيون إلى "لين"، لذلك في 27 مارس 1839م، أعلن باسم الحكومة البريطانية بأن جميع التجار البريطانيين يجب أن يعطوا الأفيون لهم، وتم تسليمه إلى "لين زيشو"، وبحلول 18 مايو 1839م، تخلى البريطانيون عن 21.306 صناديق من الأفيون، كان "لين" قد خطط في الأصل لنقله إلى بكين، ولكن المسافة الطويلة جعلت هذا غير عملي، وبدلًا من ذلك، أمره الإمبراطور بتدميره في "جوانج تشو"، كان لدى "لين" ثلاث برك كبيرة وعميقة تم حفرها على شواطئ "هومين" خارج "جوانج تشو"، وراقب المسؤولون والزوار الأجانب أثناء سحق الأفيون وإلقائه في البرك مع الملح

والجير الحي، ثم تم كسح الخليط في قناة مجاورة، ومنها إلى البحر، كان تدمير "لين زيشو" للأفيون في "هومين" انتصارًا؛ لكنه كان قصير العمر.

حرب الأفيون الأولى (1840 - 1842م)

فاز "لين زيشو" الآن بسلسلة من الحملات لحظر هذا المخدر، لكن التجار البريطانيين رفضوا باستمرار تقديم خطابات ضمان بأنهم لم يعودوا يتاجرون في الأفيون، وبدلًا من ذلك حث "تشارلز إليوت" الحكومة البريطانية على اتخاذ إجراءات فورية وقوية ضد الصين، ثم جاء حادث "لين ويشي"، في يونيو عام 1839م، حيث تشاجر خمسة بحارة بريطانيين في حالة سكر مع بعض القرويين في "جيانشازوي"، حيث تعرض رجل يدعى "لين ويشي" للضرب حتى الموت، عرض "إليوت" التعويض، لكنه رفض إعدام بحار في المقابل، وفي الواقع، تم معاقبة البحارة الخمسة فقط بخفة، وشحنوا للعودة إلى بريطانيا، عند اكتشاف ذلك، أعلن "لين زيشو" أن الصين ستتوقف عن التداول في أي سلع مع دول أجنبية وأرسلت قوات لإخراج "إليوت" ورجاله، هذا أثار رد فعل قوي في بريطانيا، وفي 1 أكتوبر 1839م، قرر مجلس الوزراء البريطاني إرسال أسطول إلى المياه البحرية الصينية، وأُمر الحاكم العام للهند بمساعدة الأسطول عند الضرورة.

كان "لين زيشو" يتوقع شيئًا من هذا القبيل؛ لذلك حاول تحسين الدفاعات الساحلية، فقام بتركيب المزيد من المدافع في "هومين"، واستورد سرًّا أكثر من 200 مدفع من دول غربية أخرى لتعزيز الحصون، كما قام بتجنيد 5000 من جنود البحرية، وفي 28 يونيو 1840م، وصل الأدميرال "جورج إليوت"، ابن عم "تشارلز إليوت"، بالقرب من ساحل "جوانجدونج"، وأمرت السفن الحربية البريطانية بحصار الموانئ، بحيث لا تستطيع أي سفينة صينية الدخول أو المغادرة؛ وهكذا بدأت حرب الأفيون الأولى، وبدلًا من الهجوم على "جوانج تشو"، تقدمت بريطانيا نحو الشمال، وفي 2 يوليو، حاول "جورج" و"تشارلز إليوت" الهبوط في "شيامن"، ولكن القوات الصينية أطلقت النار عليهم، وفي 5

يوليو، احتلت القوات البريطانية "دينجهاي" على جزر "تشوشان" قبالة ساحل مقاطعة "تشيجيانج"، وفي 10 يوليو قاموا بحجب "نينجبو" قبل مواصلة طريقهم إلى الشمال، وفي 9 أغسطس، وصلوا إلى ميناء "داجو" - الحصون التي تحرس الطرق البحرية إلى "تيانجين" - ومن هناك انتقلوا إلى "تيانجين"، مما يشكل تهديدًا لبكين.

عند هذه النقطة، فقد الإمبراطور "داوجوانج" كل الثقة في "لين"، وأجاز لمسؤول البلاط "تشيشان" مقابلة "جورج" و"تشارلز إليوت" في "تيانجين" ومعرفة ما يريدونه، كان "تشيشان سياسيًّا خبيثًا، فقد أدهش "تشارلز إليوت" وأخبره أن الإمبراطور الصيني عرف بالفعل أن التجار البريطانيين كانوا غير راضين، وأرسل مسؤولين إلى "جوانج تشو" للتحقيق، وشجع هذا "إليوت" للمغادرة إلى "جوانجدونج" في سبتمبر، كان "تشيشان" قد أرسلهم بعيدًا من دون اللجوء إلى القوة، وبالتالي فقد ربح حظوة الإمبراطور "داوجوانج" الذي عينه مفوضًا إمبراطوريًّا، وأقيل "لين زيشو" ونفي إلى "ييلي" في مقاطعة "شينجيانج".

بعد ذلك، قدم "تشارلز إليوت" أربعة عشر طلبًا، وطالب الإمبراطور - منزعجًا - "تشيشان" بتعليق المفاوضات، وفي 20 يناير 1841م، أجبر "إليوت" "تشيشان" على الموافقة على اتفاقية "تشوانبي"، حيث تم التنازل عن هونج كونج للتاج البريطاني ودفع تعويض ضخم إلى الحكومة البريطانية، رفض "تشيشان" التصديق عليها، وعندها أقاله بلاط "تشينج" أيضًا، وفي هذه الأثناء، لم تكن الحكومة البريطانية تعتقد أن الاتفاقية قوية بما فيه الكفاية؛ لذلك في 30 أبريل 1841م، تمت إقالة "تشارلز إليوت"، والاتفاقية التي صاغها، وتم تعيين السير "هنري بوتينجر" بدلًا منه.

مع رفض الحكومتين للاتفاقية، دخلت الحرب مرحلة جديدة، عين الإمبراطور "داوجوانج" "ييشان" كقائد عام مسؤول عن قمع التمرد والمفوض الإمبراطوري للتعامل مع الغزاة البريطانيين، على أي حال، كان "ييشان" منحلًّا وغير كفء،

وهاجمت القوات البريطانية التي لا تزال تحت قيادة "تشارلز إليوت" في هذه المرحلة "هومين"، وبعد أن طلب "جوان تيانبي" مساعدة الحاكم العام لـ"جوانجدونج" و"جوانجشي" دون جدوى، تولى القيادة وقاتل في أعماق الليل، وقد قُتل هو وجنوده البالغ عددهم 400 جندي، وأعرب الجنرالات البريطانيون عن إعجابهم ببطولته، وأطلقوا عليه اسم "جوان القائد الاستثنائي"، وفي 27 مايو 1841م، أرسل "بيشان" ممثله ليقبل جميع الشروط التي اقترحها "تشارلز إليوت"، ووقع على اتفاقية الهدنة في "جوانتشو"، والمعروفة باسم "معاهدة "جوانج تشو" الموقعة تحت الإكراه"، أو "فدية "جوانج تشو"، وبحلول ذلك الوقت، أرسلت حكومة "تشينج" ما يقرب من 20.000 جندي إلى "جوانج تشو" وأنفقت عدة ملايين من الفضة على الحرب، ولكن مع حكومة فاسدة وغير كفؤ من ناحية وغزاة لا يرحمون من ناحية أخرى، كان شعب "جوانج تشو" تحت الحصار.

عندما دخلت القوات البريطانية مدينة "جوانج تشو"، قاموا بإحراق المنازل ونهب المصانع الثلاثة عشر، وفي 29 أيار/ مايو، أغضبت الاعتداءات التي ارتكبها 12 جنديًا بريطانيا في "سانيوانلي"، شمالي "جوانج تشو"، السكان المحليين، الذين هاجموهم بالمعاول والعصي، قُتل عدد قليل من الجنود وهرب البقية، وبافتراض أن البريطانيين سيأتون بالثأر، فإن شعب "سانيوانلي" قد تجمعوا لمناقشة التكتيكات المناهضة للبريطانيين مع القرويين، وعمال النسيج، والبحارة، والزعماء المحليين من البلدات القريبة، وفي 30 مايو، قاد الفيكونت "هيو جو"، قائد الجيش البريطاني، أكثر من ألف جندي ضدهم، واستمر شعب "سانيوانلي" في القتال أثناء التراجع، حيث استدرج الجنود البريطانيين إلى "نيولانجانج"، وفي فترة ما بعد الظهر، كانت هناك عاصفة رعدية، أغرقت الذخائر البريطانية، وهنا أخذ السكان المحليون فرصتهم، وهاجموا، أُجبر الجنود البريطانيون على التراجع إلى حصن "سيفانج"، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة، فقط ليحاصرهم السكان المحليون، وعندئذ رفعوا علمًا أبيض، وأرسل "تشارلز إليوت" رسالة إلى سلطات "جوانجدونج"، وهددوا

بمهاجمة المدينة مرة أخرى إذا لم يتم إخضاع السكان المحليين، ووافق "ييشان" ومسؤول آخر على الفور، لكن معركة "سانيوانلي" وجهت ضربة قوية للإنجليز، وفي 1 يونيو، انسحبوا من المدينة.

في أغسطس 1841م، وصل السير "هنري بوتينجر" إلى ماكاو، حيث أُمر بقيادة القوات الشمالية لإعادة احتلال "دينجاي" ونقاط رئيسة على طول نهر اليانجتسي، وأمر أيضًا بصياغة معاهدة، وتقديمها إلى الإمبراطور الصيني للحصول على موافقته ومن ثم تقديمها إلى الملكة فيكتوريا؛ لذلك في 1 أكتوبر، احتل "دينجاي" وسارع بلاط "تشينج" للرد، ولكن تم تعزيز القوات البريطانية بتعزيزات من الهند، وفي 16 يونيو 1842م، احتلوا "ووسونج"، ثم "شنغهاي" و"تشينجيانج" بعد ذلك بقليل.

كانت "تشينجيانج" الواقعة عند ملتقى القناة الكبرى ونهر اليانجتسي، شريان الحياة الاقتصادي لأسرة "تشينج"، وتسبب سقوطها في ذعر، بدأت المفاوضات مع البريطانيين، في 29 أغسطس 1842م، بعد أيام من دراسة الترجمة إلى اللغة الصينية، وقع المفوض الإمبراطوري "تشيينج" معاهدة "نانجينج" على السفينة الحربية البريطانية "إتش إم إس كورنوول"، تضم المعاهدة 13 مادة تضمنت فتح خمسة منافذ للتجارة، والتنازل عن هونغ كونغ، ودفع تعويض 21 مليون تايل من الفضة، وفرض الجمارك من جانب واحد، وفي 8 أكتوبر، وقع "تشيينج" والسير "هنري بوتينجر" معاهدة "هومين"، والتي أمكن بموجبها لبريطانيا أن ترسي سفنها الحربية بشكل دائم في الموانئ الصينية وأن بإمكان البريطانيين استئجار الأراضي لبناء المساكن، هذه المعاهدات وغيرها، التي أصبحت تعرف باسم "المعاهدات غير المتكافئة"، ألحقت أضرارًا جسيمة بالسلامة الإقليمية للصين واستقلالها السيادي؛ وأصبحت الآن فعليًّا نصف مستعمرة.

حرب الأفيون الثانية (1856 – 1860م)

وبسبب هذا نظرت الدول الغربية إلى الصين كسوق ذات إمكانات غير محدودة، بدؤوا في نقل كميات كبيرة من القطن والسلع الأخرى إلى البلاد، بما في ذلك مواد لم تكن معروفة للشعب الصيني، مثل السكاكين والبيانو، ومع ذلك، على الرغم من زيادة حجم التجارة في بريطانيا وأمريكا، فقد وجدوا أن العديد من المنتجات غير قابلة للتسويق، وعزوا ذلك إلى افتقار الصين إلى منافذ التجارة المفتوحة، والحقيقة هي أن اقتصاد الصين الذاتي – الاكتفاء - قد استمر لآلاف السنين، وكان هناك طلب منخفض على المنتجات الغربية لدرجة أنهم لم يتمكنوا من اختراق عمق السوق الصيني، بالإضافة إلى ذلك، في حين سمح استيراد الأفيون غير المقيد للغربيين بجني أرباح هائلة من الصين، فإن الصينيين أنفسهم قد جروا إلى الفقر، مما جعل قوتهم الشرائية ضعيفة للغاية.

في عام 1854م، تعمدت بريطانيا إساءة تفسير المواد في معاهدة "وانجشيا"، التي أبرمت بين الصين والولايات المتحدة، واقترحت تعديلها، وهو اقتراح رفضته حكومة "تشينج"، وفي عام 1856م، وبدعم من بريطانيا وفرنسا، اقترحت أمريكا تعديلها للحصول على المزيد من الامتيازات والمصالح في الصين، ولكن هذا أيضًا تم رفضه؛ لذلك في هذه المرحلة، قررت هذه القوى الغربية الثلاث شن حرب أخرى، كانت ذريعة بريطانيا هي حادثة "أرو"، حيث قام المسؤولون في "جوانجدونج" بالقبض على المشتبه بهم الصينيين من السفينة المسجلة في هونج كونج "آرو" في أكتوبر 1856م؛ واستشهد الفرنسيون بحادثة الأب "تشادلين"، التي أُعدم فيها مبشر فرنسي، ووصل التحالف البريطاني الفرنسي، الذي يقوده إيرل "إلجين" البريطاني و"جان بابتيست لويس جرو" الفرنسي إلى "جوانجدونج" في عام 1857م، وطالب بتعويض من "يي مينجتشين"، الحاكم العام لـ"يانجوانج" في غضون عشرة أيام، ظن "يي" أنها خدعة، ولم يقدم أي رد، وحل موعد الإنذار النهائي وفات؛ وبعد أن نفد صبره، هاجم التحالف "جوانج تشو" في 28 ديسمبر (كانون الأول)، وتم القبض على "يي" وسجن على متن سفينة بريطانية، ثم نُفي إلى "كلكتا"

عاصمة الهند البريطانية، حيث توفي بعد ذلك بعام.

بعد الاستيلاء على "جوانج تشو"، انطلق التحالف في موجة من الحرق والقتل والنهب، وأنشؤوا لجنة لحكم "جوانج تشو" مع "بايجوي"، حاكم "جوانجدونج" المستسلم، وبالتالي خلق ما كان ربما أول نظام شكلي في تاريخ الصين الحديثة، وفي عام 1858م، سارت القوات البحرية البريطانية - الفرنسية شمالًا مع مبعوثي الولايات المتحدة وروسيا، وفي أبريل، استولوا على حصون "داجو" و"تيانجين"، صدمت حملتهم السريعة بلاط "تشينج"، التي أرسلت المفاوضين على عجل، وخلال المحادثات التي جرت في "تيانجين"، بدا أن الولايات المتحدة وروسيا تلعبان دور الوسيط، لكن بريطانيا تجاهلت ذلك وأرسلت مبعوثين لإعلام الإمبراطور "شيان فنج" بأنه إذا تأخر التوقيع على المعاهدة، فإن بكين ستتعرض للهجوم، أُجبر الإمبراطور على الموافقة، وفي يومي 26 و27 يونيو، وقع "جويليانج"، ممثل حكومة "تشينج"، ومُمَثِّلا بريطانيا وفرنسا معاهدة "تيانجين"، وهي "معاهدة غير متكافئة" أخرى.

وقد تم الاتفاق على أن المعاهدة سيتم التصديق عليها رسميًّا بعد مرور عام، لكن التحالف لم يكن راغبًا في القيام بذلك في بكين؛ لذلك أمر الإمبراطور "شيان فنج" كلًّا من "جويليانج" و"هواشانا"، وهو مسؤول كبير آخر من المانشو، بالبقاء في "شنغهاي" لانتظار المبعوثين المعينين حديثًا من بريطانيا وفرنسا، ومع ذلك، كان المبعوثون يعارضون فكرة الإمبراطور، ولم يكن أمام الإمبراطور "شيانفنج" أي خيار سوى إبطال أمره، وفي 17 يونيو، أبحرت قوات البحرية البريطانية والفرنسية إلى ميناء "داجو" ودمرت دفاعات جيش "تشينج" في ميناء "بايهي"، ثم هاجموا ميناء "داجو"، حيث واجهوا مقاومة شرسة، وتكبد التحالف البريطاني والفرنسي خسائر فادحة واضطروا للانسحاب، حيث تعرضت ست سفن تابعة للبحرية البريطانية لأضرار بالغة وأغرقت أربع منها، في حين أن 32 جنديًّا فقط من جنود "تشينج" قتلوا في ما كان يعتبر أكبر انتصار للصين منذ حرب الأفيون الأولى.

بعد عام تقريبًا، بعد انشغالها بقمع تمرد الـ"تاي بينج"، أهملت حكومة "تشينج" متابعة آخر تحركات الغزاة، وفي 14 أغسطس 1860م، فشلت استراتيجية "الاصطياد والقتل"، التي اقترحها الجنرال "رينشن" في العمل، واستولى التحالف على "تانج جو"، وتقدموا في منطقة "تونجتشو" ببكين، ثم في 21 سبتمبر، انقسموا إلى ثلاث مجموعات لمهاجمة "باليتشياو"، خارج تونجتشو مباشرة، واضطرت قوات "تشينج" للتراجع خارج بوابة "تشاويانج" ببكين، وفي 22 سبتمبر، هرب الإمبراطور "شيان فنج" من القصر الصيفي القديم إلى منتجع "تشينجدي" الصيفي، تاركًا أخاه الأمير "جونج" مسؤولًا عن مفاوضات السلام، وفي 5 أكتوبر، سار جيش التحالف من شرق بكين إلى ضواحيها الشمالية، وفي اليوم التالي استولوا على حي "هايديان" وبدؤوا بنهب القصر الصيفي القديم، وقاومهم أكثر من عشرين من الخصيان، بقيادة "رين ليانج"، لكنهم قتلوا كلهم، وأغرق "ون فنج"، المسؤول عن القصر، نفسه في بحيرة "فوهاي"، وشهد اليوم التالي فورة نهب محمومة لدرجة أن كل جيوب الجنود كانت محشوة بالجواهر واللآلئ واليشم، حتى أنهم تقاتلوا في ما بينهم على الغنائم، ودمروا ما لم يستطيعوا أخذه معهم، ثم سوي القصر بالأرض، وهي خسارة هائلة في التاريخ المعماري، حيث احترق على مدى ثلاثة أيام بلياليها، وقتل أكثر من 300 من الخصيان والشابات.

بينما كان القصر لا يزال مشتعلًا، وعدت "يي شين"، الأمير "جونج"، بقبول جميع الشروط والأحكام التي اقترحها المعتدون، وفي 24 و25 أكتوبر، صدق على معاهدة "تيانجين" ووقع أيضًا اتفاقية بكين مع بريطانيا وفرنسا وروسيا، تم التنازل عن "كولون" إلى بريطانيا، ونتيجة لإضفاء الشرعية على ما أصبح يُعرف باسم "التبادل البارد"(7)، تم شحن ملايين العمال الصينيين إلى الخارج ليعيشوا حياة بائسة، ومنذ ذلك الحين، سقطت الصين تحت نير الاستعمار أكثر؛ تم قمع ثورة الـ"تاي بينج" من خلال الجهود المشتركة لحكومة "تشينج" والقوى الأجنبية، وأجبرت روسيا الأمير "جونج" على توقيع معاهدة تكميلية لاتفاقية بكين، والتي تنازلت فيها الصين عن 1.5 مليون كيلومتر مربع من

الأراضي لروسيا، وهي الأراضي التي لا تزال روسيا تعتبرها أراضيها الخاصة بها.

الإمبراطورة الأرملة "تسيشي" تستلم السلطة

بعد توقيع اتفاقية بكين في خريف عام 1860م، اقتصرت إقامة الإمبراطور "شيان فنج" على منتجعه الصيفي في "ريهي" (تشينجدي)، وفي الربيع التالي، قرر العودة إلى بكين، ولكن نوبة قاسية من السل أخّرت رحلته، وبحلول أغسطس (آب)، ساءت حالته وتوفي عن عمر يناهز الواحد وثلاثين، كان خليفته ابنه البالغ من العمر ست سنوات، "زايشون"، الذي كان يساعده ثمانية من الأوصياء بما في ذلك "سوشون" و"زاييوان"، وفي العالم المعقد للقصر، بدأ صراع على السلطة.

سمى "زايشون" عهده "تشيشيانج" ولكن هذا تغير لاحقًا إلى "تونجتشي"، ورُقيت "نيوهورو"، زوجة "شيان فنج" الأولى إلى رتبة الإمبراطورة الأرملة وأعطيت لاحقًا اسم "تسي آن" التكريمي، وبالمثل، رقيت "ييهينارا"، وهي محظية للإمبراطور "شيان فنج" ووالدة "زايتشون" أيضًا إلى مرتبة الإمبراطورة الأرملة وأعطيت اسم الشرف "تسيشي"، وللتمييز بين الاثنين، دعا "زيتشوان" الأولى "الإمبراطورة الأرملة الشرقية" و"يي هينارا" "الإمبراطورة الأرملة الغربية"، وكانت جميع المراسيم التي صاغها الوزراء الأوصياء لا بدَّ من الموافقة عليها وختمها من كل من "تسي آن" و"تسيشي" قبل توزيعها على الدوائر الحكومية داخل وخارج بكين، عمل الأوصياء الثمانية بجد، وازدهرت الإدارة إلى حد ما.



ومع ذلك، لم تكن الإمبراطورة

الأرملة "تسيشي" ببساطة قانعة بختم المراسيم، فقد كانت ابنة "هويتشينج"،

وهو مسؤول من عشيرة "ييهينارا" من المانشو، كانت متعلمة بشكل متواضع

في طفولتها، وتعلمت اللغة الصينية والرسم والتاريخ، دللها الإمبراطور "شيان

فنج"، وسميت السيدة "لان" بعد دخول القصر مباشرة في عام 1852، وفي عام

1857م رقيت إلى رتبة المحظية الأولى لتصبح في المرتبة الثانية فقط بعد

الإمبراطورة، وكان الإمبراطور "شيان فنج" يناقش في بعض الأحيان شؤون

الدولة معها ويسمح لها بقراءة المذكرات والمقترحات، الأمر الذي غذى طموحها

(انظر الشكل 31).

الشكل (31): بورتريه للإمبراطورة "دواجر سي شي".

في عام 1861م، اقترح أحد الحكام من "شاندونج" يدعى "دونج يوانتشوان" أن الإمبراطورتين الأرملتين يجب أن تديرا شؤون الدولة وراء الكواليس وأن يخترن واحدًا أو اثنين من المساعدين الرئيسيين، سر هذا الاقتراح "تسيشي" بالتأكيد، ولكن الوزراء الثمانية الأوصياء اعترضوا على ذلك، ويبدو أنه كانت لهم اليد العليا، ومع ذلك، لم يدركوا أن الإمبراطورتين قد بدأتا في التعاون مع الأمير "جونج"، أحد الأوصياء والشقيق الأصغر للإمبراطور "شيان فنج" الراحل ووزراء آخرين للإطاحة بهم، تمتع الأمير "جونج" بمكانة أكبر بعد التوقيع على

اتفاقيـة بكـين، وبـدأ الأقـارب الإمبـراطوريون والمسـؤولون المنبوذون من الأوصياء الانضمام إليه، وفي 5 سبتمبر 1861م، سارع إلى منتجع "تشينجدي" الصـيفي لعقـد محـادثات سـرية مع المـرأتين، ولـدى عودتـه إلـى بكـين، بـدأ الاستعداد للانقلاب، حيث كان معظم المسؤولين العسكريين إلى جانبه، وفي 31 أكتوبر، ذهب إلى استقبال الإمبراطورتين والإمبراطور الشاب "زايتشون" في ضواحي بكين، واغتنم "شنجباو" الفرصة لاقتراح أن تتولى الإمبراطورتان شـؤون الـدولة، بكـت "تسيشي" أمـام المسـؤولين المخلصين الـذين جـاؤوا للترحيب بهم وسردت عليهم رذائل الوزراء الثمانية، وكسبت بذلك تعاطفهم، وسرعان ما أعقب ذلك إصدار مرسوم يقضي بإلقاء القبض على الوزراء، داخل البلاط، كان الولاء للعائلة المالكة مسيطرًا، ولم يكن هناك أي شيء يمكن أن يفعله الوزراء، فقد استهانوا بتأثير القوة الإمبراطورية على أذهان مسؤولي البلاط.

في 3 نوفمبر، تم تعيين الأمير "جونج" وصيًا ورئيسًا للمجلس الأعلى وبلاط العشائر الإمبراطورية، وبعد أربعة أيام، تم التخلي عن اسم عصر "تشيشيانج"، واستعيض عنه بـ"تونجتشي" وتعني (الحكم المشترك)، بدءًا من السنة التالية، مما يـدل علـى أن الإمبـراطورتين الأرملتين ستحكمان معًا، وفـي 11 نوفمبر، اعتلـى الإمبـراطور الصـغير "زايتشـون" العرش في قاعة التناغم العليا، وفي الثـاني من كانون الأول (ديسمبر)، أقيم احتفـال فـي قاعة التأديب الروحي، حيث جلس "زايتشون" البالغ من العمر ست سنوات على عرشه الإمبراطوري وخلفه الإمبراطورتان الأرملتان، مختفيتان خلف ستارة صفراء، وأصبح هذا يعرف باسم انقلاب "شينيو"، وفي وقت لاحق، تآمرت تسيشي ضد "تسي آن"، وقتلت منافستها، بعد ذلك، حكمت لمدة سبع وأربعين سنة حتى وفاتها في عام 1908م.

كان انقلاب "شينيو" علامة على التغيرات التي طرأت على علاقة الصين بالعالم الخارجي مقارنة بالصراع على السلطة داخل بلاط "تشينج"، فبعد التوقيع على

اتفاقية بكين، انسحبت القوات البريطانية والفرنسية من العاصمة دون مزيد من الإزعاج لحكم "تشينج"، كانت هذه أنباء جيدة على نحو غير متوقع للأمير "جونج"، وعززت إيمانه بضرورة تعاون حكومة "تشينج" مع القوى الأجنبية لقمع تمرد الـ"تاي بينج" الذي كان مستعرًا في جنوب البلاد؛ لذلك أنشأ مكتبًا مسؤولًا عن الشؤون الخارجية، وبدأت القوى الأجنبية في دعمه كممثل لفصيلة القوى المؤيدة للأجانب، كان بفضل هذا الدعم أنه تجرأ على الضمان لـ"تسيشي" عندما التقى بها في "تشينجدي"، أنه لن يكون هناك أي تدخل أجنبي في انقلابهم.

طمأن صعود الإمبراطورة الأرملة "تسيشي" والأمير "جونج" القوى الأجنبية بأن خططهم الدبلوماسية لن يعرقلها الوزراء الثمانية الأوصياء، في 12 نوفمبر 1861م، أبلغ السير "فريدريك رايت - بروس"، المبعوث البريطاني إلى الصين، الحكومة البريطانية بأن سقوط هؤلاء المتطرفين السياسيين يشير إلى أن المعاهدات التي صدقت قبل عام كانت فعالة، وأنه خلال الاثنى عشر شهرًا الماضية قد نما وجود فصيل متعاطف معهم في بلاط "تشينج"، كما ادعى أنه أقام علاقات مرضية مع بكين؛ وبعبارة أخرى، أصبحوا مستشاريهم إلى حد ما، لكن في ظل حكم الإمبراطورة الأرملة "تسيشي"، تراجعت الصين أكثر، وكان زوال أسرة "تشينج" لا مفر منه.

ثورة الـ"تاي بينج"

ولد "هونج شيو تشيوان"، "هونج رنكون" سابقًا، في محافظة "هوا" - محافظة "هوادو" اليوم في "جوانج تشو" - بمقاطعة "جوانجدونج"، بدأ في قراءة الكلاسيكيات الكونفوشيوسية عندما كان صغيرًا، على أمل النجاح في الامتحان المدني الإمبراطوري وجلب الشرف لعائلته، وفي عام 1836م، فشل في الامتحان للمرة الثانية في "جوانج تشو"، حيث قرأ كتيبًا مسيحيًّا معينًا، وفي عام 1837م، فشل مرة أخرى، وتأثر بشدة لدرجة أنه مرض بالهذيان وأعيد إلى المنزل، وفي رؤية خلال يومين من الحمى، رأى سيدة مسنة علمته

كيف يقتل الشياطين، وعندما استيقظ، تخيل نفسه أطول وأكثر ودًّا وتسامحًا، وعلى مدى السنوات الست التالية، عمل كمدرس في محافظة "هوا"، ثم في عام 1843م، دخل الامتحان المدني الإمبراطوري للمرة الرابعة وفشل مرة أخرى، فقد كان يقرأ المنشور المسيحي مرة أخرى، وتذكر رؤى سريره المريض، كان يعتقد أن الله قد كلفه بمهمة قتل الشيطان، وبالتالي تحول إلى المسيحية، ودعا إيمانه الخاص "عبادة الله"، وأصبح صديقه "فنج يونشان" تلميذه المخلص.

أقنع "هونج شيو تشيوان" نفسه بأنه الابن الثاني لله والأب الأصغر ليسوع المسيح، وللترويج لدينه، أحرق جميع تماثيل بوذا والكونفوشيوسية في منزله مما أبعده عن زملائه القرويين نتيجة لمثل هذه الإجراءات، فغادر هو و"فنج يونشان" إلى "جوانجشي"، حيث واصلوا نشر "عبادة الله"، وفي غضون أقل من ثلاث سنوات، انضم إليهم أكثر من 3.000 مؤمن، وكان معظمهم من الفلاحين الفقراء وكان العديد منهم من أصل "هاكا"، ومع توسع المجموعة، انضم أيضًا أعضاء متعلمون وأثرياء نسبيًا، بما في ذلك "يانج شيوتشينج"، و"شياو تشاوجوي"، و"وي تشانجي"، و"شي داكاي"، الذين سيصبحون قادة رئيسين في تمرد الـ"تاي بينج"، ومع الوقت انعزل "هونج شيوتشوان" لكتابة أعمال مثل "الطريقة المبتكرة لإيقاظ العالم"، و"الطريقة المبتكرة لتنوير العالم"، و"الطريقة المبتكرة لإنقاذ العالم".

وبين 1849 و1850م، ضربت المجاعة مقاطعة "جوانجشي" على نطاق غير مسبوق، وأعد مجتمع سري، هو جمعية السماء والأرض تمردًا، كانت جمعية السماء والأرض واحدة من العديد من المجتمعات السرية التي نشأت في الريف الصيني، وكانوا للحماية المتبادلة، وغالبًا ما اتبعت التعاليم الطاوية أو البوذية وانخرطوا في معظم الثورات التي وقعت في فترة "تشينج".

كل من هذه الأحداث جعلت حياة الناس في "هاكا" أكثر صعوبة من أي وقت مضى؛ انضم الكثيرون إلى جمعية "عابدي الله" باحثين عن الحماية من التنمر

والظلم، وبحلول ربيع عام 1850م، بلغ عدد الأعضاء أكثر من 10.000، وتم اختيار قرية "جنتيان" في مقاطعة "جوانجشي" كقاعدة لهم، وفي يونيو من العام نفسه، طُلب من أتباعهم تصفية أصولهم وتحويلها إلى الخزانة المقدسة المنشأة في "جينتيان"، والتي ادعت أنها ستوزع المال على قدم المساواة، وهي سياسة شائعة للغاية مع الفقراء، وبحلول هذا الوقت، قامت جمعية "عابدي الله" باستعدادات سرية للتمرد، وفي الحادي عشر من يناير عام 1851م، عيد ميلاد "هونج شيو تشيوان" الثامن والثلاثين، أعلنوا أن الانتفاضة كانت تكريمًا له وأعلنوا تأسيس مملكة الـ"تاي بينج" السماوية (تاي بينج تيانجو)، كان الجيش يدعى جيش الـ"تاي بينج" و"هونج شيو تشيوان" بالملك السماوي، كان هذا الجيش مليئًا للغاية بالحماس الديني لدرجة أنه فاز في سلسلة من المعارك ضد قوات "تشينج"، توغل شمالًا من "جينتيان"، واستولى على مدينة "يوجآن" في مقاطعة "جوانجشي" في 25 سبتمبر 1851م، وجعلوا من المدينة قاعدتهم الجديدة، وفي حين استقر الجيش هناك، ارتفع عدد الأتباع إلى ما يقرب من 40.000، وخلال الفترة نفسها، تم استحداث العديد من المناصب والألقاب الرسمية وأهمها، أنه سمى خمسة من كبار القادة ("ملوك" مملكة تاي بينج السماوية).

في 3 أبريل 1852م، هزم جيش الـ"تاي بينج" جيش "تشينج" وسار شمالًا إلى مقاطعة "هونان"، ووفر استيلاؤهم على "تشانجشا" و"يوتشو" إمدادات وافرة، وكانوا مستعدين الآن لمهاجمة "نانجينج" بقوة زعموا أن عددها 500.000، بعد الاستيلاء على "ووهان" في العام التالي، ساروا على طول نهر اليانجتسي، ووصلوا إلى "نانجينج" في 19 مارس واستولوا على المدينة بعد يومين، وغيروا اسم "نانجينج" إلى "تيانجين" أو العاصمة السماوية وجعلوها عاصمة مملكة الـ"تاي بينج" السماوية، استقت حكومتها العديد من سياساتها من وثيقة تدعى "نظام الأرض للمملكة السماوية" (تيانتشاو تيانمو تشيدو)، وكان من المقرر توزيع الأراضي والممتلكات الأخرى بالتساوي، وتعزيز المساواة بين الجنسين، وحظر الزواج من أجل تحقيق مكاسب مالية.

وفي الوقت نفسه لتدمير جيش الـ"تاي بينج"، أنشأت قوات "تشينج" معسكرين بالقرب من "نانجينج": مخيم "جيانجنان" إلى الشرق، ومعسكر "جيانجبي" خارج "يانجتشو"، وأرسل جيش "تاي بينج" فرقتين لإلحاق الهزيمة بهما، واحدة إلى الشمال والأخرى إلى الغرب، وفي عام 1853م، حققت الحملة شمالًا بعض النجاح المبكر، وقد صدم وصولها إلى "تيانجين" بكين، ولكنها هزمت لعدم وجود تعزيزات، وفي عام 1855م قُتلت الفرقة بأكملها، ومع ذلك، فقد شكلت تهديدًا كبيرًا لحكومة "تشينج" مما جعلهم يبقون القوات في مكانها، مما سمح للفرقة الغربية بالتقدم، وفي مارس 1854م، دخلت القوات الغربية إلى "هونان"، حيث واجهت مقاومة شديدة من حاميتها، وعلى الرغم من ذلك، فقد انتصروا في "هوكو"، وفي عام 1856م، دمر جيش الـ"تاي بينج" معسكرات "جيانجبي" و"جيانجنان"، وأزال أكبر تهديدين لـ"تيانجين"، وكان هذا أكبر نجاح عسكري في المملكة السماوية، ولكن في هذه اللحظة الحرجة، حدثت تغييرات كبيرة داخل جيش المتمردين.

بعد تأسيس "تيانجين"، تخلى "هونج شيوتشوان" عن القيادة وأصبح "يانج شيوتشينغ"، ملك الشرق (واحد من الخمسة الذين عينهم "هونج")، صاحب السلطة، وفي عام 1856م، بعد الاستيلاء على معسكر "جيانجنان"، طالب "يانج شيوتشينج"، مدعيًا التحدث بصوت الله، بأن يمنحه "هونج شيوتشيوان" لقب الإمبراطور، واندلع الصراع بين قادة المملكة، فتظاهر "هونج شيوتشوان" بأنه سوف يمنحه اللقب رسميًا خلال احتفالات عيد ميلاد "يانج" في سبتمبر، وفي هذه الأثناء، زاد الحراس الشخصيين حول قصره، خوفًا من محاولة اغتيال، كما بدأ بالتآمر مع ملك آخر هو "وي تشانجهوي"، لقتل "يانج شيوتشينج".

أعطى هذا لـ"وي تشانجهوي" فرصة جيدة، وفي 1 سبتمبر 1856م، دخل جيشه وجيش الملك "تشين ريجانج" العاصمة بهدوء عبر البوابة الجنوبية، واحتلوا جميع المواقع الاستراتيجية للمدينة وأحاطوا بمقر إقامة "يانج شيوتشينج"؛ بعد ذلك، في الصباح الباكر من 2 سبتمبر، قُتل "يانج شيوتشينج" وأسرته

و20.000 جندي ومدني في ما يعرف الآن بحادثة "تيانجين"، وفي 26 سبتمبر 1856م، عاد واحد آخر من الملوك، وهو "شي داكاي"، إلى العاصمة وأنّب "وي تشانجهوي" على المذبحة، تجاهله "وي" وهدده بقتله أيضًا، هرب "شي" في جنح الليل، مما أدى إلى مقتل أفراد عائلته.

أفقدت وحشية "وي تشانجهوي" دعم مرؤوسيه وعامة الناس له؛ وحتى يتسنى له تهدئة الجماهير، قتله "هونج شيوتشيوان" في 2 نوفمبر، وكان "شي داكاي" الذي سمي ملك الجناح هو الناجي الوحيد من الخمسة الأصليين، فأمره "هونج شيوتشيوان" بزيارة "تيانجين" للمساعدة في شؤون الدولة، ولكن بعد ذلك، رأى أن "شي" كان يتمتع بشعبية فأصبح يشك به، وفي عام 1857م، اضطر "شي" إلى مغادرة "تيانجين" إلى "آن تشينج" مع أتباعه، وبشكل عام، هذه الخسارة الضخمة في الحياة والقادة أضعفت بشكل كبير مملكة "تاي بينج" السماوية، ومثلت نقطة تحول أدت بها إلى الانحدار.

نهاية مملكة "تاي بينج" السماوية

بعد حادث "تيانجين"، لم يتبقَّ إلا عدد قليل من الجنرالات أو الجنود لمقاومة جيش الإمبراطور "تشينغ"، أعيد بناء معسكري "جيانغنان" و"جيانغيبى"، وشكلوا مرة أخرى خطرًا على "تيانجين"، ومن أجل استعادة الثقة، عين "هونج شيوتشوان" نفسه المستشار العسكري، وفي عام 1858م، تم تعيين خمسة جنرالات رئيسين جدد، من بينهم "تشن يوتشينج" و"لي شيوتشينج"، وفي أغسطس من ذلك العام، التقى الاثنان ببقية جنرالات الـ"تاي بينج" في "زونجيانج" بمقاطعة "آنهوي"، ووضعوا خطة للإطاحة بمخيمي "تشينج"، وفي سبتمبر، قاد "تشن" و"لي" قواتهما إلى النصر في مقاطعة "جيانجسو الشمالية"، وفي معركة "بوكو"، دمروا مخيم "جيانجبي"، مما رفع معنويات جنود الـ"تاي بينج"، ولكن بعد ذلك جاء تقرير عاجل.

كان "تزنج جوفان" أحد مسؤولي "تشينج" ورئيس ميليشيا "هونان" قد أرسل أكثر من 10 آلاف جندي إلى "آنهوي"، بينما كان جيش الـ"تاي بينج" يقاتل إلى شمال نهر اليانجتسي، واستولوا على "تايهو" و"تشيانشان" و"تونجتشينج" و"شوتشينج" بقيادة "لي شوبين"؛ وهكذا كان 6000 جندي يسيرون الآن نحو "لوتشو"، وعند سماع ذلك، عاد "تشن يوتشينج" إلى "لوتشو" لمقاومتهم، وقرر محاصرة ميليشيا "هونان" في بلدة "سانهي" إلى الغرب من بحيرة "تشاو"، وهي نقطة دفاع رئيسة، ولكن في 3 نوفمبر، وصل "لي شوبين" خارج البلدة وشن هجومًا على قوات الـ"تاي بينج"، التي عانت من إصابات خطيرة واضطرت إلى التراجع لانتظار التعزيزات، وعندما وصلوا، حاصر 10.000 جندي من الـ"تاي بينج" ميليشيا "هونان" وقطعوا طريق الرجعة عليهم؛ لكن "لي شوبين" رفض الانسحاب، ونتيجة لذلك أبيدت قواته، وبعد هذا الانتصار الكبير، استعادت قوات "تاي بينج" مدينتي "شوتشينج" و"تونجتشينج"، وهربت بقايا ميليشيا "هونان" مما شكل ضربة قوية لحكومة "تشينج".

ظهرت الآن شخصية رئيسة في الصراع وهي "هونج رينجان"، ابن عم "هونج شيوتشيوان" ومن أوائل الأعضاء في جمعية "عابدي الله"، كان قد فر إلى هونج كونج أثناء انتفاضة "جنتيان"، وعاد إلى "تيانجينج" في عام 1860م، وكان "هونج شيوتشيوان" مسرورًا بوصوله ومنحه لقب ملك "غان"، وجعله يشغل منصب رئيس الوزراء، خلال إقامته في هونج كونج، تأثر "هونج رينجان" بالثقافة الغربية، فقد أصر على تقليد الغرب وتطوير الرأسمالية في مملكة الـ"تاي بينج" السماوية، لكنه كان قلقًا بشأن الحكم المتخلف والآثار المدمرة لحادثة "تيانجينج"، وكانت المشكلة الأولى هي تمرد زملائه المسؤولين، على الرغم من التطمينات المستمرة بأنه لم تكن لديه مصلحة في السلطة والثروة، حاول "هونج شيوتشوان" رفع مكانة ابن عمه عن طريق منحه ختم السلطة بشكل علني، وكان "هونج رينجان" مؤهلًا أساسًا، وسرعان ما أكمل الرسالة الجديدة حول إجراءات مساعدة الحكومة، والتي قدمت تفاصيل عن برامج الإصلاح التي كان مصممًا على تنفيذها.

استقت هذه الدراسة الكثير من العالم الغربي، فتضمنت أفكارًا مثل تعزيز السلطة المركزية، وإنشاء نظام قانوني على النمط الغربي، وتطوير صناعة التعدين، وتشجيع الابتكار والآلات الجديدة، والتواصل مع الدول الأجنبية على قدم المساواة، والدعوة إلى التجارة الحرة، وهكذا كانت أول مقالة حول الرأسمالية في الصين، ومع ذلك، فإنها لم تشمل قضية الأرض، التي كانت أكثر أهمية بالنسبة للفلاحين؛ وعلى أي حال، فإن الوضع الفعلي في الصين جعل الأفكار مستحيلة التنفيذ، وفي نهاية المطاف تم التخلي عنها.

في عام 1860م، اقترح "هونج رينجان" "محاصرة "وي" لإنقاذ "تشاو" (بمعنى مساعدة حليفه من خلال مهاجمة قاعدة العدو سيئة الدفاع)، وبناء على ذلك، دمر "لي شيوتشينج" و"تشن يوتشينج" مخيم "تشينج" "جيانجنان"، وبذلك أنهى حصار "تيانجينج"، ثم سار "لي شيوتشينج" من انتصار لانتصار من جنوب مقاطعة "جيانجسو" إلى ضواحي "شانجهاي"، وهناك، واجه مقاومة شرسة من فيلق الأسلحة الأجنبية في "شانجهاي" بقيادة "فريدريك تاونسيند وارد"(8) واضطر إلى التراجع.

قرر قادة جيش "تشينج" الآن استهداف مدينة "آنشينج" في مقاطعة "آنهوي"، وهي موقع استراتيجي يعني الاستيلاء عليه أن مدينة "تيانجينج" في خطر حقيقي؛ لذا في عام 1860م، حاصرت قوات "تشينج" المدينة، وأرسل "هونج شيوتشوان" "تشن يوتشينج" و"لي شيوتشنج"، ولكن محاولاتهم فشلت في إنقاذ المدينة، وفي هذه الأثناء، كان العديد من الجنود داخل "آن تشينج" يموتون جوعًا بسبب نقص الإمدادات، وفي الخامس من سبتمبر من عام 1861م، حفرت قوات "تشينج" نفقًا في "آن تشينج" وأحدثت فجوة في جدار المدينة، على الرغم من أن الجنود المحاصرين قد قاتلوا، فقد ضاعت "آن تشينج" وقتل جميع جنود الـ"تاي بينج" فيها، ولم يعد هناك أي خطر على طول نهر اليانجتسي لميليشيا "هونان"، الذين استعادوا بعد ذلك جميع المدن على طولها وساروا إلى "تيانجينج"، كما اقترب 20.000 جندي آخر من المدينة،

ووصلوا في يونيو 1862م، وبدؤوا مع ميليشيا "هونان" حصارًا طويل المدى، وبحلول أوائل عام 1864م، نفد الطعام من "تيانجينج" تقريبًا، وحث "هونج شيوتشوان" الناس على أكل النباتات البرية، والتي أشار إليها باسم "الندى الحلو" (المن، أو الخبز الذي أرسله الله)، ثم في 1 يونيو 1864م، في سن الثانية والخمسين، مرض ومات (على الرغم أن المسجل في سجلات "تشينج" أنه انتحر)، وخلفه ابنه "هونج تيانجوي" (16 عامًا)، وفي 19 يوليو، اقتحمت قوات "تشينج" مدينة "تيانجينج"، وساعد "لي شيوتشينج" الملك السماوي الشاب في الهروب، ولكن حصانه أصيب بالذعر وألقى به، فركب حصان "لي"، ونتيجة لذلك تم القبض على "لي"، وتمكن "هونج" من الفرار إلى "جيانجشي"، ولكن تم إلقاء القبض عليه وإعدامه في نهاية المطاف.

شهد سقوط "تيانجينج" انهيار تمرد الـ"تاي بينج"، وعلى الرغم من أنه انتهى بالفشل، فإنه كان أكبر وأطول انتفاضة للفلاحين في التاريخ الصيني، وساعد في تسريع تراجع وسقوط أسرة "تشينج" والنظام الإقطاعي، كما أنها أنتجت مخططًا لتطور الرأسمالية، وهو الأول من نوعه في الصين.

الحرب في أواخر عهد أسرة "تشينج"

استعادة "تزو تزونجتانج" لـ"شينجيانج"

عرفت "شينجيانج" في عهد أسرتي "تشين" و"هان" باسم "شي يو" (المناطق الغربية)، وفي عام 1757م، عندما تم قمع تمرد "دزونجار"، أعاد الإمبراطور "تشيان لونج" تسميتها "شينجيانج"، وبعد حروب الأفيون، نمت الحركات الانفصالية المناهضة لـ"تشينج" في المنطقة، وبالنظر إلى أن حكومة "تشينج" كانت منشغلة بتمرد الـ"تاي بينج"، لم يكن لديها وقت للقلق بشأن الأحداث في "شينجيانج" التي أصبحت غير مستقرة على نحو متزايد، وفي يناير 1865م، أرسلت مملكة (خانية) "كوكند"، وهي دولة مجاورة لدول آسيا الوسطى، "ياكوب بيج" لغزو جنوب "شينجيانج"، بدأت قوة "ياكوب بيج" في التوسع،

وفي عام 1867م، أعلن عن تأسيس "ياتا شاهار" ("الدولة ذات المدن السبع" بلغة الأويجور)، وأعطى نفسه لقب "بادولت" خان (الحاكم المحظوظ)، وفي عام 1870م، احتل "توربان" و"أورومتشي"، ثم هاجم شمال "شينجيانج"، وذبح السكان المحليين وحكم بقسوة كبيرة.

تقع "شينجيانج" في شرق آسيا الوسطى وتحدها الهند، واعتبرت منطقة استراتيجية لبريطانيا وروسيا، وكلاهما دبر لاستخدام "ياكوب بيج" كوسيلة للسيطرة على المنطقة، وفي يونيو 1872م، وقعت روسيا على معاهدة تجارية اعترفت بحكم يعقوب باستخدام القوة والرشوة، حيث اتفق الأخير على أن روسيا يمكن أن تتاجر بحرية في جنوب "شينجيانج"، ثم أوفدت روسيا التجار والجنود وفرق الأبحاث إلى المنطقة، وبعد عام واحد، تبعها البريطانيون، واعترفوا مرة أخرى بنظام "ياكوب بيج" في مقابل الحصول على امتيازات تجارية، وفي يوليو 1871م، احتلت روسيا "ييلي"، الممر الرئيس المؤدي إلى جنوب "شينجيانج"، وحرضت على الحكم القاسي، فبدأ السكان المحليون القتال، وتوسلوا لبلاط "تشينج" أن يأتي لإنقاذهم، وهنا انقسم المسؤولون في "تشينج"، فرأى البعض أن الدفاع عن الساحل الجنوبي الشرقي كان أكثر أهمية، وأنه يجب ترك "شينجيانج" وشأنها، بينما اختلف آخرون، لكن في ذلك الوقت، كان الساحل مسالمًا؛ لذلك عندما اندلعت أعمال التمرد في "شينجيانج" وتم احتلال "ييلي" على يد روسيا، قرر بلاط "تشينج" في نهاية المطاف إعطاء الأولوية لمشاكل الحدود، وفي 23 أبريل 1875م، تم تعيين "زو تزونجتانج" مفوضًا إمبراطوريًا مكلفًا بالشؤون العسكرية في "شينجيانج".

وحيث كان في الستينيات من عمره، بدأ "تزو" استعدادات حذرة، ومعروف أن جبال "تيان" تقسم "شينجيانج" من الغرب إلى الشرق؛ لذا من أجل الدخول إلى "ييلي"، كان على "زو" وجنوده أن يمروا عبر "أورومتشي" التي كان "ياكوب بيج" يحتلها، ولكن قواته الرئيسة كانت في الجنوب، وسيطر على الشمال "باي يانهو"، رئيس جماعة "هوي" العرقية في مقاطعة "شانشي" وخاضعة لـ"ياكوب

بيج"، واتخذ "تزو تزونجتانج" القرار الاستراتيجي بمهاجمة "أورومتشي" أولًا، في أبريل 1876م، أنشأ مقره في "سوتشو" (في مقاطعة "قانسو")، واستعد للانطلاق غربًا، وصلت قوته الرئيسة إلى "جيموسا" في يوليو، وناقش الخطط مع قوات "تشينج" المحلية، وفي أغسطس، احتلت قوات "تشينج" الموقع الاستراتيجي لـ"هوانجتيان" وركزت نيرانها على "جومودي" شمال "أورومتشي"؛ واستعيدت "أورومتشي" بسرعة، ثم في نوفمبر، استولوا على الجزء الجنوبي من "ماناس" (في قيرجيزستان الحالية)، وفي ربيع عام 1877م، هاجمت قوات "تشينج" قوة "ياكوب بيج" الرئيسة في جنوب "شينجيانج" بمساعدة من السكان المحليين، وفي إبريل استولوا على مدينة "دابان" المدخل إلى جنوب "شينجيانج"، إضافة إلى "توكسون" و"توربان"، وفي النهاية فازوا في معركة حاسمة، وفي شهر مايو سمم "ياكوب بيج"، الذي تقهقر إلى "كورلا"، نفسه، وتولى ابنه "بيج كولي" مكانه كخان وواصل القتال.

بعد إعادة التجمع، شنت قوات "تشينج" هجومًا ثانيًا في أواخر أغسطس من ذلك العام، وفي أكتوبر، احتلت "كوتشا"، و"أكسو"، و"أكتوربان"، وفي شهر ديسمبر، ساروا إلى "كاشجار" في البرد القارس واستردوا "ياركانت"، و"ينجيسار"، و"خوتان"، واضطر "بيج كولي" و"باي يانهو" إلى الفرار إلى روسيا، لقد تطلب الأمر من جنود "تشينج" سنة ونصف لهزيمة قوات "ياكوب بيج"، ثمانية أشهر منها كانت في قتاله، وفي يناير 1878م، استعاد "تزو تزونجتانج" كامل "شينجيانج"، ما عدا "ييلي"، مما يمهد الطريق لاستعادة المدينة التي تحتلها روسيا، اقترح "تزو" أن تحل مشكلة "ييلي" من خلال الوسائل الدبلوماسية، لذلك في يونيو 1878م، عين بلاط "تشينج" "تشونجهو" كمفوض أعلى للإمبراطورية للتفاوض مع روسيا، لكن "تشونج" الذي كان أرستقراطيًّا من المانشو لم يكن يعرف شيئًا عن الدبلوماسية، وبعد أن روعته روسيا، وقع على معاهدة "ليفاديا"، والتي بموجبها سيتم تسليم "ييلي"، لكن المنطقة الغربية والجنوبية من الحدود، وكذلك منطقة "تارباجاتي" (شرق بحيرة "زيسان" في "تاتشينج" في "شينجيانج" الحالية) تم التنازل عنها لروسيا، تاركًا "ييلي"

محاطة بالأراضي الروسية إلى الشمال والغرب والجنوب، كما وعد "تشونجهو" روسيا بمبلغ 2.85 مليون تايل كتعويض.

عندما ظهرت أخبار هذا، تفاجأ البلد بأكمله، وتم إرسال "تشونجهو" إلى وزارة العدل، حيث حكم عليه بالإعدام، وفي عام 1880م، تم تعيين "تزنج جيتزي"، مبعوث "تشينج" إلى بريطانيا، لإعادة التفاوض على معاهدة الحدود، أصرت روسيا على أن المعاهدة الموقعة يجب أن تنفذ، ورفضت في البداية العودة إليها؛ لكن ثبات "تزنج جي تزي" أثمر وجرت مناقشات جديدة في أغسطس عام 1880م، قدم "تزنج" ستة مقترحات بما في ذلك عودة جميع المناطق المحيطة بـ "ييلي"، لكن الروس رفضوا، وتراجعوا عن المفاوضات وأرسلوا مبعوثهم إلى بكين للضغط على بلاط "تشينج" مباشرة، وفي هذه الأثناء، أرسلوا قوات إلى الحدود الشمالية الغربية للصين وأسطولًا إلى ساحلها الشرقي، أخذت القوى الأجنبية الأخرى أيضًا هذه الفرصة لممارسة الضغط، فأمر بلاط "تشينج" آنذاك "تزنج جيتزي" بالتسوية، وفي أكتوبر، بدأ الطرفان جولة أخرى من المناقشات، مع بقاء روسيا على موقفها، وبعد الكثير من التفكير، قرر "تزنج جي تزي" أنه على أقل تقدير، يجب أن توضح الصفقة الحدود بين البلدين، ويجب أن تتفق على التداول في بعض المناطق.

في هذه الأثناء، صنع "تزو تزونجتانج" الذي أدرك أن الدبلوماسية أكثر فعالية عندما يكون خلفها دعم عسكري، نعشًا ونقله إلى "كومول" (أو "هامي") لإظهار تصميمه على استعادة "ييلي" بالقوة، إذا لزم الأمر، هذا عزز الروح المعنوية لقواته، الذين أقسموا على محاربة روسيا إلى النهاية المريرة، وبالمثل، تم التشجيع على توقيع "تزنج جي تزي" على معاهدة سانت بطرسبرغ، المعروفة أيضًا باسم معاهدة "ييلي"، في 24 فبراير 1881م، وهذا مكن الصين من استعادة أكثر من 20 ألف كيلومتر مربع من الأراضي في حوض نهر "تيكيس"، وأقرتها حكومة "تشينج"، في 15 مايو 1881م.

الحرب الصينية الفرنسية (1883 - 1885م)

في نهاية القرن الثامن عشر، كان الوجود الفرنسي في فيتنام ينمو، أصبح "نجوين آن" الإمبراطور "جيا لونج" بمساعدتهم، وحكمت سلالته فيتنام حتى عام 1945م، سمح الإمبراطور للفرنسيين بالتجارة، ولكن على الرغم من وصولهم إلى السلطة بمساعدتهم، رفض التنازل عن أي أرض لهم، ودعم شعبه في الأنشطة المضادة للأجانب، كان الهدف الفرنسي هو إقامة إمبراطورية الهند الصينية في الشرق، لكن كراهية أسرة "نجوين" له كانت مزعجة، وفي عام 1859م أرسلوا قوات لقمع الاحتجاجات ضد فرنسا، وفي عام 1862م، تحالف الفرنسيون مع إسبانيا، وعبر ما اعتبره الصينيون "معاهدة غير متكافئة"، شرعوا في ممارسة امتيازاتهم في فيتنام ودمجوها، ومدركين بأن النهر الأحمر يوفر طريقًا مناسبًا في مقاطعة "يونّان" الصينية، وقع الفرنسيون عام 1874م معاهدة أخرى منحتهم الحق في التنقل.

وفي الوقت نفسه، شغل بلاط "تشينج" مشكلة تايوان، حيث تعرضت جزيرة تايوان لضغوط من بريطانيا وفرنسا واليابان التي كانت تريد كل التجارة والقواعد ورفضت المعاهدة مع فرنسا، لكنها لم تتخذ أي إجراء آخر، وبحلول عام 1880م، كانت فرنسا قد أنزلت عددًا كبيرًا من القوات في فيتنام، في "هانوي" و"هايفونج"، وأقامت حصونًا على طول النهر الأحمر، وأغضب هذا الشعب الفيتنامي، الذي بدأ الاحتجاج، عززت الحكومة الفيتنامية علاقاتها مع الصين؛ لمنع القوات الفرنسية من التقدم، واستمرت في دفع الخراج لبلاط "تشينج"، وتحولت الآن إلى جيش العلم الأسود الصيني، المتمركز على الحدود الصينية الفيتنامية، للحصول على المساعدة.

كانت الآراء داخل بلاط "تشينج" متناقضة، فأيدت مجموعة مفاوضات السلام مع الفرنسيين، وأيدت أخرى الحرب، وأصر "تشانج زيدونج"، حاكم "شانشي"، على أن الدفاع عن حدود الصين كان أقل فعالية من الدفاع عن الدول المجاورة، واعتقد أنه يجب أن يقاتل الفرنسيين في فيتنام، ومع اشتداد العدوان الفرنسي، أصبح لهذا الرأي اليد العليا، لكن بلاط "تشينج" ما زال

مترددًا، كانت فكرة الهجوم الفرنسي على البر الرئيس الصيني مثيرة للقلق، وفي عام 1882م، تم التوصل إلى اتفاق تقوم الصين بموجبه بسحب قواتها من فيتنام، ولن تغزو فرنسا الصين، لكن في فبراير 1883م، تراجعت فرنسا عن هذا الاتفاق واقترحت اتفاقية جديدة: "أنه ستكون هناك منطقة محايدة على الحدود بين الصين وشمال فيتنام، وأن الصين ستعترف بالاستعمار الفرنسي لفيتنام، وأن "مانهاو" في "يونان" الصينية ستفتح كميناء تجاري، ثم رفض الفرنسيون التفاوض أكثر من ذلك، وفي ديسمبر 1883م، أقروا اقتراحًا بزيادة الإنفاق العسكري بمقدار تسعة وعشرين مليون فرنك وإرسال 15.000 جندي إضافي إلى الشرق، تم تعيين "كوربيه" كقائد أعلى للقوات المسلحة، وقاد 13 سفينة حربية و6.000 جندي ضد جيش العلم الأسود وقوات "تشينج" المتمركزة في فيتنام.

في غضون خمسة أشهر، احتلت القوات الفرنسية دلتا النهر الأحمر بالكامل، مما زاد من دعم الحرب داخل الصين، في 11 مايو 1884م، وقع "لي هونج تشانج" و"فرانسوا إرنست فورنيي" اتفاق "تيانجينج"، المعروف أيضًا باسم اتفاقية "لي فورنييه"، حيث تتخلى الصين عن سلطتها على فيتنام، ثم في 23 أغسطس، شنت السفن الحربية الفرنسية فجأة هجومًا على نظيرتها الصينية، ودمرت تمامًا حوض بناء السفن "ماوي" في "فوجيان"، وفي 26 أغسطس، أعلن بلاط "تشينج" الحرب، وفي نهاية سبتمبر 1884م، أرسل "كوربيه" قوات فرنسية ضد تايوان، مع فرقة واحدة لتهاجم "كيلونج" وميناء "دان شوي" الآخر، وتمكن "ليو مينجتشوان"، وزير الشؤون العسكرية في تايوان، من إلحاق الهزيمة بهم، لكن الأسطول الفرنسي ذهب ليحاصر مضيق تايوان، في منتصف يناير 1885م، أُمر القائد الإقليمي "وو أنكانج" بإرسال خمس سفن حربية إلى المعركة، وفي 13 فبراير، واجه الأسطولان بعضهما بعضًا قبالة ساحل مقاطعة "تشجيانج"، وفي مارس صدت الهجمات الفرنسية بقوة، وتكبد الأسطول الفرنسي خسائر كبيرة وعشرات من الضحايا، كما أصيب "كوربيه" نفسه، واضطر أسطوله إلى التراجع، وتوفي في جزر "بنجهو" في 11 يونيو.

ثم هاجمت القوات الفرنسية الساحل الجنوبي الشرقي للصين والحدود الصينية الفيتنامية، تماشيًا مع خطتها للاستيلاء على "تايبيه" في الشرق و"لانجسون" في الغرب، فبدأ بلاط "تشينج" هجومًا للدفاع الساحلي والأرضي المضاد بجيش "جوانجشي" في الشرق وجيش "يونّان" وجيش العلم الأسود في الغرب، وفي 4 فبراير 1885م، هاجمت القوة الفرنسية الرئيسة بأكثر من 7.000 جندي جيش "جوانجشي"، وأدت القيادة السيئة إلى فقدان قوات "تشينج" "لانجسون" في 13 فبراير وممر "تشينان" في 23 فبراير، وفي هذه اللحظة الحرجة، تم تعيين الجنرال القديم "فنج تزي تساي" قائدًا لثمانية عشر كتيبة من جيش "جوانجدونج" لمساعدة جيش "جوانجشي"، وقبل وصول قواته، كان هناك أكثر من خمسين كتيبة من 20.000 جندي من جنود "تشينج" على حدود "جوانجشي"، ومن خلال توحيد جميع الجنرالات والجنود والأشخاص الذين يعيشون على طول الحدود وبناء الدفاعات، سرعان ما خلق "فنج" ظروفًا جيدة لإطلاق هجوم مضاد لاستعادة ممر "تشينان".

بعد أن أدركت أن الوضع قد انقلب ضدهم، أطلقت القوات الفرنسية النار على ممر "تشينان" وتراجعت بعدها، قاد "فنج تزي تساي" قواته إلى الممر، وبنى الحصون على التلال على كلا الجانبين، وكذلك جدارًا بين التلال إلى الشرق والغرب، في الوقت نفسه، أمر قواته بمهاجمة مدينة "ونيوان"، التي احتلها الفرنسيون، وفي 23 و24 مارس، شن "فنج" وقواته هجومًا شجاعًا، واقتربوا من الفرنسيين من ثلاثة اتجاهات بدعم من السكان المحليين، ولم يتوقف القتال العنيف حتى المساء، عندما تراجعت القوات الفرنسية، تمت استعادة "ونيوان" في 27 مارس و"لانجسون" في 29 مارس في ما أصبح يعرف باسم "نصر ممر "تشينان" العظيم".

وبدءًا من أكتوبر 1884 إلى مارس 1885م، حاصر جيش العلم الأسود وجيش "يونّان" مدينة "توين تشوانج" التي تحتلها فرنسا في شمال فيتنام، وفي يوم معركة ممر "تشينان"، هزموا القوات الفرنسية واستردوا عشرات من

المحـافظات والمقـاطعات بمسـاعدة الجيـش الفيتنـامي، وكـانوا على وشـك مهاجمة "شوانجوانج" عندما أمر بلاط "تشينج" بوقف إطلاق النار.

بالعودة إلى فرنسا، رغب الناس في رؤية نهاية للحرب في أقرب وقت ممكن، فعند الإطاحة بحكومة جول فيري، الذي كان يساند التوسع الاستعماري، استغل بلاط "تشينج" انتصاره للتفاوض من أجل السلام، وفي يونيو 1885م، وقع "لي هونجتشـانج" والمبعـوث الفرنسـي لـدى الصيـن معاهـدة رسمية، وافقت فيها حكومة "تشينج" على معاهدة فرنسية - فيتنامية، وفتحت ميناءين للتجارة على الحدود الصينية - الفيتنامية، واتفقتا على التعاون مع فرنسا، في إدارة السكك الحـديدية في المستقبل؛ ومن جانبهم، وافق الفرنسيون على سحب القوات من "كيلونج" و"بنجهو"، وهكذا اختتمت الحرب الصينية الفرنسية بفوز الصين الفاشل، وفشل فرنسا المنتصر.

الحرب الصينية اليابانية (1894 - 1895م)

بعـد أن غزتـها القـوى الغربيـة فـي القـرن التاسـع عشـر، أطـاحت اليـابان بال"شوجون" (الحاكم) "توكوجاوا" وأعادت الإمبراطور "ميجي"، مما أدى إلى بداية عهد جديد، وأطلق النظام الملكي ما كان يعرف بإحياء "ميجي" لزيادة القوة العسكرية للبلاد، بل واعتمد ما يسمى "السياسة القارية"، التي كان الهدف منها احتلال دول قارية مثل الصين وكوريا، وعليه، أجبرت اليابان في عام 1876م كوريا على توقيع معاهدة "جانجهوا"، متجاهلة سيادة حكومة "تشينج"، وفي العقد التالي، زادت اليابان نفقاتها العسكرية وبدأت برنامج بناء السفن الضخم، وبحلول الحرب الصينية اليابانية، بلغت القوة البحرية التي تم قياسها بإزاحة المياه للبحرية اليابانية 72.000 طن، وهي أعلى من قوة بحرية "بيانج" في عهد أسرة "تشينج"، فمنذ تأسيسها في عام 1888م، لم تتلقَّ قوات "بييانج" البحرية أي استثمارات إضافية، وفي عام 1891م، للتحضير لاحتفالات عيد ميلادها الستين، قامت الإمبراطورة الأرملة "تسيشي" ببناء القصر الصيفي بالمال الذي كان يجب أن يذهب للبنادق والمدافع.

في عام 1894م، اندلعت ثورة فلاحي "دونجاك" في كوريا وطلبت الحكومة الكورية من حكومة "تشينج" المساعدة، وحثت الحكومة اليابانية، عن طريق المبالغة في تضخيم خطورة الوضع، بلاط "تشينج" على الموافقة كذريعة للانضمام إليها؛ ولكن بمجرد قمع الانتفاضة، رفضت اليابان سحب قواتها، وأرسلت المزيد بدلًا من ذلك، وبينما شعر البعض في الصين بالانزعاج من استعدادات اليابان الواضحة للحرب، كانت "تسيشي" غارقة في الاستعدادات لعيد الميلاد وكانت حريصة على السلام، وفي هذه الأثناء، واستغلالًا للصراع بين بريطانيا وروسيا في الشرق الأقصى، نجحت اليابان في جعل القوتين تتعهدان بالبقاء على الحياد في احتمال حدوث حرب صينية يابانية.

في 25 يوليو 1894م، فتحت ثلاث سفن حربية يابانية النار على سفينتين حربيتين صينيتين في البحر حول "بونجدو"، استمرت معركة "بونجدو" هذه لعدة ساعات، وفي نفس اليوم، تحركت مجموعتان من القوات اليابانية إلى الجنوب من "يونجسان" في "هانسيونج" (سيؤول) لمهاجمة قوات "تشينج" في "آسان"، وقاد جنرال "تشينج" الجنرال "ني شيتشينج"، القوات إلى "سيونجهوان" دفاعًا عن النفس، بينما توجه جنرال آخر يدعى "يي تشيتشاو" إلى "كونججو" لدعمه، تاركًا كتيبة في "آسان"؛ لذلك كانت قوات "تشينج" الآن مبعثرة وهدفًا سهلًا للهجوم، وسقطت "سيونجهوان"، وتلتها بعد ذلك مباشرة "آسان"، أدت هذه الأحداث إلى إعلان الصين واليابان الحرب رسميًا في 1 أغسطس، وكانت الحكومة اليابانية على استعداد تام لهذا، وكان هدفهم هو خوض معركة حاسمة مع "تشينج" في سهل "تشيلي" وإجبارهم على الاستسلام، في الوقت نفسه، في حين كانت استراتيجية "تشينج" سلبية نسبيًا.

في 21 يوليو، أرسلت قوات "تشينج" لمساعدة كوريا وقد اجتمعت في "بيونج يانج"، وفي المعركة التي حدثت الآن، عانوا من خسائر أقل من اليابانيين، لكن القائد الأعلى للقوات المسلحة أخطأ في الحكم وأمر بترك المدينة، متراجعًا

شمالًا في المطر، تعرضت قوات "تشينج" لكمين من اليابانيين، وعانت خسائر فادحة، ودخل اليابانيون "بيونج يانج" في 16 سبتمبر، واستولوا على الأسلحة والإمدادات التي خلفتها قوات "تشينج".

حول اليابانيون الآن اهتمامهم إلى السيطرة على البحرين الأصفر و"بوهاي"، وفي 17 سبتمبر، كان "دينج روشانج"، قائد أسطول "بييانج"، ينقل 4.000 جندي في خمس سفن حربية نحو "دادونجو" لدعم "يي تشيتشاو" عندما أدرك أن الأسطول الياباني كان يقترب من الجنوب الغربي، فاستعد للمعركة وأمر السفن الحربية بتشكيل دائرة حول سفينة القيادة "دنجيوان" للاستفادة المثلى من المدفعية الثقيلة، بعد ظهر ذلك اليوم، عندما كان الأسطولان على بعد 5.300 متر من بعضهما، أطلقت "دنجيوان" مدفعها الأول، وبعد ثلاث دقائق، ردت السفن اليابانية على النار وكانت لها ميزة واضحة في الحمولة والقوة والسرعة والمدافع، وسرعان ما دُمّر الصاري الرئيس لـ"دنجيوان" وأصيب "دينج روشانج" بجروح بالغة، احتدمت المعركة؛ وضربت "دنجيوان" في الوسط واشتعلت فيها النيران، وعند هذه النقطة اقتربت السفن اليابانية، وأمر "دنج شيتشانج"، قبطان "تشي يوان"، سفينته بالتحرك نحو "يوشينو" وهي واحدة من السفن اليابانية، ولكن بعد ذلك تم ضربه وإمالته إلى الميمنة، سقط "دنج" في البحر، لكنه رفض قبول محاولات إنقاذه، بعد أن أقسم أن يموت مع سفينته، ومن بين 200 رجل، تم إنقاذ سبعة فقط.

في نهاية المطاف، وصلت المعركة على البحر الأصفر إلى مأزق مع خسائر من كِلا الجانبين، ولكن نطاقها لم يسبق له مثيل في الحرب البحرية في الشرق الأقصى، تراجعت السفن الحربية الصينية التي نجت إلى ميناء "لوشون" لإصلاحها، ثم عادت إلى القاعدة البحرية في "ويهاي"، وفي نوفمبر من ذلك العام، احتلت القوات اليابانية "داليان" و"لوشون" عبر طرق برية، وقتلت أكثر من 20 ألف مدني صيني، وفي فبراير 1895م، استولوا على "ويهاي" وهاجموا السفن الحربية الصينية من الحصون، مع الهزيمة الصينية التي لا مفر منها الآن،

انتحر "دينج روشانج" واستسلم جنوده، وتنازلوا عن عشر سفن حربية، وهكذا أبيد أسطول "بييانج" بالكامل.

وقد استعد بلاط "تشينج" بالفعل للتفاوض من أجل السلام قبل هزيمة البحرية، وقد تم إرسال "تشانج ينهوان"، نائب وزير وزارة الإيرادات، إلى اليابان، حيث تم تلقيه ببرود، لأن اليابانيين كانوا يتوقعون التحدث إلى رجل يتمتع برتبة أعلى، ومع استسلام أسطول "بييانج"، كان بلاط "تشينج" أكثر حرصًا على السعي من أجل السلام، وفي 13 فبراير، تم إرسال "لي هونج تشانج"، البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عامًا، إلى اليابان على أمل أن يؤثر سنه في رئيس الوزراء الياباني الأصغر ووزير الخارجية، لكنه لم يتمكن من إحراز تقدم، خاصة في ما يتعلق بمسألة التعويض؛ فأصرت اليابان على 300 مليون تايل من الفضة، وفي هذه اللحظة الحرجة، جلبت حادثة غير متوقعة القليل من الحظ لـ"لي"، ففي أحد الأيام، وبينما كان عائدًا من المفاوضات، جرحه متطرف ياباني تحت عينه اليسرى، مما سبب الحرج للحكومة اليابانية، وجعلها أكثر قابلية للاتفاق، وفي 17 أبريل 1895م، تم التوقيع على معاهدة "شيمونوسيكي"، والتي تنص على أن الصين يجب أن تتنازل عن الأرض وتدفع تعويض لليابان، وقد قوبلت المعاهدة بالفزع في الصين، وكانت هناك اعتراضات واسعة، ومطالب لاستئناف الحرب، ومع ذلك، في 8 مايو 1895م، تبادلت حكومة "تشينج" وثائق التصديق على المعاهدة مع اليابانيين، وفي مواجهة هذا الإذلال الوطني، بدأت مجموعة من الباحثين الصينيين حركة الإصلاح، متخذين اليابان مثالا لهم، هذا فتح حقبة جديدة ستتعلم فيها الصين من الغرب.

ثورة الملاكمين وغزو قوات الحلفاء للصين

حفزت مكاسب اليابان في الصين نتيجة للحرب الصينية اليابانية رغبة القوى الغربية في تقسيم البلاد، بالإضافة إلى التوغلات العسكرية والاقتصادية، وشكل العمل التبشيري جزءًا كبيرًا، مما فعلوه، ومع ذلك، فإن العديد ممن سمّوا بالمبشرين كانوا مستبدين ومتنمرين، ومع ذلك كانوا محميين من مسؤولي

"تشينج"، كانت "شاندونج" المنطقة التي عانت أكثر من غيرها، وفي أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، خطط المبشرون الأجانب والحكومة المحلية لهدم المعبد الطاوي لإمبراطور اليشم في قرية تدعى "ليبوانتون" واستبداله بكنيسة، مما أغضب السكان المحليين إلى حد بعيد، وفي هذه المرحلة، وضع رجل يدعى "تشاو ساندو" عرض ملاكمة لمدة ثلاثة أيام في المعبد مع تلاميذه، محذرًا جنود "تشينج" من ضربه، وعندما وضعت خطط الهدم على الرف، قاد "تشاو" "الملاكمين" بعيدًا.

بدأ "تشاو ساندو" تعلم "ملاكمة براعم البرقوق" عندما كان صغيرًا، وفتح لاحقًا حلقات الملاكمة في القرى والبلدات في المناطق الحدودية بين مقاطعات "شاندونج" و"تشيلي"، ومع الوقت أصبح قائدًا لأكثر من 2.000 ملاكم، وللحركة جذورها في منظمات الفلاحين في شمال الصين، هذه المجتمعات عززت الفكرة الدينية للـ"كالبا"، فكانوا يعتقدون أنهم يتصرفون وفق الإرادة الإلهية لإنقاذ الناس من الصعوبات، وأنهم مشمولون بحماية بوذا، وإلى جانب ممارسة الكونج فو الصيني، شاركوا في الفنون السحرية، وعقدوا جميع أنواع الطقوس الدينية، واعتقدوا أن لديهم قوى خارقة للطبيعة تجعلهم منيعين للسكاكين أو البنادق، بدأت الحركة لأول مرة في جنوب غرب مقاطعة "شاندونج" وعلى طول حدود المناطق بين "تشيلي" و"شاندونج"، وكانت المجتمعات الأكثر تأثيرًا هي جمعية السيف الكبير في "تساوتشو" و"شانشيان" والملاكمون في "جوانشيانج"، والملاكمون في "تشيبينج" و"جاوتانج" و"بينجيوان"، في البداية لم يجذب حجمها ونفوذها انتباه بلاط "تشينج"، الذي فشل في اتخاذ تدابير ضدها، لكن بشكل جماعي، اكتسب الملاكمون الدعم بسرعة وسرعان ما كانت حركة ذات أهمية وطنية.

وقد وعدت حكومة "تشينج" بالبقاء محايدة في النزاعات بين الملاكمين والمبشرين المسيحيين، ولكنهم في عام 1898م كسروا كلمتهم؛ لذلك عاد "تشاو ساندو" إلى "ليبوانتون" مرة ثانية لإطلاق انتفاضة، تحت شعار "الكفاح من

أجل بلاط "تشينج" وإبادة الأجانب". كما قام الملاكمون والمنظمات السرية الأخرى في مقاطعات "جاوتانج" و"إنشيان" و"شيبينج" و"لينتشينج وبينجيوان" المجاورة، انتشر الاحتجاج ضد المسيحيين في جميع أنحاء "شاندونج"، ومن هذه النقطة، تحت قيادة "تشو هونجدينج"، أصبح يعرف باسم ثورة الملاكمين، هاجمت قوات "تشينج" موكب "تشو" من الملاكمين حول "سينلوديان" ("بينجيوان" في مقاطعة "شاندونج" الآن)، وبعد ساعات من القتال، عانى كِلا الطرفين من خسائر، لكن "تشو" فاز في النهاية، واجتذب عرض القوة هذا قوى أخرى مضادة للأجانب، والتي أصبحت تعرف الآن جميعها باسم الملاكمين.

في مارس 1899م، تم تعيين "يوشان" حاكمًا لـ"شاندونج"، كان يكره الأجانب ويقدم دعمه للملاكمين، ويأمر جميع المسؤولين المحليين بتجاهل الطعون والشكاوى من المبشرين، وتحت حمايته، شن الملاكمون هجمات أكثر شدة على المبشرين الغربيين والمسيحيين المتحولين، وفي ديسمبر 1899م، أجبر الأجانب بلاط "تشينج" على طرده من منصبه، ولكن عندما عاد إلى بكين، قال للبلاط إنه يمكن الاعتماد على الملاكمين للمساعدة في طرد المستعمرين، وافقت "تسيشي"، التي حملت ضغينة ضد الأجانب لمعارضتها لإبعادها عن الإمبراطور "جوانجشو" من السلطة بعد إصلاحات عام 1898م، ووافقت على دعمهم، كان "يوشيان" آنذاك قد عين حاكم "شانشي"، وعارض خليفته في "شاندونج"، "يوان شيكاي"، الملاكمين، ولكن حذرته بكين مرارًا وتكرارًا من قمعهم.

وبدعم من "تسيشي"، واصل الملاكمون أنشطتهم في بكين و"تيانجينج"، ونمت أعدادهم، وقام الأمراء والوزراء بتجنيدهم كخدم في المنازل، وأقاموا أضرحة "للإله" الملاكم، كما بدأ العديد من الجنود والخدم في ممارسة الملاكمة الصينية، وفي بكين، مع ذلك، كانت علاقاتهم مع الأجانب متوترة، وعندما تورط "كليمنس فريهير فون كيتلر"، المبعوث الألماني للصين، في أعمال القتل،

قام جنود "تشينج" بإطلاق النار عليه هو نفسه، وشعر العديد من الأجانب بالقلق من انتشار جنون الملاكمين، وأرسل المبعوث البريطاني في بكين الأميرال "إدوارد هوبارت سيمور" في "تيانجينج" طلبًا للمساعدة، وفي وقت مبكر من 10 يونيو، غادرت فرقة عمل تضم أكثر من 2.000 جندي من مختلف البلدان "تيانجينج" بالقطار، تعرضوا للهجوم في "لانجفانج" على يد الملاكمين وجنود "تشينج"، بقيادة الجنرال "نيي شيتشينج"، وقد اندلع قتال عنيف؛ فاز الملاكمون وجيش "تشينج"، وتم منع القوة من التقدم، لكن الحلفاء الأجانب جمعوا المزيد من القوات لمهاجمة بطارية ميناء "داجو" التي سقطت في أيديهم، ثم استمروا نحو "تيانجينج"، وفي 9 يوليو، قاتل "ني شيتشينج" حتى الموت، وقاوم العديد من الملاكمين وجنود "تشينج" الوطنيين بشجاعة، لكن في 14 يوليو، سقطت "تيانجينج".

وفي 18 يونيو، دعت "تسيشي" إلى اجتماع أعلن فيه بلاط "تشينج" أنه سيقطع العلاقات الدبلوماسية مع جميع الدول الأخرى، وأعطت "تسيشي" السفراء والمبعوثين الأجانب 24 ساعة لمغادرة بكين تحت حماية الحراس الصينيين المسلحين، ثم في 21 يونيو، أعلن بلاط "تشينج" الحرب على الأجانب، ومع ذلك، أصر المحافظون في جنوب شرق البلاد على أن هذا كان مرسومًا إمبراطوريًّا غير قانوني، وأخفوا الأمر عن الجمهور ورفضوا تنظيم الملاكمين، ثم توصلوا إلى اتفاق غير رسمي مع القناصل الأجانب في شنغهاي: ستتم حماية المستوطنات الأجنبية في شنغهاي بشكل مشترك من الدول الأجنبية، في حين أن نهر اليانجتسي و"سوتشو" و"هانجتشو" سيحميهم حكام المقاطعات، هذا يعني أن الملاكمين لن يتمكنوا من مواصلة قتالهم في جنوب شرق الصين.

في نهاية يوليو، وصلت تعزيزات لقوات الحلفاء الثمانية (اليابان، روسيا، بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية، النمسا - المجر) إلى "داجو"، وفي 4 أغسطس، غادرت "تيانجينج" إلى بكين، وهاجم هذا

الجيش المكون من 18.000 جندي الملاكمين وجنود "تشينج" في الطريق، وسرعان ما هزموهم، وعندما وصلوا إلى بكين، هربت "تسيشي"، والإمبراطور "جوانج شو"، وعدد قليل من الخدم إلى الغرب إلى "شيان"، متنكرين في هيئة أفراد عاديين، وأثناء رحلتها، أمرت "تسيشي" قواتها بإبادة "الملاكمين"، وفي النهاية هُزمت في هجمات القوات الصينية والأجنبية، وبعد احتلال بكين، أحرقت القوات المتحالفة واغتصبوا وقتلوا ونهبوا المدينة التي تحولت إلى أنقاض، وأخذت الآثار والكنوز الإمبراطورية التي لا تُعد ولا تُحصى بعيدًا، وفي 7 سبتمبر 1901م، وقع "لي هونج تشانج" وممثلون من الدول الإحدى عشرة الأخرى على بروتوكول الملاكمين وملحقاته، حيث أضرت العديد من المواد بسيادة الصين، واشترطت تعويضًا للدول الغربية، وطالبت المسؤولين في "تشينج" بقمع شديد ضد التمردات المناهضة للإمبراطورية، وكان توقيع بروتوكول الملاكمين علامة على عهد جديد سيطر فيه الأجانب على بلاط "تشينج".

الفصل العشرون

التأثيرات الغربية

إصلاح وموت "تشينج"

المقدمة

كانت الأزمة التي وضعت حدًّا لسيادة أسرة "تشينج" أيديولوجية وفنية وكذلك سياسية وعسكرية، فبعد حرب الأفيون أدرك المسؤولون بعيدو النظر أن في مواجهتهم قوى أجنبية كانت متفوقة تقنيًّا، وأنه إذا كانت الصين ستواجههم على نفس المستوى، فمن الضروري التعلم منهم، بدأ هذا النقاش حول التحديث والتغريب الذي استمر بشكل جيد في القرن العشرين، قبِل التحديثيون الحاجة إلى دراسة التكنولوجيا الغربية ولكن ليس بالضرورة تبني الفكر السياسي والاجتماعي للغرب، وكان أكثر المظاهر الملموسة لهذا هي "حركة الدعم الذاتي" التي كانت في الأساس عبارة عن برنامج للتحديث العسكري والتحديث الاقتصادي في وقت لاحق، حيث تم تطوير الأعمال التجارية المنسوخة من الغرب مثل الشحن والتعدين والسكك الحديدية والتلغراف، وقد ظهر النجاح المحدود لهذه الحركة عندما عانت الصين من هزيمة عسكرية ساحقة من اليابان في عام 1895م.

أنشئت المؤسسات الحديثة في المقام الأول في المناطق الساحلية، في الموانئ التجارية التي كانت قد افتتحت للتجارة الخارجية بعد حرب الأفيون، فظهر اقتصاد مميز في هذه الموانئ، والتي تضم رجال الأعمال الصينيين والأجانب على حد سواء، تغيرت طبيعة مدن الموانئ هذه مع تطور الطبقة العاملة الصناعية والطبقة الوسطى، فاعتاد رجال الأعمال الصينيون على التعامل مع الأجانب الذين يعيشون حياة منفصلة من الامتيازات في جيوب

معروفة، وأصبحت الموانئ الكبرى مثل شنغهاي و"جوانج تشو" مراكز صناعية وتجارية رئيسة وكانت في نهاية المطاف مراكز للحركات الثورية في أوائل القرن العشرين.

وقد قبل المانشو والنخب الصينية الإصلاحات الاقتصادية، وإن كان ذلك على مضض، ولكن كانت هناك معارضة متعنتة لفكرة الإصلاح السياسي، كان "كانج يوي" و"ليانج تشيتشاو" من كبار المفكرين في الحركة الإصلاحية التي تطالب بالملكية الدستورية كشرط ضروري لكي تصبح الصين حديثة بالكامل، وجدت أفكارهم حظوة لدى الإمبراطور "جوانج شو" خلال "إصلاح الأيام المائة"، لكن الإمبراطورة الأرملة قتلت إمكانية الإصلاح، ففي أعقاب كارثة الملاكمين، وافقت النخبة على مضض على تنفيذ سلسلة من الإصلاحات الاجتماعية والسياسية ولكن كان الوقت قد فات بالنسبة للأسرة التي انهارت في عام 1911م في ما انفصلت مقاطعة بعد الأخرى، وفي هذا الوقت، أصبحت فكرة الملكية الدستورية غير ذات صلة؛ لأن النظام الإمبراطوري للمانشو قد فَقَدَ كل مصداقية وتم إنشاء إدارة جمهورية على أساس السلطات السياسية والعسكرية في المقاطعات، واقترح اسم "صن ياتسن"، وهو ثوري جمهوري محترم، كأول رئيس لجمهورية الصين، لكنه تنازل لـ"ليوان شيكاي"، أحد المقربين السابقين للنخبة الإمبراطورية من "تشينغ"، الذي هدد بتقسيم الصين ما لم يتم انتخابه.

تحدي الثقافة الغربية

ومع توسع القوى الغربية في نفوذها وتفاقم الأزمة في الصين الإقطاعية، أدركت مجموعة من المفكرين أن الكونفوشيوسية لم تعد الحل، وبدؤوا في فضح الفساد السياسي والدفاع عن نهج براغماتي لقضايا اليوم، أحد هؤلاء الرجال كان "جونج زيتشين" من "هانجتشو" بمقاطعة "تشجيانج"، وكان مسؤولًا في بكين لمدة عشرين عامًا، كتب في سن الثانية والعشرين أربعة مقالات باسم "حول العلاقة بين إمبراطور حكيم ووزير حكيم"، أدان فيه الحكم

الملكي المطلق، وفي السنة الثالثة من حكم الإمبراطور "دوجوانج"، توقع أن العدوان الأجنبي في الصين سيكون له آثار بعيدة المدى، واقترح على الإمبراطور التعامل مع الفساد ومقاومة الأجانب، رُفضت نصيحته، وأزعج تحديه للفساد بعض المسؤولين؛ لذلك تم التضييق عليه، واضطر إلى العودة إلى مسقط رأسه، عندما اندلعت حرب الأفيون في عام 1841م، خطط "غونج" للذهاب إلى شانغهاي للانضمام إلى القتال، لكنه سقط فجأة ومات في سن الخمسين فقط، ومنذ أن بدأ "لين زيشو" وآخرون في اتجاه شجب الفساد والدعوة إلى البراجماتية، اعتبر البعض أنهم أكثر المثقفين تقدمية في التفكير الذي رأته الصين في ثلاثة قرون.

كانت حروب الأفيون مدمرة للصين، لكنها فتحت أعين الشعب الصيني على العالم الأوسع، ووضعتها على طريق التحديث، ولد "لين زيشو" في "هوجوان" ("فوتشو" الحالية) بمقاطعة "فوجيان"، وفي عام 1837م، عين "لين" المفوض الإمبراطوري المكلف بحظر تجارة الأفيون في "جوانجدونج"، وعندما بدأ العمل، أدرك أن بريطانيا لن تتخلى عن هذه التجارة المربحة بسهولة، ولكنها ستكافح من أجلها، كما أوضح أنه من أجل تعزيز الحملة ضد الأفيون ومنع الهجوم المسلح من جهة البريطانيين، فإنه يحتاج إلى نظرة أوسع، وبدأ جمع العديد من الكتب والدوريات المترجمة، وكان بفضله أن تنشر "أخبار ماكاو"، و"علاقات الصين بلسان الأجانب"، و"قانون الأمم"، و"جغرافية العالم" باللغة الصينية، وهكذا أصبحت "جوانجدونج" النافذة التي تمكن الصينيون من خلالها من معرفة العالم، ومن خلال تحليل السياسة الخارجية والاقتصاد والثقافة، أدرك "لين" أن الصين تستطيع فقط مقاومة العدوان الخارجي من خلال إدخال المعرفة والتكنولوجيا من الغرب.

ولتعزيز الدفاع عن المناطق الساحلية، كان لدى "لين زيشو" أكثر من 200 مدفع جديد تم شراؤه سرًّا من الخارج وتم تثبيته على بطارية "هايكو"؛ وجمع مواد عن المدافع والسفن الحربية، وتدريب الجنود في الأسلحة الغربية وطرق

الحفر، ومع ذلك، خلال حرب الأفيون الأولى، لفق له أولئك الذين أصروا على الاستسلام التهم وأقاله الإمبراطور "داوجوانج" من منصبه، ونفي إلى "شينجيانج"، وعلى الطريق التقى "لين" صديقه "وي يوان"، وأعطى لـ"وي" كتابه المترجم "جغرافية العالم"، ضمن وثائق أخرى، وطلب منه مواصلة العمل الجيد.

وكان "وي يوان"، من "لونجهوي" بـ"شاويانج" في مقاطعة "هونان"، رائدًا آخر أحبطته الهزيمة في حروب الأفيون، فقد كتب كتابه "التاريخ العسكري لأسرة "تشينج"، حيث طرح فكرة "تعلم التكنولوجيا المتقدمة من الغرب من أجل مقاومة الغزو"، وكان آخر أعماله هو "سجل الخضوع على يد العملاء الأجانب في عهد داوجوانج"، وهو تحليل لأسباب ومسار ونتائج حروب الأفيون وسبب هزيمة الصين، وكان أول تاريخ شامل للحروب، واقترح أن يتعلم الصينيون فن بناء السفن من الغرب، وبعد الالتقاء مع "لين زيشو"، بدأ في جمع المواد من الصين والخارج، وتصنيفها حسب المنطقة والبلد.

وبحلول عام 1843م، كان قد أكمل خمسين مجلدًا من "الأطروحة المصورة عن الدول البحرية"، وأضاف بعد ذلك خمسين مجلدًا إضافيًا، كان هذا هو الكتاب الأكثر اكتمالًا عن الجغرافيا والتاريخ في العالم في الصين في ذلك الوقت، وأثبت أنه يتمتع بشعبية هائلة، كما وصف كيفية بناء المدافع البحرية والبواخر والألغام الأرضية وألغام الماء والتلسكوبات، مع أكثر من خمسين رسمًا بيانيًا يوضح تقنيات صناعة الأسلحة البحرية الغربية، مما يمنح الشعب الصيني المعرفة لصنع مثل هذه الأسلحة لأنفسهم، كان لها أهمية بعيدة المدى لكل من حركة الدعم الذاتي في ستينيات القرن التاسع عشر، وحركة الإصلاح والتحديث في التسعينيات من نفس القرن.

وفي الوقت نفسه ضم العلماء المثقفون بعيدو النظر "ياو يينج" و"شو جيشي"، كان "ياو يينج" من "تونجتشينج" بمقاطعة "آنهوي"، وعندما اندلعت حرب الأفيون، تم تعيينه مشرفًا عسكريًا لتايوان، وصنع سفنًا كبيرة، وعمق كل ميناء،

وبنى المزيد من البطاريات والمدافع المبنية والمركبة، ودعا السكان المحليين لمقاومة المعتدين البريطانيين ونجحوا في البقاء غير مهزومين، مما جعل كلًّا من البريطانيين ومسؤولي "تشينج" الذين أصروا على الاستسلام يكرهونه، وبعد حروب الأفيون، وجدت هاتان المجموعتان ذريعة لحبسه، فكان هناك رد قوي من أنصاره، الذين كادوا يتمردون لأجله، وهكذا اضطر الإمبراطور "داوجوانج" لتحريره، ولكن لإرضاء البريطانيين تم نفيه إلى "سيتشوان"، وهناك، سافر "ياو" حول المكان وكتب "ملاحظات كانجيو أثناء السفر" الشهيرة، والتي اقترح فيها تعلم التكنولوجيا المتقدمة من الغرب، وذكر الصينيين بغزو بريطانيا المحتمل للتبت، كما وصف تاريخ وجغرافية بريطانيا وفرنسا وروسيا والهند.

في الوقت نفسه، كان أحد العلماء يدرس الأنظمة السياسية الغربية، وهو "شو جيشي" من "ووتاي" في "دايتشو" بمقاطعة "شانشي"، وخلال حروب الأفيون، قاد السكان المحليين والجنود في "شيامن" ضد البريطانيين، وبعد هزيمة "تشينج"، كتب كتابًا قصيرًا عن الدائرة البحرية، اعتبر فيه أن الصين بحاجة إلى النظر إلى الأيديولوجية الديمقراطية والنظم السياسية في الغرب، وكان الرواد مثل "شو" هم الذين دفعوا الأيديولوجية الصينية إلى الأمام، وأدّوا بشكل غير مباشر إلى إصلاح الأيام المائة.

حركة التقوية الذاتية

بعد حرب الأفيون الثانية، واجهت حكومة "تشينج" مشكلات في الداخل والخارج، ودعا بعض المسؤولين المستنيرين، المعروف باسم فصيل التقوية الذاتية، إلى إثراء وتقوية البلاد من خلال إدخال التكنولوجيا الغربية، وقد مثلهم الأمير "جونج" في الحكومة المركزية، و"تزنج جوفان" و"لي هونجتشانج" في الحكومات المحلية.

في عام 1861م، أشار "فنج جيفان"، وهو من أوائل المفكرين المستنيرين، في

كتابه "احتجاجات من ستوديو جياوبين" إلى أن الصين يجب أن تطور من أساس فلسفتها الخاصة، مع الاستفادة من تقنيات الآخرين. بدأت حركة التقوية الذاتية بتأسيس المكتب العام (اختصار لـ "المكتب العام لشؤون مختلف البلدان" وما يعادل وزارة الشؤون الخارجية اليوم)، قبل حرب الأفيون، كانت حكومة "تشينج" تعتقد أن الصين أعظم دولة على مستوى العالم، والمكتب الوحيد للتعامل مع الشؤون الخارجية هو بلاط الشؤون القبلية الذي يتعامل مع روسيا والقضايا الحدودية، تم إسناد التجارة مع الدول الغربية للحاكم العام لـ"جوانج تشو"، لكن اتفاقية بكين التي وقعت في عام 1860م تنص على أن للممثلين الدبلوماسيين الغربيين الحق في البقاء في بكين؛ لذلك فإن هناك حاجة إلى مكتب للتعامل مع الشؤون الدبلوماسية.

تم تأسيس المكتب العام في بكين في 11 مارس 1861م بناء على طلب من الأمير "جونج" الذي ترأسه، وعلى الرغم من تأسيسه في البداية للتعامل مع الشؤون الخارجية، فقد وسع في وقت لاحق من صلاحيته للتمويل، والشؤون العسكرية، والتعليم حول العالم، وأصبح هيئة رئيسة لرسم السياسات لحكومة "تشينج"، وكان هدفه معرفة الأنظمة العسكرية الغربية وتكنولوجيا تصنيع الأسلحة، واستخدام هذه المعرفة لقمع التمرد الداخلي ومقاومة العدوان الخارجي، وقام "تزنج جوفان"، بدعم من الأمير "جونج"، بتأسيس أول ترسانة في الصين الحديثة وهي ترسانة "آن تشينج" الداخلية، التي تمت في أوائل عام 1866م، واندمجت في مكتب "جينلينج" لتصنيع الماكينات الذي أسسه "لي هونج تشانج"، رقى "تزنج جو فان" رجالًا موهوبين مثل "شو شو"، وهو عالم نجح في تنظيم صناعة أول باخرة صينية، وعلى الرغم من صغر حجمها، فإن ترسانة "آن تشينج" الداخلية كانت علامة على بداية الصناعة العسكرية الحديثة في الصين والتي تبعها كثير من الآخرين.

ودعم "لي هونج تشانج" القادم من "هيفي" بمقاطعة "آنهوي"، حركة التقوية الذاتية، وكان واحدًا آخر ممن رعاهم هو "تزنج جوفان"، وفي عام 1865م، قام

بشراء الشركة الأمريكية "توماس هانت وشركاه" في شنغهاي ودمجها مع الفرع الثاني من ترسانة شنغهاي، ثم اشترى آلات بناء السفن من الولايات المتحدة وأنشأ مكتب "جيانج نانج" العام لتصنيع الآلات في شنغهاي، والذي كان لديه معدات متطورة وأنظمة إنتاج.

سرعان ما واجهت حركة التقوية الذاتية مشكلات: نقص الأموال والمواد الخام؛ صعوبات النقل والاتصالات، المنافسة من المنتجات الأجنبية وكان كل ذلك عائقًا أمام تطوير الصناعات العسكرية الصينية؛ لذلك اقترح مؤيدو الحركة استراتيجية اعتماد القوة على الثروة، وأشار "لي هونج تشانج": "يجب أن نجعل الصين غنية قبل أن تجعلها قوية"، وهكذا فمنذ نهاية عهد الإمبراطور "تونججي"، بدأ "لي" وغيره من المسؤولين عن التقوية الذاتية إنشاء شركات غير عسكرية، وفي عام 1873م، أنشأ "لي هونج تشانج" شركة الملاحة البخارية التجارية الصينية، كما أنشأ منجم "كايبينج" للفحم ومكتب التلغراف الصيني، وبحلول عام 1884م، عندما اندلعت الحرب الصينية - الفرنسية، تم تأسيس 21 شركة، والتي كان لها إما دعم رسمي أو أسسها رجال أعمال تحت إشراف رسمي، افتقرت مجموعة التقوية الذاتية إلى القدرة على القيام بكل شيء بمفردها؛ لذلك دافعت عن ظهور رواد الأعمال، وبالتالي عززت بشكل فعال تطور الرأسمالية.

كانت هناك حاجة أيضًا للموظفين المؤهلين؛ لذلك تم تأسيس المؤسسات التعليمية لتوفير التدريب وإدخال التكنولوجيا الغربية، وكانت كلية "تونجوين" هي الأولى، وركزت في الأصل على تدريس اللغة الإنجليزية، ثم توسعت إلى اللغويات والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية، وفي وقت لاحق، تم إلحاق الكليات الفرنسية، الروسية، والألمانية به، واعتمد كل من المعلمين الصينيين والأجانب أساليب تدريس غربية، وكان الأكثر تأثيرًا من هؤلاء المبشر الأمريكي المشيخي "ويليام ألكسندر بارسونز مارتن" الذي أنشأ في عام 1876م مناهج نظامية تمتد من خمس إلى ثماني سنوات، كما تم إنشاء نظام فحص

صارم وفي عام 1900م، تم دمج كلية "تونجوين" في الجامعة الإمبراطورية ببكين.

كانت الأكاديميات العسكرية هي الابتكار التالي، وأكثرها شهرة هي مدرسة "فوتشو" البحرية التي أسسها "تزو تزونجتانج"، والأكاديمية العسكرية في "تيان جينج" التي أسسها "لي هونج تشانج"، ومدرسة الجيش والمدرسة في "جوان دونج" التي أسسها "تشانج تشيدونج"، وبدأت حكومة "تشينج" في إرسال الطلاب للدراسة في الخارج في ما أصبح برنامجًا منهجيًا، وقدم الأمير "جونج" و"تزنج جوفان"، و"لي هونجتشانج" العديد من المذكرات الرسمية للعرش حول هذه المسألة، ونجحوا في النهاية في عام 1872م، عندما تم إرسال 120 طالبًا إلى الخارج، وفي الوقت نفسه، نظمت كلية "تونجوان" حركة ترجمة الكتب الغربية، وبهذه الطريقة تم تقديم المعرفة الأساسية لجميع المواد إلى الصين، وتم تدريب المجموعة الأولى من المترجمين الصينيين.

وفي عام 1874م، بينما كانت حركة التقوية الذاتية مزدهرة، حاولت اليابان احتلال تايوان، ولكن تم طردها على يد قوات "تشينج"، فقد أدركت حكومة "شينج" الآن أهمية الدفاع في البحر وخططت لإنشاء البحرية، ومن عام 1875م، شغل "شين باو تشن" و"لي هونج تشانج" منصبي وزير "نانيانج" (المحيط الجنوبي) ووزير "بيبانج" (المحيط الشمالي) على التوالي، وبسبب نقص الأموال، وضعت حكومة "تشينج" كل جهودها لإنشاء بحرية "بيبانج"؛ لأنهم يعتقدون أن العدو الرئيس هو اليابان، وقد تم تأسيسها رسميًا في 17 ديسمبر 1888م، وأعطيت شارة التنين الأصفر، ولكن بعد ذلك، أصبح نقص الأموال حادًا؛ لأن مبالغ ضخمة أنفقت في احتفالات عيد ميلاد الإمبراطورة الأرملة "تسي شي" الستين، وأصبح من غير الممكن استبدال السفن الحربية، وأصبحت المدفعية تالفة وقديمة، وكانت النتيجة في الحرب الصينية اليابانية أن هُزمت الصين ودُمرت بحرية "بي يانج" بالكامل، وبالتالي فإن حركة التقوية الذاتية حكم عليها بالفشل، ولكنها كانت ذات تأثير كبير،

وكانت بمثابة بداية لتحديث الصين.

صعود الرأسمالية

بعد حروب الأفيون، أقام رجال الأعمال الأجانب مصانع في الموانئ التجارية الصينية، هذا، إضافة إلى تأثير حركة التقوية الذاتية، دفع البيروقراطيين الصينيين، وأصحاب العقارات، ورجال الأعمال لإدخال تكنولوجيات متقدمة، والاستثمار في المؤسسات الحديثة في شنغهاي و"تيان جينج" و"جوان دونج"، والمناطق الساحلية الأخرى في 1860 و1870م، وقد استمدت هذه الأعمال الحديثة جزئيًّا من ورش حرفية قائمة؛ كان معظمها في بناء السفن، وغزل الحرير، والمنسوجات، والدقيق، وأعواد الثقاب، والطباعة، وكان مصنع شنغهاي "فا تشانج" للآليات، الذي أسسه "فانج جو تزان"، أحد أقدم الشركات الخاصة (وأكبرها) في الصين، وكان مؤسسه، وهو من أهالي "شيانج شان" في مقاطعة "جوانجدونج"، حدادًا عمل في ما بعد في نقل البضائع بين شانجهاي و"جوان دونج"، وبعد حرب الأفيون الثانية، أصبحت شنغهاي ميناء رئيسًا للاستيراد والتصدير، فرأى "فانج" أنه مع صعود صناعة الشحن، فإن مصانع بناء السفن سوف تزدهر في المقابل، وفي عام 1866م، جمع هو وزوجته "صن ينجدي" أموالهما وأسسا متجر "فاتشانج" للحدادة في "هونجكو" بشنغهاي، لصنع أجزاء السفن، وعندما تم إنشاء المتجر، كان يحتوي على فرن واحد وأربعة أو خمسة عمال، لكنه توسع بسرعة، وبحلول منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر، استطاع أن يصنع السفن وآلاتها، ومطارق البخار وغيرها من المنتجات ذات الصلة، وأصبح رائدًا في مجاله، إلا أن الحكومة الصينية لم تقدم سوى القليل من الدعم لمثل هذه الشركات، وفي النهاية تم ضم "فتتشانج" إلى مصنع سفن "يي سونج".

في صناعة الحرير، افتتح "تشين تشيوان" مصنع طاحونة غزل "جي تشانج لونج" في "جيانتسون" بـ"نان هاي" في مقاطعة "جوانجدونج" وكان الأول من نوعه، كان "تشن" وأسلافه، الذين ولدوا في "جيان تسون"، يشاركون دائمًا في

الزراعة وتربية دود القز، لكن "تشين" قضى سنوات عديدة مسافرًا، ورأى أن المطاحن التايلندية كانت تصنع الحرير عالي الجودة بآلات فرنسية الصنع، وفي عام 1872م، عند عودته إلى الصين، وضع خططًا لإنشاء مصنع خاص به، وعندما فتح في عام 1873م، أمكن أن ينتج الحرير الخام الذي كان متفوقًا على النسخة اليدوية، ويمكنه أيضًا أن ينتج كميات أكبر، ازدهرت أعمال "تشن"، وجاء الكثيرون إلى مصنعه لتعلم تقنياته، وفي عام 1881م، وصل عدد المطاحن في "شو ندي" و"نان هاي" وأماكن أخرى في "جوانجدونج" إلى عشرة، ومن المفهوم أن مَن شاركوا في صناعة الغزل التقليدية شعروا بالتهديد من هذا، وكانت القوى الإقطاعية غير سعيدة أيضًا، مدعيةً أن الرجال والنساء الذين يعملون معًا في المصنع كانوا مخالفين للقانون، وأن مداخن المصانع الطويلة أضرت بـ"فنج شوي"، أي الإيمان بالرمل، والأثر الروحي للموقع الصحيح، وأدى ضعف محصول الحرير في مقاطعة "نانهاي" عام 1881م إلى زيادة التوتر، واقتحم العمال التقليديون المصانع الجديدة لتدمير الآلات، وحدثت وفيات، وفي النهاية، حظر حاكم مقاطعة "نانهاي" تشغيل المصانع، ولم يكن أمام "تشن تشيوان" خيار سوى نقل الطاحونة إلى "ماكاو"، وبعد سنوات قليلة، انتقل إلى قريته، ولم تعترف حكومة "تشينج" بأن مصانع الحرير التي يملكها القطاع الخاص يمكن أن تساعد المزارعين الفقراء على كسب العيش، وأنهم لم يلحقوا الضرر بالضرورة بالتجارة إلا في عام 1887م.

كان أول مصنع للطحين الذي يديره القطاع الخاص هو شركة "يي لايمو" للمطاحن الآلية التي أسسها "تشو تشي آنج" من شنغهاي، ولد في عائلة ثرية، وبدأ العمل في الشحن، ولكن في عام 1878م أقام مطحنة الدقيق الأولى في المدينة للطحن الآلي، وإذ كانت أكثر كفاءة من الطحن اليدوي، كانت هذه الطاحونة ستجعل "تشو" رجلًا غنيًا لو لم يمت في نفس العام، ودخل استخدام الآلات في صناعة النسيج متأخرًا نسبيًا؛ فتأسست شركة "تونج جيو يوان"، أول مصنع لإنتاج القطن على نطاق واسع في الصين، على يد "يان شين هو" في "نين جبو" عام 1886م، وكانت "نينجبو" في الماضي مركزًا لصناعة القطن

في محافظة "تشي جيانج" الشرقية، ولكن بعد حروب الأفيون، غمرت الأسواق بالبضائع والأقمشة الأجنبية، ولتصحيح هذا، جمع يان 50.000 تايل من الفضة واشترى 40 ماكينة كبيرة لحلج القطن كبيرة مزودة بالدواسات من اليابان، كما استعان بالفنيين اليابانيين للإشراف على الإنتاج، وكان لدى شركة طاحونة "تونج جيو يوان لحلج القطن" قوة عاملة تتراوح بين 300 إلى 400 رجل.

بين حروب الأفيون وبدء الحرب الصينية اليابانية في عام 1894م، تم تأسيس العديد من الشركات الجديدة، خاصة في الصناعات الخفيفة، وكانوا يميلون إلى الصغر واستخدام معدات بسيطة ومتخلفة نسبيًّا وغالبًا ما واجهوا خطر الاستيلاء عليها من الأجانب، ناهيك عن القمع من القوات الإقطاعية الصينية، ونتيجة لذلك ناضلوا، وفي عام 1895م، بعد الحرب الصينية اليابانية، سمحت معاهدة شيمونوسيكي للأجانب بإنشاء مصانع في الموانئ التجارية الصينية، كما خففت حكومة "تشينج" أيضًا القيود المفروضة على المصانع الخاصة، وكان هذا إيذانًا بموجة جديدة من التطور، لا سيّما في صناعة القطن.

كما نمت الرأسمالية، وكذلك البروليتاريا الجديدة، فنشأ الجيل الأول في الصين في أربعينيات القرن التاسع عشر وخمسينيات القرن التاسع عشر وكان معظمهم من المزارعين والحرفيين المعوزين العاملين في أحواض بناء السفن والمصانع التي يديرها أجانب، وفي وقت لاحق، ظهروا أكثر في الشركات التي أسسها مؤيدو حركة التقوية الذاتية، وقبل الحرب الصينية اليابانية، كان هناك بالفعل نحو 100.000 عامل، معظمهم من العاملين في الموانئ التجارية مثل شنغهاي و"هانكو"، و"جوانج تشو"، وقد عانوا من الاستغلال على ثلاث جبهات: من الرأسماليين الأجانب والرأسماليين المحليين والقوى الإقطاعية، فجنوا أجورًا زهيدة، وتحملوا ساعات عمل طويلة وظروف عمل سيئة، لكنهم كانوا حريصين على تغيير وضعهم البائس؛ لذلك خرج عدد من الشخصيات الثورية المفعمة بالحيوية من وسطهم، وسرعان ما تبع ذلك صعود البورجوازية، وفي مواجهة أزمة وطنية متزايدة الخطورة، بدؤوا في التعبير عن أفكارهم وآرائهم

السياسية، وضخوا حياة جديدة في الركود السياسي وجلبوا بصيص أمل للأمة.

أفكار الإصلاح

في نهاية القرن التاسع عشر، ظهرت مجموعة من العلماء الصينيين الذين تفرغوا للتعلم والسياسة الغربية، فقد درسوا أو عاشوا في مدن ذات أغلبية غربية عظمى مثل شنغهاي وهونج كونغ وماكاو، وتواصلوا مع المبشرين، ولدوا لعائلات رجال الأعمال، أو عملوا كمبعوثين في الخارج، وقد شارك بعضهم في "حركة تقوية الذات"، كما تبنوا الرغبة الشعبية في جعل الصين ثرية وقوية من خلال مقاومة العدوان الخارجي، وتطوير الاقتصاد، وتعزيز الإصلاح السياسي، من بينهم كان "فنج جوي فن"، أول من اقترح أن يتم الاحتفاظ بالتعليم الصيني، واستخدام المعرفة الغربية للاستخدام العملي، كان "ووشيان" في "سو تشو" بمقاطعة "جيانج سو"، وعندما تم غزو الصين من القوى الغربية، اعترف بفجوة المعرفة التي نمت بين الاثنين، وأصر على سدها، في كتابه "احتجاجات من ستوديو جياوبين"، قدم اقتراحات لإصلاح حكومة "تشينج" الفاسدة، على الرغم من أنه لم يشجع بشكل مباشر تطور الرأسمالية في الصين، فقد أثر فكره في الإصلاحيين، الذين كرّموه كرائد لهم.

وكان أول إصلاحي حقيقي هو "وانج تاو" من قرية "فولي" (بلدة "لو تشي" اليوم) في "سو تشو" بمقاطعة "جيانج سو"، ففي عام 1867م، ذهب في رحلة إلى أوروبا، حيث تعلم الكثير عن التاريخ والجغرافيا ومجتمع الغرب، وعند عودته عمل محررًا في الدوريات، ثم في عام 1874م، بدأ في "سايكل دايلي"، أول صحيفة يومية تمولها الصين باللغة الصينية، عمل ككاتب رئيس في الصحيفة لمدة عشر سنوات، ونشر العديد من المقالات التي تدعو إلى الإصلاح السياسي ومد السكك الحديدية وبناء السفن وصناعات النسيج في الصين، وفي عام 1875م، نشر "سلسلة الإصلاح والتقوية الذاتية" الشهيرة التي طرح فيها شعار "الإصلاح"، قبل ثمانية عشر عامًا من فكرة "تشينج جوانينج"

المطابقة في "كلمات تحذير إلى عصر مزدهر"، وقبل ثلاثة وعشرين عامًا من فكرة الإصلاح التي دعا إليها "كانج يوي" و"ليانج تشيتشاو".

كان "شو فوشينج" شخصية رئيسة أخرى، وكان من "ووشي" بمقاطعة "جيانج سو"، عمل مستشارًا لـ"زينج جوفان" و"لي هونج تشانج"، ثم مبعوثًا إلى بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا، وحافظ على علاقات وثيقة مع مختلف الغربيين المشهورين، وقرر أن تخلف الصين يكمن في أنظمتها، وفي عام 1879م كتب "مقترحات أولية تتعلق بالشؤون الغربية"، والتي غطى فيها أرضية مشابهة للإصلاحيين، لكنه لم يقترح مباشرة إصلاح النظام الإقطاعي، وتعكس مقترحاته أيديولوجية رأسمالية ناشئة، وكان لها تأثير كبير على الدوائر الفكرية في الصين.

مبعوث آخر هو "هوانج تزون شيان" من "مي تشو" بمقاطعة "جوانجدونج"، الذي أمضى ثلاثة عشر عامًا في الخارج وكان لديه فهم عميق للثقافة الغربية، وبصفته مبعوثًا لليابان، كان حريصًا على التعرف على الكيفية التي تعافت بها البلاد عبر استعادة "ميجي"، ونظرًا لأنها عانت من اعتداء خارجي في نفس الوقت الذي عانت فيه الصين، ثم بدأ في كتابة "حوليات اليابان"، حيث اقترح إصلاحات للصين، وتم الانتهاء منه في عام 1887م وقدمه في وقت لاحق لـ"لي هونج تشانج" وأعرب "هوانج" عن أمله في أن يوصي به "لي" للمكتب العام، لكنه ظل غير مقروء حتى توقيع معاهدة شيمونوسيكي، وهكذا وضع الأساس النظري لإصلاحات المئة يوم الماضية.

كان صاحب النظرية الأولى لدراسة الإصلاح بشكل منهجي هو "تشينج جوانينج" من قرية "يونجمو" بمقاطعة "شيانجشان" - مدينة "تشونجشان" اليوم، بمقاطعة "وان دونج" - في عام 1858م غادر إلى شنغهاي، حيث بدأ القيام بأعمال تجارية وحضر مدرسة ليلية لتعلم اللغة الإنجليزية، وسرعان ما طور اهتمامًا شديدًا بالسياسة والاقتصاد الغربيين، وأدرك تخلف النظام الصيني، وفي عام 1880م، نشر كتابه "عن التغيرات"، والذي اقترح فيه سلسلة

من الإجراءات للإصلاح بهدف "إثراء البلاد" في جوهرها، وأصر على ضرورة تطوير الصناعة الرأسمالية والتجارة في الصين، وإنشاء برلمان، وفي عام 1892م، قام بتوسيع كتابه "عن التغيرات" وأعاد تسميته بـ"كلمات تحذير إلى عصر مزدهر"، اقترح هذا العمل، من خلال التقوية الذاتية ومقاومة العدوان الخارجي كمبادئه الأساسية، تدابير إصلاحية عملية في مجالات السياسة والاقتصاد والجيش والدبلوماسية والثقافة، وكان لها تأثير كبير على المجتمع الصيني، وأصبحت شعبية، ليس فقط بين الإصلاحيين، بل حتى الطبقة الحاكمة من أسرة "تشينج"، وقيل إنه بعد قراءته، أمر الإمبراطور "جوانج شو" بإعادة طبعه وتوزيعه على مسؤولي البلاط.

بيد أن "يان فو" وهو المفكر الأكثر نفوذًا على الإطلاق، كان من "هو جوان" - في "فو تشو" اليوم - بمقاطعة "فوجيان"، ولد في عائلة من الأطباء، وتم قبوله في سن الثالثة عشرة في مدرسة "فوتشو" البحرية، وفي سن الثالثة والعشرين، تم إرساله إلى بريطانيا للدراسة، أثناء إقامته هناك طور اهتمامًا قويًا بالنظم السياسية الغربية وقرأ على نطاق واسع حول نظريات الرأسمالية والتطور، وبعد الحرب الصينية اليابانية، انتقل إلى ترجمة الكتب الغربية لإثارة الوعي الشعبي بالخطر الذي تواجهه الصين، وكان أولها "التطور والأخلاق" بقلم عالم الأحياء الإنجليزية توماس هكسلي ("تيان يان لون" باللغة الصينية)، وكان الكتاب أول مدخل منهجي لنظرية التطور لداروين في الصين، ولم تكن الترجمة كاملة، لكنها احتوت على مقتطفات وتعليقات مختارة، سلط "يان فو" الضوء على فكرة "البقاء للأصلح" لتحذير رفاقه الصينيين من أن ما كانوا يواجهونه لم يكن تغييرًا في الأسرة، بل قضية بقاء الصين ذاته، وفي مقالته "عن السعي إلى القوة"، كتب عن رغبته في تعزيز وتنوير ودعم القيم الجديدة بين الشعب الصيني، وأشار إلى أن الأمر استغرق من الدول الغربية من خمسين إلى مائتي عام فقط حتى أصبحت قوية، وأن على الصينيين إجراء التغييرات للحاق بالركب، وعند نشر "تيان يانلون"، أصبحت "تيانيان" ("التطور")، "وو جينج" ("المنافسة")، "تيان تزي" ("الانتقاء الطبيعي") و"شي تشي شينج

تسون" (البقاء للأصلح) مصطلحات شهيرة، وكانت فكرة البقاء للأصلح مسألة جاذبة بشكل خاص، مما حفز الصينيين على إنقاذ بلدهم من الأزمة.

إصلاحات المئة يوم

في ربيع عام 1895م، عانت الصين من الهزيمة في الحرب الصينية اليابانية ووقعت معاهدة "شيمونوسيكي"، استاء الشعب الصيني وأدان كلًّا من الحكومة اليابانية وحكومة "تشينج"، واتصل "كانج يوي" بأكثر من 1.300 "جورين" (مرشحين ناجحين في الامتحان المدني الإمبراطوري على مستوى المقاطعات) من ثماني عشر مقاطعة، وقدموا مذكرة رسمية للإمبراطور "جوانج شو"، حيث التمسوا إيقاف مفاوضات السلام وطالبوا بالإصلاح، كان "كانج يوي" من "نان هاي" في مقاطعة "جوانجدونج"، فبعد أن درس الكونفوشيوسية منذ صغره، رفض الكونفوشيوسية الجديدة، وقرأ "أطروحة مصورة عن الولايات البحرية" بقلم "وي يوان" و"حكاية قصيرة من الدائرة البحرية" بقلم "شو جيشي"، والتي أثرت فيه بعمق؛ وعند دراسته للامتحان المدني الإمبراطوري، جمع العديد من الكتب عن الأنظمة السياسية الغربية والعلوم الطبيعية، وبعد أن أدرك مزايا النظام الرأسمالي في الغرب على النظام الإقطاعي في الصين، قرر بدء العمل، ففي عام 1888م، ذهب إلى بكين لإجراء الفحص المدني، وعندما علم أن الإمبراطور يهتم بشؤون الدولة شخصيًّا، خطر له أن يقدم له مذكرة رسمية، وهذا ما فعله في وقت لاحق من ذاك العام، وعلى الرغم من أن الإمبراطور "جوانج شو" لم يستلمها، كان "كانج" هو أول شخص عادي لسنوات عديدة يقوم بتقديم مذكرة رسمية، مما أثار ضجة كبيرة في الأوساط السياسية والأيديولوجية، وفي الواقع في جميع أنحاء البلاد.

وفي عام 1891م، عاد "كانج" إلى مقاطعة "جوانجدونج" وبدأ محاضرات في أكاديمية الإصلاحيين، كما كتب بشكل مكثف، كانت أعماله الأكثر تأثيرًا هي

"دراسة للكلاسيكيات المزيفة في عهد أسرة شين"، و"دراسة إصلاحات كونفوشيوس للنظام"، و"التناغم العظيم" الذي لم ينشره، كل ذلك وضع الأسس الأيديولوجية للإصلاح، وفي ذلك الوقت الذي انضم إليه "ليانج تشي تشاو" من "شين هوي" بمقاطعة "جوانجدونج"، اجتاز "ليانج" الامتحان المدني الإمبراطوري على مستوى المقاطعات في سن السابعة عشرة، وذهب للفحص على المستوى الوطني في بكين في عام 1890م، لكنه فشل، وعند عودته، بدأ في قراءة الكتب الغربية والتقى أيضًا "كانج يوي"، الذي احترمه كمعلم له، وبدأ في الدفع نحو الإصلاح الرأسمالي، وأطلق مع "كانج"، "جونج تشي شانج شو" التي تعني حرفيًا "عريضة المركبات العامة"، مشيرًا إلى التقليد التاريخي لمرشحي الفحص الذين يسافرون مجانًا إلى الامتحانات في المركبات العامة.

عزا "كانج يوي" فشل حملة "جونجتشي شانجشو" إلى افتقار الناس إلى التنوير؛ لذلك أصر على ضرورة إدخال المعرفة الغربية إلى الصين، ومع "ليانج تشي تشاو"، بدأ مجلة تسمى "تقرير عام عن جميع البلدان" لوصف النظم السياسية والاقتصادية في الغرب، ثم قام مع العديد من الوزراء بتأسيس جمعية التقوية الوطنية في بكين، والتي أثبتت أنها ذات نفوذ كبير، إذ انضم حتى "تشانج تشي دونج" إليها، ولكن تم رفض "لي هونج تشانج" لكونه وقَّع على معاهدة "شيمونوسيكي"، وبدأ العديد من العلماء دوريات لتعزيز الإصلاح مستلهمين فكرة "كانج" و"ليانج"، واجتاحت المناقشات حول النظام السياسي البلاد، وفي مواجهة ذلك، دخل المحافظون أيضًا في النقاش، وروجوا أفكارهم الإقطاعية ضد الرأسماليين الإصلاحيين، كان الإصلاح تدريجيًا لا مفر منه، وكان مجرد مسألة وقت.

في عام 1897م، احتلت ألمانيا خليج "جياوتشو" في مقاطعة شاندونج، مسجلة بداية عملية تقسيم الصين بين القوى الأجنبية، وأصبحت الصين تواجه نهايتها الآن، اسميًا، كان الإمبراطور "جوانج شو" لا يزال الحاكم، ولكن السلطة الفعلية تكمن في أيدي الإمبراطورة الأرملة "تسيشي"؛ والآن، بدأ

الإمبراطور بدعم "كانج يوي"، وقد منع المحافظون إجراء مقابلة مع "كانج"؛ لذلك اضطر إلى اتخاذ الترتيبات اللازمة لخمس وزراء، من بينهم "لي هونجتشانج"، "رونجلو" و"وينج تونجهي"، للاجتماع مع "كانج" بدلًا من ذلك، وكرر "كانج" أن الإصلاح أمر حتمي، واتفق معه "وينج تونج هي"، معلم الإمبراطور، وبعد ذلك، طلب من "كانج" تقديم المذكرة الرسمية.

في يناير 1898م، قدم "كانج" "مسودة حول السياسة المتعلقة بالوضع العام"، وفي أبريل، أنشأ هو و"ليانج تشي تشاو" جمعية حماية البلاد، وفي مواجهة التهديد من القوى الغربية، اضطرت "تسي شي" لمجاراة التيار، وفي 11 يونيو 1898م، أصدر الإمبراطور مرسومًا إمبراطوريًا توجيهيًا لشؤون الدولة، وكان هذا بداية لإصلاحات المئة يوم، وفي 16 يونيو، تم تعيين "كانج يوي" سكرتير المكتب العام، مع امتيازات لتقديم المذكرات الرسمية الخاصة، وتم تعيين "يانج روي"، و"ليو جوانجدي"، و"لين شو"، و"تان سيتونج" للانضمام إلى المجلس الكبير لمساعدته في تنفيذ الإصلاحات، وصدرت المراسيم في مجالات التعليم والإدارة والصناعة والشؤون العسكرية، ففي مجال التعليم، شملت الإصلاحات إلغاء "المقال الثماني"، وتأسيس مدارس الترجمة والجامعة الإمبراطورية في بكين، وفي الإدارة، تمت إقالة الموظفين الزائدين وتم السماح للمسؤولين والعامة بتقديم المذكرات الرسمية، وفي الصناعة، كان من المقرر بناء السكك الحديدية، والتجارة التي سيتم تطويرها، ومكافأة الاختراعات، وعلى الرغم من أن الإصلاحات كانت مدعومة من الإمبراطور "جوانج شو"، فقد قاومها معظم المسؤولين، فكان جميع المسؤولين الإقليميين، باستثناء "تشين باو تشن"، حاكم "هونان"، في جانب "تسيشي"، وبحلول هذا الوقت، تراجعت "تسيشي" مؤقتًا إلى القصر الصيفي، لكنها ما زالت تسيطر على الأمور في البلاط، فقد رأت أن تقدم الإصلاحات مؤامرة للاستيلاء على سلطتها، وهذا في الواقع هو ما حاول "كانج يوي" وغيره من الإصلاحيين القيام به، وأصبحت الحركة صراعًا على السلطة بين الإمبراطور والإمبراطورة الأرملة.

في سياق ذلك، أجبرت "تسي شي"، في ثلاث مناسبات، الإمبراطور "جوانج شو" على إقالة "فنج تونج" الداعم للإصلاح من منصبه ونفيه إلى مسقط رأسه، الأمر الذي استنزف قوة الإصلاحيين، كما أنها جعلت "رونج لو" وهو من أتباعها الموثوقين، الحاكم العام لـ"تشي لي"، وأعطته قيادة بحرية "بي يانج"، وكان على كبار المسؤولين المعينين حديثًا أن يعربوا عن امتنانهم لـ"تسي شي"، وبهذه الطريقة كانت تمسك بزمام السلطة، وأضر النظام الجديد بمصالح المحافظين الذين تقدموا بشكاواهم إليها؛ لذلك بدأت "تسيشي" - التي كانت تنوي اتخاذ موقف الانتظار والترقب - بدعمهم، وأمرت "رونجلو" بإقالة الإمبراطور في انقلاب عسكري في أثناء تفقده القوات في "تيانجينج"، وفي 18 سبتمبر، أرسل "رونج لو" قوات إلى "تيان جينج" وبكين، فأرسل الإصلاحيون، وهم يرون الخطر، "تان سيتونج" للقاء "يوان شيكاي"، قائد الجيش في "تيان جينج"، وحثوه على حماية الإمبراطور في مراسم التفتيش، وافق "يوان شي كاي" على القيام بذلك، ولكن في الواقع كان لديه خطط أخرى: فقد كان مؤيدًا لـ"تسي شي"، وفي مساء يوم 21 سبتمبر، ظهرت أنباء عن إطلاق "تسي شي" لحملة مناهضة للإصلاح، فتم سجن الإمبراطور "جوانج شو" في "ينجتاي"، وتم التخلي عن النظام الجديد، وتم اعتقال بعض الإصلاحيين، وبعد هذا الحدث، أطلق على الإصلاح إصلاحات المئة يوم لأنها استمرت لمدة 103 أيام فقط.

غادر "كانج يوي" بكين في اليوم السابق على متن السفينة، ووصل إلى هونج كونج بأمان، ورافقته سفينة حربية بريطانية، في ما هرب "ليانج تشي تشاو" إلى البعثة اليابانية، لكن "تان سيتونج"، الذي كان يمكن أن يفلت، أقسم على الاستشهاد، معلنًا أنه لا يمكن أن يكون هناك إصلاح دون سفك دماء، كما تم اعتقال عشرات آخرين، قطعت رؤوس "تان سيتونج" و"يانج روي" و"لين شو" و"ليو جوانج دي" و"كانج جوانج رين" و"يانج شنشيو" في "تسايشيكو" في 28 سبتمبر 1898، وأصبحوا يعرفون باسم "سادة إصلاحات المئة يوم الستة ".

وألغيت معظم السياسات المعتمدة خلال الإصلاحات في ما بعد؛ وتم الاحتفاظ فقط بالجامعة الإمبراطورية في بكين، لكن الإصلاح كان رائدًا رغم ذلك، وأدى إلى وعي أكبر بكثير بين الشعب الصيني.

الموت المفاجئ لبلاط "تشينج"

في أوائل القرن العشرين، واجهت الصين تهديدات من الخارج ومن الداخل، وأصبحت "تسيشي"، بعد الأزمة في عام 1900م، أكثر اضطرابًا، وللحفاظ على موقعها، كان عليها إصدار مرسوم باسم الإمبراطور "جوانج شو" في 29 يناير 1901م، حيث أعلنت عن صفقة جديدة للجيش والسياسة والثقافة والاقتصاد.

والجانب المهم من هذا هو تشكيل وتدريب الجيش الجديد بنفقات عالية، وتم اعتماد الهيكل والمعدات وأساليب التدريب الغربية، وكان معظم الضباط قد درسوا في الخارج أو تدربوا في الأكاديميات العسكرية الصينية.. تم تطبيق معايير أكثر صرامة للتعيين، بناءً على العمر، والصحة، والخلفية التعليمية، وفي حين كان الجيش الجديد بلا شك قوة أصلد بكثير من الجيش السابق، فقد أصبح تحت سيطرة "يوان شيكاي"، وكان هناك أيضًا ثوار بين الجنود، وبعضهم أصبح مفتاحًا للإطاحة بأسرة "تشينج".

كما خفضت الصفقة عدد الإدارات والمسؤولين الحكوميين، وقضت على بعض الضرائب، والتي، على الرغم من نواياها الجيدة، أثارت المزيد من الصراع داخل الطبقة الحاكمة. وشملت التغييرات الأخرى تنقيح القانون الجنائي، وإلغاء بعض العقوبات الجسدية الأكثر وحشية، وخلال هذه الإصلاحات، اكتشفت حكومة "تشينج" النقص في المواهب؛ لذلك تم التخلي عن نظام الامتحانات المدنية الإمبراطورية، وافتتحت مدارس جديدة الطراز وأرسل الطلاب للدراسة في الخارج.

كانت الإصلاحات الأكثر جدارةً بالثناء هي الإصلاحات الاقتصادية، فقد أصدرت حكومة "تشينج" سلسلة من السياسات التي خلقت حوافز للصناعة،

وعززت تنمية الصناعات الوطنية والتجارة.

في عام 1904م، بعد تنفيذ الصفقة الجديدة، اندلعت الحرب الروسية اليابانية؛ فعندما هزمت اليابان، وهي دولة جزرية صغيرة، روسيا القوية، صُدمت حكومة "تشينج"، ولكن بعد ذلك توصلوا إلى استنتاج مفاده أن هذا يرجع إلى أن الملكية اليابانية كانت دستورية، بينما كانت روسيا ملكية مطلقة، وهنا انطلقت النداءات لتصبح الحكومة ملكية دستورية، حتى أن "تسيشي" رأت أن هذا يمكن أن يعزز حكمها ويمحو الثوار؛ لذلك في سبتمبر 1905م، تم إرسال خمسة وزراء إلى الخارج للتحقيق في الأنظمة الدستورية، وقضوا نصف عام في السفر في 15 دولة، وعند عودتهم، كانوا ممتلئين بالثناء على الدستور، حيث قدموا تقارير إلى "تسيشي" بأنه يمكن بالتأكيد تعزيز حكم الإمبراطور، وتثبيط كل من العدوان الخارجي وأعمال الشغب الداخلية.

في 1 سبتمبر 1906م، أعلنت حكومة "تشينج" بدء الإجراءات التحضيرية لتصبح ملكية دستورية، بحجة أن الوقت لم يحن بعد لتطبيقها بشكل فعلي، ومع ذلك، لم تتم الإشارة إلى المدة التي تستغرقها هذه الإجراءات، وهذا جعل الدستوريين غير مرتاحين؛ لأنهم اعتقدوا أن البلاط كان يماطل ببساطة. وفي الثاني من سبتمبر، بدأت الإصلاحات.

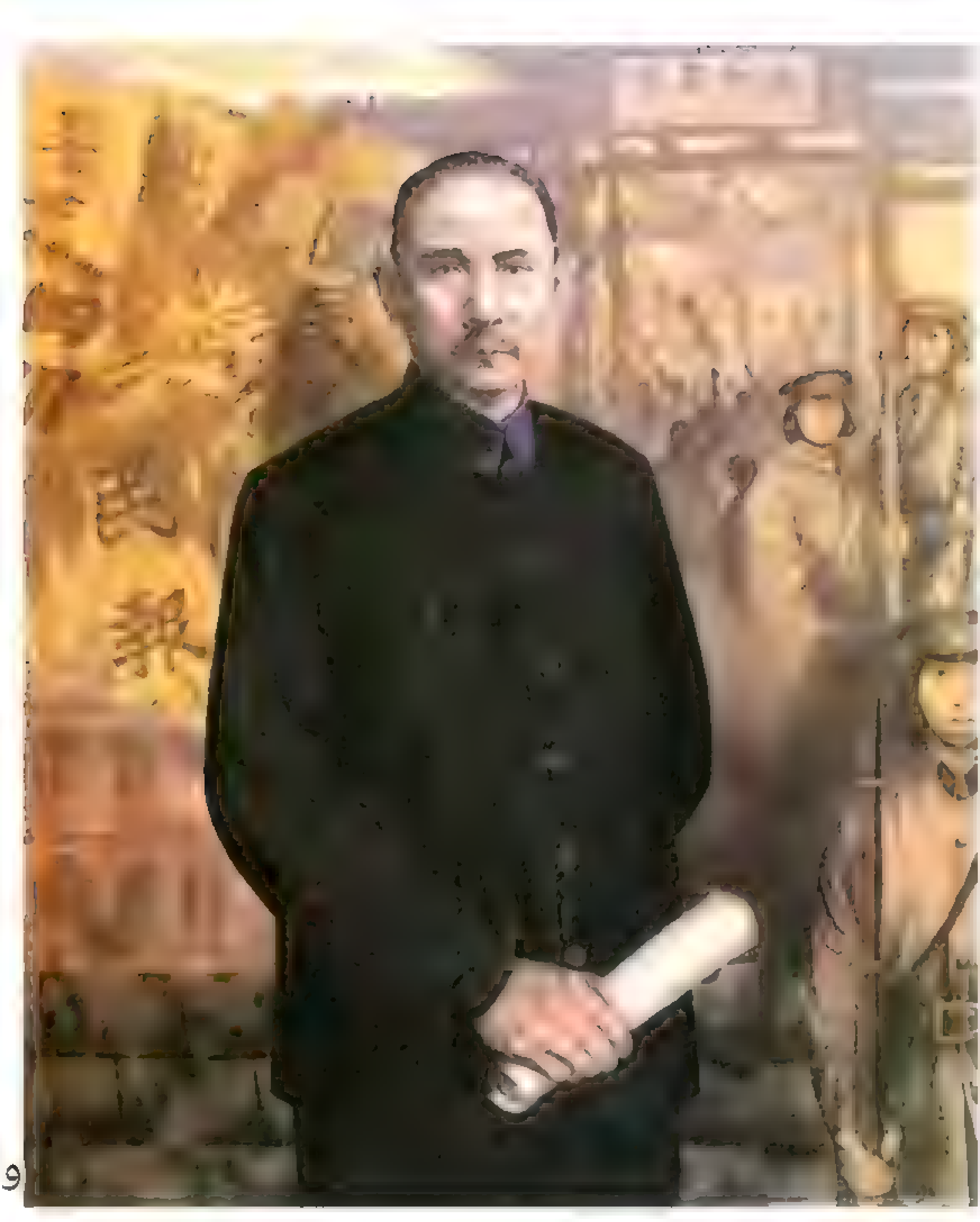
وكان وزراء الإدارات، الذين كانوا في الأصل يتساوون في أعداد المانشو والهان، يتألفون الآن من تسعة من المانشو وأربعة من الهان، وأصبحت السلطة على بعض المجالات المهمة أي الدبلوماسية، شؤون الجيش، الزراعة، الصناعة، والتجارة في ما بينها الآن تحت سيطرة أرستقراطيي المانشو، وهكذا أعاقت الإصلاحات سلطة البيروقراطيين الهان والمحافظين المدنيين والعسكريين المحليين وقوّت حكم المانشو، مما أثار المزيد من الصراع داخل حكومة "تشينج".

في عام 1908م، أجبرت الاضطرابات المتزايدة الحكومة على إعلان أنها

ستعتمد الملكية الدستورية في غضون تسع سنوات، على أن يتم تأسيس الجمعيات الإقليمية في عام 1909م وأن يتم تأسيس المجلس الاستشاري المركزي في عام 1910م. وفي الوقت نفسه، تم الإعلان عن الدستور الإمبراطوري باسم الإمبراطور "وانج شو"؛ لذلك كان يطلق عليه أيضًا المخطط التفصيلي للدستور الإمبراطوري، وتكون من جزأين: حقوق الإمبراطور وحقوق وواجبات الأشخاص، رغم أنها كانت أول وثيقة دستورية في تاريخ الصين، فإنها كانت محافظة إلى حد ما؛ لأنها ما زالت تمنح السلطة العليا للإمبراطور للحفاظ على الاستبداد الإقطاعي، كما تم إنشاء قائمة تفصيلية حول الاستعدادات لوضع الدستور، مع إدراج المسائل التي يتعين إبرامها على مدى فترة السنوات التسع التحضيرية، وعلى الرغم من أن وفاة الإمبراطور "وانج شو" والإمبراطورة الأرملة "تسيشي" في عام 1908م أثارت الاضطرابات السياسية، فإن هذه الاستعدادات مضت ببطء.

وفي 8 مايو 1911م، تمت صياغة النظام الرسمي واللوائح المؤقتة لمجلس الوزراء والموافقة عليه من بلاط "تشينج"؛ وفي اليوم نفسه تم تعيين وزير الدولة وتم تشكيل الحكومة المسؤولة، وكان تسعة من ثلاثة عشر في مجلس الوزراء من المانشو؛ سبعة من أفراد العائلة المالكة وأربعة فقط كانوا من الهان؛ لذلك كانت تعرف أيضًا باسم "الحكومة الملكية".

كانت الحكومة المسؤولة هي المفتاح للملكية الدستورية، وبدا أنها تمثل خطوة هائلة إلى الأمام. ومع ذلك، كانت ملكية في جوهرها؛ لأن معظم أعضائها كانوا من العائلة المالكة، وبعد كل عملهم الشاق، أصبح مؤيدو الدستور والجمهور الصيني محبطين، وبدأ بعض الدستوريين بدعم الثوريين الذين سعوا للإطاحة بحكومة "تشينج". والحقيقة هي أنه الآن، كما كانت حكومة "تشينج" تتخذ إجراءات لإنقاذ نفسها، كانت الثورة تنمو على نطاق مذهل، وكان قائدها "صن يات سن".



ولد "صن يات

سن"، الذي كان اسمه أصلًا "صن ون"، في عام 1866م لعائلة فقيرة من

المزارعـــين فـــي قريـــة "تســـويهينج" بمقاطعـــة "شـــيانجشان" بمقاطعـــة

"جوانجدونج"، وبالتالي تعاطف مع المزارعين والطبقة الدنيا (انظر الشكل 32).

الشكل (32): بورتريه لـ"صن يات سن".

وفي عام 1892م، تخرج بجدارة في كلية هونج كونج للعلوم الطبية الغربية، وفي عام 1894م، ترك ممارسة الطب في "جوانج تشو" وعاد إلى مسقط رأسه لصياغة عريضة إلى "لي هونجتشانج"، حيث وضع أفكاره لتحديث الصين من خلال الاستخدام الحكيم للموارد البشرية والأراضي والموارد الطبيعية، وعن طريق التجارة الحرة، لكن أفكاره فشلت في جذب انتباه "لي"، وتلاشى خياله عن الإصلاح السلمي، ومنذ ذلك الحين تحول نحو الثورة؛ ففي نوفمبر 1894م، تأسست جمعية إحياء الصين في "هونولولو" برئاسة "صن يات سن" وحضرها أكثر من عشرين شخصًا.

كانت أهدافه "طرد المانشو وإحياء الصين وإنشاء حكومة موحدة"، وكانت أول منظمة ثورية رأسمالية في تاريخ الصين الحديثة، وأثارت كفاحًا مسلحًا ضد المانشو.

بعد ذلك، خطط "صن يات – سن" والثوريون الآخرون للانتفاضة في "جوانج تشو"، ومع ذلك، تسربت الخطة واتخذت حكومة "تشينج" إجراءات فورية؛ فقبض على العديد من الأشخاص، بمن فيهم "لو هودونج"، أحد زملاء "صن يات - سن"، وتم إعدامهم في ما بعد، لكن تضحيتهم كانت السبب وراء اندلاع الثورة. وفي عام 1905، شكّل "صن يات - سن" و"هوانج شينج" وغيرهما أول حزب ثوري، وهو التحالف الثوري الصيني، الذي يُعرف غالبًا في الغرب باسمه الصيني، "تونج مينج هوي"، وكانت "مين باو" (جريدة الشعب) جريدته الرسمية، وفي العدد الأول، لخص "صن يات - سن" أهداف التحالف بـ"مبادئ الشعب الثلاثة" وهي القومية والديمقراطية ومصدر الرزق.

في غضون ذلك، كان الإصلاحيون مثل "كانج يوي" ينشرون أفكارهم حول الدستور، وناقش الطرفان، باستخدام صحيفتيهما "مين باو" و"شينمين كونجباو" كساحتين للمعارك، اتجاه الصين -إما للإطاحة بحكومة "تشينج" بالقوة، وإما لإنشاء جمهورية-، وما إذا كان سيتم تغيير نظام ملكية الأراضي الإقطاعية.. من خلال هذا النقاش، أصبحت أفكار الثوريين واسعة الانتشار، وتم تهميش الإصلاحيين، وفي الوقت نفسه، سارع التحالف الثوري الصيني إلى تسريع أنشطته المناهضة لـ"تشينج"، وهكذا فقد صدر الحكم على أسرة "تشينج" بالدمار.

صعود الجمهورية

تحت ستار "الحفاظ عليها"، استولت القوى الأجنبية في الصين على الصناعات الرئيسة، بما في ذلك السكك الحديدية والتعدين، ومارست ضغوطًا شديدة، فأجبروا الحكومة على تأميم السكك الحديدية والتوجه إلى المقرضين

الأجانب للمساعدة في بنائها، وفي 20 مايو 1911م، وقَّع "شنجشوانهواي"، نيابةً عن حكومة "تشينج"، اتفاقية قرض في بكين مع "تحالف القوى الأربع"، الذي شمل بنوك بريطانيا وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة، ومنحهم الحقوق لتشغيل السكك الحديدية بين "كانتون - هانكو" و"سيتشوان - هانكو" في مقابل الحصول على قرض ضخم.

عندما وصلت أخبار الصفقة إلى "سيتشوان"، كان الناس غاضبين، وفي أواخر مايو من ذلك العام، أرسلت جمعية مقاطعة "سيتشوان"، وشركة "سيتشوان – هانكو" للسكك الحديدية، ومجلس إدارة سكة حديد "سيتشوان – هانكو" إلى حاكم "سيتشوان"،"وانج رينوين"، طالبين منه إلغاء الأمر، لم يكن هناك رد، مما زاد أكثر من السخط الشعبي؛ تصاعدت الحركة عندما تم الكشف عن محتوى مفصل لاتفاقية القرض.

وفي 17 يونيو، تم تأسيس رابطة "سيتشوان" لحماية السكة الحديدية، وكان هدفها هو "التوقف عن الاقتراض من الأجانب، وإلغاء الاتفاقية الموقعة وحماية حقوق السكك الحديدية"، مما يمثل مرحلة جديدة ومنظمة بشكل أفضل في الحركة الثورية.

في البداية، حاول الدستوريون تقييد الحركة للمعارضة السلمية، ومع ذلك، تم تعيين "تشاو إيرفينج" الشهير، المعروف باسم "الجزار"، حاكمًا لـ"سيتشوان"، وبدأ في اتخاذ إجراءات صارمة ضد رابطة حماية السكك الحديدية، وفي 7 سبتمبر، أصدر أوامر بإقالة أعضاء رابطة حماية السكك الحديدية، وإغلاق شركة سكة حديد "سيتشوان - هانكو"، وحظر الصحف والمجلات المؤيدة للحماية، وأعقب ذلك احتجاج هائل، أمر فيه "تشاو إيرفينج" القوات بفتح النار على المتظاهرين العزل؛ وكانت هناك اثنان وثلاثون حالة وفاة وإصابات لا حصر لها، وهي مأساة عرفت باسم "سفك الدماء في تشينجدو".

وسارعت القوات الثورية الغاضبة من جميع أنحاء البلاد للرد، وسار 200 ألف

شخص في "تشينجدو"، وطلب "تشاو إيرفينج" المساعدة، وأرسل بلاط "تشينج" على الفور قوات من ست مقاطعات من بينها "هونان" و"هوبي"، وقد وفر ذلك فرصة مثالية للثوريين في "ووهان" في مقاطعة "هوبي" للثورة.

كان "وو تشانج" من "ووهان" في ذلك الوقت على حافة التمرد، وفي 24 سبتمبر، في المبنى رقم 11 في شارع روج، قامت مجموعتان ثوريتان محليتان، وهما الجمعية الأدبية والجمعية التقدمية، بعقد مؤتمر برئاسة "صن وو" لمناقشة حشد القوى الثورية، كما تقرر أن يتم تنظيم انتفاضة في "هونان" و"هوبي" في نفس الوقت في 6 أكتوبر، ومع ذلك تم التأجيل إلى 16 أكتوبر بسبب الأمور التنظيمية.

وفي 9 أكتوبر، انفجرت قنبلة عن طريق الخطأ عندما كان بعض الثوار يصنعونها في شارع "باوشانلي" في منطقة امتياز "هانكوك" الروسية، وكشف هذا عن وجودهم، وتسربت خطط الانتفاضة، فبدأ الحاكم العام لـ"هوجوانج"،"رويتشينج"، في تعقب واعتقال ثوار "ووهان" الذين لم يكن لديهم في ذلك الوقت خيار سوى القيام بانقلاب استباقي، وفي 10 أكتوبر، في الساعة 8 مساءً، نظمت وحدة من الجيش الجديد التمرد الأول من انتفاضة "ووتشانج"، وبحلول يوم 12 أكتوبر، وقعت كل من "ووشانج" و"هانكو و"هانيانج" في أيدي الثوريين، وأُنشئت حكومة "هوبي" العسكرية وأُعيد تسمية البلد باسم جمهورية الصين، وفي غضون شهرين فقط، أعلنت أربع عشرة مقاطعة من أصل 18 مقاطعة في الصين استقلالها وأقامت حكوماتها العسكرية الخاصة، مما كان علامة على انهيار أسرة "تشينج".

قدم هذا لـ"يوان شيكاي" الذي كان يتربص في الظلام لفترة طويلة فرصة للعودة، ووفقًا لصحيفة "تشاينا بريس" البريطانية، كان هو الشخص الوحيد الذي يمكنه التعامل مع توازن القوة الحساس بين الثوريين وجيش "تشينج"، ويمثل بصيص الأمل الأخير لبلاط "تشينج" وفي 1 نوفمبر، وافق بلاط "تشينج" على استقالة "يي كوانج" وخلفه "يوان شيكاي" كرئيس للأمانة

الكبرى، وأُمر بالذهاب إلى بكين لتشكيل الحكومة، وهو ما فعله في 13 نوفمبر.

كان الدستوريون عاجزين الآن عن إنقاذ أسرة "تشينج" الحاكمة، وأصبحوا ثوريين، بينما عزز "يوان شي كاي"، الذي استولى على الحقوق العسكرية والسياسية، قوته الخاصة، وفي نهاية نوفمبر، بعد سقوط "هانيانج" استعد لقيادة جيش "بييانج" في هجوم على "وو تشانج"، مما أجبر الثوريين الجمهوريين على التفاوض معه، وقد عقدت هذه المفاوضات في 11 ديسمبر في شانجهاي، وحضرها "تانج شاوي" بصفته مبعوث "يوان شيكاي" و"وو تينجفانج" بالنيابة عن الثوريين، وفي هذه الأثناء، دعت بريطانيا والولايات المتحدة بقوة إلى السلام، وتحت ضغط من الداخل والخارج، تعرض الثوار للخطر، ووعد الدكتور "صن يات - سن" بالسماح لـ"يوان شيكاي" أن يصبح رئيسًا للجمهورية الجديدة مقابل دعم "يوان" وتنازل الإمبراطور.

في هذه الأثناء، كان الثوريون يسرعون في إنشاء الجمهورية، وفي 29 ديسمبر، في جنوب الصين، تم انتخاب "صن يات - سن" كأول رئيس مؤقت لجمهورية الصين، وأدى اليمين الدستورية في "نانجينج" في 1 يناير 1912م، وعند سماع ذلك، غضب "يوان شيكاي" وأوقف المفاوضات، ووعد "صن" بمنح "يوان" مركزه إذا استطاع أن يجبر الإمبراطور على التنازل عن العرش دون أن يتسبب في حرب أهلية؛ لذلك دفع "يوان شيكاي" بجد من أجل التنازل عن العرش في اجتماع كان قد أعد له بشكل جيد، بعد أن رشى الخصيان الذين يخدمون الإمبراطورة الأرملة "لونجيو"، وقال إنه أقنع حكومة "نانجينج" بعدم قتل أي من أفراد الأسرة الإمبراطورية، وتوفير شروط لصالحهم، وثقت فيه الإمبراطورة الأرملة، وأذنت له بالتفاوض على موعد التنازل، بعد ذلك، تجنب "يوان" بلاط "تشينج"، وفي 12 فبراير 1912م أصدر إعلانًا يحمل جميع توقيعات أعضاء مجلس الوزراء، معلنًا أن الإمبراطور قد تخلى رسميًا عن العرش، وانتهت الآن أسرة أسرة"تشينج" التي حكمت الصين لمدة 268 عامًا.

وفي 15 فبراير 1912م، تم انتخاب "يوان شيكاي" رئيسًا مؤقتًا لجمهورية

الصين في سبع عشرة مقاطعة في مؤتمر نظمه مجلس الشيوخ المؤقت في "نانجينج"، وأدى اليمين الدستورية في 10 مارس من ذلك العام، وفي 1 أبريل، استقال "صن يات - سن".

الخاتمة

وهكذا انتهت الإمبراطورية الصينية.. كانت هناك محاولة موجزة لإحيائها في عام 1915م عندما أعلن "يوان شيكاي" نفسه إمبراطورًا وكان "الإمبراطور الأخير"، وعندما حاول "بويي"، الرئيس الفخري للدولة اليابانية "مانتشوجو" (مانتشوكو) في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، ولكن بعد عام 1912م، كان هذا العصر هو عصر الجمهورية، ولم تكن جمهورية الصين التي ترأسها "يوان" ناجحة، فبعد وفاته في عام 1916م انهارت وتفككت الصين إلى مجموعة من الولايات المتحاربة، وشكل زعماء الحرب التحالفات لكنهم قاتلوا بعضهم بعضًا في سلسلة من الحروب الأهلية الفوضوية.

توفي "صن يات - سن" في عام 1925م وتدخل "تشيانجكاي تشيك" ليقود حزب الكومينتانج (الحزب القومي الصيني) في مهمة لإعادة توحيد الصين في ظل جمهورية تشكلت حديثًا، وقد نجح هذا جزئيًّا في عام 1927م، ولكن فقط قبل أن يتحول "تشيانج" إلى حلفائه السابقين الشيوعيين.

اندلعت الحرب الأهلية مرة أخرى، هذه المرة بين القوميين والشيوعيين، وعندما بدأت اليابان غزو الصين على نطاق واسع في عام 1937م كان هناك تحالف مؤقت ضد الغزاة ولكن الصراع بدأ مرة أخرى بعد هزيمة اليابان في عام 1945م، وقد فاز الحزب الشيوعي الصيني بهذه المرحلة من الحرب التي أنشأت كيانًا سياسيًّا جديدًا، وهو جمهورية الصين الشعبية.

هوامش

[←1]

()- مترجم ومتخصص في الشأن الصيني، دكتوراه في علم الإثنولوجيا، وحاصل على جائزة الدولة الصينية للإسهام المتميز.

[←2]

-()يعزى تاريخ "إنسان بكين" إلى ما بين 600.000 سنة و800.000 سنة مضت، إلا أن فحصًا أجري عام 2009 يزعم أن التاريخ بالتحديد هو 750.000 سنة.

[←3]

-() يشار أحيانًا إلى هذه الرواية عن دولة "لو" (722 – 463 ق.م) باسم "تزو تشوان" ("تعليقات تزو" أو "تراث تزو") وهناك جدال أكاديمي حول اعتبارها تعليقًا على "حوليات الربيع والخريف" أو نصًّا قائمًا بذاته.

[←4]

-() حوليات الخيزران هو نص مثير للجدل يروي حكايات الأباطرة القدماء من أيام الإمبراطور الأصفر مرورًا بأسر "شيا" و"شانج". وقد يعود زمن كتابته إلى العصور القديمة ولكن النسخة الأصلية اختفت خلال عهد أسرة "سونج" وأصبح على الدراسات الأكاديمية الحديثة أن تعتمد على نسخة مطبوعة في القرن السادس عشر من عهد أسرة "مينج" وتمت إعادة تكوينها اعتمادًا على الشذرات المنقولة عنها في النصوص الأخرى.

[←5]

-() افترض أنهم يتبعون عادات الأقليات أو القبائل الأصلية.

[←6]

-() "لي" وحدة قياس صينية قديمة لقياس المسافات وتساوي نصف كيلومتر.

[7←]

-() تعني الكلمة المقابلة لـ coolie (苦力) في الصينية حرفيًا "قاسٍ جدًّا (استخدام القوة)"، والذي يشير إلى الرجال الذين يبيعون عملهم الشاق مقابل العيش، وخلال الفترة المتأخرة من فترة "تشينج"، تم نقل العديد من العمال الصينيين الممتازين من الموانئ التجارية بشكل رئيسي إلى أمريكا وجنوب شرق آسيا، تم خداع معظمهم أو اختطافهم؛ كانت رحلاتهم عبر القارات غير إنسانية وخطيرة، ومات كثير خلال رحلاتهم أو تحت ظروف عمل قاسية.

[8←]

-() فيلق الأسلحة الأجنبية في "شانجهاي" هي مجموعة صغيرة من المرتزقة بقيادة الأمريكي "فريدريك تاونسند وارد" وتدعمها حكومة "تشينج"، مع توجه جيش الـ"تاي بينج" نحو شانجهاي، تحولت الحكومة المحلية والأجانب إلى مثل هذه الأسلحة إما للدفاع عن إدارتها أو تجارتها، وسمت حكومة "تشينج" في ما بعد الفيلق بـ"الجيش المنتصر للأبد" ومنحت الألقاب الرسمية لـ"وارد" لأدائه المرضي.